

الألف
كتاب
٢٥٨

إدوارد جيبون

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول



Bibliotheca Alexandrina
0115379

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

محسنة عطية

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول

تأليف إدوارد جيبون
ترجمة محمد علي أبودرة

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية المختصر كتاب

*EDWARD GIBBON'S
DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE*

الذي أعده

D. M. Low

فهرس

(الفصل الثامن والتاسع حذفاً من الطبعة المختصرة لتتقدم معلوماتهما)
الموضوع * الصفحة

٩	مقدمة الطبعة العربية الأولى
٢٩	مقدمة الطبعة الانجليزية
٣٩	اعتراف بالفضل

العصر الذهبي للأنطونيين

٤٣	تمهيد
----	-------

الفصل الأول (٩٨ - ١٨٠ م)

٤٨	امتداد الامبراطورية الرومانية
٥٥	فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية

الفصل الثاني (٩٨ - ١٨٠ م)

٥٦	الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية
٦٢	الولايات
٦٨	الآثار الرومانية
٧٥	تحسين الزراعة

الفصل الثالث (٩٨ - ١٨٠ م)

٨٢	دستور الامبراطورية الرومانية
٩٠	فكرة عامة عن النظام الامبراطورى

الموضوع	الصفحة
تحدى النظام القديم	
الفصل الرابع (١٨٠ - ١٩٢ م)	
عصر كومودس	١٠٢
نمو الاوتوقراطية العسكرية وتدفق الروح الشرقية	
الفصل الخامس (١٩٣ - ١٩٧ م)	
البريتوريون يبيعون الامبراطورية	١١٧
سبتموس سيفيروس	١٢١
الفصل السادس (٢١١ - ٢٣٥ م)	
اسرة سيفيروس	١٢٦
كاراكلا وجيتا	١٢٩
الاجبابالوس	١٣٦
الاسكندر سيفيروس يتولى العرش	١٣٩
تفكك الامبراطورية	
الفصل السابع (٢٣٥ - ٢٤٨ م)	
امبراطور من المتبردين	١٤٧
الجورديانيون	١٥٤
فيليب العربى	١٦١
الفصل العاشر (٢٥٣ - ٢٦٨ م)	
الكوارث العامة فى عهد فاليريان وجالينوس	١٦٣
غارات القوط	١٦٨
غزو الفرس لأرمينيا ، وأسر فاليريان	١٧٥
الحسان المد	
الفصل الحادى عشر (٢٦٨ - ٢٧٥ م)	
زنوبيا ومملكة تدمر	١٨٩
انتصارات اوريليان ووفاته	١٩٦

الصفحة

الموضوع

النظام الامبراطورى الجديد

الفصل الثالث عشر (٢٨٥ - ٣١٣ م)

٢٠٥	• • • • •	حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة
٢٠٩	• • • • •	انتصاره ونظامه الجديد
٢١٤	• • • • •	نشوء مراسم البلاط
٢١٦	• • • • •	اعتزال دقلديانوس ووفاته
٢٢١	• • • • •	اضمحلال الفنون

الفصل الرابع عشر (٣١٥ - ٣٢٣ م)

٢٢٤	• • • • •	قسطنطين فى روما
٢٢٦	• • • • •	اصلاحاته التشريعية

ظهور المسيحية

الفصل الخامس عشر

٢٢١	• • • • •	خمسة اسباب لنمو المسيحية
٢٧٥	• • • • •	الظروف المواتية لتقدمها
٢٨٢	• • • • •	اعداد المسيحيين الاولين واحوالهم

الفصل السادس عشر (٢٥٨ - ٣١٣ م)

٢٨٨	• • • • •	سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين
٢٩٦	• • • • •	موقف الاباطرة من المسيحيين
٣١٠	• • • • •	استشهاد سبيريان
٣١٥	• • • • •	تنوع سياسة الازهاب
٣٢٣	• • • • •	الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه
٣٣٥	• • • • •	مرسوم جالوريوس للتسامح

الاتجاه نحو الشرق

الفصل السابع عشر (٣٢٤ - ٣٣٤ م)

٢٤٥	• • • • •	روما الجديدة
٣٥٠	• • • • •	تأسيس القسطنطينية
٣٥٦	• • • • •	تدشين القسطنطينية
٣٥٦	• • • • •	نظام الحكومة الجديد
٣٥٨	• • • • •	القناصل والبطاركة (النبلاء)

الموضوع	الصفحة
رؤساء الحرس • البروقنصل • الحكام	٣٦١
وزراء القصر السبعة	٣٦٧
بدء الدولة البوليسية	٣٧٢
الفصل الثامن عشر (٣٢٤ - ٣٣٧ م)	
شخصية قسطنطين	٣٧٥
أسرة قسطنطين	٣٧٨
وفاة قسطنطين	٣٨٥
نهوض فارس في عهد شايبور الثاني	٣٨٨
الفصل التاسع عشر (٣٥٥ - ٣٥٩ م)	
عهد جوليان	٣٩٠
الادارة المدنية في الغال	٣٩٢
حبسه لمدينة باريس	٣٠٤
الاعتراف بالمسيحية • بداية الهرطقة	
الفصل العشرون (٣٠٦ - ٣٣٧ م)	
تحول قسطنطين الى المسيحية	٣٩٩
مرسوم التسامح	٤٠٢
رؤيا قسطنطين	٤٠٧
تعميد قسطنطين	٤١٢
اقرار المسيحية بمقتضى القانون	٤١٦
التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية	٤١٨
الفصل الحادى والعشرون	
مذهب آريوس	٤٣٠
مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة	٤٣٣
الاباطرة والجدل حول مذهب آريوس	٤٣٨
اخلاق اثناسيوس ومغامراته	٤٤٥
مجالس آزل وميلان	٤٥٣
الطابع العام للطوائف المسيحية	٤٦١

مقدمة الطبعة الأولى العربية

صدر كتاب ادوارد جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، أى أنه قد أوشك أن ينقضى على ظهوره لأول مرة نحو قرنين من الزمان ، ومع ذلك ظل حتى يومنا هذا ، يحتل بين أسفار التاريخ وذخائر الأدب مكانا ملحوظا ، فكم أعيد طبعه كاملا أو مختصرا في مجموعة من المجلدات أو في مجلد واحد ، كما ترجم الى معظم اللغات الأوربية ، وكم علق عليه النقاد والمؤرخون ، وكم رجع اليه الباحثون واستقى منه الدارسون !!

تعريف بالمختصر :

والكتاب الذى نضعه اليوم بين أيدي قراء العربية ترجم عن مختصر في ثلاثة مجلدات أصدره في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٦٠ الدكتور د. م. لو D. M. Low الذى كان محاضرا في الدراسات القديمة بجامعة لندن . ثم أعيد طبعه فى ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ فى مجلد واحد يضم نحو ألف من الصفحات ، وأوضح في مقدمته التى أثبتناها بنصها ، النهج الذى سار عليه في مختصره هذا ، والحق أنه التزم فيه جانب الحكمة والدقة ، فهو لم يغير كلمات المؤلف وإنما حذف من الأصل فصولا برمتها رأى أن حذفها لا يؤثر في السياق العام لفكرة جيبون أو منهجه في كتابه ، ولا ينتقص من قيمة موضوعه بصفة عامة ، لأن هذه الفصول المحذوفة تعالج تفصيلات قد لا تهتم القارئ العام ، كذلك حذف صاحب المختصر أجزاء قليلة من الفصول التى أبقت عليها في مختصره ، وفي الوقت نفسه أوجز المحذوف في سطور قليلة أبقت عليها الترجمة العربية في مواضعها .

ولما كان من العسير أن نفصل التاريخ عن مؤلفه أو المؤلف عن عصره .. فيجدر بنا أن نلم أولا بسيرة حياة ادوارد جيبون والعوامل التي شكلت شخصيته وأثرت في كتاباته . والجدير بالذكر أن جيبون دون سيرة حياته وخطبات نفسه في كتاب آخر له : « مذكرات عن حياتي وكتاباتي Memoirs of my Life and Writings » ، وفيه الكثير مما يشوق القارئ ، ومما يدعو الى الاعجاب ، وما يمكن أن تكون فيه عظة وعبرة .

نشأة جيبون :

ولد ادوارد جيبون في ٢٧ ابريل ١٧٣٧ في بلدة بتنى Putney في مقاطعة سري Surrey بجنوب انجلترا من أسرة غنية عريقة نشأت أصلا في بلدة رولفندن Rolvendon بمقاطعة كنت Kent وكان أبوه آنذاك عضوا في البرلمان الانجليزي ، ويشير مؤرخنا الى مولده فيقول : « خليقي بي أن أذكر ما حبتني به الطبيعة ، فقد ولدت في بلد تزدهر فيه الحضارة ، في عصر يشع فيه نور العلم والمعرفة ، في أسرة ذات مكانة رفيعة ابتسم لها الحظ » ، وكان ادوارد جيبون الأخ الأكبر لخمس من الأخوات وأخ واحد ، ماتوا جميعا في سن الطفولة . أما هو فكان حتى السادسة عشرة من عمره ضعيف البنية هزيل الجسم الى درجة غير عادية ، غالبا ما انقطع معها الرجاء في بقاءه على قيد الحياة . ومن أجل ذلك تعثر في دراسته الاولى ، وكثيرا ما أقمده المرض عن مواصلة تعليمه في انتظام أو عن مواظبته على مقاعد الدرس ، وهنا تبرز منذ اللحظة الاولى أروع عبرة في حياته ، تلك هي أنه علم نفسه بنفسه ، وبني مجده وشهرته بجهوده وحدها ! .

حياته الدراسية ، ولعه بالقراءة :

بدأ جيبون تعلم القراءة والكتابة والحساب في البيت ، ثم بدأ تعلم اللاتينية على يد مدرس خاص اسكتلندي اسمه جون كيركبي ، ولما بلغ الثامنة من عمره التحق لأول مرة بمدرسة بتنى ، ثم انتقل منها في العام التالي الى مدرسة داخلية هي مدرسة كنجزتن على نهر التيمز وعكف على دراسة اللغة اللاتينية ، ولكنه لا يتحدث في ابتهاج عن دراسته ولا عن المدرسة نفسها فهو يقول في مذكراته : « لقد اشتريت معرفة النحو اللاتيني بثمن باهظ من دموع ذرفت ودماء نزلت » ، وأولع في هذه المدرسة بقراءة ترجمة الشاعر بوب Pope لأعمال هوميروس وترجمة درايدن Dryden لأعمال مرجيل ، كما قرا كتاب ألف ليلة

وليلة مترجما الى الانجليزية ، ولكنه لم يمكث في هذه المدرسة أكثر من عام فقد توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه الى مقاطعة هامشير Hampshire .

فضل خالته عليه :

وبقى جيبون في بيت جده لأمه ، تحت رعاية خالته كاترين بورتن Catherine Porten ويبدو أنه في العامين اللذين قضاها في كنف هذه الخالة العزيزة زاد ولعه الشديد بالقراءة ، ذلك الولع الذي لازمه وملك عليه نفسه طوال حياته ، مستفيدا الى اكبر حد من مكتبة جده ، وشجعته خالته على ذلك ، وهو نفسه يعترف بأن هذه الفترة تميزت « بأنها اقترنت بأعظم التوفيق في نمو عقله وفكره » ، وانه ليوفى هذه الخالة حقها فيقول : « انى مدين لها ببقائى على قيد الحياة ، وبتحسن صحتى في باكورة أيامى ، فقد كنت طفلا هزيلا أهملته أمه ، وغفلت مربيته عن تغذيته ، وأولته من الرعاية اقلها ، حتى لم يكن يرجى من وجودها الى جانبه اى خير ، ولولا سهر هذه الخالة الكريمة ويقلتها وعنايتها — وتلك مظاهر الأمومة الحققة — اكننت اليوم رهين الثرى ، او لعشت معتلا كسيحا ، شقيا سييء الخلق ، ولأصبحت عبئا ثقيلا على نفسى وعلى الناس ، وبفضل توجيهاتها رضعت اول مرة لبان المعرفة ، واملت العقل ، وتذوقت القراءة التى لا تزال اكبر متعة لى في حياتى ودعامة مجدى . انى لم أتلقن عنها اللغة او العلوم ، ولكنها وأيم الحق ، أكثر من لقيت من المعلمين نفعا » .

وفي أواخر سنة ١٧٤٨ انشأت هذه الخالة بيتا يقيم فيه طلاب مدرسة وستمنستر بلندن فكانت تديره بنفسها ، فرافقها جيبون والحق بالمدرسة ذاتها في يناير ١٧٤٩ ، ولكن ما لبث ان عاوده المرض والهزال فاربسته خالته للاستشفاء تارة في مدينة باث وتارة اخرى في مدينة ونشستر ، وتنقل من معلم الى معلم بل من طبيب الى آخر ، ولكن بقيت الكتب معلمه الأول والأخير ، وازداد غرامه بالتاريخ ، وتفلحت شهيته للاستزادة منه ، فجال فيه وصال دون ترتيب او نظام ، وقرا كل ما وصلت اليه يده من مختلف العصور ، فقرأ هوراس Horace ومرجيل Virgil ، وترينس Terence بل وأوفيد Ovid ، والم الماما وأميا بتاريخ الشرق ، وبذل غاية جهده في تصفح المجلدات الضخمة التى نشرها باللاتينية المستشرق بروك Pococke الذى ترجم من العربية بعض كتب المؤرخ أبى الفرج (أسقف حلب في منتصف القرن الثالث

عشر) — وفي إحدى زيارته لأبيه وقع لأول مرة على كتاب يعالج الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية .

التحاقه بجامعة أكسفورد :

وفي الثالث من أبريل ١٧٥٢ ، وهو يستقبل عامه السادس عشر، أبل من مرضه وتحسنت صحته . والتحق بكلية مجدلين Magdalen College بجامعة أكسفورد بوصفه طالبا غير مقيّد على منحة ، لأنه لم يكن قد تدرّج بانتظام في مراحل وسنى الدراسة المقررة في ذاك العصر، ومن أطرف ما كتبه هو في مذكراته بهذه المناسبة قوله : « التحقت بها (جامعة أكسفورد) وعندى حصيلة من العلم والمعرفة تحير أى علامة ، ولكن على قدر من الجهل يندى له جبين أى طالب » . والحق أنه كره الكلية وكره معلميه وهاجم الجامعات الانجليزية ، حتى لقد وصف في مذكراته تلك الشهور الأربعة عشر التي قضّاها في أكسفورد بأنها أشد فترات حياته خمولا وعقما .

اعتناقه الكاثوليكية :

بيد أنه في أكسفورد اتجه الى الاكثار من قراءته في الدين ، ولعله تأثر أكثر ما تأثر بكتابات القس الانجليزى ميدلتن (Middleton ١٦٨٣ — ١٧٥٠) والفيلسوف الفرنسى بوسويه Bossuet (١٦٢٧ — ١٧٠٤) وانتهى به الأمر الى أن تحول عن مذهب الكنيسة الانجليزية الى المذهب الكاثوليكي ، ولما أعلن تحوله هذا في رسالة الى والده غضب الوالد أشد الغضب ، وود لو عرف اسم الشخص الذى أغرى ابنه بهذه الفعلة الفكراء في نظره لينزل به أشد العقاب ، وخاصة لأن قوانين انجلترا كانت آنذاك صارمة ضد الكاثوليك ، وكفى للدلالة على ذلك أنه لما قامت في انجلترا بعد ذلك ببضع سنوات حركة للتخفيف من شدة تلك القوانين تظاهرت الجماهير في لندن وأحرقت بعض الأحياء سخطا واحتجاجا .

ايفناذه الى لوزان :

ولم تمض على تحول جييون الى الكاثوليكية عشرة ايام حتى أوصدت أبواب جامعة أكسفورد في وجهه ، وقرر والده نقله الى لوزان بسويسرا ، وعهد به الى قسيس يدعى بافيار Pavillard أحد رجال الكنيسة الكلفنية ، وقد وصف هذا تلميذه جييون بأنه صبى نحيل الجسم كبير الرأس يتميز بقدرة بالغة على المناقشة ، مع ايراد كل الحجج التي استخدمت للدفاع عن المذهب الكاثوليكي .

وربما أحس الفتى بشيء من الضيق في أيامه الأولى في لوزان ، في بلد غريب ، نزح إليه نتيجة طرده من الجامعة وغضب أسرته عليه ، وليس له فيها أصدقاء ، ولن يتيسر له عيش ناعم ، أو طعام شهى ، أو ملابس أنيقة لقاء المبلغ الزهيد الذي يرسله أبوه لنفقات إقامته في دار القس بافيار ، إلى جانب أنه كان يجهل الفرنسية لغة أهل لوزان ، ومن ثم بدأ في تعلمها بحكم الضرورة وبات بعد خمس سنوات يفكر تلقائياً بهذه اللغة التي تأثر بها أسلوبه أيما تأثر ، وقرأ لبعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين أمثال فولتير ومونتسكيو .

ارتداده إلى البروتستنتية !

مهما يكن من أمر ، فإن القسيس بافيار أدرك ما عليه الصبي من ذكاء ، فكان يتحدث إليه كلما أدرك فيه ميلاً إلى الحديث ، كما كان يحترم صمته إذا لمس فيه الرغبة في التزام الصمت ، وحاول في رفق أن يعيده إلى مذهبه البروتستنتي ووفق في ذلك ، فلم تبض سنتان حتى هجر جييون الكاثوليكية وتقبل القربان المقدس في الكنيسة الكلفنية في يوم عيد الميلاد سنة ١٧٥٤ . على أنه لا بد من الإشارة إلى أن جييون اكتسب في لوزان فلسفة دينية لم يحد عنها قط ، فلسفة تقوم على الإيمان بوجود الله ، والشك فيما عدا ذلك ، وأنه حين أصدر الجزء الأول من كتابه « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » اتهمه كثيرون بالزندقة ونعته الكاتب بوزول بأنه « أحمق كافر » .

فضل القس بافيار في تدريبيه :

واستطاع بافيار بما أوتي من علم وحصانة وذوق أن يدرّب جييون على طرائق البحث ومناهجه ، دون أن يحشو هو ذهنه ، أو يحدد له مجالاً معيناً ، فأبدى التلميذ رغبته في دراسة الثقافة اللاتينية في كتابات المؤرخين والشعراء والخطباء والفلاسفة ابتداءً من الكتاب المسرحي بلوتس Plautus (٢٥٠ - ١٨٤ ق.م) والمؤرخ سالوست Salust (٨٦ - ٣٤ ق.م) حتى اضمحلال لغة روما وإمبراطوريتها ، فشجعه على المضي في ذلك ، وخصى جييون أربعة عشر شهراً في متابعة هذا العمل ، كذلك ساعده بافيار في دراسة اللغة اليونانية ، فأنتم قراءة نصف البياذة هوميروس وقدرًا كبيراً من كتابات هيرودوت وزيروفون ، وكان جييون يقرأ وقلّمه في يده ليدون ما يعن له من مذكرات أو ملاحظات ، وتابع إلى جانب ذلك كله دراسة اللغة الفرنسية ، وبلغ من حرصه على إجادتها أنه كان يترجم شيشرون من اللاتينية إلى الفرنسية ، ثم

يعود فيترجم ما كتبه من الفرنسية الى اللاتينية ، ليطابق الترجمة على الأصل ويختبر بذلك قدرته .

وفي أثناء اقامته في لوزان ، التقى جيبون بأعز أصدقاء العمر : الشاب السويسري ديفردن Dyverdun والشاب الانجليزي هولريد Holryd الذي أصبح فيما بعد لورد شيفلد والذي تولى نشر مؤلفاته ، كما كان لقاءه لأول مرة مع شخصية العصر الفريدة فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، وعن طريقه أولع جيبون بالمرح الفرنسي ، وهو يشير في مذكراته الى أن هذا المسرح قلل من اعتزازه بعبقريته شكسبير ، ذلك الاعتزاز الذي شب عليه منذ صباه ، بوصفه الواجب الأول لكل شاب انجليزي .

تعرفه على سوزان كورشو :

وفي لوزان أيضا وقع جيبون في أول وآخر غرام له في حياته ، فقد أعجب بفتاة تدعى سوزان كورشو Suzanne Curshod ابنة راعي كنيسة كلفنية في بلدة كراسي الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية، وكانت مواهب الثناة تزيد من قيمة مفاتها الشخصية ، واتفقنا على الزواج ، ولكن كان عليه أن يحصل على موافقة أبيه أولا .

عودته الى انجلترا :

وهكذا رخص له في ١٧٥٨ بالعودة الى لندن بعد غيبة دامت قرابة خمس سنوات ، وتلقاه أبوه بمزيد من العطف الذي لم يكن يتوقعه ، وترك له حرية اختيار المكان الذي يقيم فيه ، والرفاق الذين يصطحبهم ، والوان المسرة والتسلية التي يرضيها . وحقيقة الأمر أنه كان له في العودة الى لندن مأربان : أولهما أن يعرض على أبيه موضوع زواجه من سوزان كورشو ، أما الثاني فإن أباه كان قد تزوج ، وخشى جيبون أن يثر هذا الزواج نسلا يشاركه ثروة أبيه التي كانت قد بدأت تنقلص ، واطمان قلبه لما تبين له أن زوجة أبيه سيدة رقيقة طيبة القلب ولا ينتظر أن تنجب ، وعندئذ تحدث الى أبيه في مشروع زواجه من الفتاة الفرنسية ، ولكن أباه عارض هذا الزواج معارضة شديدة . وهنا يقول جيبون في مذكراته : « لقد تنهدت تنهد العاشق الولهان ، وامتثلت كما يجب أن يفعل الابن البار » .

وكان جيبون اذ ذاك في الحادية والعشرين من عمره ، وبذلت بعض المساعي للاحاقه بوظيفة في السلك الدبلوماسي ولكنها أخفقت ، وأشارت عليه زوجة أبيه بدراسة القانون ، ولكنه لم يجد في نفسه

ميلا الى هذه الدراسة ، ولم تكن مياهج الحياة في لندن تستهويه ، وطالب له أن يقضى وقته في بيت أبيه في بوريتم بمقاطعة هامشير في التزود من المعرفة والعلم ، وعكف الى جانب دراسته للأدب القديم على قراءة أديسون وسويقت وغيرهما من الكتاب الانجليز ، يصدره الأمل في تنقية لغته الانجليزية مما علق بها من آثار الاساليب الأجنبية ، وحاول أبوه أن يثير فيه حب الزراعة ، ولكنه لم ينجح الا في حمله على مصاحبته في بعض الجولات التي كان لا بد منها لكبار المقيمين في الريف .

أول مؤلف ينشره جيبون :

وفي سنة ١٧٦١ نشر جيبون باللغة الفرنسية أول مؤلف له هو « بحث في دراسة الأدب » Essai sur l'Étude de la Literature وكان قد كتب جزءاً منه في لوزان ثم أكمله في لندن ، وربما كان من الجائز أن يؤجل جيبون اخراج هذا الكتاب ، ولكن والده استحث نشره لعل ظهوره يوجه الأنظار الى مؤلفه ومواهبه الأدبية ، ويكون له منفذا الى الحياة العامة والشهرة ، وقد رحب أهل الثقافة والفكر في فرنسا وسويسرا وهولندا بهذا الكتيب وقرظوه ، ولكنه لما نشر في انجلترا باللغة الانجليزية لم يثر اهتماما كبيرا في اوساطها ، وجدير بالذكر أن جيبون نادى في بحثه هذا بأنه لكي يستسيغ المرء الأدب القديم لابد له أن يلم الماما واغيا بمجريات الأمور في العصر الذي كتب فيه وبالحواجز التي دفعت اليه ، ويضرب لذلك مثلا أن فرجيل كتب مؤلفه في فن الزراعة Georgics بناء على طلب الامبراطور أوغسطس ، كي يحول نشاط معارضيه من زعماء الحرب الأهلية القدامى الى نشاط سلمى ، ويقنعهم بمزايا الاشتغال بالزراعة ، وبذلك لم يكن فرجيل مجرد كاتب يصف حرفة الزراعة ، بل كان أشبه بالأسطوري أورفيس Orpheus الذي كان يلعب على قيثارته لينزع من القبائل الهمجية وحشيتها ، ويوحدها داخل مجتمع سلمى مترابط .

جيبون يلتحق بالخدمة العسكرية :

وفي تلك الاثناء التحق جيبون بالخدمة العسكرية برتبة نقيب بالفرقة الرابعة في هامشير ، وكانت انجلترا في ذلك الوقت مشغولة بحرب الستين السبع وتعرضت لخطر الغزو ، وكان هذا العمل بعيدا كل البعد عن ميول جيبون واتجاهاته ، حيث قضى على حد تعبيره عاما ونصف عام - من مايو ١٧٦١ الى ديسمبر ١٧٦٢ - في

حياة عسكرية شاقة ، ولكنه لم يستطع في تلك الفترة أن يقلع عن مألوف عاداته فحاول أن يوفق بين الجندي وطالب العلم ، وتعرف على نظم الجيش وحياة الجنود ، ولسكنه دأوم على قراءاته الواسعة ، وظل يحتفظ بنسخة من هوراس يحملها معه أينما سار .

رحلته في أوروبا : باريس ، ولوزان :

وهكذا كان شخصية المؤرخ وكتّابة التاريخ كانتا دأوما تداعبان خياله ، وما أكثر ما اختار من موضوعات للكتابة هيها ، ولكن لم يستقر قراره على واحد منها . وتوقفت مشروعاته كلها بسبب زيارته للقارة حيث رأى والده أن القيام بجولة في أوروبا أمر ضروري لاستكمال تعليم ابنه بوصفه سائبا أنجليزيا ، وتلك كانت عادة القصر ، وبعد شهر من تسريح جيبون من الجيش كان في طريقه إلى باريس حيث سبقته إليها شهرة كتّابه « بحث في دراسة الأدب » ، ولقى في باريس ما طابت له نفسه من الترحيب بوصفه رجلا من رجال الأدب ، وهناك قضى أربعة عشر أسبوعا التقى فيها بقيادة الفكر ورجال الأدب الفرنسيين من أمثال ديدرو Diderot ودالمبير D'Alembert ورينال Raynal ودارنو D'Arnaud ثم تابع جولته إلى لوزان ليزور أصدقائه ومعارفه القدامى ، وهناك تلقى من حبيبته القديمة سوزان كورشو رسالة تؤكد له فيها بقاءها على حبه ، وظننت هي أنه سوف يتزوجها - رقم نسخ خطبتها منذ سنتين ، وطلب أصدقائها إلى جان جاك روسو أن يتحدث في ذلك إلى جيبون ، ولكن روسو رفض أن يتوسط قائلا ان جيبون شاب ذو مزاج بارد ، وان سوزان لن تكون سعيدة معه ، ولعله أنصف فان سوزان تزوجت بعد قليل من نكر Necker وزير مالية فرنسا الشهير الذي دعا مجلس طبقات الأمة قبيل الثورة الفرنسية ، وأنجب في سنة ١٧٦٦ ابنة أصبحت فيما بعد مدام دي ستاي Madame de Staël (١٧٦٦ - ١٨١٧) الكاتبة الروائية المعروفة .

والواقع ان جيبون في هذا الموقف كانت تعوزه الشجاعة ، فخلا عن أنه امثل لرأى والده ، ثم انه فضلا عن ذلك علم ان سوزان كانت محبوبة بعدد من المعجبين ، وأنها كانت تميل إلى بعضهم ، فعلق على ذلك في مذكراته « اذا كانت الخيانة تسعفا أحيانا فان الرياء رذيلة دائما ، ان هذه الفترة كانت ذات تلعب كبير لى ، لأنها بصراني بأخلاق النساء ، ولسوف تخيننى دوما من اغراء الحب » ، ولعله لم يفكر بعد ذلك في الزواج اطلاقا ، ومن الطريف انه كتب مرة إلى زوجته

صديقه لورد شيفلد يقول : « ترى هل تدهشين يا سيدتى ، اذا أنا تزوجت ! قد يبدو غريبا أن أذكر لك أن مشروعا من هذا النوع هو اليوم أقل احتمالا مما كان يبدو لى أنا نفسى منذ سنة مضت ، لقد دار بخلدنا — صديقى ديفردن وأنا — أن بيتنا مثل بيتنا سوف يسوده النظام وتدب فيه الحياة والبهجة اذا وجدت فيه سيدة وديعة ، ولكن كلا منا يود لو أن زميله قام بهذه التضحية وحده ، اننى منذ أقمت هنا تعرفت على آنسات كثيرات ، واكتشفت أن نحو ست منهن يصلحن زوجات ، ولكل منهن مزايا ترضينى فى فواح مختلفة ، فواحدة منهن تصلح لأن تكون رفيقة ثائنة ، وثانية لأن تكون مضيافة مسامرة ، وثالثة لأن تكون صديقة وديعة مخلصه ، ورابعة لأن تصدر المائدة فى مهابهة ورشاقة معا ، وخامسة لأن تكون ربة بيت مدبرة حازمة ، وسادسة لأن تكون ممرضة يقظة نافعة ... ولو أنى وجدت هذه الصفات والمزايا مجتمعة فى امرأة واحدة لما ترددت فى طلب يدها ، ولما ترددت هى فى رفض طلبى ! » .

سفره الى ايطاليا :

والواقع أن جيبون وقع فى غرام من نوع آخر ، فبعد أن قضى سنة فى لوزان واصل سفره الى ايطاليا ووصل الى روما فى خريف ١٧٦٤ . وهو يشير فى قصة حياته الى المشاعر والأحاسيس القوية التى ملكت عليه عقله وقلبه حين اقترب من المدينة الخالدة وحين دخل اليها ، فيقول : « لقد سكرت بهذه المشاعر والأحاسيس عدة أيام قبل أن تهدأ نفسى ، وأخذ الى الدرس ، والبحث » . وكتب فى الوقت ذاته الى أبيه يقول : « لقد وفقت الى مورد خصب يلذ لذهن مؤهل له ، بما يعرف عن الرومان ، اننى الآن فى حلم ! ومهما زودتنا الكتب بالمعلومات فانها أقل بكثير مما تحدثنا به الأطلال » . هكذا رائه منظر روما وملك عليه لبه ، وحدد على الفور اساس شهرته ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله : « ففى روما فى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما كنت جالسا أتأمل فى أطلال العاصمة ، على حين كان الرهبان العراة الأقدام يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبتر الذى هو الآن كنيسة الفرنسييسكان — نبتت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال مدينة روما وسقوطها » ، وظهر من كلامه هذا أن فكرة الكتابة عن « المدينة الخالدة » كانت وليدة الاحاسيس التى ملأته بذهنه وهو جالس بين أطلالها ، ولولا أنه بعد ذلك وسع نظرتة وأجال فكره لما خرج علينا الا بكتاب رقيق عن آثارها ، لا بمؤلف رائع عن تاريخ الامبراطورية الرومانية .

ولكن لا بد لنا هنا من وقفة قصيرة ، حيث يبدو أن جييون بالغ في هذا القول ، فإنه لم يكتب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » مجرد أنه زار روما ، ولا لأنه ذكر في موضع آخر من مذكراته أنه كان قد قرأ قبل تلك الزيارة بثلاث عشرة سنة كتابا عن تاريخ الامبراطورية الرومانية في عصرها الأخير ، ولكن حقيقة الأمر أنه اتجه هذا الاتجاه وأولع بالتاريخ الروماني منذ طفولته ، قال في رسالة كتبها وهو في الثالثة عشرة من عمره : « وفي طريق عودتنا الى البيت شاهدنا أطلال معسكر روماني قديم فشعرت بسعادة غامرة » . ثم ان قراءاته الواسعة منذ حدثته تشير الى ميوله واتجاهاته .

عودته الى لندن :

وفي يونيو ١٧٦٥ قفل جييون عائدا الى لندن . ولم يقع في السنوات الخمس التالية ما يستحق الذكر سوى أنه عاون صديقه ديفردن في اخراج مجلدين من مجلة في الأدب البريطاني . لتنتشر في القارة باللغة الفرنسية ، كما أنه نشر مقالا بامضاء مجهول ضمنه نقده للكتاب السادس من الانبياء ، وكان طيلة هذه المدة معتمدا على أبيه ، رغم أنه كان في الثلاثين من العمر ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ حيث توفي والده ، وشغل بعض الوقت بتسوية الميراث ، ثم أصبح مطلق التصرف في وقته ، معتمدا على نفسه .

جييون ينضم للنادي الأدبي :

وكان اسمه في عالم الأدب قد بدأ في الظهور ، فأصبح عضوا في النادي الأدبي الذي أسسه صمويل جونسون في لندن سنة ١٧٦٥ ، وكان هذا النادي يضم عددا من الشخصيات البارزة أمثال بوزويل Boswell ، عدو جييون اللدود ، وجوشا رينولدز Joshua Reynolds الرسام الشهير ، وأوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وادموند بيرك Edmund Burke ودافيد جارك David Garrick الممثل القدير ، وشارل جيبس فوكس Fox السياسي البار ، وريتشارد شريدان Sheriden الروائي السياسي ، وآدم سميث Adam Smith الاقتصادي الذائع الصيت .

عضويته في البرلمان البريطاني :

وفي سنة ١٧٧٤ فاز جييون بمقعد في مجلس العموم البريطاني ، واحتفظ بعضويته فيه طيلة ثمانى سنوات ، ولكن حياته البرلمانية

اتسمت بالصمت والخمول ، فلم يلق خطابا واحدا في المجلس رغم أنه كان عضوا في الفترة التي شغلت فيها انجلترا بحربها مع مستعمراتها الأمريكية التي كانت تنشد الانفصال والاستقلال ، واكتفى جيبون بأن ادلى بصوته تأييدا لسياسة لورد نورث ، مضحيا بأفكاره ومبادئه هو ، ولاء منه لرئيس حزبه ولحزبه ، ولكنه اقتنع في النهاية بخطأ هذه السياسة .

جيبون يعكف على كتابة مؤلفه — ظهور المجلد الأول :

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت هذه الفترة التي قضاهها عضوا في مجلس العموم أخصب فترات حياته وأوفرها انتاجا ، حيث عكف فيها جيبون على كتابة تاريخه الشهير الذي بين أيدينا ، وكانت فكرته تدور في رأسه لعدة سنين ، فقرأ كل ما يمت إليه بصلة ورجع وقلمه في يده الى المصادر الأصلية اليونانية واللاتينية ابتداء من ديون كاسيوس Dion Cassius الى أميانوس ماركينوس Ammianus Marcellinus واستوعب السير التي دونها الرواة القدامى عن الأباطرة من دقلديانوس الى قسطنطين ، واستعان كذلك بما كتبه المؤرخ الفرنسي تلمون Tillemont (١٦٣٧ — ١٦٩٨) عن تاريخ الأباطرة ووصفه بالدقة والعبقريّة ، وتأثر جيبون بعدد من الفلاسفة والمؤرخين الأجانب أمثال بيل Bayle (١٦٤٧ — ١٧٠٦) ومونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) الفرنسيين ، وجيانوني Giannone (١٦٧٦ — ١٧٤٨) الإيطالي الذي كتب « التاريخ المدني لنابولي » وهاجم فيه سلطة رجال الدين . وشق جيبون طريقه في ظلمات العصور الوسطى في حويلات إيطاليا وأثارها ، وقرأ قوانين تيودوسيوس لا بوصفها فقها قانونيا ولكن بوصفها أدبا ، وكان في البداية محاذرا متثددا ، وما أن انتهى من بضعة الفصول الأولى حتى انطلق قدما وظهر المجلد الأول من تاريخه هذا في ١٧ فبراير ١٧٧٦ ولقى نجاحا لم يسبق له مثيل حتى لقد أعيد طبعه مرتين أخريين ، ولما ينقض العام . ولكن في غمرة الاحتفاء به تلقى من هيوم ، الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي المعاصر تحذيرا بأن ما ورد في كتابه عن تقدم المسيحية ونموها لابد ان يثير كثيرا من المشادة والجدل ، وهذا ما حدث بالفعل فقد تصدى لمعارضته كثيرون واضطر جيبون الى أن ينشر في سنة ١٧٧٩ دفاعا رد فيه على كل من هاجموه .

ظهور المجلدين الثانى والثالث

من مؤلفه عن الامبراطورية الرومانية :

وفى ابريل ١٧٨١ أصدر جيبون المجلدين الثانى والثالث من تاريخه وتوبلا بالترحيب ولكنهما لم يثيرا ضجة ، وفى يونيه من العام نفسه ترك جيبون مجلس العموم وحلت به ضائقة مالية باع معها كل ما يملك فيها خلا مكتبته ، واتجه تفكيره الى مدينته الاثيرة لوزان ، وكان يطوى فى نفسه رغبة دفينه ، تلك هى أن يكون مرتع شبابه ومنبع معرفته الاولى ، اى لوزان ، ملجأه الذى يأوى اليه فى اخريات ايامه ، حيث يتيهأ له فيها ، مع دخل متوسط ، كل اسباب الدعة والهدوء والحرية والاستقلال ، وفى سبتمبر ١٧٨٣ ودع جيبون انجلترا ووصل الى لوزان بعد نحو عشرين عاما من رحيله الاخير عنها .

انتماء مؤلفه فى لوزان :

وبعد قرابة عام من مقامه فى بيت فسيح ذى حديقة غناء على شاطئ بحيرة ليما (دار صديقه ديفردن) انتهى من المجلد الرابع من تاريخه ، وبعد ذلك بنحو عامين اكمل جيبون مشروعه الضخم فى تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوبلها بكتابة مجلدين آخرين . وانه ليتحدث عن ذلك فى مذكراته فيقول : « فى اليوم السابع والعشرين من يونيه ١٧٨٧ ، فى الكشك الحصى بالحديقة ، فيما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساء ، دونت السطور الأخيرة فى الصحيفة الأخيرة من الكتاب ، ثم نهضت للتريض فى الماشى المفروشة التى تشابت فوشها مروع اشجار السنط ، والتى تطل على منظر رائع ، حيث يمتد البصر الى الريف والبحيرة والجبال ، وكان النسيم عيلا ، والسماء صافية ، ونسوء القمر ينعكس على مياه البحيرة ، وكل الطبيعة من حولى هادئة ساكنة ، وان أنس فلا أنس ما غمرنى لأول وهلة بعد الفراغ من كتابة هذا المؤام . ما غمرنى من احساس الغبطة والفرح لاسترداد حريتى — وربما لبناء شهرتى ، ولكن سرعان ما انطفات جذوة الزهو ورائت الكآبة على قلبى ، وخيم على فؤادى حزن عميق ، حين تذكرت أننى ساودع الى الأبد ، رفيقى القديم الأنيس ، وانه مهما يكن من امر هذا «التاريخ» فى المستقبل ، فان حياة المؤرخ نفسه لا بد أن تكون قدسيرة مزعزعة » .

عودته الى لندن :

وحمل المؤرخ مخطوطاته وعاد الى لندن ، وهناك خرجت الى السوق في أبريل ١٧٨٨ المجلدات الثلاثة الأخيرة التي دونها جيبون في تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . وقد تجدر الإشارة هنا الى أن جيبون قضى في عمله الضخم هذا عشرين سنة ، وأن المجلد الأول صدر قبل الأخير بنحو اثني عشر عاما .

وعاد جيبون بعد ذلك بقليل الى لوزان حيث فجع بوفاة صديق حياته ، بل رفيق حياته ، ديفردن الذي توفى في يولية ١٧٨٩ ، وكانت الوصية التي تركها الصديق الحميم ترخص لجيبون في الإقامة بنفس الدار المطلة على بحيرة ليمان ، وهناك دون جيبون سيرة حياته : « مذكرات عن حياتي وكتاباتي » ، ثم عاد الى لندن في أوائل صيف سنة ١٧٩٣ ، واشتدت عليه علة أجريت له من أجلها عمليات جراحية ، ولكن شمس حياته أذنت بالمغيب وأسلم الروح في ١٦ يناير ١٧٩٤ ، ودفن بمقبرة أسرة صديقه لورد شيفلد في بلدة فلتشنج Fletching بمقاطعة سسكس Sussex وبقيت ذكراه خالدة بفضل تاريخه الذي أعيد طبعه مرارا وتكرارا .

ماذا ضمن جيبون تاريخه :

ولا يقتصر كتاب جيبون على تاريخ روما من عصر الأباطرة الأول حتى نهاية الامبراطورية في الغرب ، بل انه يعالج كذلك تاريخ الامبراطورية الشرقية التي قدر لها البقاء قرابة ألف سنة بعد سقوط الامبراطورية الغربية ، وكذا تاريخ جميع الشعوب المتدينية والمنبربرة التي كانت تقطن على حدود الامبراطورية ، ثم ظهور الاسلام وقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة والحروب الصليبية ، وقصارى القول : هو تاريخ الغرب وما يتصل به من تاريخ الشرق ، من القرن الأول الى القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد أوضح جيبون ذلك فى المقدمة التي كتبها بيده والتي لم ترد فى طبعة هذا المختصر ، فقال انه فى حوالى ثلاثة عشر قرنا قوضت سلسلة من الثورات والغارات دعائم العظمة الانسانية وقضت فى النهاية عليها ، ويمكن حصر هذه السلسلة فى ثلاث فترات :

فالفتره الأولى يمكن تتبعها من عصر تراجان والانتونيين حين بدأت الامبراطورية الرومانية التي كانت قد بلغت ذروة قوتها ، فى التردى الى مهاوى الضعف والانحلال ثم الى الدمار على يد

جماعات المتبريرين من ألمانيا واسكيزيا ، وهؤلاء هم الأسلاف الجففة لأكثر شعوب أوروبا الحديثة حضارة وثقافة ، وقد تمت هذه الثورة العاتية التى أخضعت روما لسلطان فاتح قوطى ، حوالى بداية القرن السادس الميلادى .

ويمكن أن نفترض أن الفترة الثانية فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية تبدأ بعهد جستنيان (٤٨٣ - ٥٦٥ م) الذى أعاد للامبراطورية الشرقية ومضة عابرة من المجد بفضل قوانينه وانتصاراته بها ، وتشمل هذه الفترة غزو اللمبارديين ليطاليا ، وفتح العرب المسلمين للولايات الآسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى ضد حكام القسطنطينية الضعاف ، ثم ارتقاء شارلمان الذى أقام فى سنة ٨٠٠ م الامبراطورية الرومانية المقدسة .

أما الفترة الأخيرة ، وهى أطول الفترات جميعا — فانها تطوى نحو ستة قرون ونصف قرن ، وتبدأ بأحياء الامبراطورية الغربية ، وتنتهى باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية وفناء سلالة الأمراء المنحطين الذين ظلوا يتخذون لأنفسهم لقب « قيصر » ، و « أوغسطس » بعد أن تقلص ظل ملكهم الى حدود مدينة واحدة ، نسيت فيها منذ أمد طويل لغة الرومان القدامى وآداب سلوكهم . ريشيف جيبون قوله : « ان المؤرخ الذى يأخذ على عاتقه سرد أحداث هذه الفترة ليجد نفسه مضطرا الى الخوض فى التاريخ العام للحروب الصليبية بقدر ما أسهمت تلك الحروب فى سقوط الامبراطورية الشرقية (البيزنطية ، أو اليونانية كما كان ينعته) ، كما لا يمكن أن يتحاشى التعرض لبحث أحوال مدينة روما فى فترة ظلام العصور الوسطى وما سادها من فوضى وفساد » .

ويطلب جيبون الى قارئة أن يقل من اللوم اذا هو لاحظ أن المؤرخ عاليج فى أكثر من نصف سفره الضخم تاريخ أربعة القرون الأولى ، على حين أنه تناول فى جزئه الباقي وهو أقل من النصف تاريخ تسعة قرون ، وأوضح أنه لم يعالج التاريخ البيزنطى فى تفصيل واسهاب ، وإنما وضع جل همه فى عصر جستنيان وفتوحات المسلمين ثم العصر الأخير فى القسطنطينية (الحروب الصليبية والأتراك العثمانيون) باعتبار أن هذه الأمور كلها مرتبطة بنشأة أوروبا الحديثة ، ومن ثم فقد اقتضب فى حديثه عن الفترة التى تمتد من القرن السابع الى القرن العاشر ، وحصر بحثه فى الأحداث التى رآها هامة وطريفة .

رأى العلامة بيورى فى جيبون وتاريخه :

ولعل خير من كتب عن جيبون وأنصفه هو المؤرخ البريطانى الشهير جون باجنل بيورى John Bagnell Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) الذى كان استاذاً بجامعة كمبردج ، فقد اشرف على اخراج أحسن طبعة صدرت لمؤلف جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وذلك بين ١٨٩٦ - ١٩٠٠ ، وتكرر طبعتها بعد ذلك حيث انها امتازت بمقدمة رائعة كتبها بيورى ، كما تميزت بتعليقاته التى أضافها فى ضوء ما وجد من أبحاث ، ومن المفيد لنا هنا أن نلخص آراءه :

لقد أوضح بيورى أن جيبون يمتاز بأنه بذل جهداً كبيراً فى الرجوع الى المصادر الأصلية لموضوعه ، وأنه راعى فى كتابته دقة باللغة تثير الدهشة ، ولكن اذا قلنا ان جيبون كان دقيقاً فليس معنى هذا أنه كان مصيباً دائماً ، ذلك لأن الدقة مسألة تتناسب مع الفرص والمواد المتاحة للمؤلف ، فقد كشفت فى السنوات المائة التالية لظهور مؤلف جيبون ، مواد جديدة استطاع العلماء فى ضوءها تعديل بعض الآراء التى أوردها . ولو أنه عاد اليوم لمراجعة تاريخه لاختلف اختلافاً ملموساً ، ولكننا نعود فنقول انه بفضل حاسته التاريخية أصاب فى استخدام ما توفر له من مصادر فى إطار ثقافة العصر الذى عاش فيه ، أى قبل الكشف عن مصادر جديدة (علم النميات مثلاً) وقبل وضع الأسس العلمية السليمة لدراسة تلك المصادر والافادة منها . وقد بدأت هذه فى القرن التاسع عشر . فان الأبحاث التى قام بها عدد من العلماء الأجلاء أمثال مومسن الألمانى Mommsen ، وويرانت الروسى Muralt عدلت الكثير من أفكارنا عن النظم الرومانية والتاريخ الدستورى للامبراطورية من عصر دقلديانوس الى ما بعده ، ومع ذلك يقول بيورى ان وصف جيبون لتحول الامبراطورية Principle الى ملكية مطلقة ، وكذا حديثه عن نظام دقلديانوس ووصفه نظام قسطنطين — كل أولئك ما يزال يحتفظ بقيمته العالمية .

ويضيف بيورى أنه من الملامح المميزة لمؤلف جيبون هذا ، بصفه عامة ، أنه يقدم لنا درساً فى وحدة التاريخ ، فان عنوانه يوضح الحقيقة الأساسية بأن الامبراطورية التى أسسها أوغسطس سقطت فى منتصف القرن الخامس عشر وأن كل التغيرات التى حوت أوروبا التى عاش فيها ماركوس أوريليوس الى أوروبا التى عاش فيها أرزمس لم تلغ اسم الامبراطورية وذكرها ، ومهما استخدم جيبون من ألفاظ مهينة فى وصف

الامبراطورية وانحلالها ، وسواء أنعتها بالامبراطورية السفلى أم
الامبراطورية اليونانية ... فان عنوان كتابه قد صحح المفهوم الخاطئ
الذي قد تحمله مثل تلك التسمية ، حيث تعتمد وحدة كتابه على
استمرار الامبراطورية الرومانية .

ويأخذ بيورى على جيبون أن روايته للتاريخ الداخلى للامبراطورية
بعد عصر هرقل لم تكن رواية سطحية فحسب .. بل انها كذلك تنقل
للقارئ فكرة خاطئة ، ولو أن جيبون استطاع أن يستغل المصادر كما
فعل عدد من العلماء فيما بعد - لما عجز عن أن يتبين أن تحت المؤامرات
والجرائم التى سادت فى القصر وقتئذ كانت هناك أسباب أعمق تعمل
عملها ، وأن وراء ثورات العاصمة عوامل أعم وأشمل ، فان محطى
الايقونات Iconoclasts كانوا يناضلون لشيء أكثر من مجرد مقاومة عبادة
الصور ، بل كان نضالهم من أجل تجديد الامبراطورية وانعاشها . خذ
مثلا آخر ، هو أن مفتاح تاريخ القرنين العاشر والحادى عشر كان فى
النضال بين العرش الامبراطورى وبين كبار ملاك الاراضى فى آسيا
الصغرى ، ويتضح انتصار هذه الفئة الأخيرة من اعتلاء الكسيس
كومنينس العرش ، كذلك يأخذ بيورى على جيبون قوله بأن الامبراطورية
فى عصرها الأخير انها كانت تمثل قصة متجانسة للضعف والبؤس ..
لأنه قول غير صحيح وحكم لا يجوز أن يصدر عن هذا المؤرخ المفكر
الكبير ، فقد كانت الامبراطورية قبل ثورة ١٢٠٤ قلعة حصينة حمت
الغرب . وهذه حقائق أوضحها العلماء الذين جاءوا فيما بعد أمثال فينلى
Finlay وهيرش Hirsch ورامبو Rambaud وكرومباخر Krumbacher .

وأخيرا يذكر بيورى أن جيبون كانت تعوزه المصادر عن القسطنطينية
ومبانيها وعن تاريخ الشعوب السلافية ، ومن ثم كان مقلا فى حديثه
عنها .

ومهما يكن من شيء ، فان بيورى يقرر أن جيبون هو واحد من قلة
من الكتاب الذين يحتلون مركزا ممتازا فى تاريخ الأدب الانجليزى وفى
قائمة كبار المؤرخين ، وأنه يمكن أن يوضع فى مرتبة تيوسوديديس ،
وتاسيتس من حيث صفاء أسلوبه وحرصه على مراعاة الدقة ، وهذا
هو سر بقاء كتابه ، فهو تاريخ وأدب معا ، وقد بلغ من حرصه على
روعة أسلوبه أنه عدل فى الطبعة الثانية لمؤلفه عبارات شتى لا لشيء
الا لزيادتها تهذيبا ، وعندما صدرت طبعته الثانية أورد بخط يده على

عدد قليل من صفحاتها بعض التعليقات والتصحيحات ، مثال ذلك أنه بعد العبارة التي تحدث فيها عن موت ماركس انطونيوس كتب ما يلي :

« ألم يكن جديرا بى أن أشرح تاريخ هذه الفترة الزاهرة التي جاءت بين عهدين جديدين ؟ ألم يكن لزاما على أن أستخلص انحلال الامبراطورية من الحروب الأهلية التي تلت سقوط نيرون ، أو حتى من الطغيان الذي جاء في أعقاب عصر أوغسطس ؟ وأأسفاه ! ما قيمة المعرفة اذا جاءت بعد فوات الوقت ! لا ينفع الندم اذا ما استحال تصحيح الخطأ » .

والى جانب دقته وروعة أسلوبه ، يتميز جيبون كذلك بوصفه الممتع الأخاذ لشخصياته ، وولعه بالسخرية ، ولكنه على خلاف كثير من المؤرخين ، لم يخف أهواءه ، فنراه يتحمس في لوم امبراطوره المحب اليه جوليان ، وفى مدح الأسقف اثناسيوس .

ويبرز جيبون في سخريته شيئا من حكم الحياة . فهو يتحدث عن دقلديانوس حين اعتزل الحكم وقضى الأعوام التسعة الأخيرة من عمره في الاشتغال بالزراعة وفلاحة البساتين ، في موطنه في مدينة سالونا بولاية داثيا ، ويروى كيف أن زميله مكسيميان الذي كان قد اشركه معه في حكم الامبراطورية ، توسل اليه في العودة الى العرش وارتداء الحلة الأرجوانية ، وكيف أن دقلديانوس أصر على رفضه ، قائلا في سخرية لازعة : « لو أن مكسيميان استطاع أن يبصر بعينه الكرب الذي زرعه بيدي في سالونا ، فانه لن يعود يصفى لاي اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة » . ويضيف جيبون أن دقلديانوس كثيرا ما اعترف لأصدقائه في مناقشاته معهم بأن أشق فن في الحياة هو فن الحكم . وتلك هى خلاصة تجربته الطويلة وخبرته الأصيلة .

جيبون وايمانه بحرية الفرد والحرية السياسية :

وخلاصة القول ان جيبون كان مفكرا حرا ، ومؤرخا هادئا ، يحرص الحرص كله على حرية الفرد وعلى استقلال الشعوب . وهو اثر من آثار حياته في سويسرا الى جانب آثار قراءاته ، فقد أعجب بكفاح الولايات السويسرية من أجل استقلالها وحريتها وكان قد شرع فعلا في وضع مؤلف عن نضال هذا الشعب المجيد ولكنه عدل عن اتمام مشروعه . كذلك دافع جيبون عن الحرية السياسية التي يرى أنه بدونها لا يمكن للفرد أن يطمئن على مستقبله ، كما يتضح من حكمه على

عصر نرفا وخلفائه حتى وفاة ماركوس اوريليوس (الفصل الثالث من هذا الكتاب) فهو عصر يمثل في رايه فترة من التاريخ نعم فيها الجنس البشرى بالسعادة والازدهار ، ولكنه يضيف الى قوله هذا نقطتين أوضح فيهما ما كان يشوب هذه السعادة من نقائص فقال : « ان مثل هؤلاء الحكام كانوا يستحقون شرف اسعادة الجمهورية لو أن الشعب الروماني في أيامهم استطاع أن يتمتع بالحرية » . كما أوجز وصفه لحكام القسطنطينية في آخر القرن الرابع الميلادي (الفصل ٣٢ من هذا المؤلف) ، فقال :

« وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التي فرضوها على شعبيهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبي يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط » .

لقد كانت الحرية في رايه عنصرا أساسيا وشرطا لا غنى عنه لسعادة البشرية ، وهى القياس الذى أقام عليه جيبون حكمه على الماضي . يقول في حديثه عن أعراض الاضمحلال في الامبراطورية البغربية (الفصل ٣٥) : « كانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأسا في نظر أعدائها ، وأكثر ظلما ومقتا في نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما ألحت الحاجة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، والقوة على كواهل الناس ، بل وتحاولوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من يؤسهم في بعض الأحيان ، وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ثم الى مصادرة أملاكهم وتعذيب أشخاصهم ، كل أولئك أرغم رعايا فالنتينيان على ايثار البرابرة مع طفيانهم الأيسر احتلالا ، أو على الفرار الى الغابات والجبال ، أو على الهبوط الى مراتب الخدم والمرترقة رغم خستها وحقارتها ، حتى وصل بهم الأمر الى التبرم بلقب « المواطن الروماني » والى التبرؤ منه ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم اجمع ..

« وإذا كانت روما قد ظلت قائمة ، فانها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف » .

وكان جيبون فوق هذا وذاك متشعبا بالروح الانسانية التى ميزت العصر المستنير في القرن الثامن عشر ، فكان يكره القسوة والعنف والاضطهاد بأبنة صورة من الصور ، وفضلا عن أن كتابه هذا حافل

بالشواهد على ذلك ، فقد تجلت هذه الروح الانسانية في سخطه على
تجارة الرقيق ، رغم ان صديقه لورد شفيلد كان من أنصار الابقاء
عليها ، وكم اغتبط جيبون حين اتخذ البرلمان الانجليزى سنة ١٧٩٢
الخطوات الاولى لالغاء هذه التجارة وتحريمها .

هذا هو جيبون .. وهذا هو كتابه الخالد ، بل ملحمته المنثورة
وسمفونيته الرائعة ... اضعه بين أيدي قراء العربية . وان انس
فلا انس هنا أن أسجل مع الشكر والتقدير فضل وزارة الثقافة ،
والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر في العمل على اثراء المكتبة
العربية بالتراث الانسانى والذخائر العالمية ، فكان في مخططها هذا
العام نشر هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

أحمد نجيب هاشم

مقدمة الطبعة الانجليزية

(١٩٠٠ م - ١٩٠٠ م)

وضع مختصر « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » على اهل ان يكسب الكتاب قراء جدد ، وعلى امل ان يزود اولئك الذين درجوا عليه والفوه بخلاصة له ، اذ قلما يتيسر الحصول عليه في اقل من ستة مجلدات ان لم يكن اكثر .

وسيطل اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها الحدث التاريخي الفذ في اوربا والشرق الأدنى . وليس ثمة سجل يقص مجرى هذه الاحداث خير من مؤلف جيبون ، وانه لمن نافلة القول ان نذكر انه جماع براعة واطلاع واسع ، يندر ان يكون لهما مثيل ، مع مهارة أدبية لا تبارى . ولا يكاد يعرف اى هذه الصفات اوفر حظا أو أبرز فيه اثر . ولقد ألف جيبون كتابه هذا منذ زمن طويل (١٧٧٦ — ١٧٨٨) ، وكم من أشياء كشفت وكتبت منذ ذلك التاريخ ، ولكن هناك رغم ذلك اتفاقاً تاماً على أن كتاب جيبون ما يزال يحتفظ بمكانته ، بل ويزداد الاقبال على قراءته لما ينفرد به من فن وجمال . ولو أن كتاب « اضمحلال والسقوط » فقد قيمته التاريخية ، لكان من اللعيب ان نتعلق بالامل في قراءته ، أكثر ما تكون القراءة ، من أجل أسلوبه فحسب ، اللهم الا اولئك المتخصصون في الأدب الذين يتناولونه بالتشريح والتحليل ، ومن ثم كانت الحاجة الى « مختارات » منه ، تهدف الى ابراز هاتين الصفتين معا . لما اللجوء الى اقتطاع شذرات منه وضمها بعضها الى بعض لمجرد سرد الحقائق وابراز القيمة الفعلية ، فانه يسىء الى هذا العمل الجليل ، ويحجب عن القارئ تفوقه وميزاته الحقيقية . فيجدر ان ينظر الى الكتاب على انه كل ، على ان يؤخذ في الاعتبار موضوع انقاص حجمه قدر الامكان ، دون الانتقاص من الاحساس بأنه يصدر عن كيان متكامل .

أما الفصلان العظيمان الخامس عشر والسادس عشر اللذان يعالجان « ظهور المسيحية » فقد احتفظ بهما كاملين . فقد خيف هنا أن يشعر الاقتضاب بأن المحرر ينصب نفسه حكما بين جيون وقارئه في هذه السيرة الحيوية . ومنذ كتب جيون في ١٧٧٦ أول مجلداته الأربعة ، وفيه هذا الفصلان اللذان بلغ فيهما المؤلف ذروة المهارة والحدق ، ظل هذا الجزء — لسوء الحظ — أكثر ما كتب جيون عن المسيحية عرضة للتشهير وسوء السمعة ، ولو أن كثيرا من الناس اعتبروه في الواقع شيئا عاديا مألوفا ، ولهذا أبقينا على أجزاء كثيرة من الفصول الأخيرة التي تناولت التطورات اللاهوتية والكنسية . وليس من الميسور فهم غزوات المتبريرين والتاريخ الداخلي للإمبراطورية دون الإشارة إلى تقدم مذهب آريوس (١) ونظرية التثليث . ونظرية التجسد . وقد يكون الوقت الآن مناسبا لتذكر ما ذكره كاردينال نيومان في حسرة وأسى من أن جيون كان المؤرخ الوحيد للكنيسة . ولكن الزمن والجهد قد عالجا ذلك . فان أعظم مؤرخي الكنيسة قيمة متفقون مع جيون ، رغم ذلك ، في استنكار التصديق الأعمى ، والخرافات الساذجة والخداع المتعمد ، وفي الحزن على تنكب المثل العليا البدائية والانزلاق إلى الأطماع الدنيوية ، مما يشوب تاريخ الدين كثيرا . وكان جيون أول من جعل من التاريخ الديني دراسة علمانية . ولم يختلف عنه خلفاؤه في معظم الأحوال إلا في طريقة تناولهم للموضوع وفي لهجتهم . وهنا يجب أن نقول شيئا : فقد يحلو ويسهل على بعض الكتاب أن يتحدثوا عن عداء جيون للمسيحية . والحق أنه أورد في شيء من الطيش أشياء نبذها وترفع عنها في عصرنا هذا «جلبرت مري Gilbert Murray» على أنها « حثالات دنيئة » . ولكن جيون لا يهاجم قط « السنن القويم للإنجيل » ، وهو لا يتحدى الأخلاقيات المسيحية كما فعل بعض « اللاأدريين » (٢) من بعد . بل انه كان دائما يجل الاخلاص والتمسك الجريء بالمثل العليا . خذ مثلا كلامه عن القديس كبريان Cyprian أسقف قرطاجة (في القرن الثالث الميلادي) وعن أثناسيوس ، وكريزوتوم (أحد آباء الكنيسة اليونانية في القرن الرابع) ، تدبر كذلك تهكمه الذي تناول به تناولا نزيها آراء جوليان (٣) الدينية وطقوسه

(١) "Arianism" مذهب آريوس Arius الذي يقول بأن المسيح ليس من نفس مادة الرب ولكنه أحسن ما خلق الله - (المترجم) .
(٢) "Agnastics" (الغنوصيون) الذين لا يعتقدون بكفاية العقل لفهم الوحي الإلهي - (المترجم) .

(٣) Julian the Apostate امبراطور روما ٣٦١ - ٣٦٢ .

ومن السخف كذلك ، الزعم بأن جييون كان يميل ميلا خاصا الى الحياة الروحية ، فقد امتلأ عقله بفلاسفة القارة (أوربا) الذين قال عنهم لیتون ستراتشي Lytton Strachey في مقالته عن مدام دي دفان Mme, du Devand ان مذهب المتشككين في هذا الجيل لمن أعنف واعند ما عرف العالم ، فإنه لم يتكلف حتى مشقة الإنكار بل عمد في بساطة الى التجاهل ، وكان بمثابة حجاب كثيف من الاستهتار بأسرار السكون ، وبحلولها وكشف غوامضها على حد سواء . وتعلم جييون من بسكال Pascal « التهمك اللاذع والمعتدل » واستخدمه استخداما مدعما ، فإذا كان هذا التهم قد أصبح على طول المدى مملا شيئا قليلا ، فيجب أن نتذكر — كما تذكر ج. ب. بيوري J. B. Bury — أن تناول الموضوع بأسلوب غير مباشر كان لونا من الحيلة اللازمة في القرن الثامن عشر ، فلربما صحت الكنيسة آنذاك من مرقدها الوثير لانزال أشد العذاب والعقاب بالمجذفين في الدين .

ان رجال الدين في عصر جييون ، بالإضافة الى بغض العلمانيين ، لم يدركوا ، وما كان في مقدورهم أن يدركوا ، ما كان يصنعه هذا الرجل ، بل انهم لم يحاولوا شيئا من ذلك . لقد طاش صوابهم وفقدوا أعصابهم لما اعتبروه في نظرهم تهجما على نظام مرتبط بالطبيعة المستقرة للأمور ، فلما كانوا يفتقرون الى حجة دامغة عمدوا الى الأسلوب التقليدي القديم في تجريح من يدافع عن خصمهم . وكان الهدف لأول وهلة سهلا . لأن جييون كان بدينا متأقفا ، ولم تكن العقلية الانجليزية لتغتفر بسهولة اجتماع هاتين الصفتين . واستطال الداب على تحقير شخصه وتشويه سمعته وإخلاقه قرنا من الزمان ، وتكشف بعد ذلك تقييم أكثر رشادا وسدادا لصفات الرجل إمام أعين أولئك الذين كلّفوا أنفسهم أن يتدبروا القول : اذا كان لنا أن نسخر بعد من غرابة الرجل وشذوذه — وقد يكون من قبيل الصلف والكبرياء إلا نفعنا ذلك — أفلا يجدر بنا في نفس الوقت أن نؤكد أن جييون كان رجلا متكامل العقل والخلق معا ، كما كان — على حد اعتراف أصدقائه الأقربين — يتحلى بروح انسانية فياضة ! والحق أن تلك صفات كانت تسود تاريخه .

ومن الطبيعي أن تعقد موازنة بين مجرى الامبراطورية الرومانية وبين مجرى التاريخ الأوربي الحديث . وفي ظروف الحياة الناعمة السعيدة منذ ٦٠ عاما عقد لورد بريس Bryce (مؤرخ انجليزي ١٨٣٨ — ١٩٢٢) موازنة مثبوتة بين فتوح القيصر أوغسطس وبين الامبراطورية البريطانية . واليوم قد يجد أولئك الذين يحسون بأنهم يعيشون وسط مدنية متداعية الأركان — يجدون في قصة اضمحلال

الإمبراطورية الرومانية مادة غزيرة للمقارنة . وانا لنترك للقراء أن يقرئوا لأنفسهم ما شاءوا . وثمة تعليق أو اثبات على موقف جيبون من الموضوع الذى اختار الكتابة فيه . وقد لا يكون التعليق أمرا نابيا ، بل ان هذا موضعه .

شرح جيبون فى تأليف كتابه بعد فترة شباب ثم رجولة مبكرة عكف فيها على دراسة الآداب القديمة ، وخاصة اللاتينية ، ومن ثم تحكم فى نظراته ما وجد فى تلك الآداب القديمة من مقاييس ومثل ، فقرأه فى معظم ثبايا مؤلفه يكتب كما لو كان عضوا مثقفا فى السناتو (مجلس الشيوخ) فى أزهى أيام الإمبراطورية ، وهنا تكون فكرته عن الإضمحلال والسقوط أمرا طبيعيا لمثل هذا الشيخ عضو السناتو ، على افتراض أن عصر الأنطونيين كان عصرا ذهبيا حقا ، ولا يضعف من هذا الافتراض ما أظهرته الأبحاث مؤخرا من حقيقة مؤداها أن الاستقرار الاقتصادى كان تمويها . فلما أخذ جيبون نفسه بنظرية الإضمحلال ، لا من ناحية الرخاء فحسب ، بل على أساس المقاييس الأدبية والفلسفية القديمة كذلك ، فإنه تابع قصته ، على الأقل حتى سقوط الإمبراطورية فى الغرب ، دون تناقض صارخ . ولم يمنعه حزنه التقليدى وراثؤه لفقدان الحرية السياسية من أن يسجل فى بصيرة وفطنة الشيء الكثير من المبتكرات السياسية والإدارية ، ابتداء من أعمال أوغسطس الى تنظيمات دقلديانوس وقسطنطين ، وقد يرى القارئ مصادفة أن نبوره من مراسم البلاط (الإمبراطورى) — تلك الى نشأت فى آسيا واقتبسها دقلديانوس وخلفاؤه ، ثم أنتشرت مؤخرا فى كل أوروبا — لم يكن أقل وضوحا من استهتاره بالدين .

ومن الطبيعى أن يرى جيبون ، بحكم اتجاهه الرومانى أو السناتورى ، فى غزوات المتبربرين شيئا أقل من أنها كانت موجات من التخريب والتدمير . ولكن يمكن من زاوية أخرى مختلفة ، كما فعل بيورى أن ندرك أن الغزاة لم يكونوا يسعون دائما الى التخريب ، بل يهدفون الى الاندماج فى الرحاب الجميل للمدنية القديمة . ومثل هذا التباين فى وجهات النظر لابد أن يؤدى الى الاختلاف فى الحكم على استيطان الشعوب الجرمانية داخل الحدود الإمبراطورية . أضف الى ذلك أن هؤلاء الناس جلبوا معهم كثيرا من المبتكرات التى زادت من نعيم الحياة الأوروبية ، مما لم تكتشفه دنيا اليونان والرومان قط .

ولكن الأدهى والأمر أن نظرية جيبون فى الإضمحلال ضللت به اسريق الى تاريخ الحضارة البيزنطية ، ومن ثم يجدر اللجوء هذا الى المؤلفين

المحدثين ، علاجاً لهذا الضلال أو تزييفاً ضده . ولا يتبقى أمام القارىء إلا سؤال واحد وهو : كيف يتسنى أن يقال في جملة واحدة : ان القنسطنطينية في حالة اضمحلال مستمر على حين بقيت هذه المدينة حصناً لأوروبا لفترة تزيد على ألف عام ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فيستظل الحقيقة قائمة ، وهى أن الامبراطورية في الغرب والشرق قد آذنت بزوال . ولقد شغل المؤرخون المحسدون أنفسهم بالبحث عن أسباب هذا السقوط ، أكثر منهم برواية أنبأه نحسب . وليس هناك اتفاق معين بين هؤلاء الباحثين والمحققين . لماذا وليت وجهك شطر جييون وملاحظاته الهائلة عن فناء الامبراطورية في الغرب لوجدته لا يفتش كثيراً عن أسباب السقوط ، قدر ما يعبر عن دهشته وعجبه من بقاء هذا التنظيم المعقد لعدة قرون ، وقد نمتدح نحن الذين رأينا تفكك ما كان ينظر اليه باعتباره نظاماً امبراطورية ثوية — في بضع سنين — نمتدح حكمة جييون ونشاطه الدهشة والعجب .

وما دام المقام يتسع لكل شيء فلنذكر انها كانت ميزة ومكرمة . وليست علة أو نقيصة ، أن جييون أقام وسط دنيا الرومان ليكتب قصصه الذى اقتحم به الى قلب العالم الرومانى ليؤدنا بسيرة أصيلة خالصة مستمدة من المراجع القديمة في تفصيل كامل ، لا يمكن الوقوع على مثله فى أى مؤلف حديث آخر . والحق أن كتاب جييون يسهل على تفصيل الامبراطورية الرومانية . لقد ساد الاعتراف بأن الكتاب ملحة مثورة استعرضت فيها كل خبرة التاريخ . على مستوى عام شامل ، وإذا كان جييون قد نظر الى التاريخ على أنه « سجل لجرائم الجنس البشرى وسقطاته ونكباته » فإن رؤياه هذه ، فى سمعتها وحذوها ، تضعه فى منزلة أدنى قليلاً من منزلة كبار الشعراء .

وينهج هذا المختصر نهج النص الاصلى لكتاب جييون ، اللهم الا فى استثناء واحد جدير بالملاحظة ، وهو قطعة الافتتاحية التى جاءت تحت عنوان « تمهيد » ، فقد أخذت هذه القطعة من نهاية الفصل الثالث ، حيث رثى فيها تشكلاً فاتحة أفضل من بداية الفصل الأول . ولم يكن شمة مسحة لاختيار القطعتين معاً . وقد عمدنا الى هذا الاستثناء الوحيد من ترتيب النص الاصلى دون أن نقصد الاستعلاء على رأى المؤلف . ولما كان كل فصل من الكتاب يشكل قطعة اجاد المؤلف تصورها وأخراجها — أو قل حركة فيما أسلفنا وصفه بأنه سمفونية عظيمة . ولما كانت هذه الحركات كلها تنتهى الى خاتمة مقررة مؤثرة ، فقد وضعنا نصب أعيننا أن نثبت فصولاً برمتها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . وقد

اعترافى بالفضل :

قدم الى كثير من الاصدقاء المشورة والنصح خالصين دون مقابل فى عملى هذا ، ولم يفتر حماسهم فى حفزى ودفعى فيه . ولو قبلت كل مقترحاتهم لخرجت بنص كامل لكتاب « الاضمحلال والسقوط » . ويستحق مستر فرانك فـ مورلى اجزل الشكر واعظم الامتنان ، لا لجرد تشجيعه الحكيم الرصين فحسب ، بل كذلك لاستعداده التام وسهره الدائب على انجاز المهمة الكبيرة ، الا وهى قراءة التجارب . ويجل عن التقدير كذلك ما قدمت لى زوجتى من مساعدة قيمة فى هذا المضمار . وانى لطيب لى ان اذكر الحماس والفطنة والبراعة التى ابداهها مستر كولن هايكرافت Mr. Colin Hayercraft فى المراجعة النهائية للمختارات، واعدادها للطبع ، وكانت له يد صناع طويلة فى تصحيح العنوانات والمخصصات المتداخلة فى صلب الكلام ، ولولا ما بذل من عون لبدا العمل ثقيلًا . وانى لدين اخيرا باعمق الشكر لاعضاء مؤسسة شاتو ووندس وشركاهم Chatto & Windus Ltd. بالنسبة لهذا الكتاب وغيره منذ سنوات كثيرة مضت ، لعنايتهم واهتمامهم وتديرهم لكل مرحلة من مراحل الاعداد لئلا هذا النوع المعقد من اعمال النشر .

د . م . لو

كرافتن هل ١٩٦٠

العصر الذهبي للأزطونيين

تمهيد (★)

إذا طلبنا إلى إنسان أن يحدد الحقبة من تاريخ العالم التي بلغت فيها أحوال الجنس البشري ذروة السعادة والأزدهار لحددها دون تردد بالمفترة التي انقضت بين موت دوميتيان (١) Domitian واعتلاء كومودس (٢) Commodus العرش . وكانت الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف تحكمها القوة المطلقة على هدى من الفضيلة والحكمة . وكبح جماح الجيوش أيد حازمة ثبته ، وفي نفس الوقت وديعة رفيعة ، لأربعة من الأباطرة تعاقبوا على العرش ، فترقت سلطنتهم وشخصياتهم الاخترام فرضاً . وحافظ نرفا وتراجان وهادريان والأنطونيون في عناية تامة ، على أشكال الإدارة المدنية ، وكانوا يقيمون عيونا بطيف الحرية ، ويبتهجون إذ يعتبرون أنفسهم حباة للقوانين مسئولين عنها . ان هؤلاء الأمراء ليستحقون شرف استعادة الجمهورية ، لو أن المواطنين الرومان على أيامهم كانوا قادرين على التمتع بخريسة تتسم بالتعقل .

ولقد وفيت أعمال هؤلاء الحكام حقها بهذا الجزاء الوفاق الذي اقترن بنجاحهم ، أو قل بهذا الاعتزاز الصادق بالفضيلة والسرور البالغ بما غمر الناس من سعادة كانوا هم ضائعها . ولكن خاطرا مشروعا وحزينا معاً كدر أنبل ما يتمتع به الإنسان ، فائهم لا بد كانوا كثيرا ما يسترجعون أنه لا ثبات ولا استقرار لسعادة تعتمد على شخصية

(★) مقتبس من الفصل الثالث .

(★★) يلاحظ أن أرقام الفصول هنا هي نفسها أرقام الفصول في النص الأصلي الذي دوله جيبون .

(١) أمبراطور روما ٨١ - ٩٦ م .

(٢) امبراطور روما ١٨٠ - ١٩٢ م .

رجل واحد ، فربما اقتربت اللحظة المشئومة التي يستغل فيها الى حد الدمار ، شاب داعر أو طاغية حاقد تلك القوة المطلقة التي استخدمها أولئك الحكام لصلحة شعبيهم . فقد تجددى ضوابط السناتو المثالية ، وتجددى القوانين ، في نشر الفضائل ، ولتنتها لا يمكن أن تقضى على مساوئ الامبراطور ورذائله . وكانت القوة العسكرية أداة للظلم عمياء تتعذر مقاومتها ، ويمكن أن يخلق فساد الخلق الرومانى على الدوام طائفة من المنافقين الذين يتلهفون على الاستحسان والتصفيق ، من الوزراء المسعدين لخدمة سادتهم ، في ساعة الخوف أو الجشع ، والشهوة الجامحة أو القسوة العاتية .

وكان في تجارب الرومان ما يبرر بالفعل هذه المخاوف والظنون الكثيرة . ذلك أن إنشاء الأباطرة تقدم صورة قوية واضحة مبينة للطبيعة الإنسانية ، من العبث أن نلتبسها في الشخصيات المشوبة المشكوك فيها في التاريخ الحديث ، ومن اليسير أن نتعجب شطرب الفضيلة والزيلة في سلوك هؤلاء الحكام ، وتترسم فيهم أعظم الكمال وأخط الانتكاس في صنوف جنسنا البشرى ، فقد سبق العصر الذهبى لبراجان والأنطونيين عصر حديدى . وقد يكون نافذة من القول أن نعدد من لا يستحقون الذكر من خلفاء أوغسطس ، فان رذائلهم المنقطعة النظير والمسرح الفخم الذى مثلت عليه رذائلهم ، أبقى على ذكرهم وأنقذهم من التردى الى زوايا النسيان . فقد دمغ بالفضيحة والعار ابد الدهر سيبريوس Tiberius الجبار الفاض ، وكاليجولا Caligola الشرس ، وكلوديوس Cladius الضعيف ، ونيرون Nero المنذر الفاشم وفيتليوس Vitellus البهيمى الكريه ، وديميتيان الجبان الغليظ القلب . ورزحت روما طوال ثمانين عاما (فيما عدا فترة توقف قصيرة مشكوكا فيها أيام حكم فسيان Vespasian) تحت نير من الطغيان لم تخب ناره أو يهدأ أواره ، أباد الأسرات القديمة في الجمهورية ، وكاد يكون ضربة قاضية لكل فضيلة وكل مقدرة أو نبوغ ظهر في هذه الفترة المنكودة .

واقترن استعباد الرومان تحت حكم هؤلاء الجبابرة بظرفين خاصين ، نجم الأول عن الحرية التي تمتع بها الرومان من قبل ، ونشأ الثانى نتيجة توسعهم في الفتوح ، حتى غدوا في حالة رهبة من التغلصة التي لم يقدر لأية فريسة من ضحايا الطغيان أن تعانها في أي بلد آخر وفي أي عصر آخر . واستتبع هذان العاملان :

١ - حساسة شديدة لدى المظلومين .

٢ - واستخالة الاعلالت من يد الظالمين .

١ - كان يحكم الفرس حكام من نسل الصفوى ، وهم جماعة من الأمراء ، كثيرا ما لطخت قسوتهم القاشمة الفاجرة ديوانهم ومآذيتهم وفراشهم يدم خلتصائهم ، حتى انه ليؤثر عن شباب من النبلاء قوله : انه ما انصرف مرة من حضرة السلطان دون ان يقنع نفسه بان رأسه لا يزال فوق كتفيه . وتكاد خبرة الحياة اليومية تبرر شكوك الفرد هناك ، على انه يبدو أن السيف البتار المتدلى فوق الراس من خيط رفيع واحد ، لم يقض مضجع المواطن الفارسى أو يكرر صفو هدوئه ، فقد علم حق العلم أن عبوس الملك يطرح به الى الأرض ميتا ، ولأن البرق قد يصعقه ، وقد تودى به كذلك نوبة من السكتة القلبية ، وكل أولئك ضربات قاضية على حد سواء . ومن ثم كان على الرجل العاقل أن ينسى البلاء النازل والقضاء المحتوم في حياة الانسان عندما يخلو الى شيء من متاع الدنيا في ساعة عابرة . لقد كرموه بقولهم انه عبد الملك ، وربما كانوا قد اشتروه من أبوين مجهولين في بلد لم يعلم هو من أمره شيئا قط ، ونشأ منذ نعومة أظفاره في ظل النظام القاسى في قصر السلطان . وكان اسمه وثروته وأمجاده كلها هبة من عند سيده ، ومن حق هذا السيد أن يسترد ما وهب ، دون أن يكون في ذلك مجافاة للعدالة ، ولا تجدى المعرفة عند العبد ، اذا تيسر له شيء منها ، الا في تثبيت عاداته عن طريق الآراء الفجة ، ولم تتم الفاظه عن أى شكل من اشكال الحكومة اللهم الا الملكية المطلقة . ولقد أنباه تاريخ الشرق أن تلك كانت دوما حال البشر (١) . كما أن القرآن ، ومفسرى هذا الكتاب المنزل من عند الله ثرروا له أن السلطان كان من نسل النبی ، وأنه نائب عن الله ، وأن الصبر أول فضيلة ينبغى أن يتحلى بها المسلم ، وأن الطاعة العمياء هى أهم واجبات الرعية (٢) .

ولكن أذهان الرومان كانت مهياة للعبودية بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف ، لقد كانوا يعانون من الظلم ألوانا تحت وطأة

(١) يقول شاردين Chardin ان بعض الرحالة الاوربيين نشروا بين الفرس بعض الافكار عن الحرية والاعتدال فى حكومتنا . وقد أساءوا اليهم بذلك إما اساءة .
(٢) التزمنا هنا كل الامانة والدقة فى نقل كلام المؤلف بحروفه وقد لا يقتضى الأمر أن نعلق عليه بأكثر من أن القرآن الكريم والتفسير بريشان من هذه الاباء ليل ، وتعاليم الاسلام الصحيح أبعد ما تكون عن هذا الذى حشره المؤلف هنا حشرا - (المترجم) .

الفساد الذي تردوا فيه هم أنفسهم ، وتحت وطأة العنف العسكري ، ولكنهم احتفظوا لزمان طويل باحساسهم — او على الأقل بفكرتهم ، بأسلافهم الذين ولدتهم امهاتهم احرارا . لقد كان تعليم هلفيديوس Helvidius وتاسيتس Tacitus وتراسيا Trasea وبليني Plini هو نفس تعليم كانوا وشيخرون . لقد نهلوا من معين الفلسفة اليونانية انبل الآراء واكثرها ثخرا عن كرامة الطبيعة الانسانية وغن منشأ المجتمع المدني . وتعلموا من تاريخ بلادهم ان ينظروا بعين الاحترام الى حكومة جمهورية خرة فاضلة منتصرة ، وان يعضوا الجرائم الفاجحة التي اقترنفا قيصر واوغسطس ، وان يزدروا في اعماق نفوسهم هؤلاء الطغاة الذين عبدوهم عبادة منافقة . احط ما يكون النفاق . وكان مرخصا لهم ، بوصفهم قضاة وشيوخا ، في الدخول الى المجلس الموقر الذي كان يوما يملأ القوانين على العالم ، والذي ظل اسمه ضمانا وسندا لتصرفات الملك او الحاكم ، والذي كثيرا ما انتهكت حرمة سلطته لخدمة أدنا اغراض الطغيان ، وحاول تيريوس والاباطرة الذين نهجوا نهجه واعتقدوا ببدائه ان يخفوا جرائم القتل التي يقتربونها تحت ستار من مراسم العدالة وشكليتها ، بل ربما غمرهم شعور خفى من الاغتيال باتهم جعلوا من السناتو شريكا متواطئا معهم ، وفريسة لهم سواء بسواء . وقد ادان هذا المجلس اواخر الرومان بجرائم وهمية كانت في واقع الامر فضائل حقبة ، وانتخل المدعون الشاكون المقوتون لانفسهم لغة المحبين لوطنهم المستقلين بأرائهم ، الذين يستندعون المواطن الخطر الى ساحة المحكمة في بلده لاستجوابه ، وكان موظفو الدولة يجزون الثروة والتكريم . وكان القضاة الاذلاء يعلنون انهم يؤكدون جلال وعظمة الدولة التي تمتن كرامتها في شخص الحاكم الأول ، الذي كان الناس يمتدحون فيه الرأفة والرحمة ايما مديح ، في نفس الوقت الذي ترتعد فيه فرائصهم أشد رعدة لما يحيق بهم من قسوته التي لا ترحم ولا تلين . وقد نظر الطاغية الى خستهم ونذالتهم في ازراء عادل ، وواجه مشاعر المقت والبغض الخفية فيهم بكراهية خالصة علنية لهيئة السناتو بأسرها .

٢ — انتهى تقسيم اوربا الى عدد من الدول المستقلة ، التي يربطها بعضها ببعض ، على أية حال ، ذلك التشابه العام في الدين وفي اللغة والسلوك — انتهى الى خير النتائج واكثرها احسانا الى حرية الجنس البشري . ان الطاغية الحديث الذي لا يجد رادعا من نفسه او مقاومة من شعبه ، سرعان ما يلقي وازعا هادئا في المثل الذي يقدمه

نظراؤه ، وفي الخشية من لوم الساعة ، وفي نصيح حلفائه وفي توقع الشر من أعدائه . وكان من اليسير على من يغضب عليه الطاغية — وقد خرج من الحدود الضيقة لممتلكاته — أن يجد في بيئة أسعد حالا ، ملجأ آمنا ، وقد يتسم له من جديد حظ يكافئ استحقاقه ، أو تتوفر له حرية الشكوى ، وربما تيسرت له وسائل الانتقال . ولكن الإمبراطورية الرومانية ملأت آفاق الأرض ، فما أن وقعت هذه الإمبراطورية بين يدي فرد واحد حتى أصبح العالم بأسره سجنا آمنا كثيلا لأعداء هذا الفرد . وكان كل عبد لهذا الجور الإمبراطوري يرقب في يأس صامت ما يخبئه له القدر ، سواء قضى عليه أن يجبر سلسلته المذهبة في روما أو في السناتو ، أو يفنى حياته في المنفى على الصخور المجدبة في سريفيوس Seriphus أو على الشواطئ المتجمدة للدانوب (١) . وكان في المقاومة هلاكه ، وكان الهرب أمرا مستحيلا ، ففي كل ناحية كانت تطوقه مساحة شاسعة من البر أو البحر ، لا يمكن أن يراوده الأمل في عبورها في مأمن من اكتشافه والقبض عليه وأعادته إلى سيده الهائج . أما وراء الحدود قلن تقع عيناه المتلهفتان ألا على المحيط ، أو على الصجراء القاحلة ، أو على القبائل المتبربرة المعادية ، ذوى الشراسة واللغة المجهولة ، أو الملوك الأتباع الذين يسعدهم أن يشترخوا بحماية الإمبراطور بالتضحية بأي لأجاء ممقوت (٢) . أو كما قال شيشرون لمارسيلس Marcellus وهو في منفاه : « تذكر أنك في قبضة الفاتح وتحت سلطانه أينما كنت » .

(١) سريفيوس Seriphus جزيرة صخرية صغيرة في بحر إيجه ، كان سكانها محتقرين لجهلهم وخمول ذكركم . ان المكان الذي نرى إليه أوليد (الشاعر) معروفا تماما عن طريق عوبله وبكائه ، والذي لا يليق برجل ، ويبدو أنه تلقى أمرا بمغادرة روما في بضعة أيام معدودة ، والانتقل إلى تومي Tomi (حصن على البحر الأسود) ولم تقتض الضرورة حراسا أو سجانين (في المنفى) .

(٢) حاول فارس روماني الهرب إلى بارتيا (مملكة قديمة في الجنوب الشرقي من بحر قزوين) في أيام تيبيريوس ، ولكنه اوقف في مضائق صقلية ، وبدا الخليل من أن يخذل الناس حذره ، حتى أن أشد الطغاة حقا اعتقد أن يغلقه .

الفصل الأول

(٩٨ - ١٨٠ م)

امتداد الامبراطورية الرومانية ، شكراً عامة عنها

تمت الفتوحات الرومانية الهامة في عهد الجمهورية ، وقنع
الأياطرة في معظم الأحوال بالاحتفاظ بهذه الممتلكات ، التي تم
أحرازها بفضل سياسة السناتو ، وتسابق القناصل ، والحماس
العسكري في الشعب . وقد زخرت القرون السبعة الأولى بتتابع
الانتصارات السريعة ، ولكن قدر على أوغسطس أن ينبذ مشروع الطمع
في إخضاع العالم بأسره ، وينفخ روح الاعتدال في المجالس العامة .
وكان يميل إلى السلام بطبيعته وبحكم موقفه ، ولذلك كان من اليسير
عليه أن يكتشف أن أمل روما — بمكانتها الرفيعة الحالية — في امتشاق
الحسام أقل كثيراً من تهيئها له ، وأن مواصلة القتال في الحروب
الفائنية كانت عبئاً يزداد في كل يوم مشقة وعناء ، بقدر ما يزداد الشك
في النتيجة ، ويتخلخل الاستقرار في الممتلكات ، ويقل نفعها . وزادت
تجربة أوغسطس من قيمة هذه الآراء السديدة ، واقنعته بالفعل أنه
بفضل نصائحه القوية الحكيمة ، يسهل على روما أن تحصل من
هؤلاء المتبربرين المروعين على كل ما تتطلبه سلامتها وكرامتها من
تنازل أو اذعان ، فتوصل بمقتضى معاهدة مشرفة — بدلا من تعريض
نفسه وقواته لسهام البارثيين — إلى استعادة الاعلام والأسرى
الذين أخذوا في هزيمة كراسوس .

وحاول قواده ، في مسنهل حكمة ، إخضاع اثيوبيا والجنوب
العربي ، وساروا نحو ألف ميل إلى الجنوب من مدار السرطان ،
ولكن حرارة الجو ردت الغزاة على أعقابهم ، وحمت السكان غير
المحازيين في هذه الأقاليم المنعزلة . أما دول أوروبا الشمالية فكانت
لا تكاد تستحق عناء الغزو ونفقتة . وكانت غابات ألمانيا وبطاحها .

تموج بقبيلة ذات بأس شديد من المتبريرين الذين كرهوا الحياة اذا لم تقتزن بالحرية . وبدا أنهم استسلموا لأول ضربة تحت ضغط القوة الرومانية ، ولكنهم رغم ذلك ، سرعان ما استردوا استقلالهم بعد محاولة يائسة مستميتة ، وذكروا أوغسطس بتقلبات الحظ . وعند وفاة هذا الامبراطور قرئت وصيته علنا في السنااتو ، فاذا به قد أوصى لخلفائه من بعده بتراث قيم ، ذلك أنه قدم لهم النصيح ببقاء الامبراطورية ، داخل تلك الحدود التي يبدو أن الطبيعة نفسها قد جعلت منها حصونا وحدودا ثابتة دائمة للامبراطورية : اعنى المحيط الأطلسى غربا ، والراين والدانوب شمالا ، والفرات شرقا ، وصحراء العرب وصحراء افريقية جنوبا .

ولحسن الحظ ، ولطمأنينة الجنس البشرى وهدوئه ، نجد أن اسلوب الاعتدال الذى انبثق عن حكمة أوغسطس ، انتهجه خلفاؤه المباشرون على أساس من مخاوفهم ورذائلهم . فقد انغمس القيصرية الأول في اللهو وانصرفوا الى الظلم والظفیان ، ومن ثم ندر ظهورهم مع الجيوش ، أو في الولايات ، كما أنهم لم يكونوا مستعدين ليروا في لوعة أن هذه الانتصارات التى أهملها خمولهم وتراخيهم قد يفتصبها قوادهم بفضل تدبيرهم وجراتهم وشدة بأسهم . وكانت الشهرة العسكرية لآى فرد من الرعية تعتبر عدوانا صارخا على الامتيازات أو الحقوق الامبراطورية ، ومن ثم كان من واجب أى قائد رومانى أن يحى الحدود التى هو مكلف بحراستها ، دون التطلع الى فتوح قد يثبت أنها ليست أقل خطرا على شخصه منها على المتبريرين المهزومين .

ولم يزد على الامبراطورية الرومانية في القرن الأول المسيحى سوى ولاية بريطانيا ، وهذه هى المرة الوحيدة التى أغرى فيها خلفاء قيصر واوغسطس بأن يخذوا حذو الأول أكثر منهم باتباع وصية الثانى . ويبدو أن قرب بريطانيا من شواطئ الغال هو الذى استحث القتال ، كما أسال اللعاب وحرك الاطماع أبناء سعيدة ، قد تكون مشكوكا في صحتها ، عن وجود مصائد اللؤلؤ . ولما كان ينظر الى بريطانيا على أنها عالم متميز منعزل ، فان فتحها لم يكد يشكل أى استثناء للأسلوب العام لاجراءات الغزو داخل القارة . وخضع معظم الجزيرة للنير الرومانى بعد حرب دامت نحو أربعين سنة ، اءارب بداها أففى الأباطرة ، واستمر فيها أكثرهم فسقا وفجورا ، وانهاها أشدهم جبنا . وكانت مختلف قبائل البريتون ذوات بأس شديد ، ولكن دون

تدبير أو قيادة ، كما تملكهم تحب الحرية دون روح الوحدة ، فقد يشهرون أسلحتهم في وحشية عاتية ، وقد يضعونها ، أو يسددونها إلى صدور بعضهم بعضاً ، وكل أولئك في ثقل سريع طائش ، فلما شاتلهم الرومان وهم على هذه الحال من الفرقة ، أمكن إخضاعهم تباعاً . ولم يجد بأس كاراكتاكوس Caractacus (أحد رؤساء القبائل) أو استماتة الملكة بوديكا Boadicea ، أو تعصب الدروود Druids (مذهب الكلت الدينى قبل المسيحية) — لم يجد كل أولئك نفعا في الحيلولة دون استعباد بلادهم أو في مقاومة التقدم المطرد للقادة الامبراطوريين الذين حافظوا على المجد الوطنى ، على حين تلوثت كرامة العرش ولحقه العار بجلوس أرذل بنى الانسان وأضعفهم عليه . وفى نفس الوقت الذى قبع فيه دوميتيان فى قصره شاعرا بما أشاعه من رعب وارهاب ، هزمت جيوشه تحت إمرة أجريكولا الفاضل ما تجمع من قوات كاليدونيا (الاسم القديم لاسكتلنده) عند سفح تلال جرابيان ، وقامت أساطيله — عندها غامرت بارتياح طريق بحرى خطير مجهول — باستعراض الأسلحة الرومانية حول الجزيرة البريطانية بأسرها واعتبر فتح بريطانيا أمرا مقروغا منه . وكانت خطة أجريكولا ، استكمالاً وتوكيدا لنجاحه ، أن يغزو أيرلنده ، وتلك مهمة يسيرة يكفى لها — فى رأيه — غيلق واحد وقليل من القوة المساعدة ، ومن الميسور اصلاح أحوال هذه الجزيرة الغريبة لتصبح درة ثينة فى الممتلكات الرومانية ، وعندئذ يكون البريتون أقل ضجرا وابتعاضا بالأغلال والقيود التى وضعت عليهم ، اذا أزيح من أمام أعينهم ، أينما اتجهت أبصارهم ، نموذج الحرية ومنظرها .

ولكن سرعان ما اقتضت مقدرة أجريكولا الفائقة إبعاده عن حكومة بريطانيا ، واختفى بذلك إلى الأبد مشروع الفتح المعقول والضخم معا . وعلى هذا القائد الحازم قبل رحيله على استتباب الأمن والسيطرة سواء بسواء ، وكان قد لاحظ أن الجزيرة تكاد تقسم إلى قسمين غير متساويين ، بالخلجان المتقابلة التى يطلق عليها الآن مضائق اسكتلنده ، فأقام فى نحو ٤٠ ميلا من الجزء الداخلى الضيق خطا من المحطات العسكرية التى جرى تحصينها فيما بعد ، فى عهد أنطونينوس بيوس Antoninus Pius ، بحاجز أخضر مشيد على أساس من الحجر . وتقرر أن يكون سور أنطونينوس هذا ، وهو على مسافة قصيرة وراء المدينتين الحديثتين أدنبره وجلاسجو ، حدا للولاية الرومانية . واحتفظ أهل كاليدونيا فى الألفاظ الشمالية من

الجزيرة ، باستقلالهم الهمجى ، الذى لم يكن الفضل فيه لفقرهم أقل منه لبسالتهم . وكثيرا ما صدت غاراتهم وعوقبوا عليها ، ولكن لم يتم اخضاع بلادهم قط . وانصرف سادة أجمل بقاع الأرض منأخا وأكثرها رخاء ، فى احتقار وازدراء ، عن هذه التلال الكثيفة التى تجتاحها عواصف الشتاء ، وعن البحيرات التى تختفى تحت الضباب الأزرق ، وعن المروج الباردة الموحشة التى كانت جماعات المتبربرين العراة تطارد فوقها غزلان الغابات .

تلك كانت حال الحدود الرومانية ، وتلك كانت مبادئ السياسة الامبراطورية ، منذ موت أوغسطس حتى اعتلاء تراجان العرش . وتلقى هذا الأمير الفاضل النشيط تعليما عسكريا ، وتجلت فيه صفات القائد . وقطعت مشاهد الحرب والغزو أسلوب السلام الذى انتهجه أسلافه ، وأبصرت القوات بالامبراطور العسكري على رأسها بعد سكون طويل الأمد . ووجهت أول أعمال تراجان الباهرة ضد الداشيين Dacians ، وهم محاربون أشداء كانوا يقطنون فيما وراء الدانوب ، نالوا من هبة روما ، وجرحوا كبرياءها فى عهد دوميتيان دون أن يلقوا جزاءهم ، وقد جمعوا الى قوة المتبربرين ووحشيتهم ، احتقارا للحياة نابعا من اقتناعهم الشديد بخلود الأرواح وتناسخها . وارتضى ديكيبالوس Decebalus ملك داشيا أن يكون خصما جديرا بتراجان ، كما لم يتطرق الى نفسه اليأس من حظه هو أو حظ شعبه عامة ، حتى استنفد — باعتراف اعدائه — كل موارده من البسالة والسياسة . واستمرت هذه الحرب المشهودة خمس سنوات ، مع توقف قصير جرت خلاله بعض المناوشات . ولما كان الامبراطور يستطيع دون رقابة أن يستغل كل امكانات الدولة ، فقد انتهت هذه الحرب بخضوع المتبربرين خضوعا تاما . وكانت ولاية داشيا الجديدة هى الاستثناء الثانى من وصية أوغسطس وناموسه . وكان محيطها يبلغ نحو ١٣٠٠ ميل . وكانت حدودها الطبيعية هى نهر الدنيستر ، والنيس ، والدانوب الأدنى ، والبحر الأسود . وما تزال بعض آثار الطريق الحربى باقية يمكن تعقبها من خفاف الدانوب الى أرباض بندر Bender — وهو مكان مشهور فى التاريخ الحديث — وهو الحد الفعلى للامبراطوريتين التركية والروسية .

وكان تراجان يطمع فى الشهرة ، وظالما داب البشر على المبالغة فى التحليل لمحطيه أكثر منه للمحسنين اليه ، فسيظل القمائل الى المجد العسكري سيئة أعظم الشخصيات المجددة ، ولقد اذكى نار الغيرة الخطيرة فى قلب تراجان ما رددته الشعراء والمؤرخون على مر الزمان

من مديح الاسكندر والثناء عليه . وحذا امبراطور الرومان حذو الاسكندر ، فأنفذ حملة الى اعم الشرق ، ولكن ذهبت نفسه حشرات على أن تقدمه في العمر لا يكاد يدع له فسحة من الأمل في أن يضارع ابن فيليب (الاسكندر) في شهرته . على أن نجاح تراجان ، مهما كان عابراً ، فإنه كان كذلك سريعاً لا يدل مظهره على مخبره . فان البارثيين المنحطين الذين حطمهم النزاع الداخلي ولوا الادبار أمام قواته . واخذ تراجان طريق دجلة من جبال أرمينيا الى الخليج الفارسي (خليج العرب) وحظي بشرف كونه أول قائد روماني — وآخر قائد روماني كذلك — يخر عباب هذا البحر السحيق ، نهبت أساطيله شواطئ بلاد العرب ، وعبثا زين تراجان لنفسه أنه كان يقترب من حدود الهند . وكان السناتو المذهول يتلقى كل يوم أنباء عن أسماء جديدة وأمم جديدة اعترفت بسلطانه عليها . كما ترامت اليهم الأنباء بان ملوك البسفور وكولكيس Colchis وأيبيريا والباينا وأسرهم Osraene ، وحتى ملك بارثيا نفسه ، وارتضوا أن يتسلموا تياجانهم وعروشهم من يد الامبراطور ، وأن القبائل المستقلة في تلال ميديا وكردوش توسلت اليه ليعسط حمايته عليها ، وأن البلاد الغنية : أرمينيا ، وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وأشور قد أصبحت ولايات تابعة له ، ولكن ، سرعان ما أقيمت هذه الصورة الرائعة بموت تراجان ، وكان حقاً توجس الخيفة من انتفاض كثير من الأمم البعيدة وخلصها هذا النير الذي لم تألفه ، بعد أن تراخت قبضة اليد القوية التي فرضته حول الرقاب .

وتقول اسطورة قديمة انه حين أسس أحد ملوك الرومان الكابيتول فان الاله ترمينوس Terminus (الذي رابط على رأس الحدود ، وكان يمثله طبقاً لأسلوب ذاك الزمان حجر كبير) هذا الاله وحده — دون الآلهة التي هي أقل شأناً — هو الذي كان يرفض التخلي عن مكانه للاله جوبيتر نفسه . وقد اتخذ من عناد ترمينوس دليل مقبول فسرته العرافون على أنه نبوءة أكيدة بأن حدود سلطان الرومان لن تتقلص قط ، وكانت النبوءة على مر العصور تسبم في مدى تحقيقها هي نفسها ، كما هي العسادة . ولكن الاله ترمينوس الذي قاوم عظمة جوبيتر استسلم لسلطان الامبراطور هادريان . وكان أول مظاهر عهده التخلي عن كل فتوحات تراجان في الشرق . فأعاد الى بارثيا حق اختيار ملك مستقل ، وسحب الحاميات الرومانية من ولايات أرمينيا وميزوبوتاميا وأشور . وتمشيياً مع تاموس أوغسطس ، جعل الفرات مرة أخرى حداً للامبراطورية .

ومن ثم ضاعت في زوايا النسيان لهجات ايطاليا القديمة ، مثل لهجة السابين Sabine (قبائل سكنت جبال الابنين فى وسط ايطاليا) ، ولهجة اتروريا ، ولهجة فينيسيا ، ولكن الولايات كانت في الشرق اقل منها في الغرب تقبلا لتوجيه معلميهم الطافرين . وكشف هذا الفارق البارز بين شطرى الامبراطورية عن تباين في الألوان كان مختلفا نوعا ما في ذروة الازدهار ، ولكنه تكشف واستبان مع الأيام حين بدأ الليل يسدل أستار الظلام على دنيا الرومان . لقد بعثت الحضارة في أقطار الغرب على أيدي من اخضعوها ، وما أن أخذ المتبربرون الى الطاعة حتى تفتحت أذهانهم لكل طارق من ألوان المعرفة والتهديب ، وعمت لغة فرجيل وشيشرون ، مع شيء من خليط لا مفر منه ، افريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا وبانونيا Pannonia (ولاية رومانية قديمة كانت تقع بين نهري الدانوب والساف) الى حد أن الآثار الباهتة لمصطلحات اللغتين البونيه (الفينيقية) والكلتية لم يعد لها وجود الا في الجبال أو بين الفلاحين . وكان للتعليم والدراسة فعلهما في استئلام أهل تلك البلاد لمشاعر الرومان وعواطفهم دون أن يحسوا . وعملت روما على تكييف أهل الولايات اللاتينية وتشكيلهم ، كما زودتهم بالقوانين . ولشد ما هفت نفوسهم الى الحرية والى ايجاد الدولة ، وما كان أيسرها منالاً لهم ! وعززوا الكرامة الوطنية بالكلمة وبالسلاح ، وأخيرا صنعوا من شخص تراجان امبراطورا لم يكن آل اسكيو Scipios ليتخلوا عنه لوحد من أبناء جلدتهم . وكان موقف الاغريق يختلف عن موقف المتبربرين . فلفقد طال عهد الأولين بالمدنية وبالفساد . وكان بهم ميل شديد الى هجر لغتهم ، ولكن الضرور استبد بهم الى حد العزوف عن اقتباس أية نظم اجنبية . واحتفظوا بما كان يملك أسلافهم من روح التحيز بعد أن فقدوا فضائلهم ، ومن ثم تصنعوا احتقار ما كان للرومان الفاتحين من سلوك خشن غير مصقول ، على حين اضطروا الى احترام قوتهم وحكمتهم السامية (١) . وكذلك لم تكن العواطف واللغة اليونانية محصورة في النطاق الضيق لهذا البلد الذى ذاعت يوما شهرته . ذلك أن امبراطوريتهم — اليونان — امتدت عن طريق المستعمرات والفتوح من الأدرياتيك الى الفرات والى النيل ، وامتلات آسيا بالمدن اليونانية . وأحدث الحكم المقدونى الطويل في سوريا ومصر انقلبا صامتا ، ولقد

(١) ليس هناك ، فيما اعتقد ، من ديونيسيوس Dionysius الى ايبانيوس Libanius واحد من النقاد اليونانيين ذكر فرجيل او هوراس ، وكانى بهم جهلون أن بين الرومان كتابا كبيرا .

واتجه اللوم الذى ينصب عادة على الأعمال العامة والبواعث الخاصة للحكام ، اتجه الى أن يرجع الى الشعور بالحقد تصرفا كان يمكن نسبه الى حزم هادريان واعتداله ، وكانت شخصية هادريان متعددة الجوانب ، فهو قدير ، تنقلب عليه نوبات من أحط المشاعر وأنبليها ، الأمر الذى يفسر الشك نوعا ما ، ومهما يكن من أمر ، فإنه ما كان فى مكنه أن يبرز تفوق سلفه بشئ أكثر من اعترافه بأنه غير أهل لمهمة الدفاع عن فتوح تراجان .

ان روح تراجان العسكرية الطموحة لتشكل تباينا فريدا مع اعتدال خلفه . على أن النشاط القلق عند هادريان لم يكن أقل اعتبارا اذا قيس بالسكون الهادئ عند انطونينوس بيوس ، وتكساد حياة الأول تكون رحلة متواصلة ، وطالما أوتى مواهب الجندي ورجلي الدولة ، والرجل العالم ، فقد أشبع فضوله وجبه للاستطلاع فى النهوض بأعباء وأجبه . وما كان ليأبسه بالاختلاف بين الفصول والأجواء ، فمضى على قدميه عارى الرأس فوق ثلوج كاليدونيا ، والسهول اللافحة فى صعيد مصر ، ولم تبق فى الامبراطورية طوال حكمه ولاية لم تحظ بشرف قدوم الامبراطور اليها ، على حين قضى انطونينوس بيوس حياته الناعمة فى أحضان ايطاليا . وفى السنوات الثلاث والعشرين التى قضاها فى ادارة البلاد ، لم تطل رحلة هذا الأمير المحبوب لأكثر من المسافة بين قصره فى روما وبين فيلا لانوفيا حيث يستريح ويستروح .

ورغم هذا الاختلاف فى سلوكهم الشخصى ، انتهج هادريان والامبراطوران الانطونينيان ، بنفس القدر ، الأسلوب العام لاوغسطس ، واتبعوه حذو النعل بالنعل ، فاستمسكوا بخطة المحافظة على هيبة الامبراطورية وكرامتها دون محاولة منهم لتوسيع حدودها . فحذروا بكل وسيلة شريفة لمصادقة المتبريرين ، وحاولوا اقناع بنى الانسان بأن القوة الرومانية تتسامى على شهوة الفتح ، وأنها لا تعمل الا حبا فى اقرار النظام والعدالة . وكللت أعمالهم الفاضلة بالنجاح طوال فترة طويلة امتدت الى ثلاثة وأربعين عاما . واذا استثنينا بعض المناوشات البسيطة التى أنادت فى تهرين فرق الحدود ، فان حكم هادريان وانطونينوس بيوس يقدم صورة جميلة للسلام العالمى . وأصبح اسم الرومان موضع أجلال واحترام لدى أبعد أمم الأرض . وكثيرا ما بسط أشد المتبريرين وحشية خلافاتهم للامبراطور لتحكيمه فيها . وينبئنا مؤرخ معاصر أنه رأى سفراء يتوسلون للترخيص لهم فى أن يكون لهم شرف المواطنة ، فلم يسمح لهم بهذا الشرف .

فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية (★)

ان هذا الثبت الطويل من الولايات التي تكون من فتاتها كثير من الممالك القوية ، غالبا ما يحملنا على أن نغفر للأقدمين غرورهم أو جهلهم . ولقد سمح الأباطرة لأنفسهم - وقد بهر أبصارهم اتساع النفوذ ، والقوة الجبارة ، والاعتدال الحقيقي أو المصطنع - أن يحتقروا أو ينسوا أحيانا تلك الأقطار النائية التي تركت لتتمتع باستقلال همجي . ثم انهم ، شيئا فشيئا ، اغتصبوا الحق في الخلط بين الملكية الرومانية والكرة الأرضية جمعاء . ولكن فطرة المؤرخ الحديث وعلمه معاً يتطلبان لغة أدق وأرشد . فقد يرسم لحظمة روما صورة أعدل ، فيقول ان الامبراطورية كانت تبلغ أكثر من ألفي ميل عرضا ، من سور انطونينوس والحدود الشمالية لداشيا الى جبال أطلس ومدار السرطان ، وانها امتدت طولا لأكثر من ثلاثة آلاف ميل ، من المحيط الأطلسي الى الفرات ، وانها كانت واقعة في أجمل بقاع المنطقة المعتدلة، بين خطي عرض ٢٤ و ٥٦ من خطوط العرض الشمالية ، وانها كانت تضم مساحة قدرها مليون وستمائة ألف ميل مربع ، معظمها أرض خصبة يكسوها أحسن الزرع .

(★) حذف الكلام هنا عن القوات المسلحة والولايات .

الفصل الثانى

(٩٨ - ١٨٠ م)

الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية

الولايات والآثار ، تحسين الزراعة

ليس لنا أن نقيس عظمة روما بسرعة الفتوح ومدى اتساعها فقط ، فإن ملك الصحراء الروسية يسيطر على جزء من الكرة الأرضية أكبر من الامبراطورية الرومانية ، كما أن الاسكندر اقام فى الصيف السابع من عبوره مضيق الدردنيل ، النصب التذكارية على ضفاف عيفاسس Hyphasis فى مقدونيا . وفى أقل من قرن شن جنكيزخان الجبار وأمراء المغول من بنى جلدته هجماتهم العنيفة الكاسحة المدمرة وأقاموا امبراطوريتهم العابرة من بحر الصين الى حدود مصر والمانيا . ولكن حكمة العصور هى التى رفعت قواعد الصرح الثابت للقوة الرومانية ، وهى التى حافظت عليه . فقد وحدت القوانين بين الولايات المطيعة على عهد تراجان والأنطونيين ، كما ازدهرت فيها الفنون ، وربما عانت الولايات أحيانا من استغلال غير نزيه للسلطة المخولة لبعض حكامها ، ولكن المبدأ العام للحكومة كان مبدأ حكمها بسيطا خيرا ، ولقد تمتعوا بممارسة دين أسلافهم ، على حين أنهم بالنسبة لألوان التكريم والمزايا المدنية كانوا يتمتعون بمراتب ودرجات عادلة ، الى حد التساوى مع الغزاة الفاتحين .

١ - كانت سياسة الاباطرة والسناطو فيما يتعلق بالدين تظاهرا فى ارتياح تام ، سواء بسواء ، آراء المستنيرين وعادات ذوى الخرافات من الرعايا ، تلك التى كانت جزءا لا يتجزأ من حياتهم . واعتبر الناس فى دنيا الرومان أن مختلف ألوان العبادة صادقة حققة على قدم المساواة ، كما اعتبرها الفلاسفة باطلة كاذبة على قدم المساواة كذلك ،

كما تساوت جميعها في عين الحكام على أنها مقيدة . ومن ثم لم يؤد هذا التسامح الى السماح المتبادلة فحسب ، بل الى وثام ديني كذلك .

ولم تكن ثمة اخلاط من ضغائن أو حزازات لاهوتية تنفص دنيا الخرافة (العقائدية) عند الشعب ، كما أنه لم تحدد منها أية قيود يفرضها أى أسلوب من أساليب التأمل . وكان المشرک الورع يسلم بكل أديان العالم عن اعتقاد راسخ ، رغم التزامه الشديد بشعائره وطقوسه الوطنية الخاصة . وكان الخوف وعرفان الجميل والفضول ، والحلم أو الفأل ، والاضطراب الشاذ أو الرحلة البعيدة ، كل أولئك كان يحمله على الاكثار من أصول عقيدته والاستزادة من عدد حماته (معبوداته) . وكان النسيج الرفيع للميثولوجيا الوثنية منسجراً ببواد مختلفة ولكنها غير متنافرة ، ولما أساغوا القول بأن الحكماء والأبطال الذين عاشوا أو قضوا نجبهم في سبيل مصلحة بلادهم قد سمو الى مرتبة القوة والخلود ، ساد الاعتراف بأنهم جديرون على الأقل باحترام الجنس البشرى واجلاله ، ان لم يكونوا جديرين بالعبادة . وكان كل اله من آلهة الآلاف من الغابات والأنهار يحتفظ في هدوء بنفوذه المحلي الخاص به . فلم يكن الرومانى الذى يستعبد من غضب التير ، يستطيع أن يسخر من المصرى الذى يقدم القرىان للنيل لمبقريته الخيرة . وكانت القوى المرئية للطبيعة والكواكب والعناصر هى هى نفسها في أنحاء الكون بأسره ، أما حكام دنيا الأخلاق غير المرئيين فقد صبوا بالضرورة في قوالب متشابهة من الخيال والمجاز . وكانت كل فضيلة ، بل كل وكل رذيلة ، تتطلب ممثلاً الهيا لها ، كما تتطلب كل فن وكل حرفة حامياً وراعياً ، وقد اشتقت منذ أقدم العصور خصائصهم وصفاتهم جميعاً ، على نسق واحد ، من أخلاق المتعلقين بهم . ومثل هذه الجمهورية من الآلهة المتعاضدين في الأمزجة والطباع والمصالح كانت تتطلب ، بكل الوسائل ، يدا ملطفة لحاكم أعلى أسبغ عليه بالتدريج ، وتبعاً لتقدم المعرفة والتفنن في التملق ، الكمال الفائق لأب أزلى وملك على كل شيء قدير . تلك كانت روح الاعتدال في العصر القديم ، حتى ان الأمم آنذاك كانت أقل التفاتاً الى وجوه الخلاف ، منها الى وجوه الشبه ، بين عباداتها الدينية . ولقد سهل على الاغريق والرومان والتبربرين — عندما كانوا يقفون — كل أمام مذبحه الخاص — أن يقنعوا أنفسهم بأنهم جميعاً يعبدون نفس الآلهة ، وان تعددت الاسماء والطقوس ، وقد أضفت أساطير هوميروس الطريفة على تعدد الآلهة في العالم القديم شكلاً جميلاً يكاد يكون قياسياً .

ولقد استنيط فلاسفة اليونان أخلاقياتهم من طبيعة الانسان اكثر منها من طبيعة الله . انهم ، على أية حال ، تأملوا طويلا في الطبيعة الالهية بوصفها موضوعا للتأمل يبالغ الغراية والاهمية ، كما انهم في استقصائهم العميق عرضوا لمواطن القوة والضعف في ادراك الانسان . ومن بين المدارس الأربع المشهورة ، حاول الرواقيون والأفلاطونيون أن يوائموا بين المصالح المتنافرة للعقل والتقوى ، وقد خلفوا لنا أربع البراهين على وجود « العلة الأولى » وضروب الخيال فيها . ولكن لما استحال عليهم ادراك خلق المادة ، بات « الصانع » في فلسفة الرواقيين غير متميز الى حد كاف عن الصنعة ، على حين أنه على النقيض من ذلك ، كان « الاله الروحي » عند أفلاطون وتلاميذه ، فكرة أكثر منه مادة . أما الأكاديميون (النظريون) والأبيقوريون فإن المسحة الدينية في آرائهم كانت أقل ، ولكن في الوقت الذي فيه حمل الأولين عليهم المتواضع على الشك في وجود « العناية الالهية في حاكم أعلى » ، حرض الآخرين جهلهم الأكيد على انكار ذلك . وادت روح الاستقصاء — وقد افكتها المنافسة والتفاخر ودعمتها الحرية — الى انقسام اساتذة الفلسفة الى تشكيلة من الفرق المتنازعة . ولكن الشباب الذكي الذين نزحوا الى أثينا وإلى مراكز الدراسة في الامبراطورية الرومانية ، لقنوا جميعا في كل مدرسة أن ينكروا ويزدورا ديانة عامة الناس . قل لي بريك كيف كان يمكن أن يتقبل فيلسوف قصص الشعراء القافه أو التقاليد القديمة المفككة المتنافرة على أنها حقائق الهية ، أو يعبد ، على أنها آلهة ، هذه الكائنات الناقصة المعيبة التي احتقرها على أنها رجال ؟ ولقد ارتضى شيشرون أن يشرع سلاح العقل والبيان ضد هؤلاء الخصوم الذين لا قيمة لهم . ولكن هجاء لوشيان كان سلاحا أكثر ملاءمة ومضاء في وقت ممثا . ومن المؤكد أن أى كاتب مطلع على العالم ما كان ليجرؤ على تعريض آلهة بلده للتسفيه العام ، الا اذا كان الآلهة أنفسهم موضع زراية خفية بين الطبقات المهذبة المستنيرة في المجتمع .

وكانت مصالح الكهنة وسلامة نوايا الناس وسرعة تصديقهم موضع الاحترام ، رغم ما كان سائدا من الكفر وعدم التدين على عهد الأنطونيين . فقد أكد الفلاسفة القدامى في كتاباتهم ومحادثاتهم المقام المستقل للعقل ، ولكنهم لبوا في تصرفاتهم داعى القانون والعرف . وفي ابتسامتهم تم عن الاشفاق والتغاضى عن مختلف أخطاء الرعاع ، نشطوا في تأدية طقوس آبائهم ، وعكفوا في تقى وورع في معابد الآلهة ، بل لقد ارتضوا أحيانا أن يمثلوا دورا على مسرح الخرافة . وكانى بهم ،

في هذا كله أخفوا مشاعر الاحاد تحت رداء الكهنوت . ولا يكاد يميل من يتطبعون بهذا الطبع الى الحاجة في صنوف معتقداتهم أو عباداتهم الخاصة بهم ، ولم يكونوا يكثرثون ، بل كان يستوى عندهم أى شكل من الحماية يأخذ الجمهور انفسهم به ، ومن ثم تصدوا — مع ما يخفون في انفسهم من احتقار ، بما يبدون في الظاهر من اجلال — قصدوا الى مخبح الاله جوبيتر في ليبيا أو في أولمبيا أو في الكابيتول في روما .

وليس من اليسير ان ندرك لماذا برزت روح الاضطهاد في المجالس العابة الرومانية ، وماذا كانت بواعثها . وما كان التعصب الاعمى ، مهما كان مخلصا ، ليستفز الحكام ، لأنهم كانوا هم انفسهم فلاسفة ، كما ان مدارس الفكر في أثينا زودت السناتو بالقوانين . وما كان الطموح أو الجشع ليسوقهم الى شيء ، لأن السلطتين الزمنية والدينية كانتا متحدثين في قيضة واحدة . وكان الاحبار يختارون من بين الممتازين من أعضاء السناتو ، أما منصب الحبر الأعظم فإن الإباطرة انفسهم كانوا يشغلونه . ولقد عرفوا وقدروا مزايا الدين بوصفه متصلا بالحكومة المدنية ، وشجعوا الاحتفالات العامة التي تصقل الشعب وتهذب خلقه ، وأخذوا بأنماط الكهانة والعرافة بوصفها أداة مناسبة من أدوات السياسة . ونظروا بعين التقدير والاحترام ، وكأنه أوثق رباط في المجتمع ، الى ما وقر في الأذهان من اعتقاد يقيني نافع بأن آلهة الانتقام ستعاقب جريمة شهادة الزور أو الحنث في اليمين ، ان عاجلا أو آجلا ، في الحياة الدنيا أو في الحياة الثانية . ولكننا نجد أنهم بينما سلموا بالمزايا العامة للدين ، اقتنعوا كذلك بأن مختلف أشكال العبادة انما تعاون بنفس القدر على تحقيق نفس الأغراض السليمة . وأن لون الخرافة الذى أجازره واقره الزمن والاختبار في كل بلد ، هو أحسن ما يصلح للمناخ والسكان فيه . وكثيرا ما سلب الجشع والدوق الأمم المقهورة التماثيل الرشيقية لآلهتها والزخارف الثمينة لمعابدها . ولكنهم في ممارسة الديانة التي أخذوها عن أسلافهم ، نعموا دوما بتسامح الفاتحين من الرومان بل وبحمايتهم . ويبدو أن ولاية الفال — والواقع أنها تبدو فقط — هي الوحيدة التي شذت عن قاعدة التسامح العام الشامل هذا ، ذلك أن الامبراطورين تيبيريوس وكلوديوس قمعوا من السلطان الرهيب الذى كان لطائفة الدروود Druids (ديانة الكلت في فرنسا وبريطانيا وايرلندا قديما) بحجة زائفة هي ابطال تقديم القرابين من البشر . ولكن الكهنة انفسهم وآلهتهم ومذابحهم عاشوا في غموض وخفاء وهذوء حتى قضى على الوثنية قضاء نهائيا .

وزخريت روما ، عاصمة المملكة العظيمة ، دوما بالرعايا والغرباء من كل أرجاء العالم ، الذين كانوا ينعمون فيها ويدخلون اليها خرافاتهم المحببة اليهم في اوطانهم . وكان لكل مدينة في الامبراطورية حق المحافظة على نقاوة احتفالاتها القديمة وأصالتها ، وكان السناتو الروماني ، بما له من حق عام ، يعترض في بعض الاحيان ليحول دون طغيان الطقوس الأجنبية . وطالما حرمت الخرافات المصرية ، من بين أدنى الخرافات وأجدرها بالمرزية ، كما هدمت معابد سيرابيس Serapis (إله العالم السفلى) وايزيس ، وأبعد عبادهما عن روما وإيطاليا . ولكن حماس التمسب تغلب على الجهود الفاترة الهزيلة للسياسة ، فعاد المنفيون ، كما تضاعف عدد المريدين ، وأعيدت المعابد أكثر ضخامة وفخامة ، وتبوا سيرابيس وايزيس في النهاية مكانهما بين الآلهة الرومانية . ولم يكن هذا التساهل خروجاً على سنن الحكم القديم ، فكم دعيت سيبييل Cybele إلهة الطبيعة (واسكولابوس Aesculapius (إله الطب والشفاء) في أزهى عصور الجمهورية ، عن طريق بعثات وقورة . وكان من المؤلف اغراء حماة المدن المحاصرة بالوعد بأن يختصوا بألوان من التكريم أفضل مما في بلادهم ، وأصبحت روما بعد يوم المعبد المشترك لرعاياها جميعاً ، وأسبغت حرية المدينة على كل آلهة الجنس البشرى .

٢ - ان النظرة الضيقة لسياسة الاحتفاظ بنقاوة دم المواطنين القدامى دون أن يشوبه أى دم أجنبى ، عوقت أثينا واسبرطة ، وعجلت بفنائهما . ولكن العبقرية المتطلعة في روما ضحت بالفرور في سبيل الطموح ، وقدرت أنه من دواعى الكياسة والحزم والشرف معا ان تقتبس الفضيلة والموهبة حيثما وجدت : بين الرقيق أو الغرباء أو الأعداء أو المتبريرين على حد سواء . ولقد تناقص عدد المواطنين يوماً بعد يوم في أبهى عصور الجمهورية في اثينا من ثلاثين الى واحد وعشرين ألفاً . وعلى النقيض من ذلك ، نجد - اذا درسنا نمو الجمهورية الرومانية - أنه على الرغم من مطالب المستعمرات والحروب التى لا تنقطع ، لم يزد عدد المواطنين طبقاً للأحصاء الأول الذى أجراه سرفيوس تولى Servius Tullius ، عن ثلاثة وثمانين ألفاً ، ثم تضاعف قبل بداية الحرب الاجتماعية ، الى أربعمئة وثلاثة وستين ألفاً من الرجال القادرين على حمل السلاح في خدمة بلدهم . ولما طالب حلفاء روما بنصيب متساو في التكريم والامتيازات ، أثر السناتو في الواقع فرصة التسلح على مجرد التنازل المذل ، ودفع السامانيون Samnites واللوكانيون Lucanians لتهورهم واندفاعهم ثمناً باهظاً ، أما سائر

الولايات الايطالية ، وقد علادت الى سابق عهدا تباعا ، فقد رخص لها في الدخول الى رحاب الامبراطورية ، وسرعان ما أسهمت في القضاء على الحرية العامة . ان المواطنين ليمارسون سلطات السيادة في الحكومة الديمقراطية ، ولابد ان يساء استخدام هذه السلطات في البداية ، ثم تضع نيماء بعد ، اذا وضعت في يد جمهور لا يحسن استعمالها . ولما عطلت سياسة الأباطرة المجالس الشعبية بتوليهم هم أنفسهم زمام الحكم ، لم يكن الفزاة القاهرون يتميزون عن القهورين الا بأن لهم الصدارة وانهم اشرف الرعايا ، لم يعد تكثرهم ، مهمسا كان سريعاً ، معرضاً لنفس الأخطار . على ان أوفر الأمراء عقلاً ، أولئك الذين ترسموا خطى أوغسطس ومبادئه ، وجهوا أشد العناية الى المحافظة على كرامة روما وحسن سمعتها ، ونشروا « حرية المدينة » بروح من التحرر تنقسم بالحزم والكياسة .

وامتدت امتيازات الرومان على مر الأيام لتشمل كل سكان الامبراطورية ، ولكن غارقا هما استمر قائما بين ايطاليا والولايات ، ذلك ان الأولى — ايطاليا — اعتبرت نواة الوحدة العامة ومركزها ، والدعامة الراسخة للدستور ، وقالت ايطاليا انها مولد الأباطرة ، او انها على الأقل مقر الأباطرة والسناتو . وكانت ضياع الايطاليين مغفلة من الضرائب ، كما كانوا هم أنفسهم معفين من السلطة التصفية للحكام . وكانت الهيئات البلدية — وهى مشكلة احسن تشكيل على نسق ما في العاصمة — مخولة حق تنفيذ القوانين ، تحت الاشراف المباشر للسلطة العليا . وكان كل أهالى ايطاليا ، من سفوح الالب الى آخر حدود كالابريا ، يعتبرون من مواطنى روما ومواليدها . فالفيت الفوارق الجزئية بينهم ، والتأمو ، بطريقة غير ملموسة ، بالأمه الكبرى التى وحدتها اللغة والسلوك والنظم المدنية ، والتى تعدل في ثقلها امبراطورية قوية ، وتالق مجد الامبراطورية في كرم سياستها ، وكثيراً ما لقيت خير الجزاء في مواهب وفى خدمات هؤلاء الذين اتخذت منهم اولاداً لها . ولو انها استعرت على حبس امتياز الفرد الرومانى وجعله وقفاً على الأسرات القديمة داخل جدران المدينة ، لحرم الاسم الخالد من شىء من أبى زينته وأئمن حليته . الم يكن الشاعر فرجيل Virgil من أهالى مانتوا Mantua (مدينة في شمال ايطاليا) ، الم يكن هوراس يميل الى الشك في انه يجب ان يكون من أهل ابوليسا او من أهل لركانيا . ولقد وجد في بسادوا نفسها مؤرخ جدير بأن يسجل السلسلة الرائعة الجيلة من انتصارات الرومان . ونزحت أسرة كانتو التى اشتهر أفرادها بالوطنية من تسكولم

Tusculum - وكان لمدينة أربينوم Arpinum الصغيرة مخزن مزدوج في انجاب مازيونس وشيشرون ، وقد اعتبر أولهما ثالث مؤسسي روما بعد روميلوس Romulus وكاميلس Camillus ، أما الثاني فانه ، بعد انقاذ بلده من مشروعات كاتلين Catiline - (أحد القناصل في القرن الأول ق.م.) ، مكن لها من أن تنازع أثينا على عرش الفساحة والبيينان . . .

الولايات

وكانت ولايات الامبراطورية (كما أسلفنا وصفها في الفصل السابق) خالية من أية قوات عامة ، ومن أية حريات دستورية . فان السناتو عني أول ما عني ، في اتروريا (مملكة قديمة الى الغرب من وسط ايطاليا) واليونان والغال (فرنسا) - عني بأن يحطم هذه البلاد الموحدة الخطيرة التي علمت الانسان أن الأسلحة الرومانية يمكن مقاومتها بالاتحاد ، بعد أن انتصرت وسادت بالفرقة والانقسام . ولقد قدر لبعض الأمراء - نتيجة التظاهر بصرمان الجميل أو بالكرم - أن يمسكوا بصولجان الملك مزمرعا في أيديهم بعض الوقت ، وسرعان ما طردوا عن عروشهم بعد أن أدوا مهمتهم المقررة ، الا وهى تهيئة الأمم المغلوبة للنير الرومانى . وكوفئت الولايات والمدن الحرة التي ظاهرت روما بتحالف اسمى ، ثم أغرقت دون أن تسدرى في خضم العبودية . وكان وزراء السناتو ووزراء الامبراطور يمارسون السلطات العامة في كل مكان ، وكانت هذه السلطات مطلقة لا رقيب عليها ولا ضابط لها . ولكن الأساليب الحكومية الناجعة التي وفرت السلام والطاعة في ايطاليا - امتدت الى الفتوحات النائية . فتكونت في الولايات شيئا فشيئا أمة الرومان بوسيلة مزدوجة : تكوين المستعمرات ، واسباغ حرية روما (الرعوية الرومانية) على أكثر أهل الولايات اخلاصا وامتيازاً وجدارة .

وقد أكدت التجربة والتاريخ تلك الملاحظة الصائبة التي ادلى بها سنكا الحكيم حيث قال « حيثما غزا الرومانى أقام » . وكان أهل ايطاليا يستخفهم الفرح أو تغريهم المصلحة بالتمتع بثمار النصر . وقد نشير هنا الى أنه بعد أربعين عاماً من اخضاع آسيا ، ذبح ثمانون الفا من الرومان في يوم واحد ، تنفيذاً للأوامر الوحشية التي أصدرها متركيداتس (ملك بلاد بنطس في آسيا الصغرى في القرن الأول ق.م.) وما امثل المنفيون بمحض ارادتهم الا بقصد التجارة

أو الزراعة أو جمع المال عن طريق الالتزام . قلما اقام الأباطرة الفرق العسكرية في الولايات اقامة دائمة عمرت الولايات بعنصر الجنود ، وكان من عادة هؤلاء الجنود القدامى - سواء تلقوا جزاء خدمتهم أرضا أو مالا - أن يستقروا أو يستوطنوا في الأرض التي قضوا فيها زهرة شبابهم مبجلين مكرمين . وخصصت نخصب البقاع وأفضل المواقع في مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبخاصة الأجزاء الغربية على الأغلب ، لإنشاء المستعمرات التي كان لبعضها طابع مدنى ، وبعضها الآخر طابع عسكرى . وكانت هذه المستعمرات صورة صادقة لأهلها العظيمة في آداب سلوكها وفي سياستها الداخلية . فلما كرمهم الأهالى بما وثقوا معهم من وشائج الود والتحالف ، نشروا بطريقة فعالة الاحترام لاسم الرومان وأحاطوه بالتبجيل والاحلال وأثاروا رغبة قل أن خابت في المشاركة في أيجاد هذا الاسم ومزاياه ، في الوقت المناسب . وتساوت المدن البلدية ، كذلك بطريقة ملموسة ، مع المستعمرات مرتبة وجلالا ، حتى لقد ثار الجدل في عهد هادريان أى هذه المجتمعات أفضل حالا : أهى تلك التي انبثقت من روما ، أو تلك التي ارتبعت في أحضانها ؟ ومنحت بعض المدن حق المواطنة أو الرعوية الرومانية (Right of Latium) فأضفى عليها هذا الحق خطوة خاصة ، واكتسب الحكام فقط ، بعد انتهاء خدمتهم صفة « المواطن الرومانى » . ولكن لما كانت هذه المناصب سنوية ، فقد تداولتها الأسرات الكبيرة في مدى سنوات قليلة ، وكان أبناء الولايات الذين يرخّص لهم في حمل السلاح في الفرق العسكرية ، أو في تولى أية وظيفة مدنية ، أو في ايجاز ، كل من أدى خدمة عامة أو أظهر مواهب شخصية - كل أولئك كانوا يجزون مكافأة تناقصت قيمتها بالتدرج نتيجة لتزايد تساهل الأباطرة . على أنه - حتى في عصر الأتطونيين - عندما كانت حرية المدينة تمنح لكبر عدد من رعاياهم ، ظلت هذه المنحة تقتزن بمزايا حقيقية ثابتة . وحصلت غالبية الناس في ظل هذا اللقب ، على نعماء القوانين الرومانية ، وخاصة هذه المواد الهامة المتعلقة بالزواج والوصية والوراثة . وكان طريق الحظ معبدا مفتوحا أمام أولئك الذين تدعم مزاعمهم الحظوة أو الجدارة . وتولى أحفاد الناليين الذين حاصروا يوليوس قيصر في اليزيا Alesia ، قيادة الفرق العسكرية ، وحكموا الولايات ، ورخص لهم في عضوية السناتو في روما . وبذلك ارتبط طموحهم ارتباطا وثيقا بأمن الدولة وعظمتها ، بدلا من أن يتجه الى تكدير صفو الهدوء فيها ، وبلغ احساس الرومان بأثر اللغة في آداب السلوك القومية حداً بذلوا معه قصارى عنايتهم وجهودهم لنشر استخدام اللغة اللاتينية حيثما تقدمت قواتهم المسلحة ،

جمع هؤلاء الأمراء في بلاطهم الفخم بين أنفاسة أثينا وتurf الشرق ، وحذت الطبقات العليا من الرعية حذو البلاط مع فارق يسير . وهكذا كان القباين بصفة عامة بين اللغتين اللاتينية واليونانية أو بين من يتحدثون بهما في الامبراطورية الرومانية ، ويمكن أن نضيف فارقا آخر ، يميز مجموع الأهالي في سوريا ، ويميز بوجه أخص أهل مصر . فان بقاءهم على لهجاتهم أو لفصاتهم القديمة حال بينهم وبين الدخول في علاقات انسانية عامة . وباء أهل سوريا لطراوتهم ورقتهم (لتخنتهم الرقيع) باحتقار الغزاة الفاتحين ، كما أثار المصريون كراهيتهم لشراستهم وكآبتهم . وقد خضعت هذه الأمم لنير الرومان واستسلمت لقوتهم ، ولكنها لم ترغب يوما — أو قل أنها لم تكن تستحق — في حرية المدينة ، وقد لوحظ أنه قد انقضى بعد انتهاء حكم البطالمة أكثر من مائتين وثلاثين عاما قبل السماح لأي مصري بعضوية السناتو في روما .

وثمة ملاحظة صادقة ولكنها تافهة ، تلك هي أن روما نفسها استسلمت لفنون الاغريق . وسرعان ما أصبح أولئك الكتاب الخالدون — الذين ما فتئوا يستحذون على أعجاب أوروبا الحديثة — أصبحوا موضوعا محببا للدراسة والمحاكاة في ايطاليا وفي الولايات الغربية . ولكن الرومان لم يكونوا يطبقون أن يتدخل لهوهم الجميل في النهج القويم لسياستهم ، فتراهم يعترفون بمفاتيح اللغة اليونانية ، ولكنهم في الوقت نفسه يؤكدون مكانة اللغة اللاتينية ويرفعون من شأنها ، يفرض استخدامها استخداما شاملا لا هوادة فيه ، في الإدارتين المدنية والعسكرية على حد سواء في الحكومة . وكانت اللغتان كلتاهما في نفس الوقت تمارسان ولايتهما الشرعية كل في نطاقها داخل الامبراطورية ، فكانت الأولى ، اليونانية ، اللغة الطبيعية للعلم ، والثانية اللغة الرسمية للمعاملات العامة ، أما أولئك الذين جمعوا بين الأدب والعمل فكانوا ملين بهما بنفس القدر . وكساد يكون من المستحيل في أية ولاية أن يكون أحد الرعايا الرومان ممن تلقوا تعليما متحررا ، غير ملم بأحدى اللغتين اليونانية واللاتينية .

وعن طريق مثل هذه النظم ذابت أمم الامبراطورية ، دون أن تحس ، في اسم روما وشعبها ، ولكن تبقى بعد ذلك وسطا كل ولاية وكل أسرة بعض حالات تعيسة لأفراد تحملوا أعباء المجتمع دون أن ينعموا بخيراته ، فقد تعرض العبيد المحليون في الولايات الحرة القديمة لأشد الوان الظلم ، وسبق الاستقرار الكامل للامبراطورية

الرومانية عهود من العنف والسلب والنهب . وكان العبيد هم — في الكثير الغالب — أسرى المتبريرين ، الذين يؤخذون بالآلاف نتيجة للحروب ، ويشتررون بثمن بخس ، وقد رأوا أنفسهم وسط حياة تنتم بالاستقلال ، ومن ثم تلهفوا على تحطيم قيودهم وعلى الانتقام من واضعها . وقد يكون في القانون العظيم ، قانون المحافظة على النفس ، ما يبرر أكثر التعليمات تشددا وأقسى المعاملة ضد هؤلاء الأعداء الداخليين الذين قربت ثوراتهم اليائسة المستبينة الجمهورية من حائلة الهاوية أكثر من مرة . فلما دانت الأمم الرئيسية في أوروبا وآسيا وأفريقيا للقوانين التي سنها ملك واحد ، أصبح المدد الأجنبي (من العبيد) أقل وغرة ، فلجأ الرومان إلى أسلوب للتكاثر أكثر اعتدالا ولكنه أكثر مشقة ، وشجعت اسرات كثيرة ، وبخاصة في الريف ، الزواج من عبيدها . وساعدت أحاسيس الطبيعة ، وعادات التعليم واقتناء نوع من الممتلكات غير المستقلة (المشتركة) ، ساعد كل أولئك على التخفيف من محنة العبودية . لقد بات وجود العبد أمرا له قيمته العظمى ، وكانت سعادة العبد لا تزال تتوقف على طبع سيده وظروفه ، إلا أن السيد لم يعد يكبت شعوره الانساني نتيجة الخوف من أن يقابل العبد الاحسان بالاساءة ، بل أنه شجع هذا الشعور نتيجة الاحساس بمصلحته . وزادت فضائل الإباطرة أو حسن سياستهم من معدل السرعة في ارتقاء العادات والآداب العامة . وامتدت الحماية التي تفرضها القوانين إلى أدنى طبقات الناس بفضل مراسيم هادريان والأنطونيين . ونزع حق التحكم في حياة العبيد وفي موتهم — وكان هذا قوة طال عهد ممارستها واساء استعمالها — نقول نزع من الأيدي الخاصة أي من السادة المباشرين ، ووضع في أيدي الحكام وحدهم . وحرم السجن تحت الأرض أو في الأقبية ، حتى إذا تقدمت شكوى صادقة عادلة من سوء المعاملة كان جوابها حصول العبد المظلوم على حريته أو انتقاله إلى سيد أقل قسوة .

وما كان باب الأمل موصدا قط في وجه العبد الروماني — وفي التعلق بالأمل أكبر عزاء وسلوى وسط حياته التعسة — فإذا واثته الفرصة ليجعل من نفسه شخصا ناهعا أو مقبولا ، كان من الطبيعي أن يعلل نفسه ، في بضع سنين ، بنعمة الحرية ، وهي نعمة تجل عن التقدير ، جزاء وفاقا لجدته وإخلاصه ووفائه . وكثيرا ما كانت أدنى بادرة من الغرور والجشع تستهوي السيد إلى الاحسان وتثير فيه الأريحية ، إلى حد أن القوانين وجدت من الضروري أن تحد أكثر من أن تشجع السرف وعدم تحري الدقة في هذا التحرير

الذى قد ينحط الى سوء استغلال خطير . وكان من مبادئ التشريع القديم أن العبد لا ينتهى الى وطن معين ، فإذا ما حصل على حريته حصل معها على رخصة بالالحاق بالمجتمع السياسى. الذى ينتهى اليه سيده . وربما أساعت نتائج هذا المبدأ الى امتيازات المدنية الرومانية وجعلتها نهبا مباحا لأخلاق وضيعة من الناس . فوضعت لهذا بعض ضوابط ملائمة بحيث تكون هذه الميزة المشرفة مقصورة على أولئك العبيد الذين يجدر أن يحرروا تحريرا قانونيا مهيبا ، لأسباب عادلة صادقة ، برضا من الحاكم . وحتى هؤلاء العبيد الذين وقع عليهم الاختيار ليصتقوا لم يكونوا ليحصلوا على أكثر من الحقوق الخاصة للمواطنين ، وكانوا محرومين حرمانا صارما من كل الوظائف المدنية والعسكرية . ومهما نوفر لأبنائهم (أبناء العبيد المحررين) من جدارة أو حظ ، كان ينظر اليهم (كما كان ينظر الى آبائهم) على أنهم غير جديرين بمقاعد السناتو . وما كانت بصمات الأصل الوضع ، أو منبت الخضوع والاسترقاق ، لتمحى تماما الا فى الجيل الثالث أو الرابع . وهكذا ، دون القضاء على التمييز بين المراتب ، كانوا يلوحون بصورة بعيدة للحرية والشرف ، حتى الى أولئك الذين يأبى عليهم الغرور والتحيز أن يحشروا فى عداد الأنواع البشرية احتقارا لهم وزراية بهم .

واقترح يوما أن يميز العبيد بلباس خاص ، ولكن خيف بحق أن يكون هناك بعض الخطر من تعريف العبيد بعدادهم هم أنفسهم . وقد نجرؤ على القول — دون اللجوء الى الحساب الدقيق بأرقام الآلاف وعشرات الآلاف — بأن نسبة العبيد الذين يدخلون فى حساب الحياة أو الملكية كانت أكثر بكثير من نسبة الخدم الذين كانوا يعتبرون عبئا . وكانت البراعم الناشئة المبشرة تلقن الفنون والعلوم ، وكانت أثمانهم تحدد بقدر مهارتهم ومواهبهم . وكانت كل المهن والحرف — ذهنية أو ميكانيكية — تكاد تكون متوفرة فى معية السناتور الثرى . وتضاعف عدد الحشم بدرجة تفوق مفهوم الترف الحديث ، وانهمكوا فى الشهوات والملذات وأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة . وكان أدنى الى مصلحة التاجر أو صاحب المصنع أن يشتري عماله من أن يستأجرهم . أما فى الريف فقد كان العبيد يستخدمون فى الزراعة بوصفهم أرخص الآلات وأكثرها عملا . ولتخرب بعض أمثلة متنوعة خاصة نوكيدا لهذه الاشارة العامة ، ولضخامة عدد العبيد . فقد اكتشف فى مناسبة تدعو الى الأسى والحزن أن تصرا واحدا فى روما كان يضم أربعمائة من العبيد . ومثل هذا

العدد بالضبط كان ملحقاً بضيعة تنازلت عنها لابلها ارملة أفريقية كانت لها مكانة عادية جداً ، على حين احتفظت هى لنفسها من ممتلكاتها بنصيب أكبر كثيراً من الضيعة ومن فيها وما فيها . أضف الى ذلك أن عبدا اعتق أيام أوغسطس ، وعانى من الحروب الأهلية أفدح الخسائر ، ولكنه رغم ذلك خلف وراءه ثلاثة آلاف وستمئة من الثيران ، ومائتين وخمسين ألف رأس من صغار الماشية ، ويكاد يندرج تحت وصف هذه الماشية أربعة آلاف ومائة وستة عشر من العبيد .

ولا يتيسر الآن ، الى حد الدقة التى يقتضيها المقام والهدف ، أن نحصى عدد الرعايا الذين اعترفوا بقوانين روما ، سواء فى ذلك المواطنين أو أهل الولايات أو العبيد . وقد قيل ان الامبراطور كلوديوس حين قام بعملية الاحصاء ، قدر المراتبين الرومان بستة ملايين ومائة وخمسة وأربعين ألفا (٦١٤٥٠٠٠) ويرتفع هذا الرقم الى نحو عشرين مليوناً من الانفس اذا أدخلنا النساء والأطفال فى الحساب . أما عدد جهوع الرعايا ذوى المرتبة الدنيا فكان متقلبا غير مؤكد . ولكن اذا أدخلنا فى حسابنا كل الظروف التى كان لها تأثير فى الميزان لوجدنا أنه من المحتمل أن عدد أهل الولايات فى عهد كلوديوس كان ضعف عدد مواطنى روما من الجنسين من كل الأعمار ، وأن عدد العبيد كان على الأقل مساويا لعدد السكان الأحرار فى دنيا الرومان . وقد يصل المجموع الكلى لهذا الحساب غير الدقيق الى نحو مائة وعشرين مليوناً من الانفس ، وهذه درجة من كثافة السكان قد تفوق مثيلتها اليوم فى أوربا الحديثة ، كما أنها تشكل أكبر عدد لمجتمع توحد فى ظل أسلوب واحد من الحكم .

وكان الهدوء الداخلى والاتحاد نتيجتين طبيعيتين للسياسة المعتدلة الشاملة التى انتهجها الرومان . فاذا ولينا وجوهنا شطر ممالك آسيا لوجدنا حكما مطلقا فى الوسط وضعفا فى الأطراف البعيدة : فهناك تحصيل الأموال أو ادارة القضاء ، بحكم وجود جيش ، وهناك المتبربرون ، وهم اقوام معادون استقروا فى قلب البلاد ، وهناك صفار اللغاة من الحكام الوراثنين الذين كانوا يغتصبون الولايات (ويجاولون الاستقلال بها) ، وهناك الرعايا الذين كانوا يميلون الى الثورة والتهم ولكنهم عاجزون عن الحرية أو غير أهل لها . ولكن الطاعة فى دنيا الرومان كانت أمرا مطردا اختياريا ثابتا . وودعت الأمم المثورة — بعد أن انصهرت فى شعب كبير واحد — ودعت الأمل ، ان لم تكن تخلت عن الرغبة — فى استرداد استقلالها ، وقلما اعتبرت

وجودها شيئا يفترق أو يتميز عن وجود روما . وطوق سلطان
الاباطرة الوطيد ، دون جهد منهم ، جميع أطراف ممتلكاتهم ، وكانوا
يمارسونه بنفس القدر من السهولة واليسر على ضفاف التاميز
والنيل أو على ضفاف التبير . وكان مقدرا أن تعمل الفرق العسكرية
ضد العدوان المشترك ، ولما احتاج الحكام المدنيون الى عون عسكري .
وفي مثل هذه الحالة التي يسود فيها الأمن العام ، كان الأمراء والشعب
على حد سواء يوجهون فراغهم ورخاءهم وثرأهم معاً للنهوض
بالامبراطورية الرومانية وازدهارها .

الآثار الرومانية

كم من الآثار التي لا يحصيها العد للعمارة الرومانية لم يسجلها
التاريخ ؟ وما أقل ما صمد منها لعوادي الزمن وغارات المتبررين !
ومهما يكن من أمر ، فإن البقايا الرائعة المجيدة التي لا تزال مبعثرة
هنا وهناك في إيطاليا وفي الولايات ، كافية لأن تثبت أن هذه البلاد
كانت يوما مقرا لامبراطورية قوية مهذبة . فإن جلالها وحده ،
أو جمالها ، قد يكون جديرا بأن يسترعى انتباهنا ويجذب أنظارنا .
ولكن يضيف الى أهميتها عاملان هامين يربطان بين التاريخ المألوف
للفنون وبين التاريخ الذي هو أشد نفعا وهو تاريخ السلوك
الانسانى . وقد شيد كثير من هذه الآثار بأموال خاصة ، ولكنها
تكاد تكون كلها قد قصد بها الخير العام .

وطبعي أن يذهب بنا الظن الى أن الجزء الأكبر من العمارة
الرومانية وأضخمها أقامه الاباطرة الذين كانوا يتحكمون في معين
من المال والرجال بلا حدود ، وكان من عادة أوغسطس أن يباهى بأنه
جاء الى عاصمة من الأجر وأنه تركها من الرخام . وكان الإقتصاد
الدقيق عند فسبازيان Vespasian مصدر عظمته وجلاله ، كما كانت
أعمال نراجان تحمل طابع عبقريته ، ولم تقم الآثار العامة التي زين
بها هادريان كل ولاية في الامبراطورية ، بأمر منه فحسب ، بل تحت
رقابته المباشرة كذلك ، فقد كان هو نفسه فنانا أغرم بالفنون
لأنها كانت ركيزة لمجد الملك . وكان الانطونينيون يشجعون الفنون
لأنها تسهم في اسعاد الشعب . ولكن اذا كان الاباطرة سباقين فنانهم
لم يكونوا الوحيدة في مضار العمارة والهندسة في جميع انحاء
الامبراطورية . لقد احتذى مثالهم في كل مكان رعاياهم الأصليون

الذين لم يخشوا أن يعلنوا على الملأ أن لهم بصيرة تعى ، ولديهم ثروة تحقق أنبل المنجزات ، وما كاد الكوليزيوم Coliseum الفاخر يهدى روما ، حتى أقيمت على شاكلته ، وإن تكن أصغر منه ، في مدينتي كابوا وفيرونا مبان على نفقتهما ومن أجلهما .
 مـتشير الكتابات المنقوشة على جسر (القنطرة Alcantara) المقام على نهر التاجه (في أسبانيا) ، الى أن بعض جماعات من أهل لوزيتانيا (في شبه جزيرة أيبيريا) أسهمت في أقامته . ولما عهد لى بليني بحكم ولايتى بيثينية وبنطس Pontus — وما كانتا بأية حال أغنى ولايات الإمبراطورية أو أهمها — وجد أن المدن الداخلية في نطاق سلطانه ينافس بعضها بعضا على احراز نصيب السبق في الأعمال العامة النافعة وفي تجميل البلاد ، مما ينتزع اعجاب الأجانب ويثير فضولهم ويستحق شكر المواطنين وتقديرهم ، وكان من واجب بليني بوصفه حاكم الولاية أن يكمل ما قصرت عنه المدن ، أو يوجه أذواقهم أو يخفف أحيانا من حدة الفيرة فيما بينهم . أما الأثرياء من أعضاء السناتو في روما وفي الولايات ، فكانوا يرون في العمل على بهاء عصرهم وأبهة بلادهم شرفا لهم ، أن لم يكن التزاما عليهم . وكان تأثير الطراز السائد يعوض عن النقص في الذوق أو في السخاء . ويمكن أن نذكر من بين العدد العديد من ذوى الفضل من عامة القوم ، هيرود اتيكس Herodes Atticus وهو مواطن أثيني عاش في عصر الأنطونيين ، ومهما يكن من أمر الباعث على سلوكه أو أعماله ، فإن عظيمته أو جلال أعماله أمر جدير بأعظم الملوك .

وقد أرجع أصل أسرة هيرود — على الأقل بعد أن أسعدها الحظ — الى سيمون Cimon وملتيايس Miltiades ونيسيبوس Theseus وسيكريس Cecrops واكس Accus وجوبيتر Jupiter ذرية هؤلاء الآلهة والأبطال الكثيرين ترددت في أسوأ مهاوى الخسة والحقارة . من ذلك أن جده وقع بين يدي العدالة ، وأن أباه يوليوس اتيكس ، لو أنه لم يكتشف كنزا كبيرا مدفونا تحت جدران بيت عتيق — وهو آخر ما بقى من تراث آبائه — لقضى آخر أيامه معدما محتقرا . وربما كان من الجائز للإمبراطور بقوة القانون ، أن يثبت دعواه في هذا الكنز مستندا الى صرامة القانون ، ولكن اتيكس الحازم تحاشى — باعترااف صريح — فضول المبلغين أو تعرض المتشككين . على أن نرفا العادل ، الذى كان يعتلى العرش آنذاك ، رفض أن يحصل على أى جزء من الكنز ، وأمره أن ينتفع دون تردد بالكنز الذى أهدها اليه الحظ . ولكن الأثينى الحريص ما فتىء مصرا على أن الكنز أكبر من

أن يختص به فرد من الرعية وأنه لا يدري كيف يستخدمه . فقال الملك ، في تبرم رقيق : تصرف فيه كيف شئت (أسئ استخدامي) لأنه ملك لك . وقد يكون من رأى كثير من الناس أن انيكس أطاع آخر تعليمات الامبراطور بنصها حيث انه قد أنفق في الخدمات العامة الجزء الأكبر من ثروته التي زيدت كثيرا نتيجة لزواج رابع . وكان قد حصل لابنه Herod على منصب حاكم المدن الحرة في آسيا . ولحق الحاكم الشاب اهبالا وتراخيا في تزويد مدينة ترواس Troas بالماء . فمز أعطاف هادريان ، وحصل منه على ثلاثة ملايين درهم (نحو مائة ألف جنيه) ليحفر قناة جديدة للماء . ولكن تكاليف انجاز هذا العمل تجاوزت ضعف ما كان مقدرا لها ، مما أثار تذمر مأموري الدخل ، الى أن أخرس انيكس الكريم السنتهم الشاكية بأن التمس أن يرخصوا له في أن يتعهد هو شخصيا بكل النفقات الاضافية .

ودعى أقدر المعلمين في أثينا وآسيا للقيام بتعليم هيرود الصغير مقابل مكافآت سخية ، وسرعان ما أصبح تلميذهم خطيبا ذائع الصيت ، طبقا لأساليب البلاغة العقيمة التي سادت في ذلك العصر ، والتي حصرت نفسها داخل المدارس فترفعت عن الدخول الى السنااتو أو الساحة (forum) . وعين في وظيفة القنصل في روما تكريما له . ولكنه قضى معظم حياته منصرفا الى الفلسفة في أثينا وفي الريف المجاور ، محوطا دائما بجماعة من السفسطائيين الذين اعترفوا ، على غير كره منهم ، بتفوق المنافس الثرى الكريم . ولقد تلاشت الآثار التي أبدعتها عبقريته ، ولكن هناك أطلالا وخرائب تخلد شهرته وذوقه وكرمه . وقام بعض السائحين الحديثين بقياس بقايا الملعب (الاستاد) الذي شاده في أثينا للألعاب الأولمبية ، فوجد أنه يبلغ ستمائة قدم طولاً ، وأنه مبنى كله من الرخام الأبيض ، وأنه يتسع للشعب جميعه ، وقد استغرق بناؤه أربع سنوات عندما كان هيرود رئيسا للألعاب في أثينا . ثم بنى ، تخليدا لذكرى زوجته رجيلة Regilla ، مسرحا لا يكاد يوجد له نظير في الامبراطورية ، كله من خشب الأرز المحفور أعجب حفر ، ولم يستخدم في البناء أى نوع آخر من الخشب . وكان الأوديوم Odeum الذي خصصه يريكليز Pericles لعزف الموسيقى وتمثيل الروايات الجديدة شاهدا على انتصار الفنون ونفوقها على عظمة المتبريرين ، ولكن الأخشاب التي استخدمت في بنائه كانت أصلا من أخشاب سوارى السفن الفارسية . ولقد تهدم هذا البناء القديم ثانية رغم الاصلاحات التي تفضل بها فيه أحد ملوك كبادوكيا Cappadonia ، ولكن هيرود أعاد اليه ما كان

عليه من جمال وجلال . ولم ينحصر كرم هذا المواطن الممتاز بين جدران أثينا . فان أفخم الزخارف التي قام بها في معبد نبتيون في البرزخ ، والمرح الذي شيده في كسورنثه ، والملاعب في دلفي ، والحمام في ترموبيل ، والقناة المائية في كنوزيوم canusium في ايطاليا — نقول ان هذه كلها لم تكن كافية لاستنفاد ثروته . ولكم حظى أهل أبيروس ، وتساليا ، ويوبيا ، وبوشيا ، والبلوبونيز بجوده وفضله . وثمة نقوش كثيرة في مدن اليونان وآسيا تضيئ ، مع الشكر والتقدير ، على هيرود أتيكس لقب الراعى المحسن .

وان بساطة البيوت وتواضعها في جمهوريتي أثينا وروما لتنبئ بان حالة الحرية كانت متساوية فيهما ، بينما تمثلت سيادة الشعب في المباني الفخمة التي خصصت للنفع العام ، ولكن الروح الجمهورية لم تخدم بتدفق الثروة أو قيام الملكية . لقد تظاهر أفضل الأباطرة وأعظمهم بأن يعرضوا عظمتهم وجلال ملكهم في أعمال المجد الوطني والنفع العام . ولقد أثار قصر نيرون الذهبي سخطا له ما يبرره ، ولكن رقعة الأرض الشاسعة التي كان قد اغتصبها يحكم ما استأثر به لنفسه من بذخ وترف — نقول ان هذه الأرض قد أقيم عليها في العقود التالية الكوليزيوم وحمامات تيتس ورواق كلوديوس والمعابد التي أهديت لآلهة السلم وعبقرية روما . ولقد زينت وجملت آثار العمارة هذه ، والتي هي ملك للشعب الروماني ، بأجمل النجاج اليوناني من النقش والرسم والتصوير والنحت ، وكان في معابد السلام مكتبة زاخرة مفتوحة أمام العلماء الباحثين وعلى مقربة من هذه المباني كانت توجد ساحة تراجان (الفورم) ، وكانت محوطه يرواق شاهق قائم على أعمدة ذوات شكل رياضي ، وله مدخل وجيه غسيح يتكون من أربعة من أقواس النصر ، وفي وسطه عمود من الرخام يعلو الى مائة وعشر من الأقدام ، مما يدل على ارتفاع التل الذي قطع منه البناء . وما يزال هذا العمود يحتفظ بجماله القديم ، ويمثل أدق تمثيل انتصارات داشيا ، تلك التي أحرزها من أقامه .

ثمقد آمن الجندي المحنك النظر في قصة الحملات التي شنها ، ثم ما كان أبسر ، بعد ذلك ، على المواطن المسالم أن يرسم في خياله صورة لكبرياء الوطن وعظمته يربط بينها وبين أمجاد النصر . وبمثل هذا الشعور النبيل بالابهة العامة دبجت ربوع العاصمة وسائر ولايات الامبراطورية ، وزخرت بالمدرجات والمسارح والمعابد والأروقة وأقواس النصر والحمامات وقنوات المياه ، وقد انجزت

كلها ، بشكل أو بآخر ، من أجل صحة أقل المواطنين شأنًا أو تعبدًا أو ممارسة مباحجه ومسرته . ويستحق منا آخر ما ذكرنا من هذه المباني عناية خاصة ، ذلك أن قنوات المياه تعد من أنبل وأعظم آثار عبقرية الرومان وقوتهم ، لما اتسمت به مشروعات هذه القنوات من جرأة ، وما اتسم به إنجازها من متانة ، وما نتج عنها من فوائد . وقد تزهو وتتفوق قنوات المياه في العاصمة بحق على مثيلاتها . ولكن من الطبيعي أن يخلص السائح المستطلع عندما يتفحص الأبنية الرومانية في سبوليتو Spoleto ، وفي منز Metz ، وفي سيجوفيا Segovia ، يخلص ، دون الرجوع إلى التاريخ ، إلى أن هذه المدن البلدية كانت قديما مقر ملك قدير . وكانت قفار آسيا وأفريقية يوما مغطاة بالمدن المزدهرة التي استمدت كثافة السكان فيها ، بل حقيقة وجودها ، من هذا المعين الذي لا ينضب من المياه العذبة من هذه المجارى الصناعية للمياه .

قدرنا الآن عدد السكان ، وتأملنا الأشغال العامة في الإمبراطورية الرومانية . وقد يكون في الكلام عن عدد مدن الإمبراطورية وعن عظمتها ما يؤكد عدد السكان ، وما يضاعف من الأشغال العامة . وقد لا يبعث على السأم أن نعرض لبعض أمثلة متصله بهذا الموضوع ، دون أن ننسى على أية حال أن غرور الأمم وفقر اللغات أديا إلى إطلاق اللفظة الغامضة « المدينة » ، دون مبالاة أو اكتراث ، على روما وعلى لورنتوم Laurentum .

١ - القول انه كان في إيطاليا القديمة ١١٩٧ مدينة ، ومهما كان من أمر مساحتها قديما ، فليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن السكان في عصر الأنتونينيين كانوا أقل منهم في عهد روميلوس Romulus . لقد كانت امارات لاتيوم الصغيرة Latium داخلة في نطاق عاصمة الإمبراطورية ، روما ، التي جذبت بفضل ما لها من نفوذ سام أنظار هذه الامارات إليها . أما أجزاء إيطاليا التي انحطت ورزحت طويلا تحت نير الطغيان الخامل للكهنة والحكام (نواب الملك) فلم يصبها الا بعض كوارث كان من الميسور احتمالها نتيجة للحروب ، وقد عوضتها التحسينات (الإصلاحات) السريعة التي ادخلها الغاليون المطلون على الألب تعويضا كافيا ، مما كانت تعاني من النذر الأولى للانهييار . وانه لمن الممكن أن نتعقب عظمة فيرونا فيما بقى بها من آثار ، ومع ذلك كانت فيرونا أقل شهرة من أكويلا أو بادوا أو ميلان أو رافنا .

٢ — وتخطت روح التجسسين والاصلاح اجدود الالب ، حتى
لقد باتت ملموسة في غابات بريطانيا ، التي اجتثت تدريجيا لتفسح
المجال للسكان المريح الأنيق . وكانت يورك مقر الحكومة ، أما لندن
فقد انتعشت بالتجارة ، أما باث Bath فقد اشتهرت بالفوائد
الصحية لمياهها المعدنية . كما كان لبلاد الفال أن تزدهر فيها
بمدنها التي يبلغ عددها مائتين ألفا . وكان كثير من مدن الشمال
— بما فيها باريس نفسها — لا يعدو أن يكون أكبر قليلا من
مرافئ صغيرة بدائية متواضعة لشعب ناشئ ، لكن ولايات الجنوب
كانت تحكى ايطاليا ثروة وأناقة . والحق أن كثيرا من مدن الفال
— مرسيليا ، آرل Arles ، نيزم Nism ، ناربون ، تولوز ، بوردو ،
أوتون ، فين ، ليون لانجر ، تريف ، لتصمد أمام مقارنة حالتها
قديميا بحالتها الراهنة اليوم ، فتتبادل الكفتان ، وربما رجحت كفة
الأولى . أما أسبانيا فقد انتعشت أيام كانت مجرد ولاية ، ولكنها
تدهورت منذ أصبحت مملكة . فقد أزهقها سوء استقلال سلطاتها .
كما أزهقتها أمريكا ، وانهكتها الخرافات ، وقد نخدش من كبريائها
إذا فتشنا عن مدنها التي بلغ عددها ثلثمائة وستين مدينة ، كما ذكرها
بلينى على عهد فسبازيان .

٣ — وكانت هناك في أفريقية ثلثمائة مدينة اعترفت بسيادة
قرطاجه ، وليس من المرجح أن يكون قد تناقص عددها تحت حكم
الاباطرة ، فقد صحت قرطاجه نفسها من كبوتها وتالق مجدها من
جديد ، وسرعان ما استردت هذه العاصمة — مثل ما استردت
كابوا وكورنثه — كل المزايا التي كان يمكن فصلها عن السيادة
المستقلة .

٤ — أما ولايات الشرق فانها تبرز الفارق بين عظمة الرومان
وهمجية الأتراك . ان الخرائب المبعثرة على الأرض غير المزروعة ،
والمنسوبة جهلا الى قوى السحر — هذه الخرائب لا تكاد تزود
الفلاحين المظلومين او العرب الرحل بهلجا او ماوى . وكانت في
آسيا الأصلية وحدها على عهد القياصرة خمسمائة مدينة مكتظة
بالسكان ، حبقتها الطبيعة بكل خيراتها ، وازدانت باروع نتاج
الفن . ولقد تنافست إحدى عشرة مدينة في آسيا على اهداء معبد
الى الامبراطور تيبيريوس ، فأجرى السناتو مفاضلة بينها ليرى أيها
أجدر بهذا الشرف ، فتقرر على الفور رفض أربع منها لأنها لا تتكلم
مع هذا العبد ، وكان من بينها مدينة اللاذقية التي لا تزال خرائبها

نشهد بعظمتها وبهائها . وكانت اللاذقية تجنى دخلا كبيرا من مراعى الضبان التي اشتهرت بنعومة أصوافها ، وكانت قد وريثت قبل هذه المنافسة بقليل ، أكثر من أربعمائة ألف جنيه (١) أوصى لها بها مواطن كريم . فإذا كانت هذه هي درجة فقر اللاذقية ، فماذا كانت ثروة المدن الأخرى التي فضلت عليها ، وعلى الأخص ماذا كانت درجة ثراء بيرجاموس ، وأزمير وإفسس Ephesus ، تلك التي كانت تنازع بعضها بعضا على مكان الصدارة في آسيا ؟ أما عاصمتا سوريا ومصر فكانتا لهما في الامبراطورية مكانة سامية مرموقة ، وكانت انطاكية والاسكندرية تنظران بعين الازدراء الى عديد من المدن التابعة ، ولكنهما سلمتا على مضض بعظمة روما ذاتها .

وانصلت هذه المدائن جميعها بعضها ببعض وبالعاصمة بشبكة من الطرق العامة كانت تبدأ من الساحة في روما ، وتخرق إيطاليا ، وتنشر في الولايات ، وتنتهى عند حدود الامبراطورية . فإذا تتبعنا بدقة المسافة من سور أنطونينوس الى روما ، ومنها الى أورشليم لوجدنا أن هذه الشبكة العظيمة من المواصلات من شمال غرب الامبراطورية الى جنوبها الشرقى ، تمتد نحو ثمانين وأربعة آلاف من الأميال الرومانية . وكانت هذه الطرق العامة مقسمة تقسيما دقيقا يشواخص المسافات أو علامات الأميال . وكانت تجرى في خطوط مستقيمة بين المدن ، لا تقيم للعقبات الطبيعية أو الممتلكات الخاصة وزنا يذكر ، وكانوا ينقبون الجبال أو يقيمون القناطر القوية على أوسع وأسرع المجارى المائية . وكان الجزء الأوسط من الطريق يرتفع الى سطحية تشرف على القرى المجاورة ، وتكون عدة مصاطب أو طبقات من الرمل والحصى والأسمنت ، وكان يرصف بالأحجار الكبيرة ، وبالجرانيت في بعض الأماكن قرب العاصمة . وهكذا كان البنيان المتين للطرق الرومانية ، وهكذا كانت صلابتها التي لم تستسلم كل الاستسلام لعوامل الزمن طيلة خمسة عشر قرنا . ولقد وجدت هذه الطرق بين الرعايا في أقصى الولايات بمواصلات ميسورة مألوفة . ولكن هدفها الأساسى كان تيسير تحركات القنوات العسكرية . فما كان هناك بلد يقال انه

(١) لم يكن لفظ جنيه مستعملا كاسم وحدة نقدية في ذلك الزمان .

- وعن العملة عند الرومان يرجع الى عبد اللطيف أحمد على (دكتور) مصادر التاريخ الرومانى ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥ .

أخضع إخضاعاً تاماً إلا إذا أصبح من الميسور على القوات المسلحة وعلى سلطات الغزو اختراقه في أي جزء من أجزائه . وأغرى النفع الذي يعود من تلقى الأنباء المبكرة ، ومن خفة الحركة في نقل الأوامر والتعليمات — أغرى الأباطرة بإنشاء نظام دقيق للبريد في طول ممتلكاتهم الواسعة وعرضها — ولهذا الغرض بنوا استراحات لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسة أو ستة أميال ، وزودت كل منها دائماً بأربعين من الجياد ، وبفضل هذه المراحل أو المحطات سهل السفر لمسافة مائة ميل في اليوم على هذه الطرق الرومانية . وكان استعمال البريد مرخصاً به لمن يحمل أمراً إمبراطورياً بذلك . وكان البريد في الأصل مقصوراً على الخدمات العامة ، ولكنه رغم ذلك كان يستخدم أحياناً لخدمة الناس أو قضاء حاجاتهم . ولم تكن المواصلات البحرية في الإمبراطورية الرومانية أقل حرية وانطلاقاً من المواصلات البرية فيها ، فقد أحاطت الولايات بالبحر المتوسط وطوقته ، وتوغلت إيطاليا — وهي أشبه برأس ضخ — إلى وسط هذه البحيرة الكبيرة . وسواحل إيطاليا ، بصفة عامة ، خالية من الموانئ الآمنة ، ولكن مهارة الإنسان عوضت النقص في الطبيعة . فان المرفأ الصناعي في أرسيتيا — بالذات — الذي أنشأه الإمبراطور كلوديس على مصب التيسر ، كان أثراً نافعاً شاهداً على عظمة الرومان . وكان هذا المرفأ على بعد ستة عشر ميلاً فقط من العاصمة ، ومنه كانت الريح المواتية في السلاب تدفع السفن إلى أعمدة هرقل (١) في سبعة أيام ، وفي تسعة أيام أو عشرة إلى الإسكندرية في مصر .

تحسين الزراعة

ومهما يكن من أمر المساوىء التي يلصقها العقل أو الجسد بامبراطورية إترامية الأملاف ، فان قوة روما اقتربت دائماً ببعض النتائج التي أدت إلى خير الجنس البشري . ولا بد من القول بأن حرية الاتصال التي مدت في حبل الرذائل ، ساعدت بالمثل على تحسين الحياة الاجتماعية . وكان العالم في الأزمنة السحيطة يقسم تقسيماً غير متكافئ فكان الشرق ينعم بالفنون والترف ما لا يذكره التاريخ أو تعيه الذاكرة ، على حين كان يفتلس العرب المتبربرون المحاربون القساة الجفاة ، الذين كانوا يحتقرون الزراعة ، أو قبل انهم لم

(١) Columnus of Hercules : مسمى جبل طارق .

يعرفوها بتاتاً ، ولكن امكن شيئا فشيئا في ظل حكومة مستقرة ثابتة الأركان ، ادخال منتجات المناخ الاطيب وصناعات الأمم التي هي أكثر مدنية ، الى بلاد غرب أوروبا ، وقشجع المواطنون ، عن طريق التجارة المفتوحة الرابحة ، على مضاعفة ذلك الانتاج وتحسين هذه الصناعة . وقد يكون من المستحيل تعداد السلع الحيوانية أو النباتية التي كانت ترد تباعا الى أوروبا من آسيا ومن مصر ، ولكنه جدير بالسفر التاريخي ، بالنسبة لقيمتها ، وأقل منه بالنسبة لنفعه ، أن يعرض للجوانب الرئيسية عرضا خفيفا .

١ - تكاد تكون معظم الأزهار والأعشاب والفواكه التي تنمو في حدائق أوروبا من أصل أجنبي تنم عنه أسماؤها في معظم الأحيان . فالتفاح فاكهة ايطالية ، فلما ذاق الرومان ما هو أطيّب منه نكهة من المشمش والخوخ والرمّان والليمون والبرتقال ، قنعوا بأن يطلقوا على كل هذه الفواكه الجديدة تسمية مشتركة هي فصيلة التفاح ، مع تمييز بعضها عن بعض بنعت اضافي هو اسم البلد الذي جاءت منه .

٢ - وفي زمن هوميروس كانت الكروم البرية تنبت في جزيرة صقلية وما جاورها في الغالب ، ولكن مهارة السكان المتوحشين لم تتناولها بالتحسين ، ولم تزودهم الكروم بشراب سائغ لديهم . ولكن استطاعت ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، أن تتيه زهوا وعجبا بأن أكثر من ثلثي أوفر الأنبذة وأشهرها ، ويصل عددها الى ثمانين نوعا ، هي من نتاج التربة الايطالية . وسرعان ما انتقلت البركة الى الولاية الجنوبية في الفال ، ولكن البرد كان قارصا في شمال هضبة السفن (جنوب وسط فرنسا) حتى ظن في أيام سترابون (العالم الجغرافي اليوناني في القرن الأول) أنه من المستحيل نمو الكروم في تلك الأجزاء من بلاد الفال . وذلك هذه الصعوبة على مر الأيام . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن كروم برجندى تمتد في القدم الى عصر الأنطونيين .

٣ - وسارت زراعة الزيتون في دنيا الغرب في أعقاب تقدم السلام ، حتى لقد اعتبروا الزيتون رمزا له ، ولم تكن ايطاليا وأغريقية تعرفان هذا النبات المفيد ، حتى بعد قرنين من تأسيس روما . ثم ادخل وتأقلم فيهما حتى انتقل أخيرا الى قلب أسبانيا والغال . وقد قضت المثابرة والتجربة بطريقة غير ملحوظة على خطأ الأقدمين وتهيبهم ، فيما ذهبوا اليه من أن الزيتون يحتاج الى درجة معينة من الحرارة ، وأنه لا يوجد الا في الأماكن المجاورة للبحر .

٤ - انتقلت زراعة الكتان من مصر الى الغال ، وعادت بالغنى والثروة على البلاد بأسرها ، مهما قيل من أن الكتان قد يفقر أو يجذب نفس الأرض التي يزرع فيها .

٥ - أصبح استخدام الحشائش غير البرية أمرا مألوفا لدى فلاحي إيطاليا والولايات ، وبخاصة حشائش لوسرن (١) Media Cagocative التي استمدت اسمها وأصلها من ميديا . وضاعف من قطعان الغنم والماشية ، هذا الزاد الصحى الوفير المحقق وجوده من الطعام فى الشتاء ، كما ساعد وجود هذه القطعان على زيادة خصوبة الأرض . ويمكن أن نضيف الى كل هذه التحسينات ، الدأب على العناية بالمناجم ومصايد الأسماك ، وقد استخدم فيها الكثير من الأيدى العاملة المجدة . مما أدى الى زيادة سعادة الموسرين وسد حاجة المعوزين . ويصف كولوملا Columella فى رسالة لطيفة تقدم الزراعة فى أسبانيا فى عهد تيبيريوس . وجدير بالذكر أن تلك المجاعات التى كثيرا ما اجتاحت الجمهورية الناشئة ، قل أن شهدتها ، أو لم تشهدها قط ، امبراطورية روما المترامية الأطراف ، فإذا ما نزلت باحدى الولايات كارثة طارئة من هاقلة أو عوز أو جذب سارع جيرانها الذين هم أسعد حظا الى تخفيف ويلاتها بما أوتوا من وفرة ويسار .

والزراعة أساس الصناعات ، لأن منتجات الطبيعة هى المواد اللازمة للفن .

ولقد تنوعت وتعددت أعمال الشعب العبرى المجد النشط فى الامبراطورية الرومانية ، ولكن هذه الأعمال لم تكن يوما الا لخدمة الأغنياء . فلقد جمع الموسرون المحظوظون فى ملابسهم وموائدهم وبيوتهم وأثاثهم ورياشهم - جمعوا بين الراحة والأناقة والعظمة فى أروع ما وصل اليه الفن فىها ، مما يرضى غرورهم أو يشبع نزواتهم . ولقد نعى رجال الأخلاق فى كل عصر على هذا التمتع وهاجموه بشدة بوصفه ترفا مقبوتا . على أن هذا الترف ربما أدى - أكثر ما يؤدى ، الى الفضيلة والى سعادة الجنس البشرى ، شريطة أن تتوافر الضروريات للجميع ، ألا يعيش أحد على فضلات الحياة وفتاتها فحسب . ولكن الترف مهما كان مبعثه الرذيلة أو حماقة ، كان يبدو أنه الوسيلة الوحيدة لعلاج سوء توزيع الثروة (الملكية) فى المجتمع الحالى المعيب . ذلك أن الميكانيكيين المهرة

(١) حشائش ذات جذور طويلة لها ازهار كازهار البرسيم ، تسمى لدى الولايات المتحدة « ألفا ألفا » .

والفنانين البارعين كانوا يتقاضون ضريبة اختيارية من ملاك الأرض وكان هؤلاء بدافع من مصلحتهم ينشدون تحسين ضياعهم ليشتروا بنتائجها مزيدا من البهجة والحبور ، وهذه عملية ملموسة آثارها المحققة في كل مجتمع ، ولكنها كانت أكثر انتشارا وقوة في دنيا الرومان . ولو أن صناعة الكماليات وتجارتها لم تستعيدا ، بطريقة غير ملحوظة للرعايا الكادحين المبالغ التي ابتزها منهم جيش روما وسلطتها لنفدت ثروة الولايات ، وما دامت هذه الدورة محصورة داخل نطاق الامبراطورية ، فإنها تغذى الآلة السياسية بدفعة متجددة من النشاط ، ولن تكون لها نتائج وبيلة ، بل ربما كان من ورائها بعض الخير أحيانا .

ولكنه ليس يسيرا أن نحصر الترف داخل نطاق الامبراطورية فلقد نهبت أقصى العالم القديم بغية توفير الأبهة واللذة لروما . مجاء الفراء الثمين من غابات سكيثيا Scythia (بلاد قديمة في الجنوب الشرقى من أوربا وآسيا) . وكان يؤتى بالكهرمان عبر الأرض من شواطئ البلطيق الى الدانوب ، وكان المتبرسون يقفون مشدوهين من الثمن الذي يتقاضونه مقابل هذه السلعة التي لا فائدة منها . وكان الطلب كبيرا على سجاجيد بابل وغيرها من مصنوعات الشرق . ولكن أهم صنوف التجارة وأقلها شعبية ذلك الذي كان يجرى مع بلاد العرب والهند . ذلك أنه كان يبحر عند الانقلاب الصيفي (فى شهر يونيه) من كل عام اسطول من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز Myos Hormz فى مصر ، عبر البحر الأحمر ، ثم تدفعا الرياح الموسمية غيقطع المحيط فى أربعين يوما ، حتى يلقى مراسيه فى ساحل مالابار أو جزيرة سيلان . وفى هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار من أقصى أطراف آسيا ، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدرأجها فى شهر ديسمبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولتها الثمينة فوق ظهور الجمال من البحر الأحمر الى النيل ، وفيه تنقل الى الاسكندرية حتى تتدفق دون إبطاء على عاصمة الامبراطورية . وكانت هذه التجارة الشرقية فاخرة ، ولو أنها نافهة عديمة النفع ، ومنها الحرير الذى لا تقل قيمة الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب ، ومنها الأحجار الكريمة وفيها اللؤلؤ الذى كانت له الماكنة الأولى بعد الماس (١) ، ثم تشكيلة العطور التي كانت تستخدم

(١) كانت أعظم مصائد اللؤلؤ كما هى الآن فى هرمز ورأس كومورين ، ومادام من الممكن مقارنة الجغرافيا القديمة بالحديثة فإن روما كانت تزود بالماس من منجم جوملپور Jumelpur فى البنغال ، وقد ورد وصفه فى رحلات تافرنيه Tavernier .

في الحلقوس الدينية وفي اسباغ الابهة والعظمة على الجنازات . وكان الربح الوفير الذي لا يكاد يصدق يعوض عن مشاق الرحلة ومخاطرها . ولكن هذا الربح كان يستخلص من الرعايا الرومان . وكانت فئة قليلة من الناس توسر على حساب مجموع الشعب . وبينما كان العرب والهنود قانعين بمنتجات بلادهم ومصنوعاتها كانت الفضة هي أداة التعامل الاساسية ، ان لم تكن الوحيدة عند الرومان ، وثمة شكوى ترددت ، وكانت جديرة بهمة السناتو وحكته . ذلك ان اموال الدولة كانت تضيق هباء دون تعويض الى الأمم الأجنبية والمعادية في حالة شراء حلى النساء مما قدره كاتب مدقق ناقص بخسارة سنوية تربو على ثمانمائة الف جنيه استرليني . وفي هذا تعبير عن السخط على شيخ الفجر الذي كان يقترب ويهدد البلاد . على أننا اذا قارنا نسبة الذهب الى الفضة ، كما كانت في أيام بليني ، وكما حدث في عهد مسهلنطين ، لوجدنا زيادة كبيرة في هذه الفترة وليس هناك البتة ما يدعو الى الظن بأن الذهب أصبح أندر من الفضة . ومن هنا يتضح أن الفضة هي التي غدت أكثر شيوعاً واستعمالاً الى حد أن الصادرات العربية والهندية بالغت ما بلغت كميّتها ، كانت أبعد ما تكون عن أن تستنزف ثروة دنيا الرومان ، وأن انتاج المناجم كان من الوفرة بحيث يغطي حاجات التجارة (التعامل) .

وعلى الرغم من نزوع الانسان الى امتداح الماضي وذم الحاضر ، فان أهل الولايات والرومان أنفسهم أحسوا احساساً قوياً واعترفوا اعترافاً صادقاً بحالة الهدوء والرخاء التي سادت الامبراطورية ، « وأدركوا ان المبادئ القويمة للحياة الاجتماعية ، والقوانين ، والزراعة ، والعلوم — تلك المبادئ التي ابدعتها في البداية حكمة ائبنا — قد دعمتها وأرست قواعدها قوة روما التي اتحد ، في ظل نفوذها الموفق ، أكثر المتبربرين وحشية ، عن طريق الحكومة الواحدة واللغة المشتركة . انهم يؤكدون أن الجنس البشري تضاعف عدده بشكل ملحوظ نتيجة لتقدم الفنون ، كما يشيدون بازدياد عظيمة المدن وفخامتها ، وبجمال وجه الريف الذي اشرق وتألّق بعد أن زرع وازدان حتى أصبح يحكى حديقة واسعة بناء ، ويشيدون بالعهد الدائم للسلام الذي نعمت فيه أمم كثيرة ، بهدوء طويل وقد نسيت الضغائن والحزازات القديمة ، وتخلصت من التفكير في أي خطر مقبل قد يدهمها » . ولا يفوتنا ان نذكر أن هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الحقائق التاريخية ، مهما كان من جو البلاغة والحماسة الذي يحلق فيه .

وكاد يكون من المتعذر على اعيان المعاصرين ، وسط الهنساء الشاملة ، أن تكشف العلل الدفينة للاضمحلال والفساد . فقد نثرت طول العهد بالسلام ، ووحدة النمط في الحكومة الرومانية في مراكز الحيوية في الامبراطورية ، سما بطيئا خفيا . فانحطت عقول الناس الى مستوى واحد ، وانطفأت شعلة العبقرية ، وخمدت جذوة الروح العسكرية . وكان اهل اوربا شجعانا أشداء ، وكانت اسبانيا والغال وبريطانيا واليريكوم Illyricum (ولاية قديمة في غرب ايطاليا) تزود القوات المسلحة الرومانية بجنود ممتازين ، وكانت تشكل القوة الحقيقية للمملكة . لقد احتفظوا بشجاعتهم الشخصية ولكنهم لم يهودوا يتحلون بروح الشجاعة العامة ، تلك الروح التي يغذيها وينعشها حب الاستقلال والشعور بالشرف الوطني ، واحداق الخطر ، وعادة السيطرة والقيادة . ذلك لانهم تلقوا القوانين واستقبلوا الحكام من لدن ملكهم ووفق ارادته ، وعهدوا بالدفاع عنهم الى جيش من المرتزقة ؟ يتشع نسل أشجع قادتهم واعظمهم بأن يكونوا مجرد مواطنين أو رعايا . كما انزوى أكثر القوم طموحا وتطلعا في يلاط الأباطرة أو تحت لوائهم ، وانزلت الولايات المهجورة المحرومة من القوة السياسية ومن الوحدة — انزلت الى الحياة الخاصة التي تتسم بالوهن وعدم الاكتراث .

وكان الولع بالأدب ، الذي يكاد يقترن بعهود السلام والتهديب شيئا مألوفاً بين الناس في عصر هادريان والأنطونيين الذين كانوا هم أنفسهم رجال علم واطلاع ، وقد انتشر على امتداد الامبراطورية ، حتى لقد تذوقت البلاغة قبائل البريتون في أقصى الشمال ، كما كان هوميروس وفرجيل يسجلان ويدرسان على ضفاف الرين والدانوب وكانت الجوائز السخية تجد في أثر اقل بادرة لموهبة أدبية . لقد نجح اليونان في وضع علم الفيزياء وعلم الفلك . وقام بعض الناس بدراسة ملاحظات بطليموس وكتابات جالينوس Galen (عالم الطب) وتحسين اكتشافاتها وتصحيح أخطائهما . ولكننا باستثناء لوشيان (١) Lucian الذي لا يبارى ، نجد أن عصر الخمول هذا من دون أن ينبغ فيه كاتب ذو عبقرية أصيلة ، أو كاتب برز في فنون الانشاء الأنيقة . وكان سلطان أفلاطون وأرسطو ، وزينو وأبيقور لا يزال يتحكم ويسيطر في المدارس . وانتقلت آراؤهم ومبادئهم من جيل الى جيل من التلاميذ ، في انقياد أعمى ، كان من شأنه أن

(١) كاتب يوناني تهكمى عاش في القرن الثاني الميلادي — (المترجم) .

يحول دون أية محاولة كريمة لتحكيم العقل الانسانى أو توسيع آفاقه . ولم تلهب روعة التسعراء والخطباء القرائح حتى تجود بتيء من مثل هذه الروعة ، بل دفعت فقط الى شيء من المحاكاه الفاتره المهينه ، أما اذا جرؤ أحد على أن يحيد عن هذه النماذج ، فانه كان فى نفس الوقت ينحرف عن طريق اللياقة والذوق السليم . وجاءت النهضه الأدبية ، فأيقظ أوربا وابتعث عبقريتها قوة الخيال الفتية بعد طول الخمود ، والغيرة الوطنية ، والدين الجديد واللغات الجديدة والعلم الجديد . ولكن أهل الولايات التابعة لروما ، الذين تلقوا تعليمًا اجنبيا نظيفًا نمطيًا مصطنعًا كانوا مشغولين بمنافسة غير متكافئة مع أولئك القدامى الشجعان الذين عبروا عن عواطفهم الأصلية بلغتهم المحلية ، فأحرزوا بذلك قصب السبق وثبؤوا مراكز الشرف ، وكاد لفظ « الشاعر » أن ينسى ، واغتصب السفسطائيون لأنفسهم لقب « الخطيب » وظهرت طائفة من النقاد والمؤلفين والمعلقين . فكانت بمثابة غيوم أربد وأسود معها وجه العلم . وسرعان ما جاء فساد الذوق فى ركاب انحطاط الذكاء والعبقرية .

ويلحظ الفيلسوف العظيم لونجينوس Longinus (فى القرن الثالث الميلادى) الذى عاش فى فترة متأخرة نوعا ، فى بلاط إحدى ملكات سوريا واحتفظ بروح أثينا القديمة يلحظ وينمى على معاصريه ذلك الانتكاس الذى أفسد مشاعرهم وثبط عزائمهم وأخمد مواهبهم فيقول : « قد تبقى أطراف الأطفال حبيسة منكشمة كل الانكماش ، ومن ثم تقف عن النمو ، ويصبح الأطفال أقزاما ، وهذا هو حال عقولنا الفضة وهى مكبله بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته ، فانها تصبح عاجزة عن التفتح والانتساع ، وعن بلوغ مستوى العظمة التى كسنا نعجب بها فى الأقدمين الذين عاشوا فى ظل حكومة شعبية ونمتشوا بحرية القول والفعل معا » (١) واسترسالا فى المجاز أو التشبيه . يمكن القول بأن القوام الضئيل للانسان كان يهبط يوما بعد يوم دون المستوى القديم ، وان عالم الرومان كان حثا يقطنه جنس من الأتزام فى الوقت الذى انطلق فيه عمالقة وأصلحوا الذرية الناقصة النمو ، فاستعادوا روحا قوية وثابتة من الحرية وبعد ثورة دامت عشرة قرون ، أصبحت الحرية أبا سعيدا عطوفا للذوق والعلم .

(١) وهما كذلك يمكن أن نقول عن لونجينوس . ان المثال الذى أورده يدعم كل قوانينه « وبدلا من أن يظهر مشاعره فى جراءة ورحولة ، نراه يرحب بها فى حذر بالغ ، ويلقى بها على لسان صديق . وطبقا لما يمكن استنتاجه من النص المهورى نراه يتباهى هو نفسه بدحضها وتفنيدها .

الفصل الثالث

(٩٨ - ١٨٠ م)

دستور الامبراطورية الرومانية

فكرة عامة عن النظام الامبراطوري

يبدو ان التعريف الواضح لاية ملكية هو انها دولة يعمد فيها الى فرد واحد مهما كان اقبه ، بتنفيذ القوانين والتصرف في الموارد وقيادة الجيش ، فان لم يقم على حماية الحرية حراس شداد يقظون ، فسرعان ما ينقلب سلطان هذا الحاكم المارد الى حكم استبدادي جائر . وقد ينتفع في عصور الخرافة بالكهنة ورجال الدين في تقرير حقوق الانسان ، ولكن العلاقة بين العرش والمذبح كانت وثيقة الى حد أن راية الكنيسة قلما كانت ترى في صف الشعب . ولن يقوم توازن قادر على الاحتفاظ بدستور حر يقف في وجه هذا الملك وتطلعاته ونزواته ، الا اذا ارتكز هذا التوازن على اثراف محاربين .. وعلى ممثلين للشعب يتسمون بالعناد والصلابة ويتمسكون بالملكية ، ويجتمعون في مجالس دستورية ويبتكرون السلاح .

لقد حطمت الاطماع العريضة للدكتاتور كل حصون الدستور الروماني (أو ضماناته) ، وبطشت اليد القوية لحكومة الثلاثة بكل حاجز وبات مصير دنيا الرومان بعد معركة اكتيوم ، رهن مشيئة اوكتافيوس الذي سمي قيصر عندما تبناه عمه ، ثم خلع عليه السنانو اسم أوغسطس نفقا ومقا منه . وكان الناتج على رأس قوة قوامها أربع وأربعون فرقة من المحاربين المحنكين ، وكان يدرك كل الادراك مبلغ قوتهم ، كما يدرك ضعف الدستور ، وقد آمن هؤلاء طوال عشرين سنة من الحرب الأهلية في أعمال القتل والقمع ، وأخلصوا في حماس لبيت قيصر ، ومن ثم تلقوا منه وحده وتوقعوا أسبغى

الجزء . وكانت الولايات قد طال بها العهد بالظلم على يد وزراء الجمهورية . . فتطلعت في حسرة وأسى الى حكومة فرد واحد يكون سيدا مسيطرا على هؤلاء الطفافة الصغار . لا شريكا متواطئا معهم . وغمر شعب روما سرور خفى وهم يشهدون اذلال الارستقراطية ، فلم يطالبوا الا بالخبز وبالحفلات العسامة ، وسارعت يد أوغسطس السخية الى تحقيق هذه الرغبات . أما أهل إيطاليا الأغنياء المهذبون الذين اعتنق معظمهم فلسفة أبيقور ، فقد تمتعوا الآن بنعمة الراحة والهدوء ، ولم يسمحوا لذكريات حريتهم القديمة المشوشة أن تعكس عليهم صفو حياتهم . وغدق السناتو قوته ووقاره . وانقرض كثير من أشرف الأسرات القديمة ، وهلك خير الجمهوريين روحا ومقدرة في ميدان القتال أو بيد الجلاد ، أو بالتجريد من حماية القانون أو بالنفى ، وفتح باب المجلس عمدا لخليط من الأفراد يربو على الآلاف ، ممن جلبوا العار على الوظيفة التي يتبوؤونها ، أكثر مما اكتسبوا منها الشرف .

وكان اصلاح السناتو أولى الخطوات التي تخطى فيها أوغسطس عن شخصية الطاغية أو نحاها جانبا ، واتخذ فيها صفة الأب لبلاده ، وانتخب أوغسطس رقيباً Censor ، فمهد بالاتفاق مع رجله المخلص الأمين أجريبا Agrippa (١) الى تفحص قائمة أعضاء السناتو ، فطرد منهم أعدادا قليلة ممن كان عنادهم ومساوئهم صارخة يضرب بها المثل ، وأغرى نحو مائتين من الأعضاء بأن يتقوا فضيحة الطرد بالانسحاب طوعا . ورفع نصاب العضو الى نحو عشرة آلاف جنيه ، وخلق عددا وفيرا من الأسرات النبيلة ، وقبيل لنفسه لقب الشرف « أمير » السناتو ، وهو اللقب الذي كان يمنحه الرقيب لأعظم المواطنين أمجادا وخدمات . ولكنه اذ أعاد للسناتو وقاره ، حطم استقلاله . ان سيادة الدستور الحر لتضيع بلا رجعة اذا تولت السلطة التنفيذية تعيين السلطة التشريعية .

وأمام هذا المجلس الذي شكل وأعد على النسق الذي أسلفنا ،لقى أوغسطس خطابا مدروسا أبرز وطنيته لكن أخفى طموحه . « فلقد حزن لسلوكه السابق ولكن التمس لنفسه فيه عذرا ، ذلك أن واجب الطاعة والاحترام حتم على الابن أن يكون على يديه النار يقتل أبيه ، وأن روح الانسانية التي فاضت بها نفسه أخلت السبيل أحيانا للأحكام . سارمة للضرورة الملحة ، ولعائلة مفروضة قسرا

(١) سياسى وفائد روماني (٦٣ - ١٢ ق م) ، انتصر على أنطونيو وكليوباترة في معركة اكتيوم ٣١ ق م .

بين زميلين حقيرين غير متناسبين : فما دام أنطونيوس حيا ، حرمت عليه الجمهورية أن يتخلى عنها الى رومانى منحل ومأكلة من المتبررين ، أما الآن فهو مطلق الحرية فى النهوض بواجبه وتحقيق ميوله . والآن ، وقد أعاد فى هبة ووقار السناتو والشعب حقوقهم القديمة ، فهو انما يرغب فى الاختلاط والامتزاج بجموع رفاقه المواطنين ، ويشارك فيما جلب لبلاده من خير ونعيم . »

وما كان أجدر من قلم تاسيتس (لو كان حاضرا فى هذا المجلس) بوصف مختلف أحاسيس السناتو ، ما ظهر منها وما بطن ! . وكان من الخطر الوثوق باخلاص أوغسطس ، ولكن عدم الايمان به كان أشد خطرا . وطالما غرقت مزايا كل من الملكية والجمهورية بين الباحثين المدققين . فان العظمة المشهودة الآن للدولة الرومانية وفساد الآداب العامة وفجور الجنود أمدت المدافعين عن الملكية بحجج جديدة ، وانحرفت هذه الآراء العامة فى نظام الحكم مرة ثانية بآمال كل فرد ومخاوفه . ولكن جواب السناتو كان جماعيا حاسما وسط فوضى المشاعر هذه ، فقد فرضوا اعتزال أوغسطس ، وناشدوه ألا يترك الجمهورية التى انفذها . وأذعن الطاغية الدائرية لأوامر السناتو بعد مقاومة رزينة هادئة ، وارتضى أن يتولى حكومة الولايات والقيادة العامة للجيش الرومانية ، مع اللقب المشهور « البروفنس » و « الامبراطور » على أن يكون ذلك لمدة عشر سنوات فقط . وكان يأمل ، حتى قبل انقضاء هذه الفترة ، أن تلثم تمهلا جراح الخلافت الأهلية ، وأن تكون الجمهورية ، بعد أن تعود سبيلها الأولى من السلامة والقوة ، فى غير حاجة الى الوساطة الخطيرة من جانب حاكم غير عادى . وتكررت هذه المسرحية الهلزية عدة مرات فى عهد أوغسطس ، وخلد ذكراها الى أواخر أيام الامبراطورية ، تلك الأبهة التى كان يسبغها دائما ملوك روما الأبديون على السنوات العاشرة من حكمهم بنوع خاص .

وكان قائد الجيش الرومانية يستطيع ، دون خسران أبديء الدستور ، أن يتولى ويمارس سلطة تكاد تكون مطلقة ، على الجنود وعلى الأعداء وعلى رعايا الجمهورية . أما فيما يتعلق بالجنسود فسان الغيرة على الحرية ، حتى فى العصور الأولى لروما ، أذعنتم الملأ فى الفتوحات ، ولشعور صادق بالنظام العسكرى ، وكان لادكتاتور أو القنصل الحق فى أن يجند الشباب الرومانى ، وأن ينسزل أشد العقوبات ردعا وقسوة بالمخالمين عنادا أو جبنا ، وذلك بتهمة أساء الأئيين من سجل المواطنين ومصادرة ممتلكاتهم ، ويبيعهم الرقيق .

فكان الارتباط بالعسكرية يعطل أقدس حقوق الحرية التي أكدتها قوانين بورشيا وسبرونيوس وكان الثأد يمارس في معسكره سلطة مطلقة على الحياة والموت ، ولم يكن قضاؤه محدودا بأية قواعد أو ضوابط للمحاكمة أو الإجراءات ، وكان الحكم ينفذ فوراً ، وليس له من استئناف . وكانت الهيئة التشريعية هي التي تختار وتقرر بانتظام من هم أعداء روما ، وكانت أهم قرارات الحرب والسلم تناقش في السناو مناقشة جدية . ثم يصدق عليها الشعب وسط مظاهر الهيبة والوقار ، فما أن تنأى القوات بأسلحتها إلى مسافات بعيدة عن إيطاليا حتى ينتحل القواد لأنفسهم حرية توجيه السلاح إلى أي شعب وبأي شكل ، تبعاً لما يترأى لهم أنه أوفق وأفضل للمصلحة العامة . فكانوا يلتمسون شرف النصر وأجاد الظفر في نجاح مخابراتهم وتصرفاتهم لا من عدالتهم وأحققتها . ولجأوا في استغلال انتصارهم إلى حد الاستبداد المطلق بلا قيود ، وخاصة بعد أن بعدت عنهم أعين مبعوثي السناو . ولما تولى بيمبي Pompey القيادة في الشرق ، كافأ جنوده وحلفاءه ، وطلع الأمراء عن عروشهم وقسم الممالك ، وأسس المستعمرات ، ووزع كنوز ميريديانس . ولدى عودته إلى روما فاز بالتصديق العام الشامل على كل تصرفاته بمقتضى قرار واحد من السناو والشعب . وهكذا كانت السلطة على الجنود وعلى أعداء روما ، سواء خولت لقواد الجمهورية أو انتطووا هم لأنفسهم . وكانوا في نفس الوقت حكاما للولايات المفتوحة أو قل ملوكا عليها . فجمعوا في أشخاصهم بين الطابع العسكري والشخصية المدنية ، وتولوا القضاء والنسئون المالية والسلطتين التشريعية والتنفيذية في البلاد .

وقد يكون من الميسور ، مع ما أسلفنا ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب ، تكوين فكرة عن جيوش أغسطس والولايات التي وقعت تحت حكمه . ولما كان يستحيل عليه أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه في عدة جبهات بعيدة ، أجاز له السناو — كما كان الحال مع بومبي من قبل — أن يفوض عددا كافيا من النواب أو الوكلاء في تنفيذ المهام الضخمة لمنصبه . ولم يبد أن هؤلاء النواب كانوا أقل في الرتبة والسلطة من الولاة القدامى ، ولكن مراكزهم كانت تابعة مزعزعة ، فقد يتقلدون وظائفهم ويقومون بمهامهم تحت رحمة رئيس كان ينسب قانونا لنفوذه الميمون المبارك ، كل فضل لهم في أعمالهم . وكان هؤلاء ممثلين للامبراطور ، وكان الامبراطور هو القائد الأوحد للجمهورية ، وكانت ولايته المدنية والعسكرية ،

تمتد لتشمل كل فتوحات روما . بيد أن السناتو وجد نوعا من الترضية في أن الامبراطور كان دائما يفوض سلطاته لأعضاء هذا المجلس . أما نواب الامبراطور فكانوا من مرتبة القناصل أو الحكام ، كما كان يتولى قيادة الفرق اعضاء من السناتو ، أما منصب والى مصر فكان المنصب الهام الوحيد الذى يعهد به الى أحد الفرسان الرومان .

وبعد ستة ايام من اضطرار أوغسطس الى الرضا بهذه المنحة السخية ، قرر أن يرضى غرور السناتو بتضحية يسيرة . ذلك أنه أبدى لهم أنهم منحوه من السلطات حتى أكثر مما تدعو اليه الظروف السينة آنذاك ، وأنهم لم يتركوا له فرصة ليمتنع عن قبول العبء الشاق ، عبء قيادة الجيوش والجيهاة ، ولكنه يصر اصرارا على أن يرخص له في إعادة الولايات التى هى أكثر وداعة وأما بين أيدي حكام مدنيين يديرونها ادارة رفيقة . ولم يغفل أوغسطس في تقسيمه للولايات أمر قوته هو ، وأمر كرامة الجمهورية ، بل احتاط للأميرين وحسب لكل حسابيه . وحظى الولاة المختارون من السناتو ، وعلى الأخص ولاة آسيا واليونان وأفريقية ، على مرتبة أكبر من نواب الامبراطورية الذين حكموا في بلاد الغال وفي سوريا . وكانت حاشية الأولين من الضباط ، والآخرين من الجنود ، وصدر قانون ينص على أنه حيثما كان الامبراطور حاضرا فان ما يتمتع به من تفويض خارق يجب أية ولاية شرعية عادية للحاكم ، وابندع عرف جديد يقضى بأن تكون الفتوحات الجديدة من نصيب الامبراطور وسرعان ما استبان أن قوة « الأمير » ، وهو اللقب الأثير لأوغسطس كانت هى بنفس القدر في مختلف أرجاء الامبراطورية .

وحصل أوغسطس في مقابل هذا التنازل الوهمى أو الاذعان الصورى ، على ميزة هامة جعلته سيدا على روما وعلى ايطاليا ، ذلك أنه استثناء من المبادئ القديمة — وهو استثناء خطير — خول حق الاحتفاظ بالقيادة العسكرية مدعمة بعدد كبير من الحرس حتى في زمن السلم ، وإلى قلب العاصمة . حقا كانت امرته مقصورة على المواطنين الذين التحقوا بالخدمة بمقتضى اليمين العسكرية ، ولكن تلك كانت نزع الرومان الى العبودية ، حتى أن السناتو والحكام والفرسان كانوا يتسمون اليمين ، الى أن انقلب الانسياق مع النفاق الى اعسلان سنوى مدو مهيب عن الولاء والاخلاص .

وكان أوغسطس يرى في القوة العسكرية أقوى ركيزة ، ولكنه رنم ذلك أنكر عليها في حكمة وتبصر ، أن تكون أداة مقبوتة

للحكم . وكان أكثر التثاما مع مزاجه ومع سياسته في وقت معا ،
 ' يحكم تحت ظل الاسماء الوقورة لالوان الحكم القديم ، على أن
 يجمع في شخصه ، بمهارة ودهاء ، كل الخيوط المبعثرة للسلطة
 المدنية ، وعلى هذا الأساس سمح للسناو أن يمنحه مدى الحياة
 سلطات الوظائف القنصلية والتربوية ، وقد بقيت هذه السلطات
 على هذا النسق ، لجميع خلفائه . وكان القناصل قد سمو الى مرتبة
 ملوك روما - ومثلوا كرامة الدولة وجلالها . فرأسوا الاحتفالات
 الدينية ، وحشدوا الفرق وتولوا قيادتها . واستقبلوا السفراء
 الأجانب ، ورأسوا اجتماعات السناو والمجالس الشعبية ، كما عهد
 ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن
 الفراغ ما يتولون فيه القضاء بانفسهم ، لكنهم كانوا رغم ذلك
 يستبشرون الحياة الأعلى للقانون والعدالة والسلام العام . تلك كانت
 حدود ولايتهم الشرعية العادية ، اما اذا فوض السناو المعامل الأول
 في السهر على سلامة الجمهورية والدود عن حياضها ، فانه كان
 يرتفع بمقتضى هذا القرار فوق القانون ، وكان يمارس ، من أجل
 الدفاع عن الحرية ، سلطانا مطلقا بصفة مؤقتة . وكانت شخصية
 التربيون Tribune تخلص عن شخصية القنصل من كل النواحي ،
 فكان الأول يتسم في مظهره بالبساطة والتواضع ، ولو أن شخصه
 كان مقدسا لا يمس . وكان له أن يعارض ويناهض أكثر من أن يعمل
 أو يبت في الأمر . وأنشئ منصب التربيون للدفاع عن المظلومين
 والمدافع عن الاسماء ، ولاستجواب أعداء الشعب ، ولوقف
 اجراءات الحكومة كلها ، بكلمة واحدة منه ، اذا رأى أن الضرورة
 تقتضى بذلك . وطيلة ايام الجمهورية كانت ثمة قيود هامة تحد من
 النفوذ الخليلر لكل من القنصل والتربيون ، ذلك النفوذ الذي كانت
 نسبته عليهم ولثافتهم . من ذلك أن سلطتهم كانت تنقضى بانقضاء
 السنة التي انتخبوا فيها ، وكانت الوظيفة الأولى - القنصل -
 موزعة بين شخصين ، والثانية بين عشرة أشخاص . ونظرا لتعارض
 المصالح الخاصة والعامة لكل من الفريقين - القنصل والتربيون -
 فان السراع بينهما أدى ، أكثر ما أدى ، الى تدعيم التوازن
 الدستوري ، لا الى تحليله . ولكن حين اتحدت وظيفتا القنصل
 والتربيون ، وخولت سلطتهما مدى الحياة لفرد واحد ، حين كان
 قائد الجيش هو نفسه رئيس السناو وممثل الشعب الروماني
 فقد كان من السهل عليه ألا يمارس الحق الامبراطوري أو يمين
 حدوده ومداه .

وسرعان ما أضافت سياسة أوغسطس الى هذه الوظائف التي تجمعت له ، وظيفتين عظيمين هامين في وقت معا : الحبر الاعظم والرقيب ، فبالأولى تولى أمور الدين ، وبالثانية يكتسب حقاً قانونياً في الرقابة على ملوك الشعب الروماني وفي البحث عن ثرواته . واذ لم تلتئم هذه السلطات المتميزة المستقلة بعضها مع بعض التنامياً تاماً ، فإن السناتو — أدبا منه ولطفاً — كان على استعداد ليعالج أى نقص بالرخص والتنازلات الكثيرة الخارقة الى أبعد حد . وتحرر الأباطرة بوصفهم الرؤساء الأول في الدولة من التزامات وعقوبات كثير من القوانين المضايقة ، وكان لهم حق دعوة السناتو للاجتماع ، واجراء عدة اقتراحات في نفس اليوم ، وتقديم أسماء المرشحين لوظائف الدولة ورتبها ، وتوسيع حدود المدينة ، والتصرف في الدخل حسب تقديرهم وعلان الحرب والسلام ، والتصديق على المعاهدات ، وأخيراً كانوا يفوضون ، بقرار شامل جاسع أن يفتلوا ما يرونه نافعا للإمبراطورية ، متفقا مع الجلال والعظمة ، في الخاص والعلم ، والانساني واللاهوتي من الأمور .

وحين انتقلت هذه الصلاحيات التنفيذية المختلفة للحكومة الى شخص « الحاكم الامبراطور » ، قبع الحكام العاديون في الجمهورية في اركان مظلمة خاملين بل عاطلين عن العمل في الغالب . واحتفظ أوغسطس بكل أسماء وأشكال الادارة القديمة في أبخ عناية ولينة . وكان العدد المألوف من القناصل ومساءديهم Praetors ومن الترابيون يزودون في كل عام بشعارات وأعلام وظائفهم ، وقد استمروا على القيام بأتفه مهامهم . وكانت هذه الشعارات والأوسمة لا تزال تثير في نفوس الرومان طموحا وغرورا ، وحتى الأباطرة أنفسهم ، رغم ما منحوا من سلطان القنصل مدى الحياة ، كثيرا ما تشبهوا الى هذا التكريم السنوي ، وقد تنازلوا فارتضوا أن يشاركوا فيه أكثر مواطنيهم امتيازاً وسموا . وقد أتاح انتخاب هؤلاء الحكام ، في عصر أوغسطس ، للشعب فرصة اظهار كل متاعب الديمقراطية الفجة الساذجة ، وما كان هذا الأمير الداهية الماكر ان يظهر عليه أقل أمارات الضجر أو الضيق بهذا الذي يقولون ، بل انه بدلا من ذلك ، كان ينتبه الى كل هذه المتاعب ، وكان بكل تواضع يوجه نظر زملائه اليها ، ثم يؤدي — في دقة وأمانة — واجبه كأي مرشح عادى . ولكن يمكن ، في شيء من الجراءة ، أن ننسب الى مجالسه أول اجراء اتخذته العهد الذي أعقبه ، وهو الاجراء الذي أدى الى انتقال هذه الانتخابات الى السناتو . غالغيت المجالس الشعبية الى الأبد ، وبذلك تخلص

الاباطرة من التجمع الخلير الذى كان يمكن — اذا لم ترد له حريته — أن يهز اركان الحكومة الوطيدة أو يعرضها للخطر ويعصف بها .

ولقد حطم ماريوس وقصر دستور البلاد حين أعلننا انها حماة الشعب . ولكن سرعان ما اتضح أن السناتو الذى يضم خمسمائة أو ستمائة عضو ، أصبح بعد أن أخضع وأذل وجرد من قوته — أصبح أداة للسيطرة أنفع وأساس قيادا . ومن هنا يمكن القول بأن أوغسطس وخلفاءه إنما شادوا امبراطوريتهم الجديدة على حساب السناتو ، وما كان له من مقام ومكانة . وكانوا يتظاهرون فى كل مناسبة بأنهم يقتبسون لغة النبلاء ورجال السناتو ومبادئهم . وكثيرا ما التمسوا الراى والمشورة عند هذا المجلس الوطنى الموقر فى تادية مهام وذللتهم ، وبدأ أنهم يرجعون الى قراراته أو يأخذون بها فى أهم قضايا الحرب والسلم . وكانت روما وايطاليا والولايات الداخلة خاضعة للسلطة القضائية للسناتو مباشرة . فكان هو بمثابة محكمة الاستئناف العليا بالنسبة للأحوال المدنية . أما فيما يتعلق بالجنايات فكان هو ، أى السناتو ، محكمة مشكلة لانتظر فى الجرائم التى يرتكبها الموظفون العاملون فى الدولة أو التى تكدر السلم أو تسيء الى كرامة الشعب الرومانى وعلمته ، فاصبحت ممارسة السلطة القضائية هى الشغل الشاغل للسناتو وأخطر المهام التى يضطلع بها ، وكنت ترى فى السناتو ، عند نلر القضايا الكبرى التى تستأنف اليه ، ترى آخر منبر للبلاغة القديمة . وكانت السناتو ، بوصفه مجلسا للدولة ومحكمة للقضاء ، امتيازات هامة ، أما بالنسبة لقوة التشريع ، فكان المقرر أو المعترف به أن حقوق السيادة كانت مركزة فى هذا المجلس الذى كان مفروضا فيه أنه فى الحقيقة يمثل الشعب . ان أية قوة كانت تستمد من سلطاته ، ولا يجاز أى قانون الا بتصديق منه . وكان السناتو يعقد اجتماعات دورية فى ثلاثة أيام معينة هى الاول والتاسع والخامس عشر من كل شهر . وكانت المناقشات تدار فى حرية تتسم بالوقار والحشمة ، وكان الاباطرة الذين نالوا فى مقاعد الشيوخ ، يأخذون امساخهم ويصرون سم زملائهم من الأعضاء أو يخالفونهم .

فكرة عامة عن النظام الإمبراطوري

يمكن في عبارة موجزة ، إجمال نظام الحكومة الإمبراطورية ، كما وضعه أوغسطس ، واحتفظ به أولئك الأمراء الذين أدركوا بمصالحهم الخاصة ومصالح الشعب - بأنه ملكية مطلقة مستترة وراء أطرارات جمهورية ، وقد لف سادة دنيا الرومان ، عروشهم في غلالات من الخبوض والظلام ، واخفوا قوتهم القاهرة الغلابة ، وأعلنوا في خشوع وتواضع أنهم الوزراء المسئولون للسنانو الذي املوا هم أوامره العلية ثم أطاعوها .

وكان مظهر البلاط يطابق المظاهر الخارجية للحكومة . وباستثناء أولئك الطعنة الذين انتهكوا حرمة كل قوانين الطبيعة والوقار بحماقتهم الخرقاء ، نجد أن الأباطرة كانوا ينفرون من كل مراسم الأبهة والعظمة التي قد تسيء إلى مواطنيهم ، والتي لا تجديهم هم أنفسهم نفعا ولا تزيد في قوتهم شيئا . فتظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم في كل ما يهمهم من أمور الحياة ، وتبادلوا معهم سلسلة من الزيارات والحفلات المنتظمة . ولم يسموا في ملابسهم وقصورهم وموائدهم عن مرتبة عضو ميسور من أعضاء السنانو . أما أبناع الإمبراطور أو معيته ، مهما بلغ من وفرة عددها ومن سنانها ، فكانت تتكون كلية من عبيده المحليين والمعتمدين (١) ، وربما كان أوغسطس أو تراجان يستحي ويخجل من استخدام أقل الرومان سنانا في مثل هذه الوظائف الحقيرة التي يلتمسها ويسيل لها لماب أكثر النبلاء البريطانيين غرورا ، في حاشية ملك صغير أو في غرفة نومه .

وكان تقديس الأباطرة إلى حد العبادة هو الأمر الوحيد الذي خرجوا فيه عن مألوف فطنتهم وتواضعهم . وكان الإغريق الآسيويون أول من ابتدعوا هذا اللون الذليل الملحد من المداينة والرياء ، وكان خلفاء الاسكندر أول هدف لهذا التقديس . وما كان أيسر امتداد هذا التقديس أو التأليه من الملوك إلى الحكام في آسيا ، وكثيرا ما كان الحكام الرومان يعبدون بوصفهم آلهة محليين ،

(١) كان أتباع الإمبراطور الضعيف، يسيطرون عليه ويسيطرونه ، وكانت فترة الدولة وسطرب شتات من سوءات الرومان وتزيدهم عارا . وهم احتفى السنانو بالشبان المنقوتين ونسائبات إجميلات من هؤلاء الأتباع . وكانت الفرصة مواتية ليدخل أحد المتربين المدحيين الجدد في عداد السادة المهذين الإجلاء .

بكل ما تقتضيه العبادة من أبهة المذابح والمعابد والأعياد والقربان .
وحان من السبيعي ألا يابى الأباطرة على انفسهم ما ارضاه الساسل
والولاة ، ولا شك في أن هذه الأمجاد الالهية التي كان يتلقاها
هؤلاء وهؤلاء كانت افرارا باستبداد روما اكثر منها بعبوديتها .
ولكن سرعان ما قلد الغزاة الفاتحون الأمم المقهورة في أفانين الملق
والرياء ، فسهل على القيصر الأول ، وهو على قيد الحياة مع
ما ركب فيه من عتو وغطرسة ، أن يرضى له مكانا بين الآلهة الأوصياء
الحراس على روما . ولم يتعلق خلفه ذو المزاج الأرق بمثل هذا
الملحع الخطير ، الذي لم يحبه قط من جديد الا جنون كاليجولا
ودوميتيان . والواقع ان أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن
تقيم المعابد تكريما وتمجيذا له ، شريطة أن يربطوا عبادة روما بعبادة
الملك ، وتساهج في بعض الخرافات الخاصة التي قد تدور حول
شخصه ، ولكنه قنع بأن يكون اجلال السناتو والشعب له على
أساس شخصيته الانسانية ، وفي حكمة وتبصر ترك لخلفه مهمة
الناليه العام . واستحدث عرف جديد ، ذلك أن السناتو كان يصدر
عند وفاة الإمبرطور الذي لم يحك في حياته أو مهاته سيره
الطاغية — يسدر قرارا خطيرا بادراجته في عداد الآلهة . وكان الاحتفال
بنسبه الى الآلهة يدخل بمراسم دفنه . وكان مبدأ الشرل وتعدد
الآلهة ، بما اتسم به من سهولة وبساطة يتقبل ، في غير ما ضجة ،
هذا الامتهان القانوني الذي يبدو غريبا طائشا ، كما يبدو
بغيرضا مقبلا كل البفس والمقت في نظر مبادئنا التي هي أشد
مراية ودقة ، ولكنه كان يتقبل على أنه لون من نظم السياسة ،
لا الدين . وانا لنجدل من قدر فضائل الانطونيين اذا قارناها
برذائل هرقل أو جوبيتر . بل ان شخصية قيصر أو أوغسطس كانت
تسهر كثيرا على شخصية الآلهة المحليين ، ولكن من سوء حظ
الأولبن أنهما عاشا في عصر مستنير ، وأن أعمالهما دونت بأمانة
سجحت بمثل هذا الخليط من الخرافة والغموض الذي أرادته عبادة
السوقة والسمنة وولاؤهم . وما أن تقررت ألوهيتهم بقتل القانون
حتى اندرست الى زوايا النسيان ، دون أن تضيف شيئا الى شهرتهم
أو الى مكانة خافاتهم .

وتكثرا ما أوردنا ، في الحديث عن الحكومة الامبراطورية ، ذكر
المؤسس الداهية تحت اللقب الذائع « أوغسطس » ، الذي لم يسبق
عليه الا عندما كاد الصرح ان يكتمل . اما الاسم الخامل المهجور
« أوكتافيوس » فقد أخذه عن أسرة ونسبه في المدينة الصغيرة

آرينشيا Aricia ، وكان ملطخا بدم حكم الاعدام ، ومن ثم كان مثلها ما أمكن على محو أية ذكريات لحياته الأولى . أما اللقب اللامع « قيصر » فقد كسبه بوصفه ابن الدكتاتور التبنى . ولكنه أوتى من سعة العقل ما جعله لا يأمل في أن يقترن بهذا الرجل الخارق أو يرغب في أن يقارن به . واقترح في السناتو تكريم وزيره بتسمية جديدة ، واختير ، بعد مناقشة حامية اسم « أوغسطس » من بين عدة أسماء . لأنه أصدق تعبيراً عن طبيعة السلام والطهر التي اصطنمها دوماً . ومن هنا كان أوغسطس امتيازاً شخصياً ، أما قيصر فهو امتياز تابع من الأسرة ، وكان من الطبيعي أن ينقضى الأول بانقضاء حياة الأمير الذي أسبغ عليه ، ومهما يكن من أمر انتشار اللقب الأخير — قيصر — عن طريق التبنى أو تحالف الأسرات ، فإن نيرون كان آخر أمير يستطيع أن يدعى أى حق وراثي في أمجاد فرع يوليوس . ولكننا نجد عند وفاته أن ما تم على مدى قرن من الزمان قد أحكم الصلة بين هذه التسميات وبين المقام الإمبراطوري الجليل ، كما حافظ عليها تعاقب طويل لأباطرة من الرومان واليونان والفرنجة والألمان ، منذ سقوط الجمهورية إلى وقتنا هذا . على أن غارقاً واحداً أدخل ، ألا وهو الاحتفاظ باللقب المقدس « أوغسطس » لشخص الملك ، أما اسم « قيصر » ، فكثيراً ما انتقل في حرية أكثر إلى ذوي قرياه . ومنذ عهد هادريان — على الأقل — خصص هذا الاسم الأخير للشخص الثاني في الدولة ، الذي كان يعتبر الوريث المحتمل للإمبراطورية .

ويمكن تفسير الاحترام الهزيل الذي أبداه أوغسطس للدستور الحر الذي جعله ، بالتأمل الدقيق الواعي في شخصية هذا الطاغية الداهية المحتال . لقد كان رصينا هادئ الطبع ذا قلب لا يتأثر ، نزاعاً إلى الجبن والتهيب ، كل أولئك سكن له في سن التاسعة عشرة من أن يلبس ثناعاً من النفاق لم يتخل عنه بعدها قط . فتراه يوقع بنفس اليد ، وأغلب الظن بنفس الروح ، الحكم بالاعدام على شيشرون ، وقرار العفو عن سيننا Cinna . وكانت فضائله ، بل وحتى رذائله ، متكلفة مصطنعة ، وكان في بداية الأمر عدواً للعالم الروماني ، ثم غداً في النهاية أباً له ، وكل أولئك خطرات من أملاء مصلحته (١) . ولما وضع النظام الخبيث للسلطة الإمبراطورية كان

(١) عندما ارتقى اكتافيرس إلى مرتبة القيصرية ، كان بمثابة حرياء تتلون بالوان كثيرة : صفراء شاحبة في البداية ، ثم حمراء ، وبعد ذلك سوداء ، وفي النهاية تقمص أرواح الهة الربيع والاخوات الثلاث الهات مسرات الحياة ومباهجها . تلك هي الصورة =

اعتداله منبعثا من مخاوفه . فأراد أن يخدع الشعب بطيف الحرية المدنية كما يخدع الجيوش بصورة الحكومة المدنية .

١ - لقد كان موت قيصر مثالا أبدا أمام عينيه ، فأغدق المال والرتب على أتباعه وأشياعه ، ولكن أخلص الأصدقاء المقربين الى عمه كانوا في عداد المتآمرين . وقد يجدى اخلاص القوات المسلحة في التصدي للعصيان أو التمرد السافر على سلطته ، ولكن يقظتهم لن تنقذ شخصه من طعنة خنجر من يد جمهورى متشدد ، ولابد أن الرومان الذي مجدوا ذكرى بروتس ، سيمتدحون ويصفقون لمن يفعل فعلته . لقد تعجل قيصر مصيره بفعل مفاخرته بقوته وبفعل قوته على قدر سواء . ولربما كان قد حكم في سلام وهدوء لو أنه اكتفى بمنصب القنصل أو التربيون . غير أن طمعه في أن يكون ملكا أعطى الرومان سلاحا يستخدمونه في قتله . وكان أغسطس يدرك أن البشر تفرهم الألقاب ، كما أنه لم يكن مخدوعا في توقعه أن السناتو والشعب لا بد أن يستكينوا ويستسلموا ، شريطة أن يؤكد لهم في احترام واجلال أنهم لا يزالان ينعمون بحريتهم القديمة . وكان السناتو الضعيف والشعب الذى وهنت عزائمهم يقنعون مبنهجين بهذا الوهم السار ، طالما كان يعتمد على فضيلة خلفاء أغسطس ، أو حتى على حكمتهم . والحق أنه كان دافعا من دوافع الابقاء على الذات ، لا مبدءا من مبادئ الحرية ، ذلك الذى أثار المتآمرين ضد كاليجولا ونرون ودوميتيان ، فقد تصدروا لشخص الطاغية ولكنهم لم يسددوا ضربتهم الى سلطة الامبراطور .

ويبدو في الواقع أن هناك مناسبة واحدة جديرة بالذكر ، قام فيها السناتو بعد سبعين سنة تذرع فيها بالصبر ، بمحاولة عقيمة لاسترداد حقوقه التى طال عليها عهد النسيان . ذلك أنه عندما خلا العرش ، بقتل كاليجولا ، دعا القناصل هذا المجلس الى الاجتماع فى الكابيتول ، ونددوا بذكرى القيصرة ، وأعطوا كلمة السر « الحرية » للفئة القليلة من الفرق العسكرية التى التفتت فى هتور حولهم ، ثم تصرفوا (القناصل) لمدة ثمان وأربعين ساعة وكانهم

= التى رسمها جوليان فى قصته البارعة ، وهى صورة صادقة رشيقة . ولكنه حين يتسبب ثقلب شخصيته الى قوة الفلسفة ، انما يولى الفلسفة ويولى أوكتافىوس شرفا أكثر مما يذغى . (« القيصرة » تاليف لوشيان - وهو كاتب يونانى عاش فى القرن الثانى الميلادى) .

رؤساء مستقلون لجمهورية حرة . وفي الوقت الذى كانوا يتدبرون فيه الأمر فى روية . كان رجال الحرس الامبراطورى قد حزموا أمرهم ، واستقر قرارهم ، بل وكان كلوديوس الفبى شقيق جرمانيكس فى معسكرهم فى حلة الامبراطورية الارجوانية مستعدا لتثبيت انتخابه بحد السيف . وهنا تبخر حلم الحرية ، وفتح السناتو عينيه على مظائع العبودية التى لا مفر منها . وأرغم هذا المجلس الهزيل ، وقد تخلى عنه الشعب وهددته القوة العسكرية ، أرغم على اقرار ما اختاره الحرس ، والاستفادة من العفو العام الذى اقتضت مظنة كلوديوس أن يعرضه ، كما اقتضى كرمه أن يتنبه اليه .

٢ - وأثارت سفاهة الجيش وسلطه فى نفس أوغسطس مخاوف تفاقم نذيرها على مر الأيام . وبلغ بالمواطنين القنوط الى حد أنهم لم يحاولوا الا أن يعرفوا ماذا تستطيع قوة الجنود أن تفعل فى أى وقت . وكم كان سلطانه (أى أوغسطس) مزعزها غير مأبون على قوم لقنهم هو أن ينتهكوا حرمة كل واجب اجتماعى ! لقد سمع من قبل صخبهم المثير للفتنة ، كما توجد خيفة من لحظات تألمهم الهائلة . وقد يمكن شراء ثورة واحدة لقاء ثمن باهظ ، ولا بد أن يكون هذا الثمن مضاعفا لشراء الثورة الثانية ، لقد أعلن الجنود أشد التعلق ببيت قيصر ، ولكن تعلق الجماهير متقلب غير ثابت ، ولكن أوغسطس اهتأب لمعونته بكل ما تبقى فى تلك العقول من أهواء وتحيزات رومانية ، وفرض نظاما صارما بقوة القانون ، ووضع هيئة السناتو بين شقى الرعى : الامبراطور والجيش . ثم جمع أطراف شجاعته وطالب بولائهم له بوصفه الحاكم الأول للجمهورية .

ومنذ أقيم هذا الأسلوب البارع الماكر حتى وفاة كومودس Commodus ، أى طيلة فترة امتدت مائتين وعشرين سنة ، توقفت الى حد كبير الاخطار الملازمة للحكومة العسكرية ، فقلما كان الجنود يوقظون الى حد الاحساس بخطورة قوتهم ، وبضعف السلطة المدنية ، ذلك الضعف الذى كان ، من قبل ومن بعد ، نتيجة لمثل هذه الكوارث الرهيبة . لقد ذبح كل من كاليجولا ودوميتيان فى قصره بيد خدمه ، وكانت الهزة التى أصابت روما لموت الأول محصورة بين جدران المدينة ، ولكن وفاة نيرون هزت أركان الامبراطورية بأسرها . وفى مدى ثمانية عشر شهرا هلك أربعة من الأمراء بحد السيف ، وانتفضت دنيا الرومان لهذا الصراع المحتدم بين الجيوش المتنازعة . وباستثناء احتدام هذه المنازعات العسكرية القصيرة ، ولكن العنيفة ، فإن القرنين من الزمان — من أوغسطس

الى كومودس — لم تلطخهما دماء الحروب الاهلية أو تكدر صفوهما أية ثورات . فكان الامبراطور ينتخب بمقتضى ما للسناو من سلطة ، وبرضا من الجيش . واحترمت القوات يمين الاخلاص الذى كانوا يؤدونه . ويتطلب الأمر فحصا دقيقا لسجلات التاريخ الروماني للاهتداء الى ثلاث ثورات تافهة أهدت فى بضعة شهور ، دون المخاطرة بالدخول فى معركة .

ان ساعة خلو العرش فى الملكية الانتخابية محفوفة بالخطر منثرة بالسوء . ومن ثم اتجهت رغبة اباطرة الرومان الى أن يجنبوا الفرق العسكرية فترة الترقب والبلبله هذه ، ويجنبوهم الاغراء باختيار شاذ ، ولذلك زودوا الشخص الذى يقصدون أن يكون خلفا لهم بنصيب كبير من سلطتهم الراهنة ، بالقدر الذى يستطيع معه ، بعد وفاتهم أن يستحوذ على ما تبقى من سلطة دون أن تعاني الامبراطورية مشقة ادراك التغيير فى الحكم . ومن هنا نرى أن أوغسطس بعد أن اختطفت منه تطلعاته التى هى أكثر ازدهارا بأحداث الموت التى جاءت فى غير أوانها ، ركز آماله الأخيرة على تيبيريوس ، وحصل لابنه بالتبنى على سلطات الرقيب والتربيون ، ثم فرض قانونا زود الأمير المنتظر بسلطة مساوية لسلطته هو ، على الولايات والجيش . وكذلك كبح فسبازيان التطلع الجامح لابنه الأكبر ، وكان تيتس معبود الفرق العسكرية الشرقية التى أتمت مؤخرًا ، تحت امرته ، فتح أرض يهوذا Judea . وكان مرهوب الجانب . وكانت تشوب فضائله مسحة من طيش الشباب ، ولذلك كانت مشروعاته موضع الشك والريبة . وبدلا من الاصفاء الى هذه الريب التافهة ، عمده الملك الفطس (فسبازيان) الى اشراك تيتس فى السلطات الامبراطورية كاملة . واثبت الابن الشكور دائما أنه الوزير المخلص المتواضع للأب اللطيف المتساهل .

والحق أن ادراك فسبازيان السليم أدى به الى أن ينشفل باتخاذ اجراء لتدعيم هذا الارتقاء المزعزع حين تبوأ العرش حديثا . لقد كانت اليمين العسكرية كما كان اخلاص القوات ، وفقا للعادات التى تأصلت لمدة مائة عام وفقاً على اسم قيصر وأسرته . يتطلع الرومان فى شخص نيرون ، يجلون حفيد جرمانيكوس والخليفة الوراثى لاوغسطس ، على الرغم من أن هذه الأسرة لم تستمر فى الوجود الا بهذه السنة الملفقة ، الا وهى سنة التبنى . ولم يكن اقناع الحرس الامبراطورى وتحريضه للتخلي عن الطاغية أمرا خاليا من الندم

والمضايقة . وقد علم انسقوط السريع لجنالبا Galba واثو Otho وفيتليوس Viteilius علم الجيوش أن تنظر الى الأباطرة على أنهم من صنع ارادتها ، وأدوات لسلطانها . لقد كان فسبازيان من أصل وضع ، كان جده جنديا خاصا ، وأبوه مأمورا صغيرا للدخل ، وقد رفعتة مواهبه الخاصة الى مرتبة الامبراطور ، ولكن مواهبه كانت نافعة أكثر منها لامعة مشرقة ، وتلوثت فضائله ببخله الشديد الدنى . وقد رعى هذا الأمير مصلحته الحقيقية بإشراك ابنه الذى يمكن أن تصرف شخصيته العظيمة المحبوبة الانظار العامة عن الأصل المظلم الى ما ينتظر فى المستقبل من أمجاد لبيت فلافيوس Flavius وفى ظل الاعتدال الذى اتسمت به ادارة تيتس استروح عالم الرومان نسيما عابرا من الغبطة والهناء ، حتى لقد غطت ذكراه العاطرة المحببة ، لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، سيئات أخيه دوميشيان .

وما كاد نرفا Nerva يتسام طيلسان الملك من قتله دوميتيان حتى تبين له أن تقدمه فى السن يجعله عاجزا عن صد تيار الفوضى الجارف الذى استشرى طيلة حكم سلفه الطاغية . وكانت ميوله الطيبة موضع تقدير كرام القوم ، ولكن الرومان الذين دب فيهم الانحلال كانوا يتطلبون شخصية أصلب وأقسى ، حتى تلقى عدالتها الرعب فى قلوب المجرمين ، وكان لديه العديد من ذوى قرباه ، ولكن وقع اختياره على رجل غريب ، فبنى تراجان الذى كان آنذاك فى الأربعين من العمر ، والذى كان تحت امرته جيش قوى فى المانيا السفلى (فى الجزء الجنوبى من ألمانيا) . وبمقتضى قرار من السناتو ، أعلن نرفا على الفور تراجان زميلا له وخلفا له فى الامبراطورية . وانه لما يبعث حقا على الأسى ، أنه فى الوقت الذى نشق فى بالسر الممل الكريه لجرائم نيرون وحماقاته ، نجد أنفسنا مضطرين الى جمع أعمال تراجان من شتات موجز أو مخلفات مديح مريب . على أن هناك مديحا واحدا يرتفع عن الشبهات وعن مظنة الملق . ذلك أنه بعد مرور مائتين وخمسين عاما على موت تراجان وفى غمرة الهتاف والتهليل المألوف لمناسبة اعتلاء امبراطور جديد على العرش ، تمنى السناتو للعاهل الجديد أن ييز أوغسطس فى هناء عهده ، وأن ييز تراجان فى فضائله .

وقد نكون على استعداد للقول بأن أبا البلاد تردد فيما اذا كان يذهبى له أن يعهد الى شخص قريبه المتقلب المريب هادريان ببعض السلطات الملكية . فلما حانت منيته استخدمت الامبراطورة بلوتينا

Plotina دهاءها وجعلها في اخراج تراجان من حيرته ، أو أنها تجاسرت غلفت له امرا لم يأمن بغية الجدل فيه . واقتضى الأمر بالاعتراف في سلام بهادريان خلفا شرعيا لتراجان . ونعمت الامبراطورية على عهده . كما أسلفنا . بالسلام والرخاء ، وقد شجع الفنون وأصلح القوانين ، وأقر النظام العسكري ، وزار كل الولايات بنفسه . . كما وجه ذكاهه الواسع الفعال ، بنفسه القدر ، الى كل كبيرة وصغيرة في مجال السياسة المدنية . ولكن الزهو والفضول كانا يملكان عليه جوانب نفسه فكلمها الحاح عليه ، وكلمها ثارا لشيء أو لآخر ، انقلب هادريان بدوره من أمير ممتاز الى سفيطاني يدعو الى السخرية ، والى طاغية تاكل الغيرة قلبه . لقد كان الرجل يستحق الثناء لما تميز به الطابع العام لسلوكه من انصاف واعتدال ، ومع ذلك ففي الأيام الأولى أعيد أربعة من أعضاء السيناتو القناصل ، كانوا أعداء الداء له ، وكانوا جديرين بمنصب الامبراطورية . وكان يعاني من داء عضال . جعل منه في النهاية رجلا شريرا قاسيا . وحار السيناتو هل يدموه لها أو طاغية . ولم يتقرر تمجيد ذكره الا نتيجة لتوسلات انطونينوس النقي .

وأثرت نزوات هادريان وشذوذه في اختيار خلفه . ويعد أن عمل فكره في عدة رجال من ذوى المواهب البارزة ، الذين كان يقدرهم ويغضهم في وقت معا ، اختار أليوس فيروس Aelius Verus وهو شخص مرح داعم من الإشراف ، أوصى به جمال ساحر لدى هادريان عشيق انطونينوس . وبينما كان لاهيا ناعما بما يكال له من مديح وتقريظ ، وبتهليل الجنود الذين حصل على موافقتهم بما أغدق عليهم من هبات ضخمة ، اختطف القيصر الجديد من بين يديه موت مفاجيء . وقد ترك ولدا وحيدا ، أوصى به هادريان الانطونيين خيرا ، فقد تبناه انطونينوس بيوس ، كما زود بنصيب من السلطة الملكية مساو لنصيب ماركوس عند اعتلائه العرش . والى جانب رذائله الكثيرة كان فيروس الصغير يتحلى بفضيلة واحدة : الاحترام والامتثال لزميله الذي هو أرجح عقلا ، الذي ترك له رغبا مشقة المهام الجسام في الامبراطورية . وغض الامبراطور الفيلسوف الطرف عن حماقاته ، وحزن لموته المبكر وأسدل ستارا وقورا على ذكره .

وعندما أشبعت رغبة هادريان أو خابته ، صمم على أن يتقاضى شكر الأعقاب باجلاس اعظم المؤهوبين المجلين على العرش الروماني ، غوقمت عينه الناحصة على سناتور في نحو الخمسين من العمر ،

لم تلصق به في أى من وظائف الحياة شائبة ، وعلى شاب في نحو السابعة عشرة تبشر سنو نضجه القادمة بإمارات الفضيله ، وعين أولهما ابنا وخلفا له شريطة أن يتبنى هذا الشخص الأول نفسه الشاب الثانى على الفور . وحكم هذان الاثنان الانطونينيان (ونحن هنا انما نتحدث عن الانطونيين) دنيا الرومان طيلة اثنين وأربعين عاما بروح ثابتة لم تتغير من الحكمة والفضيلة . وكان لأنطونينوس بيوس ابنان ، ولكنه رغم ذلك أثر مصلحة الامبراطورية على مصلحة أسرته ، فزوج ابنته ثوستينا من ماركوس الشاب ، وحصل من السيناتو على سلطات التربيون والقنصل ، وفي احتقار كريم منه ، بل قل في جهل منه بمشاعر الغيرة والحق ، اشركه معه في كل اعمال الدولة . واحترم ماركوس ، من جهة أخرى وبجل الرجل الذى أسدى اليه الخير على أنه والد له ، وأطاعه بوصفه مليكا وسيدا له ، فلما قضى ، سار في ادارته على مثال سلفه ونهج على مبادئه . وربما كانت فترة هذين الحاكمين المتحددين هى الفترة الوحيدة في التاريخ التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هى الهدف الأوحد للحكومة .

وقد نعت تيتس أنطونينوس بيوس بأنه نوما Numa ثانياً (ثانياً ملوك روما في القرن السابع ق.م.) . فقد كان حبا الدين والسلام هو الخاصة المميزة لهذين الأميرين كليهما . وربما أفسح موقف المتأخر منهما (انطونينوس) مجالا أكبر لممارسة هاتين الفضيلتين . لقد استطاع نوما فقط أن يحول دون أن تسطو بضع قرى متجاورة على محصولات بعضها بغضا . ولكن أنطونينوس نشر النظام والهدوء في أكبر رقعة من الأرض . وتفرد حكمه بميزة نادرة ، تلك هى قلة المواد التى زود بها التاريخ الذى لا يعدو أن يكون شيئا أكثر من سجل لجرائم البشر وحماقتهم ونكباتهم ، وكان في حياته الخاصة رجلا طيبا محبوبا . وكانت البساطة الفطرية لفضائله لا تلقن مع أى زهو أو تكلف . ولقد تمتع متعة طابعها الاعتدال بما اتاحه له حظه من وسائل ، وبما تيسر في المجتمع من مسرات بريئة ، وتمثلت طيبة نفسه في طبع هادئ ينبض بالبشر والبهجة .

أما فضائل ماركوس أوريليوس أنطونينوس فكانت من طراز آخر أكثر عنفا وارهقا ، كانت حصيلة مكتسبة اكتسابا جادا من كثير من مؤتمرات العلماء ، والمحاضرات التى يتجدد المرء للاستماع اليها ، ومن طول السهر في التحصيل والطلب . فقد اعتنق ، وهو في

الثانية عشرة من مبره مذهب الرواقين الصالح الذي علمه ابن
يخضع جسده لمقله وهواه لمنطقة ، وإن الفضيلة هي الخير كله ،
وان الرذيلة هي الشر كله ، وإن يعتبر الأشياء المظهرية ، (الخارجية)
أشياء لا تستحق الاهتمام . وما تزال « تأملاته » التي وضعها وسط
ضجيج المعسكر وصخبه باقية ، بل انه تنازل فأعطى دروسا في
الفلسفة بطريقة علنية أهم وأكثر مما قد يتفق مع تواضعه بوصفه
حكما ، أو مع وقاره بوصفه امبراطورا . ولكن حياته كانت أنبل
تعبير عن نواميس زينون مؤسس المدرسة الرواقية - القرن
الرابع ق.م. لقد كان عنيقا مع نفسه ، متسامحا مع عيوب الآخرين ،
عادلا خيرا مع جميعهم . وكهم أسف وحزن لأن أفيدبوس
كاشيس الذي أثار تهردا في سوريا مات طواعية واختيارا ، فحرمه
بذلك مما يجد من لذة وسرور في تحويل عدو الى صديق ، وأكد
صدق عواطفه بالتخفيف من حدة السناتو بازاء أتباع الخائن .
وكره الحرب باعتبارها كارثة الطبيعة البشرية والعار انلاصق بها ،
ولكن عندما دعا داعي الحرب الى امتشاق الحسام من أجل دفاع
عادل ، باذر على الفور مقاد بنفسه ثمانى حملات في الشتاء على
ضفاف الدانوب المتجمدة ، مما لم تحتل بنيته الضعيفة قساوتها ،
فمضى فيها نحيبه . وقد مجدت الأجيال الشاكرة العارفة لفضله
ذكراه . واحتفظ كثير من الناس ، لأكثر من قرن من الزمان بعد موته ،
بصورة ماركوس أوريليوس بين صور ألتهم المحلين .

تحریک النظام القديم

الفصل الرابع

(١٨٠ - ١٩٧ م)

عجى توموس

كان اعتدال ماركوس الذى لم تجد المبادئ الرواقية الصارمة فى اقتلاعه منه ، يشكل فى نفس الوقت أحب الجوانب فى خلقه والنقيصة الوحيدة فى شخصيته . وكان قلبه الطيب الذى لا يميل الى الشك ، كثيرا ما يخدع ادراكه الممتاز . واتصل به نغم من الدهاء المحتالين الذين يدرسون هوى الأمراء ، ويخفون مشاعرهم هم أنفسهم ، مبتكرين فى طهارة الفلسفة وقداستها ، ينشدون الثروة والمجد عن طريق التظاهر باحتقارهما والتعفف عنها . وتجاوز افراطه فى التسامح مع أخيه وزوجه وابنه حدود المعاملة الطيبة اللائقة بهم ، حتى صار اساءة عامة شاملة ، لأن ردائلهم أصبحت نموذجا يحتذى ، وكأنت لها نتائج وبيلة .

واشتهرت فوستينا ، ابنة بيوس وزوجة ماركوس بغرامياتها ومجونها قدر ما اشتهرت بجمالها . وقدر خطأ أن ما فى الفيلسوف من بساطة وقورة رزينة قد تشغل وتغنى رعونتها الطباغية ، وتكبح جراح اللهفة غير المحدودة على التغيير والتنوع ، وهى نزوة كثيرا ما تكشف جدارة خاصة فى أحط بنى البشر . وكان كيوبيد الأقدمين لها عاطفيا عامة ، أما عشاق الامبراطورة ، الذين توددت هى اليهم وارخصت نفسها لهم فقلما كانوا يستشعرون اية لذة عاطفية . وكان ماركوس الشخص الوحيد فى الامبراطورية ، الذى يبدو أنه كان جاهلا أو غير شاعر بمساوى فوستينا التى كانت - كما هو سألوف فى كل عصر - تعكس العار والفضيحة على الزوج المنكوب . ورتى ماركوس نفرا من عشاقها الى مراكز تضى شرفا ومجدا وتدر مالا . ولم ينقطع عن أن يقدم لها طيلة ثلاثين عاما الدليل تلو الدليل على ثقته الكريمة بها واحترامه لها ، وهو احترام ام ينته بوفاتها ، فنى « تأملاته » نراه يشكر الآلهة التى وهبتة زوجة مخلصه وديمة

مبتلية بمثل هذه البساطة في سلوكها (١) . وأعلن السناتو الخنوع بعد توسل حار منه وضعها في مصاف الآلهة . وكانت تمثل في معابدها بصورة جينو وفينوس وسيريز Ceres . وتقرر أن يقسم الشباب من الجنسين ، عند الزواج يمين الوفاء أمام مذبحها بوصفها حاميتهم أو حارستهم العفيفة الطاهرة .

والقت رذائل الابن الرهيبة ظللا على نقاوة فضائل الوالد . وقد أخذ على ماركوس أنه ضحى بسعادة الملايين في سبيل التحيز الجارف لولد غير أهل له ، وأنه اختار خليفة له في أسرته هو ، لا في الجمهورية ، وبما يكن من أمر ، فإن الوالد القلق ورجال العلم والفضل الذين إهاب بهم لمساعدته ، لم يدخروا جهدا في تعليم كومودس وتوسيع مداركه الضيقة ، وفي تقويم رذائله الناشئة ليجعلوا منه شخصا جديرا بالعرش الذي أعد له . ولكن قل أن تكون قوة التوجيه والتعليم ذات فعالية كبيرة إلا مع الميول والاستعدادات الطيبة حيث يكون التعليم نافذة لمجرد التزويد . ومن ثم فإن الدرس الكريه الذي كان يلقيه الفيلسوف الجاد سرعان ما كانت تمحوه وتطمسه في لحظة واحدة همسات أقران السوء . وقد أفسد ماركوس نفسه ثمار هذا التعليم الذي جهد وكد فيه ، حين أشرك ابنه في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، اشراكا تاما في السلطة الإمبراطورية . وعاش بعد ذلك أربعة أعوام ، ولكنه في الواقع قضى وقتا كافيا يعرض بنان الندم على الخطوة الطائشة التي قفزت بابنه الشاب المتهور عن حدود العقل وقيود السلطة .

إن معظم الجرائم التي تعكر صفو الأمن الداخلي في المجتمع تنجم عن القيود التي فرضتها قوانين الملكية ، تلك القوانين الضرورية غير المكافئة مع شهوات الإنسان ، وهي قيود تخص القلة من الناس بملكية ما تطمح الكثرة في الاستحواذ عليه أو اقتنائه . ومن بين كل ما تفتتح له الشهية أو تهفو له الشهوة ، قد يكون حب السلطة أكثرها طغيانا وجفاء ، وبعدا عن الروح الاجتماعية . ففي هذه الحالة يتطلب غرور الفرد الواحد خضوع الجماهير ، وفي غمرة الخلافات الداخلية تفقد قوانين المجتمع قوتها . وقل أن تحل محلها قوانين الإنسانية . وعندئذ تساعد حدة النزاع وزهو النصر ، واليأس من النجاح ، وذكريات المساوئ والأضرار السابقة ، والخوف من أخطار لاحقة — تساعده هذه

(١) لقد سخر المسالم من سلامة نية ماركوس . ولكن مدام داسيه Dacier تؤكد لنا (وقد نصدق سيده) أن الزوج سيخضع إذا ارتضت الزوجة أن تنافق .

كلها على اثاره العقول وكنم اصوات الرحمة والاشفاق . ومن جراء مثل هذه البواعث تكاد تكون كل صفحات التاريخ ملطخة بدماء الحروب الاهلية . ولكننا لا نجد في هذه البواعث كلها تفسيراً لفظائع كومودس الذى لم يثر حفيظته شيء ، والذى أوتى كل شيء ، ونعم بكل شيء ، مما ليس بعده زيادة لمستزيد . لقد خلف الابن الحبيب اباه ماركوس وسط هتاف السناتو والجيش ، وجلس الشاب السعيد على العرش فلم ير حوله منافسا يقضى عليه أو أعداء ينزل بهم العقاب . وكان من الطبيعي حقاً في مثل هذا المركز الرفيع الهادئ أن يؤثر حب الناس على أن يضرهم لهم الكراهية والبغض ، وأن يؤثر العظمة والوداعة في عهد أسلافه الخسة على المصير الشائن المخزى لنيرون ودوميتيان .

ولكن كومودس لم يكن — كما يصورونه — وحشاً ولد وبه ظمأ لا يرتوى قط الى دم البشر ، قادراً منذ نعومة أظفاره على الاتيان بأى عمل غير انساني . لقد شكلت فيه الطبيعة استعداداً ضعيفاً أكثر من أن يكون خبيثاً شريراً . وجعلت منه بساطته وجبته عبداً أسيراً لاتباعه الذين أفسدوا عليه عقله يوماً بعد يوم ، فان قسوته التي كانت في بداية الأمر اطاعة لأوامر الآخرين تحولت الى عادة ، وأصبحت في النهاية غاية الهوى في نفسه .

وجد كومودس نفسه ، بموت أبيه ، مثقلاً بقيادة جيش ضخم ، وشن حرب ضروس ضد قبائل كوادى Quadi وماركومانى Marcomanni (في غرب ألمانيا) . وسرعان ما استعاد الشيباب الذليل الخليع الذين كان ماركوس قد اقتصاهم ، مكائهم ونفوذهم لدى الامبراطور الجديد ، فهولوا وبالفوا له في أمر المشاق والمخاطر المتوقعة في حملة في بلاد متوحشة وراء الدانوب ، وأكدوا للأمير الكسول الخامل أن الرعب الذى يبته اسمه في النفوس وأسلحة ثواده كافية لاتمام غزو هؤلاء المتبربرين المرتعبين ، أو لاقرار الأمور بشكل أكثر جدوى من الغزو والحرب . وأثاروا نزواته الشهوانية بطريقة ماهرة مكرية ، ثم قارنوا له بين الهدوء والابهة وصفو المسرات في روما وبين الصخب في معسكر بانونيا حيث لا فراغ ولا ترف . وأصفى كومودس الى هذه النصيحة السارة ، وفيما هو متردد بين ميله الخاص وبين الرهبة التى كان لا يزال يحتفظ بها لمستشارى أبيه ، ولى الصيف دون أن يحس ، وتأجل دخوله الظافر الى العاصمة الى الخريف . ونال حظوة الجماهير لرشاقتة وتلفه المحبوب وقضائله الموهومة . وعم الفرح بالصلح المشرف الذى تفضل به على المتبربرين . واعتز

الناس بأن ينسبوا تلهفه على العودة الى روما الى حبه لبلاده .
أما لهوه الفاجر فقد أنكروه إنكارا خافتا على أمير في سن التاسعة
عشرة .

وفي السنوات الثلاث الأولى من حكم كومودس احتفظ المستشارون
الأمناء الذين كان ماركوس قد أوصاهم بآبائه ، بكل أشكال
الإدارة السابقة ، بل حتى بروحها كذلك ، وكان كومودس
لا يزال يحتفظ في غضاضة ، بشيء من التقدير لهؤلاء المستشارين
وحكمتهم ونزاهتهم وتمرغ الأمير الشاب وخلصاؤه الفجار وعربدوا
في بحبوحة الملكية وسلطانها ، ولكن يديه لم تلطخا بعد بالدماء ، بل انه
أظهر من كرم العاطفة ما كان يحتمل أن يتأصل حتى يصبح فضيلة
راسخة ، ولكن حادثا فظيحا حسم له شخصيته المتقلبة .

في ذات مساء ، بينما كان الامبراطور عائدا من المدرج الى
قصره ، عبر رواق ضيق مظلم ، اندفع نحوه قاتل كان يرقب مروره ،
وبيده سيف مسلول وصاح بصوت عال : « ان السناتو يبعث بهذا
اليك » . وحال التهديد دون ارتكاب الجريمة ، وأطبق الحراس
على القاتل ، وكشفوا النقاب في الحال عن مدبري المؤامرة .
ولم تكن المؤامرة من تدبير الدولة ، بل نسجت خيوطها داخل جدران
القصر ، ذلك أن لوتشلا Lucilla أخت الامبراطور ، وأرملة لوتشيس
فيروس ، وهى تتحرق لهفا على المرتبة الثانية في الامبراطورية ،
وغيره وحقدا على الامبراطورة الحاكمة ، هى التى زودت القاتل
بالسلاح للقضاء على أخيها . ولم تجرؤ على أن تطلع على خطتها
الرهية ، زوجها الثانى كلوديوس بومبيانوس ، وقد كان عضوا
في السفاتو ذا مواهب ممتازة وولاء لا يتزعزع ، ولكنها وجدت
بين جمهور عشاقها (وكانت تقلد فى ذلك فوستينا) رجالا ذوى
مستقبل يائس ومطامع جامحة ، مستعدين لخدمة أهوائها العنيفة
والرقيقة فى وقت معا ، وواجه المتآمرون صرامة العدالة ، وعوقبت
الأميرة المنبوذة بالنفى أولا ، ثم بالموت أخيرا .

ولكن كلمات القاتل حفرت لها مجرى عميقا فى ذهن كومودس ،
وتركت فيه شعورا ثابتا لا يتزعزع بالخوف والكراهية لكل هيئة
السناتو . وكانت ثمة طائفة من الوزراء اللجوجين الذين كان يرهب
جانبيهم ، ونراه الآن يرتاب فيهم على أنهم أعداء مستترون .
وكانت هناك جماعة الهمازين المشائين - وكانت قد كسرت شوكتهم
وثبطت عزائمهم فى العهود الماضية ، ولكنهم وجدوا الفرصة سانحة
لرفع رعوسهم واسترداد هيبتهم حين رأوا فى الامبراطور ميلا الى

الكشف عن الخيانة والسخط في السناتو . وكان هذا المجلس الذى اعتبره ماركوس المجلس الأعلى في الأمة ، يتشكل من أفاضل الرومان وأكثرهم امتيازاً . وسرعان ما أصبح أى امتياز فى أية ناحية جريمة ، وحفز التلief على الثراء هؤلاء المشائين النمامين الى العمل . فاعتبرت الفضيلة الحقنة لوما صامتا مساوىء كومودس ، والخدمات العظيمة موهبة غائقة تنذر بالخطر ، وصدائقة الوالد تحولوا عن الابن . وكان مجرد الشك مساويا للدليل القاطع ، والمحكمة مساوية للادانة . وكان اعدام عضو محترم يستتبع قتل كل من يرثى لمصيره أو يثار له . وما أن تذوق كومودس طعم الدم البشرى مرة ، حتى بدا عاجزا عن استشعار الرحمة أو الندم .

ومن بين الضحايا البريئة للطغيان كان الحزن أشد ما كان على الأخوين مكسيموس وكنديانوس — من أسرة كونتيليا Quintilia — اللذين لم يتطرق النسيان الى اسميهما قط ، لما كان يربط بينهما من عرى المحبة الأخوية التى خلدت ذكرهما فى الأجيال اللاحقة . فقد ظلا صنوان فى الدراسة والمهنة والمطالب والمسرات ، وفى ادارتهما لضيعة كبيرة لم يسلفا قط بأن لاي منهما فيها مصلحة منفصلة عن مصلحة الآخر ، وما تزال توجد شذرات من رسالة اشتركا فى تأليفها ، وكان ملحوظا فى كل عمل من أعمال الحياة أنها جسمان تحركهما روح واحدة . وكان الأنطونينيون يقدرون مزاياهما ويتجهجون لاتحادهما ، ولذلك رفعوهما الى مرتبة القنصل فى نفس العام . وعهد اليهما معا ماركوس بعد ذلك بالادارة المدنية فى بلاد اليونان ، وبقيادة حملة عسكرية هامة انتصرا فيها انتصارا مشهودا على الألمان . هكذا اجتماعا فى حياتهما ، حتى جاء كومودس فجمعت قسوته الرحمة بينهما فى المسات !

وبعد أن سفك كومودس أكرم الدماء فى السناتو ، نكص فى النهاية الى الأداة الرئيسية لقساوته . ذلك أن كومودس غرق فى الدم وانغمس فى اللهو والترف ، وترك أمر الدولة كله بين يدى برنيز Perennis ، وهو وزير ذليل طموح ، قفز الى منصبه بقتل سلفه . ولكنه أوتى حظا وافرا من النشاط والمقدرة . وقد جمع ثروة ضخمة بطريق الإكراه وعن طريق ضياع الأشراف المصادرة والمرهونة اشباعا لجشعه ، وكان الحرس الإمبراطورى تحت أمرته المباشرة ، وكان ابنه — الذى أظهر فجأة عبقرية عسكرية ، على رأس فرق الليريا Illyria عند ذلك هفت نفس برنيز الى الإمبراطورية

او انه كان قادرا على التطلع اليها ، الأمر الذى بدأ فى عيني كومودس . انه الجريمة بعينها . فحيل بينه وبين منية نفسه وأخذ على غرة وأعدم . وسقوط الوزير حادث تافه فى التاريخ العام للامبراطورية ، ولكن الذى عجل به هو ظرف غير عادى ، وأثبت فعلا الى أى حد تراخت أوصال النظام ، فلم تكن القوات فى بريطانيا راضية عن ادارة برنيز فأرسلوا نيابة عنهم ألفا وخمسمائة رجل شخصوا الى روما ليضطوا شكواهم للامبراطور . واستطاع هؤلاء الشاكون العسكريون — الذين حزموا أمرهم فألهبوا مرق الحرس ، وبالفوا فى قوة الجائش البريطانى ، وأثاروا مخاوف كومودس — استطاعوا ان يطالبوا برأس الوزير ، علاجا وحيدا لدرء ما لحق بهم من ضيم . وأدى ، وكان لهم ما أرادوا . فكانت جراحة هذا الجيش الذى هو فى أقصى الأرض ، وكشفه عن ضعف الحكومة نذيرا أكيدا بأخطر الفتن والاضطرابات .

وسرعان ما افتح بعد ذلك أمر الاهمال فى الادارة العامة . نتيجة اضطراب جديد ، فكان بمثابة نار فتجت من أصغر الشرر . ذلك هو الهرب من الجيش الذى بدأ يشكل ظاهرة عامة بين القوات ، ولم يلتمس الهاربون النجاة فى الفرار أو الاختفاء ، بل انهم قطعوا الطرق العامة وأعملوا السلب والنهب . وجمع ماترنوس Maternus وهو جندى خاص ذو جراحة نادرة تفوق مركزه — جمع هذه العصابات من اللصوص وكون منها جيشا صغيرا ، وفتح أبواب السجون ، ودعا العبيد لإعلان حريتهم ، وعاث فسادا ونهباً ، دون حسيب أو رقيب ، فى المدن الغنية المعزلة فى الفال واسبانيا . وأخيرا ، وأزاء تهديدات الامبراطور ، أفاق بعد طول تراخ وتقاعد ، حكام الولايات الذين طال وقوفهم موقف المتفرج على هذه الفارات ، ان لم يكن موقف الشريك فيها . ورأى ماترنوس أنه قد أحيط به وأنه لابد مغلوب على أمره ، فنشأ آخر ما فى جمعبته فى محاولة يائسة ، ذلك أنه أمر اتباعه بالتفرق ، وبعبور جبال الألب فى جماعات صغيرة متكرين فى أشكال مغايرة بعضها لبعض ، والتجمع فى روما ، فى غمرة الهرج والمرج فى عيد القديسة سييل . وكان اللص العاتى يطمع فى قتل كومودس واعتلاء العرش ، والتأمت خطواته فى براعة ، حتى ملأت قواته بالفعل شوارع روما ، ولكن حقد أحد شركائه المتواطئين معه أباط اللثام عن هذا المشروع الشاذ الغريب وحطمه فى اللحظة التى أذن فيها بالتنفيذ .

ومن عادة الأمراء الذين تملأ الريبة والشكوك قلوبهم ، أنهم

كثيراً ما يرفعون من مرتبة احط بنى البشر ، حيث يفرهم الوهم بأن هذا الذى لا يعتمد الا على حظوته لدى سيده ، لن يتعلق الا بشخص هذا السيد الذى اكرمه ، ولن يحب الا اياه . ومن هنا نرى كلياندر Cleander ، وهو من اهل فريجيا (مملكة قديمة وسط آسيا الصغرى) ، وكان فيهم من الخسة والعناد ما لا يجدى معه الا كيل الضربات لهم . وارسل كلياندر من موطنه الى روما بوصفه عبداً . والتحق بالقصر الامبراطورى بهذه الصفة ، ووضع نفسه رهن اشارة سيده ، وسرعان ما تفضل الى اعلى مرتبة يمكن ان يحظى بها واحد من الرعية ، وكان تسلطه على عقل كومودس اقوى بكثير من نفوذ سلفه ، لان كلياندر لم يكن له من المقدرة او المزايا ما يثير حفيظة كومودس او يزعزع ثقته فيه . وكان الشره هو نفسه وأساس ادارته . وكانت وظائف القناصل والنبلاء ، وعضوية السناتو ، مفتوحة للبيع والشراء . وكان الامتناع عن شراء هذه الامجاد العقيمة المهينة بأكبر جزء من الثروة يعتبر ضرباً من النفور والبغض . وكان الوزير يشارك الحاكم فيما يغنيه من الشعب فى الوظائف والأشغال التى ندر ربحاً . وكان تنفيذ القوانين أمراً تعسفياً تتدخل فيه الرشوة ، وكما استطاع المجرم الثرى ، لا مجرد الغاء الحكم الذى صدر عليه عدلاً وحققاً فحسب ، بل كذلك انزال أى عقاب تطيب له نفسه بمن اتهمه وبالشهود وبالقاضى .

وبهذه الوسائل استطاع كلياندر فى سنوات ثلاث ، ان يجمع من الثروة أكثر مما تيسر لعبد معتق قط . وكان كومودس راضياً غاية الرضا بالهدايا الفاخرة التى كان نديه يضعها تحت قدميه فى انسيب الأوقات . وليحول كلياندر عن شخصه نظرات الشعب الحاقدة الحاسدة ، شيد باسم سيده ، الحمامات والأروقة والملاعب لخدمة الجمهور ، وكان يبنى نفسه بأن الرومان المبهورين المظهرين بهذا السخاء الظاهر ، لابد ان يكونوا أقل تأثراً بالمشاهد الدموية التى تقع تحت بصرهم كل يوم ، وأن ينسوا موت بيرثس Byrthus ، وكان شيخاً فى السناتو ، زوجة الامبراطور احدى بناته جزاء مواهبه الفائقة ، وأن يصلحوا عن اعدام آريوس انطولينوس آخر من مثل اسم الانطوليينين وشعائلهم الطيبة . وكان الأول قد حاول فى نزاهة أكثر منه فى حزم ، أن يظهر صهره على حقيقة شخصية كلياندر . وكان الثانى ، وهو يشغل وظيفة البروقنصل فى آسيا ، قد أصدر حكماً ضد مخلوق تافه من رجال صاحب الحظوة (يقصد كلياندر) ، فكان فى اصدار الحكم قضاء عليه هو نفسه . وبعد سقوط برنيز

اتخذت فظائع كومودس ، لفترة قصيرة ، مظهر الرجوع الى الفضيلة ، حيث نقض أشنع تصرفاته ، وحشا ذاكرته بلعنات الجمهور ، ونسب الى هذا الوزير ونصائحه الخبيثة كل الأخطاء التي ارتكبت عندما كان الامبراطور شاباً يافعا غير محنك . ولكن ندمه لم يدم أكثر من ثلاثين يوما ، وكثيرا ما بات عهد برنيز أمرا مبكيا مأسوفا عليه ، الى جانب طغيان كلياندر .

وبلغ الطاعون والقحط بروما أقصى ذروة الكارثة . وعزى الأول - الطاعون - الى سخط الآلهة فقط ، أما المجاعة فقد اعتُبر السبب المباشر لها ، احتكار القمح بعون من الوزير وثروته وقوته . عندئذ انفجر السخط عاليا بين الجوع في الميادين ، بعد أن ظل طويلا لا يعدو أن يكون همسا هنا أو هناك . وعزف الناس عن مسراتهم المفضلة الى مسرة الذواشهي وهى الانتقام ، واندفعت جوعهم الى قصر في الضواحي ، كان يقضى فيه الامبراطور خلواته ، وطالبوا في صيحات غاضبة برأس عدو الشعب . فأمر كلياندر ، بوصفه قائد الحرس البريتورى ، فرقة من الفرسان بالاسراع الى مهاجمة الجوع المتردة وتفريقهم . واندفعت الجوع هاربة الى المدينة ، وذبح كثيرون ومات أكثر منهم تحت الأقدام ، ولكن عندما دخل الفرسان المدينة عاق تقدمهم فى شوارعها وابل من الحجارة والنبال أمطروا به من سطوح المنازل ونوافذها ، وانحاز الى جانب الشعب الحراس المشاة الذين كانوا من قديم ينتمون على الفرسان امتيازاتهم ووقاحتهم . وأصبح الهياج عاما شاملا ، وأندر بمذبحة عامة . واستسلم الفرسان آخر الأمر ، وقد غلبتهم الكثرة ، وعادت فورة الشعب أشد عنفا ، واندفع الناس الى أبواب القصر الذى تباع فيه كومودس غارقا فى ألوان الترف ، وكأنه الوحيد الذى لم يدر من أمر الحرب الأهلية شيئا . وكان شعب الموت يقترب من شخصه بهذه الأتباء السيئة . وكاد الهلاك يكون مصيره ، وهو مستلق فى مأمنه لولا أن امرأتين - فادلا Fadille أخته الكبرى ومارتشيا Marcia - أحب خليلاته اليه - تجاسرتا فاقتمتا عليه الباب ، وارتمتا تحت قدميه وقد خبقتهما العبرات ، وشعث شعر رأسيهما ، وبكل ما أوتيتا من نصيحة أملاها منطق الفرع ، كشفا للامبراطور المرتعب عن جرائم الوزير ، وغضب الشعب ، والخراب المحدث الذى قد يحقق فى بضع دقائق ، بقصره وشخصه . وفارق كومودس من سكرته وأمر بأن تلقى رأس كلياندر الى الشعب ، وهذا المشهد المأمول - مشهد رأس الوزير - من سورة الهياج ، وربما كان فى مقدور ابن ماركوس بعد ، أن يستعيد ثقة رعاياه به وحبه له .

ولكن كل أحاسيس الفضيلة والانسانية كانت خامدة في نفس كومودس . فانه في الوقت الذي ترك فيه مقاليد الأمور لهؤلاء المقربين غير الجديرين بشيء ، نراه لم يقدر من قوة السيادة شيئا أكثر من حرية الانغماس بلا حدود في ملذاته الشهوانية . فكان يقضى ساعاته في بيت الحريم الذي يضم ثلاثمائة من جميلات النساء ، وكثيرا من الفلمان من كل مرتبة ومن كل ولاية ، وحينما لم تجد كل أفانين الاغواء والاغراء ، لجأ الوحش العائق الى استعمال العنف . وكما أسهب وأفاض المؤرخون القدامى في ذكر مثل هذه المشاهد المفقوتة من العهر والفجور ، تلك المشاهد التي لم ترع حرمة لاية ضوابط من الطبيعة أو من الاحتشام ! . ولكن ليس من اليسير أن نترجم أوصافهم الأمانة الدقيقة في وقار لغتنا الحديثة . وكانت أوقات اللهو تعج بأحط ألوان التسلية . ولم يفلح قط أثر أى عصر مهذب أو أية تربية يقظة في صب أبسط قطرة من العلم في مخه البهيمى الغليظ . وكان أول امبراطور روماني لم يتذوق لذة المعرفة . لقد تفوق نيرون نفسه ، أو تظاهر بأنه متفوق ، في فنون الموسيقى والشعر الجميلة ، وليس لنا أن ننقص من قدر تطلعاته ، لولا أنه حول لذة الراحة في ساعات فراغه الى الأعمال والأطماع الرهيبة لحياته . ولكن كومودس ، منذ ضباه المبكر ، تبين في نفسه نفورا شديدا لكل ما هو معقول أو كريم ، وتعلقا شديدا بالتسلية والمسرات الشعبية ، مثل ألعاب السيرك والمدرجات المجلدة وصيد الوحوش . وكان يستمع الى المعلمين الذين رتبهم له أبوه في مختلف الفروع ، في شرود وضجر ، على حين وجد فيه العرب والبارثيون الذين كانوا يدرّبونه على الرماية بالقوس والنشاب ، تلميذا فرحاً مبهجا بعمله ، سرعان ما تعادل مع أمرهم في ثبات العين وخفة اليد .

وكان الجهور الخنوع الذي اعتمد مصيره على رذائل سيده ، يصفق ويهلل لهذه التصرفات الشائنة . وأعاد صوت الملق الغدار الى ذاكرته أن هرقل الاغريقى حظى بمكان بين الآلهة ، وبذكرى خالدة بين الناس ، يمثل هذه المآثر ، ويظهر أسد نيميا (واد في بلاد اليونان) ويقتل خنزير اريمانثوس البرى . ولكن غاب عن أذهانهم أنه في العصور الاولى للجمع حين كانت هذه الحيوانات المفترسة كثيرا ما تنازع الانسان السيطرة على الأرض غير المسكونة ، كان النزاع مع هذه الوحوش يعتبر من أنبل الأعمال البطولية البريئة النافعة ، أما في حالة الامبراطورية الرومانية المتحضرة ، فان هذه الحيوانات المتوحشة

قد ولت الأدبار من وجه الانسان ومن الاماكن المجاورة للهدن الآهله بالسكان . أما مفاجأة هذه الحيوانات في مأواها المنزل وحملها الى روما ليزبحها الامبراطور بيده وسط مظاهر الأبهة والعظمة ، فكانت عملا سخيفا من جانب الامبراطور ، صعب الاحتمال على الشعب (١) . وجهلا منه بهذه الفوارق ، عمد كومودس الى التشبه بهذا المجد ، ولقب نفسه (كما نقرأ حتى اليوم على أوسمته) « بهرقل الرومان » . ووضع الهراوة وجلد الأسد الى جانب العرش وسط الشعارات الملكية ، وأقيمت التماثيل التي تصور كومودس في شخصية وقى خواص الاله الذي حاول كومودس في البرنامج اليومي لسرقاته الشرسية - أن ينافسه .

وقرر كومودس - وهو يزمو ويتيه عجبا بهذا المديح الذي قتل في نفسه كل شعور دفين بالخزي والعار - أن يعرض هذه الألعاب أمام أنظار الشعب الروماني - وكانت حتى تلك اللحظة ، وقارا واحتشاما منه ، محصورة بين جدران قصره لا يشهدا الا فئة قليلة من المقربين . وجذبت مختلف بواعث الملل والخوف والفضول الى المسرح المدرج جمهورا لا يحصى من المتفرجين وحظيت مهارة الامبراطور الخارقة في اللعب بشيء من الاستحسان الذي تستحقه . وأينما طعن في رأس الحيوان أو قلبه كان الجرح محققا مميئا سواء بسواء . وكثيرا ما ضيق كومودس الخناق استعدادا للعمل الخاطف ، وكان يعاجل العنق العظمى الطويل للنعام ، بسهم صنع رأسه على شكل هلال ، فيطرحها الى الأرض ، وكان يطلق سراح نمر . وينتظر رامي السهم حتى يهجم النمر على مجرم يرتعد فرقا ، وفي اللحظة عينها ينطلق السهم فيردى الحيوان قتيلا ، دون أن يصيب الرجل أى أذى . وكانت حظائر المسرح المدرج تموج على الفور بمائة من الأسود التي صرعتها من نبال كومودس ، وهى تجرى هائجة حول العرين . ولم تحم ضخامة جسم الفيل أو جلد الخرتيت الأحرش هذا أو ذاك ضد ضرباته . وجادت أثيوبيا والهند بتناجها ، وكم في المدرج من حيوانات قتلت لم يكن لها أى وجود من

(١) كانت الأسود فى أفريقيا - اذا عضها الجوع - تغير على القرى المكشوفة والأراضي المنزرعة ، دون حساب . أما حيوان الملك فكان مخصصا لمعة الامبراطور والاماسة . وكان الفلاح المنكود يتعرض لعقاب شديد اذا هو قتل واحدا منها ، ولو دفاعا عن نفسه ، وقد خفف هونوريوس من قوانين اللعبة هذه ، ثم الغاها جيستيان نهائيا .

قبل الا فى تصاوير الفن او ربما فى الخيال ! (١) . واتخذت فى كل هذه العروض اشد الاحتياطات لحماية شخص « هرقل الرومان » من أية مينة يائسة من حيوان مفترس قد لا يحسب حسابا لحرمة الامبراطور او قدسية الاله .

ولكن احط الناس قدرا من بين الرومان كانوا يستشعرون الفضيحة والحطة حين يرون مليكهم يدخل الحلبة بوصفه مجالدا ويتالق فى حرفة دمغتها القوانين والآداب الرومانية بأعدل أمارات العار والفجور . واختار الامبراطور لنفسه ملابس السكوتر Secutor وسلاحه ، ذلك الذى يشكل صراعه مع الرتياريوس Retiarius أجمل مناظر الألعاب الدامية فى المسرح المدرج . وكان السيكوتر بخوذة وسيف وقرص ، أما غريمه العارى فكان يتسلح بشبكة كبيرة ورمح ذى ثلاث شعب ، بالاولى يحاول أن يحتبل عدوه ويعرقله ، وبالثانى يفتك به . فاذا أخطأ الرمية الاولى اضطر الى الفرار من تعقب « السكوتر » له حتى يهيبه شبكته لجولة ثانية . وصارع الامبراطور على هذا النسق سبعمائة وخميس وثلاثين مرة . وكانت هذه المنجزات المجيدة تسجل بعناية ضمن الأعمال العامة للامبراطورية . وحتى لا يترك بابا للسفالة والانحطاط دون أن يطرقه ، كان الامبراطور يتقاضى من الاعتمادات العامة المخصصة للمجادلة راتبا باهظا حتى لقد أصبح ضريبة جديدة شائعة حقيرة يدفعها الشعب الرومانى . ومن الميسور أن يذهب بنا الظن الى أن سيد العالم كان غائزا على طول الخط فى هذه المماريات فى المدرج . أما اذا مارس مهارته فى مدرسة المجالدين او داخل قصره ، فكثيرا ما تشرف منازلوه التعساء بضربة قاتلة من يده ، وبهذا يبصمون ملقهم بخاتم من دمائهم . وعند ذاك كان يحتقر اسم « هرقل » ولم تكن أذناه تطرب الا لاسم بولوس Paulus وهو اسم مجالد « سكوتر » مشهور . وكان هذا الاسم محفورا على تماثيله الضخمة ، ومكررا فى الهناتفات الكثيرة للسنانو المهلل الذى يرثى لحاله . وكان كلوديوس بيبيانوس ، زوج لوتشيل الفاضل هو السنانور الوحيد الذى حافظ على شرف مكانته ، فسمح لأبنائه — بوصفه والدا — بارتداد المدرج حفاظا على سلامتهم ، وأعلن — بوصفه رومانيا — أن حياته تحت تصرف امبراطوره ، ولكنه لن يشهد قط ابن ماركوس وهو يمتهن شخصه ووقاره . وأفلت بيبيانوس من غضب الطاغية ، وأوتى من الحظ السعيد ما أمكن معه الابقاء على حياته ، وعلى شرفه .

(١) قتل كومودس الزرافة ، وهى أطول الحيوانات الكبيرة ذرات الاربع واكثرها وداعة واقلها نفعا . ولم تر أوروبا هذا الحيوان الغريب الذى يستوطن الاجزاء الداخلية فى افريقيا بعد ذلك حتى عهد النهضة وحاول مسير دى بلو M. de Buffon وصفه فى كتابه « التاريخ الطبيعى » المجلد الثانى ، ولكنه لم يجرؤ على رسم الزرافة .

وبلغ كومودس الآن ذروة الرذيلة والعار . وكان ، وسط تهليل حاشية مرانية متعلقة ، عاجزا عن أن يخفى عن نفسه أنه استحق احتقار ويغض أى انسان أوتى ذرة من الفضيلة فى الامبراطورية ، واهاج روح الشراسة فيه وعيه لهذه الكراهية وحقدده على أية شيعة فاضلة ، وتوقعه الحقيقى للخطر ، وعادة القتل التى مارسها فى مسراته اليومية . واحتفظ التاريخ بقائمة من الشيوخ القناصل الذين ضحيت حياتهم على مذبح ريبة الامبراطور الطائشة ، التى كانت تفتش فى لهف زائد عن هؤلاء الأشخاص المنكودين الذين تربطهم صلة القربى ، مهما كانت بعيدة ، بالأنطونيين ، ولم يفلت منهم حتى الوزراء الذين كانوا أدواته فى جرائمه وفى ملاهيته . وأثبتت قساوته فى النهاية أنها لا بد قاضية عليه . لقد سفك أنبل دماء روما دون رقيب أو حسيب ، ولكنه هلك حين تولاه الفزع فأوجس خيفة من معيته ، ذلك أن مارتشيا خليلته المقربة ، واكتسوس Nectus حاجبه ، وليتوس Lælius رئيس حرسه ، كل أولئك أزعجهم وأنذرهم مصير أقرانهم وأسلافهم ، لينفادوا الدمار المحقق بهم فى كل ساعة ، نتيجة نزوات الطاغية المجنونة أو السخط المفاجئ للشعب ، فانتهزت مارتشيا فرصة تقديم جرعة من النبيذ لعشيقها بعد أن عاد متعبا مكدودا من صيد الوحوش . وأوى كومودس الى فراشه ، ولكن بينما كان يتلوى بفعل السم والخمر ، اقتحم غرفته شاب مغتول العضلات — يحترف المصارعة — وقتله خنقا دون مقاومة . ونقل الجثمان سرا خارج القصر ، قبل أن تظهر فى المدينة ، أو حتى فى البلاط أية بادرة من الريبة فى موت الامبراطور ، وهكذا كان مصير ابن ماركوس ، وهكذا كان من السهولة بمكان تحطيم الطاغية البغيض الذى أمعن ، بسلطاته الحكومية المصطنعة ، على مدى ثلاثة عشر عاما ، أمعن فى ظلم الملايين الكثيرة من الرعايا الذين كان الواحد منهم يستوى مع سيدهم فى القوة وفى القدرات الشخصية .

يعتمد جيبون ، فى كلامه عن كومودس ، على الاشاعات المتواترة التى اتارها سلوك الامبراطور ، ولم يكن كومودس رومانيا فى تفكيره ، وقد تحدى الآراء التقليدية عن الحرية . وبدأ يهبط بروما من ذرى شموخها الأصل . ويوصفه « هرقل الرومانى » ، و « الشمس المشرقة » ، تخلى الحدود ووحده الطوقس الوطنية القديمة ، ومهد الطريق لأنسرة سيفيروس Severus ، وكان قتلته يمثلون القوات الرجعية . وقدم هؤلاء المتآمرون الملك الى برتيناكس Pertinax وهو سناتور معمر محافظ ، ولكنه قتل بيد الحرس البريتورى بعد أن حاول القيام ببعض الإصلاحات ، وبعد حكم دام سنة وثمانين يوما .

نموا الأوتوقراطية العسكرية
وتدفع الروح الشريفة

الفصل الخامس: (١٩٣ - ١٩٧ م)

البريتوريون يبيعون الامبراطورية قيام سبتيميوس سيفيروس

ان الاحساس بقوة السيف لهو أكثر وأوضح في المملكة المترامية الاطراف منه في الجماعة الصغيرة . ولقد حسب أقدر السياسيين أنه ليست هناك دولة تستطيع أن تحتفظ بأكثر من واحد من مائة من أفرادها مسلحين ولكن خاملين لا يسهلون ، دون أن يئتابها الازهاق السريع . وقد يكون هذا التقدير النسبي قياسيا ، ولكن رغم ذلك ، يختلف أثر الجيش على بقية المجتمع تبعاً لدرجة قوته الايجابية . ولن نتحقق مزايا العلوم العسكرية والنظام العسكري الا اذا توحد عدد مناسب من الجنود في هيئة واحدة تحركها روح واحدة . ويكون هذا الاتحاد عقيماً اذا قامت عليه حفنة من الرجال ، واذا كان الجيش أضخم من أن يساس مسار اتحادي غير عملي ، فان قوة الآلة تتحطم بالصغر المتناهي أو الثقيل المفرط في زباركها سواء بسواء . ولتوضيح هذه الملاحظة ، يكفي أن نشير الى أنه ليس هنالك من تفوق القوة الطبيعية ، أو الأسلحة الصناعية ، أو المهارة المكتسبة ، ما يتمكن به رجل واحد من إخضاع مائة من أقرانه إخضاعاً دائماً ، وسرعان ما يكتشف الطاغية في مدينة واحدة أو في اقليم صغير أن مائة من أتباعه المسلحين لن يشكلوا الا دفاعاً ضعيفاً في مواجهة عشرة آلاف من المواطنين أو الفلاحين . ولكن مائة ألف من جنود أحسن تنظيمهم يمكن أن يسيطروا سيطرة مطلقة على عشرة ملايين من الرعايا ، كما أن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً من الحرس لابد أن يلحقوا الرعب في قلوب أكبر عدد من السكان ازدحم في شوارع عاصمة ضخمة .

وجدير بالذكر أن هذه العصابات البريتورية — التي كان عنفها الفاجر أول أعراض اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسببه — قل أن بلغت هذا العدد الذي أسلفنا ذكره . وبدا انشائها في عهد أوغسطس . كان هذا الطاغية الماكر يدرك أن القوانين قد تضي على ملكه المغتصب لوئاما ، ولكن قوة السلاح وحدها هي التي تستطيع المحافظة عليه ، ولهذا شكل بالتدريج هيئة قوية من الحرس ، على استعداد دائم لحماية شخصه ، وارهاب السناتو ، وتحول اما دون أية بادرة للثورة أو تقوم بسحقها . ويميز هذه الفرق المحظية بأجر مضاعف وامتيازات هائلة ، ولكن لما كان مظهرها الرهيب قد يزعج الشعب الروماني أو يستفز ، فقد اكتفى بإبقاء ثلاث كتائب منهم فقط في العاصمة ، ووزع الباقي على المدن القريبة في إيطاليا . ولكن بعد خمسين عاما من السلام والعبودية ، أقدم ثيبيريوس على اتخاذ اجراء حاسم كان من شأنه أن يحكم إلى الأبد الاغلال في بلده . ذلك أنه تذرع بادعاءات منمقة قوامها الرغبة في تخليص إيطاليا من عبء الأحياء العسكرية الثقيل بادخال نظام أكثر صرامة في الحرس ، ومن ثم جمعهم في روما في معسكر دائم تم تحصينه بمناداة بارعة ، وأقيم في موقع متحكم .

ومثل هؤلاء الخدم الأشداء ضروريون دوما ، ولكنهم في الغالب يشكلون خطرا قتيلا على عروش الاستبداد . وباقحام الحرس البريتوري ، بهذا الشكل ، على القصر وعلى السناتو ، علمهم الامبراطور كيف يدركون قوتهم ويقفون على ضعف الحكومة المدنية ، وكيف يشهدون مساوئ سادتهم في احتقار مالوف ، وكيف يطرحون جانباً رهبة التوقيع التي لا يبقى عليها في النفوس نحو القوة المتصورة سوى البعد والغموض . ووسط الخمول المترف في مدينة غنية كان شعور الحرس بقوتهم التي لا تقاوم ، يغذى غرورهم ، كما أنه لم يكن من الميسور أن يخفى عليهم أن شخص الملك وسلطة السناتو والخزانة العامة وعرش الامبراطورية ، كل أولئك كان بين أيديهم وتحت تصرفهم . واضطر أكثر الأباطرة حزما وأكثرهم استقرارا ، من أجل صرف هذه العصابات البريتورية عن مثل هذه التأملات الخطيرة — اضطر إلى مزج الأوامر بالملالفة والثواب بالعقاب أو إلى تملق غرورهم والانغماس في ملذاتهم ، والتفاضي عن مخالفاتهم ، وإلى شراء اخلاصهم المزعزع بالعطايا السخية التي أصبحت منذ عهد كلوديوس حقا مشروعا لهم عند جلوس امبراطور جديد على العرش .

وحاول المدافعون عن الحرس أن يبرروا بالحجة والبرهان تلك القوة التي قرروها لانفسهم بحد السيف . فقالوا أن موافقة الحرس

على تعيين الامبراطور ضرورة أساسية بمقتضى أقوم مبادئ الدستور .
ومهما كان من أمر اغتصاب السنانو مؤخرا لانتخاب القناصل والقواد
والقضاة ، فان هذا الانتخاب كان حقا قديما غير مشكوك فيه للشعب
الرومانى . ولكن أين يوجد الشعب الرومانى ؟ لن نجده ، على التحقيق
وسط الجمع المختلط من العبيد والغرباء الذى ملا شوارع روما ، وهم
سوقة اذلاء لا روح لهم ولا يمتلكون شيئا . أما المدافعون عن الدولة
والذائدون عن حياضها فكانوا يختارون من بين زهرة شباب ايطاليا ،
ويدربون على استخدام الأسلحة وممارسة الفضيلة ، ومن ثم كانوا
الممثلين الأصلاء للشعب ، وخير المؤهلين لانتخاب الرئيس العسكرى
للجمهورية . ومهما أعوزت الحكمة والعقل هذه الادعاءات فانه لم يكن من
الميسور دحضها ، عندما زاد البريتوريون الأشداء من وزنهم بوضعهم
أسلحتهم فى كفة الميزان ، كما فعل المتبربر الذى غزا روما .

لقد انتهك البريتوريون حرمة العرش بقتلهم برتيناكس شر قتلة ،
كما أساءوا الى جلاله بسلوكهم بعد ذلك . وكان المعسكر بلا قائد ،
بل ان لاتوس ، الذى كان قد أثار المصافة زاع عن السخط العام .
ووسط هذه الفوضى الرهيبة ، وفيما كان سلبشيانوس Sulpicianus
وهو حمو الامبراطور وحاكم المدينة الذى أرسل الى المعسكر عند أول
انذار بالتمرد — يحاول تهدئة سورة الجماهير ، أخرسته العودة الصاخبة
لقتلة برتيناكس وهم يحملون رأسه فوق حربة . واو أن التاريخ تشهد
علينا أن نلحد كل مبدا وكل عادلة تستسلم لأحكام الطبع العاتية ،
الا أننا لا نكاد نصدق أن سلبشيانوس ، فى هذه اللحظات الرهيبة المليئة
بالفزع ، كان يمكن أن يتطلع الى عرش نادلخ بدم حديث أو احد من
ذوى قرياه الأقربين ومن أفضل الأمراء . ولكنه شرع بالفعل فى استخدام
الحجة القاطعة ، والمفاوضة من أجل المنصب الامبراطورى ، ولكن واحدا
من أحزم البريتوريين توقع أنهم يمثل هذا التعاقد الخاص قد لا يحصلون
على ثمن عادل لهذه السلطة القيمة ، فأسرع الى الأسوار وأعلن بأعلى
صوته أنهم لن يتخلوا عن العالم الرومانى الا لمن يدفع أغلى ثمن فى
مزاد عام .

وأثار هذا العرض الدنى ، وهو أوتج ما وصل اليه تطرف
السيطرة العسكرية — أثار فى المدينة غما وعارا واستياء عاما ، ووصل
فى النهاية الى مسامع ديدبوس جوليانوس Didius Julianus
وهو سنانور غنى كان منصفا الى شهوات بطنه ، دون اعتبار لهذه
الكوارث العامة . وسهل على زوجه وابنته ومعتقيه وأذنبه ان يقنموه
بأنه جدير بالعرش ، وناشدوه فى حماس أن ينتهز هذه الفرصة

السعيدة . وأسرع الرجل العجوز العايب الى معسكر البريتوريين ، حيث كان سلبشيانوس لا يزال يفاوض الحرس ، ودخل في المزاكضده ، من أسفل السور . وأجريت المفاوضات غير اللائقة عن طريق رسل أمعاء تنقلوا بالتناوب من طالب الى آخر ، ليبلغوا كلا منهم بالعرض الذى قدمه منافسه . وكان سلبشيانوس بالفعل قد وعد كل جندي بخمسة آلاف درهم (أكثر من مائة وستين جنيها) ، ولكن جوليان المتلهف على المنصب قفز على الفور الى ستة آلاف ومائتين وخمسين درهما (أكثر من مائتى جنيها استرلينى) . وفتحت فى الحال أبواب المعسكر للمشتري ، وأعلن امبراطورا ، وتلقى يمين الولاء من الجنود الذين عادوا الى شىء من الانسانية الى حد أنهم اشتراطوا عليه أن ينسى ويغفر لسلبشيانوس منافسته اياه .

وكان حتما على البريتوريين أن ينفذوا الآن شروط البيع . فوضعوا ملكهم الجديد ، الذى خدموه واحتقروه معا ، وسط صفوفهم ، وأحاطوه من كل جانب بدروعهم ، وقادوه فى نظام دقيق لاحتراق الشوارع الخالية فى المدينة . وصدرت الأوامر الى السناتو بالاجتماع . ووجد اصدق اصدقاء برتيناكس ، أو الأعداء الشخصيون لجوليان أنه من الضروري أن يتظاهروا بقدر أكثر من عادى من الرضا بهذه الثورة السعيدة . وبعد أن ملأ جوليان دار المجلس بالجنود المسلحين ، افاض فى الكلام عن الحرية التى اقترن بها انتخابه ، وفى شمائله العالية وفى تاكده التام من تعلق السناتو به . وأظهر المجلس الخنوع (بفتح الخاء) غبطته وغبطة الناس عامة ، وقدموا له ولاءهم ، ومنحوه كل السلطات الامبراطورية على اختلاف أنواعها . وتوجه جوليان فى نفس الموكب العسكرى من السناتو الى القصر ليضع يديه عليه . وكان أول ما استرعى نظره فيه جذع برتيناكس الذى ترك بالقصر والمائدة المتواضعة التى أعدت لعشائه . فنظر الى الواحد دون اكتراث ، وإلى الآخر باحتقار ، ثم أعدت ، بناء على أوامره ، وليمة فاخرة ، ثم تسلى الى ساعة متأخرة من الليل بلعب النرد وبمشاهدة الراقصة الشهيرة بيلاديس Pylades . على أنه لوحظ أنه ، بعد أن انصرف حشد المتملتين وتركوه للظلام والوحدة والتأمل الرهيب ، قضى ليلة لم يذق فيها طعم النوم ، ومن المحتمل أنه أخذ يقلب فى نفسه حماسته المتغيرة ، ومصير سلفه الافاضل ، وحق التملك الخطير المشكوك فيه لامبراطورية ، ذلك الحق الذى لم يكسبه عن جدارة ، بل اشتراه بالمال .

وحق له أن ترتعد مرائضه ، فقد وجد نفسه على عرش العالم وحيدا بلا صديق أو حتى مرافق ، بل ان الحرس أنفسهم عراهم الخجل من

الأمير الذى أغرامهم جشعهم بقبوله ، كما أنه لم يكن نمة ، واطن لم ينظر بعين الجزع الى اعتلائه العرش على أنه آخر وصمة لاسم الرومان . أما الأشراف الذين اقتضت مكانتهم البارزة و ثروتهم الطائلة أشد الحرص ، فقد وضعوا كبرياءهم فى جيوبهم وتصنعوا عواطفهم وتابلوا ما تظاهر به الامبراطور من لطف ورقة بابتسام الرضا وبما يقتضيه المقام من واجب الحفاوة . أما الشعب فقد وجد فى كثرة عدده وخمول ذكره مأمناً للتنفيس الحر عما يجيش فى صدره . ورددت الشوارع والمحال العامة فى روما صدى الصيحات واللعنات ، وجابه الشعب الحائق جوليان بالاساءة وأبوا عليه سخاءه ، وادراكا منهم لعالية استيائهم ، استدعوا علانية فرق الحدود لتؤكد جلال الامبراطورية الذى انتهك وأسىء اليه .

أعلنت قوات بانونيا Pannonia سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus امبراطورا ، فحبر الألب ، وأقره السناتو على العرش ، ثم اعدم جوليانوس . وهزم سيفيروس منافسيه الخطابين بالعرش وهما بسكنيوس نيجر Pescennius Niger حاكم سوريا ، وألبينوس Albinus حاكم بريطانيا .

سبتيميوس سيفيروس

ان المصلحة الحقيقية لاي حاكم مطلق لتتفق بصفة عامة مع مصلحة شعبه ، فان اعدادهم و ثروتهم ونظامهم وأمنهم لهى أفضل الأسس ، وهى الدعائم الوحيدة لعظمته الحقيقية . واذا كان مجردا من الفضيلة ، فان الحزم قد يعوض عنها ، وقد فرض نفس قواعد السلوك . واعتبر سيفيروس الامبراطورية الرومانية ملكا خاصا له ، فما أن استتب له الملك حتى أولى هذا الملك العظيم عنايته لاصلاحه وتحسينه ، وسرعان ما صححت القوانين الصالحة التى نفذت فى عزم لا يلين ، معظم المساوىء التى انتابت — منذ موت ماركوس — كل ناحية فى الحكومة . وفى ولاية النساء تميزت أحكام الامبراطور بالتبصر والفتنة وعدم التحيز ، وما انحرف يوما عن الطريق المستقيم للعدالة الا كان هذا بصفة عامة مجاملة للفقراء والمظلومين ، ولم يكن فى الحقيقة صادرا عن معنى من ممانى الانسانية أكثر منه عن ميل طبيعى فى الحاكم المطلق ليزل غرور المنظمة ، ويهبط بجميع رعاياه الى نفس المستوى العام من النعمية

المطلقة . وكان تذوقه الباهظ الثمن لاقامة المباني والحفلات الفخمة ، وفوق كل شيء توزيعه المستمر السخي للغلال والمؤن — كل أولئك كان أنجح الوسائل الأكيدة لانتزاع حب الشعب الرومانى له وتعلقه به . وزالت مساوئ الفتن الأهلية . ونعمت الولايات مرة أخرى بهدوء السلام والازدهار . واستردت أريحية سيفيروس وسخاؤه كثيرا من المدن ، فدخلت في عداد مستعمراته ، وأظهرت اغتباطها وامتنانها بما شيد من آثار عامة . وأحيا ذلك الامبراطور المحارب الموفق شهرة القوّات الرومانية ، وكان يزهو بحق بأنه تسلم الامبراطورية منهوكة بالحروب الخارجية والمحلية ، ثم خلفها مستقرة في سلام تام شامل مشرف .

وبدا ان كل جراح الحرب الأهلية قد البأمت تماما ، ولكن سببها القاتلة كانت لا تزال تكن في جوهر الدستور . ولقد اوتى سيفيروس قدرا كبيرا من العزم والقدرة ، ولكن جراحة القيصر الأول أو عمق سياسة أوغسطس لم تتكافأ مع مهمة الحد من وقاحة القوات المنتصرة وصلفها . وأغرى سيفيروس بارخاء قبضة النظام والتخفيف من قيوده ، اما عرفانا للجميل ، أو نتيجة لسياسة مضللة ، أو لما بدا أنه ضرورة حتمية . واشبع غرور جنوده وزاد زهوهم بما تحلوا به من خواتم من ذهب ، واكتملت أسباب الراحة بالترخيص لهم بالعيش مع زوجاتهم داخل الثكنات في دعة وخمول ، ورفع رواتبهم فوق ما كانت عليه من قبل . وعلمهم أن يتوقعوا — وسرعن ما طالبوا — بعطايا غير عادية في أية مناسبة عامة ، احتفالا كانت أو خطرا داهما . والآن وقد انتفخت أوداجهم بما أصابوا من نجاح ، ووهنت عزائمهم بما أترفوا فيه ، ورفعتهم امتيازاتهم الخطيرة فوق مستوى أفراد الرعية ، فقد أصبحوا عاجزين عن احتمال أى جهد عسكري ، كما أصبحوا عالة على البلاد مرهقين لها ، وضاقوا ذرعا بأية تبعية عادلة معقولة . وأكد ضباطهم سمو الرتبة بالاسراف في الكماليات والأناقة . وهناك رسالة ما تزال باقية من رسائل سيفيروس ، يرثى فيها لحالة الفوضى نتيجة لسيطرة الجيش ، ويحض فيها أحد قواده على المبادرة بالإصلاح الضرورى ابتداء من التربيون نفسه ، حيث — كما لاحظ بحق — أن الضابط الذى يفقد مكانته ويبتهن كرامته لا يستطيع أن يفرض طاعته على جنوده . ولو استرسل الامبراطور في تأملاته لتبين له أن السبب الأساسى في هذا الفساد العام ، ربما كان راجعا ، لا الى القدوة (الضابط) في الواقع ، بل الى النسيامح المعيب الخطير من جانب القائد الأعلى نفسه ، على أية حال .

ونال البريتوريون الذين قتلوا امبراطورهم وباعوا امبراطوريتهم جزءا عادلا لقاء خيانتهم فسرعان ما وضع سيفيروس لنظام الحرس ، ذلك النظام الضروري رغم خطورته ، أساسا جديدا . وزاده الى أربعة أمثال عدده القديم . وكانت فرق الحرس تجند قديما في ايطاليا ، ولما تشربت الولايات المجاورة شيئا فشيئا أساليب روما ، التي هي أكثر رقة ونعومة ، امتد تجنيد هذه الفرق الى مقبونيا ونوريكوم Noricum (جزء من النمسا الحالية) . واسبانيا وقرر سيفيروس ، بالنسبة لهذه الفرق الأنيفة التي كانت ألحق بابهة البلاط منها بالاستخدام في الحرب ، قرر أن يختار بين الحين والحين ، من بين قسوات الحدود أكثر الجنود امتيازا لقوتهم وبسالتهم واخلاصهم ، ويرقوا الى صفوف الحرس ، وهى ألحق بهم ، تشريفا ومكافأة لهم . وبهذا النظام تحول الشباب الايطالى عن خدمة الجيش واستعمال السلاح ، وروعت العاصمة بجموع المتبررين وبسلوكهم ومناظرهم الفرية ، ولكن سيفيروس كان يعطل النفس بأن قوات الجيش سوف تعتبر أن هؤلاء البريتوريين المختارين يمثلون التشكيل العسكرى بأسره ، وأن العون الحالى الذى يتألف من خمسين ألفا متفوقين فى السلاح والرواتب (من الحرس) على أية قوة يؤتى بها الى الميدان ضدهم ، لابد أن يقضى الى الأبد على أى أمل فى العصيان ، ويؤمن الامبراطورية له ولذريته من بعده .

وسرعان ما أصبحت قيادة هذه الفرق ذوات الخطوة والبأس المنصب الأول فى الامبراطورية . فلما انحدرت الحكومة الى استبدادية عسكرية . وضع قائد البريتوريين — الذى لم يكن فى الأصل الانقيا فى الحرس ، وضع — لا على رأس الجيش فحسب ، بل على رأس الخزائنة والقانون كذلك . ومثل فى كل أقسام الادارة شخص الامبراطور ومارس سلطاته . وكان بلوتيانوس Plautianus — الوزير الاثير المقرب الى سيفيروس — أول قائد تمتع بهذه السلطة الواسعة واستغلها أسوأ استغلال ، دايلة عهده الذى دام أكثر من عشر سنوات ، حتى زوج ابنته من أكبر أبناء الامبراطور ، وكان يبدو أن فى هذا الزواج ضمانا لحسن مستقبله ، ولكن ثبت أنه كان ايذانا بسقوطه (١) وأهاجت أحقاد القصر أطماع بلوتيانوس وأثارت مجاوغه ، ومن ثم هددت باحداث ثورة ، وأجبرت الامبراطور الذى لا يزال يحبه على الموافقة على قتله ، على غير رضا

(١) من أكثر تصرفاته نزقا وجراة خصى مائة من أحرار الرجال الرومان ، بينهم المتزوج وشيهم رب الاسرة لا لشيء إلا أن يكون فى ركاب ابنته عند زواجها من الامبراطور الصغير حاشية من « الخصيان » ، مما هو جدير بعلكة شرقية .

منه . وبعد موت بلوتيانوس عين المحامى العظيم المشهور بابنيان Papinian فى المنصب الزاهى ، منصب رئيس الحرس البريتورى .

والمشاهد أنه حتى عصر سيفيروس تميزت فضيلة الأباطرة ، أو حسن ادراكهم باحترامهم الحقيقى أو المصطنع للسناتو ، وفى الرعاية الكريمة للآطار الجميل للسياسة المدنية التى وضعها أغسطس . ولكن سيفيروس كان قد درج طوال سنى شبابه على الطاعة العمياء فى المعسكرات ، وتقضى أعوامه الأكثر نضوجا فى استبداد القيادة العسكرية ، فلم تستطع روحه المتعالية العنيدة أن تكتشف ، أو قل لم تعترف ، بميزة الإبقاء على قوة وسط ، مهما كانت صورية ، بين الإمبراطور والجيش . فاحتقر أن يعترف بأنه خادم لمجلس أضرر البغض لشخصه على حين كانت ترتعد فرائصه فرقا لمجرد عبوسه ، فأصدر الأوامر حيثما ثبت أنها تقضى مآربه . وسلك سلوك الملك والفتاح ونهج منهجها ، ومارس دون استخفاء السلطتين التشريعية والتنفيذية معا .

وكان الانتصار على السناتو أمرا ميسورا تافها معينا لا يتسم بأى مجد ، ألم تكن كل العيون وكل الأحاسيس موجهة الى الحاكم الأعلى الذى تملك الجيش والمال فى الدولة ؟ على حين أن السناتو الذى لم ينتخبه الشعب ، ولم تحم القوات العسكرية ، ولم تنعشه الروح العامة — هذا السناتو أقام سلطته المتداعية على أساس واه محطم من وضعه القديم ؟ واختفت النظرية الجميلة عن الجمهورية بطريقة غير محسة وأخلت مكانها لمشاعر الملكية ، وهى مشاعر طبيعية أساسية الى حد أكبر . ولما أسبغت حرية روما وأجادها تباعا على الولايات ، حيث كانت الحكومة القديمة غير معروفة ، أو كان ذكرها يقترب بالقت والذم ، محيت معها تدريجا كل تقاليد المبادئ الجمهورية ، ويلاحظ المؤرخون اليونانيون فى عصر الأنطونيين ، فى اغتباط خبيث ، أن ملك روما — على الرغم من أنه ، مسيطرة لهوى مندثر ، كان يجفل من لقب الملك ويتورع عنه — لكنه مع ذلك ، كان يتمتع بالسلطة الملكية فى أبعد حدودها . وامثلا مجلس السناتو على عهد سيفيروس بعبيد فصحاء مصقولين جاءوا من الولايات الشرقية ، وبرروا الملق الشخصى بمبادئ نظرية نبعت من العبودية . وفرح البلاط ، على حين كان الشعب ينفذ صبره عهد الاستماع الى هؤلاء المدافعين الجدد عن الامتيازات ، حين كانوا يقررون واجب الطاعة العمياء ، ويسهبون القول فى المساواة المحتومة للحرية . واتفق المحامون والمؤرخون على تلقين الناس أن الإمبراطور لم يتول السلطة نتيجة لشوئضه بهذه المهام ، بل نتيجة الاستسلام القاطع والتنازل التام من

جانب السناتو . وبأنه متحرر من قيود القوانين المدنية ، وبأنه يستطيع التصرف في حياة رعاياه و ثرواتهم ، والتخلص من الامبراطورية كما لو كانت ميراثا خاصا له . وترعرع أبرز هؤلاء المحامين المدنيين ، وخاصة بابنيان ، ويولوس والبيان في ظل بيت سيفيروس . وقد افترض أن الفقه الروماني بلغ غاية النضج والكمال ، منذ أن ارتبط ارتباطا وثيقا بنظام الملكية .

وغفر معاصرو سيفيروس له ضروب القسوة التي استهل بها عهده ، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك . ولكن الاعقاب الذين خبروا الآثار الفتاكة لمبادئه ولمن هذا حذوه ، اعتبروه ، حقا وعدلا ، «المنشئ» : أو المخطط الاساسي لاضمحلال الامبراطورية الرومانية .

الفصل السادس

(٢١١ - ٢٢٥ م)

أسرة سيفيروس

كاراكلا وجيتا • ايلاجابالوس الاسكندر سيفيروس

نمو نفوذ المرأة في البلاط

قد يتبعث ارتقاء سلم المجد ، مهما كان الارتقاء وعرا خطيرا ، في الانسان روحا وثابة تعى قوتها وتمارسها . ولكن امتلاك عرش ، أى عرش ، لن يستطيع أن يشبع في النفس الطامحة قناعة دائمة . وقد احس سيفيروس بهذه الحقيقة المحزنة واعترف بها . لقد سها به حظه ومواهبه من الحضيض الى اسمى مكان بين بنى الانسان ، أو كما قال هو في نفسه : « لقد كان هو كل شيء ، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر » . والآن وقد ساورته الهوم ، لا من أجل الحصول على امبراطورية ، بل من أجل المحافظة عليها ، وأرهقه الشيخوخة والعلل ، وعزف عن الشهرة ، وأتخم بالسلطة ، وضائق به سبل الحياة . فأنه لم يبق من مطامعه ومن حنانه الأبوى الا الرغبة في الحفاظ على مجده الأسرة وعظمتها أمدا طويلا .

وأولع سيفيروس — مثل معظم الأفريقيين — بالدراسات العقيمة في السحر والالهيات . وكان خبيرا عليا بتفسير الأحلام والنذر ، كما كان على دراية تامة بالتنجيم الشرعى ، وكل أولئك كان يملك عقل الانسان في كل زمان ، فيما خلا عصرنا هذا . وقد فقد زوجته الأولى عندما كان حاكما على اقليم ليون في الغال . وجرى في اختيار زوجته الثانية وراء ارتباط بذات حظ سعيد . وما أن اكتشف أن سيدة شابة من حمص في سوريا قد خبات لها النجوم طالعا ملكيا ، حتى أسرع في التوسل اليها وحظى بالزواج منها . وكانت جوليا دونا Julia Donna.

(وكان هذا اسماها) تستحق كل ما يمكن أن تعد به النجوم ، فقد وهبت ، حتى عندما تقدمت بها السنون ، كل مقائن الجبال ، وجمعت بين روعة الخيال ورصانة العقل وقوة الحكم ، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها . ولم يكن لهذه الصفات الحميدة أثر عميق قط في المزاج الكئيب الحقوق لزوجها . ولكنها على عهد ابنها ، تولت المهام الرئيسية في الإمبراطورية ، في غطنة دعيت سلطته ، وفي اعتسداً صحح في بعض الأحيان من حماقاته ألهمجية . وانصرفت جوليا إلى الأدب والفلسفة فاصابت فيهما بعض النجاح ، وأحرزت أكبر شهرة . وكانت ترمي كل من ، وتشجع كل نبوغ ، وكان تهلق العلماء لها ، اعرفاناً منهم بفضلها ، سبباً في تعجيد شمائلها ، ولكن إذا كان لنا أن نصديق افتراء التاريخ القديم ، لكانت العفة أبعد من أن تكون أبرز صفات الإمبراطورة جوليا .

وكانت ثمرة هذا الزواج ولدين هما كازاكلا وجيتا الوريثان المحتمومان للإمبراطورية . وسرعان ما خابت الآمال العريضة للوالد وللعالَم الروماني في هذين الشابين الغابثين اللذين استنما إلى حياة الاطمئنان الخامل لأمراء وراثيين ، مفترضين أن الحظ سيعوض عن الجدارة والمثابرة . وتجردا من المنافسة في الفضائل أو المواهب ، ولكنها اكتشفا ، حتى منذ طفولتهما على الأغلب ، جفوة عاتية راسخة في الواحد منهما نحو الآخر .

وثبتت السنون جذور الكراهية ، وأهاجتها افانين الخللان المغرضين ، حتى انفجرت بينهما منافسات صبيانية ، زادت حدتها على مر الأيام ، مناقشات شطرت المسرح والملاعب والسيرك والبلاط إلى حزبين تخركهما آيال ومخاوف لقائهم على الأمر في كل منها . وتذرع الإمبراطور الرزين بكل ضروب النصيح والسلطان ليهدىء من هذه العداوة المتزايدة . وغشى هذا الخلاف المنكود بين ولديه كل تطلعاته بسحب من الكأسة ، وهدد بسقوط العرش الذي أقامه بالكثير من الجهد والكد ، ودعمه بالكثير من الدماء ، وذاد عنه بقوة السلاح والمال . وفي غير ما تحيز ، وحفاظاً على التوازن الدقيق بينهما وزع بينهما رعايته وحظوته بالعدل والقسطاس ، فحبا كلا منهما بمرتبة « أوغسطس » مع الاسم المعظم « أنطونينوس » . وبذلك شهد العالم الروماني لأول مرة ثلاثة أباطرة في وقت معاً . ومع ذلك فإنه حتى هذه المساواة لم تجد إلا في اذكاء النار بينهما ، واستمسك كازاكلا الشرس بحق الابن البكر ، على حين استندر جيتا المعتدل عطف الشعب والجنود ، وفي المبرح تنبأ الوالد اليائس سيفيروس بأن الابن الأضعف سيقع فريسة لابنه الأقوى الذي لا بد ، بدوره ، أن يخز صريع رذائله هو نفسه .

وفي تلك الأثناء جاءت أنباء حرب نشبت في بريطانيا، وغزو المتبريرين في الشمال لهذه الولاية ، وتلقى سيفيروس هذه الأنباء بسرور ، وصمم ، على الرغم من أن بقطة قواده ربما كانت كافية لصد هذا العدو البعيد ، على انتحال مبرر نبيل لانتزاع ولديه من أحضان الترف في روما ، ذلك الترف الذي أوهن عقليهما وأثار عواطفهما ، كما صمم على أن يعرك شبابهما ويعودهما على مشاق الحرب والحكم . ورغم تقدمه في السن (كان آنذاك قد تجاوز الستين) ، ورغم داء النقرس الذي كان يستلزم حمله على محفة — خرج بنفسه إلى هذه الجزيرة النائية يتبعه ولداه وكل حاشيته وجيش قوى . واجتاز من غوره أسوار هادريان وأنطونينوس ، ودخل بلاد الأعداء مصحبا على الكمال فتح بريطانيا الذي طالما جرت محاولته من قبل . وتوغل إلى الطرف الشمالى من الجزيرة دون أن يقابل عدوا . ولكن كمائن الاسكتلنديين Caledonians المحتفية التى اطبقت على جناحي جيشه ومؤخرته ، وبرودة الجو ، وقسوة الشتاء الذى حل بتلال اسكلنده ويطاحها ، كل أولئك ، على ما قيل ، كبد الرومان أكثر من خمسين ألفا من الرجال . . واستسلم الاسكتلنديون فى النهاية لهذا الهجوم القوى العنيد ، وتوسلوا للصلح ، وسلموا جزءا من أسلحتهم ورقعة كبيرة من أراضيهم ، ولكن خضوعهم الظاهرى لم يدم لأكثر من فترة أزمة الرعب الراهنة ، وحالما انسحبت القوات الرومانية ، استأنفوا استقلالهم العدائى . وحفزت روحهم القلقة المتبرمة سيفيروس إلى ارسال جيش جديد إلى كاليدونيا (اسكلنده) ، مع كل الأوامر المتحدة ، لا باخضاع السكان ، بل ببادتهم . ولم ينقذهم إلا موت عدوهم المتعجرف .

ولا تستحق منا حرب كاليدونيا أى اهتمام ، حيث لم تتميز بأية أحداث حاسمة ، ولم تنجم عنها أية نتائج هامة ، ولكن المظنون ، مع شئ كبير من الاحتمال ، أن غزو سيفيروس يرتبط بالمع فترة فى التاريخ البريطانى أو الأساطير البريطانية . ويقال أن فنجال Fingal الذى أحيى شهرته وشهرة أبطاله وشعرائه فى لغتنا الانجليزية أحد المؤلفات الحديثة . قاد الاسكتلنديين فى هذه الفترة العنيفة المشهورة ، وأنه ضلل قوات سيفيروس ، وأنه انتصر فى معركة مشهورة على ضفاف نهر كارون ، ثم فيها كراكون ابن « ملك الدنيا » من جيشه إلى مراتع زهوه وخيلائه . وما تزال بعض سحائب الشك تتعلق بهذه الروايات الاسكتلندية ، ولو أنه لا يمكن لأدق النقاد الحديثين نقضها نقضا تاما . ولكن إذا استطعنا أن نسلم مطمئنين بالمزاعم السارة بأن فنجال عاش ، وأن أوسيان Ossian أنشد ، فقد يكون فى المفارقة الاخاذة بين موقف

وسلوك الأمتين المتنازعتين بعض التسلية للعقلية الفلسفية . ولن تجدى المقارنة شيئا لصالح الشعب الذى هو أكثر تحضرا ، اذا قارنا انتقام سيفيروس الشديد بالصفح الكريم من جانب فنجال ، وقسوة كاراكلا الوحشية المنتهية ، بالشجاعة والوداعة والعبقرية الرقيقة من جانب أوسيان ، والرؤساء المرتزقة الذين خدموا فى ظل الراية الامبراطورية ببواعث من الخوف أو المصلحة ، بالمحاربين الذين ولدوا أحرارا الذين هرعوا الى أسلحتهم تلبية لنداء ملك مورفن Morven ، أو بعبارة موجزة اذا تأملنا الأسكتلنديين الجهال وقد تألقوا فى فضائل الطبيعة والظفرة ، والرومان المنحطين وقد تلوثوا بأحط رذائل الثروة والعبودية .

كاراكلا وجيتسا

أذكى تدهور صحة سيفيروس ومرضه الأخير نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء فى نفس كاراكلا . وضاق ذرعا بأى إبطاء فى تقسيم الامبراطورية ، فحاول غير مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده ، وجهد دون جدوى فى احداث فتنة بين الجنود . وكثيرا ما عاب الامبراطور العجوز على ماركوس ترفقه المضلل ، حيث كان فى مقدوره ، بتصرف عادل واحد منه ، ان يخلص الامبراطورية من طغيان ابنه التافه . فلما وضع سيفيروس فى هذا الموقف أدرك كيف تذوب صرامة القاضى فى رفق الوالد . لقد أطل التفكير فى الأمر ، ثم هدد ، ولكنه لم يستطع الى العقاب سبيلا . وكان هذا المثال الوحيد والأخير من الرحمة أشد فتكا بالامبراطورية من سلسلة طويلة من ضروب القسوة . وحرك اضطراب ذهنه آلام جسمه ، حتى تمنى الموت بفارغ الصبر ، وعجل قلقه ونفاد صبره بساعته الأخيرة . وقضى نحبه فى يورك فى سن الخامسة والستين ، وفى السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق . وفى لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاق والوئام ، كما أوصى الجيش بهما . ولم تنفذ النصيحة النافعة الى قلب الشابين العنيدين ، بل لم تصل الى ادراكهما . ولكن القوات التى هى أكثر انصياعا ، والتى تذكر جيدا يمين الولاء كما تذكر سلطة سيدها المتوفى . قاومت توسلات كاراكلا ، وأعلنت كلا من الأخوين امبراطورا على روما . وترك الأميران الجديدان فى الحال كاليدونيا فى سلام ، وعادا الى العاصمة ، واحتفلا بدفن والدهما وسط مظاهر التكريم الالهية ، واعترف بهما السناتو والشعب والولايات فى ابتهاج ومرح ، ويبدو أنه

قد أسبغ على الأخ الأكبر شيء من مرتبة أرفع . ولكن كليهما تولى.
الامبراطورية بسلطة متكافئة مستقلة .

وكان حتما أن يؤدي مثل هذا التوزيع في الحكومة الى نشوب
الخلافا بين أحب أخوين . وكان من المستحيل أن يدوم طويلا بين عدوين
حقودين ، لم يرغبوا في التراضي أو يستطيعا الاطمئنان اليه . وكان من
الواضح أن واحدا منهما فقط يستطيع أن يتولى الحكم ، وأن الثاني
لابد أن يسقط . وأن كلا منهما ، وهو يحكم على نوايا غريبة بمقاييس
نواياه ، كان يحبى حياته في أشد يقظة حاقدة ، ضد الهجمات المتكررة
بالسم أو بالسيف . وأظهرت رحلتها السريعة عبر الغال وإيطاليا ، تلك
الرحلة التي لم يجلسا فيها الى مائدة واحدة للأكل ، أو يأويا الى مكان
واحد للنوم — أظهرت للولايات على المنظر الكريه للشقاق الأخوى .
ولدى وصولهما الى روما عمدا على الفور الى تقسيم القصر الامبراطوري
الفسيح . ولم يسمح بأى اتصال بين مسكنيهما ، وحصنت كل الأبواب
والممرات ، وتسلم الحراس مواضعهم أو انصرفوا بنفس الصرامة التي
تتبع في مكان محاصر ضيق عليه الحصار . ولم يأتق الامبراطوران الا في
مناسبة عامة ، وفي حضرة أمهما المفجوعة ، يحوط كلا منهما فوج كبير
من الأتباع المسلحين ، وحتى في هذه المناسبة الرسمية ، لم يكن نفاق
الحاشيتين ليخفى ما تنطوى عليه القلوب من أضعاف .

وكان من شأن هذه الحرب الأهلية الخفية أن توقع الحكومة بأسرها
فعلا في حيرة ، عند اقتراح أى مشروع يبدو أنه يحقق نفعا متبادلا
للأخوين المتناجزين ، ولما كان من المتعذر التوفيق بينهما فقد اقترح
الفصل بين مصالحهما وتقسيم الامبراطورية بينهما . وصيغت بالفعل
بنود المعاهدة بدقة . واتفق على أن يحتفظ كاركلا ، بوصفه الأخ
الأكبر بأوروبا وغرب أفريقية ، وأن يترك آسيا ومصر لأخيه جيتا ، الذي
يمكن أن يتخذ مقرا له في الاسكندرية أو في أنطاكية ، وهما لا تقلان
كثيرا عن روما ذاتها من حيث الثروة والعظمة ، وعلى أن تعسكر دائما
قوات كبيرة على ضفتي البسفور في تراقيا لتحصى حدود الملكتين
المتنافستين ، وعلى أن يعترف أعضاء السناطو الذين هم من أصل أوربي
بامبراطور روما ، ويتبع أهل آسيا ملك الشرق . وقطعت دموع جوليا
الامبراطورة الأم تلك المفاوضات التي ملأت فكرتها الأولى صدر كل
رومانى دهشة وسخطا . وكان الزمن والسياسة قد ربطا بين الكتلة
القوية التي كونتها الفتوحات ، في وجدة وثيقة الى حد أنها كانت تتطلب
أشد العنف قسرا لفصم عراها . وكان للرومان كل البعذر في أن يوجسوا

خيفة من عودة سريعة لهذه الأوصال الممزقة الى يدى سيد واحد نتيجة حرب أهلية ، ولكن اذا استمر الفصل ، فان تقسيم الولايات لابد أن ينتهى الى ذوبان الامبراطورية التى لم تمس وحدتها حتى الآن ، وهذان امران احلاهما مر ، (الحرب الأهلية أو ذوبان الامبراطورية) .

ولو أن المعاهدة وضعت موضع التنفيذ لسارع ملك أوربا توا الى غزو آسيا . ولكن كاراكلا أحرز انتصارا أيسر ، ولكنه أشد أجراما . فقد أصفى فى احتيال ودهاء الى توسلات أمه ، ورضى بقاء أخيه فى بيتها على أساس من المصالحة والتراضى ، وفيما هما يتحدثان أندفع جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيفوف مسلولة وانهالوا بها على جيتا المسكين . وحاولت الأم المضطربة أن تحميه بين ذراعيها ، ولكن عبثا كانت تكافح . وجرحت يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر ، بينما رأت الأكبر يستحث الفاحين ويعاونهم ، وما أن فعل فعلته حتى أسرع الخطى والفزع يرتسم على محياه ، الى معسكر البريتوريين بوصفه اللجأ الوحيد له ، وارتمى على الأرض تحت تماثيل الآلهة حماته . وحاول الجنود أن يرفعوه من الأرض ويسروا عنه ، وفى كلمات متقطعة تهوؤشة أبلغهم عن الخطر العظيم المهدق به ، وعن هربه الموفق ، محاولا أن يقر فى أذهانهم انه حال دون تنفيذ خطط عدوه ، وأعلن تصميمه على الحياة أو الموت برفقة جنوده المخلصين . وكان جيتا أثيرا لدى الجنود ، ولكن ماذا تجدى الآن الشكوى ؟ والانتقام محفوف بالخطر ، وهم لا يزالون على اجلالهم لابن سيفيروس . وتبخر استياؤهم فى شئ من تذير خافت ، وسرعان ما أقنعهم كاراكلا بعدالة قضيته ، حين أجزل لهم العطاء فوزع عليهم الاموال التى جمعها أبوه طيلة حكمه . وكانت للمشاعر الحقيقية للجنود وحدها أهميتها من أجل قوته أو سلامته . وتحكم الاعلان الذى أصدره لصالحه فى موقف السناتو مما يجب عليه بحكم وظيفته . وكان المجلس الخنوع مستعداً دائماً للرضاء بما قسم به الحظ . ولكن كاراكلا كان راغبا فى التخفيف من بسوادر الاستياء العام ، ومن ثم أحيط اسم جيتا بكل وقار . وأصفى على جنازته كل مظاهر التكريم الواجب لكل امبراطور رومانى . ورثى خلفه لسوء حظه فأسدل الستار على مساوئه . وأنا لنعتبر هذا الأمير الشاب ضحية بريئة لطمع أخيه ، دون أن نستعيد الى الذاكرة انه هو نفسه أراد القوة ، لا الميل ، لانهاء محاولات الثار والقتل هذه نفسها .

ولم تطو الجريمة دون عقاب . ذلك أن العبل واللهو والتملق لم تجرم كاراكلا من وخزات الضمير الأثم ، وقد اعترف هو ، فى نوبة كرب

وضيق المت بعقله المعذب ، أن خياله المضطرب صور له أباه وأخاه .
يعودان الى الحياة ليهدداه ويؤنباه . وكان الأجدر أن يغريه شعوره
بجريمته باقناع الناس ، عن طريق مزايا حكمه ، بأن هذه الفعلة الشنيعة
أكرهته عليها ضرورة ملحة . ولكن ندم كراكلا لم يوح اليه بشيء
الهم الا أن يحو من الوجود كل ما يذكره بآثمه ، أو يعيد الى الازهان
ذكرى أخيه القتيل . ووجد ، لدى عودته من السناتو الى القصر أمه
وسط جمع من النسوة النبيلات يكنين الابن الصغير الذى لقي حتفه
قبل أوانه . فهدهن الامبراطور الحقود بالموت فورا ، بل انه نفذ
تهديده بالفعل فى فادىلا ، ابنة الامبراطور ماركوس الوحيدة الباقية ،
وحق جوليا المفجوعة نفسها ، فانها اضطرت الى أن تكتم نحيبها وآهاتها ،
وتستقبل السفاح بابتسامة الرضا والفرح . وقدر عدد الذين أعدموا
بحجة غامضة ، هي أنهم أصدقاء جيتا ، بأكثر من عشرين ألفا من
الجنسين ، كان من بينهم حراسه ومعتقوه ، ووزراؤه ومعاونوه فى
مهمته ، ومرافقوه فى أوقات فراغه ، الذين اقتضت مصالحته اسناد بعض
الوظائف اليهم فى الجيش والولايات ، وكل السلسلة الطويلة ، من
الاتباع الذين ارتبطوا بهؤلاء جميعا . كل أولئك حشروا فى قائمة
الاعدام التى حاولت أن تصل الى كل من ارتبط أقل ارتباط بجيتا ،
أو حزن لموته ، أو حتى ذكر اسمه . وراح هلفيوس برتيناكس Helvius
Pertinax ، وهو ابن امبراطور بهذا الاسم ، ضحية نكتة فى غير
أوانها وكانت الجريمة الوحيدة الكافية لادانة ترازيا بيسكس
Thrasea Pisciis . أنها انحدرت من أسرة بدا أن حب الحرية صفة
وراثية فيها . واستنفدت أخيرا الأسباب الخاصة والوشاية للرغبة
غرضها ، فماذا اتهم أحد أعضاء السناتو بعدائه الخفى للحكومة ، تنع
الامبراطور بالدليل العام المائع وهو انه من أصحاب الثروة والفضيلة .
وانطلاقا من هذا المبدأ الراسخ كثيرا ما انتهى الامبراطور الى أخطر
الاستنتاجات .

ذرف الأصدقاء والأسرات الدموع خفية حزنا على اعدام هؤلاء
المواطنين الأبرياء ، وهم أكثر ، ولكن موت بابنيان ، رئيس الحرس
البريتورى ، كان محزنا بوصفه كارثة عامة ، فقد تقلد أهم مناصب
الدولة فى السنوات السبع الأخيرة من حكم سيفيروس ، وبنفوذه ،
المفيد الناجح ، قاد خطوات الامبراطور فى طريق العدل والاعتدال .
وكان سيفيروس ، وهو على سرير الموت ، لتاكده التام من قدراته
وفضائله ، قد أوصاه بالسهر على وحدة الأسرة الامبراطورية ورمهايتها .
ولكن جهود بابنيان المخلصة لم تفلح الا فى اذكاء شعور البغض الذى

كان يضمه كاراكلا لوزير أبيه . وبعد مقتل جيتا ، تلقى بابنيان أمرا بأن يفرغ كل ما أوتى من مهارة وفصاحة في تلمس الأعداء لهذه الفعلة النكراء . وكان الفيلسوف سنكا قد تنازل وقبل أعداد رسالة مماثلة للسنانو ، باسم ابن أجريينا Agrippina وقاطله . فما كان الجواب العظيم لبابنيان ، الذى لم يتردد فى أن يؤثر فقدان حياته على ضياع شرفه ، إلا أن قال : « ان ارتكاب جريمة قتل الوالدين أيسر من تبريرها » . ومثل هذه الشيم الفاضلة الجريئة التى خرجت نقية سليمة من برائن الدسائس فى البلاط ، ومن خطايا العمل ومكائد المهنة ، تعكس على ذكرى بابنيان بهاء ورواء أكثر مما تعكسه وظائفه العالية وكتاباتة الكثيرة ، وشهرته الذائعة التى ظل يتمتع بها فى كل عصور التشريع الرومانى بوصفه محاميا أو من رجال القانون .

لقد كان كل ما يغتبط له الرومان بنوع خاص ، أو يخفف عنهم فى أحلك العصور ، حتى الآن ، هو نشاط جانب الفضيلة فى الإبطرة وخمود جانب الرذيلة فيهم . فقد شخص أوغسطس وتراجان وهادريان وماركوس بأنفسهم الى مختلف أنحاء ممتلكاتهم الواسعة ، وتميز تقدمهم بما أتوا من أعمال تتسم بالحكمة والبر . وكان طفيان تيبيريوس ونيرون ودوميتيان — الذين أقاموا على الأغلب دائما فى روما أو فى الريف المجاور لها — منصبا على طوائف السنانو والقروسية وحدها . ولكن كاراكلا كان العدو المشترك للبشرية جمعاء . وغادر العاصمة (ولم يعد إليها قط) بعد حوالى عام من مقتل جيتا . وقضى بقية سنى حكمه فى مختلف ولايات الامبراطورية وبخاصة فى الولايات الشرقية ، وكانت كل ولاية بدورها مسرحا لسلبه ونهبه وقسوته . وكان أعضاء السنانو مضطرين ، بدافع الخوف الى مصاحبته فى كل تحركاته ، واقامة الحفلات اليومية له بالبهظ النكالى . ذلك الحفلات التى كان يتركها فى احتقار لحرسه ، والى تشييد القصور والمسارح الفخمة فى كل مدينة ، فكان يحتقر زيارتها أو يأمر بهدمها فى الحال . وحل الخراب باغنى الأسرات نتيجة الغرامات الضالمة التى تفرض عليها أو مصادرة أموالها . وأرهق السواد الأعظم من الرعاية بالتفنن فى جمع الضرائب الثقيلة منهم . ووسط الهدوء الشامل بالاسكندرية ، فى مصر ، ولأنه بأدرة من الاستفزاز ، أمر بمذبحة عامة ، شهدها وأدارها من مكان آمن فى معبد سيراپيس ، وراح ضحيتها عدة آلاف من المواطنين والغرباء دون أن يتبين عددهم أو جرائمهم ، حيث أن كل الاسكندريين — كما أبلغ هو السنانو فى برود — من مات منهم ومن قتل ، مجرمون على حد سواء .

ولم تترك توجيهات سيفيروس الحكيمة أى أثر دائم قط فى عقل ولده الذى لم يكن مجردا من الخيال والفصاحة ، ولو أنه عاطل بالمثل عن المميز والانسانيه . وتنه مبدأ حطير جدير بالطاغية كان يذكره كاراتلا ويستغله ، وهو « كسب محبة الجيش ، والنظر الى بغيضة رعاياه على انهم قليلو الاهمية » . ولكن سخاء والده كانت له ضوابط من الحرص والروية ، كما كان تسامحه مع القوات العسكرية مقروما بالحزم والسلطة . اما تبذير الابن بغير حساب فكان طابع سياسيه حكمه ، وكان فيه الخراب المحتوم للجيش والامبراطورية معا . وتبددت عزائم الجنود وهمهم فى بذخ المدن ، بدلا من تدعيمها بالنظام الصارم فى المعسكرات . وارهقت الدولة لاثراء العسكريين بالاسراف فى زيادة رواتب الجنود واغداق المنح عليهم ، على حين أن فى الفقر المشرف أحسن ضمان لاحتشامهم فى اوقات السلم وخدماتهم فى زمن الحرب . وكانت الفطرسية والزهو طابع سلوك كاراتلا ، ولكنه مع الجنود نسى حتى الوفاق الواجب لمرتبه ، فشحج رفع الكلفة ، والالفة الوقحة بينه وبينهم ، واهمل الواجبات الأساسية للقائد ، فتصنع تقليد الجندى الهادى فى زيه وسلوكه .

وكان من المستحيل أن يوحى بالحلب أو التقدير مثل هذا الخلق ومثل هذا السلوك ، ولكن كاراتلا كان يأمن خطر الثورة طالما كانت رذائله ومساوئه خيرا على الجيوش ، ولكن حقه هو نفسه كان سببا فى اثاره مؤامرة خفية قاتلة للطاغية . ذلك أن رئاسة البريتوريين كانت موزعة بين وزيرين ، فتولى الشئون العسكرية احدهما ، وهو أدفنتوس Adventus ، وذن رجلا محكما أكثر منه عسكريا قديرا . وتولى الشئون المدنية أوبليوس مكرينوس Opilius Macrinus الذى استطاع أن يسمو بنفسه فى هوادة ورفق الى هذا المركز الرفيع بفضل براعته فى عمله . ولكن مصلحته تعارضت مع نزوات الامبراطور ، وربما تعلقته حياته بأوهن خيط من الشك أو باى ظرف مفاجئ أكثر ما تكون المفاجأة . وجادت قريحة رجل أفريقى ذى خبرة عميقة فى أمور المستقبل والفيب ، نكاية أو تعصبا ، بنبوؤة خطيرة ، تقول انه مقدر لمكرينوس ولده ، أن يحكما الامبراطورية . وسرعان ما انتشر النبأ فى الولاية وجيء بالرجل الى روما مكبلا بالسلاسل ، وظل يؤكد صدق نبوءته فى حضره حاكم المدينة . وتلقى حاكم المدينة تعليمات مشددة بأن يبلغ بنفسه عن « خلفاء » كاراتلا — فنقل على الفور نتائج التحقيق مع الأفريقى واختباره الى البلاط الامبراطورى الذى كان يقيم آنذاك فى سوريا ، ولكن رغم يقظة الرسل العامين استطاع أحد أصدقاء مكرينوس أن يجد

وسيلة لظهاره على جليلة الخطر المحقق به . وتلقى الامبراطور الرسائل من روما ، ولما كان آنذاك مشغولا بسباق العجلات ، فقد سلم الرسائل دون أن يفتحها الى رئيس الحرس البريتورى ، وكلفه بترك المسائل العادية جانبا ، واعداد تقرير عما قد تحويه الرسائل من مسائل أكثر أهمية . وقرأ مكريئوس فيها مصيره ، وعقد العزم على تجنبه . وأهاج مكريئوس سخط بعض صفار الضباط ، واستخدم مارتياлис Merialis وهو جندى يائس ابوا عليه رتبة « ضابط مائة » . ودفع التقي والورع كاراكلا الى الحج من اذاسا Idessa (مدينة أورفة الحالية في تركيا) الى معبد القمر في مدينة كاره Carrhae (مدينة شران الحالية) وكانت تتبعه كوكبة من الفرسان ، قلما توقف في الطريق لضرورة طارئة ، بقى الحرس على مسافة محترمة منه ، واقترب مارتياليس من شخص الامبراطور مدعيا أنه انما يؤدى واجبه ، وطعنه بخنجر . وسرعان ما سدد رماح سكوذى من الحرس الامبراطورى رمحاه الى القاتل الجريء ، فأرداه قتيلا . تلك كانت نهاية المارد الجبار الذى لطخت حياته الطبيعة الانسانية بالعمار ، والذى عيل صبر الرومان بحكمه . ونسى الجنود العارفون لفضله مساوئه ، ولم يذكروا الا سخاءه المتميز عليهم ، فأرغموا السفناتو على أن يسئ الى نفسه ويمتهن كرامته وكرامة الدين بمنح الامبراطور القتل مكانا بين الآلهة ، وكان البطل الوحيد الذى اعتبره هذه الاله (كاراكلا) فى حياته جديرا باعجابه هو الاسكندر الأكبر ، ولذلك اتخذ لنفسه اسمه وشعاراته ، وكون فرقة مقدونية من الحرس ، واضطهد تلاميذ أرسطو ، وتفاخر فى حماس صبيانى سخييف ، بالحاسة الوحيدة التى اكتشف بها أى اهتمام بالفضيلة أو العظمة . ومن الميسور علينا أن ندرك أنه بعد معركة نارفا وغزو بولنדה ، كان شارل الثانى عشر « ملك السويد ١٦٨٢ — ١٧١٨ » (ولو أنه كان لا يزال فى حاجة الى منجزات أخم تليق بابن فيليب الذى هو أخم وأروع) يستطيع أن يفاخر بأنه نافس كاراكلا فى بأسه وشهامته ، ولكن كاراكلا ، فى أى عمل فى حياته ، لم يتشبه اقل شبيه ببطل مقدونيا الا فى قتل عدد كبير من أصدقائه وأصدقاء والده .

اجلس البريتوريون مكريئوس على المرش ، ولكن محاولاته لاصلاح الجيش جعلته غير محبوب ، وادعت جوليا ميسا — أخت زوجته — أن حفيدها هو ابن كاراكلا ، واعلن امبراطورا باسم أنطونينوس . وهزم مكريئوس وقتل . ورحل أنطونينوس وحاشيته الى روما .

الاجبالوس

كان أئفه الوان اللهو والتسلية يشد اقتباه الامبراطور الجديد ، ومن ثم اضاع عدة شهور فى انتقاله الذى اقترن بكل ترف وبذخ من سوريا الى روما . وقضى فى نيقوميديا أول شتاء له بعد الانتصار ، وأجل دخوله الظافر الى العاصمة الى حلول الصيف . ومهما يكن من شئ ، فان الصورة الأمانة التى سبقت وصوله ، والتى وضعت بأمر ثورى منه فوق مذبح النصر فى دار السناتو ، قد حملت الى الرومان شيها صادقا ، ولكن غير لائق ، بين شخصه وخلقه . وقد رسمت له الصورة وهو يرتدى يابا كهنوتية من الحرير والذهب على غرار زى الميديين والفينيقيين المفضاض المنساب ، وفوق رأسه تاج مثلث سابق ، ورصعت أساوره وأطواقه الكثيرة بجواهر ثمينة لا تقدر قيمتها ، وقد زججت حواجبه بالسواد ، وصبغ خداه بلون غير طبيعى من الأحمر والأبيض . واعترف شيوخ السناتو ، وهم يصعدون الزفرات ، بأن روما بعد أن لاقت أقسى طغيان أبناء جلدتهم طويلا ، ارتكست أخيرا تجرع الذلة والهوان فى ظل الترف المخنث للحكم الشرقى المستبد المطلق .

وكانوا فى حمص Emesa يعبدون الشمس تحت اسم الاجبالوس ، وكانوا يمثلونه على هيئة حجر مخروطى الشكل ، كان يسود الاعتقاد بأنه سقط من السماء الى هذه البقعة المقدسة . ولأمر ما نسب انطونيوس ارتقاؤه العرش الى حامى الحمى ، الى هذا الاله . وكان الشغل الشاغل له فى حكمه هو اظهار امتنانه الخرافى وعرفانه لجميله ، وكان انتصار اله حمص على جميع ديانات الأرض موضعا عظيما لزهوه وغروره ، وكان اسم الاجبالوس (وقد قرر أن يتخذ هذا الاسم المقدس بوصفه حبرا أعظم ، ومن المقربين) أعز لديه من لقب الجلالة الامبراطورية وفى موكب مهيب اخترق شوارع روما المغطاة بالثبر ، ووضع الحجر الأسود ، وقد رصع بالجواهر الثمينة ، على عربة تجرها ستة جياذ بيضاء فى لون اللبن مطهمة بأبهى الحلى ، وأمسك الامبراطور التتى بأعنتها ، وهو يتحرك الى الورا فى أناة ، يعاونه وزراؤه ، حتى ينعم دائما ببهجة الحضرة الالهية وكانت القرابين التى تقدم للاله الاجبالوس فى معبده فى تل بالاتين Palatine Mount بالفة غاية القية والقداسة . فكانت تنثر على مذبحه أندر الأنبذة وأعلى الضحايا وأحسن العطور فى اسراف شديد . وكانت فرقة من العذارى السوريات تقدم رقصاتها الداعرة حول المذبح ، على حين قام أكبر شخصيات الدولة والجيش ،

وقد ارتدوا الملابس الكهنوتية الفينيقية بأدنا الحركات ، وهم يتصنعون الحماس ، ويخفون السخط والاستياء .

وحاول الامبراطور المتعصب أن ينقل الى هذا المعبد ، بوصفه المركز العام للعبادات الدينية ، كل التماثيل المقدسة التي ترمز لعبادة نوما ، ولحق حشد كبير من الآلهة الصغرى ، باله حمص في جلاله وعظمته ، بدرجات متفاوتة . ولكن حاشيته لم تكن قد اكتملت بعد ، حتى سمح لاثنى رفيعة الشأن بقرانه . واختيرت في أول الأمر بالاس Pallas (الالهة اثينا - الهة الحكمة) زوجة له . ولكن خيف أن تزعج فظائعها الخربية رقة الاله السورى ونعومته ، وقدر أن الهة القمر التي كان يعبدها الافريقيون تحت اسم « عشتارت » قد تكون رفيقا لائق بالشمس ، فحمل تماثيلها من قرطاجة الى روما مع كل ما احتوى معبدها من نفائس وهدايا لتكون صداقا للزواج . وأصبح يوم هذا الزواج الرمزي الغامض عيدا عاما في العاصمة وفي سائر أنحاء الامبراطورية .

وقد يلزم الانسان شره معقول ، مع احترام ثابت ، لكل ما تمليه الطبيعة من سنن معتدل ، مما يعمل على تحسين ملذات الحواس عن طريق المخالطة الاجتماعية وتعزيز الروابط ، والتشكيل الرقيق للذوق والخيال . ولكن الاجابالوس (أعنى الامبراطور المسمى بهذا الاسم) ، وقد أفسده شبابه وبلده وحظه ، أسلم نفسه الى أغلظ الملذات بلا حدود ، وسرعان ما أحس الضجر والتخمة وسط هذا النعيم . ودعى الى نجدته أشد قوى الفن اثاره ، واستخدم لتحريك شهوته وشهواته الفاترة جموع مختلطة من النساء ، ومجموعات من مختلف الأنبذة واللوان الطعام ، وتشكيلة مدروسة من الأوضاع وعصارات التوابل ، حتى لقد تميز عصره بأسماء جديدة وبدع جديدة في هذه الفنون ، وهى الأشياء الوحيدة التى تعهدها ورعاها الملك بنفسه (١) ، ثم حملت عساره وقضاائحه الى الأجيال من بعده . وعوض التبذير الجنونى عن الخيرى الذوق والرشاقة ، وبينما يعثر الاجابالوس كنوز شعبه ذات اليمين وذات الشمال فى اسراف بالغ ، كان هو ومطلقوه يرددون أصوات الاستحسان ويمتدحون روح العصر وعظمته ، مما لم تألفه وداعة أسلافه . وكان من ألف تسليته ومسراته أن يشوه نظم الفصول والمناخ ، وأن يداعب أهواء رعاياه وحزائهم ، وأن يقلب قوانين الطبيعة وقواعد

(١) كوفى بسخاء اختراع جديد من « عصارات التوابل » . ولكنه لم يكن مستطابا ، فأرغم المخترع على ألا يأكل شيئا غيره ، حتى ابتدع نوعا آخر أساغه ذوق الملك .

الحشمة والوقار . ولم يكف لاشباع شهواته البهيمية فوج كبير من الخليلات ، وتعاقب سريع من الزيجات ، كان من بينهم عذراء بقوله انتزعت من ماواها المقدس . وتظاهر سيد دنيا العالم بمحاكاة النساء في زيهن وسلوكهن ، وآثر القرناس (صنارة المغزل) على الصولجان ، وامتنع المهام الرئيسية للامبراطور فوزعها على حبيباته الكثيرات ، فخلع على واحدة منهم علنا لقب الامبراطور وسلطته او — بشكل أدق — سلطة زوج الامبراطورة ، كما سمي هو نفسه .

ويبدو من المحتل أن رذائل الاجابالوس قد دبجها الخيال وسودها التحيز ، ولكننا اذا اقتصرنا على المشاهد العامة التي كانت تعرض على الشعب الروماني ، والتي أكدها المؤرخون الجادون المعاصرون ، لوجدنا أن عارها الذي لا يوصف ، يجاوز مثيله في أى زمان ومكان . ان الأسوار العالية لبيت حريم أى ملك شرقى لتحجب رذائله عن عيون أى متطفل أو محب للاستطلاع . ولقد أدخلت أساسيس الشهامة والشرف ، تهذيب الملذات والاهتمام بالحشمة والوقار واحترام الرأى العام في البلاط الحديث للوك أوربا ، ولكن نبلاء روما الفاسدين الكثيرين اغتبطوا لكل رذيلة اقتبسوها من التدفق الجارف للأمم والعادات . وطالما كانوا يأمّن من العقاب ، لا يأبهون للوم أو التوبيخ ، فقد عاشوا ، دون قيود ولا حدود ، في المجتمع الذليل الصبور ، مجتمع العبيد والأتباع ، فلما رأى الامبراطور ، بدوره ، هذا الاستهتار الشائن المعيب في الشعب على مختلف طبقاته ، دعم من امتياز الملكى فى الجشع والبذخ .

ولن يتورع أحط بنى الانسان عن أن ينكر على غيره ما يجيزه لنفسه من نقائص . ويجد في الحال فارقا لطيفا في العمر أو الخلق أو المكانة ليبرر به هذا التمييز غير النزيه . وكان الجنود الفجار هم الذين رفعوا الابن المنحل لكاراكلا على العرش ، والآن نراهم وقد احمرروا خجلا من هذا الاختيار المخزى ، وولوا وجوههم ، في ضيق وضجر ، عن هذا المارد ليتأملوا في سرور الفضائل المفتحة في ابن خالته الاسكندر بن مايبا Mamaea . ولما احسنت مايسا Maesa الداهية المحتالة بأن حفيدها الاجابالوس لايد أنه سيحطم نفسه برذائله ، قدمت لأسرتها دعامة أخرى أشد ثباتا . فأغرقت الامبراطور الصغير ، في لحظة موأية من لحظات الغرام والاخلاص ، بأن يتبنى الاسكندر ويخلع عليه لقب قيصر ، حتى لا تعود مهامه الالهية تضطرب لانشغاله بهموم الدنيا ، وقد أصبح الأمير المحبوب الرجل الثانى فى الدولة ،

كسب محبة الشعب وأثار حقد الطاغية الذي صمم على وضع حد لهذه المنافسة الخطيرة ، بأن يفسد على فريسه خطته أو يقضى على حياته . ولم تنجح أساليبه ، وفضحت حماقته الثرثرة مشروعاته العابثة ، فأحبطها أولئك الخدم الأمناء الأفاضل الذين اقتضى حرص ماميا أن تحيط بهم ابنها ، وفي نزوة انفعال سريعة وطد الاجبالوس العزم على أن ينفذ بالقوة ما عجز عن تنفيذه بالاحتتيال والغش . وأصدر حكما جائرا جرد بك ابن خالته من لقب قيصر ومن أمجاده ، وتلقى السناتو الرسالة في صمت ، ولكنها أثارت حمية المعسكر وغضبه . فقد أقسم الحرس البريتورى على حماية الاسكندر ، والثأر لكرامة العرش التي اُمتنت ، وصرفتهم عن سخطهم العسادل دموع الاجبالوس المرتعد ووعوده ، ولم يكن يرجو الا الابقاء على حياته ، مع هيروكليز Hierocles المحبوب ، وقنعوا بتفويض رؤسائهم بالسير على سلامة الاسكندر ومراقبة سلوك الامبراطور .

وكان من المتعذر أن تدوم هذه المصالحة ، أو أن تتقبل نفس الاجبالوس الدنيئة حكم الامبراطورية على أساس شروط التسمية المذلة هذه . وسرعان ما دخل في تجربة قاسية لاصلاح الجنود وتقويمهم . وذاع نبا وفاة الاسكندر ، فاشتد هياجهم لموته ولارتياهم الطبيعى فى أنه مات قتيلًا ، ولم تهدأ العاصفة فى المعسكر الا بحضور الشاب المحبوب ، وبنفوذه هو نفسه ، فاستنفر الاجبالوس وأثاره هذا المثال الجديد لتعلقهم بابن خالته واحتقارهم لشخصه ، ومن ثم أقدم الامبراطور على معاقبة بعض قادة الفتنة . ولكن ثبت على الفور أن شدته التى جاءت فى غير أوانها ، كانت وبالا على أتباعه وعلى أمه وعلى شخصه ، فقد ذبحه البريتوريون الساخطون ، وجروا جثته المشوهة فى شوارع المدينة ، وألقوا بها فى نهر التير . ووصم السناتو ذكراه بالعار الأبدى ، وصدق الأعقاب على عدالة هذا القرار .

الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

رفع الحرس البريتورى الاسكندر على العرش مكان الاجبالوس . وكانت علاقته بأسرة سيفيروس ، التى اتخذ اسمها لنفسه ، هى علاقة سلفه بها ، وعززت فضائله وخطره بالفعل مكانته لدى الرومان ، وأغدق عليه السناتو المتلهف السخى فى يوم واحد مختلف القاب وصلاحيات السدة الامبراطورية ، ولكن لما كان الاسكندر شابا يافعا

متواضعا طيعا في سن السابعة عشرة ، فقد وضع زمام الحكم في أيدي سيدتين : أمه ماميا وجدته مايسا . وبعد موت هذه الأخيرة التي لم تعمر الا قليلا بعد توليه العرش ، بقيت ماميا وصية على ابنها وعلى بلاد آل سسكيبيو .

وكان اعقل الجنسين ، أو قل أقواهما ، في كل عصر وفي كل بلد ، يغتصب سلطة الدولة ، ويحصر الجنس الآخر في مشاغل الحياة المنزلية وملاهيها ، وبها يكن من أمر ، ففى الملكيات الوراثية ، وخاصة في أوربا الحديثة ، عودتنا روح الشهامة في الفروسية ، وقانون اعتلاء العرش أن نسمح باستثناء واحد ، وكثيرا ما اعترف بأمراة لتكون سيدة مطلقة لمملكة عظيمة ، قد نحسب أنها غير قادرة على أصفر المهام المدنية أو العسكرية . فلما كان الأباطرة الرومان لا يزالون يعتبرون القسادة والحكام في الجمهورية ، فإن زوجاتهم وأمهاتهم ، رغم تميزهن بلقب « أوجستا » ، لم يشتركن قط في مهامهم الشخصية ، ولهذا ، ربما بدا حكم النساء عى أنه هول لا يغتفر في أعين الرومان البدائيين الذين تزوجوا دون حب ، أو أحبوا دون لذة أو احترام . وتطلعت أجرينسا Agrippina المتغطرسه ، فعلا الى المشاركة في أمجاد الامبراطورية التي خلعتها على ابنها ، ولكن أطماعها الجنونية التي كرهها كل مواطن يستشعر مكانة روما ، خابت أمام الحزم البارع الذى أظهره سينيكا Seneca وبرهوس Burhus ومنع الأمراء المتعاقبين حسن ادراكهم . أو قل استهتارهم ، من الاساءة الى الآراء غير الناضجة لرعاياهم ، واحتفظ للفاجر الاجابالوس بأن يشين قرارات السناتو باسم أمه سواميا التي أجلس جنبها الى جنب مع القناصل ، ومهرت قوانين الهيئة التشريعية بوصفها عضوا منتظما . ورفضت أختها التي كانت أشد منها حرصا وروية ، هذا الامتياز الكريه العقيم ، وسن قانون صارم استبعد النساء من السناتو الى الأبد ، ونذر للآلهة الخبيثة رأس اللعين الذى يخرق هذا القانون . وكان طمع الرجولة في ماميا يهدف الى جوهر السلطة لا الى أبهتها وجمال منظرها . وكانت لها سيطرة مطلقة مستمرة على عقل ولدها ، ولم تكن لتطبيق صبرا على من يزاحمها في حبها له وتعلقها به . وتزوج الا . كندر بموافقتها من ابنة أحد النبلاء ، ولكن احترامه لصهره أو لزوجه الامبراطورة لم يكن ليتفق مع حنان ماميا ومصالحها . أما النبيل (الصهر) فقد أعدم بتهمة الخيانة المدبرة ، أما زوجة الاسكندر فقد أخرجت من القصر بالعار ثم نفيت الى أفريقية .

وعلى الرغم من هذا التصرف القاسى الذى ينم عن الحقد ، وغيره من أعمال الجشع التي اتهمت بها ماميا ، فإن طابع ادارتها كان خير

ابنها وخير الامبراطورية سواء بسواء واختارت بموافقة السناتو ستة عشر من أرجح شيوخه عقلا وأفضلهم ، وشكلت منهم مجلسا دائما للدولة تناقش أمامه أهم مسائل الساعة ويبت فيها ، وكان على رأسهم البيان Ulpian المشهور الذى تميز بحسن درايتته وباحترامه لقوانين روما . وقد أعاد حزم هذه الهيئة الأرستقراطية الحريصة المتبصرة النظام والسلطة الى الحكومة ، وسرعان ما طهر المدينة من الخرافة والبذخ الغسريين عنها ، أى مما خلفته نزوات طغيان الاجابالوس ، ثم لجأ الى ابعاد تلك المخلوقات الدنيئة من وظائف الادارة العامة ، وأحل محلهم رجالا من ذوى الكفاية والفضل . وأصبح التعليم وحب العدالة هما المؤهلين الوحيدين للوظائف المدنية ، والشجاعة وحب النظام للوظائف العسكرية .

ولكن تكوين شخصية الامبراطور الصغير كان أهم ما يشغل بال ماميا ومستشاريها ، حيث كانت سعادة العالم الرومانى أو شقاؤه يعتمد فى النهاية عليها . وعاونت التربية الخصبة - أو قل الاستعداد الطبيعى - على الغراس ، بل كفت أيدي الغارسين عن الافراط فى الجهد . ذلك أن الاسكندر سرعان ما أقنعه حسن الادراك بمزايا الفضيلة ولذة المعرفة وضرورة العمل وبذل الجهد ، كما أن الطبيعة حبه رقة واعتدالا فى المزاج عملا على حمايته من نزوات الانفعال واغواء الرذيلة ، كما وقى احترامه الذى لم يتحول لأمه وتقديره للبيان الحكيم شبابه غير المجرب من سعموم الملوك والنفاق .

ويبرز السجل اليومى لأعماله العادية صورة بهيجة لامبراطور مذهب ، وقد تكون جديرة ، مع التسامح فى بعض فوارق السلوك ، بأن يقلدها أمير حديث . كان الاسكندر يستيقظ من فومه مبكرا ، ويخصص وقت البكور لتعبده الخاص ، حيث كان معبده فى القصر زاخرا بصور أولئك الأبطال الذين ارتقوا بالحياة الانسانية أو أصلحوها ، ومن ثم استحقوا اجلال أعقابهم واعترافهم بجميلهم . ولكنه اعتبر خدمة الناس أكثر عبادة قبولاً لدى الآلهة ، فمضى معظم ساعات الصباح فى مجلسه ، حيث ناقش الشؤون العامة ، وبت فى القضايا الخاصة ، فى سهر وحصافة تفوقان سنه ، وكانت روائع الأدب تخفف من شدة العمل ، فقد كان دائما يخصص جزءا من وقته لدراساته المحببة فى الشعر والفلسفة ، وشكلت مؤلفات هرجيل وهوراس وجمهورية افلاطون وشيشرون ذوقه ووسعت مداركه ، وزودته بأنبل الفكر عن الانسان والحكومة ، وسهت رياضة جسمه الى رياضة عقله . وتفوق الاسكندر ، الطويل النشيط المقتول العضلات ، على لداته فى الالصاب

تفكر في الإمبراطورية

الفصل السابع

(٢٣٥ - ٢٤٨ م)

امبراطور من المتبربرين • الجوردانيون • فيليب العربي

من بين مختلف اشكال الحكومة التى سادت العالم ، يبدو ان الملكية الوراثية ، هى التى تمثل اليق مجال بالهزء والسخرية . وهل يمكن القول ، دون ابتسامة ساخطة . انه عند موت الاب — تؤول ممتلكات الامة — وكأنها ارث من قطيع من الثيران — الى ابنه الطفل الذى لم يعرفه الناس ، ولم يعرف هو نفسه بعد ، ومن ثم يتنحى اشجع المحاربين واحكم السياسيين عن حقهم الطبيعى فى تولى الحكم ، ويقتربون من المهد الملكى راكعين مظهرين اخلاصهم المكين ؟ وقد يصور الهجو والنقد مثل هذه الموضوعات الواضحة بالوان تبهر العيون ، ولكننا قد نحترم ، فى تفكير أكثر جدية ورزائة ، أى تحيز نافع يقرر قاعدة للتعاقب على الحكم بعيدة عن أهواء الانسان . وسنرتضى بكل سرور أية وسيلة تحرم الجماهير من هذه السلطة المحفوفة بالخطر ، والمثالية حقا ، وهى سلطتهم فى تنصيب سيد عليهم .

وقد يسهل علينا فى استجمامة هادئة أن نبتكر اشكالا خيالية للحكومة ، يسلم فيها الصولجان دائما لأجدر فرد ، عن طريق الانتخاب الحر النزيه للجماعة بأسرها ، ولكن التجربة تهدم هذه التلفيقات الوهمية ، وانها لتعلمنا أن انتخاب حاكم فى مجتمع كبير لا يمكن قط أن يؤول الى اعقل أفراد الشعب أو الى أكبر جزء منه . والجيش هو الفئة الوحيدة من الرجال الذين يتحدون بدرجة كافية ليلتقوا بعضهم مع بعض فى نفس المشاعر ، والذين تبلغ قوتهم حدا يستطيعون معه أن

يفرضوا هذه المشاعر على سائر مواطنيهم . ولكن طبيعة العسكريين التي ألفت الضعف والاستعباد معا ، تجعلهم حراسا أو حماة غير صالحين لأى دستور شرعى أو حتى مدنى ، فالعدالة أو الانسانية أو الحكمة السياسية إنما هى صفات ليس لهم بها كبير دراية فيما بينهم وبين أنفسهم ، الى حد أنهم لا يقدرونها فى الآخرين ، ان شدة البأس تكسب تقديرهم ، والسخاء يشتري أصواتهم . ولكن أولى هاتين الخلفتين غالبا ما تكون مودعة فى أشد الصدور قسوة ، وليس للثانية وجود الا على حساب الشعب ، ويمكن أن تنقلب كلتاهما على رأس صاحب العرش نتيجة لطمع منافس جسور .

أما الامتياز الأسى وهو امتياز المولد ، اذا توفر له ضمان من الزمن ومن رأى الشعب ، فهو أبسط الامتيازات وأقلها أثارة للبغضاء لدى بنى الانسان . فان الحق المعترف به يهدم آمال الفتنة ، والطمأنينة الواعية تجرد الحاكم من قسوته . وأنا لمدينون بالتوارث السلمى للعرش فى الملكيات الأوربية وباداتها الواعدة . أما ما يشوب هذه الفكرة من نقص فلا بد لنا أن ننسبه الى تلك الحروب الأهلية الكثيرة التى يضطر فيها حاكم مستبد مطلق من آسيا ، الى أن يشق طريقه نحو عرش آبائه . ان مجال التصارع حتى فى الشرق ، محصور عادة فى أمراء البيت الملك ، وجالبا يقضى المنافس الذى هو أسعد حظا على أخوته بحسد السيف أو بالقوس والنشاب ، فانه لا يعود يستشعر أى حق أو غيره من رعاية الذين هم ادنى مرتبة . ولكن بسد رموت سلطة السناتو الى الحضيض أصبحت الامبراطورية الرومانية مسرحا للفوضى والاضطراب ، وسيقت الأسرات الملكية وحتى الأسرات النبيلة فى الولايات لعهد طاريل سوفا ظافرا أمام عجلة الجمهوريين المتعالمين . وسقطت الأسرات القديمة فى روما صريعة طغيان القياصرة . وبينما غلت أيدي أولئك الأمراء بأشكال الحكومة الجمهورية (الحكم الذاتى) فى مجموعة الأمم الرومانية ، وخابت آمالهم بما أصاب ذريتهم من فشل متكرر ، كان من المتعذر أن تتأصل جذور فكرة التوارث فى أذهان رعاياهم . فادعى كل حق العرش لنفسه جدارة واستحقاقا ، لأن أحدا لم يستطع أن يطالب به بحق المولد . وتحللت آمال المطامع الجامحة من القيود السلمية للقانون ، ومن ثم قد يتعلق أخط بنى الانسان ، دون أن يكون فى ذلك أى حاسق من جانبه — يتعلق بأهداب الأمل فى أن ترفعه شجاعته وحظه الى مرتبة فى الجيش ، حيث تمكنه جريمة واحدة يقتربها من انتزاع صولجان الملك من سيد ضعيف غير محبوب . وبعد قتل الاسكندر سيفيروس واعتلاء مكسيمين Maximin لم يعد أى امبراطور يظن انه آمن فوق عرشه ،

وربما تطلع كل فلاح من المتبريرين على الحدود الى هذا المركز الرفيع المحفوف بالخطر — الى العرش .

وقبل هذا الحادث بنحو اثنتين وثلاثين سنة ، توقف الامبراطور سيفيروس ، وهو عائد من حملته في الشرق ، في تراقيا ، ليحتفل بعيد ميلاد ابنه الأصغر جيتا ، باقامة بعض الألعاب العسكرية ، وجاء الناس افواجا ليشهدوا مليكهم ، وبرز من بينهم شاب من المتبريرين ، ضخم الجسم وتوسل في لهجة خشنه أن يسمح له بالاشتراك في حلبة المصارعة بغية الحصول على الجائزة . وخيف آنذاك من امتهان النظام واختلاله اذا تغلب فلاح من تراقيا على جندي روماني ، فسمح له بدخول المباراة مع أقوى رجال المعسكر ، فطرح منهم ستة عشر على الأرض تباعا ، ولكنه كوفئ على فوزه ببعض جوائز تافهة ، وبالسماح له بالانخراط في سلك الجيش . وفي اليوم التالي أظهر المتبرير السعيد امتيازاً وتفوقاً على حشد من أقرانه المجندين حين كانوا يرقصون ويمرحون وفقاً لتقاليد بلدهم ، وما أن أدرك أنه قد جذب انتباه الامبراطور حتى لحق في الحال بجواده ، وجرى وراءه في سرعة فائقة لمسافة طويلة دون أن يظهر عليه أى أثر لاجهاد أو كلل . فقال سيفيروس في دهشة : « أيها التراقي ، هل تهمل الى المصارعة بعد هذا السباق ؟ » فأجاب الشاب الذى لم يكن قد نال منه التعب بعد : « بكل سرور يا سيدى » . وفي طرفة عين صرع سبعة من أقوى الجنود في الجيش ، فكان جزاؤه على نشاطه وبأسه الذى لا يبارى طوقاً من الذهب ، وعين فى الصال فى الحرس الراكب الذى يلازم الملك نفسه .

وانحدر مكسيمين — وهذا هو اسمه — من عرق مختلط من المتبريرين ، ولو أنه ولد بالفعل في بقعة من بقاع الامبراطورية . وكان والده من القوط ، ووالدته من أمة العلاني ، وقد أظهر في كل مناسبة جرأة تتعادل مع قوته . وسرعان ما خفت حدة شراسته الفطرية أو استترت ، بازدياد معرفته بالعالم . وحصل على مرتبة « ضابط مائة » في حكم سيفيروس وولده ، مع تقديرهما له وعطفهما عليه ، حيث كان أولهما حكماً ممتازاً على الجدارة والموهبة ، ومنع مكسيمين عرفانه للجميل من اللحاق بخدمة قائل كاراكالا ، وعلمه الشرف أن ينتزه عن اساءات الاجابالوس المخنثة ، وعاد الى البلاط عند اعتلاء الاسكندر العرش ، فوضعه الأمير في مركز يمكن أن ينتفع فيه بجهوده ، وهو كذلك مشرف لشخصه ، وسرعان ما أصبحت الفرقة الرابعة التى عين فيها في وظيفة تربيون ، احسن ثرق الجيش نظاماً بفضل عنايته . ونتيجة

لامتداح الجنود له امتداحا عاما شاملا - حتى لقد أضفوا عليه لقب
أجاكس وهرقل ، بلغ مكسيمين أرفع مرتبة عسكرية . ولولا أنه ظل
محفظا بشيء كثير من أرومته الوحشية ، فلربما زوج الامبراطور أخته
من ابن مكسيمين .

وعلقت هذه الرعاية والمنن على اذكاء روح الطمع - بدلا من الإبقاء
على الاخلاص والولاء ، في قلب فلاح تراقيا ، الذي حسب أن لحظة
لا يكافئ استحقاقه ، طالما أكره على الاعتراف برئيس أعلى منه . ورغم
أنه كان دخيلا على الحكمة الحقيقية ، إلا أنه كان له من دهائه الذاتي
ما أوضح له أن الامبراطور قد فقد حب الجيش له ، وعلمه أن يعمل
على زيادة الاستياء في الجيش من أجل مصلحته هو (مكسيمين) .
وانه لمن اليسير أن تنفث الوحشية والفتنة سببها في ادارة احسن
الأمراء ، وأن تنتهم فضائلهم عن طريق خلطها في دهاء بتلك الرذائل التي
تكون لها بها أقرب علاقة وأصفى الجنود مبتهجين الى رسل مكسيمين .
وخلجوا لصبرهم المخزي لمعة ثلاث عشرة سنة ، ذلك الصبر الذي مكن
لهذا النظام الملىء بالمضايقات . والذي فرضه عليهم هذا السوري
المخنث ، والعبد الجبان لأمه وللسنانو ، وهنا ارتفعت أصواتهم بأنه
قد حان الوقت ليتذفوا بهذا الشبح العقيم ، شبح السلطة المدنية ،
وينتخبوا كأمير وقائد لهم جنديا حقيقيا تعلم في المعسكر وتمرس في
الحرب ، يستطيع أن يؤكد مجد الامبراطورية ويوزع عليهم كنوزها .
وكان هناك آنذاك جيش متجمع على ضفاف الراين تحت قيادة
الامبراطور نفسه ، الذي اضطر بعد عودته من الحرب الفارسية الى أن
يتقدم نحو المتبربرين في ألمانيا . وكانت مهمة تدريب الجنود واستعراض
الفرق الجديدة - وهي مهمة خطيرة - موكولة الى مكسيمين . فلما
دخل هذا ذات يوم ميدان التدريب ، ما كان من الجنود ، نتيجة
دافع مفاجيء أو مؤامرة مدبرة ، إلا أن رحبوا به ابراطورا ، واستكتت
هتافاتهم العالية رفضه العنيد ، وأنهوا ثورتهم بقتل الاسكندر
سيفيروس .

واختلفت الروايات في ظروف موته ، فيقول الكتاب الذين يظنون
أنه مات وهو يجهل مطامع مكسيمين وجحوده ، أنه آوى الى فراشه
بعد أن تناول وجبة بسيطة من الطعام على مرأى من جيشه وأنه في
الساعة السابعة صباحا ، اقتحم جزء من الحرس الخيمة الامبراطورية ،
وطعنوا أميرهم الفاضل المطمئن عدة طعنات حتى مات . وإذا كان لنا أن
نصدق كاتب آخر ، وقد تكون روايته في الواقع أرجح ، فإن ثلة كبيرة
من الجيش ، على مسافة عدة أميال من مقر القيادة ، قد خلعت على

مكسيمين الحلة الامبراطورية ، وانه كان على ثقة من النجاح نتيجة للرغبات الخفية ، اكثر منه للاعلان العام للجيش الكبير . وكان لدى الاسكندر وقت كاف لابقاظ شعور هزيل من الولاء في قواته ، ولكن اقرارهم بالاخلاص سرعان ما تبدد لدى ظهور مكسيمين الذي اعلن نفسه صديقا ونصيرا للعسكرية ، واعترفت به القوات المصفقة بالاجيان امبراطورا على الرومان ، فما كان من ابن ماميا ، المنبوذ المعذور ، ازاء ذلك ، الا ان انسحب الى خيمته ، وهو راغب على الاقل في الابتعاد بمصيره المقرب من اهانات الجمهور المحتشدة . وسرعان ما تبعه تربيون وبعض ضباط المئات - وهم رسل الموت ، ولكنه بدلا من تلقي الضربة المحتومة بعزيمة الرجال ، تعالت صرخاته وتوسلاته العقيمة لمشوهد آخر لحظات حياته ، وحولت الى احتقار جزءا من الاشفاق الصادق الذي كانت توحى به براءته ونكباته . اما أمه ماميا التي اتهم كبرياؤها وجشعها بأنهما سببا في دماره ، فقد هلكت مع ابنها ، وراح اصدق اصدقائه ضحية الفورة الاولى للجنود ، وابتقى على آخرين ليكونوا طعنا مقصودا لقسوة الغاصب . اما هؤلاء الذين لقوا ارق المعاملة فقد فصلوا من وظائفهم ، وأبعدوا بطريقة مخزية عن البلاط والجيش .

لقد كان الطغاة السابقون جميعا : كاليجولا ، ونيرون ، وكومودس ، وكاراكلا - شبانا منحلين غير مجربين ، تلقوا تعليمهم في احضان العز وابهة الملك ، وافسدهم زهو الامبراطورية وبذخ روما وصوت الملق الغدار . ولكن قسوة مكسيمين كانت من منبع آخر ، ذلك هو الخوف من الازدراء به . فانه رغم ملازمته للجنود الذين احبوه لما يتحلى به من فضائل من جنس فضائلهم ، كان يفكر أن أصله المتبربر الوضع ومظهره الوحشي وجهله المطبق بفنون الحياة المدنية ونظمها ، كل أولئك شكل مفارقة شديدة جدا مع الخلق الرضى المحبوب عند الاسكندر التمس . وتذكر انه أيام حظه المتواضع كثيرا ما كان يقف على أبواب اشراف روما المتفطرسين ، وقلما كانت تسمح له وقاحة عبيدهم بالدخول . كما تذكر صداقة أفراد قلائل انتشلوه من وهدة الفقر ، ومدوا يد المساعدة لآماله المفتحة . ولكن هؤلاء الذين ترفعوا عن فلاح قراقيا ، وهؤلاء الذين بسطوا له أجنحة الحماية والرعاية - كانوا مذنبين لجريمة واحدة بعينها ، تلك هي معرفتهم بوضاعة منبته وخمول فكره أصلا . وسبق الى الموت بهذه الجريمة كثيرون ، وكأني بمكسيمين ، وقد أعدم كثيرا من المحسنين اليه ، قد سطر بالدم صفحات تاريخ خسته وجحوده .

وكانت نفس الطاغية المظلمة الجوانب المتعطشة للدم مفتحة لاية ربية تحوم حول أولئك الذين ارتفعت أقدارهم بحكم مولدهم أو مواهبهم من بين رعاياه ، فلم يطرق سمعه يوما نذر خيانة الا امن في القسوة بلا حدود وبلا رحمة . واكتشف ، أو توهم ، يوما ، مؤامرة على حياته قيل ان مدبرها هو ماجنس Magnus السناتور القنصل ، ودون شهود أو محاكمة أو فرصة للدفاع أعدم ماجنس وأربعة آلاف ظن انهم متواطئون معه . وملئت ايطاليا والامبراطورية بأسرها بالجواسيس والمخبرين . وكان أنبل الرومان الذين حكموا الولايات وقادوا الجيوش ومنحوا أرفع أوسمة القناصل والانتصارات يساقون مكبلين في الأغلال في العربات العامة ليعجل بهم الى حضرة الامبراطور . وكانت مصادرة الأموال أو النفي أو مجرد الموت ، تعتبر أمثلة شاذة لرفقه وراحمته . فقد كان يأمر بأن يخاطب بعض هؤلاء المعذبين المنكودين داخل جلود الحيوانات المذبوحة ويلقى بآخرين الى الحيوانات المفترسة ، ويضرب مريق آخر بالنباييت حتى الموت . ورفض طوال سنى حكمه الثلاث أن يزور روما أو ايطاليا ، وكان معسكره الذى ينتقل من حين الى حين بين ضفاف الراين والدانوب هو مقر حكمه المطلق الكالج الذى داس كل مبادئ القانون والعدالة ، والذى كانت تدعمه قوة واحدة معترف بها هى قوة السيف . ولم يطق أن يرى الى جانبه رجلا كريم المحتد ، أو ذا أعمال جليلة ، أو ذا دراية بالشئون المدنية . وبعثت حاشية امبراطور الرومان الفكرة القديمة عن رؤساء العبيد والجلادين ، الذين خلقت قوتهم الوحشية أثرا عميقا من الارهاب والكرهية .

وطالما كانت قسوة مكسيمين مقصورة على مشاهير رجال السناتو ، أو حتى على المفامرين الجسورين فى الجيش أو البلاط ، الذين عرضوا أنفسهم لنزوات الحظ ، فقد نظر جمهور الشعب الى ما يكابدونه فى استهتار ، أو قل فى سرور ومرح ، ولكن رغبات الجنود التى لا تشبع أهاجبت جشع الطاغية حتى سطا فى النهاية على الأموال العامة . ذلك أنه كان لكل مدينة فى الامبراطورية مورد مستقل مخصص لشراء الغلال من أجل الجمهور ، أو لتغطية نفقات الألعاب والحفلات ، فعبد الطاغية بقرار واحد من قرارات السيادة الى مصادرة كل الثروة فى الحال لمصلحة الخزانة الامبراطورية . فانتزع من المعابد أثمن الهدايا والقربان من الذهب والفضة ، وصهرت تماثيل الآلهة والأبطال والاباطرة وسكت نقودا . ولم تنفذ هذه الأوامر المفاجرة دون شغب أو مذابح ، حيث أثر الشعب فى أماكن كثيرة أن يموت دفاعا عن معابده ، على أن يرى المدائن معرضة فى هدوء للسلب والنهب وفظائع الحرب . وحتى الجنود الذين

وزعت عليهم هذه الاسلاب المدنسة تقبلوها في خجل ، كما أوجسوا خيفة ، وهم الذين تحجرت قلوبهم بأعمال العنف ، من التآبيب العسائل من أصدقائهم وأقربائهم ، ودوت في العالم الرومانى صيحة الاستياء العام ، تهيب بالانتقام من العدو المشترك للجنس البشرى ودفعت الى الثورة دفعا ولاية مسالمة عزلاء من السلاح ، بسبب قرار ظالم خاص بها .

ذلك أن مراقب امريقية كان خادما يليق لمثل سيده الذى اعتبر تخريماً الأثرياء ومصادرة أموالهم من أغنى مصادر الدخل الامبراطورى . وصدر ضد جماعة من الثببان الأثرياء . حكم جائز ، لو تم تنفيذه لتجردوا من الجزء الأكبر من ثروتهم . وفى غمرة اليأس صح عزمهم على أمر قد يكون فيه انقاذهم أو القضاء المبرم عليهم . ذلك أنه أمكنهم الحصول بعد لآى من الصراف الجشع على مهلة قدرها ثلاثة أيام جمعوا فيها عددا كبيرا من العبيد والفلاحين من ضياعهم ، وهؤلاء العبيد والفلاحون ينصاعون لأوامر ساداتهم انصياعا أعمى ، ويحملون أسلحة ساذجة من النباييت والبلط ، فلما سمح لزعماء المؤامرة بالدخول على الحاكم ، أعملوا فيه الطعن بخناجرهم المخبأة تحت ملابسهم واستطاعوا بمعونة الجوع المشاغبة أن يستولوا على المدينة الصغيرة تسدرس Thysdrus (كانت سوقا تجارية فى تونس) ورفعوا راية العصيان ضد سيد الامبراطورية الرومانية ، وبنوا آمالهم على كراهية الناس لكسيمين . فاعتزموا فى فطنة وترو أن يضربوا الطاغية البغيض بامبراطور حظيت مزاياه فعلا بتقدير الرومان وحبهم ، كما أن سلطانه فى الولاية لأبد وأن يضافى على المشروع وزنا وتمكينا ، لقد وقع اختيارهم على جورديانوس — البروقنصل ، ولكنه رفض فى إباء خالص لا تصنع فيه ، هذا الشرف المحفوف بالخطر ، وتوسل اليهم وهو يذرف الدمع أن يسمحوا له بأن ينهى حياته الطويلة البريئة فى هدوء دون أن يلمح أيامه الأخيرة بسدم الانسان ، ولكنه — ازاء تهديداتهم — قبل الحلة الامبراطورية ، والحق أنه لم يكن الا القبول ملجأ له من قسوة مكسيمين الحاقدة ، تمشيا مع منطق الطغاة الذى يقول : انما يستحق الموت من هم فى نظر الناس جديرون بالعرش ، أما أصحاب العقول المنكرة فهم فى نظره ثوار » .

الجورديانيون

كانت أسرة جورديان من أبرز الأسر في السنين الروماني . ويمتد أصله من جهة أبيه إلى جراكى ، ومن جهة أمه إلى الإمبراطور تراجان ، وكانت له ضيعة كبيرة مكنته من تدعيم كرم محتده ، وقد أظهر في مباشرتها ذوقا عاليا ونزعة خيرة . وكانت أسرة جورديان ، لعدة أجيال مالكة لقصر روما الذى سبق أن أقام فيه بومبي الكبير ، وكان القصر مشهورا بالانصاب التذكارية القديمة للانتصارات البحرية ، ومزدانها بالرسوم الحديثة . أما فيلا جورديان - على الطريق إلى برانست Pareneste فقد اشتهرت بحماماتها الفريدة في جمالها واتساعها ، وبثلاث حجرات ضخمة طول الواحدة منها مائة قدم ، وبرواق ضخم مقام على مائة عمود من أعلى وأروع أنواع الرخام الأربعة . وكان يبدو أن الحفلات التي أقيمت على نفقته الخاصة ، والتي ظهر فيها مئات من المجالدين والحيوانات المتوحشة ، تتجاوز حدود ثروة فرد من الرعية . وعلى حين لم يتعد سخاء الحكام الآخرين إقامة بعض حفلات وقورة في روما ، تكررت حفلات جورديان الضخمة مرة كل شهر في روما عندما كان مكلفا بالأشغال العامة ، واهتدت إلى مدن إيطاليا الرئيسية عندما كان قنصلا ، وقد رفع إلى هذه المرتبة مرتين على عهد كساراكلا والاسكندر ، لأنه كان ذا موهبة خارقة في كسب تقدير الأمراء الأفاضل ، دون أن يثير حفيظة الطغاة . وقضى حياته الطويلة ببساطة في دراسة الآداب وفي الأعمال السلمية المجيدة في روما ، ويبدو أنه رفض في حرص قيادة الجيوش أو حكم الولايات ، حتى عين « بروقنصل » في أفريقية بناء على رأى السناتو وموافقة الاسكندر . وكانت أفريقية سعيدة طوال حكم الاسكندر ، تحت إدارة مثله الممتازة فلمسا اغتصب مكسيمين المتبربر العرش ، خفف جورديان من أمر المصائب التي كان عاجزا عن ردها . وكان عمره ، يوم قبل الحلة الامبراطورية على مضض ، أكثر من ثمانين عاما ، فكان آخر خلف عظيم من عهد الانطونيين الزاهي ، الذى أحيا هو فضائله في سلوكه الخاص ، وخلد ذكرها في قصيدة عامرة سجلها في ثلاثين كراسة . ومع البروقنصل المحترم أعلن ابنه امبراطورا كذلك ، وكان يرافق أباه من قبل بوصفه نائبا له . وكان سلوكه أقل نقاوة ، ولكن شخصيته محبوبة مثل أبيه ، وكانت له اثنتان وعشرون خليفة معترف بهن ، كما كانت لديه مكتبة تضم اثنين وستين ألف مجلد ، مما يدل على تنوع ميوله ، ويتضح من الانتاج الذى تركه وراءه أن الخليلات والكتب كانت تخدم غرضا ، أكثر منها مجرد التباهى والتظاهر . وتبين الشعب الروماني في ملامح جورديان الصغير شبه سكيبيو الأفريقي

وتذكروا في ابتهاج أن امه كانت ابنة انطونينوس بيوس الكبرى ، وعقدوا الآمال على هذه المزايا الكائنة التي ظلت — كما حلا لهم أن يتصوروا — مختلفة حتى الآن بين طيات الخمول المترف في حياة خاصة .

ونقل الجورديانيون بلاطهم الى قرطاجة ، حالما أخذوا الهياج في أول انتخاب شعبي . واستقبلتهم هتافات الأفريقيين الذين مجدوا فضائلهم . والذين لم يشهدوا منذ عهد هادريان عظمة امبراطور روماني . ولكن هذه الهتافات العقيمة لم تقو ولم تثبت لقب الجورديانيين . وكانوا مدفوعين بحكم المبدأ وبحكم المصلحة معا الى التماس موافقة السناتو ، ومن ثم أرسل دون ابطاء ، وفد من علية القوم في الولاية ، الى روما ليروي القصة ويبرر تصرف مواطنيه الذين صمموا في النهاية على العمل في عزم وشدة ، بعد أن صبروا على الشقاء طويلا . وكانت رسائل الأميرين الجديدين متواضعة وقسورة ، تلتبس العذوة للضرورة التي جاءت بها الى قبول اللقب الامبراطوري ، مع اخضاع انتخابها ومصيرها للرأي الأعلى للسناتو .

ولم يشب اتجاهات السناتو أي شك أو انقسام ، فإن المولد والروابط الكريمة قد وثقت العلاقة بين الجورديانيين وبين المع بيونات روما . وقد خلق ثراؤهم اتباعا كثيرين لهم في المجلس . كما جذبت مواهبهم اليهم أصدقاء كثيرين ، وساعدت ادارتهم المعتلة على التطلع البراق الى استعادة — لا الحكومة المدنية فحسب ، بل الحكومة الجمهورية كذلك . وانك لتجد الآن أن ارهاب العنف العسكري — الذي أرغم السناتو في البداية على نسيان قتل الاسكندر والتصديق على انتخاب ملاح متبربر — قد أتى بنتيجة عكسية ، وحفز على تأكيد حقوق الحرية والانسانية التي سبق اهدارها والاساءة اليها . حيث كانت كراهية مكسيمين للسناتو سافرة لا تفتقر ، ولم يكن أرق السوان الخضوع ليخفف من حدته ، كما لم تكن البراءة الحذرة لتزيل شكوكه ، بل أن حرصهم على سلامتهم أغراهم بالاسهام في مشروع يثقون في أنهم سيكونون أول ضحاياه إذا لم يكتب له النجاح . وكانت هذه الاعتبارات وربما غيرها ، مما قد يكون لها طبيعة أخص ، قد نوقشت في مؤثر سابق للفتايل والحكام . ولما انتهوا من وضع قرارهم ، دعوا السناتو بكامل هيئته الى الاجتماع في معبد كاستور Castor ، طبقا لتقليد قديم من السرية ، وذلك لاثارة انتباههم وكتمان قراراتهم . وقال القنصل سلانوس Syllenus : « أيها الأعضاء : ان الجورديانيين — وكلاهما من مرتبة القنصل : بروقنصل ونائبه — قد أعلنتهما أفريقية امبراطورين بموافقة عامة » . وأضاف في جراءة : « فلنقدم الشكر الى

شباب تسيدروس Thysdrus ولشعب قرطاجة المخلص ، وهم متفنون الكرام من المارد الرهيب . لماذا تصفون الى بفتور وفي جبن هكذا ؟ ولماذا تلقون هذه النظرات القلقة بعضكم على بعض ؟ فيم نترددون ؟ . ان مكسيمين عدو للشعب ، ولتنقض عداوته باتقضائه ، ولننعم طويلا في ظل روية وتبصر جورديان الأب وغبطته ، وفي ظل عزم جورديان الابن ووفائه » . وأحيت حماسة القنصل الكريمة روح السناتو الخادمة ، وصدق بالاجماع على قرار انتخاب الجورديانيين . وأعلن أن مكسيمين وابنه واتباعه أعداء لبلادهم . ووعد بمكافآت سخية لمن يجد في نفسه الشجاعة ويواتيه الحظ للقضاء عليهم .

وفي أثناء غياب الامبراطور بقيت فرقة من الحرس البريتوري ، في روما لتحمي العاصمة أو بالاحرى لتتولى زمام السلطة فيها . وتميز اخلاص فيناليانوس ، رئيس حرس مكسيمين ، بخفته ومسارعته الى اطاعة الأوامر القاسية للطاغية ، بل في التحيلولة دونها . والحق أن موته (رئيس الحرس) كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ سلطة السناتو من التوقف ، وانقاذ حياة أعضائه من الخطر المحدق بهم . وقيل أن يذبح السناتو قراراته ، وكل الى ضابط من الفرسان وبعض الثريون الاضطلاع بمهمة القضاء على حياته الفانية ، ووقفوا في تنفيذ هذا الأمر في جراحة لا يعدها الا توفيق السناتو وجراته في القرار الذي اتخذه . ثم جروا في الشوارع بخناجرهم الملطخة بالدماء في أيديهم يعلنون للشعب وللجيش أبناء الثورة السعيدة ، وضاعفت الوعود باغداق المال والأرض من الحماس للحرية ، وحطمت تماثيل مكسيمين ، راقرت العاصمة في فرح وابتهاج سلطة الجورديانيين والسناتو ، وحذت بقية مدن ايطاليا حذو العاصمة .

وظهرت روح جديدة في هذا المجلس الذي عيل صبره الطويل بالاستبداد الرهيب والفوضى العسكرية . وتسلم السناتو مقاليد الحكم ، واستعد في جراحة هائلة لتأييد قضية الحرية بقوة السلاح . وكان من السهل اختيار عشرين من بين الشيوخ القناصل الذين كانوا مقربين لدى الامبراطور الاسكندر بسبب مواهبهم وخدماتهم ، ممن يضارع بعضهم بعضا في القدرة على قياد الجيوش وادارة الحروب ، وقد عهد الى هؤلاء بالدفاع عن ايطاليا . وعين كل منهم ليعمل في دائرة معينة ، وخول تجنيد شباب ايطاليا وتنظيمه ، وأمر بتحسين الموانئ والطرق ضد أي غزو متوقع من جانب مكسيمين ، واختير عدد من النواب من أبرز شخصيات السناتو والضباط ، وأوفدوا في نفس الوقت الى حكام

الولايات المختلفة يناشدونهم أن يسارعوا إلى تجدة بلدهم ، ويذكرون الامم بروابط الصداقة القديمة بينهم وبين السناتو والشعب الرومانى . ويدل الاحترام العام الذى قبول به هؤلاء المبعوثون ، وتحس ايطاليا والولايات للسناتو ، على أن رعايا مكسيمين قد اشتد بهم الكرب الى حد غير عادى ، أصبح معه جمهور الشعب يخشى الجور والظلم أكثر مما يخشى المقاومة . وقد أذكى الشعور بهذه الحقيقة المريرة الاليمة روح المثابرة على الهياج والغضب ، بدرجة قل أن توجد فى مثل هذه الحروب الالهية التى تشعل نيرانها بطرق مصطنعة لمصلحة بعض الزعماء المدبرين المشاغبيين .

ولكن بينما قوبلت قضية الجورديانيين بحماس شامل ، نجد أنهم هم أنفسهم لم يعد لهم وجود ، فقد روع بلاط قرطاجه الضعيف بالتقدم السريع لحاكم موريتانيا : كابلانيوس Capelianus الذى شن بعصاة صغيرة من المحاربين المحنكين وجيش متوحش من المتبريرين ، هجومه على ولاية مخلصه ، ولكن غير محاربة . وخرج جورديان الأصغر للامانة العدو على رأس عدد قليل من الحرس وجمهور غير منظم ممن تريوا فى أحضان الترف والهدوء فى قرطاجه . ولم تجد جرأته العقيمة الا فى انها هيات له ميتة شريفة فى ساحة الوغى . أما ابوه الشيخ العجوز الذى لم تتجاوز فترة حكمه ستة وثلاثين يوما ، فإنه وضع جدا لحياته لدى سماعه بأول انباء الهزيمة . وفتحت قرطاجه الخالية من وسائل الدفاع ابوابها للفتح ، وتعرضت افريقية بأسرها لقساوة رهبة من عبد كان لزاما عليه أن يرضى ويشبع نهم سيده الذى لا يرحم ، بأكثر قدر من السدم والمال .

انبرى السناتو الآن لمقاومة مكسيمين ، وانتخب امبراطورين
مشتركين بيوبيئوس Papienus (ورد فى كتاب جيون مكسيموس)
وبالبيينوس Balbinus وأعاد مكسيمين السدة لدخول ايطاليا بطريقة تعيد الى الأذهان صورة غزوات المتبريرين .

تميز مكسيمين من الغيظ حين تعاقبت الثورات فى روما وافريقية بهذه السرعة ، وقيل انه لم يتلق انباء ثورة الجورديانيين وقرار السناتو ضده بمزاج رجل ، بل بغضبة وحش مفترس عاجز عن أن يصب جام غضبه على السناتو البعيد عنه ، وهدد بالانقضاء على ابنه وأصدقائه وكل من يجسر على الاقتراب منه ، وسرعان ما أعقب النيا السعيد بموت الجورديانيين ، التوكيد بأن السناتو — وقد ودع كل أمل فى العفو أو التوفيق ، قد وضع مكانهما امبراطورين آخرين لا يمكن أن يجهل

هو مواهبها وقدرتها. . ولم يبق لمكسيمين من عزاء الا الانتقام ، وليس من وسيلة للانتقام الا السيف . وكان الاسكندر قد جمع قواته من مختلف ولايات الامبراطورية ، وقد رفعت حملات ثلاث مظفرة ضد الالمان والسارماتيين من ذكر هذه القوات ودعمت نظامها ، بل حتى زادت من اعدادها عن طريق ملء المناصب بزهرة شباب المتبريرين . وكان مكسيمين قد قضى حياته في الحرب ، ولن يستطيع التاريخ في صراحته القاسية ان يغمطه حق في عزمة الجندي بل في مقدرة القائد المحنك . وكان من الطبيعي أن يتوقع من امير على هذا الخلق — بدلا من السماح للثوار بتدعيم أنفسهم بمثل هذا الإبطاء — أن يسارع على الفور بمغادرة ضفاف الدانوب الى ضفاف التير . وان جيشه — وقد أغرته السخريه من السناتو ، وهزه الشوق والظلف على ججع الأسلاب والغنائم من ايطاليا ، ليتحرق لها على انجاز هذه الغزوة اليسيرة الراحه . ولكن يبدو — قدر ما نستطيع الركون الى التسلسل الغامض لتاريخ تلك الحقبة — أن عمليات حرب خارجية أجلت الحملة الايطالية الى الربيع التالي . وقد تبين من سلوك مكسيمين الذى يتسم بالروية والتبصر أن جوانب الوحشية والشراسة مبالغ فيها بدافع التحيز ، وأن مشاعره مهما كانت عنيفة ، خضعت لقوة المنطق ، وأن الرجل المتبرير كان يتحلى بشئ من روح سلا Sylla الكريمة ، ذلك الذى أخضع اعداء روما قبل أن يستمع لنفسه بالثار لما لحق به هو نفسه من اذى .

ولما وصلت قوات مكسيمين — في نظامها الرائع — الى سفوح الالب اليونانية ، روعوا وذعروا للسكون والوحشة اللذين سادا الحدود الايطالية . وهجر السكان القرى والمدن المفتوحة عند اقترابهم منها . كما سحبت منها الماشية ، ونقلت المؤن وأتلفت ، ودمرت الجسور ، ولم يبق ثمة شئ يأوى اليه الغزاة أو يتبلغوا به . تلك كانت الأوامر الحكيمة الرشيدة التى أصدرها ثواد السناتو ، الذين كان من خطتهم أن يطيلوا أمد الحرب ، ويحطموا جيش مكسيمين بالمجاعة ويستنزفوا قوته في حصار المدن الرئيسية في ايطاليا ، وقد زودت هذه المدن بالوفير من الرجال والمؤن من البلاد المهجورة . وتلقت اكويليا أول ضربة وتصدت لها . وفاضت بذوبان ثلوج الشتاء المجارى المائية التى تخرج من اعلى رأس بحر الادرياتيک ، وشكلت عقبة غير متوقعة أمام جيش مكسيمين ، ولكنه في النهاية ، وعلى جسر واحد أقيم بصعوبة وبمهارة وفن ، من البراميل الكبيرة ، نقل جيشه الى الضفة المقابلة ، واقتلع الكروم الجبيلة ، في ضواحي اكويليا ، وهدم الضواحي واستخدم أخشاب المباني في الآلات والأبراج التى هاجم بها المدينة من كل جانب .

وكانت الاسوار آيلة الى السقوط لطول عهدها بالامن والسلاام ، فجرى ترميمها على عجل لمناسبة هذه الضرورة المفاجئة ، ولكن الحق ان اصلب دفاع عن المدينة يكمن فى ثبات اهليها ، فان الخطر المحقق بهم ، ومعرفتهم بمزاج الطاغية الذى لا يرحم — بدلا من أن يروهم ويفزعهم — ايقظهم والهبهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وكان كرسبينوس Crispinus ومينوفيلوس Menophylus — وهما من نواب السناتو العشرين — يدعمان شجاعتهما ويوجهانهما ، وقد استطاعا بقوة صغيرة من الفرق النظامية أن يلغوا بأنفسهم وسط المكان المحصور ، وصد جيش مكسيمين فى هجمات متكررة ودبرت آتاه بها امطروها به من نيران صناعية . وارتفع الحماس الكريم الذى عم اهل اكويلا الى ثقة بالنصر حين وتر فى اذهانهم أن بيلينوس Belenus الاله الحارس ، قاتل بنفسه دفاعا عن عبادة المكروبين .

ونظر الامبراطور مكسيموس الذى كان قد وصل الى رافنا Ravenna ليستحوذ على هذا المكان الهام ويعجل بالاستعدادات العسكرية — نظر الى قيام الحرب ، بمنظار أكثر اخلاصا وامانة ، منظار المنطق والسياسة . فادرك كل الادراك ان اية مدينة واحدة لن تستطيع ان تقاوم الجهود الدائبة لجيش كبير . كما خشى أن يفض العدو الذى سئم مقاومة اكويلا الحصار العقيم فجأة ، ويسير قدما نحو روما . ومن ثم يعتمد مصير الامبراطورية ومصير قضية الحرية على نتيجة معركة ، واية قوات يمكن أن تتحدى وتتحدى لفرق الراين والدانوب المحنكين ؟ لقد جندت بعض الفرق حديثا من شباب ايطاليا البكرين المنهوك ، كما كانت هناك قوات مساعدة من الألمان من الخطر أن يوثق بصمودهم فى ساعة العسرة . وفى وسط هذا الذعر والفزع ، كالت مؤامرة داخلية لمكسيمين ضربة كانت عقابا وفاقا لما اقترف من جرائم ، وخلصت روما والسناتو من الكوارث التى كان من المحقق أن تحصل فى أعقاب انتصار المتبربر الغاصب .

ذلك ان اهل اكويلا الذين لم يذوقوا بالكاد ويلات الحصار المألوفة كانت حوانيتهم مزودة خير تزويد وأوفره . كما أمدتهم النافورات الموجودة داخل الاسوار بمعين لا ينضب من الماء العذب . وعلى البقيس من ذلك كان جنود مكسيمين ، الذين تعرضوا لقسوة الطقس وعدوى المرض وارهاب المجاعة . وخرب الريف المكشوف المنبسط ، وامتألت الانهار بجثث القتلى ، وتلوثت مياهها بدمائهم وبدأت روح اليأس والكراهية تنتشر بين الفرق ، ولما كانوا منقطعين انقطاعا تاما غير الاخبار ، فقد سهل عليهم أن يصدقوا أن الامبراطورية بأسرها وقفت فى

صف السناتو . وأنهم قد تركوا ضحايا هالكة يقضون نحبهم تحت أسوار
أكويليا التي يتعذر اختراقها . وهاجبت شراسة الطاغية للخيبة والياس
الذين نسبها الى جبن الجيش . وأثارت مشوئه الرهيبة التي لا تتحىن
الوقت المناسب . كراميته ورغبة صادقة في الانتقام ، بدلا من أن
تقضى على الفزع والرعب . وفنذ جماعة من الحرس البريتورى — كانوا
يرتعدون خوفا على زوجاتهم وأولادهم في معسكر الباقى قرب روما —
حكى السناتو . ولما تخطى عن مكسيمين حراسه ، ذبح في خيمته مع ابنه
(الذى كان رشحه للسدة الامبراطورية) وأنولينوس Anulinus
رئيس الحرس ، ووزراء الطاغية الأساسيين . وأقنعت رعوسهم المعلقة
على الحراب اهل أكويليا بأن الحصار قد انتهى . وفتحت أبواب المدينة
وأقيمت مؤائد سخية لفرق مكسيمين الجائعة وشارك الجيش بأسره في
اعلان الولاء في هيئة ووقار السناتو ولشعب روما وللإمبراطورين
الشرعيين مكسيموس وبالبينوس . وكان هذا هو البصير الجدير
بوحش كاسر ، مجرد كما كانوا يبتلون دائما ، من أية عاطفة يتميز بها
النسان متهمين ، أو قتل أى انسان كائنا من كان . وكان جسمه يتفق
مع نفسه ، فقد جاوزت قائمة مكسيمين ثمانية أقدام ، وقد روى ما لا يكاد
يصدق عن قوته وشهيته في الأكل ، ولو أنه عاش في عصر أكل استنارة ،
لنلتقه الثقاليذ والأشجار على انه شيطان مارد استخدم قوته الخارقة في
تحطيم البشر .

ومن اليسير أن ندرك ، أكثر من أن تصف ، ما غم دنيا الرومان
من فرح وسرور لسقوط الطاغية . وقيل أن وصول ابنائه من أكويليا الى
روما استغرق أربعة أيام . وعاد مكسيموس في موكب ظافر ، وخف
لاستقباله زميله جورديان الأصفر ، ودخل الأمراء الثلاثة العاصمة ،
وفي ركابهم مبعوثو كل مدن ايطاليا تقريبا . وقد استقبلوا بأروع مظاهر
التقدير والتقدير وأصدق هتافات السناتو والشعب ، الذين منوا
انفسهم بأن عصرا ذهبيا سيعقب عصر الحديد . والحق أن سلوك
الامبراطورين كان يلتئم مع هذه التمنيات . فقد توليا القضاء
شخصيا ، وخفف حلم الواحد منهما من عنف الآخر . وقد ألغيت ، أو على
الأقل عدلت الضرائب الجائرة التي كان مكسيمين قد فرضها على حقوق
الوراثة والأيلولة ، وأعيد النظام ، وسن الوزراء الامبراطوريون بمشورة
السيناتو حثرا من القوانين الحكيمة محاولين بذلك اقامة دستور مدنى
على انقاض الطغيان العسكرى . وسأل مكسيموس يوما في جو مشبع
بالحرية والثقة : « أى جزاء تنتظر من وراء تخليص روما ؟ » فكان
جواب البينوس بلا تردد : « حب السناتو والشعب والجنس البشرى

يأسره » . فأردف زميله الذى هو أعمق فكراً « وأسفاه واحسرتاه !
انى لأخشى كراهية الجنود والنتائج الويلية لاستيائهم ! » .

بعد فترة وجيزة من موت مكسيمين ، نبج البريتوريون بيوبينوس
Pupienus وبالبينوس ، وبعد حكم جورديان الثالث الذى لم يدم
طويلاً . خلع الجنود الحلة الامبراطورية على « فيليب » وهو عربى
المولد .

فيليب العربى

عندما عاد فيليب من الشرق الى روما ، اشتدت به الرغبة فى محو
ذكريات جرائمه ، وفى كسب محبة الشعب . فعهد الى احاطة حفلات
الالعب القرنية (التى تقام كل مائة سنة) بكل مظاهر الابهة والعظمة .
وقد احتفل بها — منذ انشأها أو احيائها أوغسطس — كل من كلوديوس
ودوميتيان وسيفيروس ، والآن تتجدد للمرة الخامسة لمناسبة مرور
الف سنة على تأسيس روما . وكانت فرصة هذه الالعب تنفهر بمهارة
لتعبئة العقلية الخرافية بأعمق الاحترام . والحق ان الفترة الطويلة بين
هذه الالعب تجاوز دورة الحياة الانسانية ، ولم يكن أى من المتفرجين
قد شهدا بالفعل ، ومن ثم لا يعلى أحد نفسه بالأمل فى رؤيتها مرة
ثانية . وكانت القرابين الخفية الرمزية تقدم فى ثلاث ليال على ضفاف
التبير وكانت ساحة مارشيسوس تعج بالموسيقى والرقص ، وتضاء بعدد
لا يحصى من المصابيح والمشاعل . ولم يرخص للعبيد والفرياء فى
الاشتراك فى هذه الحفلات الوطنية . وكانت هناك فرقة من سبعة وعشرين
شاباً وعدة عذارى من أنبل العائلات ممن لا يزال والدوهن
أحياء — تنشد الأبتهاالات الى الآلهة العطوفة من أجل الحاضر ، ومن
أجل الأجيال الصاعدة ، وتتوسل اليها فى ترانيم دينية أن تحافظ على
الفضيلة وعلى الغبطة وعلى امبراطورية الشعب الرومانى طبقاً لما نزل
يه الوحي القديم . وقد بهرت عظمة الاستعراضات — بحفلات التى
اقامها فيليب أعين الناس ، وانصرف الأتقياء الورعون الى ممارسة
الطقوس الخرافية ، بينما تدبرت القلة المفكرة فى عقولها القلقة ماضى
الامبراطورية ومستقبلها .

وقد انقضت الآن عشرة قرون منذ اتخذ روميلوس

Romulus مع عصابة صغيرة من الرعاة والخارجين على القانون ، مقرا حصينا لهم
على التلال القريبة من نهر التبير ، وفى الأجيال الأربعة الأولى من هذه
الحقبة ، وفى مدرسة الفقر الشاقة المجهدة ، حصل الرومان مزايا
الحرب والحكم . وعن طريق الممارسة الجادة العنيفة لهذه الفضائل ،

وبمساعدة الحظ ، كسب الرومان في غضون القرون الثلاثة التالية امبراطورية مطلقة السلطان على بلاد كثيرة في أوروبا وآسيا وأفريقية . أما ثلاثئة السنة الأخيرة فقد كان طابعها ازدهاراً ظاهرياً ، واضمحلالاً داخلياً . أما أمة الجنود والحكام والمشرعين التي كانت قبائل الامبراطورية الرومانية البالغ عددها خمسا وثلاثين قبيلة فقد ذابت في كتلة الجنس البشرى ، واختلطت بملايين التابعين الأذلاء من أهل الولايات الذين أخذوا اسم الرومان دون أن يقتبسوا الروح الرومانية ، وكان جيش المرتزقة الذي تكون من الرعايا ومن المتبريرين على الحدود، هو الطبقة الوحيدة من الرجال الذين حافظوا على استقلالهم واستقلاله . وعن طريق انتخاباتهم التي يسودها الشغب حظى السورى والقوطى والعربى بشرف التربع على عرش روما ، وزود بالسلطة المطلقة على الفتوحات وعلى بلاد آل سكيبو .

وكانت حدود الامبراطورية لا تزال تمتد من المحيط الأطلسى الى الدجلة ، ومن جبال أطلس الى الراين والدانوب . وكان فيليب يبدو في عين الساذج الأحق الذى يحسن التمييز ، ملكا لا يقل قوة عن هادريان وأوغسطس . وبقي الشكل كما هو ، ولكن ولت الضحة والقوة اللتان تبعثان النشاط والانتعاش . وثبطت ألوان الظلم همة الشعب واستنزفت جهوده ، وأفسد طمع الأباطرة نظام الجيش ، كما كان ضعفهم سببا في تراخي هذا النظام الذى كان يمكن أن يكون دعامة عظيمة الدولة ، اذا ما تبخرت كل الفضائل والمزايا الأخرى . أما قوة الحدود التى كانت تتركز دائما على الفرق أكثر منها على التحصينات ، فقد تقوضت بطريقة غير ملموسة ، وتعرضت أجمل الولايات لسلب المتبريرين وطمعهم ، وهم الذين تبينوا بسرعة اضمحلال الامبراطورية الرومانية .

وبينما كانت حروب الحدود لزمناً طويلاً هي الشغل الشاغل للحكومة الامبراطورية دوماً فإن الفزوات الكبرى للمتبريرين ، التى كانت الآن في ذروتها - كانت نتيجة لامتناب جديدة ، ففي الشرق انتهت قوة أسرة أرشك The Archuk في بارتيا. ولكن جاء التهديد الجديد من فارس . أما في الحدود الشمالية فقد تجمعت الآن شعوب ألمانيا الشرقية ، وهى الشعوب التى لم تكن ألفت الرومان بعد ، وقد اخصص جيبون الفصلين الثامن والتاسع لهذه الموضوعات .

الفصل العاشر

(٢٥٣ - ٢٦٨ م)

الكوزات العاصه فى عهد فاليريان وجالينوس

غارات القوط ، غزو الفرس لأرمينيا ، وأسرة فاليريان

قتل فيليب فى ٢٤٩ ، وأعقبه دكيوس ، وهو رجل قدير ، قساد الحرب ضد القوط ولكنه قتل هو وابنه فى المعركة فى دبرودسكا . وتوالت بعد ذلك فى تعاقب سريع عهود جالوس وأميليانوس ، وفى ٢٥٣ أصبح فاليريان امبراطورا ، وسرعان ما اشرك ابنه جالينوس . وقد أورد جيبون سيرة جالينوس بشكل يحط من قدره على طول الخط ، ولكن النقاد الحديثين ردوا اليه باعتباره . ومهما يكن من أمر ، فإن الصورة التى رسمها جيبون للكوارث فى عهد فاليريان وجالينوس صادقة .

كان فاليريان فى نحو الستين من العمر حين اعتلى العرش ، لا نتيجة لخطرات من وساوس الشعب أو هتافات الجنود ، ولكن باجماع العالم الرومانى بأسره . وقد استحق طوال تدرجه فى مناصب الدولة حب أفاضل الأمراء ، كما أعان فى كل مناسبة انه عدو للطغاة . وقد وجد فيه السناتو والشعب كريم محتده وخلقه المعتدل النقى وعلمه وتبصره وخبرته ، وكما قال أحد الكتاب القدامى : لو ترك الجنس البشرى حرا فى اختيار سيد له ، لوقع اختياره بكل تأكيد على فاليريان . وربما كانت مواهب هذا الامبراطور غير متكافئة مع شهرته ، أو كانت قدراته ، أو على الأقل روحه متأثرة بما يقتنن بكبر السن من ضعف وفنور ، وقد أدى به شعوره بالاضمحلال الى ان يجعل له على العرش شريكا أصغر سنا وأكثر نشاطا . وكانت ظروف الحال تتطلب قائدا كما تتطلب بنفسه القدر ملكا . وربما كان حريا بالرقيب الرومانى أن تهديه تجاربه الى أين يتجه ، ليخلع الحلة الامبراطورية على من تؤهله لها الموهبة العسكرية ، ولكن فاليريان بدلا من الاختيار السليم الذى قد تبنت

ملكه ويخلد ذكره ، انتقاد لما أملاه عليه الحب أو الغرور ، فأضفى في الحال على ابنه جالينوس هذا المجد الفاهر ، وهو شاب استتريت رذائله الانثوية تحت غموض الحياة الخاصة . وبقيت الحكومة المشتركة بين الوالد والولد سبع سنين ، وانفرد جالينوس بالادارة نحو ثمانى سنين . ولكن الفترة كلها — فترة الخمسة عشر عاما — كانت سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والكوارث . ولما كانت الامبراطورية الرومانية قد انقضت عليها في نفس الوقت ، ومن كل جانب ، غزاة أجنبية في غارات رهبة عاتية ، كما اجتاحتها الأطماع الوحشية للغاصبين المحليين — فاننا لن نحيد عن جادة النظام والوضوح ، اذا نحن لم نتبع كثيرا الترتيب الزمنى المشكوك فيه ، وتتبعنا التقسيم الطبيعى للموضوعات . وكان الد أعداء روما في عهد فاليريان وجالينوس هم :

١ — الفرنجة ، ٢ — الألمان ، ٣ — القوط ، ٤ — الفرس . ويمكن أن ندرج تحت هذه التسميات العامة مغامرات قبائل أقل أهمية لن يكون في ذكر أسمائها الغامضة الثقيلة الا ارهاق لذاكرة القارئ ، وتشثيت لانتباهه .

١ — لما كان نibel الفرنجة وذراريهم يكونون اليوم امة من اكبر امم أوربا وأعظمها استنارة فقد استنفدت كل قوى العلم وكل البراعة في الكشف عن أسلافهم الأميين . وجاءت أساليب الخيال بعد القصص الساذج . ونشطت عمليات الغريفة والفحص والمسح في كل قطعة وفي كل بقعة مما يحتمل أن يبيط اللثام ، ولو يسيرا ، عن أصلهم ونشأتهم . وكان المظنون أن بانونيا ، وأن الغال وأن الأجزاء الشمالية من المانيا كانت فيها النشأة الأولى لهذه الجماعة الفذة من المحاربين . وأخيرا اقتنع أعظم النقاد منطقا وعقلا . الذين رفضوا هذه الهجرة الوهمية لهؤلاء الغزاة المثاليين — اقتنعوا بفكرة تغرى اساطيرها بصدقها . فقد ذهبوا الى الظن بأن السكان القدامى في الراين الأدنى والويز — كونيوا ، حوالى عام ٢٤٠ م اتحادا جديدا تحت اسم « الفرنجة » . وكانت منطقة وستفاليا الحالية ، واقطاعات هيس ودوقيات برنزويك ولونبرج Luneberg كانت هذه كلها الموطن القديم لقبيلة تشوسى Chauci (من أشهر القبائل في غرب ألمانيا قديما) التى تحدث الجيش الرومانى في مستنقعاتها التى لا يمكن اجتيازها ، ولقبيلة تشيروسكى Cherusci الفخورة بشهرة أرمينيوس Armenius ، ولقبيلة كاتى Catti الشديدة البأس بفضل مشاتها الأقوياء البواسل ، ولعدة قبائل أخرى أقل قوة وشهرة . وكان تعشق الحرية هو منتهى ما يسيطر على عقول هؤلاء

الألمان ، والمتمتع بها أغلى كنز لديهم ، والتعبير عن متعة الحرية ونعيمها أحسن ما تطرب له أسماعهم . ومن ثم استحقوا هذا اللقب الكريم واتخذوه لأنفسهم وحافظوا عليه وهو «الفرنجة» أى الرجال الأحرار Freeman وهذا اللقب هو الذى حجب الأسماء الخاصة لمختلف الولايات الداخلية فى الاتحاد ، ولو أنه لم يقض عليها تماماً . وقد غرست الموافقة الضمنية والمنفعة المتبادلة أول قوانين الاتحاد ، ثم وطدت العادة والخبرة يوماً بعد يوم دعائمه . وقد تفتتح عصبة الفرنجة مجال المقارنة بالاتحاد السويسرى (Helvetia الاسم القديم) الذى كان كل قسم فيه يحتفظ بسيادته المستقلة ، ويتشاور مع سائر الأقسام فى القضايا العامة ، دون الاعتراف بسلطة أى رئيس أعلى أو جمعية تمثيلية أو نيابية ، ولكن مبدأ كل من الاتحادين يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، فقد نعم السويسريون بالهدوء والسلام لمدة قرنين من الزمان ، جزاء وفاقا لسياستهم الحكيمة الآمنة . ولكن روح التقلب ، والتعطش الى السلب والنهب ، وعدم احترام اعظم المعاهدات جدية وخطورة — كل أولئك دمج خلق الفرنجة بالمعيب والعار .

وكان الرومان قد خبروا لعهد طويل ، شدة بأس سكان ألمانيا السفلى (الجنوبية) وجراتهم . وقد هدد اتحاد قوتهم بلاد الغال بغارة شديدة ، مما اقتضى حضور جالينوس شريك الامبراطور ووريثه ، وبينما كان الأمير وابنه الطفل سالونينوس Salomonus يظهران عظمة الامبراطورية فى بلاط تريف (Treves مدينة على نهر الموزل) كان للقائد بستوموس Posthmos يتولى قيادة الجيوش فى مقدرة فائقة ، وقد غدر هذا القائد بعد ذلك بأسرة فاليريان ، ولكنه كان أميناً دائماً على مصلحة الامبراطورية . وتدل اللغة الزائفة المضللة — لغة المديح والاطراء والملك — على أن هناك سلسلة طويلة من الانتصارات ، كما تشهد النصب التذكارية والألعاب (اذا كان لها أن تشهد) على شهرة بستوموس الذى سمي مراراً وتكراراً « قاهر الألمان ومخلص الغال » .

ولكن حقيقة واحدة ، وهى فى الواقع الوحيدة التى نعلمها حق العلم ، قد تمحو الى حد كبير كل الآثار التى أقيمها الغرور والمداهنة . ان الراين — رغم أنهم كرموه بتسميته هامى الولايات — كان يشكل حاجزاً ضعيفاً أمام روح الطموح الجريئة التى طغت على اعمال الفرنجة . فقد امتد اكتساحهم الخاطف من النهر الى سفوح جبال البرانس ، بل ان هذه الجبال لم توقف تقدمهم ، حتى ان اسبانيا التى لم تخش يوماً حملات الألمان — كانت عاجزة عن المقاومة . وكانت هذه البلاد الغنية

مسرحة المناوشات مخربة غير متكافئة طوال اثني عشر عاما — اى الجزء الأكبر من عهد جالينوس . وسلبت ، أو قل دمرت ، المدينة الزاهرة تاراجوانا Tarragona عاصمة الولاية المسالمة . وكانت لا تزال تلك الاكواخ التعيسة الكثيرة المبعثرة وسط خرائب المدن تشهد على بطش المتبربرين . — حتى أيام أوريوس سيوس الذى كتب فى القرن الخامس . فلما نصب معين البلاد المنهوكية ولم تعد صالحة للسلب ، استولى الفرنجة على بعض المراكب فى موانئ أسبانيا وانتقلوا بها الى موريثانيا . وذلت الولاية النائية لشدة هؤلاء المتبربرين ، الذين بدوا وكأنهم جاءوا من عالم جديد ، حيث لم يكن اسمهم ولا عاداتهم ولا ملامح وجوههم معروفة فى ساحل افريقية .

٢ — كان يوجد فى غابر الزمان فى الجزء الواقع من سكسونيا العليا وراء نهر الإلب — وهى المسماة الآن اماره لوساك — غابة مقدسة — هى الوطن الرهيب لخرافة السويفى Suevi . وما كان مخصصا لأحد فى الدخول الى هذا الحرم المقدس دون الاعتراف . — وهو راكم متوسل ، معاهد متذل ، بوجود الاله الملك على الفور ، والواقع أن الوطنية والغيرة أسهمتا فى تقديس سوننفالد Sonnenwald أو غابة السمنونيين Semnones . وساد الاعتقاد بأن الإلهة نشأت اول ما نشأت فى هذه البقعة المقدسة . وكانت القبائل الكثيرة التى تتيه عجا وتجد شرفا فى جريان الدم السويفى فى عروقها ، تبعث فى فترات محددة بمبعوثيها ، وكانت الطقوس البربرية والضحايا الانسانية تخذل ذكرى المنبت المشترك بينهم . ولأ الاسم الذائع « سويفى » كل اقطار المانيا الداخلية من ضفاف نهر الأودر الى ضفاف الدانوب . وكانوا يتميزون عن سائر الألمان بغرابة تصفيف شعرهم الطويل الذى جمعوه فى خصلة غير مهذبة فى قمة الرأس ، كما أغرموا بجلية تظهرهم أعلى مرتبة وأشد بأسا فى أعين العدو . ولما كانوا — كما هى عادة الألمان — غيورين على السمعة العسكرية ، فانهم جميعا اعترفوا بشوكة سويفى الفائقة ، واعلنت قبائل أوسيبيت Usypites وتنكتيرى Tencteri التى قهرت الدكتاتور قيصر بجيش عظيم ، أنه لم يكن عارا عليها أن تهرب أمام قوم (اى السويفى) لم تكن الآلهة الآلية لتقف أمام أسلحتهم .

وفى عهد الامبراطور كراكلا ظهرت افواج لا تحصى من السويفى على ضفاف نهر السين وفى الأماكن المجاورة للولايات الرومانية ، سعيا وراء الطعام ، أو السلب أو النهب أو المجد . والتأمت افواج المتطوعين

المتوشرين في أمة عظيمة ثابتة ، ولما كان هؤلاء ينتمون الى الكثير من القبائل المتباينة ، فانهم جميعا اتخذوا اسم « الليمانى Allemanni » أى كل الرجال All Men ليدل غورا على اختلاف أنسابهم وشجاعتهم المشتركة . وسرعان ما أحس الرومان بهذه الشجاعة في الكثير من الحملات العدائية . وحارب الليمانى أصلا على ظهور الخيل ، ولكن قوى من عزمة خيالتهم جماعة من المشاة الخفيفة مختارة من أشجع وأنشط الشباب ، أهلهم بتدريبتهم المستمر لمصاحبة الفرسان أطول مسافة ، وفي أسرع هجوم أو في أعنف انسحاب .

ودهش هذا الشعب الجرمانى المحارب لاستعدادات اسكندر سيفيروس الضخمة ، كما أفزعتهم أسلحة خلفه ، وهو متبربر يعدلهم بأسا ووحشية . ولكنهم ظلوا يحومون حول حدود الامبراطورية ، فزادوا من الاضراب العام الذى أعقب موت دكيوس . وأصابوا ولاية الغال الغنية بجراح قاسية . وهم أول من كشف القناع عن العظمة الهزيلة لايطاليا ، وسارت جماعة كبيرة من الألمان عبر الدانوب واخترقت جبال الألب الراهية الى سهول لمبارديا ، وتقدمت حتى وصلت الى رافنا . ووقفت رايات المتبربرين الظافرة على مرأى من روما تقريبا . وأذكت الصفعة والخطر في السنانو من جديد ومضات من شمائل غابرة ، وكان الامبراطوران كلاهما مشغولين في حروب نائية : فكان فاليريان في الشرق وجالينوس في الراين . وتعلقت كل آمال الرومان بالسنانو ، ولم يكن لهم من ملجأ الا اليه . فاستأنف أعضاؤه في هذا الطرف الطارئ الدفاع عن الدولة . وسحبوا الحرس البريتورى الذى تخلف لحماية المدينة ، وزادوا عددهم بتجنيد أقوى أفراد البلبيان (طبقة العامة) وأكثرهم رغبة في الخدمة العامة ، وذهل الألمان لظهور جيش أكبر من جيشهم فجأة ، فانسحبوا الى المانيا محملين بالغنائم ، واعتبر الرومان غير المحاربين أن في انسحابهم انتصارا لهم (أى للرومان) .

ولما تلقى جالينوس أنباء انقاذ عاصمته من المتبربرين ، كان سروره بها أقل بكثير من فزعه لشجاعة السنانو ، التى قد تحفزهم يوما الى تخليص الشعب من الطغيان الداخلى والغزو الخارجى سواء بسواء . ونشر على الناس جحوده الذى أملاه عليه الجبن ، في مرسوم حرم فيه على أعضاء السنانو القيام بأى عمل عسكرى ، بل حتى مجرد الاقتراب من معسكرات الفرق . ولكن مخاوفه لم يكن لها أى أساس ، فان النبلاء الأغنياء المترفين ، وقد عادوا سيرتهم الى خلقهم الطبيعى — تقبلوا هذا الاعفاء المذل المشين من الخدمة العسكرية على أنه منة من الامبراطور . وفضل . وطالما كانوا يتمرغون في نعيم حماماتهم ومسارحهم ومسكنهم ،

فقد تنازلوا في غبطة وسرور عن هذه المهام الخطيرة ، مهام الامبراطورية ،
للأيدى الخشنة ، أيدي الفلاحين والجنود .

وثمة حملة أخرى قام بها الألمان ، تبدو أشد هولاً ورهبة ، ولكنها
حدث أبهى سناء وروعة ، ذكرها أحد كتاب الامبراطورية القديمة .
فقد قيل ان عشرة آلاف فقط من الرومان على رأسهم جالينوس هزموا
ثلثمائة ألف من ذلك الشعب المحارب في معركة قرب ميلان . ومهما يكن
من أمر ، فإننا قد ننسب على الأرجح ، هذا الظفر الذي لا يمكن
تصديقه ، أما الى سلامة نية المؤرخين ، أو الى عمل مبالغ فيه قام به
أحد قواد الامبراطور . والواقع أن جالينوس استخدم أسلحة من جنس
آخر لحماية إيطاليا من بطش الجرمان ، فقد تزوج من بيبا Pipa
ابنة أحد ملوك ماركوماني Marcomanni ، وهي قبيلة من السوفيى ،
كانت كثيراً ما تشترك مع الألمان في حروبهم وفتوحهم . وقد أقطع
والدها — ثينا للتحالف — رقعة كبيرة في باتونيا . ويبدو أن المئات
الأصيلة في الجبال الفطرى غير المصقول قد مكن لحب العروس في
أعماق الامبراطور المتقلب . ووثقت روابط الحب من علاقات السياسة
وزادتها متانة . ولكن تحيز روما الذي يتسم بالتعالى والغطرسة أنكر
صفة الزواج على علاقة دنسة بين مواطن وبربرية . ودمغ الأميرة
الألمانية باللقب الفاضح المخزى ، أى بأنها « خلية جالينوس » .

غارات القوط

٣ — لقد تعقبنا حتى الآن هجرة القوط من اسكنديناوه — أو على
الأقل من بروسيا ، حتى مصب نهر الدنيبر ، وتتبعنا انتصاراتهم من
الدنيبر الى الدانوب . وفي عهد فاليريان وجالينوس كانت غارات الألمان
والسرماتيين Sarmatians (إحدى القبائل الرحل القديمة) تنقض على
الدوام على حدود الدانوب ، ولكن الرومان كانوا يدافعون عنها بعزم
وتوفيق بشكل غير عادي . ذلك أن الولايات التي كانت مسرحاً للحرب
كانت تزود جيوش روما بمعين لا ينضب من الجنود الأشداء . وكم
من فلاحى الليريا هؤلاء ، ارتفع الى مرتبة القيادة وأظهر صفات القائد
وقدراته . وتوغلت حشود عابرة من المتبربرين ، الذين يحومون حول
الحدود بلا انقطاع — الى تخوم ايطاليا ومقدونيا . ولكن ولاية
الامبراطور كانوا يصدونهم عادة ، أو يعترضون طريق عودتهم . ولكن
السييل الجارف من هجمات القوط تحول الى طريق آخر . فان القوط
باستيطانهم الجديد في أوكرانيا أصبحوا سادة على الشاطئ الشمالى

للبحر الأسود . ولكن كانت تقع الى الجنوب من هذا البحر الداخلى
الولايات الغنية الوادعة فى آسيا الصغرى ، تلك الولايات التى حوت
كل ما يجذب الانظار ، وخلت من أية وسيلة لصد أى فاتح متبربر .

ولا تجاوز المسافة بين ضفاف الدنيبر وبين المدخل الضيق لشبه
جزيرة القرم ستين ميلا . ومن هذا الشاطئ الماحل اتخذ يوربيدس
مسرحا لأحداث واحدة من أعظم مآسيه اثارة للعواطف ، فدبج القصص
القديم بفننه الرائع وأسلوبه الجميل ، وقد تصلح قرابين ديانا الدموية ،
ووصول أورستيز Orestes وبيلادس Pylades ، وانتصار الفضيلة
والعقيدة على الشراسة الوحشية وتصلح لتمثل حقيقة تاريخية : تلك هى
ان التورى Tauri — وهم السكان الأصليون لشبه الجزيرة —
هذبوا الى جد ما من سلوكهم الوحشى ، بفضل اتصالهم التدريجى
بالمستعمرات اليونانية التى استقرت على الشاطئ . وكانت مملكة
البسفور الصغيرة تتألف من اليونان المنحليين والمتبربرين نصف
المتحضرين ، وكانت عاصمتها تقع على المضائق التى يتصل بها بحر
آزوف بالبحر الأسود ، وقد بقيت كدولة مستقلة منذ حروب البلبونيز ،
حتى ابتلعها أطماع متريدانس ، ثم سقطت مع بقية ممتلكاته فى ايدى
الرومان ، وبقي ملوك البسفور منذ عهد أوغسطس حلفاء متواضعين ،
ولكنهم كانوا ذوى نفع للامبراطورية . ذلك أنهم عن طريق الهدايا
والأسلحة وبعض التحصينات اليسيرة عبر البرزخ ، وقفوا سدا منيعا
فى وجه قطاع الطرق القراصنة من اهل سارماتيا Sarmatia وحالوا
دون وصولهم الى بلاد تتحكم فى البحر الأسود وآسيا الصغرى بفضل
موقعها الممتاز وموانئها الملائمة ، وطالما تغاقب على العرش ملوك
وراثيون ، فانهم أدوا مهمتهم فى يقظة وتوفيق . ولكن الخلافات الداخلية ،
ومخاوف الغاصبين الأذنياء الذين استولوا على العرش الخالى ، أو
مصلحتهم الخاصة ، مكنت القوط من التوغل الى قلب البسفور .
وبحصول هؤلاء الفاتحين على قطعة أرض خالية ذات تربة خصبة ،
أمكنهم أن يسيطروا على قوة بحرية كافية لنقل جيوشهم الى شاطئ
آسيا . وكانت السفن المستعملة فى الملاحة فى البحر الأسود فريدة فى
مبناها : كانت مراكب شراعية صغيرة ذات قاع مسطح من الخشب
فقط ، وليس فيها حديد قط ، يغطيها فى بعض الأحيان سقف واق ،
يستخدم عند هبوب عاصفة . وفى هذه المنازل العائمة لم يبال القوط أن
يضعوا أنفسهم تحت رحمة بحر مجهول بقيادة بحارة دفعوا الى العمل
همما ، مشكوك فى مهارتهم وأمانتهم بقدر سواء . ولكن الأمل فى السلب
والنهب كان يحجب التفكير فى الخطر ، وغرس مزاج الجراة الطبيعى فى

نفوسهم الثقة التي هي أكثر تعقلا والتي هي في الواقع وليدة المعرفة والخبرة . ولابد أن المخارين الذين أوتوا هذه الجراءة والجسارة ، كثيرا ما ضجوا لجبن أدلائهم الذين كانوا يتطلبون أقوى التأكيدات على هدوء البحر واستقراره قبل أن يغامروا بالانقلاع ، والذين كان يندر اغراؤهم بالبعد عن الأرض ، فلا تكون دائما على مرأى منهم . تلك — على الأقل — هي الحال في تركيا الحديثة . وليس من المحتمل أنهم في فن الملاحة دون سكان البسفور القدامى .

وظهر أسطول القوط ، وقد خلف شركاسيا Circassia على يساره ، أول ما ظهر ، أمام بتيوس Pityus وهي آخر حدود الولايات الرومانية ، وهي مدينة مزودة بهرماً ملائم ومحصنة بسور منيع . وهنا لقوا مقاومة أكثر عنادا مما كان لهم أن يتوقعوا من حامية ضعيفة في قلعة نائية . وردوا عن المدينة . ويبدو أن خيبتهم حطت من رهبة اسم القوط . وطالما كان يتولى الدفاع عن هذه الحدود سكسيانوس Successianus وهو ضابط كبير موهوب ، ذهبت جهود القوط أدراج الرياح ، فلما أقصاهم الليريان الى مركز أكثر شرفا وأقل أهمية ، استأنفوا الهجوم على بتيوس . وبتدمير هذه المدينة ، محوا ذكرى عارهم السابق .

وكانت المسافة من بتيوس الى طرابزون ، طوفا حول الطرف الشرقي للبحر الأسود ، تبلغ نحو ٣٠٠ ميل . واتخذ القوط طريقا جعلهم دائما على مرأى من كولكيس (Cholchis بلاد في شرق البحر الأسود) التي خلدتها « الأرجونوت Argonauts » (من أقدم ملاحى الأساطير الاغريقية) ، بل أنهم حاولوا بسلب معبد غنى عند مصب نهر فاسيس Phasis ولكنهم لم يفلحوا .

وقد استمدت طرابزون — التي اشتهرت في انسحاب الألوف العشرة بأنها مستعمرة يونانية قديمة — استمدت ثروتها وعظمتها من أريحية الامبراطور هادريان وسخائه ، حيث شيد ثغرا صناعيا على شاطئ مهجور حرمة الطبيعة من موان آمنة ، وكانت المدينة ضخمة آهلة بالسكان ، ويبدو أن الأسوار المزدوجة تحدثت بطش القسوط ، وعززت الحامية المعتادة بعشرة آلاف رجل عززت قوتها . ولكن ليس ثمة أية مزايا يمكن أن تعوض عن انعدام النظام واليقظة . فان حامية طرابزون الضخمة انصرفت الى الشغب والترف ، وترفعت عن خراصة تحصيناتها المنيعة ، وسرعان ما اكتشف القوط هذا الاهمال الفاحش من جانب المحصورين ، وشيدوا كومة شاهقة من الأغصان وتسلقوا

الأسوار في سكون الليل ، ودخلوا المدينة العزلاء شياهرين سيوفهم .
واعقبت ذلك مذبحة شاملة بين الأهالي ، وهرب الجنود الذين تولاهم
الفرع من الأبواب الخلفية للمدينة . ولم ينج من التخریب اقدس المعابد
وأفخم المباني ، ووقعت في أيدي القوط أسلاب ضخمة ، حيث كانت
ثروات البلاد المجاورة مودعة في طرابزون باعتبارها مأوى أمينا . واقتحم
المتبربرون المنتصرون الطريق دون مقاومة في ولاية بنطس المترامية
الأطراف ، وبلغ أسرهم عددا لا يصدق . وملأت الغنائم الثمينة من
طرابزون أسطولا عظيما من السفن وجدوه في الميناء ، وربط شبان
الشاطئ الأشداء بالسلاسل الى المجاديف ، وعاد القوط عودا مظفرا
قائمين بنجاحهم في حملتهم البحرية الأولى ، الى مواطنهم الجديدة في
مملكة البسفور .

وخرج القوط في حملتهم الثانية بقوة أكبر من الرجال والسفن ،
ولكنهم سلكوا طريقا آخر ، حيث صرفوا النظر عن ولاية بنطس التي
استنزفت ، وساروا مع الساحل الغربى للبحر الأسود ، ومزوا بالمصبات
الضخمة للدينير والدينستر والدانوب ، وزادوا من أسطولهم بالاستيلاء
على عدد كبير من قوارب الصيد ، ثم اقتربوا من المئذ الضيق الذى
يصب البحر الأسود منه مياهه فى البحر المتوسط ، ويفصل بين قارتى
آسيا وأوربا . وكانت حامية خلقدونية Chalcedon تعسكر قرب
معبد جوبيتر يورئوس Jupiter Urius على راس جبل يشرف على
مدخل المضيق ويتحكم فيه . وهكذا كانت غزوات المتبربرين المزهوى
الجانب هزيلة الى درجة أن عدد افراد هذه الحامية كان يفوق عدد جيش
القوط . ولكن الحق أن التفوق كان عدديا مخسبا ، فقد تخلوا فى
اندفاع وتهور عن موقعهم الممتاز ، وهجروا مدينة خلقدونية ، وهى
المدينة الزاخرة بالسلاح والأموال ، وتركوها لحكمة الفاتحين . وبينما
كان الفاتحون يترددون فى أى طريق يسلكون : البر أم البحر ، وأين
يتجهون لمواصلة الأعمال العدوانية ، الى آسيا أم أوربا ، أشار أحد
الهاربين الخونة عليهم بالانجاء الى نيقوميديا ، وكانت يوما عاصمة
ملوك بيثينيا كما أنها غنية ميسور فتحها . وقاد الطريق الذى لم يكن
يبعد عن معسكر خلقدونية بأكثر من ستين ميلا ، وأدار دفعة القتال
دون مقاومة ، وقاسم فى الغنائم . فقد تعلم الشرط قدرا كافيا من
السياسة فى مكافأة الخائن الذى كانوا يكرهون . وانتابت نيقية وبروسة
وأباميا وسيوس — وهى مدن نافست أو قلدت أخيانا نيقوميديا فى
مخامتها وعظمتها — نفس الكارثة التى اندلعت فى مدى عدة أسابيع
فى كل ولاية بيثينيا ، وكان سكان آسيا الوادعون قد ثغفوا بالسلام

والهدوء ثلاثمائة عام الفى فيها استخدام السلاح ، وزال من الأذهان توقع الخطر ، وتركت الأسوار القديمة تتداعى ، وخصصت كل موارد أغنى المدن لتشييد الحمامات والمعابد والمسارح .

كانت مدينة سيزيكوس Cyzicus (مدينة قديمة على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمره) — عندما تحدث أقصى جهود مثيري داتس — تتميز بالقوانين الحكيمة ، وبقوة بحرية قوامها مائتا زورق كبير وثلاث ترسانات للأسلحة والآلات الحربية ، والفلال . وكانت لا تزال مستودعا للثروة ومسرعا للترف ، ولكن لم يبق من سابق قوتها الا موقعها ، فى جزيرة صغيرة فى بحر مرمره ، تربطها بقساره آسيا قنطرتان فقط . وبعد غارتهم على بروسة Prussa تقدم القوط حتى أصبحوا على مسافة ثمانية عشر ميلا من مدينة سيزيكوس التى انصرفوا بكل قواهم لتدميرها ، ولكن هذه العملية تعطلت بسبب حادث سعيد ، ذلك انه قد حل فصل الأمطار ، وارتفع الماء الى حد غير عادى فى بحيرة أبولونيئاتس Apolloniates وهى خزان لمياه كل الينابيع فى جبل أولبىس ، كذلك طفت مياه نهر رنداكوس الصغير الذى ينبع من البحيرة ، حتى تحول الى مجرى واسع سريع الجريان ، فعاق تقدم القوط ، وكان انسحاب القوط الى مدينة هرقلية البحرية حيث يحتل وجود الأسطول — مصحوبا برتل طويل من العربات المحملة بما غنموه من بيثينيا ، كما تميز بالسنة النيران المندلعة فى نيقية ونيقوميديا اللتين أحرقوهما فى قسوة بالغة . وهناك اشارات غامضة ذكرت عن معركة مشكوك فيها أمنت انسحابهم ، ولكن ، حتى الانتصار الكايل كان لزاما أن يبقى ذا قيمة تافهة ، لأن اقتراب الانقلاب الخريفى كان يستحثهم على التعجيل بالعودة . وان الأتراك الحديثين يعتبرون الملاحه فى البحر الأسود قبل شهر مايو ، أو بعد شهر سبتمبر ، ضربا من التهور والحماقة لا نزاع فيه .

واذا علمنا أن الأسطول الثالث الذى أعبد القوط فى موانئ البسفور كان يتكون من خمسمائة سفينة شراعية ، لاستطاع خيالنا فى الحال أن يحصى ويقدر التسليح الرهيب ، أما وقد أكد لنا المؤرخ الحكيم سترابون Strabo أن قوارب القرصنة التى استخدمها المتبربرون فى بنطس وسكيزيا الصغرى لم يكن يتسع الواحد منها لأكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلا ، ففى إمكاننا أن نتثبت ، ونحن مطمئنون ، من أن خمسة عشر ألفا على الأكثر قد أفلعوا فى هذه الحملة الكبيرة . وضاق صدر القوط ، باتساع أطراف البحر الأسود فحولوا طريق حملتهم

الهدمة من أرض الفيوم والضباب الدائم الى اليسفور عند تراقيا ،
 فما كادوا يبلغون وسط المضايق حتى انبساطوا فجأة الى البوراء نحو
 مدخل المضايق ، حين هبت فجأة في اليوم التالي ريح مواتية حملتهم
 في بضع ساعات الى البحر الهادئ ، أو بالأحرى الى بحر مرمره .
 وما أن نزلوا الى جزيرة سيزيكوس حتى دمروا هذه المدينة القديمة
 المجيدة ، ومن هنا تقدموا ثانية في الممر الضيق عبر الدردنيل ، ثم
 واصلوا ابصارهم ذات اليمين وذات الشمال ووسط الجزر الكثيرة
 المتناثرة في بحر ايجيه ، وكان لابد من الاستعانة بالأسرى والهاربين
 ليقودوا سفنهم ، وليوجهوا هجماتهم المختلفة على شواطئ اليونان
 وشواطئ آسيا على السواء . وأخيرا رسا أسطول القوط في ميناء
 بيريه على بعد خمسة أميال من أثينا التي حاولت أن تتأهب للدفاع مجيد .
 وأصدر الامبراطور أوامره الى المهندس كليوداموس Cleodamus
 بتحصين المدن الساحلية ضد القوط ، فشرع فعلا في اصلاح الأسوار
 القديمة التي كانت آيلة الى السقوط منذ عهد سلا Sylla . ولم تجد
 مهارته وجهوده شيئا ، وأصبح المتبربرون سادة بلد الفنون والأفكار .
 ولكن بينما أمعن الغزاة في السلب والنهب وانغمسوا في الدعارة
 والفجور ، باغت دكسيبوس Dexippus الجريء - الذي كان قد نجا
 بنفسه مع المهندس كليوداموس أبان غزو أثينا - أسطولهم الرابض
 في مياه بيريه تحت حراسة هزيلة ، وانقض عليهم بما جمع في سرعة من
 جشود من المتطوعين والفلاحين والجنود ، والى حد ما ثار لما حل بوطنه
 من كوارث .

ومهما أضفى هذا العمل من رونق وبهاء على عصر اضمحلال أثينا ،
 فإنه أهاج ، أكثر من أنه أخمد ، روح الجرأة والاقدام في الغزاة
 الشماليين . واشتملت النار في نفس الوقت في مختلف أنحاء اليونان .
 وغدت طيبة وأرجوس وكورنثة واسبرطة التي شنت فيما مضى حروباً
 شعواء مشهودة ضد بعضها بعضاً - غدت الآن عاجزة عن تجنيد أى
 جيش في الميدان ، بل عن مجرد الدفاع عن تحصيناتها المتداعية .
 وامتدت لظى الحرب في البحر والبر من سونيوم Sunium في أقصى
 الشرق الى شاطئ أبيروس في الغرب . وتقدم القوط الآن على مرأى
 من إيطاليا ، حين أيقظ اقتراب هذا الخطر الجسيم جالينوس الخامل
 من أحلامه السعيدة . وظهر الامبراطور على رأس جيشه ، ويبدو
 أن وجوده ألفت في عضد أعدائه ووزع قوتهم . وقبل نولوباتوس
 Naulobatus رئيس قبائل الهيرولي Heruli التسليم بشروط كريمة ،
 ودخل مع فريق كبير من بنى جلده في خدمة روما ، ومنح أوسمة

مرتبة القنصل التي لم تكن لوئتها بعد أيدي أحد من المتبررين ، وتولى القوط الضجر بأخطار هذه الرحلة الملهمة ومشاقها ، فأتجهوا إلى ميسيا Maesia ، وقد اعتزموا أن يشقوا طريقهم عبوة عبر الدانوب إلى ماريشهم في أوكرانيا . وكانت هذه المحاولة الضيالة تعنى خرابا محققا ، لو لم يهيم أرتياك القواد الرومان للمتبررين وسائل الهرب . ذلك أن البقية القليلة من هذا الجيش المدمر قفلت راجعة على سفنهم ، وفيما هم يشقون طريق العودة عبر الدردنيل والبسفور ، أغاروا على شواطئ طروادة ، التي خلدها هوميروس شهرة أبى على الزمان من ذكرى غزوات القوط . وحالما وجدوا أنفسهم آمنين في عرض البحر الأسود نزلوا في انخيالوس في تراقية ، قرب مسفح جبل هيموس Haemus ، وانصرفوا بعد هذا الكد والجهد إلى التمتع بهذه الصلوات الصحية البهيجة . ولم يبق من المرحلة بعد ذلك إلا رحلة بحرية يسيرة قصيرة . وهكذا تنوع مصير مشروعاتهم البحرية الثالث وهو أعظم مشروعاتهم . وقد يكون من العسير أن تتصور كيف استطاع الجيش الأصلي المكون من خمسة عشر ألف محارب أن يحتل الخسائر والتفرق في مثل هذه المفامرة الجريئة . والواقع أنه كلما تناقص عددهم بقمل السيف أو الفرق أو الحر ، عوضوا عنه دائما بأفواج من الآبقين وقطائع الطرق الذين انضموا تحت راية السلب والنهب ، وبحشود من العبيد اللاجئين — من المانيا وسارماتيا في الفسالب — الذين انتهزوا الفرصة العظيمة ، فرصة الحرية والانتقام . وزعمت أمة القوط لنفسها نصيبا أكبر من الشرف والمخاطرة في هذه الحملات ، ولكن القبائل التي حاربت تحت راية القوط أحيانا تميزت وأحيانا غطت حقها فيما دون . أو روى من تاريخ غير دقيق لهذا العصر ، ولما كان يبدو أن أساطيل المتبررين تبدأ من مصب نهر الدون ، فإن التسمية الفاضة المألوفة وهي « السكوديون » كانت تطلق على الجمع المختلط .

وفي الكوارث العظيمة التي تنقلب الجنس البشري ، قد يمر الناس مروراً عابراً غافلاً على موت فرد منهما كان عظيماً ، وعلى خراب بناء مهما كان مشهوراً . ولكننا لا نستطيع أن ننسى معبد ديانا في أفيسون ، فانه بعد أن أعيد بناؤه في بهاء متزايد بعد سبع كوارث متكررة ، قد أحرقه القوط في غزوتهم البحرية الثالثة . إن فنون اليونان وكنوز آسيا تضافرت على تشييد هذا البناء الفخم المقدس ، وقد أقيم على مائة وسبعة وعشرين عموداً من الرخام وفق الطراز الأيوني ، وكانت كلها هدايا من الملوك الاتقياء ، وكان ارتفاع كل منها ستين قدماً . وزين المذبح بأروع تماثيل النحات براكسيتيلس Praxiteles الذي ربما

اختار موضوعاتها من أساطير المكان المخبوبة عن مولد أطفال لاتونا Latona المقدسين ، واختفاء أبولو بعد ذبح سيكلوبس Cyclops وترفق باخوس بالأمازونيين المتهورين . على أن طول معبد افيسوس كان أربعمائة وخمسة وعشرين قدماً فقط ، أى نحو ثلثي كنيسة القديس بطرس في روما . وكان في أبعاده الأخرى لا يزال أقل كثيراً من هذا النتاج المعماري الحديث . والواقع أن الأذرع الممتدة للصليب المسيحي تتطلب اتساعاً أكبر كثيراً من المعابد الوثنية المستطيلة ، وربما فزع وارثك أجزاء الفنانين القدامى لمجرد الاقتراح برفع قبة في الهواء في حجم البانيثون ونسبه وأبعاده . ومهما يكن من أمر ، فقد كان ينظر الى معبد ديانا باعتباره إحدى عجائب الدنيا . وقد أحترم قدسيته الإباطرة المتعاقبون والفرس والمقدونيون والرومان وزادوا في بهائه . ولكن متوحش البلطيق الغلاظ لم يتذوقوا الفنون الجميلة ، واحتقروا الأهلوال الخيالية لخرافة أجنبية .

وهناك ، غير ذلك ، ما يروى من أحداث هذه الغزوات ، مما يستحق اهتمامنا ، لولا أنه قد يتطرق إلينا الشك بحق ، في أنه من تصوير خيال سفسطائي حديث . فقد قيل أن القوط في غارتهم على أثينا ، جمعوا كل الكتب من المكتبات ، وكانوا على وشك إشعال النار في هذا الكم الجنازى من علوم اليونان ، لولا أن أحد رؤسائهم — وكان أكثر تهديفاً وأحسن سياسة من رفاقه — ثناهم عن هذا العمل بأن أبدى ملاحظة عميقة ، مؤداها أن اليونان إذا انكبوا على الدرس والبحث لن يتجهوا الى الحرب والسلاح . والواقع أن الممستشار الحكيم (لو سلمنا بصدق هذه الرواية) فكر على طريقة مختبرين بجاهل ، ففى أقوى الأمم وأكثرها تهديفاً ظهرت العبقرية في مختلف صورها في نفس الوقت تقريباً ، وكان عصر العلم ، بصنفة عامشة ، هو عصر المواهب العسكرية والنجاح الحربى .

غزو الفرس لأرمينيا : أسرارها ليرستان

{ — انتصر ملك الفرس الجديد أرتجزرسيش . وابنه . شابور (كما رأينا) على أسرة أرشك (الأسرة المالكة في بارثيا) . والواقع أن خسرو ملك أرمينيا هو الوحيد من بين الأمراء العديدين من هذا العرق القديم ، الذى احتفظ بحياته وبإستقلاله ، لمقد دافع عن نفسه بالمقوة الطبيعية لبلدة ، وبالسيل المستمر من اللاجئين والساخطين ،

وبالتحالف مع الرومان ، وفوق ذلك بشجاعته هو نفسه . انه لم يقهر في حرب دامت ثلاثين عاما ، ولكن قتله آخر الأمر رسل شابور ملك الفرس . وتوسل حكام أرمينيا المحبون لوطنهم ، والذين أكدوا حرية التاج وكرامته ، الى روما لتحمي بلادهم ، رعاية لمصلحة الوريث الشرعى « تيريداتس Tiridates » . ولكن ابن خسرو كان طفلا ، وكان الحلفاء على مسافة نائية ، فتقدم ملك الفرس نحو الحدود على رأس جيش تعذر صده ، وأنقذ اخلاص أحد الخدم تيريداتس الصغير ، وهو أهل المستقبل في بلده . ولكن أرمينيا ظلت سبعا وعشرين سنة ولاية ساخطة نافرة وسط مملكة الفرس الكبيرة . وتشجع شابور — وقد انتفخت أوداجه بهذا الفتح اليسير المنال ، وأخذ مساوىء الرومان وكروبيهم قضية مسلما بها — فارغم الحاميات القوية في المقارة ونصبيين على التسليم ، ونشر الخراب والرعب على جانبي الفرات .

وخسرت روما حدا هاما ، وانهار حليف طبيعى مخلص لها ، وتحققت بسرعة أطباع شابور ، كل أولئك آثار في روما شعورا عميقا بالاهانة ، كما أهاج احساسا شديدا بالخطر . وتوهم فاليريان أن يقظة ولاته قد تكفى لتأمين سلامة الراين والدانوب ، ولكنه عقد العزم ، رغم تقدم سنه ، على أن يشخص بنفسه للدفاع عن الفرات ، وفي أثناء تقدمه في آسيا الصغرى توقفت حملات القوط البحرية ، ونعمت الولايات المنكوبة بهدوء عابر خداع . وجاوز الامبراطور الفرات والتقى بملك الفرس قرب أسوار مدينة اذاسا فهزمه شابور وأسره . وذكرت تفاصيل هذا الحدث الجلل مشوبة بالفحوض والنقص ، ولكن يمكن من الضوء الذى تيسر لنا أن نكشف من جانب الامبراطور الرومانى عن سلسلة طويلة من التهور والخطأ والنكسات التى نزلت به ، وهو أهل لها ! فقد وضع فى ماكريانوس رئيس الحرس البريتورى ثقة وطيدة . ولكن هذا الوزير الثافه جعل من سيده شخصا شديد البأس أسلم رعاياه المظلومين فقط ، وشخصا محقرا فى أعين أعداء روما . وانهار الجيش الامبراطورى بفضل نصائحه الهزيلة أو الخبيثة الى وضع أعوزته فيه الشجاعة والمهارة العسكرية على حد سواء . وقام الرومان بمحاولة جريئة باسلة لاقتحام جيش الفرس ، ولكنهم صدوا ، وسقط عدد كبير من رجالهم قتلى . وتذرع شابور ، الذى طوق الممسك بأعداد كسرة من الجنود — تذرع بالصبر وانتظر حتى اشتدت وطأة المجاعة والوباء ، ليتأكد من الفوز ، وسرعان ما تعالت الصرخات الفاجرة من الجنود تتهم فاليريان بأنه سبب النكبات ، وطالبت صيحاتهم المتمردة بالتسليم فورا . وعرض مبلغ كبير من الذهب ثمنا للتخليص فى انسحاب

مهيئ ، ولكن ملك الفرس الواثق من تفوقه رفض المال باحتقار ، واحتجز المندوبين ، وتقدم هو في تشكيل معركة ، حتى وصل الى بداية استحكامات الرومان ، وأصر على الاجتماع بالامبراطور شخصيا . وبلغ الهوان بقاليريان الى حد الحاجة الى أن يكل أمر حيانه وكرامته الى الثقة في عدوه ، وانتهت المقابلة بما كان طبيعيا أن تنتهي به ، فقد أسر الامبراطور وسلبت قواته المذهولة أسلحتها . وفي لحظة النصر ، أبت سياسة شابور وغروره عليه الا أن يضع على العرش الخالي خلفا تابعا ذليلا يعتمد على رضاه ككل الاعتماد . واختير لتلويت العرش الرومانى سريادس Cyriades . وهو لاجئ حقير من أنطاكية لم يتورع عن أية سيئة أو رذيلة ، وحظيت ارادة الملك الفارسي الظافر بهتافات الجيش الأسير تصديقا عليها ، وان كانت هذه قد جاءت على مضض .

وتلطف الامبراطور العبد على كسب رضا سيده بخيانة يرتكبها ضد بلده الأصلي ، فقاد شابور عبر الفرات ، ثم عن طريق كلكتيس Chalcis الى عاصمة الشرق ، وكانت تحركات الخيالة الفرس سريعة جدا ، الى حد أن أنطاكية — اذا صدقنا مؤرخا حكيما جدا — أخذت على غرة ، على حين كان الجمهور الخامل الكسول تابعا يحملق في مباحج المسرح معتزرا بها . وسلبت أو خربت المباني الجميلة ، الخاص منها والعام ، في أنطاكية . وضربت أعناق جمهرة السكان أو أسروا . وتوقف التخريب أمدا قصيرا بناء على قرار من كاهن حمص الأعظم ، فقد ظهر ، مرتديا حلقه الكهنوتية ، على رأس حشد من الفلاحين المتعصبين وقد تسلحوا بالمقاليع ليس غير ، ليدافع عن معبوده وأملاكه ضد أنباع زرادشت Zoroaster وأيديهم المدنسة . وفيما عدا هذا المثال الفريد فان تدمير طرسوس وكثير غيرها من المدن يقدم دليلا محزنا — على أن غزو سوريانوقيليقيا قلما عاق تقدم الجيش الفارسي . لقد عدلوا عن مزايا الممرات الضيقة في جبال طوروس ، تلك التي يشتبك فيها في قتال غير متكافئ ، أي فاتح تتركز قوته الأساسية في فرسانه . وتمكن شابور من فرض الحصار على قيصريّة ، عاصمة كبادوكيا ، وهي مدينة كانت فرضا تضم أربعائة ألف من السكان ، ولو أنها من مدن الدرجة الثانية . وسيطر ديومستين على المكان ، لا بأمر من الامبراطور ، أكثر منه بتطوعه للدفاع عن بلاده . وقد أجل مصيرها وقتا طويلا . فلما سقطت قيصريّة أخيرا نتيجة لغدر أحد الأطباء ، شق ديومستين طريقه وسط الفرس الذين صدرت اليهم الأوامر لبيذلوا أقصى الجهد لياخذوه حيا . ولكن الرئيس البطل أفلت من قوة عدو ربما رفعه مكانا عليا أو أنزلى به أشد العذاب جزاء صلابته العنيدة ، ولكن عدة آلاف من

بنى وطنه راحوا ضحية مذبحه عامة ، ويتهم شابور بمعاملة أسراه معاملة قاسية عاتية ، ولابد هنا من افساح المجال للكلام عن الكراهية الوطنية والكبرياء الجريحة والانتقام الهزيل . ولكن يمكن القول بصفة عامة بأنه من المحقق أن الأمير الذي ظهر في أرمينيا بمظهر المعتدل ، ظهر للرومان في هيئة فاتح كثر عن أنيابه ، وقد يؤس من اقامة صرح ثابت في الامبراطورية ، فسعى في أن يخلف وراءه خرابا بلقعا ، على حين أنه نقل الى فارس أهالي الولايات وكنوزها .

وفي الوقت الذي كانت فرائص الشرق ترتعد مرقا لمجرد ذكر اسمه ، تلقى شابور هدية تليق بأعظم الملوك ، وهى عبارة عن قافلة كبيرة من الجبال محملة بأندر السلع وأثمنها ، ومعها رسالة كريمة ، ولكنها ليست مهينة ولا ذليلة ، من أوديناتوس (أذينه) ، وهو من أنبل وأغنى شيوخ السناتو في تدمر Palmyra . وتساءل الظاهر المتفطرس المتعالي ، وقد أمر بأن يلقى بالهدايا في نهر الفرات : « من هو أوديناتوس هذا الذى تبجح هكذا وكتب الى مولاه ؟ اذا كان يبنى نفسه بتخفيف عقابه فدمعه يخر راکعا تحت اقدام عرشنا ويداه مغلولتان الى ظهره ، فاذا تردد ، فلتصبوا الخراب فوق رأسه وبنى جنسه وبلده ! » واستبد اليأس المتطرف المستهتت بشيخ تدمر حتى أثار كوامن القوى في نفسه ، فالتقى بشابور ، ولكنه كان لقاء مسلحا . فقد حوم حول جيش الفرس بجيش صغير نفخ فيه من روحه ، جمعه من قرى سوريا ومن خيام الصحراء فغوى انسحاب الفرس واحتجز جزءا من كنوزهم ، وأغلى من أى كنز واثن ، عددا من نساء الملك المعظم الذى اضطر الى أن يعبر الفرات ثانية فى شىء من العجلة والاضطراب . وبهذا الصل وضع أوديناتوس أسس شهيته وثروته فيما بعد . وهكذا احتفظ سورى أو عربى من تدمر لروما بعظمتها التى امتنها الفرس .

ويعيب صوت التاريخ . وهو عادة لا يزيد كثيرا عن عوارض المقت أو سوانح الملق ، على شابور استغلاله لحق الفتح استغلالا مشوبيا بالفرور والتفاخر ، فيخبرنا أن فاليريان عرض للتشده الجماهير وهو مكبل بالأغلال فى حلقه الامبراطورية ، رمزا لعظمة تهاوت ، وأنه كلما امتطى ملك فارس صهوة جواده اناخ بقدمه على عنق الامبراطور الرومانى . وبقي شابور عنيدا لا يرعوى ، على الرغم من اعتراضات حلفته الذين طالما اخلصوا له النصيح أن يتذكر تقلبات الحظ ، ويخفى استرداد روما لقوتها ، وأن يجعل من أسيره الكبيرس رهينة للصالح والسلام ، لا هدفا للالهانة والاساءة . فلما قضى فاليريان تحت وطأة العار

والحزن حتى جلده بالتشوش وشكل على هيئة انسان وحفظ لعدة اجيال .
في أشهر معابد فارس رمزا للنصر ، وقد كان أصدق من تلك الانتصاب
الخلاصة النحاسية أو الرخامية التي غالبا ما شيدها غرور الرومان .
والقصة قصة أخلاقية تثير الشجون . ولكن يجوز أن يكون وجه الحق
فيها مثار نزاع . فالرسائل الموجودة حتى الآن من أمراء الشرق إلى
شابور عبارة عن تزييف صارخ ، وليس من الطبيعي أن يذهب بنا الظن
إلى أن أي ملك حقوق لابد أن يحط من جلال الملوك حتى ولو في شخص
منافسه . ومهما كان من أمر المعاملة التي لقيها فاليريان المنكود المحظ
في فارس ، فإنه من المحقق على الأقل أنه إمبراطور روما الوحيد الذي
وقع في أيدي الأعداء وأفنى حياته أسيرا بائسا .

أما الإمبراطور جالينوس الذي احتل طويلا ، بصبر نافذ ، من أبيه
وزميله قساوته اللادعة فقد تلقى أنباء نكباته بسرور خفي . وفي استهتار
علني قال : « لقد عرفت أن أبي غان وليس مخلدا ، ولقد فعل كما يليق
بالشجعان أن يفعلوا ، ومن ثم فاني راض كل الرضا » . وفي الوقت
الذي كانت فيه روما ترثي لمصير مليكها ، كان رجال البلاط الأندلس
الأذلاء يمتدحون الفتور الوحشي في ابنه ، وكأنه كمال الصلابة والعزم
في بطل أو رواقى . وليس من اليسير أن تصور الأخلاق الهزيلة المتقلبة
المزعزعة التي تكشفت بلا ضابط في جالينوس حالما أصبح المالك الأوحد
لزام الإمبراطورية ، وفي كل من حاوله مكنته عبقريته النشيطة من
النجاح ، ولما كانت عبقريته مجردة من القدرة على التمييز ، فقد حاول
كل من اللهم إلا أهم الفنون : فن الحرب وفن الحكم ، فكان بارعا في
كثير من العلوم الغريبة ، ولكنها جميعا عقيمة عديمة الجدوى . كان
خطيبا حاضر البديهة ، وكان شاعرا رقيقا ، وبستانيا ماهرا ، وطباخا
ممتازا ، كما كان أجدر أمير بالهزة والزراية ، ففي الوقت الذي كانت
المهام العاجلة للدولة تتطلب وجوده وعنايته ، كان هو يشغل نفسه
بالمناقشة مع الفيلسوف بلوتينوس Plotinus أو يقضى وقته في سفاسة
الأمر ، أو في الملذات الفاجرة ، أو في الاستعداد للأسرار اليونانية ،
أو في التماس مكان في الأريوباجوس Areopagus (المحكمة العليا)
في أثينا وكان امرأته في العظمة والجلال أساءة إلى الفقر العام . وغرست
السخرية الكثيرة من انتصاراته في النفوس شعورا أعمق بالعار . وكان
يتلقى الأنباء المتكررة عن الغزو والهزيمة والعصيان بابتسامة غير مبالية ،
ثم يخص بالذكر ، مع القظاهر بالازدراء ، انتاجا معيناً من الولايمة
المفقودة ، ويتساءل في غير اكتراث : هل يحل الخراب بروما إذا لم تتزود
بالتيل من مصر وستائر الجدران من الغالي ؟ على أن في حياة جالينوس

لحظات قليلة قصيرة ، حين كانت تهيج غضبه لملة طارئة ، فانه كان عند ذلك يبدو فجأة جنديا باسلا وطاغية قاسيا ، حتى اذا شبع من الدم او تعب من المقاومة ، عاد ، دون أن يشعر ، الى سابق الاعتدال والبلادة ، وهما من طبيعة خلقه .

وليس ممأ يدعو الى الدهشة انه ، في الوقت الذي تراخت فيه قبضته على مقاليد الأمور ، برزت شرذمة من الفاصبين في مختلف ولايات الامبراطورية ، تعمل ضد ابن فاليريان . وربما كان هذا الضرب من الخيال الرائع الذي اوحى بمقارنة الطغاة الثلاثين بنظرائهم الطفلة الثلاثين في أثينا ، هو الذي أغرى كتاب تاريخ أوغسطس باختيار هذا الرقم الذي أصبح بالتدريج تسمية مألوفة . ولكن التطابق من كل الوجوه عقيم سقيم ، غاي شبه يمكن أن يتكشف لنا بين مجلس مكون من ثلاثين شخصا اجتمعوا على ظلم مدينة واحدة بعينها ، وبين قائمة مشكوك فيها تضم منافسين مستقلين نهضوا وسقطوا في تعاقب غير منتظم في مختلف انحاء امبراطورية شاسعة ؟ كذلك لن يكتمل رقم الثلاثين هذا الا اذا دخلنا في حسابنا النساء والأطفال الذين أسبغ عليهم شرف اللقب الامبراطوري . وانتج حكم جالينوس ، على ما كان عليه من خبال ، تسعة عشر فقط ممن زعموا لهم حقا في العرش ، وهم سريادس Cyriades ، مكريانوس ، بالستا Balista ، أوديناتوس ، وزنوبيا ، في الشرق - بوستوموس Posthumus ، لوليانوس Lollianus ، فيكتورينوس وأمه فكتوريا ، ماريوس ، تتركوس Tetricus في الغال والولايات الغربية - انجينوس Ingenuus ورجليانوس Regillianus ، وأوريولوس Aureolus في الليريكوم ومنطقة الدانوب - وساتورنينوس Saturninus في بلاد بنطس - وتربليانوس Trebellianus في ايزوريا (في اقليم طوروس) - وبيزو Piso في تساليا - فالنز Valens في آخيا Achia - امليانوس في مصر - سلسوس Celsus في اثريقية . وقد نجد مشقة في تبيان آثار كل منهم في حياته ومماته ، وهو كذلك عمل لا غناء فيه ولا لذة ، وقد نكتفى بالتفكير في الطبايع العامة التي تميز أحوال العصر وسلوك الرجال . زاعمهم وبواعثهم ومصيرهم ، والنتائج الويلة ، التي نجمت عن اغتصابهم الحكم .

من المعروف جيداً أن السلطة التريهية « طاغية » غالباً ما كان يستعملها القدامى للدلالة على مجرد الاستيلاء غير الشرعى على زمام السلطة العليا ، دون اشارة الى سوء الاستغلال . وكان كثير من المدعين الذين رفعوا راية العصيان ضد الامبراطور جالينوس ، نماذج مشرقة

للفضيلة ، وكادوا جميعا يتحلون بقسط كبير من النشاط والمقدرة ، وقد اهلتهم مواهبهم وجدارتهم لنيل الحظوة لدى فاليريان الذى رفعهم تدريجا الى اهم مراتب الامبراطورية . اما القواد الذين حظوا بلقب أوغسطس ، فقد كان جنودهم يحبونهم لسلوكهم الذى يتسم بالكفاية والمقدرة ولصرامة النظام الذى يسود الجيش ، او يعجبون بهم لشدة باسهم ونجاحهم فى الحرب ، او يحبونهم من أجل صراحتهم وكرمهم . وكان ميدان النصر ، هو فى الغالب مقر انتخابهم ، وحتى ماريوس صانع الأسلحة والدروع ، أحق طالبى العرش بالزراية والاحتقار ، كان يتميز على أية حال بشجاعة لا تليق بقوة لا تبارى ، وبأمانة مطلقة ، وقد ألقت مهنته الحديثة الدنيئة فى الواقع ظلا من المسخف والسفاهة على ترقيته ، ولكن نشأته ، أو مولده ليس أكثر خمولا وضعة من غالبية منافسيه الذين ولدوا من آباء فلاحين وانخرطوا فى الجيش كأنفار أو عساكر عاديين . وفى وقت الفوضى والاضطراب يجد كل ذكى نشيط المكان الذى حددته له الطبيعة ، وفى حالة الحرب العامة تكون الموهبة العسكرية هى السبيل الى المجد والعظمة ، وكان تتركوس عضو السناتو الوحيد بين الطفلة التسعة عشر ، كما كان بيزو وحده من النبلاء . وجرى دم نوما Numa ، لثمانية وعشرين جيلا متعاقبة ، فى عروق كالفورنيوس بيزو الذى جاز له بمقتضى زيجات من سيدات من أسرته ، أن يدعى حق عرض صور كراسوس وبومبي الكبير فى بيته . وكان أسلافه يكرمون دواما بكل الأمجاد التى كانت الجمهورية تستطيع أن تمنحها . وأسرة كالفورنيوس هى الوحيدة ، من بين الأسرات القديمة فى روما ، التى أفلتت من طغيان القياصرة ، وقد أضفت صفات بيزو الشخصية مزيدا جديدا من السناء والرفعة على محتده الكريم . واعترف الفاصب فالنس ، الذى قتل بيزو بأمر منه ، فى ندم عميق ، بأن العدو نفسه كان ينبغى أن يجلب بيزو ويرعى له حرمة ، وعلى الرغم من أنه قضى نحبه فى الحرب ضد جالينوس ، إلا أن السناتو — بترخيص كريم من الامبراطور ، قرر منح أوسمة النصر لذكرى الناصر الفاضل .

وكان ولاية فاليريان يعترفون له بفضل الوالد الذى قدره تقديرًا . ولكنهم احتقروا أن يخدموا ابنه التافه غير الجدير بالملك ، السادر فى خمول الترف وبلادة البذخ . ولم يكن يدعم عرش العالم الرومانى أى مبدأ من مبادئ الولاء . وقد يكون من السهل أن تعتبر خيانة مثل هذا الأمير وطنية وولاء للدولة . على أنه يتضح لنا من الفحص الدقيق لسلوك هؤلاء الفاصبين أنهم كانوا فى الكثير الغالب مسوقين الى الثورة بدافع من مخاوفهم ، أكثر منهم باغراء من مطامعهم . لقد توجسوا خيفة

من شكوك جالينوس الغاشمة ، ومن النزوات العنيفة الطائشة لقوات الجيش . فاذا أعلن الجيش دون تبصر ، نتيجة لحبه المحفوف بالخطر ، استحقاقهم للعرش ، فكأنما واناهم الدمار المحقق ، ومن ثم يكون من الأفضل التمتع بالامبراطورية ، لفترة قصيرة . وهنا تكون تجربة الحظ في الحرب خيرا من انتظار يد الجلاذ — ولما أسبغت هتافات الجنود على هؤلاء الضحايا غير الراغبين شعارات السلطة الملكية، حزنوا ورثوا في أنفسهم لدنو أجلهم . وقال ساتورنينس Saturninus يوم اعتلائه العرش « لقد فقدتم قائدا نافعا ، وصنعتم امبراطورا شقيا تعيسا » .

وكانت الثورات المتكررة تبرير مخاوف ساتورنينس ، فان أحدا من الغاصبين التسعة عشر الذين ظهروا في أيام جالينوس ، لم ينعم في حياته بالسلام أو الهدوء أو بيئة طبيعية، فانهم حالما يرتدون الحلة الامبراطورية الملوحة بالدم ، يروحون الى أتباعهم وأشباعهم بنفس المخاوف والظلموح الذي دعا الى ثورتهم ، لقد أحاطت بهم المؤامرات الداخلية والفتن العسكرية والحروب الأهلية حتى ارتعدوا فرقا على حافة هاوية لن يجدوا عنها مصرفا بعد فترة من القلق طالت أو قصرت . وتلقى هؤلاء الملوك المزعزعون من التكريم والأمجاد ما شاء ملق ورياء جيوشهم وولاياتهم أن يضفيه على كل منهم . ولكن دعواهم المؤسسة على الثورة لا يمكن أن تحصل على ضمان وسند من القانون أو التاريخ . والتزمت إيطاليا وروما والسناثو جانب الامبراطور ، واعتبروه سيد الامبراطورية . وتنازل الأمير في الحقيقة فاعترف بانتصار قوات أوديناتوس الذي استحق التكريم والتشريف لسلوكه الكريم الذي التزم به دوما ازاء ابن فاليريان ، فمنح السناثو ابن تدمير الباسل لقب أوغسطس وسط مظاهر الاستحسان العام من الشعب الروماني ، وبموافقة جالينوس . ويبدو أنه عهد اليه بحكومة الشرق ، التي كان يتولاها بالفعل ، بدرجة من الاستقلال ، حتى انه أوصى به لأرملته الشهيرة زنوبيا ، وكأنه تركة وراثية .

وربما كان في الانتقالات السريعة المستمرة من الكوخ الى العرش ، ومن العرش الى القبر تسلية لفيلسوف عديم الاكتراث ، اذا استطاع الفيلسوف أن يستمر على الاستهتار وعدم الاكتراث وسط الكوارث العامة التي تنتاب الجنس البشرى . وكان في انتخاب هؤلاء الأباطرة المزعزين وفي سلطانهم وموتهم وبال على رعاياهم وانصارهم : ألم يكن ثمن هذا الارتقاء الميت يسدد فورا للقوات في هبات سخية تبتز من بطون الشعب المنهوك ، ومهما كان خلقهم كريما فاضلا ، ومهما كسانت

نزعاتهم طيبة نقية ، فقد وجد هؤلاء الغاصبون أنفسهم مضطرين الى الانحطاط الى مستوى الضرورة الملحة لارتكاب الكثير من أعمال السلب والنهب والقسوة لتدعيم هذا السلطان الذي اغتصبوه . وكانوا اذا سقطوا يطوون معهم الجيوش والولايات في هوة السقوط . ولا يزال يوجد حتى الآن أمر وحشي أصدره جالينوس الى أحد وزرائه بعد قمع انجينيوس الذي كان يطالب بالعرش في الليريكوم ، يقول فيه الأمير الناعم المجرى من الروح الإنسانية : « ليس يكفي أن تبديد كل من يحمل سلاحا ، فقد حققت فرصة المعركة أغراضها بنفس القدر ، ولكن يجب أن نقضى على الذكور من مختلف الأسنان ، شريطة أن تدبر ، في حالة اعدام الأطفال والشيوخ ، الوسائل الكفيلة بانقضاء سمعتنا ، فليمت كل من تفوه بعبارة عدائية ، أو راوده تفكير عدائي ضدى ، ضدى أنا ، ابن فاليريان ، والوالد والأخ لكثير من الأمراء . تذكر أنهم صنعوا من انجينيوس امبراطورا ! مزق ، اذبح ، اقطع اربا اربا ، انى اكتب اليك بيدي ، لعلى أوحى اليك بمشاعري » . وانغمست القوات العامة للدولة في النزاعات الخاصة ، على حين بقيت الولايات العزلاء الخالية من الدفاع معرضة للغزاة . واضطر أشجع الغاصبين ، نتيجة لاضطراب مواقفهم ، الى عقد معاهدات مغرية مع العدو المشترك ، والى شراء حياد المتبريرين أو خدماتهم لقاء أتاوة فادحة ، والى اتمام أمم معادية مستقلة على قلب الامبراطورية الرومانية .

هكذا كان المتبررون ، وهكذا كان الطفافة على عهد فاليريان وجالينوس ، فقد مزقوا الولايات ، وانزلقوا بالامبراطورية الى أدنى مهاوى العار والدمار ، حتى بدا من المتعذر انتشالها منها قط . لقد حاولنا ، قدر ما سمحت به ضالة البواد ، أن نتعقب في نظام ووضوح الأحداث العامة في هذه الفترة المليئة بالنكبات ، ويبقى بعد ذلك بعض حقائق معينة قد تعكس ضوءا أقوى على الصورة القائمة الرهيبة :

١ — الاضطرابات في صقلية .

٢ — الشعب في الاسكندرية .

٣ — الثورة في ايزوريا .

١ — اذا تحدثت عصابات اللصوص وقطاع الطرق التي تنمو وتتكاثر بفضل ما تصادف من نجاح وأمان من العقاب والحساب — اذا تحدثت العدالة في بلدها علنا ، دون مجرد الافلات من يدها ، فلنا أن نستخلص مطمئنين — أن أخط طبقات الجماعة قد أحست واستغلت اغراط الحكومة في الضعف . ان موقع صقلية حماها من المتبريرين ،

كما أن الولاية العزلاء من السلاح ما كانت لتحتل غاصبا . فان الجزيرة التي كانت يوما مزدهرة ، والتي لا تزال تربتها خصبة ، عانت ما عانت على أيدٍ أخط وأدنا . فقد سيطرت جماعة فاجرة من العبيد والفلاحين على البلد السليب بعض الوقت ، وأعادت الى الأذهان ذكرى حروب العبيد في الأزمنة السحيقة ، ولابد أن عمليات التخريب والتدمير ، التي كان الفلاح ضحية لها أو شريكا فيها ، قد اتلفت زراعة صقلية ، ولما كانت الضياع الرئيسية فيها ملكا للأثرياء من شيوخ السناتو في روما ، الذين أدخلوا في نطاق مزارعهم مساحات كانت ملكا للجمهورية القديمة ، فانه لم يكن من غير المحتمل أن تتأثر العاصمة بهذه الأضرار الخاصة ، أكثر منها بغزوات القوط والفرس .

٢ - كان تأسيس الاسكندرية مشروعاً عظيماً ارتآه ونفذه معا ابن فيليب . وكان محيط هذه المدينة العظيمة - ذات الشكل الجميل المنتظم ، الثانية بعد روما - يبلغ خمسة عشر ميلا ، يقطنها نحو ثلثمائة ألف من الأحرار ، فضلا عن عدد مساو لهم على الأقل من العبيد . وتدفقت تجارة الهند وبلاد العرب الرابحة الى عاصمة الإمبراطورية وولاياتها عن طريق ميناء الاسكندرية . ولم تعرف المدينة الى الخمول سبيلا . فاشتغل أناس بنفخ الزجاج وآخرون بنسج الكتان وصناعة البردى . فكلما الجنس من مختلف الأسنان كان مشغولا في مطالب الصناعة ، بل إن الكفيف أو الأعمى لم يعدم عملا يتناسب مع حالته . ولكن أهل الاسكندرية ، وهم خليط متباين من الأمم ، جمعوا غرور الأغريق وترفعهم الى خرافة المصريين وعنادهم . فان أنفقه مناسبة : مثل نقص طاريء في اللحوم أو العدس ، أو إهمال في تحية مألوفة ، أو خطأ في تقاليد الحمامات العامة ، أو حتى نزاع ديني - كانت كنيعة في أي وقت باثارة الشغب بين الجمهور الذي كان في غيظه وحنقه شرسا لا يرحم . وبعد أن أضعف أسرفا ليريان ووقاحة ابنه من سلطان القانون ، أرخى السكندريون العنان لأهوائهم ، في حدة لا ضابط لها . وأضحى بلدهم المنكود مسرحا لحرب أهلية ، استمرت (مع قليل من هدنات قصيرة مشكوك فيها) أكثر من اثني عشر عاما . وانقطع الاتصال بين الأحياء الكثيرة في المدينة المنكوبة ، وتلطخت الشوارع كلها بالدماء ، وتحول كل بناء مقيم الى قلعة ، ولم يهدأ الهياج الا بعد أن دمر من المدينة جزء كبير بشكل لا يمكن معه تعويضه . وكان قسم بروشيون Bruchion الفسيح الفخم ، حي القصور والمتحف ، مقر ملوك مصر وفلاسفتها ، وقد وصفه بعضهم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، فقال انه انحط بالفعل الى ما هو عليه الآن من عزلة موحشة .

٣ — أسفرت الثورة الغامضة التي قام بها تريليانوس الذي اتخذ لنفسه لقب الامبراطور في ايزوريا — وهى ولاية صغيرة فى آسيا الصغرى — عن نتائج غريبة تستحق الذكر ، فسرعان ما أفسد أبهة الملك أحد ضباط جالينوس ، ولكن أتباعه قد يثسوا من الرحمة أو الرفق بهم ، وقرروا أن يطرحوا ولاعهم — لا للامبراطور وحده — بل للامبراطورية بأسرها كذلك . وعادوا فجأة الى سلوكهم الوحشى الأول الذى لم يتخلوا عنه تماما قط . وأمنت بصخورهم الشاهقة — ثرع من جبال طوروس الواسعة الامتداد — لهم ملاذا منيعا لا يمكن معه الوصول اليهم . وفلحوا بعض الأرض الخصبة فزودتهم بضرورات المعيشة ، كما هيات عادة السلب والنهب لهم حياة الترف والبذخ . لقد بقى أهل ايزوريا أمدا طويلا أمة من المتبريرين المتوحشين فى قلب الامبراطورية الرومانية ، وعجز الأمراء المتعاقبون عن ردهم الى الطاعة بالسيف أو بالسياسة ، حتى اضطروا — اقرارا منهم بالضعف — الى احاطة هذه البقعة المعادية المستقلة بسلسلة طويلة من التحصينات التى ثبت فى كثير من الأحيان أنها غير كافية لصد غارات هؤلاء الأعداء المحليين ، ومد الأيزوريون رقعتهم الى ساحل البحر ، ومن ثم أخضعوا الجزء الغربى الجبلى من قيليقيا ، الذى كان من قبل وكر هؤلاء القراصنة الجريئين ، الذين اضطرت الجمهورية يوما الى أن توجه اليهم أعظم قوة تحت امرة بومبى الكبير .

ان من عاداتنا فى التفكير أن نوجد صلة وثيقة بين نظام الكون وبين مصير الانسان ، الى حد أن هذه الحقيقة الكونية من التاريخ ملئت بالفيضانات والزلازل والظواهر الجوية الشاذة والظلمة الخارقة للعادة ، ومجموعة من الأعاجيب الملفقة أو المبالغ فيها . ولكن كانت هناك المجاعة العامة التى دامت زمنا طويلا ، وكانت كارثة أشد واقسى ، وكانت النتيجة الحتمية للسلب والنهب والظلم الذى استنزف المحاصيل الحاضرة والمرتبقة ، وغالبا ما تجيء الأوبئة فى أعقاب المجاعة ، نتيجة للتغذية الضئيلة غير الصحية . ولابد أن هناك أسبابا أخرى عملت على ظهور الطاعون الرهيب ، الذى اكتسح دون توقف من سنة ٢٥٠ — ٢٦٥ م كل ولاية وكل مدينة ، بل كل أسرة فى الامبراطورية الرومانية ، وجاء وقت كان يموت فيه فى روما خمسة آلاف شخص يوميا ، وثمة مدن أفلتت من أيدي المتبريرين ، ولكنها الآن أقفرت من أهلها بفعل الطاعون .

وامانا الآن شئ غريب حقا ، قد يكون ذا دلالة ، فى هذا التقدير المحزن لكوارث الانسان . فقد حفظ فى الاسكندرية سجل دقيق للمواطنين الذين يحق لهم تسلم الغلال الموزعة ، وقد وجد أن العدد

القديم المدرج فى السجل لمن هم بين الأربعين والسبعين سنة كان مساويا لمجموع الطالبين من الرابعة عشرة الى الثمانين ، أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد عصر جالينوس . فاذا طبقنا هذه الحقيقة الرسمية الموثوقة على أصح جداول المواليد والوفيات ، لثبت بوضوح أن أكثر من نصف سكان الاسكندرية ، قد هلك . فاذا تجرأنا على الامتداد بهذا القياس الى سائر الولايات ، لجاز أن نظن أن الحرب والوباء والمجاعة تفضت على نصف الجنس البشرى .

انحصار المد

الفصل الحادى عشر

(٢٦٨ - ٢٧٥ م)

زنوبيا ومملكة تدمر • انتصار أورليان ووفاته

تولى العرش بعد جالينوس سلسلة من الأباطرة الأقوياء الذين قال عنهم جيون بالنص : « انهم يستحقون اللقب المجيد : معيد بناء العالم الرومانى » • وقد أصلح الامبراطور الجديد كلوديوس الجيش ، وأحرز انتصاراً فريداً على القوط • وأنهى خلفه أورليان Aurelian الحروب مع القوط بحصرهم فى ولاية داشيا وسحب القوات من جبهة داشيا • وصد بعد ذلك قبائل الليمانى ، واسقط تتركوس الذى كان قد ادعى لنفسه السيادة فى بلاد الغال واسبانيا وبريطانيا • أما هزيمة تتركوس التى وصفها جيون فى سنة ٢٧١ فالمعروف انها اعقبت سقوط زنوبيا ، وانها وقعت فى سنة ٢٧٤ •

ما كاد أورليان يستولى على ولايات تتركوس ويقبض عليه ، حتى أسرع بتوجيه قوته الى زنوبيا ملكة تدمر والشرق المشهورة ، وقد أنجبت أوربا الحديثة عدة نساء لامعات احتملن عباء الامبراطورية ، احتمالا مجيدا ، وليس عصرنا نحن خاليا من مثل هذه الشخصيات الفذة . ولكننا اذا استثنينا منجزات سميراميس (١) المشكوك فيها ، فربما كانت زنوبيا هى السيدة الوحيدة التى شقت فيقريتها الفذة أستار الخمول الذليل الذى فرضه على جنسها مناخ آسيا وقواعد السلوك فيها • وادعت انها انحدرت من الملوك المقدونيين الذين حكموا مصر • وكانت تستوى فى الجمال مع سلفها كليوباترا ، ولكنها فاقتها عفة وطهارة

(١) • - اشهر ٨١٠ - ٨٠٦ ق.م اشتهرت بالجمال والحكمة - تقول الاساطير انها هى التى أسست بايل - (المترجم) •

وجراة وشجاعة ، وقد قدروا أن زنوبيا ألطف بنات جنسها وأكثرهن بطولة . وكانت سمراء الوجه (وهذه الأشياء التافهة تصبح هامة عند الكلام عن سيدة) ذات أسنان ناصعة البياض كاللؤلؤ . وفاضت عيناها السوداوان حيوية غير عادية ، مع رقعة جذابة الى أبعد حد . وكان صوتها قويا مطربا . وكان لها ادراك رجل ، وقد زادت منه وزينته بالدرس ، ولم تكن تجهل اللغة اللاتينية ، ولكنها كانت تجيد اليونانية والسريانية والمصرية بنفسى القدر . ولقد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق ، وألفت أن تعتد الموازنة بين روائع هوميروس وأفلاطون تحت اشراف لونجينس Longinus الجليل .

وتزوجت هذه المرأة المهذبة المثقفة من أوديناتوس الذى ارتقى بنفسه من مركز خاص محدود الى السيطرة على الشرق ، وسرعان ما أصبحت هى صديقة البطل ومرافقته ، وكان أوديناتوس ، فى أوقات الحروب ، يسر غاية السرور بممارسة الصيد ، فتعقب فى حماسة وشغف وحوش الصحراء الكاسرة مثل الأسد والنمر والدب . ولم يقل تلهف زنوبيا على هذه التسلية الخطرة عن تلهفه . وقد عودت جسمها وبنيتها على التعب والجهد واحتقرت استخدام عربة مكشوفة ، وظهرت بصفة عامة فى لباس عسكري متطية جوادا ، وسارت أحيانا على قدميها عدة أميال على رأس القوات . ونسب نجاح أوديناتوس — الى حد كبير — الى حسن بصرها بالأمور وجلدها وثباتها ، وكلها صفات منقطعة النظير . ووضعت أسس وحدة الشهرة والقوة بينهما تلك الانتصارات الرائعة على الملك المعظم الذى تعقبوه مرتين الى أبواب طيسفون Ctesiphon (المدائن) ولم تعترف الجيوش التى توليا قيادتها، أو الولايات التى أنقذها بأى سيد آخر سوى هذين الرئيسين اللذين لا يقهران . وكرم السناتو وشعب روما الرجل الغريب الذى ثار لامباطورهم الأسير . بل ان نفس الابن الجامد الفاقد الاحساس — ابن فاليريان — ارتضى أوديناتوس زميلا شرعيا له .

وبعد حملة موفقة ضد قطاع الطرق القوطيين فى آسيا عاد ملك تدمر الى مدينة حمص فى سوريا . وهناك أجهزت الخيانة الداخلية على الرجل الذى لم يقهر فى الحرب ، وكانت هوايته المفضلة — صيد الوحوش — هى السبب ، أو على الأقل المناسبة المواتية لموته . ذلك أن ابن أخيه ماؤنيوس Moeonius حسب أن يضرب ضربته قبل أن يسبقه عمه . وقد حذر من الوقوع فى هذا الخطأ الا أنه استمر سادرا فى غيه . وشارت ثائرة أوديناتوس ، وهو الملك الرياضى ، ونزل عن جواده وأبعده — وتلك دلالة العار عند المتبريرين — وعاقب الشاب الطائش بالحبس

لمدة قصيرة . وسرعان ما نسي الشاب ما قدمت يداه ، ولكن عقاب الحبس ظل عالقا بذاكرته ، وقتل ماؤنيوس مع جماعة من أعوانه الجريئين عمه وسط احتفال كبير ، وقتل معه هيرود ، ابنه من غير زنوبيا ، وكان شابا ذا مزاج رقيق أنثوى . ولم يصب ماؤنيوس من فعلته النكراء الا فرحة الانتقام ، فلم يكد يتسع له الوقت ليتخذ لنفسه لقب أوغسطس قبل أن تضحي به زنوبيا تكريما لذكرى زوجها .

وتبوءت زنوبيا نورا على العرش الخالي بمعونة أخلص أصدقاء زوجها ، وحكمت في عزم الرجال تدبر وسوريا والشرق لأكثر من خمس سنوات . وكانت قد انتهت بهوت أوديناتوس تلك السلطة التي كان السناتو قد حولها اياه وحده ، بوصفها امتيازا شخصيا له . ولكن الأرملة العسكرية المحاربة احتقرت السناتو وجالينوس كليهما ، وأرغبت القائد الروماني الذي أرسل لمحاربتها على العودة الى أوربا بعد أن فقد جيشه وشهرته ، وسارت زنوبيا في ادارتها الحازمة على هدى من أحكم مبادئ السياسة بدلا من أن تتردى في حماة الأهواء التافهة التي كثيرا ما تشوب حكم النساء ، فإذا كان الأوفق أن تغفو وتصفح ، استطاعت أن تحد من غضبها وتخفف من غلوائها ، وإذا كان لزاما أن تبطش استطاعت أن تخرس نداء الشفقة والرحمة . وقد اتهم اقتصادها الدقيق بالبخل ، ولكنها ظهرت في كل مناسبة صحيحة بمظهر الجلال والسخاء . واستشعرت الدول المجاورة : العرب وأرمينيا وفارس ، الرهبة من عدائها وتوسلت لمحالفتها ، وأضافت الأرملة الى ممتلكات أوديناتوس التي كانت تمتد من الفرات الى حدود بيشنيا ، الملكة الخصبة الآهلة بالسكان التي كانت قد ورثتها عن أسلافها ، وهى مصر ، وأقر الامبراطور كلوديوس بفضلها ، وكان مقتنعا بأنه في الوقت الذى يتابع فيه الحرب مع القوط ، ستنبت هى مكانة الامبراطورية في الشرق ، ومهما يكن من أمر فان سلوك زنوبيا كان يشوبه شيء من الغموض ، وليس من المستبعد أن يكون قد جال بخاطرها مشروع اقامة مملكة مستقلة معادية ، لقد مزجت زنوبيا قواعد السلوك المألوفة لدى أمراء الرومان بشيء من الأبهة والجلال المعروفين فى بلاط أمراء آسيا . وكان رعاياها يعبدونها كما كان خلفاء كورش يدعون . وعلمت أبناءها الثلاثة تعلما لاتينيا ، وكثيرا ما أظهرتهم أمام الجيش فى الحلة الامبراطورية ، أما هى فقد احتفلت لنفسها بالتاج مع لقب الفخم المشكوك فيه « ملكة الشرق » .

ولما عبر أوريليان الى آسيا ، فى اثر عدوة ، لها من جنسها وحسده ما يدعو الى الزرابة والسخرية ، أعاد رجوده ولاية بيشنيا الى حظيرة

الطاعة والولاء ، وكانت قوات زنوبيا وديسانسها قد هزت كيان هذه الولاية . وتقدم على رأس جيشه فتقبل ولاء مدينة أنسيريا Ancera ودخل مدينة تيانا Tyana بمعونة مواطن غادر بعد حصار شديد . وتخلّى أوريليان الكريم الطبع ، والقاسى رغم ذلك ، عن هذا الخائن للجنود في سورة غضبهم ، فان احتراماً خرافياً حفزه الى معاملة مواطنى الفيلسوف أبولونيوس Appolonius (١) برفق ولين . أما إنطاكية فقد هجرها أهلها لدى اقتراب الامبراطور منها ، الى أن أصدر الامبراطور مراسيم لعلاج هذه الحالة استدعى فيها النازحين للعودة ومنح عفوا عاما عن كل من كانوا يعملون في خدمة ملكة تدمر ، كرها بحكم الضرورة ، لا طواعية واختيارا . وهذا من روع السوريين هذا الاعتدال غير المتوقع ، ومن ثم تقدم الى أبواب حمص ، ومن ثم عززت رغبات الشعب ارهاق الجيش على طول الطريق حتى أبواب حمص .

وما كانت زنوبيا لتستحق شهرتها لو انها تراخت وسمحت لامبراطور الغرب بالاقتراب الى مسافة مائة ميل من عاصمتها . ولقد تحدد مصير الشرق في معركتين عظيمتين تكادان تتشابهان في كل النواحي تقريبا ، حتى يكاد يتعذر التمييز بينهما ، اللهم الا اذا لاحظنا أن واحدة منهما وقعت قرب انطاكية ، والثانية قرب حمص . وفي كلتا المعركتين أثارت زنوبيا حمية الجنود بوجودها بينهم ، وعهدت بتنفيذ أوامرها الى زابداس Zabdas الذى برزت بالفعل مواهبه العسكرية في فتح مصر . وكان الجزء الأكبر من قوات زنوبيا الضخمة يتألف من رماة السهام الخفاف ، ومن الخيالة الثقيلة المدرعة بالصلب ، فلم يقو فرسان جيش أوريليان ، المتطين جيادا: عربية أو الليبية ، على تحمل الهجوم الثقيل من جانب عدوهم ، فهربوا في غير نظام ، تصنعا أو حقيقة ، فأرهبوا جيش تدمر في تعقبه لهم وضايقوه بمناوشات منقطعة ، وفي النهاية دحروا هذا الكيان من الفرسان الذى كان يصعب النفوذ اليه ، ولكنه كان مرتبكا ثقيل الحركة . ولما نفد ، فى نفس الوقت ، ما فى جعبة المشاة الخفيفة ، وأصبحوا ولاعاصم لهم من أية مباداة قريبة ، تعرضت جوانبهم العارية لسيوف القوات الامبراطورية . وكان أوريليان قد اختار هذه القوات المحنكة التى رابطت عادة فى أعالي الدانوب ، والتى امتحنت صلابتها وبأسها أقسى امتحان فى حرب الألمان . ووجدت زنوبيا بعد هزيمة حمص ، أنه من المتعذر جمع جيش ثالث ، وانضوت

(١) ولد أبولونيوس فى تيانا حوالى الوقت الذى ولد فيه السيد المسيح عليه السلام . وقد روى تلاميذ أبولونيوس قصة حياته فى شكل خرافى الى حد الحيرة فى الكشف عن هويته : أهر حكيم أم دجال أم متعصب .

تحت لواء الفاتح كل الأمم التي كانت خاضعة لزنوبيا حتى حدود مصر . وأصبحت تدمر الملجأ الأخير لأرملة أوديناتوس ، وقبعت داخل أسوار عاصمتها ، وقد أعدت كل العدة لمقاومة صلبة ، وأعلنت في شجاعة بطولية أنها لا بد أن تقرر نهاية حياتها بنهاية حكمها .

وتنشأ وسط الصحراء القاحلة بقاع قليلة مزروعة ، وكأنها جزر في بحار من الرمال . وحتى اسم تدمر أو بالميرا ، يدل في اللغتين السريانية واللاتينية على مجموعة ضخمة من النخيل الذي يظل هذا الاقليم المعتدل ويكسبه نضرة وخضرة . وكان هواؤه نقيًا ، وكان من الميسور انتاج الفواكه والفلال حيث تروى الأرض بواسطة بعض ينابيع عظيمة . وسرعان ما ترددت على هذا المكان ذى المزايا الفريد الواقع على مسافة مناسبة بين الخليج الفارسي (العربي) والبحر المتوسط — القوافل التي حملت الى أمم أوروبا جزءا كبيرا من تجارة الهند الثمينة ، ونمت بالميرا — بطريقة غير ملحوظة — الى مدينة غنية مستقلة ، سمح لها بالتزام جانب الحياد المتواضع ، حيث كانت تربط بين دولتى الرومان وبارثيا عن طريق المصالح التجارية المتبادلة . ولكن الجمهورية الصغيرة ، ارتمت في النهاية ، بعد انتصارات تراجان ، في أحضان روما ، وازدهرت لمدة تزيد على مائة وخمسين عاما ، بوصفها مستعمرة ذات مركز ثانوى تابع ، ولكنه مشرف . وإذا استطلعنا أن نستخلص شيئا من بعض النقوش القليلة الباقية ، فانه يمكن القول بان فترة الهدوء والسلم هذه ، هى التى شيد فيها أهل بالميرا الموسرون — على الطراز الاغريقى — هذه المعابد والقصور والأروقة ، التى نجد اطلالها مبعثرة على مدى عدة أميال ، تجذب سياحنا وتثير فضولهم ، ويبدو أن ارتفاع أوديناتوس وزنوبيا عكس على البلد سناء جديدا ، وباتت لفترة من الوقت منافسة لروما ، ولكن المنافسة كانت قتالة ، فضحيت عصور طويلة من الازدهار والرخاء من أجل برهة قصيرة من الجد .

وكان العرب كثيرا ما يزعمون أوريليان فى الصحراء بين حمص وتدمر ، ولم يكن يستطيع حماية جيشه ، وخاصة العتاد والمهمات ، ضد هذه المعصابات الطائرة من اللصوص المتلئين جراءة ونشاطا ، الذين ترقبوا فرصة المناجاة ، وافلتوا من القوات التى تتعقبهم ببطء . وكان حصار تدمر أمرا أشق وأهم كثيرا . وأصيب الامبراطور الذى تولى بنفسه الهجوم فى عزم وصلابة ، بجرح من احدى النبال . وقال أوريليان فى خطاب له : « ان الشعب الرومانى يتحدث فى استهزاء وسخرية عن الحرب التى أشعلها قائد امرأة . ولكنهم يجهلون شخصية زنوبيا وموتها .

وانه لمن العسير أن تحصي معداتها الحربية ، من الحجارة والسهم ، وكل أنواع القذائف ، وكان كل جزء في الأسوار مزودا باثنين أو ثلاثة من المجانيق للقذف بالحجارة ، كما كانت النار الصناعية تقذف باللهب من كل جانب . كما ملأ الخوف من الحصار نفسها بشجاعة مستميتة . ومع كل هذا فاني ما أزال كبير الثقة في حماية آلهة روما ، تلك الآلهة التي كانت الى جانبي حتى الآن في كل ما قمت به من أعمال » . ومهما يكن من أمر ، فان أوريليان ساوره الشك في رعاية الآلهة وفي نتيجة الحصار ، الى حد انه ارتأى انه من الحكمة أن يعرض عليهم التسليم بشروط أجدى وأنفع ، فعرض على الملكة انسحابا كريما ، وعلى المواطنين الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة . ورفضت شروطه بآباء وشمم ، بل اقترن الرفض بالاهانة .

والحق أن صلابة زنوبيا كانت ترتكز على الأمل في أن ترغم المجاعة جيش الرومان على التعتيل بمفادرة الصحراء في أقرب فرصة ، وعلى التطلع المعقول الى أن ملوك الشرق ، وخاصة عاهل الفرس ، لابد أن يبتشئوا الحسام دفاعا عن حليفهم الطبيعي الى أبعد حد . ولكن حظ أوريليان ومثابرته ذللا كل عقبة وقلبا الآلة ، ذلك أن موت شابور في تلك الأثناء ، أذهل والهي مجالس الفرس . وكان من السهل على حراب الامبراطور وسخائه أن يقطعا الطريق على النجيدات الهائلة التي حاولت انقاذ تدمر . وتتابع بانتظام وصول القوافل بسلام من مختلف أنحاء سوريا الى معسكر الرومان الذي زاد عدده . برجع بروبوس Probus بقواته الظافرة بعد غزو مصر . وعندئذ قررت زنوبيا الهرب ، فامتطت أسرع هجتها ، وما كادت تصل الى شواطئ الفرات ، على بعد ستين ميلا من تدمر ، حتى أدركها فرسان أوريليان على جيادهم الخفيفة التي جدت السير في أثرها ، وقبضوا عليها وعادوا بها أسيرة بين قسدي الامبراطور . وسرعان ما سلمت عاصمتها بعد ذلك ، وعولت في رفق لم يكن متوقعا . وسلمت الأسلحة والخيول والجمال مع ثروة ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة الى الامبراطور الذي ترك حامية قوامها ستمائة قواس ، وعاد الى حمص ، حيث قضى بعض الوقت في توزيع الثواب والعقاب في نهاية حرب مشهودة ، أعادت الى حظيرة روما تلك الولايات التي كانت قد شقت عليها عصا الطاعة منذ أسر فاليريان .

ولما مثلت الملكة السورية بين يدي أوريليان سألها مسهبا : « كيف اجترأت على حمل السلاح في وجه أباطرة الرومان ؟ » فكان جواب زنوبيا مزيجا حكيما من الاحترام والحزم والعزم : « لآني انحقرت أن

اعتبر أمثال أوريولوس أو جالينوس أباطرة رومان ، ولكنى أتبر .
بأنك أنت وحدك ملك وفاتح » . ولكن جلد النساء عادة مصطنع ،
ويندر أن يكون ثابتاً أو متماسكاً . فان زنوبيا خانتها شجاعته في ساعة
المحاكمة ، وارتعدت فرائصها لدى سماعها لصيحات الجنود الذين
طالبوا بإعدامها فوراً ، ونسيت موقف كليوباترا الكريم البائس ، التي
اتخذتها نموذجاً لها . واشترت ، شراء مخزياً شائناً ، حياتها بتضحية
شهرتها وأصدقائها ، الذين نسبت وزر تحديها العنيد الى نصائحهم التي
ساست ضعف النساء . ومن ثم وجهت اليهم انتقام أوريليان الغاشم
القاسى . وستخلد شهرة لونجينوس الذى حشر في زمرة ضحاياها
الكثيرين ، وربما الأبياء ، بعد شهرة الملكة التي غدرت به أو الطاغية
الذى أعدمته . ولم تجد العبقرية والعلم في تحريك جندى أمى شرس ،
ولكنهما نجحا في السمو بروح لونجينوس وانعاشها ، فانه تبع السيف
في هدوء دون أن ينبس ببنت شفة ، يندب سيدته العسة ، ويقدم العزاء
والسلوى لأصدقائه المنكوبين .

وما كاد أوريليان يعبر المضائق التى تفصل بين أوربا وآسيا ، عائداً
من فتوحاته في الشرق ، حتى فوجيء بالأنباء التى تقول بأن أهل تدمر
رفعوا راية العصيان من جديد وذبحوا الحاكم والحامية التى كان قد
تركها هناك . فلم يضيع لحظة واحدة في الأخذ والرد ، بل ولى وجهه
في الحال مرة أخرى شطر سوريا . وروعت مدينة أنطاكية لاقترباب
الامبراطور على عجل ، وأخست مدينة تدمر العاجزة البائسة وطأة حنقه
الذى لا يمكن دفعه . وهناك رسالة لأوريليان نفسه يعترف فيها بأن
الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين لم يسلخوا من الإعدام الرهيب
الذى كان خليقاً أن يقتصر على المتمردين المسلحين ، وعلى الرغم من أن
عنايته اتجهت الى إعادة بناء معبد الشمس ، فانه استشعر شيئاً من
الشفقة نحو من بقى من أهل تدمر ، فمنحهم ترخيصاً في إعادة بناء
مدينتهم وسكنهاها . ولكن الهدم أيسر من إعادة البناء . فقد انحط مركز
التجارة والفنون ومقر زنوبيا ، مع الأيام ، الى مدينة صغيرة خاملة ،
وحصن تافه ، ثم الى قرية تعسة في النهاية . وأقام مواطنو تدمر
الحاليون — وعددهم لا يجاوز ثلاثين أو أربعين أسرة — أكواخهم من
الطين في الفناء الفسيح للمعبد الفخم .

وثمة عمل آخر ، وهو الأخير ، كان ينتظر أوريليان الذى لا يكل
ولا يمل ، ذلك ان يخذ ثورة خطيرة ، ولو أنها غامضة ، قامت على
ضفاف النيل في اثناء ثورة تدمر . ولم يكن فرموس Firmus — صديق
أوديناتوس وزنوبيا وحليفهما ، كما كان يفخر بأن يسمى نفسه — أكثر

من مجرد تاجر ثرى فى مصر . وفى تجارته مع الهند وطد أوثق الصلات بينه وبين العرب والبلبيين Blemmyes الذين كانوا يقطنون على جانبى البحر الأحمر ، ومن ثم سهل اتصالهم بصعيد مصر ، والهلب فرموس نفوس المصريين بالأمل فى نيل الحرية ، وسار على رأس الجمهور الهائج الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور ، وسك النقود وأصدر الأوامر ، وكون جيشا كان يفخر عبثا بأنه يستطيع الاحتفاظ به والانفاق عليه من أرباحه من تجارة الورق وحدها . ولكن مثل هذه القوات لم تشكل الا دفعا هزىلا ضد الإمبراطور الذى كان يقترب من الميدان ، ونحن فى غنى عن القول بأن فيرموس هزم وأخذ وعذب ثم أعدم . واستطاع الآن أوريليان أن يهنئ السناتو والشعب ، ويهنئ نفسه ، لأنه تمكن فى ثلاث سنوات ، أو زد عليها قليلا من أن يعيد السلام والنظام شاملين الى ربوع العالم الرومانى .

انتصار أوريليان ووفاته

لم يكن ثمة قائد أجدر من أوريليان بالفوز والظفر ، منذ تأسيس روما ، كما لم يحفظ أى انتصار بمثل هذا الاعتزاز الكبير والأبهة العظيمة . وبدا الموكب بعشرين فيلا ، وأربعة نمور ملكية ، وأكثر من مائتين من أغرب الحيوانات من مختلف الأجواء فى الشمال والشرق والجنوب ، يتبعها ألف وستمائة من المجالدين المتفرغين لتسلية المدرج الخطيرة . وعرضت كنوز آسيا وأسلحة وشعارات أهم كثيرة ، ولوحة ملكة سوريا الفخمة وخزانة ملابسها فى ترتيب دقيق وخط خفيث . وكشف عن عظمة إمبراطور الرومان وقوته هذا الحشد الكبير من سفراء أقصى أهم الأرض : اثيوبيا وبلاد العرب وفارس وبكتريانا والهند والصين ، بملابسهم الفاخرة أو الفريدة فى بابها ، كما عرض الإمبراطور بدوره لأنظار الجماهير الهدايا التى كان قد تلقاها ، وبخاصة هذا العدد الكبير من التيجان الذهبية التى قدمتها له المدن العارفة لفضله . وشهد على انتصارات أوريليان هذا الحشد الكبير من الأسرى الذين ساروا كارهين فى ركابه المظفر ، من القوط والوندال والسارماتيين والألمان والفراجة والغال والسوريين والمصريين . وقد تميز كل شعب بكتابته الخاصة ، ومنح لقب « المجندات » لـ عشر بطالات محاربات من القوط أسرن بكامل أسلحتهن . ولكن العيوب تانت مركزة على الإمبراطور تقربكرس ، وعلى ملكة الشرق ، بصرف النظر عن سائر حشود الأسرى . وكان الأوا ، وابنه الذى أضفى عليه لقب أوغسطس ، يرتديان سروالا

غاليا (بنطلون يلبس في بلاد الغال) وتميضا زعفرانيا وردداء أرجوانيا(١). أما زنوبيا فقد كبت في أصفاد من ذهب ، وقد أمسك أحد العبيد بالسلسلة التي طوقت عنقها ، وكادت تنوء بما لا يحتمل من ثقل الحلى والمجوهرات التي عليها ، وسارت على قدميها أمام العربة الفاخرة التي كانت تؤمل يوما أن تدخل فيها أبواب روما . وتبعها عزبتان أخريان أمخر وأبهى من عربة أوديناتوس وعربة كسرى فارس . أما مركبة النصر ، الخاصة بأوريليان (والتي كان يستخدمها أحد ملوك القوط من قبل) فكان يجرها في هذه المناسبة المشهودة أربعة من الأوعال أو من الفيلة . واختتم المركب بأبرز أعضاء السناتو والشعب والجيش . وتعالقت هتافات الجميع معبرة عن الفرح الخالص والدهشة والامتنان . أما ارتياح السناتو فقد كدره ظهور تتركوس ، ولم يستطع شيوخ السناتو أن يكتفوا بتمهيمهم من أن يعرض الامبراطور المتعطر للسطح العام شخصا رومانيا وحاكما .

لكن أوريليان ، مهما أرضى غروره في معاملته لنفسه وأعدائه ، فإنه نهج معهم مسلكا كريما رحيمًا قل أن سلكه الفزاة القدامى ، حيث تنبرا ما كان يزج بالأمراء الذين دافعوا عبثا عن عروشهم وحياتهم في غياهب السجون ، بمجرد وصول مكعب النصر إلى الكابيتول . أما هؤلاء الغاصبون الذين دمغتهم هزيمتهم بجريمة الخيانة ، فقد رخص لهم في قضاء حياتهم في يسر وبحبوحة ، فقد أهدى الامبراطور زنوبيا فيلا جميلة في تيفولي ، على بعد خمسة وعشرين ميلا من العاصمة . وتحولت الملكة السورية دون أن تشعر إلى امرأة رومانية عنوان (متوسطة العمر) وتزوجت بناتها من أسرات نبيلة ، ولم يكن عنصرها ضد انقراض بعد في القرن الخامس . أما تتركوس وابنه فقد ردت إليهما وظائفهما وثرواتهما وشيدا قصرا فخما فوق تل كليان Caelian Hill ودعى اليه ، بمجرد الانتهاء منه أوريليان لتناول العشاء ، وفوجيء عند دخوله بمفاجأة لطيفة ، حيث وقع بصره على صورة تمثل منظرا فريدا في تاريخهما الفريد ، وهما يقدمان للامبراطور اكليل الفار وصولجان الغال ، وهما يتناولان من يده أوسمة عضوية السناتو . وأسندت إلى

.. (١) كان استخدام السراويل لا يزال يعتبر في إيطاليا زيا غاليا أو بربريا . وقد أدخل عليه الرومان تحسينات كثيرة على أية حال . أما لف الأرجل والأفخاذ بالعضائيب ، فكان يؤخذ في عهد بومبي وهوراس على أنه بلييل على اعتلال الصحة والانوثة . وكانت هذه العادة مقصورة في عهد تراجان على الأغنياء والمترايين ، ثم اقتبسها بالتدريج سافلة القوم .

تريكويس الوالد بعد ذلك حكومة لوكانيا Lucania . وسرعان ما مكن أوريليان أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملك المخلوع ، وتجاذب معه أطراف الحديث فسأله يوما في غير ما كلفة : أما كان من الأفضل أن يدير ولاية في إيطاليا أكثر من أن يحكم فيما وراء الألب ؟ أما الابن فقد بقى طويلا عضوا محترما في السناتو . ولم يحظ أحد من النبلاء الرومان بأكثر مما حظى هو بتقدير أوريليان وخلفائه .

واستطال وقت موكب النصر وتنوعت عروضه . فقد بدأ مع خيوط الفجر ، ولكن الموكب كان يتهادى يحف به الجلال والعظمة ، فلم يصل الى الكابيتول قبل الساعة التاسعة ، وخيم الظلام بالفعل قبل أن يعود أوريليان الى قصره . وقد تخلل الاحتفال بعض المشاهد المسرحية واللعاب السيرك ، وصيد الوحوش ومنازلة المجالدين والاشتباكات البحرية ، ووزعت العطايا السخية على الجنود والشعب ، وساهمت بعض المشروعات الخيرية أو المفيدة للملائة للشعب في تخليد مجد أوريليان . وخصص جزء كبير من غنائمه في الشرق لآلهة روما ، وتألفت في الكابيتول وغيره من المعابد الهدايا التي قدمها الامبراطور المتباهى بتقواه ، وتلقى معبد الشمس وحده أكثر من خمسة عشر ألف رطل من الذهب . وكان هذا المعبد الأخير تحفة رائعة في عالم البناء شسيدة الامبراطور على أحد جوانب تل كويرينال ، وخصص بعد النصر مباشرة لذلك الاله الذي عبده أوريليان على أنه مصدر حياته وثرواته . وكانت أمه كاهنة صغيرة في معبد صغير للشمس ، وفي عهد طفولته رسخ في نفس الفلاحة السعيدة الحظ عاطفة تبيل خاص لاله النور ، وكانت كل خطوة في سلم المجد ، وكل انتصار أحرزه أثناء حكمه ، بمثابة تدعيم الخرافة بالعرفان والامتنان .

وقهرت أسلحة أوريليان أعداء الجمهورية في الداخل والخارج . فقد ثبت لنا عن يقين أنه بفضل صرامته الناجمة ، قد محيت من العالم الروماني ، الجرائم والفتن ، والأعياب السوء والمحاباة الخبيثة ، كما جيل بين النمو المفرط لحكومة ضعيفة ظالمة ، ولكننا اذا تذكرنا الى أي حد يكون استئراء الفساد أسرع من علاجه ، وأن عدد السنين التي ساد فيها الخلل العام الشامل جاوز الشهور التي قضاه أوريليان في الحكم العسكري - لا عترفنا بأن فترات السلم القليلة القصيرة لم تكن كافية للمهمة الشاقة ، مهمة الإصلاح . وحتى محاولته لاستعادة سلامة العملة ، فانها لقيت معارضة شديدة . ويتفجر غيظ الامبراطور في رسالة خاصة يقول فيها : « حقا لقد قضت الآلهة بأن تكون حياتي جريا متصلة . فقد أدت فتنة داخل الجدران الى حرب أهلية طاحنة . فإن

عمال سك النقود - بتحريض من فلكتيسسيموس Felicissimus وهو عبد عينته في وظيفة في المالية هبوا ثائرين ، وقد أخذت في النهاية ثورتهم ، ولكن بعد أن ذبح في النزاع سبعة آلاف من الجنود الذين كان مقرهم الأصلي في داشيا والمعسكرات الواقعة على طول الدانوب . ويقول كتاب آخرون ، ممن يذكرون الحقيقة نفسها ، انه حدث بعد انتصار أوريليان مباشرة ، وأن المعركة الفاصلة نشبت فوق تل كليان ، وأن عمال سك النقود زيفوا العملة ، وأن الإمبراطور استرد ثقة الشعب بأن وزع عملة أصيلة بدلاً من العملة المزيفة التي أمر الناس أن يردوها إلى الخزنة .

وقد نكتفى بسرد هذه العمليات الشاذة ، ولكننا لا نستطيع أن نفرض الطرف عن مدى ما يبدو فيها من تناقض ، ومن عدم إمكان تصديقها ، فقد يلتمز تزيف العملة حقاً مع حكم جالينوس ، على حين كان من المحتمل أن تخشى آلات الفساد عدالة أوريليان التي لا تلتين ولا تتثنى . ولكن الجريمة والربح لا بد أنهما كانا محصورين في فئة قليلة ، وليس من السهل أن نثنين الأفانين التي استطاعوا بها أن يسلحوا شعباً آذوه وأساعوا إليه ضد ملك غدروا به ، وقد يكون من الطبيعي أن نتوقع أن مثل هؤلاء الأشرار قد شاركوا النمامين وغيرهم من أعوان الظلم في استياء الشعب ، وأن إصلاح العملة لا بد أن يكون عملاً رحب به الشعب قدر ترحيبه باتلاف الحسابات القديمة بأمر الإمبراطور في ساحة تراجان . وفي عصر لم تكن أصول التجارة معروفة فيه معرفة دقيقة . قد تنفذ الغاية المرجوة بالوسائل الخسنة الغريبة . ولكن قل أن تأثير شكوى طارئة من هذا النوع حرباً أهلية رهيبة . أما تكرار فرض الضرائب المجحفة على الأرض وعلى ضرورات الحياة ، فانه يثير في النهاية الذين لن يهجروا بلدهم أو الذين لا يستطيعون أن يهجروها . ولكن المسألة كانت تختلف عن ذلك تماماً ، في كل عملية كان يمكن أن تعيد إلى العملة قيمتها الحقيقية مهما كانت الوسائل . فسرعان ما تمحو المنفعة الدائمة أي أذى عارض ، وتوزع الخسارة بين الجماهير . وإذا عانى قليل من الأفراد الموسرين نقصاً في أموالهم ، فإنهم في نفس الوقت سيفقدون إلى جانب ثرواتهم تلك الأهمية وذلك الوزن اللذين أضفاهما عليهم تملكهم لهذه الثروات . ومهما أراد أوريليان أن يخفي السبب الحقيقي للفتنة ، فإن إصلاحه للعملة لن يقدم إلا إهداء طفيفاً لجماعة كانت لا تزال قوية غير راضية ، فقد أزعج الشعب روما رغم حرمانها من الحرية ، فإن الشعب الذي أظهر له الإمبراطور دائماً - وهو نفسه واحد من العامة - ولماً خاصاً ، عاش في شقاق دائم مع السناتو

والفرسان والحرس البريتورى . ولم يكن ثمة شىء اقل من المؤامرة الحازمة الخفية التى تحيكها هذه الهيئات : الأولى بما لها من نفوذ ، والثانية بثرائها ، والثالثة بسلطانها — يمكن أن يشكل قوة تناهض فرق الدانوب القدامى المحنكين ، الذين أنجزوا فتح الغرب والشرق تحت امرة الامبراطور الذى اولع بالحرب .

ومهما كان الاحتمال ضعيفا فى ارجاع سبب هذه الثورة الى عيال سك النقود ، فان أوريليان استغل انتصاره فى صرامة عاتية ، وكان بفطرته نزاعا الى القسوة ، وبوصفه فلاحا وجنديا ، لم ترق أعصابه ، بسهولة لدوافع الشفقة والعطف ، وكان يحتمل دون انفعال مشاهد التعذيب والقتل ، وقد تدرب منذ نعومة أظفاره على السلاح ، ومن ثم لم يقم كبير وزن لحياة الفرد ، وعاقب أتفه الذنوب بالاعدام ، ونقل صرامة النظام فى المعسكر الى مجال الادارة المدنية للقوانين . وكثيرا ما انقلب حبه للعدالة الى هوى أعمى عنيف . وحيثما حسب أن هناك خطرا على سلامته أو سلامة الشعب أغفل كل قواعد الانبات والبيئة ، وأغفل تناسب العقوبات . فان الثورة التى لم يكن لها ما يبررها والتى كافأ بها الرومان خدماته ، أثارت نفسه المتعالية . وأخذت أنبل الأسرات فى العاصمة بهذه الجريرة ، أو بالشك فى اشتراكها فى المؤامرة الخفية . فدفعت روح طائشة للانتقام الى الاضطهاد الدموى الذى راح ضحيته أحد أبناء أخوة الامبراطور ، ولقد تعب الجلادون (اذا جاز لنا أن نستخدم تعبير شاعر معاصر) وامتألت السجون ، وحزن السناتو المنكود على موت أو غياب أبرع أعضائه ، كما لم تكن غطرسة أوريليان وغروره اقل اذى للسناتو من قسوته ، فانه — جهلا منه أو ضيقا بضوابط النظام الادارية — احتقر أن يمارس سلطته تحت أى لقب الا السيف ، وحكم ، بحق الفتح ، الامبراطورية التى انقذها وأخضعها .

وقد لاحظ واحد من أحكم أمراء الرومان أن مواهب سلفه أوريليان كانت البق بقيادة جيش منها بحكم امبراطورية . وكان أوريليان يدرك الدور الذى هيأت له الطبيعة والتجربة أن يبرع ويبرز فيه ، ولذلك عاد الى الميدان بعد بضعة شهور من انتصاره . وكان من الخير أن يستخدم تلهف الفرق ومورائها فى حرب خارجية ، وكان كسرى الفرس الذى يتهلل ويعتز بفضيحة فاليريان لا يزال يجترى ، دون حساب أو عقاب ، على كبرياء روما الجريحة . وتقدم الامبراطور على رأس جيش اقل فى العدد منه فى النظام والشجاعة ، نحو المضائق التى تفصل أوربا عن آسيا . وهناك خبر وعرف أن أكبر قوة لا تعدو أن تكون دفاعا ضعيفا

ضد آثار اليأس وخيبة الأمل . وكان قد وجه تهديدا الى أحد أفراد سكرتيريه ، اتهمه بإبتزاز الأموال ، وكان المعروف أن تهديده قل أن يذهب سدى . وكان آخر أمل تعلق به المجرم هو أن يشرك بعض كبار ضباط الجيش في الخطر المحدق به ، أو على الأقل في مخاوفه . فبعد في براعة ودهاء الى تزوير خط الإمبراطور ، ثم أطلع هؤلاء الضباط على قائمة طويلة لعينة تضمنت أسماءهم والحكم عليهم بالإعدام . ومن ثم عقدوا النية ، دون أن يساورهم الشك أو أن يدققوا في هذا الغش والاحتيال — على انقاذ حياتهم بقتل الإمبراطور . وفي أثناء سيره بين بيزنطة وهرقلية انقض عليه المتآمرون الذين كانت تخولهم مراتبهم أن يحيطوا بشخصه . وبعد مقاومة قصيرة خر صريعا بيد موكابور Mucapor ، وهو قائد كان أوريليان يحبه ويثق فيه . وقضى الإمبراطور نحبه مأسوفا عليه من الجيش ، مكروها من السناتو ، ولكن كان ثمة اقرار عام شامل بأنه كان أميرا محاربا سعيد الحظ ، وبأنه كان المصلح الناجح لدولة منحلّة ، رغم قسوته .

وبعد قتل أوريليان ، مارس السناتو سلطته ، للمرة الأخيرة وانتخب م . كلوديوس تاسيتس M. Claudius Tacitus وأرتضاه الجيش ، وقاد حملة مؤفّقة ضد الألان Alans (قبيلة من المتبربرين الرحّل) ، استقروا في جنوب شرقى روسيا في القرون الثلاثة الميلادية الأولى) ثم انتخب الجيش بعد مقتله م أوريليوس بروبوس M. Aurelius Probus . وقد أحرز انتصارات في الراين والدانوب قبل أن يقتل في سيرميوم Sirmium . ومات خلفه م أوريليوس كاروس Carus في ظروف غامضة في بداية حملة ضد فارس . وأعقبه أولاده من بعده . على أن جماعة من الضباط فى خلدونية انتخبوا س . أوريليسوس فاليريوس ودقديانوس . وحكم كارينوس الابن الذى بقى بعد أبيه كاروس ، حكم فترة في الغرب . وانتصر دقديانوس في معركة مارجوس Margus ومن ثم أصبح السيد الأوحد في عالم الرومان . وقد ورد ذكر هذا كله في الفصل الثانى عشر . وقد حذف من هذا المختصر .

النظام الإمبراطوري الجديد

الفصل الثالث عشر

(٢٨٥ - ٢٣١ م)

حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة : انتصاره وتنظيمه الجديد

نشوء مراسم البلاط • اعتقال دقلديانوس • اضمحلال الفنون

كان عصر دقلديانوس ازهى من أى عصر من عصور أسلافه ، كما كان مولده كذلك أكثر غموضا وخسة . وكثيرا ما حلت ادعاءات الجدارة والموهبة والعنف - نقول حلت تلك الادعاءات العريضة محل الميزات المثالية للنبل والشرف . ولكن حاجزا واضحا فاصلا كان لا يزال حتى الآن قائما بين الحر والعبد من بنى الانسان . لقد كان آباء دقلديانوس عبيدا في بيت أنولينوس Anulinus وهو شيخ روماني من أعضاء السناتو ، ولم يكن دقلديانوس نفسه يتميز بأى اسم آخر غير هذا الذى اشتقه من مدينة صغيرة في دلماشيا ، حيث كان منبت أمه ، ومن المحتمل على أية حال أن يكون أبوه قد حصل على حرية الأسرة ، وأنه حصل كذلك بسرعة على وظيفة كاتب ، التى كان يشغلها عادة أشخاص من أمثاله . والهمت كلمات الوحى الطيبة ، أو قل حسن ادراكه لمواهبه السامية ، الهمت الابن المتطلع ليسلك طرق الجندية ويتعلق بأمانى الحظ السعيد . وقد يكون من أعجب العجب أن تعقب تدرج الأساليب والأحداث التى مكنته آخر الأمر من تحقيق النبوءات واطهار هذه المواهب للعالم أجمع . فقد ارتقى دقلديانوس على التوالى الى حكومة ماسيا Maesia ثم الى مرتبة القنصل ، ثم الى قيادة حرس انتصر ، وهى وظيفة خطيرة الشأن . وقد تجلت قدرته وكفايته في حرب

فارس . وبناء على اعتراف منافسيه وحكمهم ، وبعد موت نومريان Numerian ، أعلنوا أنه — وهو العبد — أجدر شخص بعرش الامبراطورية . وعلى حين دمغت الغيرة الدينية المشوبة بالخبط والحقذ ، زميله مكسيميان Maximian بالقسوة الوحشية فانها عملت على القاء ظلال من الشك في شجاعة الامبراطور دقلديانوس الشخصية . وليس من اليسير أن تقتنع بجبن جندي من جنود الحظ ، حظى بتقدير الفرق ، وبحب كثير من الأمراء المحاربين ، في وقت معا . ولكن الوشاية تقتن عادة بقدر من الفطنة والذكاء يجعلها قادرة على اكتشاف أضعف الجوانب ومهاجمتها . ولم تقصر هبة دقلديانوس به يوما عن النهوض بواجبه ، أو عن مواجهة أية مناسبة طارئة ، ولكنه لم يبد أنه قد أوتى الروح الجريئة الكريمة لبطل يرحب بالخطر وينشد الشهرة ، ويحتقر التصنع ، ويتحدى في جراءة ولاء النظراء ، فكانت مواهبه ناعمة أكثر منها باهرة أو بارزة . وكان ذا عقل راجح تصقله وترقى به التجربة ودراسة البشر ، مع سعة الحيلة وتطبيق العلم على العمل ، ومزيج معقول من السخاء والاقتصاد ، ومن الرقة والصرامة ، ورياء عميق تحت ستار من الصراحة العسكرية ، وجلد على تحقيق الغايات مع مرونة في تنويع الوسائل ، وفوق كل هذا ، تفنن عظيم في اخضاع أهوائه وإهواء الآخرين لمصلحة أطماعه ، وفي صبغ هذه الأطماع بأشدد الادعاءات خداعا ، مدعيا انها من أجل العدالة والمصلحة العامة . ويمكن أن يعتبر دقلديانوس ، مثله في ذلك مثل أوغسطس ، مؤسسا لامبراطورية جديدة ، وتميز — كما تميز ابن قيصر المتبنى — بأنه رجل دولة وسياسة أكثر من رجل حرب وطعان ، فان أحدا من هذين الأميرين لم يستخدم القوة حيثما تحققت أغراضه بالسياسة .

وقد تميز انتصار دقلديانوس بالاعتدال الفريد في بابه . فان الناس الذين تعودوا أن يمتدحوا الفاتح ورحمته اذا أنزلت عقوبة الموت أو النفي أو المصادرة في شيء من المساواة والرفق ، شهدوا — لشدة دهشتهم واغتيابهم — حربا أهلية يخمد أوارها في ساحة القتال . فقد وثق دقلديانوس في أرسطوبولوس الوزير الأول في بيت كساروس ، واحترم حياة أعدائه وأموالهم ومكانتهم ، بل أبقى على الجزء الأكبر من أتباع كارينوس في مناصبهم . وليس من غير المحتمل أن بواعث الفطنة والتبذير قد ساعدت روح الانسانية لدى هذا الدلماشي الداهية المحتال ، فان كثيرا من هؤلاء الأتباع اشتروا حظوتهم لديه بالخيانة المستورة ، كما أنه قدر في آخرين اخلاصهم واعترافهم بفضل سيد منكود بائس . وكان أوريليان وبروباس وكاروس بفضل بصيرتهم

النافذة قد ملأوا ادارات الدولة والجيش بموظفين ذوى مواهب معترف بها ، ممن كان اخراجهم من وظائفهم يضر بالخدمة العامة ، دون أن يحقق أية مصلحة لمن يتولى العرش بعدهم . وقد أظهر مثل هذا السلوك ، على أية حال ، للعالم الرومانى أجمل جوانب الحكم الجديد ، وتظاهر الامبراطور بتوكيد هذا الارث المحمود حين أعلن أنه — من بين فضائل وسجايأ أسلافه ، كان يطمع أكثر ما يطمع فى محاكاة فلسفة ماركوس أنطونينوس القائمة على الخير والاحسان .

ويبدو أن أول عمل هام قام به قد أوضح اخلاصه واعتداله معا . ذلك أنه حذا حذو ماركوس فجعل من مكسيميان Maximian زميلا له ، وأضنى عليه فى البداية لقب قيصر ، ثم لقب أوغسطس فيما بعد ، ولكن بواعث هذا السلوك والشخص الذى اختاره ، كانت تختلف كل الاختلاف عن بواعث واختيار سلفه موضع اعجابه . فإن ماركوس ، بتوليته شابا مترفا على العرش ، قد دفع فى الواقع دين الاعتراف بالفضل الخاص ، على حساب سعادة الدولة . ولكن دقلديانوس ، بإشراكه صديقا ورفيق سلاح فى مهام الحكم ، قد أعد العدة للدفاع عن الشرق والغرب على السواء ، اذا ما أهدق أى خطر داهم . فقد ولد مكسيميان مثل أوريليان فلاحا فى مقاطعة سرميوم . فكان أميا لا يعبأ بالقوانين ، وكانت سذاجة مظهره وسلوكه ، تفضح ، حتى فى أسمى مراتب حظه ، وضاعة نشأته . ولم يحذق الا فن الحرب . وقد اشتهر موقفه فى كل بقعة من حدود الامبراطورية ، طوال سننى خدمته الكثيرة الحافلة ، ورغم أن مواهبه العسكرية كانت البق بالطاعة أكثر منها بالقيادة ، وأنه لم يرق الى مهارة قائد بلغ حد الكمال ، فإنه ، بفضل عزيمته وثباته وخبرته ، استطاع أن ينهض بأشق الأعباء . كما أن مساوئ مكسيميان لم تكن أقل نفعا لولى نعمته . فقد كان لا يستشعر الشفقة ولا يتهيب العواقب ، ومن ثم أصبحت فى يد سيده الأداة الطيبة المستعدة لكل عمل من أعمال القسوة توصى به وتتصل منه معاً سياسة الأمير الداهية المحتال . فما أن تضحى على مذبح الحذر أو الانتقام فريسة ، حتى يسارع دقلديانوس بشفاعته التى يؤديها فى وقتها الى انقاذ الفئة القليلة الباقية من الأفراد الذين لم يفكر قط فى انزال العقاب بهم ، ثم ينحى باللائمة فى وداعة ورفق على زميله العنيد ويندد بقسوته ، وينعم بالمقارنة بين العصر الذهبى (أى حكمه هو) وعصر الحديد (أى حكم زميله) ، كما نعتيها الناس ، على أساس مبادئها المتناقضة فى الحكم . ورغم تباين شخصيتى الامبراطورين ، فقد احتفظا وهما على العرش بهذه الصداقة التى كانت تربط بينهما منذ كانا رفيقى سلاح . فقد ألف

مكسيميان — بما ركب فيه من صلف وهوج وتهيج ، مما كان سببا في القضاء عليه وعلى السلام العام — ألف أن يحترم ذكاء دقلديانوس وعبقريته ، واعترف بسيادة منطق العقل على منطق العنف الوحشى . ولسنا ندرى أهو بدافع من الزهو أو باعث من الخرافة أن اتخذ الواحد منهما لنفسه لقب جوفيوس Govius والثانى لقب هرقلوليوس Hercules وبينهما كان جوبيتر يصون حركة العالم بحكمته المحيطة بكل شئ (هكذا كان يقول خطباؤهما المرتشون) كانت يد هرقلوليوس التى لا تقهر ، تبطش بالطفافة والجبابة وتطهر الأرض منهم .

ولكن حتى القدرة على كل شئ عند جوفيوس وهرقلوليوس ، لم تكن كافية لاحتمال ثقل الادارة العامة . فقد اكتشفت فطنة دقلديانوس أن الامبراطورية التى يقتحمها المتبربرون من كل جانب تتطلب فى كل ناحية منها جيشا كبيرا وامبراطورا . وفى ضوء هذا التفكير عقد العزم مرة أخرى على تقسيم السلطة المربكة المتشعبة . وتوزيع السيادة العليا ، على قدم المساواة ، بين قائدين موهبين مشهود لهما بالفضل ، على أن يكون لكل منهما لقب أدنى مرتبة وهو « قيصر » . أما الشخصان اللذان حباها بمرتبة الشرف الثانية فى السدة الامبراطورية ، فهما جالوريوس ، وكنيته أرمناريوس ، وكان فى الأصل يشتغل برعى الماشية ، وقسطنطيوس Constantius الذى بلغ من شحوب وجهه أن سموه كلورس Chlorus . وفى وصفنا لبلد هرقلوليوس ومنبته وخلقه ، نكون كذلك قد وفيينا جالوريوس حقه فى هذه النواحي . وكثيرا ما كان يسمى ، وبحق ، مكسيميان الأصفر ، ولو أنه أثبت فى مناسبات كثيرة أنه يفوق الأكبر فضلا وكفاية ، بشكل واضح . أما منبت قسطنطيوس فكان أقل غموضا من أقرانه . فقد كان أبوه يتروبيوس Eutropius من أكبر أشراف دردانيا Dardania ، وكانت أمه ابنة أخت الامبراطور كلوديوس . وقضى قسطنطيوس شبابه فى خدمة الجيش ، ولكنه كان على خلق رضى رفيق . وقد اعترف الناس بجدارته بهذه المرتبة الرفيعة التى بلغها فى النهاية . ورغبة فى توثيق أواصر الوحدة السياسية بالوحدة الداخلية الأسرية ، انتحل كل من الامبراطورين صفة الوالد لأحد القيصرين : دقلديانوس لجالوريوس ، ومكسيميان لقسطنطيوس . والزمَا كاً* منهما بطلاق زوجته السابقة ، ووهب كل منهما ابنته زوجة لابنه بالتبنى . واقتسم هؤلاء الأمراء الأربعة فيما بينهم أركان الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، فعهد الى قسطنطيوس بالدفاع عن الغال واسبانيا وبريطانيا ، واتخذ جالوريوس من ضفاف الدانوب مركزا له ليكون وقاية لولايات الليريا . واعتبرت ايطاليا وأفريقية نطاق حكم

مكسيميان ، واحتفظ دقلديانوس بتراقيا ومصر واقطار آسيا الغنية ، نصيبا خاصا به . وكان كل منهم ملكا وسيدا في نطاق ولايته الشرعية ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على المملكة بأسرها ، وكان كل منهم على اتم استعداد لمعاونة زملائه بمشورته أو بحضوره . وعرف القيصران ، في مكانهما الرفيع ، للامبراطورين جلالهما وعظمتهم ، أما الأمراء الثلاثة الصغار ، فقد اعترفوا ، على قدم المساواة بأبيهم المشترك ومقدر حظوظهم ، فالتزموا طاعته وعرفوا له أياديه البيضاء عليهم . ولم تجد الفيرة المرتابة التي تقتن بالسلطة والقوة طريقها اليهم ، أو مكانا بينهم قط ، حتى لقد قورنت وحدتهم السعيدة بفرقة موسيقية حافظت مهارة الفنان الأول فيها على التناسق والانسجام بينها ، وضبطتها .

ولم يتم هذا الاجراء الهام الا بعد ست سنوات من اشراك مكسيميان . على أن هذه الفترة من الزمن لم تخل من أحداث تذكر . ولكننا ، زيادة في الايضاح ، آثرنا أن نصف ، أولا الشكل الأدق المحكم في عهد دقلديانوس ، ثم نردفه بأعماله ، متبعين في ذلك الترتيب الطبيعي للأحداث أكثر من التسلسل التاريخي المشكوك فيه .

أخمد مكسيميان ثورة الفلاحين في الغال ، وكان كاروسوس Carausius قد سيطر على اسطول القتال (بحر الشمال) ، فانتحل نفسه صفة الامبراطور في بريطانيا ، ولكن قتله انتهى باستعادة قسطنطينوس لبريطانيا . وحى القيصران حدود الراين والدانوب . ووجه دقلديانوس اهتمامه نحو الشرق بعد أن أخمد ثورة في مصر ، ونصب حاكما صديقا هو تيريداتس Tiridates على أرمينيا ، وتنازل لفارس عن الولايات الواقعة فيما وراء دجلة ، وعقد معها صلحا دام أربعين عاما .

انتصار دقلديانوس ، ونظامه الجديد

وما وافت السنة العشرون من حكم دقلديانوس حتى احتفل بهذه الفترة المشهودة وبظفر جيوشه في موكب نصر روماني . ولم يشاركه في جلال هذا اليوم وبهائه الا مكسيميان شريكه المتكافئ معه في القوة والسلطة . وقد حارب القيصران وفتحاً - ولكن ، تبعا لصرامة المبادئ القديمة ، نسب الفضل في كل منجزاتها الى النفوذ الموفق والطالع السعيد لأبويهما وامبراطوريهما . وربما كان انتصار دقلديانوس

ومكسيميان أتل فخارا من انتصار أوريليوس وبروبوس ، ولكن عذة ظروف أضفت على الأول شهرة أكبر وحظا أسعد ، فقد أقيمت الأنصاب التذكارية في أفريقية وبريطانيا والراين والدانوب والنيل . ولكن أبرز زينة وأبهى احتفال كانا ذوى طبيعة فريدة : انتصار في فارس أعقبه فتح مابين ، فحلت أمام العربية الامبراطورية رسوم الأنهار والجبال والولايات . وثمة مشهد جديد أرضى غرور الشعب : زوجات كسرى العظيم وأخواته وأطفاله ، ممن وقعن أسيرات . وهذا انتصار مشهور مذكور لدى الذراري والأعقاب ، لأنه ينفرد بميزة أدنى شرفا وأقل مجدا . ذلك أنه كان آخر انتصار شهدته روما . فقد توقف الأباطرة بعد هذه الفتر عن قهر الأعداء ، وتوقفت روما عن أن تكون عاصمة الامبراطورية .

وكانت البقعة التي أسست عليها روما قد اختصت بطقوس قديمة ومعجزات موهومة . فبدأ أن وجود اله ما ، أو ذكرى أى بطل ما أنعش كل أرجاء المدينة وبعث فيها الحياة . وأن الكابيتول قد وعد بامبراطورية العالم . وأحس المواطنون الرومان بقوة هذا الوهم المقبول وأقروا . فقد نبع من آبائهم الأولين ، ونما وترعرع مع أقدم عادات حياتهم ، ثم رعته وتعهده ، الى حد ما ، فكرة المنفعة السياسية . وكان كيان الحكومة ومقرها ممتازين الواحد منهما بالآخر مزجا شديدا . ورثى انه لم يكن من الميسور نقل أحدهما دون تدمير الآخر . وتقلصت مع الأيام سيادة العاصمة بالتوسع في الفتوح ، وارتقت الولايات الى نفس المستوى ، وحصلت الامم المقهورة على الاسم والامتيازات دون أن تتفدى بهشاعر الحب والتعلق التي وضعها الرومان . على أن بقايا الدستور القديم وتأثير العرف حافظا على مكانة روما لفترة طويلة . ورغم أن الأباطرة كانوا قد نشأوا في أفريقية أو في الليريا ، فانهم احترموا البلاد التي بنوها ، بوصفها مقراً لسلطانهم وقوتهم ، ومركز أملاكهم الشاسعة . وكثيرا ما اقتضت طوارئ الحرب وجودهم على الحدود ، ولكن دقلديانوس ومكسيميان كانا أول الأباطرة الرومان الذين حددوا اقامتهم العادية في الولايات في زمن السلم . ومهما كان من بواعث خاصة وراء سلوكهما هذا ، فقد برراه باعتبارات سياسية نيقوها تمويهها . فاستقر بلاط امبراطور الغرب ، على الاغلب ، في ميلان ، حيث بدا موقعها في سفح جبال الالب أفضل من موقع روما ، تحقيقا لغرض هام هو مراقبة حركات المتبربرين في ألمانيا . وسرعان ما انتحلت ميلان بهاء المدينة الامبراطورية ومخامتها . فوصفت الدور بالوفسرة وجبال البناء ، ووصف سلوك الشعب بالتهذيب والصقل والسخاء .

وزاد في رواء العاصمة الجديدة السيرك والمسرح ، ودار سك النقود ، والقصر ، والحمامات ، التي حملت اسم سيدها مكسيميان ، الى جانب الأروقة التي زينت بالتماثيل والأسوار المزدوجة التي أحاطت بها ، كذلك يبدو انه لم يضايقها قربها من روما . وكان دقلديانوس كذلك يطمع في منافسة عظمة روما ، وكان قد استغل أوقات فراغه كما استخدم ثروة الشرق في تجميل نيقوميديا ، وهى مدينة تقع على حافة أوربا وآسيا ، على مسافة تكاد تكون واحدة بين الدانوب والفرات . وفى بضع سنين قليلة بلغت نيقوميديا درجة من الفخامة ارتضاها ذوق الملك ، ودفع ثمنها الشعب ، حتى بدا انه قد تم فى بضع سنين ما كان انجازه يتطلب جهد العصور ، وباتت نيقوميديا اقل من روما والأسكندرية وأنطاكية فى كثافة السكان فقط . وكانت حياة دقلديانوس ومكسيميان حياة جد وعمل ، ولقد قضيا جزءا كبيرا منهما فى المعسكر ، أو فى مسيراتهم الطويلة الكثيرة ، حتى اذا سمحت الأمباء العامة لهما ببعض الاسترخاء والاستجمام سعدا باللجوء الى مقرهما المفضل الأثير فى نيقوميديا وميلان . ومن المشكوك فيه كثيراً أن يكون دقلديانوس قد زار روما العاصمة القديمة للإمبراطورية الى أن احتفل بيوم النصر فى العام العشرين من حكمه ، وحتى فى هذه المناسبة المشهودة لم تطلق اقامته فيها لأكثر من شهرين . وضاق ذرعا واستاء من فجور الناس فى رفع الكلفة ، فغادر روما قبل الموعد الذى كان متوقعا أن يحضر فيه الى السناتو ليضعوا عليه شعارات مرتبة القنصل ، بنحو ثلاثة عشر يوما .

ولم يكن المقت الذى أبداه دقلديانوس نحو روما ونحو الحرية الرومانية نتيجة لنزوة عابرة ، بل كان نتيجة لأعظم دهاء فى السياسة . فقد ابتدع هذا الأمير المحتال أسلوبا جديدا للحكومة الامبراطورية ، استكملته فيما بعد أسرة قسطنطين ، ولما كان شبح الدستور القديم محفوظا فى السناتو يحوطه التقديس والاحلال ، فقد صمم على أن يحرم هذا النظام من بقايا قوته وأهميته . وقد تعود بذاكرتنا الى ما قبل ارتقاء دقلديانوس على العرش بثمانى سنوات ، الى عظمة السناتو الزائفة وآماله العريضة . وما دام هذا الحماس سائدا ، فقد اندفع كثير من النبلاء فى اظهار غيرتهم على الحرية . وبعد أن سحب خلفاء بروبوس تعضيدهم عن الحزب الجمهورى ، لم يعد أعضاء السناتو قادرين على اخفاء استيائهم العاجز . وعهد الى مكسيميان — بوصفه ملك ايطاليا — بقمع هذه الروح المزعجة ، ولو انها ليست خطيرة . والحق أن هذه المهمة التأتت كلى الالتئام مع طبعه العنيف القاسى ، فأخذ مكسيميان المع

شيوخ السناتو الذين تظاهر دقلديانوس بتقديره لهم ، بتهمة الاشتراك في المؤامرات الوهمية . وكان اقتناء دار فخمة أو ضيعة معتنى بزراعتها يفسر على أنه دليل قاطع على الجريمة . وبدأ معسكر البريتوريين يحمي مكانة روما بعد أن كان ردحا طويلا من الزمن أداة ظلم لها ، ولما كانت هذه الفرق المتفطرة تدرك اضمحلال سلطانهم فانهم جنحوا بطبيعة الحال الى التوحيد بين قوتهم وبين سلطة السناتو . وتناقص عدد البريتوريين بطريقة غير ملحوظة طبقا لاجراءات الحيلة والحذر التي اتخذها دقلديانوس ، كما ألغيت امتيازاتهم ، وحل محلهم فرقتان مخلصتان موثوقتان من الليريكوم ، عينتا للقيام بمهام الحرس الامبراطوري ، تحت اسم جديد : « الجوفيانيون والهرقوليون » ولكن اتسبى طعنة مميّنة تلقاها السناتو من يد دقلديانوس ومكسيميان ، ولوا أنها طعنة خفية ، هي غيابهما المحتوم الذي لا مناص منه . فطالما سكن الأباطرة روما ، فمن الجائر أن يعاني هذا المجلس شيئا من الظلم والجور ، ولكن لا يغفل أمره قط . ولقد مارس خلفاء أوغسطس سلطة فرض القوانين التي ترتضيها حكمتهم أو توسوس بها نزواتهم ، ولكن اجازة هذه القوانين كانت تتم بعد اقرار السناتو لها : وبقي النموذج القديم للحرية ماثلا في مناقشاته وقراراته . والى حد ما اضطر الأمراء الحكماء الذين احترمو آراء الشعب الروماني ، الى انتحال السلوك وأسلوب الكلام اللذين يليقان بهذا المصدر العام الأول للحكم في الجمهورية . انهم في الولايات ومع الجيوش اظهروا أبهة الملك ورفعة السلطان ، ولكنهم اذا اتخذوا مقرا لهم بعيدا عن العاصمة ، نبذوا الى الأبد ذلك الرياء أو التصنع الذي أوصى به أوغسطس خلفاءه . فتداول الملك مع وزرائه فيما يتعلق بممارسته لسلطته التنفيذية والتشريعية على حد سواء ، بدلا من التشاور مع المجلس الموقر للأمة . وقد أحيط اسم السناتو بالتكريم والتبجيل حتى نهاية عهد الامبراطورية . وكانت الامتيازات الشرفية لا تزال تشبع غرور الأعضاء ، ولكن المجلس الذي طالما كان مصدر السلطة واداتها آذن بالتدري في زوايا النسيان في خشوع وأجلال ، وبقي سناتو روما ، بعد أن فقد صلته بالبلاط الامبراطوري وبالدستور الفعلي تحفة جليلة عديمة النفع من الآثار القديمة ، فوق تل كابيتولين .

وقد سهل على أمراء الرومان — وقد تخلوا عن السناتو وعن عاصمتهم القديمة فلم يعودوا يرون منهما شيئا — أن ينسوا مصدر سلطتهم الشرعية وطبيعتها . فسان الوظائف المدنية : القنصل ، والبروتنصل ، والمراقب ، والتربيون ، — تلك التي شكلت باتحادها معا

هذه السلطة — هي التي فضحت للشعب نشأتها الجمهورية . وطرحت هذه الألفاظ المتواضعة جانبا ، وإذا كانت قد احتفظت بمقامها الرفيع تحت اللقب الفخم « الامبراطور » فان هذه الكلمة قد فهمت بمعنى جديد أسمى ، ولم تعد تدل على قائد الجيوش الرومانية ، بل على سيد العالم الروماني . وارتبط اسم « الامبراطور » الذي كان في بداية الأمر ذا طبيعة عسكرية — باسم آخر من طراز أكثر ذلة . ولم يكن لقب دومينوس Dominus أو سيد Lord في دلالاته البدائية ، يعنى سلطان الأمير على رعاياه ، أو القائد على جنوده ، ولكنه كان يعبر عن السلطة الاستبدادية المطلقة للسيد على عبيده المحيطين . وعلى أساس هذه النظرة الكريهة ، رفضه القياصرة الأولون ، مقتا ونفورا . ولكن ضعفت مقاومتهم بشكل غير ملحوظ ، وأصبح الاسم أقل مقتا ، حتى ان اسم « سيدنا وامبراطورنا » لم يعد في النهاية يسبغ ملقا ورياء فحسب ، بل أدخل كذلك في القوانين والآثار العامة . وكانت مثل هذه الألقاب الرغيدة كافية لترضى وتشبع أشد الغرور ، وإذا كان خلفاء دقلديانوس قد ظلوا يتخلون عن لقب « ملك » ، فيبدو أن هذا لم يكن راجعا الى اعتدالهم ، أكثر منه الى ضعفهم . وحيثما استخدمت اللغة اللاتينية (وقد كانت لغة الحكومة في مختلف أرجاء الامبراطورية) كان لقب « امبراطور » — وهو خاص بهم انفسهم — يحمل فكرة الاجلال والاكبار أكثر مما يحمل لقب « ملك » الذي ربما شاركوا فيه مائة من رؤساء المتبريرين أو على أحسن الفروض ، أخذوه عن رميلوس وتاركين ، وكانت العواطف والأحاسيس تختلف في الشرق عنها في الغرب . ومنذ أقدم عصور التاريخ كان حاكم آسيا يكرمونه في اللغة اليونانية بأن يطلقوا عليه لقب « باسيليس » Basileus أو « ملك » . ولما كان هذا اللقب يعتبر أرفع مقام بين الرجال ، فان أهل الولايات التابعين الخاضعين سرعان ما استخدموه في مخاطباتهم المتواضعة الى العرش الروماني ، واغتصب دقلديانوس ومكسيميان حتى صفات « الألوهية » أو على الأقل ألقابها ، ونقلوها الى سلسلة متعاقبة من أباطرة مسيحيين ممن جاءوا فيما بعد ، على أن هذه المدائح والتحيات المسرفة سرعان ما تفقد روعتها بضياع معناها ، حتى إذا الفت الأذن يوما رنينها ، استمعت اليها في استهتار ، وكأنها احتراف غامض مسرف للاجلال والاحترام .

نشوء مراسم البلاط

كان أمراء الرومان ، من عهد أوغسطس الى عصر دقلديانوس يتحدثون بشكل علنى مملوف مع بنى وطنهم ، الذين كانوا يحيونهم ويسلمون عليهم بنفس الاجلال الذى حيوا عادة به شيوخ السناتو والقضاة والحكام ، ليس غير . وكان امتيازهم الاساسى يتمثل فى الحلة الامبراطورية الأرجوانية ، على حين تميز رداء الشيوخ بشريط عريض ، ورداء العسكرية بشريط ضيق ، من نفس هذا اللون الممتاز . وزين الغرور ، أو بالأحرى السياسة ، لهذا الأمير الداهية ادخال نظام بلاط فارس بما فيه من فخامة وأبهة وسناء . وتجاسر فأتخذ لنفسه التاج ، وهو عبارة عن حلية مقتها الرومان بوصفها رمزا كريها للملكية ، كما اعتبروا استخدام كاليجولا له ذروة الجنون والجرأة . ولم يعد التاج ان يكون عصابة عريضة بيضاء مرصعة باللآلىء تحيط برأس الامبراطور ، وكانت الملابس الفاخرة لدقلديانوس وخلفائه تتخذ من الذهب والفضة ، وكان الملحوظ ، مع اشد الاستياء ، أنه حتى أحذيتهم كانت مرصعة بأثمن الجواهر . وكان الوصول الى أشخاص المقدسة يزداد صعوبة يوما عن يوم ، بابتداع الأشكال والمراسم الجديدة . وكانت تقوم على حراسة مداخل القصر ، حراسة شديدة ، طوائف - بدعوا يسمونها مدارس Schools - من الضباط المحطين . أما الغرف والحجرات الداخلية فقد عهدوا بحراستها الى نقطة الخصيان ، تلك التى تتسم بالحنق والغيرة ، وكان تزايد عدد هؤلاء الخصيان ونفوذهم ، أصدق اعراض تفاقم الاستبداد . فاذا حظى أى فرد من الرعية ، فى النهاية بالثول بين يدى الامبراطور ، كان عليه ، مهما كانت مكانته أو مقامه ، أن يخر الى الأرض ساجدا ، وأن يسبح ، وفقا للطريقة الشرقية ، يقداسة سيده ومولاه . وكان دقلديانوس رجلا فطنا حسن الادراك ، عرف لنفسه قدرها ، كما عرف للناس أقدارهم ، بالعدل والقسطاس ، فى مجال الحياة الخاصة والحياة العامة ، سواء بسواء . كما أنه ليس من السهل أن تتصور أنه كان فى احلاله العادات الفارسية محل عادات روما ، مدفوعا اندفاعا جديا بمبدأ وضيع مثل مبدأ الزهو أو الغرور . انه كان يعلل النفس بأن المتظاهر بهذه الفخامة والأبهة والشرف قد يقهر خيال الجماهير ، وأن الملك قد يكون أقل تعرضا للاباحية السمجة فى الشعب والجيش ، اذا احتجب شخصه عن الأنظار العامة ، وأن عادة الخضوع والخنوع لابد أن تنبثق بطريقة غير ملحوظة عن مشاعر الاجلال والاحترام . على أن الحالة التى ظهر عليها دقلديانوس ، مثل التواضع الذى اصطنعه أوغسطس ، لم تكن الا تمثيلا

مسرّحيا ، ولكن لابد أن نعترف بأن المهزلة الأولى التى مثلها أوغسطس كانت ذات طابع أكثر رجولة وسخاء من تلك التى مثلها دقلديانوس فيما بعد ، لقد كان هدف الواحدة أن تخفى وتستر ، على حين كان غرض الثانية أن تكشف وتعرض ، السلطان المطلق غير المحدود الذى كان للباطرة فى العالم الرومانى .

وكان هب الظهور أول مبادئ النظام الجديد الذى استقنه دقلديانوس . أما الثانى فكان التقسيم ، فتنقسم الامبراطورية والولايات ، وكلّ فرع من فروع الادارة المدنية أو العسكرية . فضاء عجلات الادارة الحكومية ، وجعل عملياتها أقل سرعة ولكن أكثر سلامة وأمانا . ومهما كان من مزايا أو مساوىء هذه المبتكرات فانه يجدر أن ننسبها — الى حد كبير — الى المبدع الاول ، ولكن الأمراء المتعاقبين حسنوا وأكملوا على مر الأيام الاطار الجديد للسياسة ، ومن ثم كان من الأوفق أرجاء دراستها حتى يتم نضجها واكتمالها . وما دمنا استبقينا لعصر قسطنطين ، الصورة الأدق للامبراطورية الجديدة ، فاننا نكتفى بوصف التخطيط الرئيسى الحاسم الذى سعى اليه دقلديانوس . لقد أشرك فى ممارسة السلطة العليا ثلاثة من الزملاء ، ولما كان مقتنعا بأن قدرات أى فرد واحد لا تكفى للاضطلاع بعبء الدفاع العام ، فانه اعتبر الادارة المشتركة للأمراء الأربعة ، لا مجرد وسيلة مؤقتة ، بل قانونا أساسيا فى الدستور . وكان من رايه أنه يجب تمييز الأميرين الأكبرين باستخدام التاج ولقب أوغسطس ، وأن يختارا بانتظام لمعاونتهما ، حبا أو تقديرا ، زميلين تابعين ، وأن يرقى هذان القيصران بدورهما الى المرتبة الأولى (أوغسطس) بحيث لا ينقطع تعاقب الأباطرة . وقسمت الامبراطورية الى أربعة أجزاء ، كان الشرق وإيطاليا أشرف المراكز ، والصدانوب والراين أشقها . وتطلب الأولان وجود أوغسطس ، على حين عهد بإدارة الآخرين الى القيصرين . وكانت قوة الجيش موزعة بين شركاء السيادة الأربعة . وقد يحد من طموح أى قائد متطلع يأسه من قهر المنافسين الأربعة الأشداء الواحد بعد الآخر — وكان المفروض — فيما يتعلق بالحكومة المدنية ، أن يمارس الامبراطوران سلطة الحاكم التى لا تتجزأ ، وأن أوامرها الممهورة بتوقيعيهما تلقاها الولايات وكأنها صادرة عن مجالسهما وسلطاتهما المتبادلة . ورغم هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية فى العالم الرومانى شيئا فشيئا ، وساد مبدأ التقسيم الذى كان ، فى بضع سنين قلائل ، سببا فى الفصل الدائم بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية .

واقترن نظام دقلديانوس بعيب آخر هام جدا ، لا يمكن التغاضي عنه جملة واحدة حتى في الوقت الحاضر ، وهو فداحة تكاليف الإدارة الحكومية ، وتفاقم الزيادة في الضرائب ، وظلم الشعب . وبدلا من أسره متواضعة من العبيد والأحرار، مثل تلك ارتضتها بساطة عظمة أوغسطس وتراجان ، شيد بلاط فخم في ثلاثة أو أربعة أركان من الامبراطورية ، وتطاحن عدد من ملوك الرومان بعضهم مع بعض ومع ملك الفرس على التفوق العاطل العقيم في مجال الأبهة والبذخ . وتضاعف — بشكل لم يسبق له مثيل في العصور الخوالي — عدد الوزراء والحكام والموظفين والخدم ، لملء مصالح الدولة وإداراتها . وإذا جاز لنا أن نستعير عبارة حماسية لأحد المعاصرين ، فهو يقول : « إذا رجحت نسبة أولئك الذين يأخذون نسبة من يعطون ، فقد وقع على الولايات حيف كبير من فداحة الجزية » . وقد يكون من الميسور أن نستنتج ، منذ هذه الفترة حتى سقوط الامبراطورية ، سلسلة لا تنقطع من الصرخات والشكاوى . ويختار كل مؤرخ ، تبعا لديانته وموقفه ، واحدا من هؤلاء موضوعا لدمه ولعنته : دقلديانوس ، أو قسطنطين ، و فالينس Valens أو تيوديسيوس ، ولكنهم متفقون بالإجماع على تصوير ثقل التكاليف المفروضة على الناس ، وبخاصة ضريبة الأرض وضريبة الرأس ، على انهما الحيف المتفاقم الذي لا يحتمل في أيامهم ، ولا شك في أن المؤرخ النزيه المتجرد المضطر الى استخلاص الحقيقة من بين سطور القدح والمدح أو التهمك والثناء على حد سواء ، سيتجه الى توزيع اللوم على هؤلاء الأمراء المتهمين جميعهم ، وأن يرجع هذا الابتزاز والاعتصاب الى أسلوبهم الموحد في الإدارة أقل كثيرا مما ينسبه الى مساوئهم الشخصية . والحق أن الامبراطور دقلديانوس كان منشيء هذا النظام ، ولكن في اثناء حكمه كانت بذور الشر محصورة داخل نطاق من التواضع والحزم ، فهو يستحق اللوم على وضع هذه السوابق الخبيثة أكثر منه على ممارسة الظلم والجور فعلا . وقد نضيف أن تصرفه في موارد كان يتسم بالاعتصاف والتدبر والحرص ، وأنه قد تبقى في الخزائن الامبراطورية ، بعد سداد المصروفات الجارية ، رصيد للسقاء المعتدل الحكيم ، أو لاية ملمة طارئة تنزل بالدولة .

اعتزال دقلديانوس ووفاته

وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه ، نفذ دقلديانوس قراره المشهور في اعتزال الامبراطورية ، وهو عمل كان من الطبيعي توقعه من انطونينوس الأكبر أو الأصغر ، منه من أمير لم يمارس أو يطبق دروس

الفلسفة ، لا فى الوصول الى السلطة العليا ، ولا فى استخدامها . وبذلك أحرز دقلديانوس قصب السبق وبلغ مناط المجد فى أنه قدم للعالم أول مثال فى الاعتزال ، وهو مثال قل أن اقتدى به من جاء بعده من الملوك . وطبيعى أن يقفز الى أذهاننا مثال شارل الخامس ، لا لجرد أن بلاغة مؤرخ حديث قد جعلت هذا الاسم مألوفاً لدى القارئ الانجليزى فحسب ، بل كذلك من أجل الشبه الصارخ بين شخصيتى هذين الامبراطورين اللذين تسامت قدراتهما السياسية على عبقريتهما العسكرية ، ونبتعت فضائلهما الخداعة المنمقة من الدهاء والاحتيايل أكثر منها من الطبيعة . ويبدو أن تقلبات الحظ هى التى عجلت باعتزال شارل الخامس ، وأن خيبة أمله فى مشروعاته الأثيرة لديه دفعته الى التنحي عن السلطة ، التى وجدها لا تتناسب مع أطماعه . ولكن حكم دقلديانوس مضى فى فيض لم ينقطع من التوفيق والنجاح ، كما أنه يبدو أنه لم يراوده شئ من هذا التفكير الجدى فى اعتزال الامبراطورية ، الا بعد أن قهر كل أعدائه ، وأنجز كل مشروعاته . ولم يبلغ أى من شارل الخامس أو دقلديانوس أرذل العمر ، حيث كان الأول فى الخامسة والخمسين ، والثانى فى التاسعة والخمسين من العمر فحسب، ولكن حياتهما الجادة النشيطة وحروبهما وحالاتهما ، وهوم الملك وانصرافهما الى العمل ، كل أولئك هد من كيانهما وأصابهما بعلل الشيخوخة المبكرة .

وغادر دقلديانوس ايطاليا — رغم قسوة شتاء قر مطير — بعد احتفال النصر مباشرة ، وبدأ تقدمه نحو الشرق ، دائراً حول ولايات الليريا . واثباته من رداءة الجو ونصب السفر علة بطيئة ، ورغم أنه أبطأ السير وأخذ فى تقدمه شيئاً من الراحة، وأنه كان بصفة عامة محمولا فى محفة مغلقة ، اشتدت عليه العلة قبل وصوله الى نيقوميديا حوالى نهاية الصيف ، وباتت تنذر بالخطر . واعتكف طوال الشتاء فى القصر ، وأثار الخطر المحدث به اهتماماً عاماً صادقاً غير مصطنع . ولكن الناس لم يتبينوا التغير فى صحته الا من علامات الفرح أو التجهم التى اكتشفوها فى محيا أتباعه وفى سلوكهم . وقد صدق القوم عامة ، لبعض الوقت ، اشاعة موته ، وظنوا أنهم انما أخفوا موته درءاً للمتاعب التى قد تنشأ من جراء غياب القيصر جاليريوس . وأخيراً ، وفى أول مارس، ظهر دقلديانوس أمام الجماهير مرة أخرى ، ولكن على درجة من الشحوب والهزال ، لم يكد يتعرف عليه معها أكثر الناس معرفة لشخصه . وحين الآن الوقت لوضع حد للنزاع المرير بين العناية بصحته ورعاية مهام منصبه ، فاقترضت الأولى الرفق والراحة ، على حين أرغفته الثانية على

أن يتولى من فراش المرض ادارة الامبراطورية الضخمة . ومن ثم اعتزم أن يقضى بقية أيامه في راحة مشرفة ، وأن يضع مجده فوق متناول الحظ ، وأن يتخلى عن المسرح العالى لشركائه الذين هم أصغر سنا وأوفر نشاطا .

وأقيم احتفال تنازله عن الحكم في سهل فسيح على بعد نحو ثلاثة أميال من نيقوميديا . واعتزل الامبراطور عرشا سامقا . وفي خطاب ملىء بالمنطق والوقار ، أفصح عن عزمه الى الشعب والجنود الذين تجمعوا في هذه المناسبة الفريدة الخارقة . وما أن جرد نفسه من الحلة الأرجوانية حتى اختفى عن أعين الجماهير المحلقة ، واخترق المدينة في عربة مغطاة ، وجد السير دون إبطاء الى مأواه الأثير لديه والذي اختاره في مسقط رأسه دلماشيا . وفي نفس اليوم ، أى في أول مايو ، اعتزل مكسيميان ، وفقا لاتفاق سابق ، منصب الامبراطورية في ميلان . لقد فكر دقلديانوس في مشروع اعتزاله الحكم حتى وسط أبهة الانتصارات الرومانية . ولما أراد أن يؤمن انصياع مكسيميان ، استخلص منه اما توكيدا عاما بأن يخضع تصرفاته لسلطان ولى نعمته ، أو عهدا خاصا بأن ينزل عن العرش عندما يحين الوقت الذى ينبغى عليه أن يتلقى النصح والقوة . ورغم تأكيد هذا التعهد بقسم غليظ أمام مذبح جوبيتر فى الكابيتولين ، فقد كان من الجائز أن يكون قيذا هزيلا لمكسيميان ذى المزاج الحاد الشرس الذى كان حب السلطة منتهى هواه ، والذي لم يشته الهدوء السائد أو الشهرة فى المستقبل ، ولكنه رضى ، مهما كان كارها ، للسيادة التى فرضها عليه زميله الذى هو أرجح عقلا ، وآوى غور اعتزاله الى دار فى لوكانيا (فى جنوب ايطاليا) حيث كاد يتعذر أن تجد مثل هذه الروح الثقلة أية راحة دائمة .

وقضى دقلديانوس ذو المنبت الوضيع أعوامه التسعة الأخيرة من حياته ، معتكفا عن الحياة العامة . لقد أملى عليه العقل انسحابه — ويبدو أن القناعة لازمته فيه ، كما نعم فيه باجلال واحترام أولئك الأمراء الذين نزل لهم عن ملكية العالم . ونذر أن تعودت العقول التى كابدت أمدا طويلا مهام الأمور ، أن تتحدث الى نفسها وتجاهدها ، بل انها عند فقدان السلطة لتبكى حاجتها الى ما يشغلها ، وكانت ملذات الادب أو العبادة التى تملأ كثيرا فراغ العزلة ، عاجزة عن أن تسترعى انتباه دقلديانوس ، ولكنه احتفظ ، او على الأقل سرعان ما استعاد هواه لأظهر المسرات والصقها بالطبيعة ، فمضى ساعات فراغه الى حد كاف فى البناء والزراعة وفلاحة البساتين . وان جوابه الى مكسيميان لهو جواب

مشهود يستحق الذكر . فقد توسل اليه هذا الرجل العجوز أن يسترد زمام الحكم ، ويستعيد الحلة الأرجوانية ، ولكنه أبى أن يستجيب لهذا الاغراء بابتسامة مشفقة ، وأشار في هدوء الى أنه لو استطاع أن يرى مكسيميان الكرب الذي زرعه بيديه في سالونا ، فانه لن يعود يصفى لأى اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة . وطالما اعترف في مناقشاته مع أصدقائه بأن أشق من هو من الحكم ، وعبر عن نفسه في هذا الموضوع المحبب اليه في حرارة لا بد أنها كانت نتيجة الخبرة والتجريب . وقد تعود أن يقول : « ما أكثر ما تقتضى مصلحة أربعة أو خمسة من الوزراء بأن ينكتلوا ليغفروا بمليكهم ، فهو معزول في مكانه الرفيع عن بنى الانسان ، ومن ثم يحتجب الحق عن ناظره ، فهو لا يرى إلا باعين هؤلاء الوزراء ، ولا يسمع إلا تهويلاتهم وابطالهم ، وأنسه يكرم أهل السوء والرديلة والضعف والجور باسناد أخطر الوظائف اليهم على حين يمتن أفضل وأجدر رعاياه ، وبمثل هذه الأفانين الشائنة يصبح خير الأبراء وأعظمهم فريسة لرجال حاشيته الذين استشرى فيهم الفساد والرشوة » . وقد يسيغ لنا التقدير الصادق للعظمة وضمان خلود الشهرة طعم وسائل السرور واللذة في أيام التقاعد ، ولكن الامبراطور الرومانى شغل في العالم منصبا بلغ من الخطورة درجة لا يستطيع معها أن ينعم براحة الحياة الخاصة وطمانينتها دون أى مكدّر . فكان من المستحيل عليه أن يبقى بمنجاة من المتاعب التى تلم بالامبراطورية بعد اعتزاله ، أو الا يبالى بنتائجها . لقد تعقبه الخوف والأسى والاستياء الى عزلته في سالونا . وجرحته رقبته ، على الأقل كبرياؤه بما انتاب زوجته وابنته من كوارث ، كما عكرت صفو أيامه الأخيرة بعض اساءات كان يستطيع لينيوس وقسطنطين أن يجنباهما الرجل الذى يعتبر أبا لكثير من أباطرة والمخطط الأول لحظوظهم . وجاء في تقرير وصل إلينا علمه في أيامنا هذه ، ولو أنه مشكوك فيه كثيرا ، أنه انسحب في حرص وحذر من دنيا سلطانهم بالموت طوعا واختيارا .

وننتقل الآن ، وقبل أن نبتعد عن دراسة حياة دقلديانوس وشخصيته ، الى المكان الذى آوى اليه وتقاعد فيه ، وهو سالونا ، وهى مدينة رئيسية في ولايته وموطنه دالماشيا ، وكانت تبعد نحو مائتين من الأميال الرومانية (وفقا لمقاييس الطرق العامة) عن أكويليا ومشارف ايطاليا ، ونحو مائتين وسبعين ميلا عن سيرميوم ، وهى المقر المعتاد للاباطرة كلما زاروا حدود الليريا . وما تزال هناك قرية حقيرة تحمل اسم سالونا . ولكن كان يشهد على عظمتها حتى القرن السادس عشر

أطلال مسرح ومنظر مهوش لعقود متهدمة وأعمدة من الرخام . وشيد دقلديانوس قصرا فخما على مسافة ستة أو سبعة أميال من المدينة . وقد نستنتج من ضخامة هذا البناء الى أى مدى طال أمد تفكيره فى مشروع اعتزال الامبراطورية . فان اختيار البقعة التى تجمع بين الصحة والمتعة لم يتطلب تحيز المواطن . « كانت التربة خصبة جافة ، والهواء نقيا صحيا . وقلما تحس هذه البلاد ، رغم حرها القائلظ فى شهور الصيف ، بالرياح اللاهضة المؤذية التى تتعرض لها شواطئ أستريسا وبعض أجزاء من ايطاليا . ولم يكن المنظر من القصر أقل جمالا وجاذبية من التربة والمناخ ، وكان يته الى الغرب الشاطئ الخصب الذى يمتد على طول شاطئ الادرياتيك الذى تناثرت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة الى درجة يظهر معها هذا البحر وكأنه بحيرة عظيمة . وفى الشمال يقع الخليج الذى يؤدى الى مدينة سالونا القديمة والريف من ورائها ، يشكل للناظرين مفارقة واضحة مع السطح المنبسط من الماء فى بحر الادرياتيك ، امتدادا الى الشرق والجنوب . وينتهى المنظر فى الشمال بجبال عالية غير منتظمة ، واشعة على مسافة بعيدة ، تغطيها ، فى كثير من الأماكن ، القرى والغابات والكروم (١) .

وعلى الرغم من أن قسطنطين يتصنع نتيجة حازرة سافرة أن يذكر قصر دقلديانوس فى احتقار ، فان أحد خلفائها ، ممن لم يروا القصر الا فى حالة مهلة مشوهة ، يشيد بفخامته فى لغة تفيض بأعظم الاعجاب . فقد كانت مساحة أرضه تتراوح بين تسعة وعشرة أفدنة انجليزية (ايكير) . وكان ذا أربعة أضلاع يطوقها ستة عشر برجاً . وبلغ طول اثنين من الأضلاع نحو ستمائة قدم ، والآخرين نحو سبعمائة . وقد شيد البناء كله من الحجر الرملى الجميل المأخوذ من محاجر ترو Trau أو تراجوتيوم Tragutium المجاورة . وهو أقل قليلا من الخام نفسه . وفصلت بين الأجزاء المختلفة لهذه العمارة الضخمة أربعة شوارع متقاطعة فى زوايا قائمة . وكان الوصول الى المنطقة الرئيسية فى قصر عن طريق مدخل آية فى الفخامة والروعة ، يسمى حتى اليوم « البوابة

(١) انظر آدم فى كتابه « آثار قصر دقلديانوس فى سبالاترو Palatro الصحفة ٦ . ونصف هنا أمرين آخرين نقلا عن « أباتى فورتيس Abate Frotis » فان ترعة هياذر الصغيرة التى ذكرها لوكان Lucan كان فيها سمك الصمون ، وهو من أفضر السمك ، ويفترض كاتب حكيم ، ولعله راهب ، انه كان - أى السمك - من الأسباب الرئيسية التى تحكمت فى اختيار دقلديانوس لمكان تقاعده . ويقول نفس المؤلف ان تذوق الزراعة ، انما انتعش فى سبالاترو ، وان جمعية من كرام القوم أسست مزرعة تجريبية قرب المدينة .

الذهبية » وكان يوصل اليه بهو للأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، يمكن أن نرى على أحد جانبيه معبدا اسكولابويس Aesculapius المربع ، وعلى الجانب الثانى معبد جوبيتر المثلث الاضلاع . وقد عبد دقلديانوس الاله الأخير من هذين الالهين بوصفه حارس أمواله ، والأول باعتباره راعى صحته . وإذا قارنا بين الأطلال الحالية وبين سنن فيثروفيوس Vitruvius (مهندس معمارى رومانى فى عصر أغسطس وله مؤلف فى فن العمارة ، ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للمهندسين المعماريين) لوجدنا أن عدة أجزاء من البناء ، والحمامات والمخدع ، والقاعة والبازيليك Basilica (كلمة لاتينية معناها مبنى كبير مستوف كان يستعمل فى الخدمة العامة : أسواق ، محاكم ، قاعات للاجتماعات) والقاعة السيزينية Cyzicene (نسبة الى مدينة Cyziens بآسيا الصغرى على مقربة من بحر مرمرة ، أسسها اليونان فى القرن الثامن ق.م ، وتوالى على حكمها اليونان والفرس والرومان . وانتعشت أيام الامبراطورية) والقاعة الكورنثية والقاعة المصرية ، قد وصفت كلها فى شيء من الدقة ، أو على الأقل من الاحتمال . وقد تعددت أشكالها . ولكن نسب بنائها كانت صحيحة ، ولكن كان يشوبها كلها عيبان تنفر منهما آراؤنا الحديثة فى الذوق ووسائل الراحة . فان هذه الغرف الفخمة لم تكن بها نوافذ أو مداخن ، وكانت تضاء من أعلى (يبدو أن البناء كله كان طابقا واحدا) وتزود بالحرارة من طريق أنابيب كانت تمتد على طول الجدران ، وكان صف الأجنحة السكنية الرئيسية يحميها نحو الجنوب الغربى رواق طوله خمسمائة وسبعة عشر قدما . ولا بد أن هذا كان يشكل نزهة لطيفة بهيجة اذا أضيفت روائع النحت والتصوير الى جمال المنظر .

اضمحلال الفنون

ولو أن هذا القصر الفخم بنى فى مكان منعزل لتعرض لعوادي الزمان ، ولكنه ربما أفلت من سلب الإنسان . لقد نشأت قرية اسبالاتوس ، وبعدها بزمان طويل مدينة سبالاترو ، على أنقاضه ، وتفتح البوابة الذهبية الآن على ساحة السوق واغتصب يوحنا المهدمان أمجاد أسكولابيس ، وتحول معبد جوبيتر الى كاتدرائية تحت حماية السيدة العذراء . وأنا لمدينون بوصف قصر دقلديانوس الى فنان عبقرى مواطن ومعاصر ، حمله حب الاستقصاء الشديد الى قلب دلماشيا ، ولكن هناك مجالا للشك فى أن روعة أعماله ونقوشه هو قد توخت شيئا من المجاملة للأشياء التى كان يهدف الى وصفها واعطاء صورة عنها :

نقد ذكر سائح حكيم أحدث عهداً ، أن الاطلال الرهيبة في سبالاترو لا تعبر عن اضمحلال الفنون اقل مما تعبر عن عظمة الامبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس . فاذا كانت تلك حقيقة الحال في فن العمارة ، فمن الطبيعي أن نعتقد بأن التصوير والنحت قد انتابهما اضمحلال ملحوظ أكثر . فان العمارة تحكمها بضع قواعد قليلة عامة ، بل قل آلية ، ولكن النحت ، وفوق كل شيء التصوير ، يتطلبان إبراز — لا أشكال الطبيعة وحدها مخضب ، بل كذلك إبراز شخصية النفس البشرية وانفعالاتها . ولا تجدى في هذه الفنون الرائعة العالية خفة اليد ، الا اذا اثارها الخيال ووجهها أرفع الذوق وأدق الملاحظة .

وقد يكون من نافلة القول أن نشير الى أن الخيال الداخلى الذى انتاب الامبراطورية الرومانية وفجور الجنود ، وغارات المتبريرين ، وتناقض الاستبداد ، كل أولئك لم يكن مناخا موافيا للعبرية والنبوغ ، بل ولا لمجرد التعلم ، فقد أعاد تعاقب أمراء الليريا الامبراطورية ، دون أن ينعش العلوم . فلم يقدر لتعليمهم العسكرى أن يفرس فيهم حب الأدب . ومهما كان من أمر نشاط دقلديانوس وقدرته على العمل ، فان ذهنه لم يتفتح قط للدراسة أو التأمل . وجدير بالذكر أن لمهنتى القانون والطب فائدة عامة ، وهما تدران ربها ، ومن ثم يتوفر لهما دائما عدد من الناس ، على درجة مقبولة من الكفاية والمعرفة ، يمارسونها ، ولكن لا يبدو أن هؤلاء الطلبة لجأوا الى أساتذة مشهورين ممن برزوا في ذلك الزمان . وخيرست السنة الشعر ، وانحط التاريخ الى موجزات جافة مهوشة خالية من التسلية والتعذيب . وبقي شيء من البلاغة الجامدة المتكلفة في خدمة الأباطرة على نفقتهم ، حيث لم يشجعوا من الفنون الا ما أَرْضَى غرورهم أو دافع عن سلطانهم .

ومهما يكن من أمر ، فان عصر اضمحلال العلوم والبشر ، يتميز بظهور الأفلاطونيين الحديثين وتقديهم . لقد أخرجت مدرسة الاسكندرية ، السنة فلاسفة أثينا ، وانضوت الطوائف القديمة تحت ألوية المعلمين الذين هم أكثر عصرية ، والذين أوصوا باتباع سبيلهم لجدة منهجهم وصرامة سلوكهم ، وكان كثير من هؤلاء الاساتذة — أمونيوس Ammonius ، بلوتينوس Plotinus ، أمليوس Amelius وبورفيرى Porphyry — رجالا ذوى فكر عميق ودأب شديد ، ولكنهم اخطأوا الهدف الحقيقي للفلسفة ، ومن ثم أسهمت جهودهم اقل كثيراً فى النهوض بالعقل الانسانى منها فى افساده . فان الأفلاطونيين الحديثين أهملوا المعرفة الملائمة لعصرنا وقدماتنا ، كما أهملوا كل دائرة العلوم .

الروحانية والطبيعية والرياضية . على حين أرهقوا أنفسهم في المناقشات اللفظية في الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وحاولوا أن يستجلبوا أسرار العالم غير المرئى ، وجاهدوا ليوفقوا بين أرسطو وأفلاطون ، في موضوعات لم يكن جهل هذين الفيلسوفين بها أقل من جهل سائر الجنس البشرى ، واستنفدوا منطقهم فى هذه التأملات العميقة غير الثابتة ، ومن ثم تعرضت أذهانهم لأوهام الخيال وتوهموا أنهم يضعوا أيديهم على سر تخليص النفس من هذا السجن المادى (وهو الجسم) ، وادعوا أنهم اتصلوا اتصالا عاديا بالجن والأرواح ، وفى ثورة فريدة فى بابها حولوا دراسة الفلسفة الى دراسة السحر . لقد سخر العقلاء الأقدمون من الخرافة الشعبية المألوفة ، ولكن تلاميذ بلوتينوس وبورفيرى أخفوا ما فيها من سرف عن طريق مزاعم هزيلة لجازات واستعارات ، ثم بعد ذلك أصبحوا أشد المدافعين عنها حماسا وغيرة . ولما اتفقوا مع المسيحيين فى بعض النقاط الخفيفة فى العقيدة ، هاجبوا بقية نظامهم اللاهوتى بكل جنون الحرب الأهلية وشراستها . ولا يكاد الأفلاطونيون الحديثون يستحقون مكانا فى تاريخ العالم الحديث ولكن كثيرا ما سيرد ذكرهم فى تاريخ الكنيسة .

الفصل الرابع عشر (٣١٥ - ٣٢٣ م)

قسطنطين في روما : اصلاحاته التشريعية

تمثل الصدع أو العيب الأساسي الخطير في نظام دقلديانوس في ان مكسيميان ابنا هو مكسنتيوس Maxentius ولقسطنطيوس ابنا هو قسطنطين Constantine وتحكم العطف الأبوي وطفى على نظام الانتخاب وحسن الاختيار . وحاول جاليريوس ان يفرق بين قسطنطين ووالده . لكن الشاب ، رغم ذلك ، لحق بوالده في بريطانيا ، وعند موت الوالد في يورك ، نودي بالابن امبراطورا « اوغسطس » . وفي نفس العام نقض مكسنتيوس الميثاق ، وخرج من عزلته .

وكانت استراتيجية قسطنطين وخططه الدقيقة البارة هي الخيط الأول الرئيسي في كل الحروب والمناورات السياسية ، فقد تولى هو ادارة الغال ، بينما اقام مكسنتيوس حكما طاغيا غاشما في ايطاليا وافريقية . ثم غزا الأول ايطاليا وهزم مكسنتيوس وقتل عند جسر مليفيان Milivian خارج روما . وقد زعموا ان قسطنطين رأى ، قبل هذه المعركة ، الرؤيا التي قرر من اجلها التحول الى المسيحية .

قسطنطين في روما

لا يستحق قسطنطين في استغلاله لثمار النصر ، الاطراء لاعتداله ورفقه ، ولا اللوم لعنفه وبطشه ، فقد سقى بالكأس التي كان لابد ان يتجرعها هو وأسرته لو كانت الهزيمة حلت به . فأعدم ابني الطاغية ، وحرص على ان يستأصل كل من ينتمى اليه . ولا بد ان أبرز اتباع مكسنتيوس توقعوا ان يكتاركوه مصيره كما شاركوه يسره ورخاءه

وجرائمه ، ولكن لما تعالت أصوات الشعب الروماني مطالبة بالمزيد من الضحايا ، تصدى الفاتح في شيء من الثبات والإنسانية لهذه الصيحات الدليلة التي أملاها الرياء والاستياء معا . وعوقب المخبرون الوشاة ولم يلقوا تشجيعة ، واستدعى من المنفى أولئك الأبرياء الذين غاثوا من قبل من ظلم الطاغية السابق . وصدر قانون عفو عام هذا الخواطر وأقر الممتلكات في إيطاليا وفي أفريقية . ولخص قسطنطين خدماته ومشروعاته في خطاب متواضع له أمام السناتو عندما شرفه بزيارته لأول مرة ، وأكد احترامه الخالص للمجلس الموقر ، ووعد بتدعيم مكانته وأمته وأتباعه القديمة . ورد المجلس المشكور على هذه الاعترافات الجوفاء باللقاب الشرف الزائفة التي كان لا يزال من سلطته أن يمنحها . وأصدروا ، دون أن يحصلوا على تصديق قسطنطين ، مرسوماً بتفويضه في المكان الأول بين الأباطرة الثلاثة الذين يحملون لقب « أوغسطس » والذين يحكمون العالم الروماني . وأقيمت الألعاب والاحتفالات تخليداً لذكرى انتصاره ، كما أن عدة مبان شيدتها مكسنتيوس على حسابه قد كرس لتكريم غريمه المنتصر . ولا يزال قوس نصر قسطنطين قائماً ، دليلاً محزناً على الضحلال الفنون ، وشاهداً قريداً على انحطاط الوان الزهو والغرور ، فانهم لما تعذر عليهم أن يجدوا في عاصمة الامبراطورية نحاً يستطيع أن يتولى بلمساته تزيين هذا الأثر العام ، عمدوا الى قوس نصر تراجان فجرده من أروع رسوماته ، دون احترام لذكراه ، او رعاية لقواعد الملكية . وأغفلوا كل الاعتقالات تفاوت الأزمان والأفراد والأعمال والشخصيات . من ذلك أن الأسرى البارثيين يبدون متبطحين تحت قدمي أمير لم يجرد قط جيشاً فيما وراء الفرات ، وما يزال في مقدور الأثريين المدققين أن يكتشفوا رأس تراجان فوق نصب قسطنطين . أما الزخارف التي كان لزاماً أن يملأوا بها الفراغات في النحت القديم فقد تمت على أقبح صورة وأبعدها عن المهارة والألقان .

أما القضاء النهائي على الحرس البريتوري فكان إجراء يتسم بالحرص والفتنة ، كما يمثل ضرباً من الانتقام . ذلك أن قسطنطين أخمد الى الأبد قوة هذه الفرق التي ملأها الصلف والخطورة ، والتي أبقي مكسنتيوس على أعدادها وأمتيازاتها ، بل زاد منها وبالغ فيها . ودمر المعسكر الحصين ، وتبعثرت الفئة القليلة من هؤلاء البريتوريين ، تلك التي أفلتت من بطش السيوف ، نقول تبعثرت بين مختلف قوات الجيش أو نفيت الى أقصى حدود الامبراطورية ، حيث يمكن أن يتنفع بهم دون أن يشكلوا خطراً . واذ قضى قسطنطين على هذه الفرق التي كانت ترابط عادة في روما ، لمانه وجه بذلك ضربة قاضية الى مكانة

السناات والشعب ، كما باتت العاصمة العزلاء من السلاح معرضة لاساءات مليكها النائي أو اهماله ، وليس لها ما يعضها من هذا أو تلك . وقد نلاحظ أن الرومان في محاولتهم الأخيرة للحفاظ على حريتهم النهار المحتضرة وقد توجسوا خيفة من الجزية ، دفعوا مكسنتيوس الى العرش ، ولكنه تقاضى هذه الجزية على اعتبار أنها مقدمة خالصة . واهابوا بقسطنطين لمساعدتهم ، فقهر الطاغية ، وحول الهدية الخالصة الى ضريبة دائمة . وقسم شيوخ السناات الى طبقات تبعا لما أعلنوه عن بيان ممتلكاتهم ، فدفع أكثرهم يسارا وغنى ثمانية أرتال من الذهب سنويا ، ودفعت الطبقة الثانية أربعة أرتال ، ودفعت الأخيرة رطلين ، أما أولئك الذين كان يجوز لهم طلب الاعفاء لفقرهم فقد فرض عليهم سبع قطع ذهبية . والى جانب أعضاء السناات الفعليين ، تمتع أبناءهم وذرياتهم ، بل وأقرباؤهم ، بالامتيازات الزائفة التي لا قيمة لها ، واحتلوا العبء الثقيل لهذا النظام ، وليس مما يدعو الى الدهشة بعد ذلك ، أن يوجه قسطنطين عنايته الى الاستزادة من عدد هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف المجدى . ولم يقض الامبراطور الظافر ، بعد موت مكسنتيوس أكثر من شهرين أو ثلاثة في روما التي زارها مرتين بعد ذلك طوال ما تبقى من سنى حكمه ، ليشارك في الاحتفالات العظيمة بالعيد السنوى العاشر والعيد العشرين لتولييه الحكم . فقد كان قسطنطين في حركة دائبة لتدريب جنوده أو لتفقد الأحوال في الولايات ، وكانت اقامته متنقلة بين تريف Treves وميلان واكويليا وسرميوم ونسوس Naissus وسالونيكيا - الى أن أسس « روما جديدة » على تخوم أوربا وآسيا .

عقد قسطنطين فى البداية تحالفا مع ليسينيوس Licinius ثم اشتبك معه بعد ذلك فى حرب . وتم الصلح بينهما بعد معركة سيباليس Cibalis ومارديا Mardia .

اصلاحات قسطنطين التشريعية

حقق الصلح بين قسطنطين وليسينيوس ، على أية حال ، العالم الرومانى هدوءا دام أكثر من ثمانى سنوات ، رغم ما كان يشوبه من نفور وحقد ، وذكريات الاساءة الأخيرة ، وتوقع الخطر فى المستقبل . واذ تبدأ حوالى هذه الفترة سلسلة منتظمة من القوانين الامبراطورية ، فليس

من العسير أن نسجل تلك التنظيمات المدنية التي شغلت فراغ قسطنطين . ولكن أهم النظم التي ابتدعها مرتبطة أشد الارتباط بأسلوبه الجديد في السياسة والدين ، ذلك الأسلوب الذي لم يستقر ويتأصل بالفعل ، إلا في سنى الهدوء والسلام الأخيرة من حكمه . ويرجع كثير من قوانينه المتعلقة بحقوق الأفراد وملكيته وممارسة المحاماة الى التشريع الخاص أكثر منها الى التشريع العام في الإمبراطورية . كما أنه أصدر عدة قوانين ذات طابع محلي مؤقت ، بدرجة لا تستحق معها عناية التاريخ العام . على أنه يمكن اختيار قانونين اثنين من هذه المجموعة : واحد لأهميته والثاني لغرابته ، الأول لخيره المشهود ، والآخر لقسوته المتناهية :

١ - انتشرت الى حد رهيب يوما عن يوم في الولايات وخاصة في إيطاليا ، العادة الفظيمة القديمة ، وهي تعرض الاطفال الحديثي الولادة للموت أو قتلهم ، وكان هذا نتيجة الضيق الناتج أساسا من عبء الضرائب وفداحتها التي لا تحتمل ، ومن مضايقات واضطهادات مأموري الدخل لمدينيهم المعسرين ، ومن ثم رأى أقل الناس ثراء وعملا - بدلا من الاحساس بالمتعة في كبر الأسرة - أنه من الحنان الأبوي والعطف أن يخلصوا أطفالهم مما يحرق بهم من البؤس والفاقة في حياة يعجز الآباء أنفسهم من احتمالها . وتحركت روح الانسانية في نفس قسطنطين نتيجة لبعض أمثلة صارخة حديثة من اليأس ، ودفعته الى اصدار أمر عال الى كل مدن إيطاليا ثم أفريقية فيها بعد ، بتقديم معونة عاجلة كافية الى الآباء الذين يحضرون أمام الحكام أولئك الأبناء الذين لا يستطيعون تعليمهم نتيجة لفقرهم . وكان الوعد سخيا والشرط غامضا ، الى درجة لم يحقق معها أى نفع عام أو دائم . فإن القانون رغم ما هو جدير به من ثناء وتقدير ، لم يقلح في تخفيف ويلات الناس أكثر الخطباء في اظهارها . ولكنه سيظل حجة دامغة تتحدى وتتحدى لأولئك الخطباء المرتشين الذين بلغوا من الرضا بموقفهم حدا لا يستطيعون معه تبين الرذيلة أو التماسه في ظل حكومة ملك جواد .

٢ - أما قوانين قسطنطين ضد هتك العرض ، فلم تتسم الا بأبصر القليل من التفاضى عن أحب نقاط الضعف في الطبيعة الانسانية ، حيث ان وهدف هذه الجميمة لم يقتصر على الاغتصاب بالقوة ، بل تعداه الى الاغواء الناعم الذى يفرى امرأة غير متزوجة دون الخامسة والعشرين من العمر ، بترك بيت والديها . « هكذا عوقب المناصب الذى هتك العرض بالموت ، فاذا لم يتكافأ الموت البسيط مع فداحة الجرم ، أحرق

حيا أو قطعتة الوحوش الكاسرة أربا في المسرح . وإذا اعتزفت العذراء
بأنها اجتطفت برضاها ، فإنها لن تنقذ بذلك حبيبها ، بل كانت تتعرض
لمساكرته مصيره . وعهد برقع الدعوى الى أبوى المجرم أو الفتاة
المنكودة ، فإذا تغلبت عليهما عواطف الطبيعة وأدت بهما الى التفاوض
عن الأذى ، واللجوء الى الزواج بعد ذلك محافظة على شرف الأسرة ،
فإن الأبوين يعاقبان بالنفي والمصادرة . أما العبيد من الإناث أو الذكور
الذين يثبت عليهم الاشتراك في جريمة الاغتصاب أو الاغواء ، فكانت
عقوبتهم الموت بهذا اللون البارح من التعذيب ، وهو صب كمية من
الرصاص المصهور في حلقهم . ولما كانت هذه الجريمة ذات صفة عامة ،
فقد أجاز توجيه الاتهام حتى للأجانب ، ولم يكن الشروع في اقامة
الدعوى محددًا بفترة محددة من السنوات ، وكانت نتائج الحكم تمتد
لتشمل النتائج البريء لهذا الاتصال الشاذ . ولكن لما كانت المعصية
تثير من الزعج والفرغ أقل بكثير مما تدعو الى العقوبة ، فإن صرامة
قانون العقوبات لابد أن تدعن لمشاعر البشر . فقد خففت أو ألغيت
أبعض الأجزاء في هذا القانون في العهد التالية . بل أن قسطنطين نفسه
خفف من شراسة نظمه العامة ، عن طريق قرارات جزئية خاصة أصدرها
في بعض الحالات ، رافة بأصحابها . هكذا كان الزواج الشاذ للإمبراطور
الذي تساهل بل تلكأ وتوانى في تنفيذ قوانينه ، قدر ما كان متشدداً بل
قاسيا في سنها . ولا يكاد يحوز من الميسور أن تجد أكثر من هذا
علامات خاسمة للضعف ، في خلق الأمير أو في نظام الحكم .

في سنة ٣٢٣ نشبت الحرب الأهلية من جديد بين قسطنطين
وليسينيوس . وانفرد قسطنطين بالسيادة على الامبراطورية بعد
معهزكتي أدنة وكريسوبوليس ، وموت غريمه .

ظهور المسيحية

الفصل الخامس عشر

خمسة أسباب لنمو المسيحية : الظروف المواتية لتقدمها

اعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

قد يعتبر البحث الصادق المنطقي لنقدم المسيحية واستقرارها من أهم الموضوعات في تاريخ الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي تعرض فيه هذا الكيان الضخم للعنف السافر أو قوضه الانحلال البطيء ، تسلل في خفة ورقة الى اذهاب الناس دين نقي متواضع ، ونما في صمت وخفاء ، واستمد من التصدي له عزما جديدا . وكتب له في النهاية أن يرفع الصليب الظافر فوق اطلال الكابيتول . ولم يكن اثر المسيحية مقصورا على عصر الامبراطورية الرومانية وفي نطاق حدودها ، فما تزال تعترف بهذا الدين — بعد ثورة دامت ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا ، أهم أوروبا ، وهي أبرز بنى الانسان في الفنون والعلوم والحرب ، على حد سواء . ويفضل حماسة الأوربيين وجددهم انتشر بسرعة الى أقصى شواطئ آسيا وأفريقية ، وعن طريق المستعمرات تركز واستقر من كندا الى شيلي ، في عالم لم يكن يعرفه الأقدمون .

ومهما كان هذا البحث نافعا وطريفا فانه تكتنفه صعوبتان . فان مواد التاريخ الكنسي الهزيلة الضئيلة المشكوك فيها ، لا تكاد نستطيع معها أن نبذل الغيوم الحالكة التي تتلبد في سماء العصر الأول للكنيسة . وكثيرا ما يضطرنا قانون التجرد والنزاهة العظيم الى الكشف عن مثالب المعلمين غير الملهمين والمؤمنين بالانجيل ، وقد يبدو للمراقب المستهين أن اخطاءهم تلقى ظلا على العقيدة التي يقرونها . ولكن خسرى المسيحي التلقى ، والظفر الكاذب للكافر ، لابد أن ينقضيا حالما يتذكران : من

أنزل الوحي الالهى ، وكذلك الى من نزل هذا الوحي . وقد ينصرف عالم اللاهوت الى المهمة الحبيبة السارة مهمة وصف الديانة كما نزلت من السماء ترفل في حلك الطهر والنقاوة . ولكن هناك واجبا أشد حزنا وكتابة ملقى على عاتق المؤرخ ، فان عليه أن يميظ اللثام عن الخليط المحتوم من الخطأ والفساد اللذين علقا بالديانة في اقامتها الطويلة على الأرض بين جماعة ضعيفة منحلة من البشر .

ومن الطبيعى أن يحدونا حب الاستطلاع الى تقصى الوسائل التى أحرزت بها العقيدة المسيحية هذا النصر المؤزر على الدبانات القائمة فى الأرض . وقد يرد جوابا واضحا مرضيا عن هذا التساؤل ، القول بأن هذا يرجع الى البرهان المقنع فى العقيدة نفسها ، والى التدبير المحكم المكين لمنشئها العظيم . ولما قل أن يجد الحق والمنطق ترحيبا فى هذا العالم ، ولما اقتضت حكمة العناية الالهية أن تتنازل فتتخذ من أهواء الناس ومشاعرهم ومن الظروف العامة المحيطة بالجنس البشرى، أدوات لتحقيق أغراضها ، فانه ما يزال يحق لنا أن نتساءل فى الواقع — مع التسليم بالإثني — لا عن الأسباب الأولى ، بل عن الأسباب الثانوية للنمو السريع للكنيسة المسيحية . وربما يبدو أن الأسباب الخمسة الآتية قد ساندتها مساندة صادقة وعاونتها معاونة فعالة :

١ — غيرة المسيحيين التى لا تلين ، وبالأحرى ، الغيرة المتعصبة (اذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) والحق أن هذه الغيرة مأخوذة عن الديانة اليهودية ، ولكنها خلت وتطهرت مما كان يشوب هذه الديانة من روح ضيقة انعزالية غير اجتماعية أبعدت الأميين (غير اليهود) عن شريعة موسى بدلا من جذبهم اليها .

٢ — نظرية الحياة الآخرة ، وقد عضدتها كل الظروف الإضافية التى يمكن أن تضيف على هذه الحقيقة الهامة قيمة وفعالية .

٣ — قوى الاعجاز المنسوبة إلى الكنيسة فى صدر المسيحية .

٤ — أخلاق المسيحيين النقية الصارمة .

٥ — الوحدة والنظام فى الجمهورية المسيحية التى شكلت ، مع الأيام ، دولة مستقلة متزايدة فى قلب الإمبراطورية الرومانية .

١ — الغيرة التى لا تلين وإلتي ورثها المسيحيون عن اليهود :

لقد إبتنا بالفعل على وصف الإنسجام الدينى فى العالم القديم ، والسهولة التى اعتنقت بها ، أو قل احترمت ، معظم الأمم ، حتى المتعادية

منها ، خرافات بعضها بعضا ، ولكن شعبا واحدا فقط رفض أن يختلط بهذا العالم . فإن اليهود الذين أنزوا ليهود كثيرة تحت حكم ملوك آشور وفارس بوصفهم أحقر العبيد ، خرجوا من الظلام في عهد خلفاء الاسكندر . ولما كثر عددهم إلى درجة مذهلة في الشرق ، ثم في الغرب ، فإنهم سرعان ما أثاروا دهشة سائر الأمم وفضولها . ويبدو أن عنادهم الرهيب في الحفاظ على طقوسهم الخاصة وآدابهم الإنعزالية البعيدة عن الروح الاجتماعية ، ميزتهم بأنهم جنس مختار من البشر ، وأعلنوا في جراءة أو أخفوا قليلا ، كراهيتهم الشديدة لسائر بني الانسان . ولم يفلح عنف أنتيوخوس ، ولا دهاء هيرودس ، ولا الإقتداء بالأمم المجاورة ، في اغراء اليهود بالربط بين ناموس موسى وبين الأساطير اليونانية الرشيقة . وطبقا لمبادئ التسامح العلم الشامل ، كان الرومان يجهون الخرافة التي يحتقرونها . وقد تنازل أوغسطس المذهب فأصدر اوامره بتقديم القرابين من أجل رخائه وإزدهاره في هيكل اورشليم . على حين أن أحقر ذرية ابراهيم ، الذي كان إلزاما عليه أن يقدم مثل هذا الولاء لجوبيتر في الكابيتول كان يصبح موضع احتقار من نفسه ومن سائر اخوته ، اذا هو أقدم على شيء من هذا . ولكن اعتدال الغزاة لم يكن كافيا لإخماد الأحقاد والحزازات في نفوس رعاليهم الذين فزعوا واشتملوا من الشعائر الوثنية ، التي دخلت بالضرورة الى ولاية رومانية . وأحببت محاولة كاليجولا المجنونة لوضع تمثاله في هيكل اورشليم أمام التصميم الأجماعي لشعب كان يخشى الموت لقل كثيرا مما يخشى مثل هذا الرجس الوثني . وكان تعلقهم بشريعة موسى يعادل مقتهم لسائر الديانات الأجنبية . فلما انحصر تيار الغيرة والإخلاص في هذا المجرى الضيق ، اندفع في قوة السيل الجارف ، بل أحيانا في مثل عنفه وشديته .

ويتخذ هذا الإصرار الذي لا يلين والذي بدأ للعالم القديم انه كرية مدعاة للسخرية ، شكلا أشد رهبة ، حين شاعت العناية الإلهية أن تكشف لنا أستار الغموض الذي أحاط بتاريخ الشعب المختار . ولكن هذا التعلق المروع بل المتزمت بشريعة موسى ، والذي برز في اليهود الذين عاشوا في ظل الهيكل الثاني (١) ، يظل ادعى الى المزيد من الدهشة

(١) الهيكل الثاني بناء اليهود في اورشليم عام ٥٣٦ ق م . عقب عودتهم من المنفى . أما الهيكل الاول فكان قد بناء سليمان ودمر حوالي عام ٥٨٦ ق م . ثم بدأ هيرود العظيم في بناء الهيكل الثالث الذي دمره الرومان عند استيلائهم على اورشليم حوالي سنة ٧٠ م . وكانت كل هذه الهياكل لعبادة يهوه - (المترجم) .

إذا قورن بعناد آباؤهم الأولين في الارتباب وعدم التصديق ، ذلك أنهم عندما نزلت الشريعة من جبل سيناء وسط الرعود ، وعندما توقف جريان البحر وتعطل سائر الكواكب. خدمة لبني إسرائيل ، وعندما كان الثواب أو العقاب الدنيوى نتيجة سريعة مباشرة لتقواهم أو لكفرهم — عندما حدث ذلك كله نراهم قد عمدوا باستمرار الى التمرد على جلالة مليكهم الالهى (أى ربهم). الذى يروونه أمامهم ، والى وضع أصنام الأمم القديسة في محراب يهوه ، والى تقليد كل طقوس غريبة من طقوس العرب في خيامهم أو الفينيقيين في مدنها . فلما حبست العناية الالهية بحق رعايتها عن هذا المنصر الجحود ، اكتسب ايمانهم قدرا متناسبا من القوة والنقاوة . وقد شهد معاصرو موسى ويسوع في استهتار مهين أغرب المعجزات . وتحت وطأة الكوارث كلها حفظ الايمان بهذه المعجزات لليهود في عصر متأخر من عدوى الوثنية الشاملة . ويبدو أن هذا الشعب الفريد — خلافا لكل مبادئ العقل البشرى المعروفة — قد آمنوا ايماناً أقوى وأسرع بتقاليد أسلافهم الأولين ، منه بالأدلة التى لمسوها بأيديهم أو أتركوها بحواسهم (١) .

وكانت الديانة اليهودية مهياة للدفاع بشكل يدعو الى الاعجاب . ولكنها لم تكن معدة قط للهجوم والتوسع ، ويبدو من المحتمل أن عدد المهتدين لم يزد كثيرا على عدد المارقين في يوم من الأيام . لقد نزلت الوعود الالهية على شعب واحد كما أمر الشعب نفسه بشعيرة الختان المميزة . فلما تكاثرت نسل ابراهيم حتى أصبحوا كرمل البحر ، أعلن الاله الذى تلقوا من فمه مجموعة الشرائع والطقوس — أعلن أنه الاله الخاص بإسرائيل وكأنه الاله القومى لهم ، وأفرز شعبه المفضل ، دون سائر البشر ، بأشد ما تكون العناية والغيرة . وقد اقتترن غزو أرض كنعان بكثير من الظروف العجيبة والدامية كذلك ، الى درجة أن اليهود المنتصرين باتوا وقد احتدم العداء بينهم وبين كل جيرانهم بشكل لا يهدأ . وأمرؤا أن يستأصلوا بعضا من أشد القبائل وثنية ، وقلما عوق ضعف البشر تنفيذ الأوامر الالهية . وحرم عليهم الزواج من الأمم الأخرى أو التحالف معها . أما تحريم قبولهم في الجماعة اليهودية ، وقد كان تحريما دائما في بعض الأحيان ، فقد امتد في الغالب الى الجيلين الثالث، والسادس ، بل حتى الى الجيل العاشر . فان الالتزام بتبشير الأمميين

(١) وقال الرب لموسى : « حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم » . (سفر العدد — الأصحاح الرابع عشر — الآية ١١) .

يعقيدة موسى ، لم يعتبره اليهود يوما مبدأ من مبادئ ناهوسهم ، كما أنهم لم يميلوا الى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لأدائه .

وفيما يتعلق بقبول المواطنين الجدد ، فقد تأثر هذا الشعب الانعزالي غير الاجتماعي وتصرف في هذا الصدد وفق التقليد اليوناني الذي يشوبه الغرور والأنانية ، لا وفق سياسة روما التي تتسم بالكرم والسماحة . فقد خدع أحفاد ابراهيم أنفسهم بأنهم وحدهم ورثة العهد بين الله والانسان كما ورد في التوراة . ولشد ما توجسوا خيفة من الانتقاص من قيمة ميراثهم لو سهل على الغرباء الاشتراك معهم فيه . ان المزيد من التعرف على الجنس البشري قد وسع مداركهم ولكنه لم يهذب تحيزهم او يحد من تعصبهم . وما اكتسب اليه اسرائيل يوما مؤمنين جددا الا كان مدينا للمزاج المتقلب عند المشركين أكثر منه للحماسة الجادة عند المبشرين بدينه . ويبدو أن عقيدة موسى شرعت لبلد واحد ، وكذلك لأمة واحدة . ولو أطاع اليهود طاعة عمياء الأمر الذي يحتم مثول كل ذكر ثلاث مرات سنويا أمام يهوه ، لكان من المستحيل عليهم أن ينتشروا خارج الحدود الضيقة لأرض الميعاد . والواقع أن هذه العقبة دلت بهدم هيكل اورشليم ، ولكن تورط مع هذا التدمير أهم جزء في الديانة اليهودية . ووقع الوثنيون الذين طال بهم أمد الدهشة والاستغراب للنبا الغريب ، نبا هيكل خال - وقعوا في حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات يمكن أن تكون لعبادة جردت من المعابد أو المذابح أو الكهنة أو القرايين . ومع ذلك فإن اليهود ، حتى في حالة الوهن والتدهور جفلوا - وظلوا يؤكدون امتيازاتهم المتفطرة الخاصة بهم - من مجتمع الغرباء ، بدلا من التودد اليهم ، واستمر اصرارهم ، في صلابة لا تلبث ، على تلك الأجزاء التي كان في مكنثهم أن يمارسوها من شريعة موسى . فان تمييزهم الغريب بين الأيام بعضها بعضا ، وتميز بعض اللحوم عن البعض ، الى جانب مجموعة كبيرة من الطقوس التافهة ، ولو أنها ثقيلة ، كل أولئك كان يثير اشهزاز ومقت الأمم الأخرى التي كانوا يختلفون معها اختلافا نبا هيكل خال - وقعوا في حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات لكفيلة وحدها برد المهتدي ذي الرغبة الأكيدة في الايمان ، عن باب معبد اليهود .

وفي هذه الظروف تقدمت المسيحية الى العالم ، مسلحة بقوة الشريعة الموسوية ، متحررة من ثقل قيودها وأغلالها . وأشرب النظام الجديد في عناية فائقة ، مثل النظام القديم تماما . ، حماسنا مطلقا لصدق العقيدة ووحدانية الله . ورتب كل ما كشف الآن للانسان من طبيعة « الكائن

الأعلى » وتدبيره ، بحيث يزيد من إجلالهم وتقديرهم لهذه النظرية الخفية الغامضة . وسلم بالسلطة الإلهية لوسى وللرسل ، بل اعترف بها على أنها أقوى أركان المسيحية . وظهرت منذ بدء الخليقة سلسلة لا تنقطع من النبوءات التي بشرت وهيأت لقدم السيد المسيح الذي طال ترقب قدمه ، وطبقا لتوقعات اليهود ومخاوفهم الشديدة ، كان كثيرا ما يمثل في شخصية ملك وفتح ، أكثر منه في شخصية رسول وشهيد وابن الله . وختمت بقربانه المكفر على الفور كل قرابين المعبود الناقصة وألغيت ، وجاء بعد الطقوس التي تألفت من بعض الأنماط والأرقام ، عبادة نقية روحية تصلح لكل مناخ ، كما تتفق بالمثل مع ظروف الجنس البشري . وبدلا من التدشين بالدم ، حل شيء أقل ضررا وهو التدشين بالماء . وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا في ذرية إبراهيم — تحزيا وتحزبا — أصبح اليوم قدرا مشتركا للأحرار والعبيد ، واليونان والمتربرين واليهود والأمميين . وكل ميزة يمكن أن ترقى بالمهتدي من الأرض إلى السماء أو تمجد إخلاصه أو توفر له السعادة ، أو حتى ترضى الغرور الخفى الذى يتسرب إلى نفس الإنسان في صورة التقوى والايمان — ظلت محتفظا بها لأعضاء الكنيسة المسيحية ، ولكن في نفس الوقت ، كان الناس جميعا مرخصا لهم ، بل مدعوين رجاء وتوسلا ، لتقبل هذه الميزة التي لم تمنح مجاملة وتفضلا ، بل فرضت فرضا والتزاما . وأصبح من أقدس الواجبات على كل من تحول إلى المسيحية أن ينشر بين أصدقائه وإقربائه البركة التي تلقاها والتي لا يمكن تقديرها ، وأن ينذرهم بأشد العقاب للرفض الذي يعتبر مخالفة آئمة لإرادة الله المحسن العلى القدير .

وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى اسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا . واعترف من تحول من اليهود بيسوع على أنه المسيح الذى أنبا به الوحي القديم ، وأجلوه واحترموا باعتباره رسولا يعلم الناس الفضيلة والدين ، ولكنهم تشبثوا تشبثا عنيدا بشعائر وطقوس أسلافهم ، حتى لقد أرادوا فرضها على الأمميين (غير اليهود) الذين كانوا يزدون باستمرار في عدد الداخلين في المسيحية . ويبدو أن هؤلاء المسيحيين المتهودين ناقشوا ، على درجة من الصواب ، المصدر الإلهي للشرعة الموسوية ، والكمال الثابت لمنشئها العظيم ، وأكدوا أنه إذا كان « الكائن الاسمى » وهو هو نفسه عبر الخلود ، قد شرع إلغاء الطقوس المقدسة التي كانت تميز شعبه المختار ، ولما كان الغاؤها أقل وضوحا وجلالا ومهابة من سننها في البداية ، فإنه بدلا من هذه التصريحات المتكررة التي تفترض أو تؤكد خلود العقيدة

الموسوية ، كان من الممكن تمثيلها على أنها مشروع مؤقت قصد به أن يستمر حتى قدوم المسيح الذى سيعلم الناس أمور العقيدة والعبادة فى أسلوب أقرب الى الكمال ، وأن المسيح نفسه وتلاميذه الذين حاوروه فى الأرض ، بدلا من اجازتهم - عن طريق القدوة - لأصغر الشعائر فى الشريعة الموسوية ، كان يمكن أن ينشروا على العالم الغاء تلك الطقوس العقيمة القديمة المهجورة ، دون أن تتكلف المسيحية غناء البقاء سلبين طويلا حائرة مرتبكة بين مختلف طوائف الكنائس اليهودى . وقد يبدو أن فى مثل هذه المناقشات دفاعا عن قضية شريعة موسى المُنْهية ، ولكن أحبارنا المتفقهين كثيرا ما استطاعوا بجدهم أن يفسروا لفظة «العهد القديم» المبهمة ، وسلوك «المعلمين الرسولين» الغامض . وكان الأفضل والأسلم أن يكشف النقاب تدريجيا عن الأسلوب الموجود فى الانجيل وأن يصدر - فى غاية الحذر والرفق - حكم يدين هؤلاء اليهود المؤمنين ، وهو أمر تعافه نفوسهم وتبغضه تعصباتهم .

ويقدم تاريخ كنيسة اورشليم دليلا ناقصا على ضرورة مثل هذه الاحتياطات ، وعلى اثر الديانة اليهودية العميق فى عقول أتباعها . وكان الأساقفة الخمسة عشر الأولون فى اورشليم من اليهود المختلئين . وجمع شعب الكنيسة الذى ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعى أن تتقبل التقاليد البدائية للكنيسة التى أسست بعد موت المسيح بأربعين يوما فقط ، والتى حكمها فى الكثير الغالب حواريسوه ورسله لعدة سنين - تتقبل على أنها مقياس الصحة أى المذهب الصحيح - الأرثوذكسى . أما الكنائس النائية فكثيرا ما لجأت الى الكنيسة الأم (كنيسة اورشليم) ، وفرجت كروبها عن طريق الصدقات النسخية ، فلما نشأت المجتمعات العديدة الغنية فى المدن الكبرى فى الامبراطورية : فى انطاكية ، الاسكندرية ، افينبوس ، كورنثة ، روما ، تقلص الاحترام الذى كانت اورشليم توحى به الى المراكز المسيحية ، وسرعان ما وجد اليهود المرتدون الى المسيحية ، أو كما سموها فيما بعد «النصارى» (نسبة الى مدينة الناصرة) والذين وضعوا أساس الكنيسة - نقول وجدوا أنفسهم وقد طغت عليهم الجموع المتزايدة الذين انضموا تحت راية المسيح من مختلف مذاهب الشرك . وزفص الأميون - بموافقة رسولهم الخاص - ثقل الطقوس الموسوية الذى لا يحتمل ، وأبوا آخر الأمر ، لآخوانهم الذين هم أكثر غيرة على الحق نفس التسامح الذى تضرعوا هم فى بداية الأمر من أجله . وقد أحس النصارى احساسا عميقا مريرا بدمار المعبد والمدينة والعقيدة اليهودية ، فقد احتفظوا فى سلوكهم - لا فى عقيدتهم - بأواصر وثيقة بينهم وبين بنى وطنهم غير الاتقياء

الذين نسب الوثنيون كوارثهم الى احتقار الاله الأعظم ، ونسبها المسيحيون ، بشكل أحق وأصدق ، الى غضبه . وارتد النصارى من اطلال اورشليم الى مدينة بلا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن ، حيث انزوت تلك الكنيسة القديمة فى عزلة وخفاء ، ولكنهم ظلوا يجدون العزاء فى التردد على المدينة المقدسة لزيارتها ، وبالأمل فى عودتهم يوماً الى هذه الأماكن التى علمتهم الطبيعة والعقيدة معا أن يحبوها ويجلوها . كذلك . ولكن تعصب اليهود الذميمة اليائس ، فى عهد هادريان زاد الطين بلة فى النهاية ، حتى بلغت الكارثة ذروتها ، فاستخدم الرومان الذين أهاجتهم ثوراتهم المتكررة ، حق النصر فى شراسة بالغة غير عادية ، وأسس الإمبراطور ، تحت اسم إيليا كابيتولينا مدينة جديدة على جبل صهيون ، وأعطاه كل امتيازات المستعمرة ، وتوعد بأشد العقوبات أى فرد من الشعب اليهودى يجرؤ على الاقتراب من تخومها ، ووضع حامية يقظة من الجنود الرومان لتقوم بتنفيذ أوامره . ولم يكن أمام النصارى للامتثال من هذا الحكم الا سبيل واحدة ، وعضد الدين القيم هذه المرة ، ما للمزايا المؤقتة من أثر ، فانتخبوا ماركوس أسقفاً لهم ، وهو من أحبار عنصر الأميين الغرباء ، وأغلب الظن أنه كان من مواطنى إيطاليا أو إحدى الولايات اللاتينية . وبفضل اقتناعه ، أشاد معظم شعب الكنيسة بشريعة موسى التى ثابروا على اتباعها أكثر من قرن من الزمان . وبهذه ضحية بعماداتهم وآرائهم اشتروا السماح لهم بالدخول الى مستعمرة هادريان كما دعوها وخذتهم مع الكنيسة الكاثوليكية ، بشكل أقوى وأثبت .

ولما استعاد جبل صهيون اسم كنيسة اورشليم وأمجادها ، نسبت جرائم الانشقاق والضلال الى البقية الحقيرة من النصارى الذين رفضوا أن يرافقوا أسقفهم اللاتينى . وظل هؤلاء يحتفظون بمدينة Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق ، وأنشأوا لهم كنيسة هزيلة فى مدينة حلب بسوريا . واعتبر اسم « النصارى » أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأثق. وضالة الادراك ، بالإضافة الى حالتهم — الاسم الحقيير المسزى « الابيونيين Ebionites » . وبعد عودة كنيسة اورشليم ببضع سنين ، ثار الشك والجدل حول المسألة الآتية : هل يمكن أن يطمع فى الخلاص رجل آمن عن يقين بيسوع المسيح فى الوقت الذى ظل فىل يتبع شريعة موسى؟ ونزعت بالقديس جوستين الشهيد Justin Martyr روحه الانسانية الطيبة ، فرد على هذا التساؤل بالاجاب ، والحق أن جوابه

كان يتسم بأكبر التحفظ والحياء ، ولكنه رغم ذلك تجاسر فوقف الى جانب مثل هذا المسيحي غير المكتمل ، شريطة أن يكتفى بممارسة الشعائر الموسوية دون أن يعمد الى توكيد نفعها وضرورتها . فلما الحوا على جوستين في الافصح عن رأى الكنيسة ، قال ان بين المسيحيين الارثوذكس كثيرين جدا ، لا يستبعدون اخوتهم اليهود المتنصرين من اهل الخلاص فحسب ، بل كذلك ينكرون الاتصال بهم في المجالات العامة ، مثل الصداقة والضيافة والحياة الاجتماعية . وتغلب الرأى الذى هو أشد صرامة وقسوة ، كما كان متوقعا بطبيعة الحال ، على الرأى الذى هو أكثر اعتدالا . ومن هنا وجد حاجز أبدي يفصل بين أتباع موسى وأتباع المسيح . اما الأبيونيون التمساء الذين لفظتهم ديانة بأنهم مارقون ، ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين الى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، الا انها ذابت بطريقة غير ملحوظة في الكنيسة المسيحية أو في الهيكل اليهودى .

وبينما اتخذت الكنيسة الارثوذكسية مكانا وسطا سويا بين الافراط فى الاحترام والاجلال وبين الازدراء غير اللائق ، لشريعة موسى ، نجد ان مختلف الهراطقة قد انحرفوا الى النقيض بنفس التقدر من التطرف ، حتى بلغوا غاية الخطا وغاية الاسراف . فقد انتهى الأبيونيون ، وفنا لما اعترفوا به من صدق الديانة اليهودية ، الى أنه لا يمكن الفأؤها او ازالتها قط . على حين سارع اللا أدريون (الغنوصيون Gnostics طائفة تقول بأن الخلاص بالمعرفة دون الايمان) فاستخلصوا من عيوبها المزعومة انها لم تكن قط من انشاء حكمة الاله . وهناك — على سلطان موسى والرسل — بعض الاعتراضات سرعان ما تقفز الى اذهان المتشككين الملحدين ، ولو انها تنبع من جهلنا بالآباد السحيقة وعجزنا عن تكوين فكرة كافية عن التدبير الالهى . ورحب علم الغنوصيين العقيم فى لهفة بهذه الاعتراضات ، ودافع عنها فى جراءة ووقاحة . ولما كان معظم هؤلاء الهراطقة يرفضون ملذات الحواس أو الملذات المادية فقد هاجموا بشدة تعدد الزواج عند البطارقة (الاشراف) وفروسية داود وحريم سليمان . وبعد فتح أرض كنعان وابادة السكان الاصليين غير المربين الأبرياء الذين لم يتوقعوا شرا ، باتوا فى حيرة من أمرهم ، كيف يلتئمون مع الأفكار العامة المشتركة للانسانية والعدالة . ولكنهم لما تذكروا السجل الدامى الزاخر بالقتل والاعدام والمذابح ، الذى يكاد يلطخ كل صفحات تاريخ اليهود ، ادركوا أن المتبربرين فى فلسطين أظهروا من الرحمة والرفق بأعدائهم الوثنيين مثل ما أظهروا لأصدقائهم أبنى

جلدتهم . وعندما تجاوزوا المذاهب الفرعية الطائفية للشريعة الى الشريعة نفسها وجدوا انه من المستحيل على ديانة لا تتألف الا من القرابين الدموية والطقوس التفهية ، وطبيعة الثواب والعقاب ، على السواء فيها ، هي طبيعة جسدية دنيوية مؤقتة — من المستحيل على هذه الديانة ان توحى بحب الفضيلة او تكبح جماح الانفعالات والعواطف . وعالج الغنوصيون موضوع خلق الانسان وموته في سخرية يشوبها الدنس والالحاد ، فانهم لم يصغوا في اناة وصبر الى ان الاله قد أخذ الى الزاحة بعد ستة ايام من جهد شاق ، الى ضليخ آدم ، والى جنة عدن والى شجرة الحياة والمعرفة ، والى الأفعى الناطقة ، والى الفاكهة المحرمة ، والى الحكم الصادر ضد الجنس البشرى نتيجة لخطيئة تافهة اقترفها اجداده الأولون . وصور الغنوصيون — في الحاد بالغ — اله اسرائيل ، بأنه معرض للأهواء والخطأ ، متقلب في حبه ، عنيد لا يطاق في غضبه ، غيور بشكل دنى على عبادته الخرافية ، وقد قصر عنايته المتحيزة على شعب واحد وعلى هذه الحياة المؤقتة الزائلة . ولم يستطيعوا ان يتبينوا في هذه الشخصية اية معالم لاله الكون الحكيم القدير على كل شيء . لقد ذهبوا — اى الغنوصيون — الى القول بان عقيدة اليهود اقل أجراما — نوعا ما — من وثنية الأميين ، ولكن عقيدتهم الأساسية قامت على ان المسيح الذى يعبدونه هو أول والمع انبعاث من الاله ظهر على الأرض ليخلص بني آدم من أخطائهم المختلفة وليبتدع طريقا آخر للحق والكمال . وافر الأنباء ، في تواضع فريد — سفسطة الغنوصيين ، واذا افروا بان المعنى الحرفى كريبه تنفر منه كل مبادئ الايمان والمنطق ، فانهم حسبوا انفسهم في مأمن لا يأتهم الباطل من بين ايديهم ولا من خلفهم اذا احتموا في الثوب الفضفاض ، ثوب الاستعارة والمجاز ، الذى أشاعوه فوق كل الاجزاء الضعيفة في ناموس موسى .

وقيل في براعة اكثر منه بحق ، ان الطهر العذرى في الكنيسة لم تشبه اية شائبة من الانشقاق او الزرع قبل عصر تراخان او هادريان ، بعد موت المسيح بنحو مائة عام . ولكننا نلاحظ ، في دقة اكثر ، ان تلاميذ المسيح خلال تلك الفترة انصرفوا الى العقيدة والعبادة في حريسة اكثر مما اتيج في العصور التالية . ولما ضيق اخوية الكنيسة بطريقة غير ملحوظة ، ومازست الطائفة الغالبة سلطاتها الروحية في قسوة متزايدة ، فان كثيرا من اجل اشباعها الذين دعوا لتبذها ، استثيروا للادلاء بأرائهم الخاصة ، وتتبع نتائج مبادئهم الخاطئة ، وبعبارة صريحة ليعلموا تمردهم على وحدة الكنيسة . ولقد تميز الغنوصيون بانهم اكثر

المسيحيين أدبا وعلميا ومثالا . وأما هذه التسمية العامة — التي تعبر عن اتساع معرفتهم وسموها — فقد انتحلها لهم غرورهم ، أو خلعها عليهم حقد أعدائهم تهكما وسخرية . وكاد الفنوصيون ، دون استثناء يكونون من جنس الأميين . ويبدو أن المؤسسين الأصليين لهذه الطائفة كانوا من أهل سوريا أو مصر ، حيث دفع الفناخ الذي يهيم للعقل والجسم معا جو التقى والورع في دعة وتأمل . وغلظ الفنوصيون بالآيمان بالمسيح كثيرا من العقائد أو المذاهب الرائعة الغامضة في وقت معا ، تلك التي اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زرادشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئي . وعندما انزلقوا إلى هذه الهوة السحيقة أسلموا قيادهم لخيال مهوش ، وقد كانت مسالك الخطأ متشعبة غير محدودة ، فقد انقسم الفنوصيون ، دون أن يحسوا ، إلى أكثر من خمسين شيعا خاصة ، يبدو أن من أشهرهم البازيليديين Basiliadians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites ثم المانيكانز Manichaeans في عصر متأخر . وتفاخرت كل شيعا منها بأساقفتها وأشياعها وعلمائها وشهادتها . وأخرج الهرطقة — بدلا من الأناجيل الأربعة التي قررتها الكنيسة ، مجموعة كبيرة من التواريخ التي نلتئم فيها مناقشات المسيح وحوارييه وأعمالهم مع أفكار كل شيعا بعينها . وكان نجاح الفنوصيين سريعا واسع النطاق ، فقد ملأوا آسيا ومصر ، وثبتوا مكائهم في روما ، وتوغلوا أحيانا في ولايات الغرب . والأرجح أنهم نشأوا في القرن الثاني ، وترعرعوا في القرن الثالث ، ثم خمدوا في القرن الرابع أو الخامس بقيام جذل ومناقشات أكثر عصرية ، وبفضل السيادة العليا للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أنهم عكروا السلم دائما ، وأنهم كثيرا ما أساءوا إلى اسم الدين ، فإنهم أسهموا في تقدم المسيحية أكثر مما عوقوها . ووجد الأميون الذين تحولوا إلى المسيحية ، والذين وجهت كل اعتراضاتهم وتحزباتهم ضد شريعة موسى ، وجدوا منفذا إلى كثير من المجتمعات المسيحية ، التي لم تتطلب من عقولهم الأمية الجاهلة أي آيمان بوحى سابق . فغوى وزاد آيمانهم بشكل غير ملحوظ ، وأمدت الكنيسة في النهاية من دخول الد أعدائها إليها .

ومهما يكن من أمر الخلاف في الرأي بين الأرثوذكس والأبيونيين والفنوصيين ، فيما يتعلق بالوهية شريعة موسى أو سندها ، فقد جمعهم جميعا على قدم المساواة ، نفس المغيرة المطلقة ونفس الكراهية لعبادة الأصنام ، مما ميز اليهود عن سائر الأمم في العالم القديم ، إن الفيلسوف الذي اعتبر الشرك وتعدد الآلهة مزيجا من غش الإنسان وخطئه ،

ليستطيع أن يخفى ابتسامة السخرية تحت ستار التقوى ، دون أن يخشى أن تعرضه السخرية أو الامتثال لغضب أى قوى خفية — أو كما تصورهما هو — قوى وهمية . ولكن المسيحيين الأولين كانوا ينظرون الى الديانات الوثنية القائمة نظرة أشد مقننا ورهبة . وكان الاعتقاد السائد عند الكنيسة والهرطقة معا أن الشياطين هم منشئو الوثنية وحمايتهم وأصنامها . فان هذه الأرواح المتمردة التى حرمت من منزلة الملائكة وألقى بها فى نار جهنم ، كان لا يزال مقدرا لها أن تحوم حول الأرض لتعذيب أجسام البشر الآثمين وتضل عقولهم ، وسرعان ما اكتشف الشياطين واستقلوا فى الانسان استعداداته الطبيعى للعبادة والنسك ، نحولوا الانسان فى دهاء واحتيال عن عبادة ربه ، واغتصبوا هم مكان الاله الأعظم وامجاده . وبنجاحهم فى محاولاتهم الخبيثة ، أرضوا فى الحال غرورهم واشبعوا شهوتهم فى الانتقام ، وحصلوا على الراحة التى كانوا فى شك منها ، تلك هى أملهم فى انزلاق الجنس البشرى معهم لمشاركتهم آثهم وبؤسهم . وقيل ، أو على الأقل تصور ، أنهم تقاسموا فيما بينهم أهم شخصيات الآلهة التى عرّفها المشركون ، فانتحل فرد من الجن اسم جوبيتر وصفاته ، وآخر اسكولاببوس وثالث فينوس ، وربما انتحل رابع اسم أبولو . وأنهم بفضل مرانهم الطويل وبفضل طبيعتهم الهوائية استطاعوا فى قدر كاف من المهارة والوقار أن يمثلوا الأدوار التى عهد اليهم بها . وقبعوا فى المعابد ، ونظموا الاحتفالات والقرايين ، وابتدعوا الخرافات ، ونطقوا بالوحي ، وكثيرا ما سمح لهم بالانتيان بالمعجزات ، أما المسيحيون الذين كانوا يستطيعون على الفور — بفضل توسط الأرواح الشريرة — أن يفسروا أية ظاهرة خارقة للطبيعة ، فقد كانوا يميلون ، بل يرغبون ، فى التسليم بأشد أوهام وخيالات الأساطير الوثنية اسرافا ، ولكن ايمان المسيحي كان مشوبا بالرعب . واعتبر أقل بادرة من الاحترام للعبادة الوطنية ولاء مباشرا مقدما للشيطان ، وتمردا على جلال الله .

وتبعنا لهذا الرأى ، كان أول ، ولكن أشق ، واجب على المسيحي هو أن يحافظ على طهارة نفسه وينأى بها عن أرجاس الوثنية . ولم تكن ديانة الأمم مجرد عقيدة نظرية يعترف بها فى المدارس أو يوعظ بها فى المعابد . ولقد تداخلت وامتزجت آلهة الشرك وطقوسه العسديدة امتزاجا دقيقا بكل ظروف العمل واللهو ، ظروف الحياة العامة والخاصة ، وبدا أنه يستحيل على الانسان أن يتحاشى ملاحظة وجودهم فى كل شئ ، إلا اذا تخلى فى نفس الوقت عن مخالطة الجنس البشرى ، وعن جميع وظائف المجتمع ومسرته . وكانت أمور الحرب والسلام تبدأ

أو تختم بتقديم قرابين رهيبة ، كان لزاما على الحاكم والسناتو والجندي أن يرأسها أو يسهم فيها (١) . وكانت المشاهد العمة جزءا أساسيا في عبادة الوثنيين المرحية وكان المفروض أن الآلهة تتقبل الألعاب التي يشترك فيها الأمير والشعب تكريما لاعيادها الخاصة ، على أنها — أى الألعاب — أعظم مقدمة تفيض بالشكر والعرفان (٢) . ووجد المسيحي الذي تجنب — ورعا وفزعا — دنس السيرك أو المسرح ، وجد نفسه يقع في ورطات خبيثة في كل احتفال بهيج كلما عمد أصدقائه — في صحة بعضهم بعضا — الى صب الخمر قربانا وضراعة الى الآلهة . وعندما كانت العروس تزف في موكب الزوجية ، وسط النظار المتقن بالتمنع والخفر ، الى عتبة دارها الجديدة ، أو كان موكب الجنابة الحزين يسير الهوينى الى المحرقة (٣) ، فإن المسيحي في هذه المناسبات الهامة كان يفضل مضطرا التخلي عن أعز الناس لديه ، على أن يرتكب الاثم الكامن في هذه الاحتفالات البعيدة عن الورع والتقوى . وتلوث بدنس الوثنية كل فن أو مهنة اتصلت ولو اتصالا يسيرا — بصناعة الأصنام أو تزيينها . وهذا حكم قاس ، لأنه جلب البؤس والشقاء الدائمين على أكبر جزء من الجماعة المشتغلة بالمهن الفكرية أو الآلية . وانك اذا القيت نظرة على المخلفات القديمة ، لوجدت فضلا عن تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة لعبادتهم — الأشكال الجيلة والأقاصيص اللطيفة التي قدمها خيال الاغريق ، قد أدخلت وكأنها أثمن الزخارف لبيوت الوثنيين وملابسهم وأثاثهم . بل أن فنون الموسيقى والرسم والبلاغة والشعر نفسها نبعت من نفس هذا المورد العكر . وفي رأى الآباء كان أبولو والموزيات *Muses* (٤) لسان حال الشيطان ، وهومر وفرجيل من أبرز خدامه . وقدر للأساطير الجيلة التي تسود وتحيى.

(١) كان السناتو يعقد اجتماعاته في معبد أو في مكان مقدس ، وقبل أن يبدأ العمل ، كان كل عضو يقدم على المذبح شيئا من النبيذ ، والبخور .
(٢) انظر *Tertullian* في كتابه "المشاهد" *De Spectaculis* .
ولا يظهر هذا المصلح العنيف من التسامح مع مأساة ليوريبيديس ، أكثر مما يظهره نذر نزال المصارعين . وكان لباس اللاعبين ، بصفة خاصة ، يضيقه ، وقد حاولوا — في ضلال وكفر — بأحدثهم الطويلة أن يحيفوا ذراعا الى طولهم .
(٣) لم يصف فرجيل الجنائز القديمة (في أيام ميسينوس *Misenus* وبلاس *Pallas*) بدقة أقل مما أوضحها بها سرفيوس *Servius* (المعلق عليه) وكانت المحرقة نفسها مذبحا . وكانت النار تنفذى بدم الضحايا ، وكان المشيعون يرشون بماء معطر .

(٤) جمع موزية : وهي إحدى ربوات تسع في أساطير اليونان اختصاصت بحماية الآداب والعلوم والفنون ، (المترجم) .

نتاج عبقريتها ، أن تشيد بمعظمة الشياطين . وقد زخرت اللغة النازجة
فى اليونان وفى روما بتعبيرات ملفوفة ، ولكنها فاجرة ، مما يمكن أن
ينطق به المسيحى المتهور فى غير تبصر ، أو يستمع إليها فى صبر شديد
كذلك (١) .

ان المغريات الخطيرة التى تربصت من كل جانب بالمؤمن غير اليقظ،
كانت تهاجمه بأشد العنف المضاعف فى أيام الأعياد الزهية . وكانت
تنظم وتدبر على مدار السنة فى دهاء وحيلة ، بدرجة تخليع على الخرافة
ثوب المسرة وغالباً ثوب الفضيلة كذلك . وخصصت بعض أقديس الأعياد
فى الطقوس الرومانية للاحتفال بأول يناير فى أشد مظاهر الابتهاج العام
والخاص ، ولتعداد المآثر النقية للأجوات والأحياء ، ولتوكيد الحدود
التي لا يجوز الاعتداء عليها للممتلكات ، أو للترحيب ، عند عودة الربيع
يقوى الاخصاب والنماء ، ولتخليد ذكرى التاريخين الخالدين فى روما :
تاريخ تأسيس المدينة وتاريخ قيام الجمهورية ، ولاستعادة المساواة
البدائية الفطرية بين الناس فى أيامهم الأولى ، وذلك أثناء الاباحية
الرحيمة التى يتسم بها عيد زحل (١٧ ديسمبر من كل عام ، يوم الانقلاب
الشتوى) . ويمكن تكوين فكرة عن كراهية المسيحيين لمثل هذه
الاحتفالات البعيدة عن التقوى والورع ، من الاحساس المرهف الذى
أظهروه فى مناسبة أقل خطراً بكثير . فقد تعود القدماء فى أيام الأعياد
العامية ، أن يزينوا أبوابهم بالمصابيح وأكاليل الفار ، وأن يتوجوا
رعوسهم بأكاليل من الزهور ، وربما كان من الميسور احتمال هذا الطقس
اللطيف البريء باعتباره عملاً مدنياً ، ولكن حدث من سوء الحظ أن
الأبواب كانت تحت حراسة المعبودات المنزلية ، وأن الفار كان مقدساً
عند عشاق دافنى Daphne (فى الأساطير اليونانية حورية هربت من
أبولو) . وأن أكاليل الزهور التى كانت توضع رمزا للفرح أو للأسى
خصصت فى بداية نشأتها لخدمة المعتقدات الخرافية . وهنا نجد
المسيحيين المرتعدين الذين استدرجوا فى هذه الحالة للتمشى مع عرف
بلدهم ومع أوامر الحاكم — نجد أنهم شقوا تحت وطأة الخوف الرهيب
من تأنيب ضمائرهم ومن لوم الكنيسة ، ومن الإنذار بالانتقام الإلهي .
هذا هو الجهد المضنى القلق الذى كانت تتطلبه حماية ظاهرة
الانجيل ضد الجرائم المعدية لعبادة الأوثان . وكان أتباع الديانة القائمة
يمارسون ، بحكم التلقين أو بحكم العادة ، دون وعى ، هذه الطقوس

(١) ترتوليان فى كتابه « الأصنام » اذا استعمل صديق وثنى — لمناسبة العطس
مثلاً (عبارة « يرحمك جوبيتر » اضطر المسيحي الى الاحتجاج على ألوهية جوبيتر .

الخرافية العامة أو الخاصة ، ولكنهم — كما حدث غالباً — هياؤا الفرصة للمسيحيين ليعلموا أو يؤكدوا تصديقهم الغير لها . وبهذه الاحتجاجات المتكررة تدعم باستمرار تعلقهم بعقيدتهم . وكلما ازدادت غيرتهم ، خاضوا ، بمزيد من الحماسة والتوفيق ، الحرب المقدسة التي شنوها على امبراطورية الشياطين .

٢ — عقيدة الحياة الآخرة :

تمثل كتابات شيشرون ، بأجلى بيان ، جهل الفلاسفة القدامى وأخطاءهم وترددهم فيما يتعلق بخلود الروح . فالفهم عندما كانوا يرغبون في تحصين حواريتهم ضد الخوف من الموت كانوا يقررون ولو أن ما يقولون واضح ، ولكنه محزن ، أن هذه الضربة القاضية التي تصيبنا — أى الموت — أنها تخلصنا من نوائب الحياة ، وأن الموتى لن يقاسوا منها بعد موتهم . على أنه كان هناك نفر قليل من حكماء الاغريق والرومان ، تبينوا فكرة أسى ، ومن بعض الوجوه أصدق ، عن الطبيعة البشرية ، رغم أنه يجب الاعتراف بأنه في هذا البحث الجليل كان خيالهم يوجه منطقهم ، وأن غرورهم كان يلهب خيالهم . انهم لما نظروا في الرتياح الى مدى قواهم العقلية ، ومارسوا مختلف قوى الذاكرة والخيال ، والحكم على الاشياء ، في أعماق التأملات وفي أشق الأعمال ، وتملكتهم الرغبة في الشهرة التي سبحت بهم في آفاق المستقبل ، وراء حدود المفايا والقبور ، لم يترضوا أن يحشروا أنفسهم في زمرة حيوانات الحقل ، أو يفترضوا أن الكائن الذى أبدوا أعظم الإعجاب وأصدق بجلاله ووقاره يمكن أن يوارى في حفرة ضيقة من الأرض ، وأن يحدد وجوده بسنوات معدودات من العمر . وفي غمرة هذا التحيز السائغ أهابوا بعلم الميتافيزيقا ، أو على الأصح بلغتها ، لنجدتهم . وسرعان ما اكتشفوا ، حيث أن أيا من خواص المادة لا تنطبق على عمليات العقل — اكتشفوا أن الروح الانسانية لا بد أن تكون تبعا لذلك شيئا متميزا عن الجسم ، شيئا نقيا بسيطا روحيا ، غير قابل للتدخل أو الفناء ، حساسا لأكبر قدر من الفضيلة والسعادة بعد تخلصه من سجنه الجسدى . ومن هذه المبادئ النبيلة الخداعة خرج الفلاسفة الذين تأثروا خطى أفلاطون بنتيجة لا مبرر لها ، حيث أكدوا ، لا مجرد الأبدية الآخرة فحسب ، بل كذلك الأزلية السابقة للروح البشرية التي تقبلوا بأحسن القبول اعتبارها جزءا من الروح السرمدية الموجودة بنفسها وجودا ذاتيا ، والتي تعم الكون وتدعمه . وقد تجدى

مثل هذه النظرية التي جاوزت مجال الحواس والتجربة البشرية في شغل فراغ عقلية فلسفية ، أو أنها ، في سكون العزلة قد تضيئ شيئاً من الراحة على قلب انسان فاضل تولاه القنوط فخارت عزيمته . ولكن سرعان ما محا معترك الحياة الجادة ومشاغفها أثر البصمات الباهتة التي تركتها هذه النظرية في المدارس . وانا لنعترف حق المعرفة الاشخاص الأفاذا الذين نبغوا في عصر شيشرون والقياصرة الأوائل ، ونحن على بيئة من أعمالهم وشخصياتهم وبواعثهم ، مما يؤكد لنا أن سلوكهم في هذه الحياة لم يصدر عن أى اقتناع جازم بثواب أو عقاب في الحياة الآخرة ، ولم يخش أبرع الخطباء في ساحة المحكمة أو السناتو في روما أن يسيئوا الى سامعهم بالتعريض بهذه النظرية على أنها رأى فئج متطرف ينبذه في ازدرأء أى رجل متحرر في تعليمه وفي فهمه للأمور .

فلما لم تستطع الجهود الفائقة للفلسفة أن تخطو الى أكثر من الإشارة الباهتة الى الرغبة أو الأمل ، أو على الأقل احتمال حياة مستقبلية (ما بعد الموت) فانه لم يعد هناك الا وحى الهى يمكن أن يؤكد وجود عالم غير مرئى مخصص لاستقبال أرواح الناس بعد انفصالها عن أجسادهم ويصف الأحوال في ذاك العالم المجهول . ولكننا نلمس في الديانات المعروفة في اليونان وروما عدة نقائص كامنة فيها جعلتها عاجزة عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة :

١ — ذلك أن الأسلوب العام في أساطيرهم لم تعززه أية براهين قاطعة . بل ان أعقل الوثنيين قد أنكر بالفعل على هذه الأساطير سلطانها المقتضب .

٢ — أما وصف جهنم فقد تركوه لخيال الرسامين والشعراء الذين حشدوا فيها الكثير من الأطياف وغرائب الوحوش التي وزعت ثوابها وعقابها في شئ يسير من المساواة والانصاف ، الى حد أن هذا الخليط السخيف من أشد الأوهام والأباطيل جموحا ووحشية أزرى بالحق الصراح وضيق عليه الخناق ، على حين أنه أحب شئ الى قلب الانسان .

٣ — ونذر أن اعتبر المشركون الأتقياء في اليونان وروما نظرية « الحياة الثانية » ركنا أساسيا من أركان الايمان . فان عناية الآلهة ، بوصفها تتعلق بالجماعات العامة أكثر منها بأفراد خاصين بذواتهم ، تجلت على المسرح الظاهر للحياة الراهنة . فقد عبرت الابتهالات والتوسلات التي كانت تقدم على مذابح جوبيتر وأبولو عن تلهف

عبادها على السعادة الدنيوية ، وعن جهلهم أو عدم اكتراثهم بالحياة المستقبلية (الثانية) . أما في الهند وآشور ومصر والغال ، فقد أشربت القلوب الحقيقة الهامة المتعلقة بخلود الروح بدرجة أكبر من المثابرة والنجاح ، ولما كنا لا نستطيع أن ننسب الفارق إلى علو كعب المتبربرين في المعرفة ، فانه لابدير بنا أن نرجعها إلى نفوذ الكهنة الوطني الذي استخدم بواعث الفضيلة بمثابة وسائل لتحقيق أطماعهم .

وطبيعى أن نتوقع أن يتكشف هذا المبدأ الأساسى فى الديانة بأجلنى معانيه للشعب المختار فى فلسطين ، وأن يعهد به إلى كهنة هارون الوراثةيين . وكان حتماً مقضياً علينا أن نعبد النواميس الخفية للعناية الالهية ، على حين نكتشف أن نظرية خلود الروح ليس لها وجود فى شريعة موسى ، لقد أقحمها الرسل خلصة ، وفى الفترة الطويلة التى انقضت بين الاستبعاد فى مصر وفى بابل ، يبدو أن آمال اليهود ومخاوفهم معاً كانت محصورة فى الدائرة الضيقة للحياة الراهنة (الحياة الدنيا) وبعد أن رخص كورش (١) للأمة المنفية فى العودة إلى الأرض الموعودة ، وبعد أن استرد عزرا (٢) Ezra السجلات القديمة للديانة ، نشأت فى أورشليم ، بطريقة غير ملحوظة ، طائفتان مشهورتان : الصدوقيون Sadducees والفريسيون Pharisees . والتزم الألوان - وهم من أغنى وأبرز طبقات المجتمع - التزاماً شديداً بالمعنى الحرفى لشريعة موسى ، وأنكروا ، عن ورع وتقى ، خلود الروح ، باعتبارها فكرة ليس لها سند فى الكتاب المقدس الذى يجلونه بوصفه الركيزة الوحيدة لعقيدتهم . وأضاف الفريسيون إلى سلطان الأسفار المنزلة سلطان التقاليد والأعراف ، حيث تقبلوا باسم التقاليد والأعراف ، بعض الأفكار النظرية فى فلسفة الأمم الشرقية أو فى ديانتها ، وكانت فى عداد هذه الأركان الجديدة للعقيدة نظريات القضاء والقدر ، والملائكة والأرواح ، والحياة الثانية بما فيها من ثواب وعقاب . ولما كان الفريسيون ، نتيجة لصرامة سلوكهم ، قد جذبوا إلى صفوفهم جمهرة الشعب اليهودى ، فقد أصبح خلود الروح هو الشعور السائد فى المجتمع اليهودى تحت حكم ملوك الأزمنيين Asmonaenoena وأحبارهم . وعجز مزاج اليهود عن أن يتقبل مثل هذا التوافق الواهى الفاتر الذى ترتضيه عقلية المشركين ، فلما أقرروا فكرة الحياة المستقبلية ، اعتنقوها بالغيرة التى شكلت دائماً

(١) كورش Cyrus ، مؤسس إمبراطورية الفرس ٦٠٠ - ٥٢٩ ق م .
(المترجم) .

خاصية الأمة . ولكن غيرتهم على أية حال لم تضاف عليها شيئا من الوضوح ، أو حتى احتمال وجودها . وظلت نظرية الحياة وألخود التي فرضتها الطبيعة وأثرها المنطق ، ورحبت بها الخرافة ، في حاجة الى ضمان وسند حقيقة الهية ترجع الى المسيح والمثل الذي ضربه هو نفسه .

ولما وعد الناس بالنعيم الأبدى ، شريطة الايمان واتباع تعاليم الانجيل ، فليس من عجب في أن تتقبل أفواج كبيرة من كل دين ومن كل طبقة ومن كل ولاية في العالم الروماني ، هذا العرض الكريم . لقد الهب المسيحيين الأقدمين اجتقارهم لحياتهم الدنييا ، وثقتهم الحقبة بالخلود الذي لا يستطيع الايمان الضعيف المزعزع في العصور الحديثة أن يعطينا أية فكرة وافية عنه . وأثر الحق بشكل قوى في الكنيسة الأولى ، نتيجة رأى ، مهما كان جديرا بالاحترام لنفعه وقدمه ، وجد أنه لا يلتئم مع الخبرة والتجربة . لقد ساد الاعتقاد بأن نهاية العالم وملوك الرب وشيكتا المجيء . وتنبا الرسل بقرب وقوع هذا الحدث العجيب ، وقد احتفظ تلاميذهم الأولون بهذا النبا العظيم ، واضطر أولئك الذين فهموا احاديث المسيح بمعناها الحرفي أن يرقبوا في السحب عودة « ابن الانسان » عودة مجيدة ثانية ، قبل أن ينقرض تهما هذا الجيل الذي شهد حياته المتواضعة على الأرض ، والذي قد يظل شاهدا على ما أصاب اليهود من كوارث على عهد فسبازيان وهادريان . وقد علمتنا ثورة الفكر في القرون السبعة عشر ألا نعتد كثيرا على لفظة النبوة والوحى الخفية الغامضة ، ولكن طالما سمح — ومن أجل أغراض حكيمة — بأن يعيش هذا الخطأ في الكنيسة ، فانه أسفر عن خير الآثار على عقيدة وأعمال المسيحيين الذي عاشوا في هذا الترقب الرهيب لتلك اللحظة التي ترتعد فيها فرائص الكرة الأرضية والجنس البشرى بأجمعه لظهور قاضيهم الالهى .

وكانت النظرية القديمة المعروفة ، « نظرية العصر الألفى السعيد » ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بعودة المسيح ثانية الى الأرض . ولما كان خلق الدنيا قد تم في ستة أيام ، فان بقاءها على حالتها الراهنة قد تحدد بستة آلاف سنة ، كما جاء في تواتر منسوب الى ايليا (Elijah) (أحد أنبياء بنى اسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد) . واستدل بنفس هذا القياس على أن هذه الفترة الطويلة من الكد والصراع — والتي انقضى الآن معظمها — سوف تعقبها راحة (سبت) بهيجة مريحة مقدارها ألف سنة ، وأن المسيح ، مع زمرة القديسين الظافرين والصفوة الذين

نجوا من الموت أو الذين بعثوا الى الحياة بمعجزة ، سيحكم على الأرض حتى يحين الموعد المقرر ليوم البعث النهائي أو العام ، وكم كان هذا الأمل سارا لعقول المؤمنين الى حد أن « أورشليم الجديدة » مقر هذه المملكة المنعمة سرعان ما صورها الخيال في أبهى زينة وأبهج حلة ، ومثل هذه الجنة الهائلة التي لا تنطوي الا على اللذة الطاهرة البريئة الروحية فحسب ، قد تبدو في أعين ساكنيها أنقى مما يحتلون ، اذ المفروض فيهم أنهم لا يزالون على طبيعتهم البشرية الماكين لحواسهم الانسانية . وأن جنة عدن بها فيها من ملذات تصلح لبيئة المرامى لم تعد تصلح للمجتمع الذى هو أكثر تقدما ورقيا ، والسدى ساد الامبراطورية الرومانية . ومن ثم شيدت مدينة من ذهب وأحجار كريمة ومنح للبقعة المجاورة لها كل ما تشتهي النفس من غلال وخمر ، في وفرة خارقة ، يتمتع السعداء الأخير بنتائجها التلقائى تمتعا حرا لا يشوبه جحد ولا حسد ، ولا تحجبه قيود الملكية الخاصة الممنوعة . وعنى توكيد البشرى بهذا العصر الألفى السعيد ، وترسيخها في أذهان الناس سلسلة من الآباء ابتداء من جوستين الشهيد Justin Martyr وإيرنيوس Irenaeus اللذين تبادلوا الحديث مباشرة مع تلاميذ الرسل والحواريين ، حتى لاكتانتىوس Lactantius الذى كان معلما لابن قسطنطين . وربما أمكن القول بأنه من الجائز أن هذه الفكرة لم يتقبلها الجميع ، الا أنها كانت شهورا ملحا على صدور المؤمنين الارثوذكس . كما يبدو أنها كانت تلتئم مع رغبات الانسان وهواجسه ، الى حد أنها لا بد أن تكون قد أسهمت بنصيب وافر في تقدم العقيدة المسيحية . ولكن لما اكتمل صرح الكنيسة أو كاد ، نحى هذا السند المؤقت جانبها . فقد أخذت نظرية حكم المسيح على الأرض في البداية على أنها مجاز عميق ، ثم اعتبرت ، بدرجات متفاوتة ، رأيا عقيما مشكوكا فيه ، ثم في النهاية رفضت على أنها بدعة سخيفة من صنع الهرطقة والتعصب . ونجت بأعجوبة من حكم الكنيسة ، نبوءة خفية غامضة لا تزال تشكل جزءا من الشريعة المقدسة ، ولكن كان المظنون أنها تظاهر العاطفة المتفجرة وتلثم معها .

وبينما وعد تلاميذ المسيح بالسعادة والمجد في الحكم الديوى ، أئذ الذين لا يؤمنون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وتقدم تدعيم عقيدة أورشليم الجديدة جنباً الى جنب بنفس الخطى مع تدمير عقيدة بابل الغامضة . وطالما كان الإباطرة الذين حكموا قبل قسطنطين يصرون على الوثنية ، فان اسم بابل كان يطلق على مدينة روما وامبراطوريتها . فقد أعدت سلسلة منتظمة من المصائب المادية والمعنوية

التي يمكن ان تنزل بأمة مزدهرة : الاضطرابات الداخلية ، غارات أعنف المتبررين من الأقاليم الشمالية المجهولة ، الوباء والمجاعة ، الفيضانات والكسوف والخسوف ، الزلازل والطوفان . وكان كل أولئك مجرد علامات ونذر أولى للكارثة العظمى التي تنزل بروما ، حين تفنى بلاد آل سكيبيو والقيصرية بدخان يغشاها من السماء ، وتدفن مدينة القتل السبعة بقصورها ومعابدها وأقواس النصر بها ، في بحيرة من ناس وحمم . ومهما يكن من أمر ، فقد يكون لغرور الرومان وكبريائهم بعض العزاء في أن فترة إمبراطوريتهم هي فترة حياة العالم نفسه ، تلك الحياة التي أهلكها مرة عنصر الماء ، ثم قدر لها أن تبلى ثانية بدمار عاجل من عنصر النار . ولحسن الحظ تلاقت أمام فكرة الحريق العام عقيدة المسيحيين وعرف الشرق وفلسفة الرواقيين ومقاييس الطبيعة ، بل ان البلد الذي اختير لدوافع دينية ليكون المصدر والمشهد الرئيسي لهذا الحريق ، كان مهياً على أحسن وجه لهذا الغرض لأسباب طبيعية ومادية بمقارنته السحيقة وطبقاته الكبريتية وبسراكنه الكثيرة ، وما اتنا وغيزوف وليباري الا أمثلة بسيطة لها . وما كان في مقدور أهدأ المتشككين واشجعهم أن يرفض الاعتراف بأن تدمير النار للنظام الحالي للعالم ، كان في حد ذاته محتملا الى أبعد حدود الاحتمال . وتوقع المسيحي الذي أسس إيمانه على حجج العقل المضللة ، أقل كثيرا من اقامته على سلطان العرف وتأويل الأسفار المنزلة ، توقع هذا الدمار في رهبة وثقة باعتباره حدثا أكيدا قريبا ، ولما كان عقله ممثلا دائما بهذه الفكرة المقررة ، فانه اعتبر كل مصيبة تحل بالامبراطورية بمثابة علامة محققة من علامات الساعة أو علامات انتهاء العالم .

ان رمى أعقل الوثنيين وأفاضلهم بالجهل أو عدم التصديق بالحقيقة الالهية يبدو في العصر الحاضر اساءة وامتهانا للعقل والانسانية . ولكن الكنيسة الأولى التي كان إيمانها أثبت قواما حكمت دون تردد بالعذاب الأبدي على أكبر عدد من الجنس البشري . وقد يكون هناك أمل كريم في التسامح مع سقراط أو بعض الحكماء الأقدمين الآخرين الذين استخاروا العقل قبل ظهور الانجيل ، ولكن تأكد بالاجماع أن أولئك الذين أصروا في عناد ، منذ ولادة المسيح أو وفاته ، على عبادة الشياطين والجن ، لا يستحقون ، وليس لهم أن يتوقعوا ، العفو من الاله الذي استثير غضبه . ويبدو أن هذه المشاعر القاسية التي لم تكن معروفة في العالم القديم نفثت روحا من المرارة في نظام كان يسوده الحب والانسجام . وكثيرا ما مزق الخلاف في العقيدة الدينية روابط الدم

والإخاء والصدقة ، ورأى المسيحيون أنهم يزرعون في هذه الدنيا تجت نير الوثنيين ، فأضلهم أحياناً جنقتهم وكبرياؤهم الروحي وأغوتهم نشوة الفرح بالانتصار في المستقبل . ويقول ترتوليان (١) المتشدد Tertullian متعجبا : « انك مولع بالمشاهد ، فتوقع أعظم المشاهد في المجاننة الأزلية الأخيرة ، كم أعجب ، كم أضحك ، كم أبتهج ، كم أطرب وأتهلل ، حين أرى الكثير من الملوك المتكبرين والآلهة الوهمية يثنون في أعماق مهاوى الظلام ، والكثير من الحكام الذين اضطهدوا اسم الله يذوبون في نار أشد سعيرا مما أشعلوا ضد المسيحيين ، والكثير من الفلاسفة الحكماء يصلون مع تلاميذهم المخدوعين نارا حامية ، وكثيرا من الشعراء المشهورين يرتعدون فرقا أمام محكمة المسيح — لا محكمة مينوس (٢) Minos ، والكثير من الممثلين التراجيدين أكثر انسجاما في النغم تعبيراً عما يعانون ، والكثير من الراقصين والراقصات . . » ولكن انسانية القارئ قد تستمع لي العذر في اسدال الستار على بقية هذا الوصف الجهنمي الذي يسترسل فيه هذا الأفريقي في مجموعة طويلة من الفكاهات المصطنعة المجردة من الشعور .

ولا ريب في أنه كان من بين المسيحيين الأولين كثيرون ذوو طبع أكثر الثنايا وتوافقا مع وداعة عقيدتهم وما تدعو اليه من البر المحبة ، فكان هناك كثيرون ممن استشعروا الرحمة الخالصة لمصائب أصدقائهم وبنى وطنهم ، وأحسوا بالفيرة الخيرة لانقاذهم من الدمار المحدث بهم . أما المشرك الغافل الذي كانت تطارده الأهوال الجديدة غير المتوقعة التي لم يزوده كهنته أو فلاسفته بأى عاصم منها ، فكثيرا ما أرهبه وأخضعه التهديد بالعذاب الأبدى . وربما ساعدت مخاوفه على النهوض بعقيدته وعقله ، وإذا حمل نفسه يوما على الظن بأن الدين المسيحي قد يكون صحيحا صادقا ، ربما بات من السهل اقناعه بأنه أسلم وأحكم عقيدة يمكن أن ينضم اليها .

٣ — قوى المعجزات في الكنيسة الأولى :

ان المواهب الخارقة التي نسبت ، حتى في هذه الحياة ، الى المسيحيين ، دون سائر الجنس البشرى ، لا بد وانها أدت الى راحتهم

-
- (١) من أعظم آباء الكنيسة اللاتينية ١٦٠ - ٢٥٥ م . قضى معظم حياته في قرطاجة (ولاية أفريقية الرومانية) وله كتابات كثيرة باللاتينية واليونانية .
(٢) تقول الأساطير اليونانية انه ملك كريت ، وابن زيوس . وأصبح بعد موته أحد القضاة الثلاثة في العالم السفلى — (المترجم) .

هم أنفسهم ، وفي الغالب الى اقتضاع الزنادقة ، وفضلا عن المعجزات الطارئة ، التي كانت تحدث نتيجة التدخل المباشر للاله ، حين كان يعطل قهرانيين الطبيعة خدمة للمسيحيين ، ادعت الكنيسة المسيحية ، بنف عهد الحواريين وتلاميذهم الأولين ، سفسلة لم تنقطع من قوى المعجزات ، مثل الالهام باللغات والرؤى ، والنبؤ ، والقدرة على طرد الشياطين ، وشفاء المرضى واحياء الموتى ، وكثيرا ما وصلت المعرفة باللغات الأجنبية الى معاصري ايرينوس ، رغم انه هو نفسه ترك ليعانى مصاعب لهجة بربرية وهو يبشر بالانجيل أهالى الضال ، ويقال ان الوحي الالهى سواء جاء على شكل رؤيا فى اليقظة أو فى المنام ، انما هو معة ينعم بها فى سقاء على مختلف طبقات المؤمنين : على النساء والصبيوخ وعلى الأولاد وعلى الأساقفة ، سواء بسواء ، فاذا تهيأت عقولهم الى حد كاف ، عن طريق منهج من الصلوات والصوم وقيام الليل سالتقى هذا المحرك الخارق ، غابوا عن حواسهم ونقلوا فى نشوة كل ما أوحى اليهم ، بوصفهم جوارح من الروح القدس ، مثلهم فى ذلك مثل الزمار أو الناي ، فهو جزء لا يتجزأ عن ينفع فيه . ويمكن أن نضيف أن القصد من هذه الرؤى كان فى الكثير الغالب ، اما كشف الستار عن غيب التاريخ المستقبل للكنيسة ، أو توجيه ادارتها الحالية . اما طرد الشياطين من أجسام أولئك النعساء الذين كان مسموحا للشياطين بتعذيبهم ، فقد اعتبر علامة على الدين ، ولو أنه انتصار عاوى له ، وكمن من مرة عسره المدافعون القدامى عن الدين بأنه أعظم دليل مقنع على صدق المسيحية ! وكانت العملية البشعة تتم فى حفل عام ، وبحضرة عسدد كبير من النظارة وكانت سلطة طارد الأرواح الشريرة أو مهارته تخلص المريض من الشيطان ، وكان الشيطان يعترف بصوت مسموع انه كان أحد الآلهة الكاذبة القديمة ، التي هرضت غصبا وكفرا على البشر عبادتها . بيد أن شفاء الأمراض المستعصية أو الشاذة الى أبعد حد ، لم يعد يدعو الى العجب أو الدهشة ، اذا تذكرنا انه فى أيام ايرينوس ، حوالى أواخر القرن الثانى الميلادى ، كان احياء الموتى أبعد ما يكون عن اعتباره حدثا غير عاوى ، وأن هذه المعجزة كثيرا ما ثبتت فى المناسبات الضرورية ، بالصوم الكبير واشتراك الكنيسة المحلية فى التضرعات ، وأن الأشخاص الذين استعادهم هؤلاء الضارعون عاشوا بعد ذلك بين ظهرائهم سنوات طوالا . وفى مثل هذه الحقبة التى استطاع الايمان فيها أن يفاخر بانتصاراته العجيبة على الموت ، يبدو من العسير أن نعل تشكك أولئك الفلاسفة الذين ظلوا ينكرون ويسخرون من نظرية البعث . وقد ركز أحد نبلاء اليونان كل جدله فى هذه النقطة الحساسة

الخطيرة ، ووعد توفيلوس أسقف أنطاكية باعتناق المسيحية فوراً ، لذا سمح له برؤية فرد واحد بعث حياً بالفعل . وقد يكون جديراً بالذكر ، الى حد ما ، أن مطران الكنيسة الشرقية الأولى ، رغم قلته على تحويل صديقه الى المسيحية ، رأى من الحكمة أن يزوغ من هذا التحدى الهائل المعقول .

وبعد أن اكتسبت معجزات الكنيسة الأولى على مر العصور سبداً ومنعة ، هوجمت مؤخراً ، في استقصاء حر بارع يبدو أنه أثار — رغم أن الناس قابلوه بترحاب بالغ — فضيحة عامة بين رجال كنسيتنا وبسائر الكنائس البروتستانتية في أوروبا . وسوف يتأثر نظيراتها الى هذا الموضوع بأية حجج أو مناقشات معينة ، أقل بكثير منها بإعادتنا في البحث والدرس والتأمل ، وفوق كل شيء بقيمة الدليل الذي تعودنا على أن نطلبه لاثبات حادثة معجزة . ولا يقتضى واجب المؤرخ منه أن يقدم رأيه الخاص في هذه المباشرة الحساسة الهامة ، ولكن ينبغي عليه ألا يفض الطرف عن الصعوبة التي تعترض تبني نظرية توافق بين مصلحة الدين ومصلحة العقل ، وأجراء تطبيق سليم لتلك النظرية ، وتعيين حدود هذه الحقبة السعيدة بدقة ، تلك الحقبة التي خلت من الخطأ ومن الغش ، والتي قد نميل الى أن نخلع عليها هبة القوى الخارقة للطبيعة . فقد تعاقبت بلا انقطاع — منذ أول الآباء الى آخر البابوات — سلسلة من الأساقفة والقديسين والشهداء والمعجزات ، وكان تقدم الخرافية متدرجاً ، ويكاد يكون غير ملحوظ ، الى حد أننا لا نعرف في أية نقطة معينة يمكن أن نحطم أغلال العرف . وأن كل عصر ليحمل شأهنا على الأحداث العجيبة التي يتجهز بها ، ولا يبدو هذا الشاهد أقل وزناً وتقديراً من شاهد الجيل السابق ، حتى أدى بنا الأمر ، دون أن نشعر أو نحس الى اتهام أنفسنا بالخفة والتقلب ، اذا كنا في القرن الثامن أو القرن الثاني عشر فنذكر على الأب المحترم «بيد» Bede ، أو القديس «برنار» Bernard تلك الدرجة من الثقة التي أوليناها ، في سخاء ، في القرن الثامن ، لجوسيتين أو إرييوس (١) . وإذا قدرت صحة كل من المعجزات على أساس هاندتها ولياقتها الظاهرتين ، فقد كان في كل عصر منكرون لاقتناعهم وهراطة لتفنيد آرائهم ، وأهم وثنية إلهاديتها ، كما كانت هناك بواعث يمكن ابتداعها لتبرير تدخل السماء ، على أنه اذا

(١) قد يبدو جديراً بالذكر أن برنار (من بلدة كليرفو Clairvaux) الذي سجل كثيراً من معجزات صديقه القديس مالاتشي ، لا يذكر شيئاً عن معجزاته هو نفسه ، على أنها بدورها قد رواها في عناية تامة رفاقه وتلاميذه . وهل يوجد في سلسلة التاريخ الكنسي الطويل مثال واحد لقديس يثبت لنفسه موهبة الاتيان بالمعجزات ؟

كان كل صديق للوحى موقنا بصحة قوى المعجزات وكل رجل عاقل مقتنعا بتوقفها ، فواضح أنه لا بد كانت هناك فترة من الفترات انسحبوا . اما فجأة أو تدريجا من الكنيسة المسيحية . وايضا فترة اختبرت لهذا المفرض : موت الحواريين ، أو تحول الامبراطورية الرومانية (الى المسيحية) ، أو خمود الهرطقة الأريوسية (١) . فان بلادة شسمور المسيحيين الذين عاشوا في تلك الايام مثار للدهشة الحقبة بنفس القدر . فانهم ظلوا يعززون مزاعمهم بعد فقدان قوتهم ، فقد أدت سرعة التصديق أو سلامة النية مهمة الايمان ، ورخص للتصصب في انتحال لغة الوحى ، ونسبت نتائج المفاجآت أو الحيل الى أسباب خارقة للطبيعة . وكان لابد لتجربة المعجزات الحقيقية الأصلية الحديثة أن تكون قد علمت العالم المسيحي طرق العناية الالهية ، وراحت عيونهم . (اذا جاز لنا أن نستعمل تعبيرا ناقصا كثيرا) على أسلوب الفنان « الالهى » . واذا اجترأ اليوم أبرع فنان فى ايطاليا الحديثة على أن يمهز رسومه المقلدة الضعيفة باسم رافائيل أو اسسم كورجيو Correggio ، فما أسرع ما يكتشف هذا الاحتيال الوقح ، ويرفض فى ازدراء ! .

ومهما يكن من رأى فى معجزات الكنيسة الأولى فى صدر المسيحية على عهد الحواريين ، فان هذه النعومة المستسلمة البارزة بروزا عظيما فى طبع المؤمنين فى القرنين الثانى والثالث أثبتت أنها ذات فائدة طارئة لقضية الحق والدين . فثمة شك دفين ، بل قهرى لا ارادى ، يلزم فى العصور الحديثة أكثر الناس نزوعا الى التقى والورع . فان اقرارهم بالحقائق الخارقة للطبيعة إنما هو رضا جاد أقل كثيرا منه ادعانا قاترا وسليبا . واذ درجنا منذ زمن طويل على أن نلاحظ ونحترم النظام الثابت « للطبيعة » فان عقلنا ، أو على الأقل تصورنا ليس مهيا بدرجة كافية لاحتمال العمل المرئى « للاله » . ولكن موقف الجنس البشرى فى العصور الأولى للمسيحية كان مختلفا كل الاختلاف . فسان أكثر الناس فضولا أو أسرعهم تصديقا بين الوثنيين غالبا ما كانوا يحملون على الدخول فى مجتمع أكد وأقر الدعوى الفعلية لقوى المعجزات . لقد وطئت أقدام المسيحيين الأولين دوما أرض الأسرار والغموض ، وألفت عقولهم تصديق أكثر الحوادث شذوذا وغرابة . وشسمروا أو تصوروا أن الشياطين كانت دون انقطاع تلاحقهم من كل جانب كما

(١) غالبا ما يحدد البروتستانت ، عادة ، هذه الفترة بتحول قسطنطين الى المسيحية . ولا يرتضى أكثر رجال الدين تعقلا اقرار معجزات القرن الرابع ، على حين لا يرتضى أكثرهم سذاجة أن ينكروا معجزات القرن الخامس .

كانت الاشباح تدخل السكينة على قلوبهم ، والنبوءات تهديهم ، وابتهالات الكنيسة تنقذهم من الخطر وتبرئهم من العلة بل وتخلصهم من برائن الموت نفسه بشكل يدعو الى العجب . ان المعجزات او الكرامات الحقيقية او الوهمية التي كثيرا ما رأوا أنهم كانوا هم أنفسهم اهدافا أو أدوات لها ، أو شهودا عليها ، جنحت بهم ، في سعادة غامرة الى أن يتبنوا ، بنفس القدر من السهولة واليسر ، ولكن بقدر أوفر كثيرا من الانصاف والحق ، العجائب الموثوقة الاصلية في تاريخ الانجيل ، ومن ثم فن المعجزات التي لم تتعد نطاق تجربتهم وممارستهم ، أوحى اليهم بأن يؤكدوا ويؤمنوا الى أبعد حد بالأسرار التي اعترف بأنها تجاوز حدود ادراكهم . ان هذا الأثر العميق للحقائق الخارقة للطبيعة هو الذي عرفوه وعظموه تحت اسم الايمان . وهو حالة من حالات العقل وصفت بأنها أكبر ضمان لرضوان الله وللسعادة في الآخرة ، وأوصوا بها على أنها أول ميزة ، أو قل انها الميزة الوحيدة ، التي يتحلى بها المسيحي . ومن رأى العلماء الذين هم أكثر تشدداً ان الفضائل الأخلاقية التي قد يتحلى بها الكافرون — على هذا النسق سواء بسواء — مجرد من أية قيمة أو فاعلية ، فيما تأخذ به من تبريرات .

٤ — الاخلاقيات الصارمة عند المسيحيين الأوائل :

ولكن المسيحي في صدر المسيحية عبر عن ايمانه وأبرزه في فضائله . وكان المظنون حقا وصدقا أن اليقين الالهي الذي أثار العقول أو أخضعها ، لا بد ، في نفس الوقت ، أن يطهر القلوب ويوجه أعمال المؤمن . ان المدافعين الأول عن المسيحية ، الذين يبررون طهر اخوانهم وبراعتهم ، والكتاب الذين جاءوا في عصر لاحق يمجدون طهارة اسلافهم وقداساتهم ، يعرضون في أجلى بيان ما طرأ على العالم من تهذيب واصلاح في السلوك والآداب بفعل تعاليم الانجيل . ولما كنت أقصد أن أشير الى الأسباب الانسانية التي ساعدت على تدعيم آثار الوحي ، نأني سأعرض في بساطة لعاملين كان طبيعيا أن يجعل حياة المسيحيين الأولين أكثر نقاوة وأشد صرامة من حياة معاصريهم من الوثنيين أو حياة خلفائهم المنحطين : هما الندم على ما اقترفوا من آثام سابقة ، والرغبة المحمودة في الاعلاء من شأن المجتمع الذي ارتبطوا به .

وقديما وجه الكفار ، جهلا أو خبثا ، الى المسيحيين اللوم بأنهم اغروا بالدخول الى حظيرتهم أخطر المجرمين الذين حملوا في سهولة

ويسر ، بمجرد أن استشعروا ثنيئاً من التائب ، على أن يغسلوا في ماء التعميد كل آثامهم الماضية ، التي رفضت مغابد الآلهة أن تمنحهم أى تكفير عنها ، ولكن هذا اللوم ، إذا جرد من التمويه والتحريف أنما بسهم في تمجيد الكنيسة كما أسهم في زيادة عدد شعبيها . قد يعترف أصدقاء الكنيسة دون مواربة أو خجل ، بأن كثيراً من أبرز القديسين ، كانوا قبل التعميد أكبر المجرمين المنبوذين . ان الذين اتبعوا ، في هذه الدنيا ، ولو بشكل منقوص ، تعاليم الخير واللياقة ، استنبطوا من فكرة استقامتهم هم أنفسهم شعوراً بالارتياح الهادئ الذى جعلهم أقل تعرضاً للانفعالات المفاجئة بالعار أو الحزن أو الفزع ، تلك الانفعالات التى كانت سبباً لكثير من الانحرافات الفجائية . واقتداء بسيدهم الربانى ، لم يحتقر المبشرون بالانجيل المجتمع ورجاله ، وخاصة نساءه ، ممن أقض مضاجعهم وعيهم لردائلهم ، وفي الكثير الغالب أزجعتهم آثارها . فلما برئوا من الخطيئة والخرافة وانطلقوا الى الأمل المشرق في الخلود عقدوا النية على أن يهبوا أنفسهم . للاحياة الفضيلة وحدها ، بل لحياة التوبة والندم . وتملك نفوسهم الرغبة في الكمال ، ومن المعروف جيداً انه على حين يتخذ العقل موقفاً وسطاً فاتراً ، فان أهواءنا تسرع بنا في تهور شديد الى المجال الذى يقع بين أشد المتناقضات .

ولما أدخل المتحولون في عداد المؤمنين ورخص لهم في الأسرار المقدسة في الكنيسة ، وجدوا أنهم قد امتنع عليهم الافلات الى مفاسدهم الماضية نتيجة لاعتبار آخر ذى طبيعة بريئة جدية بالاحترام الى حد كبير ، ولو أنه أقل تعلقاً بالناحية الروحية . ذلك أن أى مجتمع معين يخرج على جمهرة الأمة أو الدين الذى يتبعه ، سرمان ما يصبح هدفاً للنظرات الحاسدة الحاقدة من الجميع ، وبالنسبة لصفه عدده ، يتأثر خلق هذا المجتمع بفضائل الأفراد الذين يتكون منهم وبرذائلهم ، ويكون كل فرد فيه مشغولاً — مع أكبر درجة من العناية واليقظة — بمراقبة سلوكه الخاص وسلوك أخوانه ، فانه ، بقدر ما يجب أن نتوقع أن يكابد جزءاً من العار المشترك ، قد يأمل في أن يتمتع بنصيب من السمعة الطيبة المشتركة . فلما أحضر مسيحيو بثنيا Bithynie أمام محكمة بلىنى الصغير ، أكدوا لهذا البروقنصل أنهم — بصرف النظر عن بعدهم عن الاشتراك في أية مؤامرة غير مشروعة ، مرتبطون بالتزام مقدس ، بالامتناع عن ارتكاب جرائم تذكر السلام الخاص أو العام في المجتمع مثل السرقة ، النهب ، الزنا ، قول الزور ، والغش والتدليس . وحق لترتوليان ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ، أن يفاخر في صدق وأمانة أن نفراً قليلاً جداً من المسيحيين وقعوا تحت

يد الجلاذ ، اللهم الا بسبب ديانتهم . ان حياتهم المحفوفة بالخطر المنعزلة ، المتنافرة مع ترف العصر ، عودتهم على العفة وضبط النفس والاقتصاد ، وسائر الفضائل الوقورة العائلية . ولما كان الجزء الأكبر منهم من ذوى الحرف أو المهن ، فقد كان لزاما عليهم أن يزيلوا — بأقصى ما يمكن من النزاهة ، وبأعدل ما يمكن من التعامل — كل الشكوك التى قد تساور الكفار — وما أشد استعدادهم لها — فى مظاهر الطهر والقداسة . كما أن احتقارهم للدنيا عودهم على التواضع والحلم والصبر . وكلما أمعن فى اضطهادهم زادت وشائج الارتباط وثوقا بينهم : ولحظ الكفار ما بينهم من تواصل وتراحم ، وكثيرا ما استغله أسوا استغلال أصدقائهم الغدارون المخاطلون .

وانه لشرف كبير لأخلاق المسيحيين الأوائل أن تكون صفواته ، بل ذنوبهم ، نابعة من الإفراط فى الفضيلة . ان أساقفة الكنيسة ومبشرين الذين دلت شهادتهم ، بل وربما أثر سلطانهم ، على وظائف ومبادئ أقرب الى التعبد منها الى الدراسة الفاحصة الماهرة ، وكثيرا ما تلقوا تعاليم المسيح والحواريين الصارمة بمعناها الحرفى ، أكثر ما تكون الحرفية ، هى التعاليم التى اقتضت فطنة المحدثين أن يتبعوا فى تفسيرها أسلوبا أكثر تفككا وأبعد مجازا . وطمعا فى تمجيد سمو الانجيل على حكمة الفلسفة أخذ الآباء الفيورون أنفسهم بالتحقيق وجمع الشبهات والطهارة والصبر الى ذروة يندر إمكان بلوغها ، والأندر منه ، المحافظة عليها فى مثل حالتنا الراهنة من الضعف والفساد . ان عقيدة خارقة سامية لا بد حتما أن تجلب احترام الناس ، ولكن قدر خطأ أن تحظى بموافقة هؤلاء الفلاسفة الدنيويين الذين لا يستشفون فى توجيه هذه الحياة الانتقالية (الحياة الدنيا) الا مشاعر الطبيعة ومصالح المجتمع .

وهناك نزعتان طبيعيتان كثيرا ، يمكن أن نميزهما من بين أفضل الميول وأكثرها تحررا : حب اللذة وحب العمل . ولكن اذا هذبت النزعة الأولى بالفن والتعليم ورقيت بفئات الاتصالات الاجتماعية ، ورقيت ببراعة الاقتصاد والصحة مراعاة صادقة ، فانها تحقق أكبر قسط من السعادة فى الحياة الخاصة . أما حب العمل فانه مبدأ ذو طبيعة أقوى بكثير ، وكذلك أكثر ابهاما وشككا ، فانه يؤدي فى الغالب الى الغضب والطبع والانتقام ، ولكنه اذا هداه احساس باللياقة والخير — يصبح مصدرا لكل فضيلة ، واذا اقترنت تلك الفضائل بقدرات متكافئة ، كانت اية أسرة ، او دولة ، او امبراطورية مدنية بأمنها ورخائها

لشجاعة فرد واحد غير هيب ولا وجل . ويمكن ، على هذا ، أن ننسب الى حب اللذة اليق الصفات وأكثرها استحسانا ، وننسب الى حب العمل أكثرهم نفعا واحتراما . وان الشخصية التي يمكن أن يجتمع ويلتئم فيها الواحد مع الآخر (حب اللذة وحب العمل) لتبدو أنها تشكل اكمل فكرة عن الطبيعة الانسانية . أما الفطرة الخامدة الفاقدة الوعى ، والتي يجب أن يفترض أنها مجردة منهما ، على حد سواء ، فيجب أن يأبأها الجنس البشرى بأسره ، بوصفها عاجزة تمام العجز عن تحقيق أية سعادة للفرد ، أو أى نفع عام للعالم . ولكن لم تكن هذه هى الدنيا التي كان المسيحيون الأولون يرغبون في أن يجعلوا من أنفسهم أناسا مقبولين فيها أو نافعين لها .

ان طلب المعرفة ، وتدريب العقل أو الخيال ، والتبادل الشهى للحديث أمور تشغل وقت فراغ الذهن المتحرر ، ولكن صرامة الآباء كانت تأبى هذه السرقات مقتا وازدراء ، أو تسلم بها في حذر بالغ ، لأنهم احتقروا كل معرفة غير مجدية في الخلاص ، واعتبروا الرعوننة في الحديث استغلالا آثما لموهبة الكلام . فالجسم في حياتنا هذه مرتبط بالنفس ارتباطا غير منفصم ، الى حد يبدو معه أنه من مصلحتنا أن نتذوق ، في براءة واعتدال ، كل هذه المتع التي يتأثر بها هذا الرفيق المؤمن في سرعة شديدة . لقد كان منطق أسلافنا الاتقياء مختلفا كل الاختلاف ، فانهم كانوا يتوقنون عبثا الى الاقتداء بكمال الملائكة ، فاحتقروا أو تظاهروا باحتقار ، كل بهجة دنيوية أو جسمية ، ان بعض حواسنا ضرورى في الواقع لحفظ النوع ، وبعضها لمعاشنا ، وبعضها الآخر للاعلام والمعرفة ، ومن ثم كان من أبعد المستحيلات أن نمتنع عن استخدامها . وكانت أول بادرة للذة بمثابة الايذان بأساءة استغلالها (الحواس) . اما المرء البليد الحس المرشح للجنة فقد لحن ألا يشاوم كبرى مغريات الذوق والشم فحسب ، بل كذلك أن يصم أذنيه عن النغم المنسجم الدنس ، وأن ينظر في غير اكثرات الى أروع ما أنتجه فن الانسان ، فالملابس الزاهية والدور الفخمة والأثاث الفاخر افترض فيها كلها أنها تشكل جريمة مزدوجة ، وهى الزهو وحب الشهوات . ان مظهر البساطة والتقشف هو اليق شئ بالمسيحي الواثق من خطايا المرتاب في خلاصه ، وكان لوم الآباء على الترف عارضا طفيفا . ومن بين الأشياء العديدة التي تثير استنكارهم الورع يمكن أن نعدد الشعير المستعار ، أى رداء ذى لون غير الأبيض ، الآلات الموسيقية ، والزهرات من الذهب أو الفضة ، الوسائد الوثيرة (لأن يعقوب أسند رأسه الى حجر) الخبز الأبيض ، الأنبذة الأجنبية ، التحيات العامة ، استعمال

الحمام الساخن ، وحلق اللحية الذى هو ، على حد قول ترتوليان بمثابة كذب على وجوهنا ومحاولة فاسقة لتعديل صنع « الخالق » . وعند دخول المسيحية بين الأغنياء والمهذبين أهمل اتباع هذه القواعد أو السنن الشاذة كما لو كانت ، كما هى الحال فى الوقت الحاضر ، للقلة الطامعة فى طهارة أسمى . وانه لمن السهل دائما ، كما أنه من اللائق ، أن تدعى الطبقات الدنيا من الجنس البشرى لنفسها امتيازاً بازدرائها هذه الأبهة وهذه اللذة اللتين وضعهما الحظ فوق متناول أيديهم . ان فضيلة المسيحيين الأولين ، مثل فضيلة الرومان الأوائل ، كثيرا ما كانت مصنوعة أو محكومة بالفقر والجهل .

ونبعت صرامة الآباء العنيفة فى كل ما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين ، من نفس المبدأ أو القاعدة — أى مقتهم لكل متعة ترضى الطبيعة الشهوانية وتحط من شأن الجانب الروحى فى الإنسان . وكانوا يؤثرون القول بأنه لو أن آدم استمر على طاعة الخالق لعاش الى الأبد فى طهر عذرى ، ولوجدت طريقة وديعة للتكاثر فى الجنة بجنس من الكائنات البرية الخالدة . أما الزواج فقد رخص فيه لذريته المنحطة فقط كوسيلة ضرورية لاستمرار النوع الإنسانى وليكون بمثابة قيد ، وان يكن ناقصا ، للجهوح الطبيعى فى الشهوة . وان تردد المقتين الشرعيين الأرثوذكس فى هذا الموضوع الهام ليفضح ارتباك الرجال الذين لا يريدون اقرار نظام أرغموا هم على احتماله . وان تعداد القوانين الغريبة الاطوار جدا ، والنسب فرضوها على مخدع الزوجية بطريقة أكثر ما تكون عرضية طارئة ، لما يدعوا الشباب الى الابتسام ، وتتورد له وجنات الجنس اللطيف حياء وخجلا . وقد أجمعوا على أن الزواج الأول كاف للوفاء باغراض الطبيعة والمجتمع . أما الاتصال الشهوانى فقد بلغوا فى تنقيته وتهذيبه الى حد الشبه بالاتحاد الخفى الغامض بين المسيح وكنيسة ، وأعلنوا أنه لا ينفصم بالطلاق أو بالموت . أما الزيجات التالية فقد دمجوها بأنها زنى قانونى ، أما الأشخاص الذين يقتربون هذه الخطيئة النكراء ضد الطهارة المسيحية فانهم سرعان ما كانوا يحرمون من أمجاد الكنيسة بل يطردون من بين احضانها . وطالما وصمت الرغبة بأنها جريمة ، واحتمل الزواج على أنه نقیصة أو علة ، فانه لما يتمشى مع نفس المبدأ أن تعتبر حالة العزوبة أقرب منطلق الى الكمال الالهى . وكان عسيرا على روما القديمة أن تتقبل نظام الراهبات

العدارى الست (١) ، ولكن الكنيسة الأولى كانت تزخر بعدد كبير من الجنسين ممن نذروا أنفسهم للعبة الدائمة . وقليل من هؤلاء — يمكن أن نعد من بينهم أوريجن Origen ، راوا أن من أكبر الفطنة أن ينزعوا من الجسم سلاحه (٢) وكان بعضهم جامدا بليد الاحساس ، كما صمد بعضهم أمام مغريات الجسد . واحتقاراً لهذا الهروب الشائن ، جابهت عدارى الجو الحار في أفريقيا عدوهن في عقر داره وفي أوثق التحام ، فسمحن للقساوسة والشمامسة بمشاركتهن الفراش ، وتباهين في وسط اللهب بالطهارة التي لم تلوث . ولكن « الطبيعة » المهانة اثبتت في بعض الأحيان حقوقها ، ولم يجد هذا اللون الجديد من الاستشهاد الا في انه الصنق فضيحة جديدة بالكنيسة (٣) ، ومهما يكن من أمره فان كثيرا من الرهبان المسيحيين (وهو اسم اكتسبوه من عملياتهم المؤلمة) ربما كانوا أكثر توفيقاً لأنهم كانوا أقل جرأة . فقد أمدوا فقدان اللذة الشهوانية بل وعوضوا عنه بالاعتزاز الروحي . وحتى جمهور الوثنيين كانوا يقدرون قيمة التضحية بمقدار المشقة الظاهرة فيها ، وقد أفرغ الآباء بلاغتهم المجهدة في امتداح أقران المسيح المعفين هؤلاء . تلك هى آثار قواعد الرهبة ونظمها ، تلك التى توازنت ، فى عصر تال ، مع كل المزايا الدنيوية للمسيحية .

ولم يكن المسيحيون أقل عداء للعمل منهم للذة فى هذه الدنيا .
انهم لم يعرفوا كيف يوائمون بين الدفاع عن الأشخاص والممتلكات وبين نظرية الصبر التى أوصت بالصفح بلا حدود عن الايذاعات الماضية وأمرتهم بطلب اساءات جديدة . وقد امتهنت بسلطانهم باستخدامهم الحلف والقسم ، وبأبهة الولاية ، وبالصراع القائم فى الحياة العامة ، كما أن جهلهم الموسوم بالرفق والشفقة لم يستطع أن يقنعهم بأنه من الأمور المشروعة ، فى أية مناسبة ، سفك دماء الناس بسيف العدالة

(١) ورغم الأمجاد والثواب الذى كان يجزل لهؤلاء العدارى ، كان من العسير الحصول على عدد اكبر منهم ، كما أن الخشية من موت رهيب أشد ما تكون الرهبة ، لم تحل دائما بينهن وبين الدعارة .

(٢) قبل أن تثير شهرة أوريجن الحقد عليه واضطهاده ، كان هذا الفصل الشاسذ يدعو الى الاعجاب أكثر منه الى اللوم ، ولما كان من عادته بصفة عامة أن يؤول الاسفار المنزلة ، فانه يبدو من سوء الحظ أنه كان لزاما عليه ، فى هذه الحالة فقط ، أن يقتبس المعنى الحرفى .

(٣) وصم بشيء من مثل هذه المحاولة الطائشة ، بعد ذلك بزمان طويل ، مؤسس طائفة فونتفرول Fontevrault وقد اتحف بيلي نفسه وقراءه بالكتابة فى هذا الموضوع .
الحساس .

أو في الحرب ، مهما كانت محاولتهم الاجرامية أو العدائية تهدد سلام وأمن الجماعة بأسرها . وكان من المعروف أنه ، في ظل قانون اقل كمالات ، تمت ممارسة سلطات الدستور اليهودية بموافقة السماء على أيدي أنبياء ملهمين وملوك مرسومين . وأحس المسيحيون واعترفوا بأن مثل هذا النظام ربما كان ضروريا للوضع الحاضر في العالم ، وخضعوا بكل سرور لسلطان حكامهم الوثنيين . ولكنهم في الوقت الذي استوعبوا فيه مبادئ الطاعة السلطوية ابوا أن يقوموا بأي دور فعال في الإدارة المدنية ، أو في الدفاع العسكري عن الامبراطورية . وقد نتفأضى ، نوعا ما ، عن الأشخاص الذين كانوا ينهضون بالفعل قبل نحولهم الى المسيحية بهذه المهام الثقيلة الدموية ، ولكنه كان يستحيل على المسيحيين — الا اذا نبذوا واجبا اكثر قداسة ، أن يتخذوا شخصية الجنود ، أو الحكام أو الأمراء (١) . ولقد عرضهم اغفالهم المتراخي ، بل الآثم ، للمصلحة العامة ، لاحتقار ولوم الوثنيين الذين كانوا يتساءلون كثيرا : ماذا عسى أن يكون مصير الامبراطورية اذا هاجمها المتبرهرون من كل جانب ، اذا تبنى الناس جميعا ما تتبناه الطائفة الجديدة من مشاعر الجبن والخور ؟ وكانت اجابات المدافعين المسيحيين عن هذا السؤال المهين غامضة مبهمه ، لأنهم لم يزدوا على أن يفصحوا عن السبب الخفي لهذه الطمأنينة ، ذلك هو توقعهم أنه ، قبل أن يتم تحول الجنس البشري (الى المسيحية) لن يكون للحرب ، والحكومة ، والامبراطورية الرومانية ، والعالم نفسه ، أي وجود . وقد يلحظ في هذه الحالة كذلك ، أن موقف المسيحيين الأوائل تلاقى تماما لحسن الحظ مع شكوكهم الدينية ، وأن عزوفهم عن الحياة الجادة النشيطة ساعد على اعفائهم من الخدمة أكثر منه على حرمانهم من أمجاد الحكم والجيش .

٥ — نهو حكومة الكنيسة :

ولكن الخلق الانساني ، مهما خلق أو انحط نتيجة لحماس وقتي طارئ ، لابد أن يعود شيئا فشيئا الى مستواه الصحيح الطبيعي ، ويسترد هذه الأحاسيس التي تبدو أنها أصلاح شيء لظروفه الراهنة . ان المسيحيين الأوائل لم يعنوا بمشاغل الدنيا وملذاتها ، ولكن حبهم

(١) اقترح عليهم ترتوليان أن يتخذوا مغادرة البلاد ذريعة . وهي نصيحة لو شاعت معرفتها لما صلحت لكسب رضا الاباطرة علم الطائفة السحيية .

للمعمل ، ذلك الحب الذى لم تكن جذوته لتتطفئ فيهم كلية ، سرعان ما انتعش ووجد مجالا جديدا في حكومة الكنيسة . ذلك أن المجتمع المستقل أو المنفصل الذى تصدى للديانة القائمة في الامبراطورية ، كان مضطرا لاقتباس شكل من أشكال السياسة الداخلية ، وتعيين عدد كاف من السدنة لا يعهد اليهم بالمهام الروحية فحسب ، بل حتى بالادارة الدنيوية (الزمنية) للجمهورية المسيحية كذلك . ونبتت سلامة هذا المجتمع ومجده وتوسيعه ، حتى فى أنقى العقول ، من روح وطنية شبيهة بتلك التى استشعرها الرومان الأولون نحو الجمهورية ، كما نبتت أحيانا من عدم اكتراث مماثل باستخدام أى الوسائل التى يحتمل أن تؤدي الى هذه الغاية المرجوة . وكان طمعهم فى السمو بأنفسهم وبأصدقائهم الى أمجاد الكنيسة ومناصبها ، مستترا في نيتهم الحسنة فى أن يخصصوا للمصلحة العامة تلك القوة والأهمية اللتين أصبح من واجبهم أن يلتصوها لهذا الغرض وحده . وكثيرا ما اقتضت مباشرة وظائفهم أن يكتشفوا أخطاء الهرطقة أو أحابيل الفتنة ، وأن يقاوموا خطط أخوانهم الفدارين ، ويدمغوم بما يستحقون من عار وفضيحة ، ويخرجوهم من أحضان المجتمع الذى حاولوا أن يكدروا هدوءه وسعادته . وتعلم الحكام الكنسيون المسيحيون أن يجمعوا بين فطنة الثعبان وبراءة الحمام ، ولكن كما صقل ونقح الأول ، فقد أفسد الثانى تقاليد الحكومة ، ففى الكنيسة ، كما فى العالم بأسره ، أضفى الأشخاص الذين تولوا المناصب العامة على أنفسهم أهمية واعتبارا ببلاغتهم وحزمهم ، ومعرفتهم بالجنس البشرى وبراعتهم فى العمل ، وكثيرا ما انتكسوا — فى الوقت الذى أخفوا فيه عن الآخرين ، وربما عن أنفسهم ، البواعث الخفية لسلوكهم — انتكسوا الى الأهواء الطائشة فى خضم الحياة الصاخبة التى اصطبغت بقدر أكبر من المرارة والعناد نتيجة للغيرة الروحية .

وغالبا ما كانت حكومة الكنيسة موضوع الجهاد الدينى وحصيلته ، سواء بسواء فقد كافح جميع المنافسين المعادين فى روما وباريس واكسفورد وجنيف، ليهبطوا بالمثل الذى ضربه الرسل أو الحواريون(١)، الى مستوى سياسة كل منهم على حدة . وكان من رأى النفر القليل الذين تتبعوا هذا البحث باخلاص ونزاهة ، أن الحواريين رفضوا مهمة

(١) حاولت الفتنة الأرستقراطية فى باريس ، وكذلك فى انجلترا ، فى جراءة وحماس أن تحتفظ بالانشأ الإلهى للأساقفة . ولكن شيوخ الكنيسة الكلفينية ضاقوا ذرعا بأى رئيس . أما الحبر الرومانى فلم يعتد بان له نظيرا .

التشريع وانهم آثروا أن يعانون بعض الافتراءات والانقسامات الجزئية، على أن يحرموا المسيحيين في الأجيال القادمة من حرية تنويع أشكال حكومتهم الكنيسية تبعا لتغير الأزمان والظروف . وربما اكتشف نتيجة للخبرة والمران ، في أورشليم أو روما أو أفيسيوس أو كورنثة ذلك الأسلوب من السياسة الذي اتبع بموافقتهم (الحواريين) في القرن الأول . ولم ترتبط المجتمعات التي تكونت في مختلف مدن الامبراطورية الرومانية الا بروابط الايمان والبر والاحسان فقط . وكان قوام دستورها الداخلى الاستقلال والمساواة . أما حاجتهم من النظام والتعليم الانسانى فكان يزودهم بها « الرسل » الذين كانوا يدعون لهذه المهمة دون تمييز في العمر أو في الجنس أو في القدرات الطبيعية ، والذين كانوا ، كلما أحسوا بالدفع الالهى ، صبوا فيض « الروح » في جماعة المؤمنين . ولكن هذه المواهب الخارقة كثيرا ما أساء هؤلاء المعلمون الرسوليون استخدامها أو تطبيقها . ذلك أنهم عرضوها في وقت غير مناسب أو شوهوا خدمة الجماعة في غطرسة وجراة ، وقد أدخلوا الى الكنيسة الرسولية في كورنثة بصفة خاصة ، نتيجة لفرورهم وغيرهم الخاطئة ، سلسلة طويلة من المعاييب المحزنة . ولما بات نظام « الرسل » (المعلمين) عقيما غير مجد ، بل ضارا مؤذيا ، سحب سلطانهم وألغيت وظائفهم وأسندت الوظائف الدينية العامة الى سدة الكنيسة الثابتين والى الأساقفة والمشايع وحدهم ، ويبدو أن هذين اللقبين فى نشأتهما الأولى ، كانا يدلان على نفس الوظيفة ونفس الفئة من الأفراد . وكان اسم « الشيخ » يعبر عن العمر والهيبة والحكمة . أما لقب الأسقف فكان يدل على تفقدتهم ايمان وسلوك المسيحيين الذين وضعوا تحت رعايتهم فى أبرشياتهم . وكان يتولى نفر من مشايخ الكنيسة ، يقل أو يكثر تبعا لأعداد المؤمنين نسبيا — توجيه كل جماعة ناشئة بنفس القدر من السلطة ، وبالنصائح الموحدة .

ولكن ذروة اكتمال المساواة فى الحرية تتطلب يدا موجهة لحاكم أعلى ، وسرعان ما يخلق نظام المداولات العامة وظيفه الرئيس الذى يعهد اليه ، على الأقل ، بجمع آراء الجماعة وتنفيذ قراراتها . وحمل المسيحيين الأولين اهتمامهم بالهدوء العم الذى كثيرا ما كان يمكن أن يضطرب نتيجة للانتخابات السنوية أو الطارئة — نقول حملهم على انشاء حكومة محترمة دائمة ، وأن يختاروا من بين المشايخ واحدا من أعقلهم وأقدسهم ليقوم مدى الحياة ، بأعباء حاكمهم الكنسى . ومن هنا بدأ اللقب السامى « أسقف » يرتفع فوق الاسم المتواضع « شيخ » وبينما ظل هذا الأخير أفضل تمييز طبيعى لأعضاء كل مجلس لكبار

المسيحيين ، خصص الأول للدلالة على مقام الرئيس الجديد ومكانته .
ان مزايا هذا الشكل الكنسى للحكم الذى يبدو أنه ابتدع قبل نهاية
القرن الأول (١) ، كانت واضحة وهامة لعظمة المسيحية فى المستقبل ،
ولسلامها فى الوقت الراهن . حتى لقد تبناه ، دون تأخير ، كل المجتمعات
التي كانت منتشرة بالفعل فى أرجاء الامبراطورية والتي كانت فى حاجة
الى سند من القديم (٢) ، وما تزال تجله أقوى الكنائس فى الشرق
والغرب ، باعتباره مؤسسة بدائية ، بل حتى الهية (٣) .

وليس بنا من حاجة الى القول بأن المشايخ الأنقياء المتواضعين
الذين كرموا باللقب الكنسى فى البداية ، لم يكن لهم ، وربما أبوا على
أنفسهم السلطة والابهة اللتين تحيطان الآن بتاج الحبر الرومانى ، أو
كبير الأساقفة الألمان . ويمكن أن نحدد فى ايجاز الحدود الضيقة لولايتهم
التي كانت أساسا ولاية دينية ، ولو أنها كانت فى بعض الأحوال ذات
طبيعة دنيوية . وقد انحصرت فى ادارة الأسرار المقدسة ونظام الكنيسة،
وفى الاشراف على الاحتفالات الدينية التي زادت وتنوعت بشكل غير
ملحوظ ، ورسمه قسوس الكليروس الذين يحدد الأسقف لكل منهم
عمله ، وادارة أموال الكنيسة ، وحسم الخلافات التي لم يكن المؤمنون
يريدون طرحها أمام محاكم القضاء الوثنى . وكانت ممارسة هذه
الصلاحيات — لفترة قصيرة — تتم وفقا لمشورة رابطة المشايخ ،
وبموافقة جماعة المسيحيين . واعتبر الأساقفة الأولون فى مكان الصدارة
من نظرائهم ، والخدام المكرمين لشعب حتر . فاذا خلا كرسي رئاسة
الكنيسة اختير رئيس جديد من بين المشايخ بالتصويت العام فى المجتمع،
الذى كان يظن كل عضو فيه أنه يتمتع بشخصية مقدسة كهنوتية .

هذا هو الدستور الذى اتسم بالاعتدال والمساواة والذى حكم
المسيحيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الرسل ، وشكل كل مجتمع
فى نطاقه الخاص جمهورية منفصلة مستقلة . ورغم ما كان من الصلة

(١) انظر مقدمة « أبوكاليس Apocalypse » (سفر رؤيا يوحنا العهد الجديد)
وعين الأساقفة بالفعل فى المدن السبع فى أفريقيا . على أن رسالة كلمنز Clemens
(التى يحتمل أنها كانت ذات تاريخ قديم) لم تؤد بنا الى اكتشاف أى آثار لحكومة
الكنيسة لا تم كورنثة ولا فى روما .

(٢) كان المعروف أنه لا وجود لكنيسة بدون أسقف ، كان هذا هو الحد الأعلى منذ
عهد تروتيان وإيرينوس .

(٣) وبعد اجتياز عقبات القرن الأول ، نجد أن الحكومة الكنسية قد عمت واستقرت
حتى قوضت أركانها البقرية الجمهورية عند المصلحين السويسريين والألمان .

بين أقصى هذه الدويلات الصغيرة بعضها مع بعض ، عن طرق الرسائل أو المندوبين ، فان العالم المسيحي لم يكن بعد مرتبطا بأية سلطة عليا أو جمعية تشريعية . فلما تضاعف عدد المؤمنين تبينوا المزايا التي تعود عليهم من وحدة المصلحة والخطط . وفي أواخر القرن الثاني اقتبست الكنائس في اليونان وآسيا النظم المفيدة ، نظم « السنودس » في الولايات ، أى مجمع الرؤساء الروحانيين فى كل منها ، والمفروض بحق أنهم استعاروا نظام المجلس التمثيلى من النماذج المشهورة فى بلادهم : مجالس المدن ، أو العصبة الأخية ، أو مجالس المدن الأيونية . وسرعان ما تقرر ، بحكم العادة ، أو كتائون ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة فى عاصمة الولاية فى فترات معينة فى الربيع والخريف . وكانوا يسترشدون فى مداولاتهم بمشورة نفر من المشايخ الممتازين ، كما كان يخفف من حدتها حضور جمهور من المستمعين . وسوت الأوامر العالية التى كانت تصدر عنهم ، والتى كانت تسمى « شرائع » أى خلاف فى العقيدة أو فى النظام . وكان طبيعيا أن يسود الاعتقاد بأن فيضا كريما من « الروح القدس » كان يتدفق على هذه الجمعية المتحدة من وفود الشعب المسيحي . ووام نظام « المجلس الكنسى » الى حد بعيد ، بين الطمع الشخصى والمصلحة العامة على حد سواء ، مما أدى الى تعميمه فى كل أرجاء الامبراطورية ، فى مدى سنين ثلاث . وتبدلت المراسلات بانتظام بين مجالس الولايات التى اتصلت بعضها ببعض ، كما تبادلت التصديق على اجراءات كل منها . وسرعان ما اتخذت الكنيسة الكاثوليكية شكل الجمهورية الاتحادية (الفيدرالية) واكتسبت قوتها .

ولما حلت المجالس محل السلطة التشريعية لكل كنيسة بعينها ، ظفر الأساقفة — بفضل تحالفهم — بنصيب أكبر من السلطة التنفيذية التعسفية وحالما ارتبطوا بوحي من مصلحتهم المشتركة ، أمكنهم ، فى عزم موحد ، أن يتحدوا الحقوق الأصلية لقسسهم وشعبهم ، واستبدل أحبار القرن الثالث بشكل غير ملحوظ لغة الأمر بلغة النصيح والتحذير ، وبذروا بذور اغتصاب السلطة فيما بعد ، وعوضوا عن إهتقارهم الى القوة والمنطق بمجازات الكتاب المقدس وبالبلادة الحماسية . وأشادوا بذكر وحدة الكنيسة وقوتها ، مثلة فى منصب الأسقف ، وقد حظى كل أسقف من هذه الوحدة والقوة بنصيب متساو لا يتجزأ . وكثيرا ما تردد القول بأن فى مقدور الأمراء والحكام أن يباهوا بذلك دنيوى عابر : والواقع أن السلطان الأسقفى وحده هو الذى ينبع من الاله ، وامتد فوق هذه الحياة وفوق الحياة الآخرة . وكان الأساقفة نواب

المسيح وخلفاء الرسل ، والبديل الخفى للكهنة الأعظم لشريعة موسى ، واجتاحت سلطانتهم المطلق في رسم القساوسة حرية الانتخابات الدينية والشعبية على حد سواء ، وحتى اذا ظلوا ، في ادارة الكنيسة ، يلتزمون رأى المشايخ وميول الشعب ، فانهم في أكبر عناية وحرص كانوا يقررون في الأذهان أنهم يفعلون ذلك متفضلين طواعية واختيارا ، واعترف الأساقفة بالسلطة العليا المخولة للجمعية المشكلة من اخوانهم ولكن كل أسقف انتزع — في حكم أبرشيته الخاصة — من « قطيعه » (شعبه) نفس القدر من الطاعة العمياء ، كما لو كان هذا المجاز المحبوب صادقا بمعناه الحرفي ، وكما لو كان « الراعى » من طبيعة أفضل من طبيعة « غنمه » . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطاعة لم تفرض دون بعض الجهود من جانب ، وبعض المقاومة من الجانب الآخر ، فقد كانت المعارضة الفجيرة او المغرضة من جانب الأكليروس الذين هم أدنى مرتبة تعزز الناحية الديمقراطية في الدستور تعزيزا كبيرا في كثير من الأماكن . ولكن وطنيتهم رميت بالنعوت الشائنة المخزية : بالشغب والخروج على الكنيسة ، وكانت قضية سلطان الأسقف مدينة ، في تقدمها السريع ، لجهود كثير من الأساقفة الجادين الذين استطاعوا — مثل سيبريان القرطاجي — أن يوقفوا بين أفانين أشد السياسة والدولة طمعا ، وبين الفضائل المسيحية التي تبدو مطابقة أو ملائمة لشخصية القديس والشهيد (١) .

ويلاحظ أن نفس الأسباب التي قضت على المساواة بين المشايخ في البداية ، أضحت على الأساقفة تفوقا في المنزلة ، ومن ثم سموا في الولاية والاختصاص . فانهم كلما اجتمعوا في الربيع والخريف في سنودس الولاية (مجلس الآباء الروحانيين) شعر أعضاء الجمعية صراحة بالفارق بينهم في المكانة والسمة الشخصية ، وسيطرت على الجمع حكمة غنة قليلة من الأعضاء وبلاغتهم . ولكن نظام الاجراءات العامة تطلب تمييزا أكثر تحديدا وأقل اثارة للحقد والبغضاء . وكان نظام الرئاسة الدائمة للمجالس في كل ولاية مقصورا على أساقفة المدينة الرئيسية فيها ، وأعد هؤلاء الأساقفة المتطلعون الذين ظفروا بسرعة على الألقاب الضخمة : مطران العاصمة ، ورئيس الأساقفة — أعدوا أنفسهم سرا ليغتصبوا من رفاههم في حكومة الكنيسة نفس السلطة

(١) لو لم يكن نوفاتس Novatus وغلثيسيموس Felicissimus وغيرهما — معن طردهم أسقف قرطاجة من الكنيسة بل من أفريقية كلها — نقول لو لم يكونوا من أكبر أنظمة الشر الممقوتين ، لطفت غيرة سيبريان على صدق روايته لى بعض الأحيان .

التي انتحلها الأساقفة أخيرا فوق رابطة المشايخ ، بل لم يمض وقت طويل حتى عمت المنافسة بين المطارنة أنفسهم في مجال الاستعلاء والصدارة ، حيث تظاهر كل منهم بإبراز الأمجاد والمزايا الدنيوية لمدينته التي يرأسها ، في أبهى مظاهرها ، وأعداد المسيحيين الداخلين في نطاق رعايته الكنسية وراثتهم ، والقديسين والشهداء الذين ظهوروا بينهم ، والنقاوة التي حافظوا بها على تقاليد العقيدة كما انتقلت على يد سلسلة من الأساقفة الأرثوذكس من الرسل أو التلاميذ الرسولييين الذين ينسب اليهم تأسيس كنيستهم . وكان من السهل التنبؤ بأن روما — من كل الوجوه ، مدينة كانت أو كهنوتية — لابد أن تحظى باحترام الولايات — وأن تطالب بامتثالها جميعا لها . وكان عدد المؤمنين كبيرا الى الحد الذي يتناسب مع عاصمة الامبراطورية العظيمة ، وكانت كنيسة روما أعظم الكنائس وأضخمها عددا ، كما كانت بالنسبة للغرب أقدم المؤسسات المسيحية التي أخذت عنها كثير من هذه المؤسسات ديانتها بفضل الجهود الثمينة لمبشرى كنيسة روما وارسالياتها . وبدلا من مؤسس رسولى واحد ، وهو أكبر موضع للفخر في أنطاكية ، أو أفسيس ، أو كورنثة ، قيل ان ضفاف التيبر شرفت بوعظ أعظم اثنين من الرسل واستشهادها ، وادعى أساقفة روما أنهم وريثو كل المزايا المنسوبة الى شخص القديس بطرس أو الى منصبه (١) . وكان أساقفة ايطاليا والولايات يميلون الى أن يسمحوا لهم (لأساقفة روما) بالأولوية وبهذه المشاركة (وهذا هو نص تعبيرهم) في الارستقراطية المسيحية . أما سلطة ولى الأمر فقد رفضت في وقت شديد ، حيث عانت روح روما الطامحة من أمم آسيا وأفريقية مقاومة أشد لسلطانها الروحي منها لسلطانها الدنيوى . فان سبيريان المحب لوطنه ، والذي تحكم في كنيسة قرطاجة والمجالس الكنسية (Synods) في الولايات بأكثر تسلط مطلق ، عارض بكل قوة ونجاح طمع الحبر الرومانى ، وربط في دهاء بين قضيته وبين قضية الأساقفة الشرقيين ، وسمى — كما فعل هانيبال — الى كسب حلفاء جدد في قلب آسيا . واذا كانت هذه الحرب البونية (حرب قرطاجة) قد استمرت دون اراقة دماء ، فان هذا يرجع الى ضعف الأساقفة المتنازعين أقل

(١) ان الإشارة المشهورة الى اسم القديس بطرس مضبوطة في اللغة الفرنسية فقط حيث يقول المسيح لبطرس (و Pierre معاها بالفرنسية صخرة) : « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستى » (انجيل متى ١٦/١٨) . ونفس المعنى غير دقيق في اللغات اليونانية والايطالية واللاتينية وغيرها . وغير مفهوم إطلاقا في اللغات التوتونية .

كثيرا مما يرجع الى اعتدالهم . فقد كان القُدح والحرمان من الكنيسة أسلحتهم الوحيدة التي شهروها في وجه بعضهم بعضا طيلة احتدام النزاع ، بنفس القدر من العنف والحماس . وان الضرورة المريرة التي اقتضت يوماً لوم أحد البابوات أو القديسين أو الشهداء لتبعث الأسى في نفوس الكاثوليك الحديثين عندما يضطرون الى سرد تفاصيل هذا النزاع الذي انفجس فيه أبطال الكنيسة في مثل هذه الأهواء التي هي الئيق بهجلس للسناو أو بمعسكر للجيش .

وقد نشأ عن نمو سلطان الكنيسة ذلك التمييز الذي لا ينسى ، من حيث تقسيم الناس الى علمانيين واكليروس ، ذلك التفريق الذي لم يكن معروفا لدى الاغريق والرومان (١) وكانت التسمية الأولى تشمل كل الشعب المسيحي بأسره ، أما التسمية الثانية — طبقا لمعنى اللفظ — فقد أطلقت على الفئة المختارة التي أفردت لخدمة الدين ، وهم الطائفة المشهورة من الرجال الذين قدموا للتاريخ الحديث أهم الموضوعات ، وان لم تكن في كل الأحوال أكثرها تهذيبا وثقيفا . وقد اقلقت عداوتهم المتبادلة في بعض الأحيان هدوء الكنيسة الناشئة ، ولكن غيرتهم ونشاطهم اتحدا في مجال الصالح العام ، وحفزهم حب السلطة الذي استطاع أن يتسلل الى قلوب الأساقفة والشهداء (تحت أشد الأتعة دهاء واحتيالا) الى الاكثار من عدد رعاياهم ، والى توسيع حدود الامبراطورية المسيحية . وكانوا مجردين من أية قوة دنيوية ، وظل الحكام المدنيون لفترة طويلة ، يشبطون همهم ويضيقون الخناق عليهم ، أكثر من أن يعاونوهم ، ولكنهم اكتسبوا ، واستخدموا ، في نطاق مجتمعاتهم ، اثنتين من أشد أدوات الحكم فعالية : الثواب والعقاب : الأول من سناء المؤمنين النابع من تقواهم ، والثاني من مخاوفهم المنبثقة من خشوعهم وورعهم .

١ — اقتبست الكنيسة البدائية الأولى ، لفترة قصيرة ، فكرة المشاركة العامة في طيبات الحياة ، تلك الفكرة التي داعبت خيال أفلاطون وطابت لها نفسه ، والتي عاشت بدرجة ما ، بين طائفة « الأسينيين » المتشددة Essenians ، ولقد هزت الحمية المهتدين الأولين فباعوا كل ما يملكون من المتاع الدنيوي الذي احتقروه ، ووضعوا ثمنه تحت أقدام الرسل ، وقلعوا بنصيب متساو منه عند التوزيع العام ، ولكن تقدم الديانة المسيحية عوق وأبطل شيئا فشيئا هذا السنن الكريم ،

(١) نشاهد التفريق بين العلمانية والدينية قبل عصر ترتوليان .

الذى كان لابد من أن تفسده وتسيء استغلاله سريعا جدا عودة الانانية المركبة في الطبيعة البشرية ، اذا وضع بين أيدي اقل نقاود وطهرا من أيدي الرسل . ورخص للمرتدين الذين اعتنقوا الدين الجديد في الاحتفاظ بأرائهم ، وتسلم التركات والميراث ، وزينة املاك الزوجة بكل الوسائل المشروعة في التجارة والصناعة . وبدلا من التضحية المطلقة أخذ انقساوسة نسبة معدلة . وفي الاجتماعات الأسبوعية او الشهريه كان كل مؤمن يقدم طائعا مختارا - تبعا لمقتضى المناسبه ولدرجة نرائه وتقواه - ما تجود به نفسه لخدمة الصندوق العام . ولم يكن اى شيء يرفض مهما كان ثامنا ، ولكنهم دأبوا على نلقين الناس أن ركن « العشور » (أو مادة الزكاة) في شريعة موسى لا يزال يشكل التزاما الهيا ، وأنه اذا كان اليهود في ظل نظام أقل كمالاتهم ان يذموا عشر ما يمتلكون ، فالأولى بتلاميذ المسيح أن يميزوا أنفسهم بدرجة أعلى من السخاء ، وأن يظفروا بفضل النزول عن فائض ثروتهم التي سرعان ما تنفى بفتاء الدنيا نفسها (١) . وقد لا تدعو الضرورة الى القول بأن دخل كل كنيسة بعينها ، ذلك الدخل غير المحقق المتقلب ، لابد أنه كان يختلف تبعا لفقر أو غنى المؤمنين الذين انتشروا في القرى المغيرة أو تجمعوا في المدن الكبيرة . وكان من رأى بعض الحكام في عهد الامبراطور ديسيوس Decius أن المسيحيين في روما امتلكوا ثروة طائلة ، وأنهم استعملوا في عبادتهم اوانى من الذهب والفضة ، وأن كثيرا من المهتدين باعوا اراضيهم وبيوتهم ليزيدوا في الثروة السامة للطائفة . وأن هذا في الواقع على حساب اطفالهم البؤساء الذين وجدوا أنفسهم متسولين لأن آباءهم كانوا قديسين ، ويجدر بنا أن نستمع في ارتياب الى اتهامات الغرياء والاعداء ، بيد أنها في هذه المناسبة ، على أية حال ، تتسم ظاهريا بالصحة والاحتمال ، الى حد بعيد ، كما يتبين من الحالتين الآتيتين ، وهما الوحيدتان اللتان وصلتا الى علمنا ، واللذان تحددان مبالغ دقيقة أو تعطيان فكرة واضحة . فقد جمع أسقف قرطاجة ، حوالى هذه الفترة تقريبا ، من مجتمع أقل ثراء من مجتمع روما مائة ألف قطعة من العملة الفضية (أكثر من ثمانمائة وخمسين جنيها استرلينيا) ، في نداء عاجل للبر واحسان لاغاثة الاخوة في نوميديا ، الذين وقعوا أسرى في أيدي برابرة الصحراء . وقبل عهد ديسيوس بنحو مائة عام ، تلقت كنيسة روما دفعة واحدة هبة قدرها مائتا ألف قطعة (أى ضعف المبلغ السابق) من أحد الغرياء في بنطس ، أراد

(١) ساد نفس الرأى حوالى سنة ١٠٠٠ م ، وترأيت عليه نفس النتائج . وكانت كل الهيئات تقدم بدافع « أن العالم قد اقتربت نهايته » .

ل يتخذ العاصمة مقرا له . وكانت هذه القرايين ، في معظمها ، نقدا ، لأن المجتمع السنيحي لم يكن راغبا ، بل لم يكن قادرا ، بدرجة كبيرة ، على احتمال عبء الممتلكات العقارية ، فقد اشترطت عدة قوانين سنت على نسق نظام الوقف عندنا ، الا تمنح أية ضياع حقيقية لأية هيئة دون امتياز خاص أو اجازة معينة من الامبراطور أو السناتو ، الذين قلما اتجها الى منحها لمصلحة طائفة كانت في البداية موضع احتقارهما ، وفي النهاية مثار خوفهما وحقدهما ، وقيل على أية حال ، بأنه في عهد اسكندر سيفيروس تمت صفقة يتبين منها ان الحظر قد أمكن أحيانا التخلص منه ، أو عطل ، وأنه قد رخص للمسيحيين في امتلاك الأراضي خارج حدود روما . وساعد تقدم المسيحية واضطراب الأحوال المدنية في الامبراطورية ، على الارخاء من قبضة القوانين ، ووهبت ، حوالى نهاية القرن الثالث ، ضياع كبيرة كثيرة للكنائس الفنية في روما وترطاجه وأنطاكية والاسكندرية ، وغيرها من المدن الكبرى في ايطاليا وفي الولايات .

وكان الأسقف هو الرئيس الطبيعي لسدنة الكنيسة ، وكان هو المتصرف في الموارد العامة للكنيسة دون حسيب أو رقيب . واقتصر المشايخ على المهام الروحية ، أما فئة الشمامسة ، وهم التابعون الأدنى درجة ، فكانوا يستخدمون فقط في ادارة دخل الكنيسة وتوزيعه . وإذا جاز لنا أن نصدق تصريحات سبريان العنيفة لقلنا معه انه كان من بين الأخوة الأفريقيين كثيرون ممن دنسوا ، أثناء تأدية وظائفهم ، لا كل نواويس الكمال في الانجيل فحسب ، بل كل جوانب الفضائل الأخلاقية كذلك . فان بعض هؤلاء السدنة المؤمنين بددوا أموال الكنيسة في صنوف الملذات الشهوانية ، كما انحرف بها بعضهم الى اغراض الكسب الخاص ، وإلى صفقات الشراء المزورة ، وإلى عمليات الربا الفاحش . ولكن لما كانت تبرعات الشعب المسيحي حرة مطلقة ، فمن المتوقع أن سوء استغلالهم لم يتكرر كثيرا . كما أن المنافع العامة التي نبتعت من سخائهم عكست على المجتمع الديني شرفا ونبلا . واحتفظ بنصيب متواضع لاعالة الأسقف ومعاونيه من الأكليروس ، وخصص مبلغ كاف لنفقات العبادة العامة ، وكان من بينها أعياد المحبة والاحباب (كما كانوا يسمونها) وكانت تشكل جانبا سارا . أما الجزء الباقي فكان هبة مخصصة للفقراء وموقوفة عليهم ، ترك المتصرف فيه لحكمة الأسقف ، من أجل اعانة الأرامل واليتامى والعرج والمرضى والعجائز في المجتمع ، ومساعدة الغرباء والحجاج ، وتخفيف ويلات المسجونين والأسرى ، وخاصة اذا كانت متاعبهم ناجمة عن استمساكهم بعروة

الدين . ولقد وحد بين أقصى الولايات بعضها بعضا رباط كريم من البر والاحسان ، وكانت أصغر المجامع تتلقى المساعدات عن طيب خاطر من صدقات اخوانهم الذين هم أكثر يسارا . وأدى مثل هذا النظام الذى عنى بأهلية الشخص أقل منه ببؤسه أو محفته ، الى تقدم المسيحية ، ومن ثم نرى الوثنيين الذين كانت تعتدل فيهم معان انسانية ، يعترفون بروح البر والخير فى الطائفة الجديدة (١) على حين كانوا يسخرون من عقائدها . وجذب الأهل فى المعونة العاجلة وفى الرعاية الآجلة الى أحضانها الكريمة كثيرا من التعساء الذين ربما تركهم اغفال الدنيا لهم فريسة للفاقة والمرض والشيخوخة . وهناك أيضا ما يحمل على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الأطفال الذين كان آبائهم يعرضونهم للموت — طبقا للمعادة غير الانسانية التى كانت سائدة فى ذلك العصر — كانوا كثيرا ما ينقذون ويعمدون ويعملون ، ويعيشون بفضل تقوى المسيحيين وعلى حساب الأموال العامة (٢) .

٢ — من الحقوق المقررة التى لا نزاع فيها أنه يمكن لكل مجتمع أن يستبعد من نطاقه ومن مزاياه الأعضاء الذين يرفضون أو يتعدون القواعد التى استقرت وتركت برضا من الناس عامة . وفى ممارستها لهذا الحق ، كانت الكنيسة المسيحية تنزل عقابها أساسا بمرتكبى الخطايا الفاضحة ، وبخاصة الآثمين الذين ارتكبوا جرائم القتل أو التدليس أو الدعارة ، وبمبتدعى أو معتنقى آراء الهرطقة التى كانت تدينها حكومة الكنيسة ، وبأولئك التعساء الذين دنسوا أنفسهم ، طوعا أو كرها بأية طقوس وثنية بعد تعميدهم . وكانت عواقب « الحرم » أى الحرمان من الكنيسة ذات طبيعة دنيوية وروحية فى وقت معا . حيث كان المسيحى الذى يصدر عليه هذا الحكم يحرم من الاشتراك فى عبادات المؤمنين وقرابينهم ، وتقطع العلاقات الدينية والخاصة معه . ومن ثم وجد نفسه شيئا دنسا يمقتة الأشخاص الذين كان يكن هو لهم أعظم التقدير ، أو الذين كانوا يحبونه أشد الحب ، وبقدر ما كان الطرد من مجتمع محترم يدمغه بالخزى والعار كان الجنس البشرى عامة يعرض عنه ويرتاب فيه . وكان موقف هؤلاء المبعدين المنكودين إليها

(١) يبدو أن جوليان شعر بالاذلة والهوان لأن الصدقات المسيحية لم تكن قصرا على الفقراء الغريباء كذلك .

(٢) هذا هو — على الأقل — السلوك المحمود للرساليات الحديثة ، تحت نفس الظروف فإن أكثر من ثلاثة آلاف طفل سنويا يتعرضون للموت فى شوارع بكين . (المعروف أن هذا كتب فى القرن الثامن عشر ، وليت جيبون يعيش الآن ليرى بعينى رأسه كيف تبدلت الأحوال فى بكين بالذات) — (المترجم) .

محزنا في حد ذاته ، ولكن مخاوفهم كانت — كما يحدث عادة — تفوق آلامهم . فان مغانم الجماعة المسيحية كانت خالدة أبدية . ولن تمحى من الأذهان تلك الفكرة الرهيبة ، تلك هى أن الله قد أودع مفاتيح الجحيم والجنة في أيدي هؤلاء الحكام الكنسيين الذين أصدروا عليهم الحكم بالادانة والابعاد . وحقا حاول الهراطقة — مقتنعين بصواب مقاصدهم ، أو يحدوهم الأمل الموهوم بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا الطريق الصحيح للخلاص — حاولوا أن يستعيدوا — عن طريق جمعياتهم المستقلة — الراحة ، الدنيوية والروحية ، التي لم يعودوا يستمدونها من المجتمع المسيحى الأكبر ، ولكن معظم الذين استسلموا كرها لسلطان الرذيلة وعبادة الأصنام ، أدركوا سوء حالهم ، وتلهفوا على العودة الى مزاليا الجماعة المسيحية .

وهناك ، غيما يتعلق بهؤلاء التائبين النادمين ، رأيان توزعت بينهما الكنيسة الأولى ، أولهما طابعه العدالة ، ويسم ثانيهما بالرحمة . أما أهل الفتوى القسنة المتشددون الذين لا تلين قلوبهم ، فقد أبوا عليهم ، الى الأبد ودون استثناء ، أحقر مكان في رحاب الجماعة المقدسة التي امتنوها أو هجروها ، وتركوهم لعذاب الضمير الأثم ، ولم يتسامحوا معهم الا في بريق باهت من الأمل في أنه يمكن أن يتقبل « الكائن الأعظم » (١) توبتهم وتذللم في حياتهم ومآتهم . ولكن أظهر الكنائس المسيحية وأكثرها احتراما اعتنقت عمليا ونظريا ، فكرة أكثر اعتدالا ، فان أبواب الوفاق والمصالحة ، وأبواب السماء قل أن توصل في وجه التائب المنيب ، ولكنهم ابتدعوا نظاما قاسيا رهيبا ، قد يؤدي الى محو جريمته ، ولكنه في نفس الوقت يردع الناس بشدة عن الاقتداء به ، ذلك أن هذا التائب المنيب — بعد أن يعترف أمام الملا اعترافا يستشعر معه الاذلال ، ويصوم الى حد الضعف والهزال ، مرتديا أسمالا من الخيش — كان بعد هذا كله يخر ساجدا على الأرض أمام أبواب الكنيسة يتوسل بالدموع لفجران ذنبه ، ويلتمس صلوات المؤمنين من أجله (٢) . وإذا كان الجرم فظيلا ، لم تكن السنوات الطوال من التوبة تعد كافية لارضاء « العدالة الالهية » . وكان المذنب أو الهرطيق ، أو المارق ، يعاد دائما الى أحضان الكنيسة بعد هذه السلسلة البطيئة الالهية من التكفير . واحتفظ بالحكم بالحرمان الدائم

(١) وجد المنتانيون (أتباع مونتائوس Montanus في القرن الأول) والنوفاشيانيون (أتباع نوفاشيدس Novachides في القرن الثالث) — الذين اعتنقوا هذا الرأي في ضراوة وعناد — وجدوا أنفسهم في النهاية في عداد الهراطقة المحرومين من الكنيسة .
(٢) يأسف المعجبون بالقديم على زوال هذه الكفارة .

لبعض الجرائم الفظيعة الى حد خارق للعادة ، وبصفة خاصة الانتكاسات التى لا تغتفر من هؤلاء التائبين الذين جربوا وأساءوا استغلال رفق رؤسائهم الكنسيين . واختلف تطبيق هذا النظام المسيحى تبعا لحكمة الأساقفة ، ووفقا لظروف الآثمين وعددهم . وكان مجلس أنسيرا Ancyra والإللييرس Illiberis يعقدان فى نفس الوقت تقريبا الواحد منهما فى غلطية والثانى فى اسبانيا ، ولكن قراراتهما — الموجودة حتى الآن ، يبدو أنها مختلفة فى روحها . فان ابن غلطية الذى تكرر منه تقديم القرايين الى الأوثان بعد تعميده ، كان يمكنه أن يظفر بالغفران بعد سبع سنين من التكفير والتوبة ، أما اذا أغرى غيره بالاعتداء به ، أضيفت الى مدة الحرمان ثلاثة أعوام آخر . أما الأسباني المنكود الذى ارتكب نفس الخطيئة . فقد حرم من الأمل فى المصالحة حتى فى لحظة الموت . ووضعت وثنيته على رأس قائمة تحتوى على سبع عشرة خطيئة كان يصدر عليها حكم لا يقل رهبة عن هذا ، ويمكن أن نميز بينها الجرم الذى لا يغتفر ، وهو الطعن فى الأسقف أو الشيخ أو حتى الشماس .

ان هذا المزيج الذى أحسن تركيبه من السخاء والصرامة ، وهذا المنهج القويم من الثواب والعقاب ، قد شكلا — وفقا لمقاييس السياسة والعدالة سواء بسواء — القوة الانسانية فى الكنيسة . فان الأساقفة الذين بسطوا رعايتهم الأبوية على الحياتين الأولى والآخرة ، كانوا يدركون أهمية هذه الامتيازات ، وكانوا — وهم يسرون أطعامهم بآدعائهم اللطيف محبة الطائفة — يحقدون على كل من يناغسهم فى تطبيق مثل هذا النظام الضرورى لمنع ارتداد هذه الجوع التى انضوت تحت راية الصليب ، والتى كانت أعدادها تتزايد يوما بعد يوم . ومن الطبيعى أن نخلص من خطابات سبريان المؤثرة المتشددة الى أن نظريق الحرمان والتكفير كانتا أهم جزء أساسى فى الديانة . وأنه كان أقل خطرا على تلاميذ المسيح أن يهملوا فى أداء الواجبات المعنوية من أن يحتقروا عقاب أساقفتهم أو سلطانهم . وقد نتصور أحيانا أننا انما نصفى الى صوت موسى حين أمر الأرض أن تنشق وتبتلع فى سعيها المهلك أولئك المتمردين الذين رفضوا الإبتثال لكهنة هرون ، وأحيانا يجدر بنا أن نفترض أننا سمعنا صوت قنصل روماني يؤكد عظمة الإمبراطورية ، ويعلم عن عزمه الأكيد الذى لا ينثنى على فرض صرامة القوانين . « إذا أجزى هذا الاعوجاج دون عقاب أو حساب . . » . (هكذا يؤنب أسقف قرطاجة زملاءه لرفقهم ورفقتهم) ، « إذا أجزى هذا الاعوجاج ، فسوف يكون فى هذا نهاية قوة الأساقفة وعزمهم ، ونهاية للسلطة

الالهية السامية في حكومة الكنيسة ، ونهاية المسيحية نفسها « . وربما نبذ سبريان هذه الأمجاد الدنيوية التي كان من المحتمل ألا يحصل عليها تط ، ولكن اكتساب السيطرة على ضمائر المجمع وإدراكه — مهما كان صغير الشأن أو موضع احتقار العالم — أصدق إرضاء لغرور النفس البشرية ، من تملك أكبر سلطة مطلقة استبدادية تفرضها قوة السلاح والغزو على شعب أبى كاره .

لقد حاولت في هذا البحث الهام ، رغم أنه ربما كان شاقا ، أن أعرض الأسباب الثانوية التي عاونت معاونة فعالة على سلامة تعاليم الدين المسيحي ، وإذا نحن اكتشفنا بين هذه الأسباب شيئا من الزخارف المصطنعة أو الظروف الطارئة أو المزيج من الخطأ والهوى ، فليس هناك ما يدعو إلى العجب من أن يتأثر الجنس البشرى وطبيعته الناقصة بهذه البواعث ، تأثرا بالغا محسوسا ، فقد بسطت المسيحية أجنحتها بنجاح كبير ، على الإمبراطورية الرومانية نتيجة لهذه الأسباب : الغيرة المطلقة ، الترقب العاجل المباشر للحياة الآخرة ، دعوى المعجزات ، ممارسة الفضيلة الصارمة ، انشاء الكنيسة الأولى . وكان المسيحيون مدينين لأول هذه الأسباب ببأسهم الشديد الذي لا يغلب والذي احتقر أن يذعن للعدو الذي صمموا على قهره . أما الأسباب الثلاثة التالية فقد أمدت شجاعتهم بأقوى الأسلحة . أما آخر هذه الأسباب ، فإنه وحد قلوبهم ، وسدد أسلحتهم ، وأضفى على جهودهم هذا الوزن الثقيل الذي لا يقاوم ، والذي غالبا ما تفوقت به فئة قليلة من المتطوعين الشجعان الذين أحسن تدريبهم ، على حشد كبير سيئ النظام جاهل بالموضوع غير مكترث بقيام الحرب . ومن بين مختلف ديانات الشرك ، ربما كان بعض المتعصبين المتجولين في مصر وسوريا — ممن أسلموا أنفسهم للخرافة السانجة السائدة بين السكان — هم الفئة الوحيدة من الكهنة الذين استمدوا العون والسطوة من مهنتهم الكهنوتية ، وكانوا متأثرين من الأعماق باهتمامهم الشخصي بسلامة أو رخاء معبوداتهم الحارسة . أما كهنة المشركين في روما وفي الولايات ، فقد كانوا ، في الكثير الغالب ، رجالا من أصل نبيل ، ذوى ثراء وافر ، تقبلوا مهمة العناية بمعبد مشهور ، أو قربان عام ، على أنها امتياز مشرف ، وكثيرا ما عرضوا ، على حسابهم الخاص ، بعض الالعباب المقدسة وأقاموا في استهتار وفتور الطقوس القديمة ، طبقا لقوانين بلادهم وأسلوبها ، ولما كانوا مشغولين بهام الحياة العادية ، فقلما أثار غيرتهم وإخلاصهم أى لون من ألوان المصلحة ، أو أية سجايا ذات طابع كهنوتى . وقبح كل منهم في معبده أو مدينته ، فظلوا دون أن

يرتبطوا بأى رباط من روابط النظام أو الحكومة . وفى الوقت الذى اعترفوا فيه بالسلطة العليا للسناتو ومجمع الاحبار والامبراطور ، كان هؤلاء الحكام المدينون يقنعون بالمهمة اليسيرة ، الا وهى الإبقاء على العبادات العامة للناس فى هدوء ووقار . وقد رأينا بالفعل كم كانت العواطف الدينية لدى المشركين متباينة ، مفككة ، غامضة ، فقد تركوا بلا ضابط تقريبا للأوهام الخرافية والناعيل الطبيعة . وقد حددت الظروف الطارئة ومراكزهم هدف اخلاصهم ودرجته . وطالما كانت عبادتهم نهبا مباحا لألف من المعبودات على التعاقب ، فقد قل أن مس واحد منا شغاف القلب ، أو نفذ الى أعماق النفس .

الظروف المواتية لتقدم المسيحية

وفى الوقت الذى ظهرت فيه المسيحية فى العالم ، كانت حتى هزم الانطباعات الباهتة المعيبة قد فقدت قوتها الأصلية ، فان العقل البشرى ، القادر بقوته وحدها على ادراك خفايا العقيدة ، كان قد انتصر فى سهولة ويسر على حمالة الوثنية . واضطر ترتوليان ولكتانتىوس ، عندما بذلا الجهود فى فضح زيفها وسرفها ، الى اقتباس فصاحة شيشرون أو حصافة لوشيان . وانتقلت عدوى هذه الكتابات الملحدة الى محيط أبعد كثيرا من محيط قرائها . وانتقلت بدمة الشك أو عدم التصديق من الفيلسوف الى رجل المذات أو الأعمال ، ومن النبلاء الى العامة ، ومن السيد الى العبد الوضع خدام مائدته الذى أنصت فى لهفة الى حرية سيده فى الحديث . وتظاهر الفلاسفة فى المناسبات العامة بالنظر بعين الاحترام والوقار الى النظم الدينية فى بلادهم . ولكن احتقارهم الخفى كان ينفذ من خلال القناع الرقيق ، وحتى الناس أنفسهم — عندما تبينوا أن معبوداتهم كانت موضع استنكار وسخرية لدى الفئة التى درجوا على تبجيلها لعلو مكانتها وحسن ادراكها — امتلأت نفوسهم بالشكوك والخاوف ازاء تلك المعتقدات التى ظلوا لها عاكفين فى ايمان ثابت . وبانهيار الآراء القديمة تعرض الجزء الأكبر من الجنس البشرى لموقف اليم مض ، وقد تتلهى وتتسلّى بعض العقول الفضولية الكثيرة التساؤل بحالة الشك والتردد هذه . ولكن ممارسة الخرافة أمر محبوب الى جبهة الناس ، الى حد أن ايقاظهم عنوة يظل يثير فى نفوسهم الأسف لفقدانهم هذه الرؤية البهيجة السارة . وكان حيبهم لكل ما هو غريب وخارق للطبيعة ، وحبهم لاستطلاع الحوادث المستقبلية ، ونزعتهم القوية الى الامتداد بآمالهم ومخاوفهم الى ما وراء

حدود العالم المرئى - هى الأسباب المواتية لتثبيت دعائم الشرك وتعدد الآلهة . وكانت حاجة الرجل الهمجى الى العقيدة تلح عليه الحاحا يغدو معه من اقرب الاحتمالات أن يحل طراز جديد من الخرافة وشيكا محل أية أساطير تندثر . وربما احتلت بسرعة بعض المعبودات التى هى من طراز أحدث وأكثر جدة معابد جوبيتر وأبولو المهجورة اذا لم تكن حكمة « العناية الالهية » قد أقحمت فى اللحظة المناسبة تنزيلا اصيلا صالحا يوحى بأعظم التقدير والاعتناع المعقولين ، وازدانت فى نفس الوقت بكل ما يثير فضول الناس ودهشتهم وينزع احترامهم . ولما كان كثير من الناس متحررين تقريبا من تحيزاتهم المصطنعة ، ولكنهم بنفس القدر شديديو الحساسية والرغبة فى اعتناق مذهب جديد اعتناقا مخلصا ، فربما كان أى شئ كافيا ، ولو كان أقل جدارة واستحقاقا ، فى غمرة هذا الاستعداد الفعلى ، نقول كافيا للمء الفراغ فى قلوبهم ، ولتسكين هذا القلق المرتاب فى مشاعرهم . وقد يعجب الذين يميلون الى تتبع هذه الفكرة من أن نجاح المسيحية ظل أقل سرعة وانتشارا ، بدلا من أن يدهشوا لتقدمها السريع .

وقد أثرت ملحوظة صادقة قدر ما هى لائقة ، تلك هى أن فتوح روما قد مهدت السبيل وسهلت فتوح المسيحية ، وقد حاولنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن نوضح كيف أن اعظم الولايات حضارة فى أوربا وآسيا وأفريقية توحدت فى ظل ملك واحد ، وأنها ارتبطت ، على مر الأيام ، بأوثق روابط القوانين والسلوك واللغة . وقد استقبل يهود فلسطين الذين ترقبوا فى لهفة وشغف مخلصا دنيويا ، استقبلوا بفتور شديد معجزات النبى المرسل ، الى حد أنهم لم يجدوا ضرورة لنشر انجيل بالعبرية ، أو على الأقل ، الاحتفاظ به . وكتبت التواريخ الموثوقة لأعمال المسيح باللغة اليونانية ، على مسافة بعيدة من اورشليم ، وبعد أن زاد الى حد كبير عدد الأميين الذين اهتموا الى المسيحية . وحالما ترجمت هذه التواريخ الى اللاتينية باتت واضحة مفهومة لرعايا روما ، فيما عدا فلاهى سوريا ومصر الذين كتبت من أجلهم ترجمات خاصة فيما بعد . ومهدت الطرق العامة التى كانت قد أنشئت لخدمة القوات الرومانية سبيل المبشرين المسيحيين من دمشق الى كورنثة ، ومن ايطاليا الى أقصى الأرض فى اسبانيا أو بريطانيا ، ولم يواجه هؤلاء الفزاة الروحانيون أيا من العقبات التى قد تؤجل أو تعوق عادة دخول دين جديد الى بلاد نائية . وهناك من أقوى الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه قبل عصر دقلديانوس وقسطنطين ، كان التبشير بعقيدة المسيح يجرى فى كل ولاية وفى كل المدن الكبرى فى الامبراطورية ، ولكن تأسيس

المجامع الكثيرة والأعداد التي تألفت منها . ونسبتها الى جمهور غير المؤمنين — كل أولئك محوطة بالفموض أو تائه وسط الخيال والحماس . وسنعيد الآن الى سرد هذه الظروف المتورة ، كما وصلت الى علمنا على أية حال فيما يتعلق بانتشار المسيحية في آسيا واليونان ، ومصر ، وإيطاليا والغرب ، دون أن نغفل المكاسب الحقيقية أو الخيالية فيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية .

وكانت الولايات الغنية الممتدة من نهر الفرات الى البحر الايوني ، هي المسرح الرئيسى الذى عرض عليه رسول الأميين غيرته وتقواه . وقد تعهد تلاميذه ، في جد ونشاط ، بذور الانجيل التي كان قد غرسها في هذه التربة الخصبة ، ويبدو أن هذه المنطقة ، في القرنين الأولين ، كانت تضم الجزء الأكبر من المسيحيين . ومن بين المجتمعات التي أنشئت في سوريا ، لم يكن هناك مجتمعات أقدم أو أسمى من المجتمعات التي أنشئت في دمشق وحلب وأنطاكية ، وقد وصفت المقدمة الرسولية لسفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتى — العهد الجديد) كنائس آسيا السبع وخلدتها : « افسس ، أزمير ، برجامس ، ثياتيرا ، سارديس ، لاودكيا ، فيلادلفيا » . وسرعان ما انتشرت مستعمراتها في هذه البلاد الآهلة بالسكان . وفي فترة مبكرة جدا استقبلت جزيرتا قبرص وكريت وولايتهما تراقيا ومقدونيا الدين الجديد استقبالا طيبا ، وأسست في الحال جمهوريات مسيحية في مدن كورنثة وأسبرطة واثينا ، والحق أن قدم الكنائس في اليونان وآسيا هيا لها فسحة من الوقت للنمو والتكاثر . بل ان جماعات الفنوصيين وغيرهم من الهراطقة لتفيد في تبليان مظاهر الانتعاش في الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث كان لفظ الهراطقة يطلق دائما على الفئة التي هي أقل عددا . ويمكن أن نضيف الى هذه الشواهد المحلية اعتراف الأميين أنفسهم وشكاواهم ومخاوفهم . فمن كتابات لوشيان — وهو فيلسوف درس الجنس البشرى ووصف أحواله في أجلى بيان — يمكن أن نستخلص أن وطنه — بلاد بنطس — كان يعج ، على عهد كومودس ، بالابيقوريين ، و « بالمسيحيين » . وبعد ثمانين عاما من موت المسيح كتب السياسى الرومانى الخير « بلىنى » (٦٢ — ١١٣) يرثى لتفاقم السيئات التي حاول سدئ أن يمحوها ، فهو يؤكد في رسالته العجيبة الى الامبراطور تراجان ، أن المعابد كادت تصبح مهجورة ، وأن الضحايا المقدسة تكاد لا تجد من يشتريها ، وأن الخرافة (يقصد العقيدة المسيحية) لم تقتصر عداوها على المدن ، بل جاوزتها الى القرى والريف في بلاط بنطس وبيثينيا .

والمحوظ بصفة عامة ، ولو لم ندقق النظر في تعبيرات أو في بواعث هؤلاء الكتاب الذين يشيدون بتقدم المسيحية في الشرق أو يرثون لها ، أن أحدا منهم لم يترك لنا أسسا يمكن أن يستخلص منها تقدير عادل للمعدد الحقيقي للمؤمنين في تلك الولايات . وبقيت لحسن الحظ حالة واحدة يبدو أنها قد تلقى ضوءا أكثر إيضاحا على هذا الموضوع الغامض الهام . ذلك أنه في عهد تيوديسيوس ، ويعسد أن تمتعت المسيحية لمدة تزيد على ستين عاما بدفع العطف الإمبراطوري ، بلغ عدد شعب الكنيسة القديمة الالامعة في أنطاكية مائة ألف شخص ، عاش منهم ثلاثة آلاف على الهبات العامة . وقد تكون أبهة ملكة الشرق وعظمتها ، واكتظاظ السكان المعترف به في قيصرية وسلوقية (مدينة على الفرات) والاسكندرية ، وهلاك مائتين وخمسين ألفا من الأنفس بفعل الزلزال الذي أصاب أنطاكية أيام جوستين الأكبر — قد يكون كل أولئك عوامل كثيرة تقنع بأن مجموع سكانها لم يكن يقل عن نصف مليون ، وأن المسيحيين ، مهما تكاثروا عددهم نتيجة الفيرة والسلطة ، لم يتجاوزوا خمس أهل هذه المدينة العظيمة (أنطاكية) . وكما تختلف النسبة التي يجب أن نأخذ بها عندما نقارن بين المضطهدين وبين الكنيسة الظاهرة ، وبين الشرق والغرب ، وبين القرى الصغيرة والمدن الآهلة ، وبين الأقطار التي تحولت حديثا إلى العقيدة وتلك التي كان المؤمنون فيها في طليعة من حظوا باسم « المسيحيين » ! على أنه يجوز الانغفل أن كريسستوم Chrysostom (أحد آباء الكنيسة في أنطاكية في القرن الرابع) ، ونحن مدينون له بهذه المعلومات المفيدة — قدر في مقرة أخرى أن عدد المسيحيين كان يفوق حتى عدد اليهود الوثنيين . ولكن نذليل هذه الصعوبة الظاهرة ميسور واضح : فإن الواعظ الفصيح قارن بين الدستور الكنسي والدستور المدني في أنطاكية ، وبين قائمة المسيحيين الذين ظفروا ببركة السماء بالتمديد وقائمة المواطنين الذين كان لهم حق الاسهام في الهبات العامة . وقد أدرج العبيد والغريباء والأطفال في القائمة الأولى ، واستبعدوا من الثانية .

وهيات تجارة الاسكندرية الواسعة ، وقربها من فلسطين ، منفذا سهلا للديانة الجديدة ، وقد اعتنقتها أعداد كبيرة من طائفة Therapeutae والأسينيين Essenians القاطنين في منطقة بحيرة مريوط — وهم طائفة من اليهود تخلت كثيرا عن احترامها للطقوس الموسوية . وقدمت حياة التقشف والتزمت التي كان يحياها هؤلاء الأسينيون وصومهم وحرمانهم من الهيكل ، واشتراكية الملكية عندهم ، وحب العزوبة ، وتحمسهم للاستشهاد ، وحرارة عقيدتهم ، رغم عدم نقاوتها — كل

اولئك قدم بالفعل صورة حية للنظام الفطرى البدائى . ويبدو أن اللاهوت المسيحى اتخذ قلبه العلمى المحدد فى مدرسة الاسكندرية ، ووجد هادريان ، عند زيارته لمصر ، كنيسة تتألف من اليهود والاغريق بلغت من الاهمية ما يكفى لجذب انتباه هذا الأمير الفضولى المحب للاستقصاء . ولكن تقدم المسيحية ظل زمنا طويلا مقصورا على نطاق مدينة واحدة ، كانت فى حد ذاتها مستعمرة أجنبية . وظل أسلاف ديمتريوس ، حتى نهاية القرن الثانى ، هم الأحرار الوحيدين ، فى الكنيسة المصرية ، ثم رسم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة ، وراد عددهم الى عشرين فى أيام خلفه هرقلاس Heracles . أما جمهور المواطنين ، وهم شعب يتميز بالصلابة الكثيرة ، فقد استقبلوا الدين الجديد فى غثور واشمئزاز ، وكان من النادر ، حتى فى أيام أوريجن Origen أن تلتقى بمصرى تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة فى بلده . والحق أنه حالما اعتلت المسيحية العرش ، امتثلت حماسة هؤلاء المتبريرين للرأى المقتنع السائد ، وزخرت مدن مصر بالأساقفة ، وعجت صحراء طيبة بالنساك .

وتدفق الى رحاب روما الواسع سيل من الغرباء وسكان الولايات ، وكان أى غريب أو ممقوت ، مذنب أو مشتبه فيه ، يمكن أن يأمل فى الافلات من عين القانون الساهرة فى خضم هذه المدينة المترامية الأطراف . وسهل ، وسط هذا الخليط من الأمم ، على أى معلم يدعو الى الهدى أو الزيف ، وأى مؤسس لرابطة تقوم على الفضيلة ، أو على الاثم والعدوان ، أن يضاعف عدد تلاميذه أو شركائه . وبلغ عدد المسيحيين — كما صورته بالفعل تاسيتس — رقما كبيرا — أيام اضطهادات نيرون الطارئة . وتكاد لغة هذا المؤرخ العظيم تشبه الأسلوب الذى استخدمه ليفى Livy عندما روى قصة ادخال طقوس باخوس Bacchus الى الخمر عند اليونان والرومان والغائها . وبعد أن كان عباد باخوس قد أهاجوا قسوة السناتو ، توجس هذا المجلس خيفة من أن يكون حشد كبير — كما لو كان شعبا آخر — قد لقن تلك الأسرار الممقوتة . ثم أظهر بحث أكثر دقة أن المخالفين الآثمين لم يتجاوزوا سبعة آلاف ، وهذا فى الواقع رقم مخيف ، إذا نظر اليه على أنه هدف العدالة العامة . وفى مثل هذا الاعتراف الصريح يجب أن تفسر هذه العبارات القامضة التى أوردها تاسيتوس ، أو التى جاءت فى حالة سابقة على لسان يلىنى ، حين يبالغان فى حشود المتعصبين المخدوعين الذين نبذوا العبادات القائمة للآلهة . ولا ريب فى أن كنيسة روما كانت أولى الكنائس وأكثرها عددا . ولدينا سجل موثوق حجة يشهد بحالة

الديانة. في هذه المدينة حوالى أواسط القرن الثالث ، وبعد هدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكان الاكليروس آنذاك يتألف من أسقف وستة وأربعين من المشايخ ، وسبعة شمامسة ومثلهم من وكلائهم ، واثنين وأربعين سادنا ، وخمسين من القرائين وطاردى الأرواح الشريرة والحمالين ، وبلغ عدد الأرامل والعجزة والفقراء الذين كانوا يعيشون على تبرعات المؤمنين ، ألفا وخمسمائة . وبحكم المنطق ، وبالقياص الى أنطاكية ، قد نجرؤ على تقدير المسيحيين في روما بنحو خمسين ألفا . وربما كان من المتعذر التحقق من عدد السكان في هذه العاصمة الكبيرة بالضبط ، ولكن أكثر التقديرات تواضعا لا يمكن ، على التحقيق ، أن يهبط به الى أقل من مليون نسمة ، يشكل المسيحيون منهم جزءا من عشرين جزءا .

ويبدو أن سكان الولايات الغربية استقوا معرفتهم بالمسيحية من نفس المنبع الذى نشر عليهم لغة روما ومشاعرها وعاداتها . ونهيات أفريقية والغال ، في هذا الظرف الذى هو أكثر أهمية وخطرا ، للاقتداء بالعاصمة ، ورغم المناسبات الكثيرة المواتية التى ربما دعت الرسائل الرومانية الى زيادة ولاياتها اللاتينية ، فقد تأخر طويلا عبورهم للبحر أو جبال الألب ، فلسنا نستطيع أن نجد في هذه الاقطار العظيمة أية آثار محققة للعقيدة أو الاضطهادات، تصل الى ما بعد عهد الانطونينيين . وكان التقدم البطيء للإنجيل في المناخ البارد في الغال يختلف تمام الاختلاف عن الحماس الذى يبدو أنه استقبل به في الرمال المحرقة في أفريقية ، وسرعان ما أصبح المسيحيون الأفريقيون أحد الأعضاء الرئيسية في الكنيسة الأولى . وساعد التقليد الذى أدخل في هذه الولاية — أفريقية — وهو تعيين الأساقفة في أصغر المدن وأحق القرى، في حالات كثيرا جدا — ساعد على ازدياد عظمة وبهاء مجتمعاتهم الدينية التى الهبتها طوال القرن الثالث ، غيرة ترتوليان ، ووجهتها مقدرة سبريان ، وتألفت بفصاحة لكتانتىوس ، ولكننا ، على النقيض من ذلك ، اذا ولينا وجوهنا شطر الغال ، لوجب علينا أن نقنع ، في عهد ماركوس انطونينوس ، بالعثور على الجامع الهزيلة ، الموحدة في ليون وفيين (جنوبى ليون في فرنسا) ، بل حتى عهد ديسيوس ، لم يكن يوجد ، على التحقيق ، إلا في قليل من المدن فقط — آرل ، ناربون ، تولوز ، ليموج ، كليرمونت ، تور ، وباريس — بعض الكنائس المبعثرة هنا وهناك ، والتى قامت على اخلاص نفر قليل من المسيحيين . والحق أن الصمت يلتئم مع التبعد والنسك كل الالتئام ، ولكنه قلما يلتئم مع الغيرة والحماس ، ومن ثم يمكن أن نرى ونرى لحالة جمود المسيحية

في هذه الولايات التي استبدلت اللغة اللاتينية بالكلتية حيث انها لم تنجب طوال القرون الثلاثة الاولى كتابا كهنويا واحدا . ومن بلاد الغال التي زعمت لنفسها التفوق في العلم والسلطان على كل البلاد الواقعة على هذا الجانب من الألب انعكس نور الانجيل ، على الولايتين المناهيتين : اسبانيا وبريطانيا ، في شعاع أشد خفوتا . واذا نحن صدقنا توكيدات ترتوليان العنيفة ، فانهم تلقوا بالفعل القبس الاول من العقيدة عندما وجه هو خطابه الى حكام الامبراطور سيفيروس . ولكن المنشأ الغامض المهوش لكنائس غرب أوربا دون في اهمال شديد ، الى حد اننا لو أردنا أن نروى زمن تأسيسها وظروفه ، لوجب علينا أن نعوض عن صمت الأقدمين بتلك الأساطير التي أملاها الجشع أو الخرافة ، بعد ذلك بزمان طويل ، على الرهبان في أديرتهم المظلمة الخاملة . ولا يستحق الذكر من هذه الأناصيص الا قصة الرسول القديس جيمس لتطرفها الشاذ . فقد تحول من صياد سمك مسالم في بحيرة جنسارث Gennesareth ، الى فارس مقدم اغار على رأس الخيالة الاسبان في معاركهم ضد العرب . وقد مجد أعماله أكثر المؤرخين وقارا . وأظهر ضريح كمبوزتلا Compostella العجيب قوته ، وكان سيف الطائفة المحاربة تعاونه محاكم التفتيش كافيا للقضاء على أى اعتراض من نقد خبيث .

ولم يكن تقدم المسيحية محصورا في دائرة الامبراطورية الرومانية، فان الآباء الاولين الذين يفسرون الحقائق بالنبوءات ليقولون ان الدين الجديد طرق بالفعل أبواب المعمورة بأسرها في بحر قرن واحد من موت « منسئة الالهى » (السيد المسيح) ويقول جوستين الشهيد : « لا يوجد شعب يونانى أو متبربر ، أو أى جنس آخر من الناس ، يتميز بأية لغة أو سلوك ، جاهل بالفنون أو الزراعة ، يعيش تحت الخيام ، أو يوجب الأماق في عربات مغطاة ، لا تقام فيه الصلوات ، باسم المسيح المصلوب ، لله خالق كل شيء » . ولكن هذه المبالغة الفاخرة التي يصعب غشاية الصعوبة ، حتى في وقتنا الحاضر ، التوفيق بينها وبين حقيقة أحوال الجنس البشرى ، يمكن أن نعتبرها مجرد ملحة طائشة من كاتب ورع غير موثوق لم يراع الدقة ، تحددت مقاييس ايمانه بقدر امانيه . ولكن ايمان الآباء أو امانيههم لا يمكن أن تغير حقيقة التاريخ . وستظل حقيقة لا يتطرق اليها الشك أن متبربرى سكيذيا وألمانيا الذين قوضوا أركان الملكية الرومانية كانوا مغبورين في ظلام الوثنية ، وأنه لم يكن ثمة أى مسمى ناجح الى أية درجة من النجاح لتحويل ايبيريا أو ارمينيا أو اثيوبيا الى الدين الجديد ، الى أن انتقل صولجان الملك الى يدي

إمبراطور ارثوذكسى . وربما أفادت ظروف الحرب والتجارة ، قبل ذلك الوقت ، فى نشر بعض التعريف بالانجيل ، بين القبائل فى كاليدونيا (اسكتلنده) وبين القاطنين على حدود الراين والدانوب والفرات ، ووراء هذا النهر الأخير ، تفردت أذاسا باعتناقها المبكر المكين للعقيدة . ومن أذاسا دخلت مبادئ المسيحية فى سهولة ويسر الى المدن اليونانية والسورية التى خضعت لخلفاء ارتجزرسييس ، ولكن يبدو أنهم لم يؤثرا تأثيرا عميقا فى عقول الفرس ، الذين كان نظامهم الدينى قد أنشئ بجهد طائفة دقيقة التنظيم ، بطريقة أكثر دهاء وصلابة من الأساطير اليونانية والرومانية الغامضة .

أعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

وربما يبدو من هذا العرض النزيه ، وان كان عرضا غامضا ، لتقدم المسيحية أنه من المحتمل أن عدد المهتدين قد بولغ فيه الى حد الاسراف ، بفعل الخوف من ناحية والورع من ناحية أخرى . وكانت نسبة المؤمنين — طبقا لشهادة أوريجن التى لا يوجه اليها لوم ولا نقد — ضئيلة جدا ، اذا قورنت بمجموع عالم غير المؤمنين ، ولكن من الصعب — تبعا لافتقارنا الى معلومات واضحة — أن نحدد ، بل من الصعب حتى أن نحزر الأعداد الحقيقية للمسيحيين الأولين . ومهما يكن من أمر ، فإن أحسن تقدير يمكن استخلاصه من أمثلة أنطاكية وروما ، لا يجيز لنا أن نتصور أن عددا من جزء أكثر من عشرين جزءا من رعايا الإمبراطورية قد انضوا تحت راية الصليب قبل تحول قسطنطين ، ذلك التحول الهام الخطير الى المسيحية . ولكن يبدو أن ما درجوا عليه فى شؤون العقيدة والغيرة الدينية والاتحاد ، قد ضاعف من أعدادهم . وساعدت نفس الأسباب التى أسهمت فى ازدياد عددهم فيما بعد ، على إبراز قوتهم واكسابهم مزيدا من المهابة .

ان بناء المجتمع المدنى ليهبط بجمهرة الشعب الى مهاوى الضعة والجهل والفقر ، فى الوقت الذى تتميز فيه فئة قليلة بالثروة أو المرتبة أو المعرفة . فكانت النتيجة أن الديانة المسيحية التى خاطبت الجنس البشرى بأسره ، لا بد أن تضم تحت لوائها من المهتدين من المراتب الدنيا ، عددا أكبر بكثير منه من المراتب العليا فى الحياة . وتحول هذا الظرف البرئ الطبيعى الى اتهام كره جدا ، يبدو أن المدافعين عن العقيدة أنكروه فى جراءة أقل مما استغله أعداؤها للتحريض عليه ، وهو

أن الطائفة المسيحية الجديدة تكاد تتألف تماما من سفلة القوم ، من الفلاحين والميكانيكيين ، من الأطفال والنساء ، من المتسولين والعبيد ، وربما قدم هؤلاء الآخرون — العبيد — في بعض الأحيان ، الإرساليات التبشيرية إلى الأسرات الغنية النبيلة التي يتبعونها . هؤلاء المعلمون الخاملون (وتلك هي نفثة الحقد والكفر) كانوا يلوذون بالصمت في العلى ، قدر ما يثرثرون ويؤكدون عقيدتهم في مجالسهم الخاصة . وبينما كانوا يتحاشون في حذر المجابهة الخطيرة للفلاسفة ، كانوا يختلطون بالجمهور الأملئ الشرس ، ويتسللون إلى تلك العقول التي يجنح بها السن أو الجنس (ذكر أو أنثى) أو التعليم أحسن جنوح إلى التأثير بالارهاب الخرافى .

ان هذه الصورة القبيحة ، رغم ما تحمل من شبه طفيف ، لتنفذ بتصويرها القائم ومعالها المشوهة قلم الخصم الذى رسمها . فقد اعتنق المسيحية ، عندما انتشرت في العالم أفراد كثيرون ممن استبدوا بعض النتائج من هبات الطبيعة أو الحظ . فان ارستيد الذى وجه إلى الامبراطور هادريان دفاعا مجيدا بليغا كان فيلسوفا أثينيا . والتمس جوستين الشهيد المعرفة الالهية في مدارس زينون وارسطو ونيثاغورس وأفلاطون ، قبل أن يسعده الحظ فابتدره الرجل الشيخ ، أو بالأحرى أحد الملائكة الذى حول انتباهه إلى دراسة أنبياء بنى إسرائيل . وظفر كل من كليمنز الاسكندري وترتوليان بقراءات كثيرة ، الأول في اليونانية ، والثانى في اللاتينية ، كما حصل جوليوس الأفريقى وأوريجن على قسط كبير من التعليم في عصرهما . ورغم التباين الشاسع بين أسلوبى كل من سبريان ولكتانتىوس ، فان هذين الكاتبين كانا معلمين شغبين للبلاغة . بل ان دراسة الفلسفة دخلت أخيرا بين المسيحيين ، ولكنها لم تسفر دائما عن أحسن النتائج ، وكثيرا ما كانت المعرفة داعية إلى الهرطقة أو التدين على قدر سواء . ويمكن أن يطلق الاسم الذى لخلع على أنباع أرتيمون Artemon بنفس القدر من اللياقة ، على مختلف الشيع التى قاومت خلفاء الرسل . « أنهم يجسرون على ان يفيروا الأسفار المنزلة المقدسة ، وينبذوا القاعدة القديمة للإيمان ، ويشكلوا آراءهم وفق التعاليم الدقيقة للمنطق . وأهل علم الكنيسة سعيا وراء دراسة الهندسة . وان أبصارهم لتعمى عن السماء عندما ينصرفون إلى قياس الأرض ، وانك لتجد اقليدس دوما بين أيديهم ، وأرسطو وتيوفراستس Theophrastus موضع اعجابهم ، وكم من الاجلال والاحترام يظهرون لمؤلفات جالينوس . ان أخطاءهم صادرة عن سوء استخدامهم

لفنون الكفار وعلومهم . وانهم ليفسدون بسنطة الانجيل بتنميقات العقل البشرى » .

ولا يمكن التثبت بحق من أن مزايا المولد أو الثروة كانت دوماً بهزل عن اعتناق المسيحية . وقد مثل كثير من المواطنين الرومان أمام محكمة بليني ، وسرعان ما اكتشف أن عدداً كبيراً من الناس من كل طبقة وطائفة في بيثينيا قد نبذوا ديانة آبائهم وأجدادهم . وقد تحظى شهادته التي لا شبهة عليها ، في هذه المناسبة ، بنصيب من الثقة والتصديق أكبر من التحدى الجريء من جانب ترتوليان ، حيث يثير مخاوف البروقنصل في أفريقية ويهيب بالروح الانسانية فيه على حد سواء ، بقوله له انه بامعانه في اعمال القسوة سوف يبيد عشر أهل قرطاجة ، وسوف يجد بين المذنبين أفراداً كثيرين من مرتبته ، ومن شيوخ السيناتو ، ومن نساء أشرف الأسرات ، ومن أصدقاء أو أقرباء أوثق صحابته صلة به ، ويبدو ، على أية حال ، أن الامبراطور فاليريان؛ بعد أربعين عاماً من ذلك التاريخ ، قد اقتنع بصدق هذا الكلام . حيث يورد جراحة في أحد أوامره العالية أن بعض أعضاء السيناتو والفرسان الرومان وفضليات النساء قد اعتنقوا المسيحية ، ودابت الكنيسة على الاستزادة من بهائها الظاهري حين فقدت نقاوتها الباطنة ، وفي عهد دقلديانوس اندس سرا في القصر وفي محاكم العدل ، بل وفي الجيش ، كثير من المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة .

على أن هذه الحالات الاستثنائية إما أن تكون قليلة العدد أو حديثة العهد ، الى حد لا يمكن معه أن تزيل تماماً هذا الاتهام بالجهل أو الوضاعة الذي الصق في غطرسة زائدة بالمهتدين الأوائل الى المسيحية . وبدلاً من أن نلجأ في الدفاع الى تخيلات وأقاصيص العصور المتأخرة ، قد يكون أقرب الى الفطنة والحرص أن نحول مظنة الفضيحة والعار الى موضوع للتهذيب والتثقيف . وقد يهدين التفكير الجدى الى أن الرسل أنفسهم قد اختارهم « العناية الالهية » من بين صائدي الأسماك في « الجليل » وأننا كلما هبطنا بمستوى المسيحيين الاولين الدنيوى الى الحضيض ، توافر لنا المزيد من الأسباب الداعية الى الاعجاب بجدارتهم وتوفيقهم . انه لزام علينا الا تغرب عن أذهاننا قط مملكة السماء ، فقد وعد بها فقراء الروح ، وأن العقول التي تتوالت عليها المصائب وابتليت باحتقار الناس هي التي تصغى في ابتهاج وسرور الى الوعد الالهى بالسعادة في الحياة الآخرة ، بينما — على النقيض

من ذلك — يقتنع المحظوظون بتملك هذه الدنيا . كما أن الحكماء يفرطون في الشك ويحاجسون في تفوقهم العقيم في حسن ادراكهم ومعرفتهم .

وقد نكون في حاجة الى بعض هذه التأملات لنخفف عن أنفسنا غقدان بعض الشخصيات اللامعة التي قد تبدو في أعيننا أجدر بالنعمة الالهية . ان أسماء ، سنكا ، وبليني الكبير ، وبليني الصغير ، وتاسيتوس ، وبلوتارك ، وجالينوس ، والعبد ابكتيتوس Epictetus ، والامبراطور مارك انطونينوس — ان هذه الأسماء تزين العصر الذي ازدهرت فيه ، وترفع من شأن الطبيعة البشرية . فقد أضفى كل منهم مجدا وجلالا على المكان الذي شغله في دنيا النشاط والعمل أو دنيا الفكر والتأمل على حد سواء ، ووسع البحث والدرس مداركهم المتأخرة ، ونقت الفلسفة أذهانهم من شوائب الخرافة الشعبية ، وقضوا أيامهم في البحث عن الحقيقة وممارسة الفضيلة . ولكن هؤلاء الحكماء جميعا (وهذا مثار الدهشة ومثار الاهتمام معا) ضربوا صفحا عن كمال المذهب المسيحي أو أنكره . وان أفصاحهم أو صمتهم ليشف ، بقدر سواء ، عن احتقارهم لهذه الطائفة الناشئة التي نشرت في زمانهم لواءها على الامبراطورية الرومانية . اما الذين تفضلوا منهم فذكروا المسيحيين ، فانهم اعتبروهم فئسة من المتحمسين العنيديين المتمردين الذين خضعوا خضوعا صريحا لمعتقداتهم الغامضة ، دون أن يكونوا قادرين على الاتيان بحجة واحدة يمكن أن تجذب انتباه أهل العقل والعلم .

وقد يكون من المشكوك فيه ، على الأقل ، أن هؤلاء الفلاسفة قراوا كل ما نشره المسيحيون الأولون مرارا وتكرارا دفاعا عن انفسهم وعن دينهم ، ولكنه مما يدعو الى مزيد من الرثاء أن مثل هذه القضية لم يتول الدفاع فيها محامون أعظم قدرة ، فان هؤلاء انما يكشفون عن اسفاف الشرك في حصافة وفصاحة مسرفتين ، ويستندون رحمتنا اذ يعرضون براءة اخوانهم المنكوبين وشقاءهم ، ولكنهم اذا ما رغبوا في عرض النشأة الالهية للمسيحية ، ألجأوا على النبوءات التي بشرت بظهور المسيح الحاحا أقوى بكثير مه على المعجزات التي صاحبت ظهوره . وقد تجدى حجتهم المفضلة في تثقيف المسيحي أو تحويل اليهودي ، لأن هذا وذلك يفترقان بقوة هذه النبوءات ، وبقتضيها الاجلال الورع أن يسعيا وراء معناها وراء تحققاتها . ولكن هذه الطريقة في الانتاع تفقد كثيرا من وزنها وتأثيرها اذا وجهت الى أناس لا يفهمون الشريعة الموسوية والاسلوب الرسولي . ان المعنى البسامي

للوحى العبرى المنزل ليتبخر على الأيدى غير الحاذقة ، أيدى جوستين ومن جاء بعده من المدافعين الذين لجأوا الى استخدام الأساليب المغرية والغرور المصطنع والمجازات الجامدة ، بل ان حجية هذا الوحى أو أصالته وصحته أصبحت موضع شك الأمى غير المستنير ، بفعل هذا الخليط من التلفيقات التى تتسم بالتقى ، والتقى أقحمت باسم أورفيوس Orpheus وهرمز Hermes والعراغات والمتنبئات بالغيب(١) ، على هذا الأمى ، وكأنها فى منزلة الوحى السماوى الأصل . وغالبا ما يذكرنا اقتباس هذا التدليس والسفسطة فى الدفاع عن الوحى المنزل بالسلوك المعيب الغرير للشعراء الذين يثقلون ظهور أبطالهم الذين لا ينفذ اليهم أى سلاح ، بدروع مربكة هشة لا فائدة فيها .

ولكن كيف نغفر للوثنيين ولعالم الفلسفة غفلتهم اللاهية عن الأدلة التى قدمتها « القدرة الالهية » لا لعقولهم ، بل لحواسهم ؟ ففى عهد المسيح وحواريه وتلاميذه الأوائل ، تأكدت العقيدة التى بشروا بها بكثير من الكرامات والمعجزات ، فقد استوى الأعرج على قدميه ، وعاد الي الأعمى نور عينيه ، وبرى المريض من علته ، وعاد الميت الى الحياة ، وطرد الجن والشياطين ، وكثيرا ما توقفت الطبيعة تدعيسا للكفيسة . ولكن حكماء اليونان وروما أشاحوا بوجوههم عن هذه المشاهد العجيبة ، وبدا أنهم — فى غمرة مهام حياتهم العادية ودراساتهم — لا يلقون بالا الى أية تغييرات فى التدابير الأدبية أو المادية التى تحكم العالم . ففى عصر تيبيريوس ، ساد العالم ، أو قل ولاية مشهورة فى الامبراطورية الرومانية — ظلام دامس غير طبيعى لمدة ثلاث ساعات . ولكن هذه الحادثة الخارقة التى كان يجدر أن تثير الدهشة والفضول والتقوى فى نفوس البشر ، مرت دون أن يلتفت اليها أحد فى عصر هو من عصور العلم والتاريخ . وقد وقعت هذه الحادثة فى حياة سنكا وبلينى الكبير اللذين كان مفروضا أن يعانيا النتائج المباشرة ، أو يتلقيا أول نبا لهذه المعجزة . وقد سجل كل من هذين الفيلسوفين فى مؤلف قيم ، كل الظواهر الطبيعية الكبرى ، الزلازل ، النيازك ، الشهب ، الخسوف والكسوف ، وغير ذلك مما جمعه حبهم للاستطلاع دون كلال

(١) ربما كان يصبح من السهل على الفلاسفة الذين سخرخوا من نبوءات العراغات التى هى أقدم عهدا ، أن يكتشفوا التلفيقات اليهودية والمسيحية التى كان يقتبسها الآباء فرحين منتصرين ، من عهد جوستين الى لكتانتىوس . فلما حققت هذه المقتبسات غرضها المحدد نبذت — كما نبذت فكرة « العصر الألفى السعيد » . ومن سوء الحظ أن العرافة المسيحية حددت عام ١٩٥ موعدا لم سقوط روما . أى بعد ٩٤٨ سنة من تأسيسها^{٦١}

أو ملال . ولكن كليهما أغفل ذكر أكبر ظاهرة شهدت المعين الفانية منذ بدء الخليفة . وأفرد بليني فصلا خاصا عن كسوف ذى طبيعة خارقة استمر لمدة غير عادية ، ولكنه اكتفى بوصف النقص الشاذ فى الضوء ، الذى أعقب مقتل يوليوس قيصر ، حين بدا قرص الشمس باهتا لا يتألق طوال الجزء الأكبر من السنة . وخلد بالفعل معظم الشعراء والمؤرخين فى ذلك الزمان ذكر فصل الظلام ، هذا الذى لا يمكن ، على التحقيق ، مقارنته بالظلمة الخارقة التى خيمت على الأرض عند موت المسيح .

الفصل السادس عشر (٢٥٨ - ٣١٣ م)

سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين
موقف الأباطرة • استشهاد سبريان • تنوع سياسة الاضطهاد
الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه • مرسوم جاليريوس
للتسامح

اننا اذا تأملنا جديا فى فى طهارة الدين المسيحى ، ونقاوة تعاليمه
الاخلاقية وبراعة حياة الكثرة الكثيرة ممن اعتنقوا الدين فى صدر
المسيحية وتقتشفهم وتشدهم ، لكان امرا طبيعيا بالضرورة ان نذهب
الى القول بأن مثل هذه العقيدة الخيرة المباركة كان يمكن ان يتلقاها ،
حتى العالم غير المؤمن ، بالاجلال اللائق ، وأن يقرر العلماء والمهذبون
— رغم سخريتهم من المعجزات — فضائل الطائفة الجديدة ، وأن يحمى
الحكام ، بدلا من أن يضطهدوا ، أفراد هذه الفئة الذين التزموا الطاعة
العمياء للقوانين ، ولو أنهم عزفوا عن المهام الجديدة فى الجيش والحكومة .
ولكننا ، من جهة أخرى ، اذا تذكرنا التسامح التام الذى قوبل به مذهب
الشرك وتعدد الآلهة ، ذلك التسامح الذى آمن به الناس دون تفريق ،
وتذكرنا ارتياب الفلاسفة وعدم تصديقهم ، وسياسة السناتو والأباطرة
الرومان ، اذا استرجعنا كل أولئك فى الذاكرة لوقعنا فى حيرة من الأمر ،
ولسألنا : أى ذنب جديد جناه المسيحيون ، وأى استفزاز جديد أسخط
وغاظ اللامبالاة الرفيعة القديمة ، وأية بواعث جديدة دفعت بالأمرء
الرومان الذين لم يلتقوا يوما بالا الى ألف من الديانات عاشت فى سلام
فى ظل حكمهم الوداع — دفعت بهم الى انزال أشد العقاب بأى فريق
من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لونا فريدا بريئا من العقيدة والعبادة ؟ .

ويبدو أن السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفا أشد صلابة
وأبعد عن التسامح ، لتقاوم تقدم المسيحية . وبعد نحو ثمانين عاما من

موت المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالاعدام الذى أصدر الحكم به بروتقنصل وديع مولع بالفلسفة ، بناء على قوانين سننها امبراطور اتسمت ادارته العامة بالحكمة والعدالة . وكما امتلأت صفحات الدفاع التى وجهت مرارا الى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من أن المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير وتوسلوا اليها ، حرموا وحدهم ، دون سائر رعايا الامبراطورية ، من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة . وسجلت بعناية ومائة عدد قليل من الشهداء البارزين . ومنذ الوقت الذى تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا ، لم يكن حكام الكنيسة أقل انشغالا وتيقظا الى الكشف عن قسوة مخالفاتها الوثنيين ، منهم بالاعتداء بهم فى سلوكهم . وسبيلنا فى هذا الفصل هو ان نستخلص (اذا أمكن) قليلا من الحقائق الصحيحة والطريفة معا من الركام غير المستساغ من الروايات والقصص والأخطاء ، وأن نسرد بشكل واضح معقول ، أسباب الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون الاولون ومدادها ومدتها وأهم ظروفها .

وأنه ليندر أن يكون اتباع الديانة المضطهدة ، الذين يقض الخوف، مضاجعهم ، ويهيجهم الاستياء ، وربما يلهيهم الحماس — ينذر أن يكونوا فى مزاج عقلى سليم ، يمكنهم من النقيب الهادئ أو التقدير الصادق لبواعث أعدائهم ، تلك البواعث التى كثيرا ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لأولئك الذين يقفون فى مأمن وبجناى عن نيران الاضطهاد ، وقد ذكر لسلوك الأباطرة ازاء المسيحيين الاولين ، على وجه التحديد ، سبب يبدو أنه أكثر تمويهها وأقرب احتمالا ، لأنه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها . فقد كان الملحوظ بالفعل أن الوثنام الدينى فى العالم كان يعززه فى الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها . ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها ، بلا حرج ولا غضب، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشرى ، ويحتقر بالضرورة — بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الالهية — أى لون من العبادة باعتباره ضللا ووثنية ، اللهم الا عبادته هو فحسب . وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بنفس القدر . وكانت هذه الحقوق تضيق عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة . ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية ، فان الباعث الذى حدا بحكام الرومان الى المعاملة التى لقيها منهم اليهود قد يوضح الى أى مدى تبرر الحقائق هذه التأملات ، وتؤدى الى الكشف عن الأسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية .

وسوف نشير فقط ، دون تكرار إلى ما أسلفنا بالفعل ذكره من احترام الملوك والحكام الرومان للهيكل في اورشليم ، الى أن ندمير الهيكل والمدينة ، اقترنا ، كما أعقبهما ، بكل الظروف التي تغضب الفاتحين ، ويتيح الاضطهاد الديني بأشد ذرائع العدالة الاجتماعية والأمن العام تمويهها وخداعا . فمئذ عهد نيرون حتى عهد أنطونينوس بيوس أظهر اليهود ضجيرا جديدا بحكم روما ، تجلى مرارا في أعنف المذابح والثورات . وإن العالم ليصعق لدى سماعه بأفطع أعمال القسوة البرهية التي ارتكبوها في مدن مصر وقبرص وبرقة ، حيث عاشوا في صداقة غدارة خائنة مع المواطنين غير المرتابين . وانفسا لنميل الى امتداح القصاص الشديد الرادع الذي أنزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو أن خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة الغريبة جعلت منهم أعداء الداء ، لا للحكومة الرومانية وحدها ، بل للجنس البشرى بأسره . وكان حماس اليهود يستند الى الرأي القائل بأن دفع الضريبة لسيد وثنى أمر غير مشروع لديهم ، والى الوعد الموهوم الذي استنقوه من الوحي القديم الذي لديهم ، بقرب ظهور المسيح الذي سيفتح العالم ، ويحطم أغلالهم ، ويخلع امبراطورية الأرض على أحياء السماء المقربين . وقد أعلن باركوكيباس Barchochebas الشهير نفسه مخلصهم الذي طال انتظارهم له ، وأهاب بذرية ابراهيم أن يحققوا أمل اسرائيل ، وبهذا جمع جيشا كبيرا تحدى به سلطان الامبراطور هادريان لمدة عامين .

ورغم الانتفاضات المتكررة ، زال استياء الأمراء الرومان بعد انتصارهم ، ولم تدم مخاوفهم لأكثر من فترة الحرب والخطر . وبفضل التسامح العام الذي تميز به مذهب الشرك ، وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذي تميز به أنطونينوس بيوس أعيدت لليهود امتيازاتهم القديمة ، ورخص لهم ثانية في ختان أطفالهم ، مع قيد بسيط واحد ، وهو عدم إجراء هذه العملية المميزة للعبرانيين لأى مهتد أجنبي . وسمح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب ، رغم أنهم ظلوا بعيدين عن تخوم اورشليم — بإنشاء المؤسسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها في إيطاليا وفي الولايات . وبالحصول على حرية روما ، وبالتمتع بمزايا المدينة ، على أن يكون في نفس الوقت حق الاعفاء من مناصب المجتمع الثقيلة العبء الكثيرة النفقة ، وهيا اعتدال الرومان أو احتقارهم لهذه الطائفة سندا قانونيا لإنشاء نوع من الشرطة المالية (الكنسية) وخول الحاكم الذي اتخذ مقره في طبرية ، سلطة تعيين القسوس والحواريين التابعين له وأن يمارس القضاء المحلى ، وأن يتلقى من اخوانه المبشرين هنا وهناك.

اعانات سنوية . وكثيرا ما شيدت هياكل جديدة في المدن الرئيسية في الامبراطورية . واقيمت احتفالات مهيبه عامة في ايام السبت ، او لمناسبة الصوم ، او الاعياد التي نزلت بها شريعة موسى ، او اوصت بها تقاليد الاحبار . وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة غير ملحوظة ، فلما افاقوا من علم النبوءة والغزو نهجوا منهج الرعايا المسلمين المجدين . اما كراهيتهم التي لا تهدأ للجنس البشرى ، فانها بدلا من أن تقتد في أعمال العنف والدم ، استنفدت في أعمال أقل خطرا . ولكنها أعمال تشبع رغباتهم . وانتهزوا كل فرصة للتفوق على الوثنيين في التجارة ، وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة ايدوم (Eldom ، أى الدولة الرومانية) المتفطرة .

واذ تمتع اليهود الذين نبذوا في مقت واحتقار معبودات ملوكهم واقرائهم من الرعايا ، بالحرية في ممارسة ديانتهم الانمالية غير الاجتماعية على أية حال ، فلا بد أنه كان يوجد سبب آخر عرض تلايذ المسيح لأعمال القسوة التي اعفيت منها ذرية ابراهيم . والفرق بينهما بسيط جلى ، ولكنه كان وفقا لمقاييس الأقدمين او مشاعرهم ، على أعظم جانب من الأهمية ، ذلك أن اليهود كانوا أمة ، ولكن المسيحيين فرقة أو شيعة . واذا كان طبيعيا أن تحترم كل جماعة النظم المقدسة لجيرانها ، فانه كان لزاما عليهم أن يبقوا على ملة آبائهم . ولقد فرض صوت الوحي وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع ، هذا الالتزام الوطنى . وربما أثار اليهود بادعائهم العريض تفوقهم في الطهارة والقداسة ، حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنسا كريها ممقوتسا غير نقى ، وربما كان اليهود جذيرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن الانصال بالأمم الأخرى . وربما كانت قوانين موسى مستهجرة أو عابثة ، ولكن طالما تلقاها على مر الأجيال مجتمع كبير ، فقد كان لأتباع موسى في بنى الانسان أسوة ، وفيما اقروه عامة سند ، يبرران حقهم في ممارسة ما قد يكون اجراما منهم أن يهملوه . ولكن هذا المبدأ الذى حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة في صدر المسيحية أية رعاية أو أمن . بل أن المسيحيين باعنائهم رسالة الانجيل جلبوا على أنفسهم الوزر المزعوم ، وزر جريمة غير طبيعية لا تفتقر : أنهم حلوا روابط العرف والتعاليم المقدسة ، وانتكحوا حرمة النظم الدينية في بلدهم ، واحتقروا في جرأة ووقاحة كل ما آمن به آبائهم على أنه حق أو بجلوه على أنه مقدس . كما أن هذه الردة (اذا جاز أن نستعمل هذه اللفظة) لم تكن جزئية أو محلية ، لأن المرتد التقى الذى كان يفسح من مساب مصر وسوريا كان يستنكف أن يلتبس ملجا في معابد اثينا وقرطاجة .

ونبذ كل مسيحي ، في أزراء ، خرافات عشيرته ومدينته وولايته ، ورفض جمهور المسيحيين عامة أى ارتباط بآلهة روما أو الإمبراطورية . بل بمعبودات الجنس البشرى بأسره . وعشا أكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والرأى الخاص التى هى وقف على كل فرد . ومهما دعا موقفه الى الاشتفاق ، فان حججه لم تنفذ الى عقول الفلاسفة أو المؤمنين فى دنيا الاوثان . بل ان اعتناق بعض الأفراد للشكوك بدلا من الامتثال للون العبادة المقررة ، لم يثر فى عقولهم دهشة أقل منها فيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للعبادات والزى واللغة فى وطنهم .

وسرعان ما تحولت دهشة الوثنيين الى سخط واستياء . وتعرض أتقى الناس للاتهام الجائر ولكنه الخطير ، أى الكفر والالحاد . واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على انهم مجتمع من الكفار الذين استقوا — لهجومهم البالغ على الدستور الدينى للإمبراطورية — أعنف سخط من الحكومة المدنية ، فانهم نأوا بأنفسهم (وكهم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف !) عن كل لون من ألوان الخرافة رحب به لهم فريق من أئمة الشرك فى مختلف أقطار الأرض ، كما انه لم يتضح قط أى معبود وأية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعابدهم . ولقد غابت الفكرة النقية السامية — فكرة « الكائن الأعظم » عن الادراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا فى العثور على اله روى أهد ، لا يمثّل فى صورة مجسمة أو رمز مرئى ، ولا يعبد بالأبهة المعهودة فى سكب الخمر والأعياد والمذابح والقربان . ان حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم الى مرتبة التأمل فى الوجود وفى صفات « الكائن الأول » قد أغراهم ادراكهم السليم أو زهوهم بأن يحتفظوا لأنفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفى . وكانوا أبعد ما يكونون عن اقرار أهواء بنى الانسان على أنها مقياس الحقيقة ، ولكنهم اعتبروها منبثقة عن النزعة الأصلية فى الطبيعة البشرية ، وذهبوا الى ان أى لون مألوف من العقيدة أو العبادة ، رغم التنصل من مساعدة العواس ، لا بد انه ، بنسبة ما ينتحى عن الخرافة — سيجد نفسه عاجزا عن الحد من شطحات الخيال أو أشباح التعصب . ان النظرة الوانية المستهزئة التى تغفل رجال العقل والعلم بلقائنها على الوحي المسيحى لم تجد الا فى توكيد رأيهم المتسرع واقناعهم بأن المبدأ الذى كان يمكن أن يحترموه ، مبدأ « وحدانية الله » قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة ، وأطاحت به تأملاتهم الخيالية . وانك لترى مؤلف الحوار المشهور ، الذى نسب الى لوشيان ، حين يتظاهر بمعالجة موضوع « الثلاثية » الغامض فى أسلوب من التفسير والتحقيق — تراه

يفضح جهله بضعف الادراك الانسانى ، وبالطبيعة العويصة التى لا يمكن ادراك كنهها ، طبيعة الكمال الالهى .

وقد يبدو أقل إثارة للدهشة انه يجب على تلاميذ مؤسس المسيحية ألا يوقروه بوصفه حكيما ونبيا فحسب ، بل كذلك يعبدوه على انه اله ، وكان المشركون يميلون الى اقتباس أى ركن من أركان العقيدة قد يحمل أى شبه ، مهما كان بعيدا أو ناقصا ، بالخرافات المألوفة أو بأساطير باخوس ، وهرقل ، وأسكولابيوس Aesculapius هيات خيالهم بشكل ما لظهور « ابن الله » فى صورة انسان ، ولكنهم تولاهم العجب من هجر المسيحيين لمعابد هؤلاء الأبطال القدامى الذين اخترعوا فى بداية الدنيا الفنون وسنوا القوانين ، وقهروا الطغاة والمردة الذين أزعجوا الأرض ، من أجل أن يختاروا لهدمهم الوحيد المطلق للعبادة الدينية معلما مغمورا ، وقع فى سن مبكرة ، وسط شعب متبربر ، ضحية لضغن بنى جلدته أو حقد الحكومة الرومانية . ورغض جمهور الوثنيين الذين رأوا الاحتفاظ بمزايا الحياة الدنيا وحدها ، رفضوا نعمة الحياة والخلود ، تلك النعمة التى تفوق حق التقدير التى وعد بها يسوع الناصرى جميع البشر . ولم يكف ثباته الهادئ وسط الآلام الرهيبة الاختيارية ، وبره العام الشامل وبساطته الرائعة فى عمله وفى خلقه — لم يكف كل أولئك فى نظر هؤلاء الرجال الدنيويين الماديين ليعوض عن افتقاده الشهرة والملك والنجاح ، وبينما رفضوا الاعتراف بانتصاره الهائل على قوى الظلام وقوى الدمار ، نراهم حرقوا ، أو احترقوا ، الولد المبهم للمنشئ الالهى للمسيحية وحياته المتجولة ، وميتته الشائنة .

ولقد بولغ الى اقصى حدود المبالغة فى الجسرم الذى ارتكبه كل مسيحى فى ايثاره عاطفته الخاصة على الديانة الوطنية ، وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم . ومن المعروف جيدا ، وقد لاحظ بالفعل ، أن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد القلق والريبة الى أية رابطة تقوم وسط رعاياها ، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة فى أضيق الحدود ، وفى تقدير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيرة بعيدة عن الأذى والضرر . ولكن الجمعيات المسيحية التى انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة . فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب ، ولم ير الأباطرة أنهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرموا — حرصا على سلامة المجتمع — هذه الاجتماعات السرية والليلية أحيانا . لقد

عكس تمرد المسيحيين التقى الورع على سلوكهم ، أو ربما على خططهم ، ضوعا بدا للناظرين منذرا بخطر أشد واجرام أفدح . وفي بعض الأحيان حاول الأمراء الرومان — الذين أجازوا لأنفسهم أن يلقوا بسلاحهم ، اذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانقياد ، مقدرين أن شرفهم متعلق بتنفيذ أوامره — حاولوا بالعقوبات الرادعة أن يخضعوا هذه الأزواج الاستقلالية التي اعترفت في جراحة ، بسلطان يسمو على سلطان الحاكم . وبدا أن اتساع مدى هذه المؤامرة الروحية واستطالة مدتها ، جعلها يوما بعد يوم أحق بلومه وسخطه . ولقد رأينا بالفعل كيف أن غيرة المسيحيين الجادة الموفقة قد أدت الى انتشارهم ، بشكل غير ملحوظ ، في كل ولاية ، بل على الأغلب في كل مدينة في الامبراطورية . وبدا أن المهتدين الجدد أنكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا في عصابة موحدة لا تنفصم عراها ، تشكل مجتمعها خاصا معيننا اتخذ في كل مكان طابعا مغائرا لساير البشر . وأدخل مظهرهم العبوس المتشدد ، وعزوفهم عن الأعمال والمباهج المشتركة في الحياة ، وتبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحقة — كل أولئك ، أدخل في روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم عن هذه الطائفة الجديدة التي هي أشد ازعاجا كما أنها أشد غموضا . وكما قال بليني « مهما يكن من أمر المبدأ الذي يحكم سلوكهم ، فإن عنادهم الذي لا يلين ولا ينثنى بدا جديرا بالعقاب » .

وألمى الخوف والضرورة ، في البداية ، تلك الاحتياطات التي لجأ اليها تلاميذ المسيح في إقامة شعائر دينهم ، ولكنهم استمروا عليها طواعية واختيارا . وتوهم المسيحيون أنهم — باقتدائهم بالكتمان العجيب الذي كان يحوط « الأسرار الأليوسية » Eleusinian Mysteries (احتفالات دينية كانت تقام في الربيع قديما بمدينة اليوسيس في اليونان) — قد يضيفون على نظمهم المقدسة مزيدا من الاحترام في أعين العالم الوثني . ولكن هذا التصرف — كما يحدث غالبا في عمليات السياسة الحاذقة — خدع أمانيهم وآمالهم . فقد استنتج أنهم إنما حجبوا فقط عن الانظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلا لاخفائه . فان فطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد أن يخترع ، وللساذجة المرتابسة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التي نعتت المسيحيين بأنهم أشر البرية ، وأنهم كانوا في خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم أخط الخيال ، ويلتمسون رضا الههم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة أخلاقية . وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض أو سرد أنبائها . فقليل على وجه التأكيد أن « طفلا حديث الولادة مغطى تماما بالدقيق ، كان يعرض — وكأنه رمز روحاني للدخول

في الأخوية المسيحية — لسكين المهتدي الجديد الذي يهوى به فيثخن على غير هدى الضحية البريئة لخطاياها بكثير من الجروح الخفية القاتلة ، حتى اذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القاسي ، شرب المجتمعون الدم ، ومزقوا الاوصال المرتعدة في شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر الى الأبد ، شاعرين شعورا متبادلا بالذنب . كما قيل بنفس القدر من التأكيد ، ان هذه التضحية غير الانسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برعوسهم وتؤفظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى اذا حانت اللحظة المقررة اطفئت الأنوار فجأة ، وخلعوا عذار الحياء وتناسوا الطبيعة ، واختلط الحابل بالنابل ، ولوثوا سواد الليل بارتكاب أشنع الفواحش : الاخوة مع الاخوات ، والأبناء مع الأمهات « (١) .

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لازالة حتى آفة الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل . ومن ثم يعمد المسيحيون — في اطمئنان جرىء الى براءتهم — الى الاستعانة من ظلم الشائعات بانصاف الحكام ، فيقررون أنهم يكونون جديرين بأشد العقاب . اذا أقيم أى دليل على الجرام التي ألصقتها بهم الوشائيات . أنهم يتعجلون العقاب . ويتحدون البيئة ، وفي نفس الوقت يعترضون بشدة ، وببنفس القدر من الصدق واللياقة ، بأن الاتهام ليس أقل بعدا عن الاحتمال ، منه تجردا من الحجة والبرهان ، ويتساءلون عما اذا كان هناك من يصدق أن تعاليم الانجيل النقية المقدسة التي غالبا ما تحد من التمتع بأكثر المتع مشروعية ، تصرف الذهن الى اقتراف أبغض الآثام ، وأن مجتمعا كبيرا يعمد الى تلطيخ شرفه في أعين أعضائه ، وأن جمعا كبيرا من الجنسين من مختلف الأعمار والأخلاق ، لا يتأثر بالخوف من الموت أو الفضيحة ، فيمنهك جرمة المبادئ التي نقشتها الطبيعة والتفصيل في عقولهم مثل النقش في الحجر . وقد يبدو أنه ليس شئ يمكن أن يضعف من قوة أو من اثر مثل هذا التبرير الذي لا يستطيع نقضه ، اللهم الا السلوك الغرير لأولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين ، ارضاء لبعضهم المروع لأعداء الكنيسة المحليين . وقيل — تلميحا دلفينا نارة ، وتوكيدا جريئا تارة أخرى — ان هذه الضحايا الدهوية

(١) لسا في حاجة الى القول بان هذا وراء بشع صوره خيال دنيء كافر بالقيم الانسانية ، وربما كان أجدر بالوثنية ، والمسيحية منه براء بلا ريب . وكما عانت المسيحية والاسلام من ايذاء الملحدن بالقول والعمل . وقد اثبتناه لمجرد الامانة في النقل . (المترجم)

وهذه الأعياد الفاحشة ، التى نسبت زورا وبهتاناً الى المؤمنين الأرثوذكس - كان يحتفل بها الماركونيون Marcionites والكربكراتيون Carpocratians وغيرهم من شيع الغنوصيين (اللا أدريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين ، وتحكمهم تعاليم المسيحية ، رغم أنهم ربما انزلقوا الى مهاوى الهرطقة . كما الصق بالكنيسة اتهامات من مثل هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها ، وقد اعترف فى جميع الأحوال بأن أشد السلوك فجوراً . كان يسود الأنواج الكبيرة التى تظاهرت باعتناق المسيحية . وربما سهل على الحاكم الوثنى الذى لم يؤث فسحة من الوقت أو شينا من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذى يفصل بين الصراط المستقيم وبين الهرطقة - سهل عليه أن يتصور أن البغضاء المتبادلة بينهم هى التى أزاحت الستار عنوة عن جرائمهم المشتركة . وكان من حسن حظ المسيحيين الأولين - من أجل طمأنينتهم ، أو على الأقل سمعتهم - أن تصرف الحكام اتسم أحياناً بمزيد من اللياقة والاعتدال أكثر مما يتأتى مع الغيرة الدينية ، وقالوا - كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية - أن الطوائف التى تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخلصة فى عقائدها ، وأنه لا غبار على سلوكها ، مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بحرأفتها المسرفة الحمقاء .

موقف الإباطرة من المسيحيين

ان التاريخ الذى يأخذ على عاتقه تسجيل أحداث الماضى لتكون عبرة وتوجيهاً للأجيال القادمة ، لا يستحق شرف هذه المهمة ، اذا تنازل مدافع عن قضية الطفليان ، أو برر منهج الاضطهاد . ومهما يكن من أمر ، فإنه يجب الاعتراف بأن سلوك الإباطرة الذين بدا أنهم أظهروا أقل العطف على الكنيسة الأولى ، ليس ، بأي حال من الأحوال ، فى مثل القدر من الاجرام الذى يقسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والارهاب ضد الآراء الدينية التى اعتنقها بعض رعاياهم . وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس أو لويس الرابع عشر ، بوحى من تأملاتهم أو من مشاعرهم الخاصة ، معرفة صادقة بحقوق الضمير أو بالتزامات العقيدة ، أو ببراءة الخطأ . ولكن أمراء روما القديمة وحكامها كانوا غريباء على هذه المبادئ التى ألهمت وعززت عناد المسيحيين الذى لا يلين ، فى قضية الحقيقة ، كما أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتبينوا فى أعماق صدورهم أى باعث كان من

الجائز أن يدفعهم الى رفض الخضوع المشروع ، بل الطبيعى ، للنظم المقدسة فى بلادهم ، وكان نفس السبب الذى يساهم فى تخفيف جريمة اضطهاداتهم ، لابد وأنه اتجه الى الحد منها . ولما كانوا يصرون ، لا عن غير المتعصبين العنيفة ، بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلا بد أن العصيان كثيرا ما أرحى ، وأن الروح الانسانية الطيبة غالبيا مما عطلت تنفيذ تلك القوانين التى سنوها ضد اتباع المسيح الأذلاء المغمورين . وطبيعى أن نخلص من النظرة العامة الى أخلاقهم وبواعثهم الى :

- ١ — أنه قد مضى زمن طويل قبل أن يتبينوا أن الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة .
- ٢ — وأنهم فى ادانة أى من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة ، تصرفوا فى حذر وعلى كره منهم .
- ٣ — وأنهم كانوا معتدلين فى استخدام العقوبات .
- ٤ — وأن الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء . وعلى الرغم من الاستهتار العقيم المهمل الذى مالج به أغزر الكتاب الوثنيين مادة ، وكذا أدقهم فى التفاصيل فى شئون المسيحيين ، فإنه سيظل فى مكتنا أن نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة .

١ — اقتضت حكمة « العناية الالهية » أن تسدل على طفولة الكنيسة الأولى حجابا غامضا ، أفلح — حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين — فى وقايتهم ، لا من شر دنيا الوثنية فحسب ، بل حتى مجرد معرفتها بهم . فقد زود الالفاء المتدرج المائى للطقوس الموسوية أول الداخلين فى شريعة الانجيل بقناع آمن برىء ، ولما كان معظمهم من عشيرة ابراهيم ، فإنهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهى الختان ، وقاموا بعباداتهم فى معبد اورشليم حتى دمر تدميرا نهائيا ، وتقبلوا « الشريعة » والرسل على أن الجميع تنزىل أصيل من عند الله . أما الأميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل اسرائيل نتيجة اختيار روى ، فقد كان يصعب تمييزهم ، وهم فى زى اليهود ومظهرهم ، ولما كان اهتمام المشركين بأركان العقيدة أقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة ، فإن الطائفة الجديدة التى أخفت فى عناية تامة ، أو أعلنت اعلانا خافتا عن عظمتها وأطماعها المستقبلية ، سمح لها أن تظلل نفسها بظل التسامح العام الذى كان ممنوحا لشعب قديم

مشهور في الامبراطورية الرومانية . وربما لم يمض وقت طويل قبل أن يدرك اليهود أنفسهم ، وقد تملكهم غيرة أشد ضراوة ، وأثارهم إيمان أشد حقا ، أن اخوتهم النصارى ينفصلون تدريجيا عن عقيدة الكنيس اليهودي ، وربما طاب لهم أن يطفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بدماء أتباعها ! ولكن قضاء السماء أحبط كيدهم . ورغم أنهم عمدوا في بعض الأحيان الى التمرد المفاجيء ، فانهم لم يعودوا يملكون زمام القضاء الجنائي ، كما لم يكن من السهل عليهم أن ينفثوا في صدر الحاكم الروماني الهادي سخائم غيرتهم وكراهيتهم . وأعلن حكام الولايات أنهم على استعداد للاستماع الى أى اتهام من شأنه أن يضر بالسلامة العامة . ولكنهم حالما كانوا يعرفون أن المسألة مسألة كلام ، لا حقائق ، ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم ، كانوا يعتبرون أنه لا يليق بمكانة روما وعظمتها أن يبحثوا بحثا جديا في الخلافات الغامضة التي قد تنشأ بين شعب متبربر يؤمن بالخرافات . وكأني بالجهل والاحتقار كانا يحميان براءة المسيحيين الأولين . وكثيرا ما ثبت أن قضاء إحاكم الوثني كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودي . ولو كنا ننجح حقا الى تبني تقاليد القدامى السذج الاغرار ، لسردنا الجولات النائية والمنجزات العجيبة التي قام بها الرسل أو الحواريون الاثنا عشر ، والميعة المختلفة التي لقيها كل منهم ، ولكن الاستقصاء الذي هو أكثر دقة قد يدفع بنا الى الارتياح في أن واحدا من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهودا على معجزات المسيح ، قد أذن له فيما وراء حدود فلسطين أن يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته (١) . ومن الطبيعي أن نفترض ، تبعا للأجل العادي لحياة الانسان ، أنهم قضوا نحبهم قبل أن ينفجر سخط اليهود في تلك الحرب الضروس التي لم يضع لها حدا الا تدمير أورشليم . فاننا طوال هذه الحقبة الطويلة التي انقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن نستطيع أن نتبين أى آثار لتشدد الرومان أو عدم تسامحهم ، اللهم الا في هذا الاضطهاد المفاجيء العابر ، ولكنه كذلك القاسي ، الذي أذاقه نبيرون للمسيحيين في العاصمة ، بعد خمس وثلاثين سنة من سابقه ، وقبل عامين من ثانی هذين الحدثين الجسيمين ، وان شخصية المؤرخ الفيلسوف الذي ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ ، لتكفي وحدها لتجعله أهلا لدراستنا الواعية .

(١) افنصر شرف الاستشهاد في أيام ترتوليان وكليمز السكندري على القديس بطرس والقديس بولس والقديس يوحنا . وقد أسبغ هذا الشرف على بقية الرسل الاغريق الذين هم أحدث عهدا ، والذين اختلفوا فطنة وحرصا منهم ، بلدا نائيا عن حدود الامبراطورية الرومانية ليكون مسرحا لعظمتهم وآلامهم .

ففى السنة العاشرة من حكم نيرون أصيبت العاصمة بحريق اندلع فى شدة لم يعرف لها فى التصور الخوالى نظير أو مثال . ولم تنج من الدمار الشامل آثار من اليونان وقوة الرومان والأنصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال ، وأقدس المعابد ، وأفخم القصور . ومن الأحياء الأربعة عشر التى كانت تضمها روما ، سلم أربعة فقط ، ومضى منها ثلاثة محوا تماما أما الأحياء السبعة الباقية التى تلظت فى سمير النيران ، فقد كشفت عن منظر مفجع حزين للخراب والوحشة . ولا يبدو أن يقظة الحكومة لم تغفل اتخاذ أية احتياطات لتخفف من أثر هذه الكارثة الرهيبة . ففتحت الحدائق الإمبراطورية أبوابها للجمهور المنكوبة ، وشيدت بعض المباني المؤقتة لايوائهم ، ووزعت كميات كبيرة من القمح والمؤن بأسعار معتدلة . وبدأ أن أكرم سياسة قد أهلت القوانين التى حددت فتح الشوارع وإقامة المساكن الخاصة — وكما يحدث عادة فى أيام الرخاء — وأنتج حريق روما فى بضعة سنين قلائل ، مدينة جديدة ، أدق نظاما وأوفر جمالا من سابقتها . ولكن كل الفطنة والروح الإنسانية اللتين تظاهرا بهما نيرون لم تنقذه من شكوك الشعب ، فان أية جريمة يمكن أن تلصق بقائل زوجته وأمه ، كما يستحيل الظن بأن الأمير الذى أساء الى شخصه وإلى مكانته يعجز عن ارتكاب أشنع الخطايا . واتهمت الإشاعات الإمبراطور بحرق عاصمته عمدا ، ولما كانت أبعد القصص عن التصديق هى التى تلتئم أكثر ما يكون اللاتمام مع عبقرية الشعب فى سورة غضبه ، فقد ذكر فى أسلوب جاد لا هزر فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ ، بأن نيرون الطروب للكارثة التى أحدثها ، تسلى على قناترته بأنسوذة تدمير طروادة القديمة . وصمم الإمبراطور على الصاق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التى عجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها . ويتابع تاسيتس حديثة فيقول : « وعلى هذا الأساس أنزل (نيرون) أشد ألوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا — تحت اسم المسيحية القبيح (فى رأى نيرون) — قد وصموا فعلا بأشنع العار ، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذى لقى حتفه فى عهد تيبريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطى . وأخذت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ، ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت ، لا فى أرض الميعاد وحدها ، وهى الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة ، بل كذلك وصلت الى روما ، وهى الملاذ العام الذى يتلقى ويحصى كل ما هو ملوث مهما كان تلوثه ، وكل شئ فظيع مهما بلغت فظاعته . وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركاء كثيرين لهم ، وادينا جميعا ، بتهمة كراهيتهم للجنس البشرى ، أكثر منهم بنهمة اشمال

النار في المدينة . وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السباب والسخرية من حرارة التعذيب . ودق بعضهم بالمسامير على الصلبان ، وخيط آخرون في جلود الحيوانات المتوحشة ، وتركوا لنهم الكلاب ، وصب على بعضهم مواد محرقة ، وأوقدت فيهم النار ، واستخدموا كمشاعل تضيء حلقة الليل . وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صاحبه سباق الخيل ، والذي شرف بحضور الإمبراطور الذي اختلط بالشعب في زى وهيئة قائد عجلة حربية . واستحققت جريرة المسيحيين في الواقع أقصى عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم ولكن المقت العام تحول الى أشفاق ، استنادا الى أن التضحية بهؤلاء الأثقياء التعمساء لم تكن من أجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود « . وقد يلحظ كل الذين يستعرضون ثورات الجنس البشرى بنظرات خاصة مدققة أن حدائق وملعب نيزون في الفاتيكان ، تلك التي لطخت بدم المسيحيين الأولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء استغلالها . ففي نفس البقعة ، ومن ذاك العهد ، أقيم معبد يفوق الروعة القديمة للكابيتول بكثير ، أقامه أحبار المسيحية الذين استمدوا دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع في « الجليل » فاعتلوا عرش القياصرة ، وسنوا القوانين لفزاة روما المتبربرين ، وبسطوا ولايتهم من ساحة البلطيق الى شواطئ المحيط الهادى .

وقد لا يكون من اللائق أن نترك اضطهاد نيرون دون ابداء بعض ملاحظات قد تكون مفيدة في تذكيل بعض المشاكل التي اقترنت به ، والقاء بعض الضوء على التاريخ اللاحق للكنيسة .

(أ) ان أكثر النقاد تشككا مضطر الى احترام صدق هذه الحقيقة الشاذة ونزاهة هذه القطعة المشهورة التي كتبها تاسيتس . أما الحقيقة فقد أكدها سويتونيوس Suetonius اليقظ الدقيق الذي أورد ذكر العقوبة التي أنزلها نيرون بالمسيحيين ، وهم طائفة من الناس اعتنقوا خرافة (عقيدة) جديدة آثمة . أما النزاهة فقد تثبتتها مطابقة الحقيقة لأقدم المحفوظات ، والخاصية الفريدة المنقطعة النظير لأسلوب تاسيتس ، وسمعته التي حصنت كتاباته ضد دس الاحتيال الورع ، وفحوى روايته التي اتهمت المسيحيين الأولين بأبشع الجرائم دون الاعياز بأنه كانت لهم قوى معجزة أو حتى سحرية تفوقوا بها على سائر البشر .

(ب) ورغم أنه يحتمل أن يكون تاسيتس قد ولد قبل حريق روما ببضع سنوات قلائل ، فإنه كان من الميسور له من قراءاته وأحاديثه

أن يستقى معلوماته عن حادث وقع في طفولته . وكان قبل أن يظهر للناس ويذيع صيته بينهم ، قد انتظر في هدوء وسكون حتى بلغت مبقرته ذروة النضج ، وكان قد جاوز الأربعين من عمره حين انصت مع التقدير والامتنان لذكريات أجريكولا الفاضل ، وانتزع منه أولى البواكير التاريخية في مؤلفاته التي قد تطيب لأبعد الأعقاب والذرائى مطالعتها ، والتي تثقف هؤلاء الأعقاب والذرائى . وبعد أن امتحن قوته وقدرته في تدوين حياة أجريكولا ، وفي وصف ألمانيا ، فكر في النهاية في أنجاز عمل أكثر مشقة ، هو « تاريخ روما » في ثلاثين جزءا ، من سقوط نبيرون إلى اعتلاء نرفا العرش . وبدأ بحكم نرفا عصر من العدالة والازدهار ، خصصه تاسيتس ليكون شغله الشاغل أيام شيخوخته ، ولكنه لما دقق النظر في موضوعه — وربما ارتأى أن تسجيل مساوىء الطفلة السابقين مهمة أكثر شرفا وأقل إثارة للحسد والبغضاء من تمجيد فضائل الملك الحاكم — اختار أن يسرد على هيئة حوليات — أعمال الخلفاء الأربعة المباشرين لأوغسطس . وكان جمع سلسلة تغطي ثمانين عاما وتبويبها وتدبيجها في مؤلف خالد ، تنوء كل عبارة فيه بأعمق الملاحظات وأروع الصور — كل أولئك كان عبئا كافيا لاستنفاد عبقرية تاسيتس نفسه في الجزء الأكبر من حياته . وفي أخريات حكم تراجلان حين بسط الملك الظالم سلطان روما فيها وزاع حدودها القديمة ، كان المؤرخ يصف طغيان تيبيريوس في الكتابين الثانى والرابع من حويلاته ، ولابد أن الإمبراطور هادريان كان قد تبوأ العرش قبل أن يتمكن تاسيتس — في المدى الطبيعى لانجاز عمله — من رواية حريق الفاصمة وقسوة نبيرون ضد المسيحيين التمساء . وكان من واجب كاتب الحوليات ، وقد مضى على حادث الحريق ستون عاما أن يقتبس رواية المعاصرين ، ولكن كان من الطبيعى أن ينصرف الفيلسوف إلى وصف نشأة الطائفة الجديدة وتقدمها وأخلاقتها ، على ألا يستند إلى معلومات عصر نبيرون وما ساد من آراء متحيزة ، قدر استناده إلى عصر هادريان .

(ج) وكثيرا ما يترك تاسيتس الفضول ثرائه أو تأملهم ، مهمة استيفاء الظروف أو الأفكار الوسيطة أو المتداخلة التي ارتأى هو في إيجازه الحل أنه من الالىق كتمانها . ومن ثم قد نجترىء فنتصور سببا محتملا لقساوة نبيرون ضد المسيحيين فى روما ، الذين كان ينبغي أن يكون لهم من غموضهم وبراءتهم سياج يحميهم من سخطه ، بل من علمه بوجودهم . على حين كان اليهود ، وهم كثرة فى العاصمة ، وهم يقاسون الظلم ألوانا فى بلدهم ، أكثر أهلية لأن يكونوا هدفا لشكوك

الامبراطور والشعب ، كما أنه لم يكن من غير المتوقع لامة مقهورة اكتشفت بالفعل مقتها للنير الروماني ، أن تعتمد الى أبشع الوسائل لأرضاء شهوة الانتقام المتقدة في قلوبهم . ولكن اليهود كانوا يملكون ناصية دفاع قوى جدا في القصر ، بل حتى في قلب الطاغية ، أعنى زوجته ومحظيته ، بوبيا Poppa الجميلة ، ولأعجب أثر من قوم ابراهيم ، استخدمها بالفعل شفاعتهما لمصلحة الشعب الكريه . وكان لزاما أن تقدم بدلا من هذا الشعب اية ضحايا أخرى . وكان من أيسر اليسير أن يقال — رغم براءة الاتباع الأصلاء لشریفة موسى من وزر حريق روما — أنه قد ظهرت بينهم طائفة جديدة خبيثة من أبناء الجيل ، فئة قادرة على اقتراف أبشع الجرائم . واختلط تحت اسم « الجليليين » (أبناء الجليل) طائفتان متميزتان من الناس ، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى كل الاختلاف في سلوكها ومبادئها : التلاميذ الذين اعتنقوا عقيدة يسوع الناصرة — والمتعصبون الذين اتبعوا مذهب يهوذا الجليلي ، وكان الاولون أصدقاء الجنس البشري ، والآخرين أعداءه . ويتركز الشبه الوحيد بينهما في الجلد الذي لا ينثنى ، الذي جعلهم لا يتأثرون بالموت أو التعذيب في دفاعهم عن قضيتهم . ولم يلبث أتباع يهوذا الذين حركوا بنى جلدتهم الى التمرد والمصان — لم يلبثوا أن دفنوا تحت أنقاض اورشليم ، بينما انتشر أتباع يسوع الذين عرفوا بالاسم الأكثر شهرة : « المسيحيون » في مختلف أرجاء الامبراطورية . فكم كان طبيعيا أن ينسب تاسيتس ، في عصر هادريان ، الى المسيحيين جرائم وآلما كان يمكن أن يلصقها ، بدرجة أكبر من الصدق والعدل ، بطائفة كادت أن تخبو ذكراها المقيتة ! .

(د) ومهما كان الرأي في هذا الحدس والتخمين (لأنه لا يعمدو أن يكون كذلك) فمن الواضح أن أثر اضطهاد نيرون ، مثله في ذلك مثل سببه — لم يتعد جدران روما ، وأن عقيدة الجليليين أو المسيحيين لم تتخذ قط موضوعا للعقاب أو حتى للتحقيق ، وأنه ، لما كانت فكرة الآلهة قد ارتبطت لفترة طويلة بفكرة القساوة والجور ، فإن اعتدال الأمراء المتعاقبين حدا بهم الى الإبقاء على طائفة عانت من ظلم طاغية اتجه حنقه عادة ضد الفضيلة والبراءة .

وقد يكون من الغريب ، الى حد ما ، أن نيران الحرب التهمت ، في نفس الوقت تقريبا هيكل اورشليم وكابيتول روما ، ولا يبدو أقل غرابة أن الجزية أو الاتاة التي كان الجماس الديني قد خصصها الأول حولتها قوة فاتح منتصر لاعادة بناء الثاني وتميخته . فقد فرض الأباطرة

ضريبة رأس عامة على الشعب اليهودى ، ورغم أن المبلغ المفروض على الرأس كان تافها ، فإن وجه انفاقه والصرامة في جمعه ، اعتبرنا حيفا لا يحتمل . ولما جاوز مأمورو الدخل الحد وطالبوا بغير حق كثيرا من الأشخاص الغرباء على الدم اليهودى والديانة اليهودية ، كان من المستحيل على المسيحيين ، وهم الذين كثيرا ما استظلوا بظل الكنيس ، أن ينجوا بأنفسهم من الاضطهاد الوحشى الجشع . وكان حرصهم شديدا على اجتناب أية شبهة وثنية ، فأبت عليهم ضمائرهم أن يسهموا في تكريم ذلك الشيطان الذى تقمص شخصية جوبيتر فى الكابيتولين . ولما كانت فئة كبيرة ، ولو انها فى طريق الاضمحلال ، بين المسيحيين ، ظلت ملتزمة بشريعة موسى ، فإن جهودهم فى ستر منبتهم اليهودى قد مضى الاختبار الحاسم ، الا وهو الختان ، على حين لم يكن لدى الحكام الرومان مسحة من الوقت لاستقصاء أوجه الخلاف بين مبادئهم الدينية . ومن بين المسيحيين الذين جئ بهم امام الامبراطور ، أو على الاصح محكمة الحاكم فى أرض الميعاد ، وجد اثنان قليل انهما — فيما يبدو — يتميزان بكرم المحتد ، وانهما يفوقان بحق أعظم الاباطرة شرفا ونبلا . وكان هذان الشخصان حفيدى القديس يهوذا الرسول . من أشياع يسوع المسيح (وهو غير يهوذا الاسخريوطى) . وربما جذبت دعواهم الطبيعية بحقهم فى عرش داود احترام الشعب ، وأثارت حقد الحاكم ، ولكن وضاعة ملابسهم وبساطة اجاباتهم ائقنتاه فى الحال بأنهما لا يرغبان ، بل ولا يستطيعان ، تكدير صفو الهدوء فى الامبراطورية الرومانية ، وقد اعترفا صراحة بأصلهما الملكى ، وبقرابتهما القريبة للمسيح ، ولكنهما تنصلا من أية مطامع دنيوية ، كما قررا أن ملكوته الذى ارتقباه فى لهفة ، انما هو من طبيعة روحية ملائكية خالصة . فلما سئلا عن ثروتهما ومهنتهما ، كشفا عن أيديهما التى اخشوشنت بفعل كدحهما اليومى ، واعلنا انهما يكسبان قوتهما من فلاح مزرعة قرب كوكبه Cocaba ، تبلغ مساحتها اربعة وعشرين فداناً . انجليزيا ، وتبلغ قيمتها تسعة آلاف درهم (ثلثمائة جنيه استرلينى) . ومن ثم أخرج حفيدا القديس يهوذا مشيعين بالانشقاق والازدراء .

ولكن ، على الرغم من أن وضاعة آل داود ، ربما جاز أن تخيمهم من شكوك الطاغية ، فإن عظمة أسرته الحالية أزعجت مزاج درميتيان الجبان ، الذى لم يهدىء من روعه الا دم أولئك الرومان الذين شافهم أو كرههم أو احترمهم . فسرعان ما أخذ أكبر ابنى عمه نسلافيوس سابينوس بتهمة الخيانة ، اما أصغرهما ، وكان اسمه نلافويوس كليمز فتد كان مدينا بسلامته الى افتقاره الشجاعة والمقدرة . واختص

الامبراطور لفترة طويلة بحبه وحمايته ابن صومته هذا الذي لا يقدم على اية اساءة أو اذى ، وخلق عليه ابنة اخيه ، وكان اسمها دوميتيلا Domitilla وتبنى الأطفال الذين أثمرهم هذا الزواج ، على أمل أن يخلّفوه على العرش ، ومنح أباهم مرتبة القنصل ، ولكنه لم يكد ينهى فترة حكمه ، ومدتها عام ، حتى أدين لادعاء تافه وأعدم . ونفيت دوميتيلا الى جزيرة مقفرة على ساحل كمبانيا . وصدرت الأحكام بالاعدام أو مصادرة الاموال على عدد كبير من الأشخاص الذين اشتركوا في نفس التهمة ، أما الجريمة التي نسبت اليهم فهي « الإلحاد » والتشبه بأخلاق اليهود ، وهو ترابط فريد لا يمكن تطبيقه بحال من الاحوال إلا على المسيحيين ، حيث كان الحكام والكتاب في ذاك الزمان يرونهم بشكل غامض معيب . وبمقتضى قوة هذا التفسير المحتمل ، وتلفها على التسليم بأن شكوك الطاغية تعتبر شاهدا على ذنبها المشرف ، وضعت الكنيسة كلا من كليمنز ودوميتيلا في عداد شهدائها الأوائل ، ودمغت قساوة دوميتيان باسم الاضطهاد الثانى . ولكن هذا الاضطهاد (اذا استحق أن نسميه اضطهادا) لم تطل مدته . ذلك أنه بعد بضعة أشهر من موت كليمنز ونفى دوميتيلا ، أعدم ستيفن - وهو رجل معتق ، كان من خدم الأخيرة ، حظى بعطفها ، ولم يكن من المحقق انه اعتنق عقيدة محظيته - أعدم الامبراطور في قصره . وأدان السناتو ذكرى دوميتيان ، وأبطلت قوانينه ، وأعيد من نفاهم . وفى ظل الادارة الوادعة على عهد نرفا ، بينما نرى الأبرياء قد استعادوا مراكزهم وثوراتهم ، نجد أن أكبر المجرمين قد حصلوا على العفو أو هربوا من العقاب .

٢ - وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام ، في عهد تراجان ، عهد الصديق والسيد ، الى بلينى الصغير . بحكم بيثينيا وبنطس ، وسرعان ما وقع الحاكم في حيرة من أمره : أية قاعدة من قواعد العدل أو القسانون يتخذها أساسا لسلوكه في ممارسة مهام وظيفة هي أبغض ما تكون الى روحه الانسانية . ولم يكن بلينى قد اشترك قط في اجراءات قضائية ضد المسيحيين الذين يبدو أنه لم يعرف عنهم الا مجرد اسمهم ، ولم يصل الى علمه شيء عن طبيعة جريمتهم ، وأسلوب اتهامهم ، ودرجة عقوبتهم . وعاد ، في غمرة هذه الحيرة ، الى مألوف طريقته ، وهى أن يرفع الى حكمة تراجان بيانا نزيها متجردا ، ومن بعض الوجوه لطيفا ، عن الخرافة (العقيدة) الجديدة ، ملتصقا من الامبراطور أن يتفضل فيبدد شكوكه او يجبر جهله . لقد قضى بلينى حياته في طلب العلم والانشغال بأمور الدنيا ، فقد توافع بامتياز منذ سن التاسعة عشرة في محاكم روما ،

وشغل مقعدا في السناتو ، وتقلد منصب القنصل ، وكون علاقات كثيرة مع كل طبقات الناس في ايطاليا وفي الولايات . ومن ثم يمكن أن نستخلص من جهله بعض المعلومات المفيدة . فيمكن أن نوقن بأنه عندما قبل حكومة بيثنيا ، لم تكن هناك قوانين أو مراسيم عامة من السناتو ، نافذة المفعول ضد المسيحيين ، وأنه لا تراجان ، ولا أحد من أسلافه الأفاضل — ممن كانت أوامرهم العالية تصدر فيما يتعلق بالقضاءين المدني والجنائي — أعلن بصراحة عن اتجاهاتهم أو مقاصدهم فيما يتعلق بالطائفة الجديدة ، وأنه مهما كان من إجراءات اتخذت ضد المسيحيين ، فإنه لم يكن من بين هذه الإجراءات شيء ذو قيمة وقوة يصلح معها ليشكل سابقة توجه سلوك أي حاكم روماني .

ويكشف جواب تراجان ، ذلك الجواب الذي كثيرا ما لجأ اليه المسيحيون في العصر التالي — يكشف عن احترام كبير للعدالة والانسانية ، مما تمكن الملامحة بينه وبين أفكاره الخاطئة عن السياسة الدينية . وبدلا من الكشف عن الغيرة الشديدة التي لا تقنى من « محقق » متلفه على استيضاح أدق تفاصيل الهرطقة ، نرى الامبراطور يعبر عن رغبة وقلق من أجل حماية أمن الأبرياء أشد كثيرا منه للحيلولة دون افلات المجرمين . وأنه ليعترف بالصعوبة في تحديد خطة عامة ، ولكنه يضع قاعدتين مفيدتين غالبا ما كان فيهما غوث وتدعيم للمسيحيين المنكوبين . فإنه رغم توجيهاته الى الحكم بان يعافوا الأشخاص الذين أدينوا قانونا ، يحرم عليهم ، في تناقض رحيم جدا ، التحقيق مع المجرمين المشتبه فيهم ، كما انه لم يكن مرخصا للحكام في أن يتخذوا اجراء بشأن كل بلاغ أو اخبارية تصل اليهم ، كما أن الامبراطور يرفض الاتهامات الغفل من الأسماء باعتبارها منافية لمبادئ الانصاف في حكومته ، ويطالب بشدة وفي اصرار ، لادانة من تلصق بهم تهمة المسيحية ، بدليل ايجابي من مدع عادل يعلن عن اسمه . ومن المحتمل كذلك أن هؤلاء الأشخاص الذين تولوا هذه المهمة المثيرة للبغضاء ، كانوا ملزمين بالافصاح عن أسس شكوكهم ، وتفصيل (زمان ومكان) هذه الجمعيات السرية التي تردد عليها اعداؤهم المسيحيون ، واماطة اللثام عن الظروف التي أخفيت بمنتهى الحقد الحذر عن أعين الكفار المدنسين ، فإذا افلحوا (أي المخبرين) في رفع الدعوى ، تعرضوا لسخط فئة كبيرة من الناس ، ولوم الفئة التي هي أكثر تحمرا ، والملتقى الذي يلام شخصية المخبر أو المبلغ في كل زمان ومكان . وعلى النقيض من ذلك ، اذا أخفقا في إقامة الأدلة حبلوا على أنفسهم عقوبة صارمة ، وربما كانت عقوبة الاعدام ، التي كانت تنزل — طبقا لقانون

أصدره هادريان — بأى شخص ينسب زورا وبهتانا جريمة المسيحية الى زملائه المواطنين . وربما طغى عنف الضغائن الشخصية أو الخرافية (العفائية) على أشد الخوف الطبيعي من العار أو الخطر . ولكن لا يمكن على التحقيق أن يتصور أن الرعايا الوثنيين في الامبراطورية الرومانية عمدوا ، فى قليل أو كثير ، الى هذه الاتهامات التى لا يبدو أنها تبشر بالخير .

ان الوسيلة التى استخدموها للاغلات من حصانة القانون ، لتقدم دليلا كافيا على مدى الفعالية التى أحبطوا بها كل الخطل الشريرة المنبثقة من الحقد الشخصى أو الغيرة الخرافية ، وان روادع الخوف والعار المفروضة تسرا على الأفراد فى الجماعة الكبيرة الساحبة لتفتقد الجزء الأكبر من تأثيرها . وترقب المسح، اتقى الذى رغب فى الحصول على شرف الاستشهاد أو فى الافلات منه — ترقب وقد نفذ صبره أو تملكه الرعب — الموعد المحدد لعودة الألعاب والأعياد المسامة ، وكان سكان المدن الكبرى فى الامبراطورية ، فى مثل هذه المناسبات ، يتجمعون فى الملعب أو المسرح حيث كان كل مشهد من مشاهد المكان أو الاحتفال يساعد على اذكاء روح النسك والتمدد أو اخماد الروح الانسانية فيهم ، وبينما أسلم جمهور النظارة — وهم يضعون أكاليل الغار على رؤوسهم وقد تطيبوا بالبخور ، وتطهروا بدم القرايين ، تحيط بهم مذابح وتمائيل معبوداتهم الحارسة — بينما أسلموا أنفسهم للتمتع بهذه المسرات التى اعتبروها جزءا أساسيا من عبادتهم ، تذكروا أن المسيحيين وحدهم مقتوا آلهة بنى الانسان ، وانهم يتخلفهم عن حضور هذه الاحتفالات المهيبة ، أو شعورهم بالحزن اذا شهدوها ، بدوا وكأنهم يسيئون الى الابتهاج العام أو يرثون لسه . واذا ألمت بالامبراطورية أية كارثة حديثة : طاعون ، مجاعة ، حرب غير موفقة ، أو اذا فاضت مياه النيل على جوانبه ، أو لم يأت فيضان النيل ، أو زلزلت الأرض أو اختل النظام اللطيف فى تعاقب الفصول — اذا حدث شئ من ذلك ، اقتنع الوثنيون المؤمنون بالخرافات بأن كفر وجرائم المسيحيين الذين أبقي عليهم افراد الحكومة فى الرفق واللين ، هى التى استنزفت العدالة الالهية آخر الأمر . وما كانت أساليب الاجراءات القانونية لتراعى وسط جمهور ناجر غاضب ، وما كان صوت الاشفاق والرحمة ليسمع فى مدرج ملطخ بدماء الحيوانات الكاسرة والمجاندين . واكن مسيحات الجمهور الجزوع توعدت المسيحيين بأنهم أعداء الالهة والناس ، وقضت عليهم بأشد العذاب ، وبلغت بهم الجراة الى التسدد . وجيه الاتهام بالاسم الى نفر من المع أفراد الطائفة الجديدة ، وطلبوا،

في سورة غضبهم الذي لا يقاوم بالقبض عليهم والقائم الى السباع .. وكان حكام الولايات الذين تصدروا الاحتفالات العامة يميلون عادة الى ارضاء نزعات الشعب وتهدة خواطره ، بتقديم بعض الضحايا البغيضة ، ولكن حكمة الأباطرة عصبت الكنيسة شر هذه الإهانات الصاخبة والانتهاكات الشاذة التي عابوا عليها بحق أنها منافية لقواعد الحزم ولبادئ الانصاف في حكمهم . ونصت مراسيم هادريان وأنطونيوس بيوس على أن صوت الجماهير لا يجوز أن يسلم به كدليل قانوني لادانة أو عقاب أولئك الأشخاص التعساء الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية .

٣ — ولم تكن العقوبة هي النتيجة المحتومة للادانة ، ذلك أن المسيحيين الذين ثبتت جرائمهم ثبوتا قاطعا بشهادة الشهود . أو حتى باعترافهم الاختياري ، ظل في مكنتهم هم أنفسهم أن يستبدلوا الحياة بالموت ، فان الجرم السابق لم يكن يثير سخط الحاكم ، قدر ما تثيره المقاومة الفعلية ، فقد أيقن أنه إنما قدم لهم عفوا ميسورا ، حيث أنهم — اذا ارتضوا وضع بعض حبات البخور على المذبح — كانوا يغادرون ساحة المحكمة في امان واستحسان . فقد قدر أن من واجب القاضي الرحيم أن يصلح ويهذب أكثر من أن يعاقب ويعذب هؤلاء المتحمسين المخدوعين . وكان يبدل من نبرات صوته ، تبعا لأعمار السجناء أو جنسهم (ذكر أو أنثى) ومراكزهم ، وغالبا ما يتلطف معهم ، فيبسط أمام أعينهم كل ما يمكن أن يجعل الحياة أكثر متعة وسرة ، أو يجعل الموت أكثر فزعا ورهبة ، ويطلب منهم ، لا بل يتوسل اليهم ، أن يستشعروا شيئا من الرحمة بأنفسهم وبأسراتهم ، وبأصدقائهم ، فإذا لم تنجح التهديدات والمغريات نفعا عاد الى استعمال العنف ، وأتى بالسوط والمخلعة (أداة استعملت للتعذيب قديما) ليموضا عن عجز الجدل وال المناقشة ، واستخدمت كل ألوان القسوة لاختضاع هذا العناد الذي لا يلين ، أو كما بدا للوثنيين العناد الاجرامى . وعاب المدافعون القدامى عن المسيحية ، بنفس القسور من الصدق والعنف . على مضطهديهم سلوكهم الشاذ ، الذي أقر التعذيب خلافا لكل مبادئ العدالة والاجراءات القضائية ، لا من أجل الحصول على اعتراف من يحقون معهم ، بل لحملهم على انكار الجريمة موضوع التحقيق ، وكثيرا ما ابتدع رهبان العصور اللاحقة الذين تسالوا في خلواتهم الهادئة بتعداد وفيات وآلام الشهداء الأوائل — ابتدعوا صنوفا من العذاب أكثر تهديبا وبراعة . وجدير بالذكر أنه قد طالب لهم أن تذهب بهم المظنون الى أن غيرة الحكام الرومان ، استخفانا منهم بكل فضيلة اخلاقية

وبآداب اللياقة العامة ، حاولوا أن يفسقوا بمن اخفقوا فى اخضاعهم ،
وانهم أمروا بممارسة أشد الوان التعذيب مع من استحال عليهم أن
يئثروا منهم شيئا من ذلك . ويروى أن النسوة الفاتنات اللاتي تهيأن
لاستعذاب الموت ، تعرضن أحيانا لامتحان أشد وأكثى ، حيث كان
يطلب اليهن أن يحددن أيهما أكبر عندهن قيمة : دينهن أم عفتن .
وحرض القاضى أيما تحريض أولئك الشباب الذين أسلم هؤلاء النسوة
لأحضانهم الفاجرة ، على بذل أقصى الجهد للانتقام لمجد فينوس (ربة
العشق والجمال عند اليونان) رغم أنف هؤلاء العذارى الملحدات
اللاتي رفضن احراق البخور فى مذبحها . ولكن غالبا ما أحبط عنف
هؤلاء الشباب ، على أية حال ، حيث تدخلت فى الوقت المناسب قوة
خارقة معجزة فعصمت فتيات المسيح الطاهرات العفيفات من العار ،
حتى ولو أكرهن على الاستسلام أكرها . ولكن يجدر بنا فى الواقع
الا نغفل الإشارة الى أن أقدم وأصدق سجلات الكنيسة قل أن تلوثت
بمثل هذه الأفاقيص المسرفة الشاذة (١) .

ودعا الى هذا الاغراق فى اغفال الحقيقة ، وترجيح وقوع هذه
الاستشهادات الأولى خطأ طبيعى جدا . ذلك أن كتاب الكنيسة فى
القرنين الرابع والخامس نسبوا الى حكام روما نفس القدر من الغيرة
الطاغية التى لا تلين ولا تنتنى ، والتى أوغرت صدورهم ضد الهراطقة
أو الوثنيين فى أيامهم . وليس بمستبعد أن يكون بعض هؤلاء
الأشخاص الذين تبوعوا مناصب الامبراطورية قد أشربوا تعصب
الشعب ، وأن تكون النزعة الى القسوة قد استثارتها فى آخرين بواعث
الجشع أو الاستياء الشخصى (٢) . ولكنه من المحقق - ويمكن الرجوع
فى هذا الى اعترافات المسيحيين الأولين التى تفيض بالشكر - أن
الأغلبية العظمى من هؤلاء الحكام الذين مارسوا فى الولايات سلطة
الاباطرة أو سلطة السناو ، والذين وضع فى أيديهم وحدهم أمر التحكم
فى الحياة والموت ، سلكوا مسلك رجال تحلوا بآداب رفيعة مهذبة
وتلقوا تعليما متحررا ، واحترموا قواعد العدالة ، وكانوا على اطلاع
واسع بببادئ الفلسفة ، وكثيرا ما نبذوا المهمة البغيضة ، الا وهى
مهمة الاضطهاد ، وأسقطوا الاتهام فى احتقار ، أو أوعزوا الى المسيحي

(١) يروى لنا جيروم فى كتابه « أسطورة بولس الناسك » قصة غريبة لشاب قيد
بالأغلال عاريا فى فراش من الأزار ، وبأغنته غانية جميلة لعب ، فما كان منه الا أن
قضم لسانه ليخمد جذوة الشهوة بين ضلوعه .

(٢) استفز اعتناق زوجة كلوديوس هرمينيانوس Claudius Herminianus حاكم
كبادوكيا للمسيحية ، الى معاملة المسيحيين بقسوة غير عادية .

المتهم ببعض الحيل القانونية التى يمكن بها الافلات من صرامة القانون . وكانوا اذا خولوا حرية التصرف - استغلوها في نجدة الكنيسة المنكوبة وفي مصلحتها أكثر كثيراً منها في البطش أو التنكيل بها . وكانوا بعيدين كل البعد ، عن الحكم على كل المسيحيين المتهمين الذين يمثلون أمام محكمتهم ، وبعيدين جداً عن الحكم بالاعدام على أولئك الذين أدينوا بالتعلق العنيد بالخرافة (العقيدة) الجديدة ، اكتفاء منهم ، في معظم الأحوال ، بالمقوبة الأخف : السجن ، النفي ، السخرة في المناجم ، وتركوا لمضحايا قضائهم البائسة فرصة التعلق بالأمل في مناسبة سعيدة مثل ارتقاء امبراطور إلى العرش أو زواجه أو انتصاره ، مناسبة يصدر فيها عفو عام يعجل بعودتهم تسيرتهم الأولى . أما الشهداء الذين نفذ فيهم الحكام الرومان حكم الاعدام فوراً ، فانه يبدو أنهم أخفروا من بين فئتين على طرفى نقيض . فكانوا إما من بين الأساقفة والمشايع ، وهم أبرز الأشخاص وسط المسيحيين بحكم مراتبهم ونفوذهم ، من الذين يلقي أمثالهم الرعب في قلوب الطائفة بأسرها ، أو أخط وأحقر المسيحيين وبخاصة أولئك الذين اتسمت معيشتهم بالذل والاستعباد ، ممن قدر أن حياتهم غير ذات قيمة ، ومن نظر الأقدمون إلى آلامهم وشقائهم بأكبر قدر من الاستهتار والاغفال . ويعلن العلامة أوريجن ، وهو الواسع الاطلاع على تاريخ المسيحيين بحكم خبرته وقراءاته ، يعلن في أجلى بيان أن عدد الشهداء كان قليلاً جداً . وقد تكون حجته وحدها كافية لحض القول بوجود هذا الجيش العرمرم من الشهداء الذين أخذت رفاتهم ، في معظم الأحوال من قبور روما ، وزخريها كثير من الكنائس (١) . والذين كانت أعمالهم الخارقة موضوع مجلدات كثيرة

(١) اذا تذكرنا أن كل العامة في روما لم يكونوا مسيحيين ، وأن كل المسيحيين لم يكونوا قديسين أو شهداء ، لا يمكن الحكم إلى أى حد من الطمأنينة كانت الأمجاد الدينية تضافى على العظام أو زجاجات الرماد التى كانت تؤخذ دون تمييز من المقابر العامة . وبعد عشرة قرون من عمل حر صريح نارت بعض الشكوك في أوساط الكاثوليك ، وخاصة الأكثر علماً منهم ، فانهم يتطلبون الآن ، كدليل على القداسة والاستشهاد ، وجود الحرفين ب . م . (B.M.) أو قارورة مليئة بسائل أحمر يظن أنه دم ، أو صورة نخلة . ولكن العلامة الأولى ليست لهما قيمة كبيرة ، أما عن العلامة الأخيرة فقد لاحظ النقاد : (١) أن صورة النخلة - كما يسمونها ، ربما كانت شجرة السرو ، وربما كانت مجرد نقطة (للوقف) ، أو التمتعق بالشولة (،) في النقوش الأثرية . (٢) أن النخلة كانت رمز النصر عند الوثنيين . (٣) أنها تستخدم عند المسيحيين كشعار الاستشهاد فقط ، بل صفة عامة لبعث بهيج .

- جداً من القصص الدينى (١) ، ولكن تؤكد أوريجن العام قد « توضحه وتميزه الشهادة الخاصة لصديقه ديونيسيوس ، الذى يعد ، فى مدينة الاسكندرية الضخمة ، وفى ظل اضطهاد ديسيوس العنيف ، يعد عشرة رجال وسبع نساء شقوا باعترافهم بأنهم مسيحيون .

استشهاد سبريان

وطوال نفس فترة الاضطهاد هذه ، تولى سبريان ، الفيور البليخ الطموح ، أمر الكنيسة ، لا فى قرطاجة وحدها ، بل حتى فى أفريقية بأسرها ، وكان يتحلى بكل خصلة تجعله موضع احترام المؤمنين أو تثير شكوك الحكام الوثنيين وحنقهم ، وبدا أن شخصية هذا الحبر المقدس ومركزه يميزانه بأنه أبرز هدف للحقد والخطر . وأن التعرف على حياة سبريان ليكفى ، على أية حال ، للتدليل على أن خيالنا قد بالغ فى خطورة موقف أى أسقف مسيحى ، وأن الأخطار التى كان يتعرض لها أقل من تلك التى تنتهى الاطماع الدنيوية لمواجهتها فى السعى وراء أمجاد الحياة . فقد هلك بحد السيف أربعة من أباطرة الرومان مع أسراتهم وخلصاتهم واتباعهم فى مدى عشر سنوات ، قاد فى أنثائها ، أسقف قرطاجة ، بسلطته وبلاغته ، مجالس الكنيسة الأفريقية . أما سبريان ، فلم يكن أمامه ثمة شئ يخشاه ، اللهم الا فى السنة الثالثة من ولايته ، ولبضعة شهور قلائل لحسب ، حين أوجس خيفة من مراسيم ديسيوس الصارمة ، وتيقظ الحكام ، وصيحات الجماهير التى دوت مطالبة بوجوب القاء سبريان زعيم المسيحيين الى السباع ، وارتأت الفطنة ضرورة الانزواء المؤقت . وكان الامثال لهاتف الفطنة ، فانسحب الى معزل مجهول ، استطاع منه أن يكون على اتصال دائم برجال الدين والشعب فى قرطاجة . وباختفائه حتى هدأت العاصفة استطاع أن يبقى على حياته ، دون أن يتخلى عن سلطته أو شهرته . ولكن حرصه الشديد لم ينبج ، على أية حال ، من لوم المسيحيين الذين كانوا أكثر تشدداً ، والذين رثوا لهذا السلوك ، أو من تأنيب أعدائه الشخصيين الذين عابوه وسبوه حيث اعتبر هؤلاء وأولئك سلوكه تخلياً جبائلاً أما عسناً أقدر واجب . وكانت الأسباب التى ساقها لتبرير سلوكه أنه رأى من

(١) قد نكتفى ، كنموذج لهذه الأساطير ، بأن عشرة آلاف من الجنود صلبهم تراجان أو هادريان فى يوم واحد فوق جبل أدرات . ويقال إن اللفظ المختصر (Mil) الذى قد يدل على عدد « ألف » ، أو على « الجنود » قد سبب بعض أخطاء غير عادية .

الأوفى أن يدخر حياته لما تقتضيه حاجة الكنيسة في المستقبل ، وأنه اقتدى في ذلك بكثير من الأساقفة المقدسين ، وأنه — كما صرح هو بذلك — إنما فعل ذلك امتثالا للتنبيهات الإلهية التي تلقاها في رؤياه ومنامه وفي غيبوبته واستغراقه . ولكن أحسن اعتذار يمكن أن نجده في الثبات البهيج الذي لاقى به الموت في سبيل الدين ، بعد ذلك بنحو ثماني سنوات . وقد سجل تاريخ استشهاده في صراحة ونزاهة غير عاديتين ، ومن ثم ، قد يكفى اقتباس قطعة صغيرة من أهم مشاهدته لتزويدنا بأوضح المعلومات عن روح الاضطهادات الرومانية وأساليبها .

عندما كان فاليريان تنصلا للمرة الثالثة ، وجالينوس للمرة الرابعة، دعا باثرنوس ، بروقنصل أفريقية ، سبريان للحضور الى قاعة مجلسه المخصوص ، وهناك أطلعه على الأمر الإمبراطوري الذي كان قد تلقاه آنذاك ، بأنه يجب على الذين نبذوا الديانة الرومانية أن يعودوا من فورهم الى ممارسة طقوس آبائهم وأجدادهم . فاجاب سبريان دون تردد بأنه مسيحي وأنه أسقف متمسك بعبادة الاله الواحد الحق . الذي يرفع اليه كل يوم تضرعاته وابتهالاته من أجل سلامة ورخاء الإمبراطورين ، مليكيه الشرعيين . وفي ثقة وتواضع التمس أن يمنح حق المواطن في الامتناع عن الإجابة عن بعض الأسئلة المثيرة ، وفي الحقيقة ، غير القانونية ، التي وجهها اليه البروقنصل . وصدر الحكم بالنفي عقابا لعصيان سبريان ، وسيق دون إبطاء الى كوروبيس Curubis وهي مدينة حرة بحرية في زيوجيتانا Zeugitana ، ذات موقع جميل وسط أرض خصبة على مسافة نحو أربعين ميلا من قرطاجة . وقد تمتع الأسقف المنفى براحة الحياة ونعيم التقوى . وطبقت شهرته آفاق أفريقية وإيطاليا ، ونشرت قصة مسلكه رغبة في الاشارة بذكر العالم المسيحي ، وكثيرا ما قطعت عليه خلوته رسائل المؤمنين وزياراتهم وتهانيهم له . وبدأ لبعض الوقت ، بوصول بروقنصل جديد الى الولاية ، أن حظ سبريان قد يتخذ طريقا أوفى ، فقد استدعى من منفاه ، ورغم أنه لم يكن سمح له بعد بالعودة الى قرطاجة ، فقد خصصت لاقامته بساتينه المجاورة للعاصمة .

وأخيرا ، وعلى التحديد بعد عام من القبض على سبريان لأول مرة، تلقى جاليريوس مكسيموس بروقنصل أفريقية أمرا إمبراطوريا بأعدام الفقهاء المسيحيين . وكان أسقف قرطاجة يحس بأنه سيكون من أوائل الضحايا ، فأغراه خور الطبيعة بأن ينجو بنفسه ، بالنهار سرا ، من خطر الاستشهاد وشرفه ، ولكنه سرعان ما استرد الصلابة التي

اقتضتها شخصيته وعاد الى بساتيته ، مترقبا ، في صبر وجلد ، وصول
 رسول الموت . ووضع ضابطان كبيران مكفان بهذه المهمة — وضعنا
 سبريان بينهما في عربة ، ولما كان البروقنصل ساعته مشغولا ، فقد
 قاداه — لا الى السجن — بل الى دار خاصة كان يملكها أحدهما في
 قرطاجة . وأعد عشاء فاخر احتفاء بالأسقف ، وسمح لأصدقائه
 المسيحيين أن يتمتعوا بصحبته لآخر مرة ، على حين ازدحمت الشوارع
 بجموع المؤمنين ، قلقين جزعين لدنو مصير أبيهم الروحي . وفي الصباح
 مثل أمام محكمة البروقنصل الذي أحيط علما باسم سبريان وموقفه ،
 فأمره بتقديم قربان ، والحل عليه في تدبر عواقب عصيانه . ولكن رفض
 سبريان كان حازما حاسما ، ونطق الحاكم بعد أن أخذ رأى المجلس
 بحكم الإعدام وهو كاره ، وهذا نصه : « ان تاسيوس سبريانوس يجب
 أن تضرب عنقه فوراً ، بوصفه عدواً لآلهة روما ، ورئيس وزعيم رابطة
 أثيمة ، حرصها على المقاومة الملحدة لقوانين أقدس إمبراطورين
 » فاليريان وجالينوس » ، وكانت طريقة التنفيذ اللطيف وأقل ما يمكن
 إيلاها بالنسبة لشخص أدين بجريمة عظيمة ، كما أنه لم يسمح بتعذيب
 أسقف قرطاجة لحمله على إنكار عقيدته أو الكشف عن شركائه .

وعندما أعلن الحكم . تعالت على الفور صيحات جموع المسيحيين
 الذين احتشدوا للاستماع اليه أمام أبواب القصر ، وهم يهتفون « لا بد
 أن نموت معه » . ولكن نفثات غيرتهم ومحبتهم لم تكن ذات نفع
 لسبريان ، أو ذات خطر عاينهم أنفسهم ، واقتيد في حراسة عدد من
 التربيون وضباط المائة دون أن يتقاوم أو تبدر منه أية أساءة ، الى ساحة
 الإعدام ، في سهل فسيح منبسط بالقرب من المدينة ، مكتظ بالنظارة ،
 ورخص لمشايخه وشمامسته المخلصين بمصاحبة أسقفهم المقدس ،
 فعاونوه في خلع رداءه الخارجى ، وفرشوا على الأرض ملاء من الكتان
 لينلقوا عليها شيئا من دمه الغالى ، واستمعوا الى أوامره بمنح الجلاد
 خمسا وعشرين قطعة ذهبية ، وعندئذ غطى الشهيد وجهه بيديه ،
 وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده ، وبقي جثمانه لبضع ساعات
 معرضا لأنظار الأميين ، ولكنه نقل في الليل وحمل في موكب ظافر وفي
 أضواء باهرة الى مدافن المسيحيين ، واحتفل بجنائز سبريان احتفالا
 عاما دون أى تدخل من جانب الحكام الرومان ، بل ان الأشخاص
 المسيحيين الذين قاموا باتمام الواجبات الدينية لشخصه ولذكراه كانوا
 بمأمن من خطر التحقيق معهم أو عقابهم . ومما تجدر الإشارة اليه أن
 سبريان من بين العدد الكبير من الأساقفة في ولاية أفريقية ، كان أول
 من قدر بأنه جدير بأن ينال شرف الاستشهاد .

ولقد ترك لسبريان الاختيار بين أن يموت شهيدا أو يعيش مرتدا ، ولكن على اختياره كان يتوقف الشرف أو العار . وإذا ذهب بنا الظن الى أن أسقف قرطاجة - سبريان - قد استخدم اعترافه بالعقيدة المسيحية مجرد أداة لجشعه أو طمعه ، لظل لزاماً عليه أن يدعم الشخصية التي انتحلها ، وأن يعرض نفسه ، إذا أوتى شيئا يسيراً من عزيمة الرجال لأشد ألوان العذاب ، خيراً من أن يستبدل ، في تصرف وأحد من تصرفاته ، بشهرة العمر مقت أخوته المسيحيين واحتقار الكفار الأميين ، ولكن إذا كانت لغيره سبريان ركيزة قوية من الاقتناع الخالص بصدق المبادئ التي بشر بها . فلا بد أن شرف الاستشهاد بدا له موضوع رغبة لا رهبة . وليس من السهل أن نستنبط أية أفكار واضحة من كتابات الآباء المؤثرة الغامضة رغم فصاحتها ، أو تؤكد درجة العظمة والسعادة الخالدتين اللتين وعدوا بهما عن ثقة أولئك الذين أسعدهم الحظ باراقة دمائهم في سبيل الدين ، وقد لقنوا الناس ، في يقظة مقبولة أن حرارة الاستشهاد عوضت كل نقیصة ومحت كل خطیئة ، وأنه بينما كان لزاماً أن تمر أرواح المسيحيين العاديين بعملية تطهير بطيئة البية ، دخل المعذبون (المستشهدون) الظافرون مباشرة الى النعيم الخالد ، حيث ساروا مع المسيح ، وبرفقة الآباء والرسل والأنبياء ، وشاركوا بوصفهم معاونيه ، في المحاكمة العامة للجنس البشري . وقد أفلح التبشير الأكيد بخلود الشهرة على الأرض ، وهو باعث بهيج حبيب الى الطبيعة الانسانية ، أفلح في استحثاث شجاعة الشهداء . وليست الأمجاد التي أسبغتها روما أو أثينا على المواطنين الذين سقطوا من أجل وطنهم الا مظاهر جامدة عقيمة للاحترام والاجلال ، اذا قورنت بالتقدير والاخلاص اللذين أظهرتهما الكنيسة الأولى لأبطال العقيدة المنتصرين . واعتبر الاحتفال السنوى بذكرى فضائلهم وآلامهم ، لونا من الطقوس المقدسة ، وانتهى الأمر بهم الى العبادة الدينية ، ومن بين المسيحيين الذين اعترفوا علنا بمبادئهم الدينية ، ظفر أولئك الذين لفظتهم محاكم الحكام الوثنيين أو سجونهم (كما حدث كثيرا) ، ظفروا من الأمجاد بما هو جدير عدلا باستشهادهم الناقص وثباتهم الكريم . والتمس ألقى النسوة السماح لهن بطبع قبلة على القيود التي كن مكبلات بها ، وعلى الجروح التي أثخت بها أجسادهن . ورفعهن الناس الى مصاف القديسات . وتقبلوا قراراتهن باحترام . ولكنهن ، بزهوهن الروحي وسلوكهن المعيب ، كثيرا ما أسان استخدام المكانة السامية

التي أضفتها عليهن الغيرة والبسالة (١) . ان مثل هذه المفارقات تبرز
 الخصال الكريمة والشيم الحميدة ، ولكنها في نفس الوقت تكشف عن
 العدد الضئيل لأولئك الذين شقوا أو قضوا نحبهم من أجل المسيحية .
 ان الادراك الرشيد في عصرنا الحاضر أكثر استعدادا ليعيب على
 المسيحيين الاولين غيرتهم أكثر من أن يعجب بها ، ولكن الاعجاب بها
 أهون عليه من محاكاتها ، فهؤلاء هم الذين كانوا ، على حد التعبير
 الجميل الذي استخدمه سبكيوس وسيفيروس *Suspicius Severus*
 كانوا أكثر تلهفا على الموت في سبيل الدين ، من تلهف معاصريه على
 منصب الأسقف . ان الرسائل التي كتبها اجناطيوس ، وهو يرسل في
 الأغلال عبر مدن آسيا لتفيض بأسوأ ما تعافه الأحاسيس العادية
 للطبيعة الانسانية . وانه ليهيب بالرومان ، ألا يجرموه — عند تعريضه
 للوحوش في المدرج — من تاج المجد ، بتدخلهم الرحيم الذي يجيء
 في غير أوانه ، ويعلن تصميمه على استفزاز واهاجة الوحوش التي قد
 تستخدم أدوات لقتله . وثمة قصص تروى عن شجاعة نفر من الشهداء
 وفوا بالفعل بما كان يعتزمه اجناطيوس ، فأهاجسوا غيظ الأسود ،
 واستنصوا الجلاد على انجاز مهمته ، وقفزوا في غبطة وابتهاج الى
 النيران التي أشعلت لالتهامهم ، وغرهم شعور من الجذل والانشرعاع
 وسط أشد ألوان التعذيب . وهناك أمثلة كثيرة لا تزال باقية عن أناس
 ضاقوا ذرعا بتلك القيود التي فرضها الإباطرة من أجل أمن الكنيسة
 وسلامتها ، فتطوع المسيحيون أحيانا بالاعلان عن أنفسهم اذا عز وجود
 من يوجه اليهم الاتهام ، وأزعجوا الموظفين المدنيين الوثنيين أيما أزعاج ،
 واندفعوا في جموع جاشدة حول محاكم الحكام الرومان ، يستصرخونهم
 أن ينطقوا بحكم القانون وينفذوه . وكان سلوك المسيحيين أبرز من أن
 تخطئه أنظار الفلاسفة القدامى ، ولكن يبدو أنهم أعجبوا به أقل كثيرا
 مما عجبوا له . ولما كانوا عاجزين عن ادراك البواعث التي طلحت
 بثبات المؤمنين أحيانا الى ما وراء حدود الروية أو العقل ، فانهم نظروا
 الى هذا التشوق الى الموت على أنه نتيجة غريبة ليأس قاتل ، أو جمود
 كالح أو خبل خرافي ، وصاح البروقنصل أنطونيوس في مسيحيي آسيا
 متعجبا : « أيها الرجال التعساء ! أيها الأشقياء ! اذا كنتم سئتم
 الحياة الى هذا الحد ، فهل يصعب على الواحد منكم أن يجد حبلا
 يشنق به نفسه وجدثا يواريه ؟ » وكان — (كما لاحظ مؤرخ عالم تقى)

(١) تضاعف عدد من زعموا أنهم شهداء ، نتيجة التقليد الذي درجوا عليه ، وهو
 إطلاق هذا اللقب الكريم على كل من يتعرف بالدين .

محاذرا غاية الحذر من معاقبة أناس لم يجدوا من يتهمهم الا انفسهم .
لأن القوانين الامبراطورية لم تتضمن مادة لمثل هذه القضية غير المتوقعة،
فأصدر حكمه على نفر قليل منهم ليكونوا عبرة لآخوانهم ، وطرد الجموع
الحاشدة في استياء واحتقار . وعلى الرغم من هذا الازدراء الصادق
أو المصطنع ، فإن هذا الثبات الشديد الذى تحلى به المؤمنون كانت له
نتائج أبعد اثرا في تلك العقول التى هياتها الطبيعة أو السباحة لتقبل
الحق الذى أتى به الدين ، في يسر وهودة . وفي مثل هذه المناسبات
الحزينة ، كم من الأميين الكفار أشفق على من حكم عليهم ، وأعجب
بهم ، وتحول الى ديانتهم المسيحية ، فقد انتقل هذا الحماس الكريم من
المعذبين الى المتفرجين ، وأصبح دم الشهداء على حد ما جاء في تعليق
مشهور نواة الكنيسة ! .

تأوع سياسة الإرهاب .

وعلى الرغم من أن التميد رفع من حرارة تلك الحمى التى انتابت
العقول ، واستمرت البلاغة تزيدها التهابا ، فانها أفسحت المجال ،
بطريقة غير ملحوظة ، للأمال والمخاوف التى هى أقرب الى طبيعة قلب
الإنسان ، وطبيعة حبه للحياة ، وخشيته من الألم وفزعته من الموت .
ووجد أكثر حكام الكنيسة فطنة وتبصرا ، انفسهم مضطرين الى
أن يكبحوا جماح هذه الحماسة الطائشة في اتباعهم ، والا يثقلوا في
هذا الوفاء الذى كثيرا ما هجرهم عند الامتحان ، ولما قل في الحياة
القشوف وقمع الشهوات ، قل في الناس الطموح الى الاستشهاد ، يوما
بعد يوم ، وكثيرا ما تخلق جند المسيح عن واقعهم ، بدلا من أن
تشهرهم أعمالهم البطولية الاختيارية ، وفروا على غير هدى أمام العدو
الذى كان لزاما عليهم أن يتصدوا له . وكانت هناك ، على أية حال ،
أساليب ثلاثة للفرار من جحيم الاضطهاد ، لم تدمع كلها بنفس القدر من
المعصية ، وقد اعتبر أولها في الواقع اسلوبا بريئا بصفة عامة ، أما
الثانى فقد اكتنفه الشك ، أو قل أنه قابل للغفران . ولكن الثالث
اندلوى على ردة صريحة آثمة عن عقيدة الكنيسة .

١ - قد يدهش « المحقق » في عصرنا الحديث ، إذ يسمع أنه اذا
نمى الى علم أى حاكم روماني أن شخصا في دائرة ولايته قد انضم الى
الطائفة المسيحية ، كانت التهمة تبلغ الى المتهم ، وكانت تترك له فسحة

من الوقت لتسوية شئونه الخاصة ، وأعداد جواب عن التهمة التي الصقت به ، فإذا ساوره شيء من الشك في تجلده ، هيأت له هذه المهلة فرصة الإبقاء على حياته وشرفه بالهرب ، فرصة اللجوء الى مكان مجهول أو ولاية نائية ، والتذرع بالصبر انتظارا لعودة الهدوء والطمأنينة . وسرعان ما أقرت نصائح أقدمس الأبحار والاقتداء بهم مثل هذا الاجراء الذى يتمشى مع العقل والادراك السليم . ولكن يبدو أنه قد ندد به نفر قليل ، اللهم الا المونثانيون الذين أنزلقوا الى الهرطقة نتيجة تعلقهم العنيد الشديد بصرامة النظام القديم (١) .

٢ - ان حكام الولايات الذين لم تملكهم الفيرة قدر ما سيطر عليهم الجشع ، ارتضوا عملية بيع شهادات (كانت تسمى الاقرارات) تثبت ان الشخص المذكور اسمه فيها قد امتثل للقوانين ، وأنه قدم القرايين للمعبودات الرومانية ، وبابراز مثل هذه الاقرارات الزائفة تمكن المسيحيون الأثرياء الجبناء من أن يخرسوا المخبر الخبيث ، ويوفقوا ، بشكل ما ، بين سلامتهم وديانتهم . وكان يكفر عن هذا النفاق الدنس شيء قليل من التوبة .

٣ - ووجدت في كل اضطهاد أعداد كبيرة من المسيحيين التافهين الذين نبذوا أو انكروا صراحة وعلنا العقيدة التي سبق اعتناقهم لها ، وادكروا اخلاصهم في ارتدادهم بالأعمال المشروعة ، من احراق البخور أو تقديم القرابين . واستسلم بعض هؤلاء المرتدين لدى أول تهديد أو وعيد من الحاكم ، على حين استنفذ الامعان في التعذيب هرب آخريين منهم . ونم الفزع المرتسم على بعض الوجوه عما يعتمل في أعماقهم من تراجع عن عقيدتهم دون أن يبدوا خراكا ، على حين خف آخرون في ثقة ورشاقة الى مذابح الآلهة ، ولكن القناع الذى نسجه الخوف لم يدم لأكثر من ساعة الخطر . وما أن خفت وطأة الاضطهاد حتى هرعنا جموع النادمين التائبين الى أبواب الكنائس ، يلتمسون بنفس القدر من الحماسة والحمية ، اعادتهم الى المجتمع المسيحى ، ولكن تباينت درجة نجاحهم في تحقيق ملتسمهم .

(١) يعتبر ترتوليان أن الفرار من الاضطهاد بمثابة ردة لم تقوهر كل أركانها ، ولكنها اثم كبير ، ومحاولة كافرة للهروب من ارادة الله وكتب فى هذا الموضوع رسالة مليئة بأشبع النعصب ، وبأكثر الحماس تنافرا . ومهما يكن من أمر ، فانه مما تجدر الإشارة اليه ، الى حد ما ، أن ترتوليان نفسه لم يمت شهيدا ، فلم يكابد الاستشهاد .

٤ - ورغم القواعد العامة المقررة في اتهام المسيحيين وعقابهم ، فلأبد أن يتوقف مضيرهم التي حد كبير ، ففى مثل هذه المحسنة الاستبدادية المترامية الأطراف ، على سلوكهم هم أنفسهم ، وعلى ظروف عصرهم ومزاج الحاكم الأعلى ومزاج مرعوسيه . وقد تهيج الغيرة الخرافية عند الوثنيين سورة غضبهم تارة ، ويوهن أو يخفف التروى والتبصر منها تارة أخرى . وثمة دوافع مختلفة كانت تجنح بحاكم الولاية الى تنفيذ القانون أو الى التراخى فى تطبيقه ، ومن اقوى هذه الدوافع ، اهتمامه ، لا بالقوانين العامة وحدها ، بل بالمقاصد الخفية للامبراطور نفسه ، حيث كانت نظرة منه واحدة تكفى لتستعر ناز الاضطهاد أو يخبو أوارها . وكان المسيحيون الأولون يندبون حظهم ، وربما بالغوا فى آلامهم وشقائهم ، كلما نزلت بهم بعض الشدائد فى مختلف أرجاء الإمبراطورية ، ولكن مؤرخى الكنيسة فى القرن الخامس ، الذين أوتوا من نفاذ البصيرة ما استطاعوا معه أن يتبينوا ابتسام الحظ من عثار الجد فى الكنيسة - من عهد ثيرون الى عهد دقلديانوس - وهم الذين حددوا الاضطهادات بالعدد المشهور ، وهو « عشرة » اضطهادات . وأوحت اليهم المطابقات البارة مع أحداث الطاعون « العشرة » فى مصر ، وقررون التنين « العشرة » التى ورد ذكرها فى سفر الرؤيا (Apocalypse) الكتاب الأخير من العهد الجديد) - أوحت الى عقولهم بهذا الحساب فى البداية ، ثم حرصوا ، فى تطبيقهم لصدق النبوءة على صدق التاريخ ، حرصوا على اختيار العهود التى كانت أشد عداء لقضية المسيحية . ولكن هذه الاضطهادات العابرة لم تثر الا فى بعث الغيرة واعدة النظام الى صفوف المؤمنين ، وعوضت عهود طويلة من السلام والأمن من لحظات العنف الشاذة ، وهى استهتار بعض الأمراء وأعضاء بعض آخر ، للمسيحيين فرصة التمتع بالتسامح الدينى الشامل ، تسامحا عمليا ، وربما كان غير مشروع .

وتضمن دفاع ترتوليان مثالين - قديمين جدا ، فريدين جدا ، ولكنهما فى نفس الوقت مشكوك فيهما - عن رفق الأباطرة واعتدالهم وهما المرسومان اللذان أصدرهما تيبيريوس وماركوس انطونينوس ، لا بمجرد تعزيز براءة المسيحيين فحسب ، بل حتى لابرار تلك المعجزات الفذة التى شهدت بصدق عقيدتهم . وقد اكتنف المثل الأول بعض صعاب قد تترك العقلية المتشككة . وانه ليراد بنا أن نصدق أن ييلاطس البنطى Pontius Pilateus ابلغ الامبراطور نبأ الحكم الجائر الذى أصدره ضد شخص برى يبدو أنه مقدس ، عرض نفسه للخطر دون أن ينال شرفا الاستشهاد ، وأن تيبيريوس الذى أعلن صراحة استهزاءه بكل الديانات

عقد النية على الفور على ادراج « المسيح اليهودى » فى قائمة آلهة روما ، وان السناتو الخنوع تجاسر على عصيان أوامر سيده ، وان تيبيريوس — بدلا من استنكار هذا الرفض — قنع بأن يعصم المسيحيين من صرامة القوانين ، قبل عدة سنين من سن مثل هذين المرسومين ، وقبل ان تتخذ الكنيسة اسما أو كيانا متميزا. وأخيرا يراد بنا أن نصدق، أن ذكرى هذا التصرف الخارق محفوظة فى أصدق السجلات العامة التى أخطأها علم مؤرخى اليونان والرومان ، والتى وقعت عليها فقط عينا مسيحى أفريقى (ترتوليان) كتب دفاعه بعد مائة وستين عاما من وفاة تيبيريوس . أما مرسوم ماركوس أنطونينوس ، فالمفروض أنه جاء نتيجة إخلاصه وامتنانه لمعجزة خلاصه وانقاذه فى الحرب بينه وبين ماركوماني . وقد سجلت فصاحة عدة كتاب وثنيين ما عاناه جيش ماركوس من كرب وضيق فى البداية ، والمطر الذى أنزلته الله عليهم لاطفاء عطشهم ، كما سجلت فزع المتبريرين من الرعد الذى أرسله الله عليهم وهزيمتهم . ولو أن فى الجيش نفرا من المسيحيين ، لكان من الطبيعى أن ينسب بعض الفضل الى الصلوات والدعوات الحارة التى تضرعوا بها فى ساعة العسرة من أجل سلامتهم ، ومن أجل السلامة العامة . ولكن الآثار النحاسية والرخامية ، والأوسمة الإمبراطورية ، وعمود أنطونينوس ، ما تزال تؤكد لنا أنه لا الأمير ولا الشعب داخلهم الاحساس بهذا الالتزام الفريد ، لأنهم بالاجماع ينسبون خلاصهم الى عناية الاله جوبيتر ، وتدخل الاله هرمس . واحتقر ماركوس المسيحيين طوال حكمه ، بوصفه فيلسوفا ، ووقع عليهم العقوبات بوصفه ملكا .

وتوقفت على الفور ، قضاء وقدر ، تلك الأهوال التى قاسوها فى ظل حكومة أمير ماضل حين تبوا العرش الطاغية ، ولما لم يعان أحد غيرهم من جور ماركوس ، فإنهم وحدهم كذاك احتبوا فى رفق كهودوس ونسأله . ذلك أن مارشا الشهيرة Marcia ، أحب خلاباته اليه، تلك التى حاولت آخر الأمر قتل عشيقها الإمبراطور ، تعلقت تعلقا شديدا غريبا بالكنيسة المظلومة ، وربما راودها الأمل — رغم استحالة التوفيق بين ممارسة الدعارة وبين تعاليم الانجيل — فى أن تكفر عن سقطات بنات جنسها وحرمتها ، بأن تعلن أنها راعية المسيحيين ، ومن ثم شتموا فى ظل الحماية الكريمة لمارشا ، ثلاث عشرة سنة من الأمن والطمأنينة ، وهى فترة حكم الطاغية الغاشم . فلما استقر عرش الإمبراطورية فى أسرة سيفيروس ، انقلب المسيحيون علاقة خاصة . واكتفى علاقة اشرف ، مع الحاشية الجديدة . واقنع الإمبراطور ،

بأنه في مرضه الخطير ، قد أفاد ، روحيا أو ماديا ، من الزيت المقدس الذي مسح به أحد عبيده . ومن ثم عامل عدة أفراد من الجنسين ممن اعتنقوا الدين الجديد معاملة خاصة متميزة . وكانت مربية كاراكلا (ابنه) وكذلك معلمه ، من المسيحيين ، وإذا كان هذا الأمير الصغير قد أظهر يوما شيئا من العاطفة الانسانية ، فإن ذلك يرجع الى حادثة ارتبطت رغم تفاهتها بقضية المسيحية . ففي عهد سيفيروس كبح جماح الجاهير ، وأوقف بطش القوانين ، وقنع حكام الولايات بتسلم هدية سنوية من الكنائس الواقعة في دائرة اختصاصهم ، ثمنا أو مكافأة لاعتدالهم ، وأجج النزاع بين أساقفة آسيا وإيطاليا باختلافهم على الموعد الدقيق للاحتفال بعيد الفصح ، وكان هذا الاختلاف أهم ما يشغل فترة الفراغ والهدوء هذه ، كما أنه لم يعكر صفو الكنيسة وقدتد شيء ، حتى تزايد عدد المهتدين الجدد الى العدد الذي يبدو أنه جذب انتباه سيفيروس وحول مجرى تفكيره . فأصدر ، بغية الحد من تقدم المسيحية ، قانونا قصد أن يقتصر أثره على هؤلاء المرتدين الجدد الى المسيحية ، ولكنه رغم ذلك ، لم يكن من الميسور تنفيذه ، تنفيذا دقيقا ، دون أن يعرض للخطر وللعقاب ، أشد المعلمين والمبشرين غيرة . ويمكن أن نقبل حتى في مثل هذا الاضطهاد المخفف ، روح التساهل في روما وفي المشركين ، تلك الروح التي تقبلت عن طيب خاطر كل عذر في جانب أولئك الذين مارسوا طقوس آبائهم الدينية .

ولكن سرعان ما زالت القوانين التي كان قد سنها سيفيروس بزوال سلطانه ، ونعم المسيحيون ، بعد هذه العاصفة الطارئة بهدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكانوا حتى هذه الفترة يعقدون اجتماعاتهم في دور خاصة أو أماكن منعزلة ، أما الآن فقد رخص لهم في تشييد أو تدشين ابنية مريحة ملائمة لأغراض العبادة ، وفي شراء الأراضي حتى في قلب روما ، لتستخدمها الطائفة في اجراء انتخاب الموظفين الكنسيين بطريقة علنية ، ولكنها كانت في نفس الوقت مثالية استحققت احترام الأميين ، واسترعت انتباههم . واقترن هذا الهدوء الطويل الأمد في الكنيسة بالجلال والعظمة . وثبت أن عهود الامراء الذين نبتسوا في الولايات الآسيوية كانت اوفق العهود للمسيحيين . وسمح لألع أفراد الطائفة ، بعد أن كانوا يلتمسون حماية أحد العبيد أو احدى حظلياته بالذهاب الى القصر ، معززين مكرمين ، بوصفهم قساوسة أو ملاسفة . وأثارت مبادئهم الغامضة التي كانت قد انتشرت بالفعل بين الشعب ، أثارت تشوف الملك دون أن يشعر . ولما مرت الامبراطورة ماميا

بأنطاكية أبدت رغبتها في التحدث الى الرجل المشهور أوريجن ، الذي طبقت شهرة ورعه وعلمه آفاق الشرق ، ورحب أوريجن بهذه الدعوة المغرية ورغم أنه لم يكن يأمل في تحويل هذه المرأة الداهية الطموح ، فانها أصغت في سرور الى عظاته البليغة ، وصرفته مكرما الى ماواه في فلسطين . وتبنى الاسكندر احاسيس والدته ماميا . وتميز النسك الفلسفي لهذا الامبراطور بتقدير فريد ولكنه تقدير طائش للديانة المسيحية . ووضع في معبده الخاص بالقصر تماثيل ابراهيم ، وأورفيوس ، وأبولونيوس ، والمسيح ، تكريما جديرا بهؤلاء الحكماء الموقرين الذين هدوا البشر الى الطرق المختلفة التي يظهرون بها اجلالهم وولاءهم للاله الاعظم للكون كله . واعتنق كل من في القصر ، ومارسوا علنا ، عقيدة وعبادة أنقى . وشوهد الأساقفة ، وربما لأول مرة ، في الحاشية . فلما مات الاسكندر ، صب مكسيمين الغليظ القلب جام غضبه على كل الخلاء والموظفين من رجال ولي نعمته المنكود الحظ ، وراح عدد كبير من المسيحيين من الجنسين ضحية هذه المذبحة الهوجاء ، التي اطلق عليها من اجلهم ، وبغير حق اسم « اضطهاد » .

ورغم اتجاهات مكسيمين القاسية ، كانت آثار حنقه على المسيحيين محدودة مؤقتة جدا ، وظل أوريجن الذي أهدر دمه ، على أنه ضحية مظلومة ، ييشر الملوك بحقائق الانجيل ، ووجه رسائل تهذيبيية الى الامبراطور فيليب وزوجته وامه . وحالما اغتصب الأمير الذي ولد بجوار فلسطين ، عرش الامبراطورية ، التمس فيه المسيحيون صديقا وراعيا . واثار عطف ، بل تحيز ، الامبراطور فيليب للطائفة الجديدة ، وتوقيره السدائم لرجال الكنيسة ، اثار الشبهات التي حامت في أيامه حول اعتناقه المسيحية ، ومهد للخرافة التي ابتدعت بعد ذلك ، والتي تقول بأنه تطهر وكفر عن الوزر الذي ارتكبه بقتل سلفه البريء .

وبسقوط فيليب وتغير الحكام والرؤساء قام أسلوب جديد من الحكم ، أسلوب شديد الجور على المسيحيين الى حد أنهم صوروا حالتهم السابقة ، حتى منذ أيام دوميتيان ، على أنها حرية وطمأنينة كاملتان ، اذا تحولت بالمعاملة البالغة القسوة التي عانوها في فترة حكم ديسيوس القصيرة . ولا تكاد فضائل هذا الأمير تدع لنا مجالا للشك في أنه كان مسوقا بدافع من السخط الدنيء على خلاء سلفه . وأنه لا قرب الى العقل والنطق أن نعتقد أنه في متابعته لخطته العامة لاستعادة نقالة العادات الرومانية ، كان يرغب في تخليص الامبراطورية

مما وصفه هو بأنه خرافة (عقيدة) مستحدثة آثمة . فمضى على أساقفة أكبر المدن بالنفى أو بالاعدام . وحالت يقظة الحكام بين رجال الكنيسة في روما وبين إجراء أية انتخابات جديدة مدى ستة عشر شهرا . وقال المسيحيون أنه أهون على الإمبراطور أن يحتفل منافسا له على العرش من أن يرى أسقفا في العاصمة . فهل كان من المحتمل أن بصيرة ديسيوس قد استشفت زهواً وغرورا تحت ثوب الوداعة والمسكنة ، أو أنه تنبأ بتطلع السلطة الدينية تحت ستار ادعاءاتها الروحية إلى السلطة الدنيوية ، وربما كانت دهشتنا أقل إذا رأينا أنه اعتبر خلفاء القديس بطرس أخطر منافسين لخلفاء أوغسطس .

وتميزت إدارة فاليريان بطيش وتقلب لا يتلاءم مع هيئة « الرقيب الروماني » ، ففى أوائل حكمه ، تجاوز رفقه رفق أولئك الأمراء الذين اشتبه في تعلقهم بالعقيدة المسيحية ، وفي فترة السنوات الثلاث ونصف السنة الأخيرة من حكمه ، وتحت تأثير أصفائه إلى دس أو اغراء وزير انغمس في خرافات مصر ، نرى الإمبراطور وقد تبنى مبادئ سلفه ديسيوس ، واقتدى به في قسوته . إلا أن ارتقاء جالينوس إلى العرش وهو أمر زاد من مصائب الإمبراطورية ، أعاد الهدوء والسلام إلى الكنيسة ، وحصل معه المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم ، بمقتضى مرسوم وجه إلى الأساقفة ، واعتبر أقبارا بوظيفتهم وشخصيتهم العامة . ولم تلغ القوانين القديمة رسميا ، ولكن سمح بالقائها في زوايا النسيان . ونعم تلاميذ المسيح (فيما عدا بعض النوايا العدائية التي نسبت إلى الإمبراطور أوريليان) بأكثر من أربعين سنة من رخاء كان أشد خطرا بكثير ، على طهارتهم ، من أفتطع بلأيا الأضطهاد .

وقد تكون قصة بولس السمسطنى (اسمها الآن سمسط على الضفة الشرقية لأعلى الفرات) ، الذى كان يشغل كرسي الأسقفية في أنطاكية ، أيام حكم أوديناتوس وزنوبيا في الشرق ، ذات فائدة في تصوير أحوال ذلك العصر وطبيعته . وكان ثراء هذا الحبر دليلا كافيا على جريمته ، لأنه لم يرثه عن آبائه ، ولم يكسبه عن طريق العمل الشريف ، ولكن بولس اعتبر خدمة الكنيسة مهنة ندر الربح الوفير . وكانت ولايته الكنسية دنيئة جشعة ، فكثيراً ما ابتز التبرعات من أغنى الموسرين من المؤمنين ، وجول لمصلحته الخاصة قدرا كبيرا من الدخل العام . وغدت الديانة المسيحية ، نتيجة غروره وبذخه ، مقينة كريهة في أعين الأميين . وكانت قاعة مجلسه وعرشه ، والهالة من الأبهة والخفخة التي أحاط بها نفسه أمام الناس ، وجموع ذوى الحاجات

الذين جاءوا يلتمسون رعايته ، واكداس الرسائل والعرائض التي
أملى ردوده عليها ، وزحمة العمل التي احتوته — كانت كل هذه أموراً
أليق كثيراً بحالة حاكم مدني (١) ، منها بوداعة أسقف بدائي .
وتكلف بولس ، في خطبه الى شعبه من فوق المنبر ، الأسلوب المجازي
والاشارات المسرحية لسفسطائي أفريقي ، على حين كانت
الكاتدرائية تضج بأعلى صيحات الاستحسان وأكثرها تطرفاً لفصاحته
الالهية ، أما مع أولئك الذين تحدوا سلطته أو أبوا أن يتلقوا كبرياءه
وغروره ، فقد كان حبر أنطاكية متعجباً عنيفاً عنيداً ، ولكنه كان
يخرق النظام ويبعث أموال الكنيسة على القساوسة التابعين له ،
والذين سمح لهم بالاعتداء بسيدهم في كل نزوة شهوانية . فقد انغمس
بولس ، في شراهة مطلقة في ملذات المائدة ، واستقبل في قصره الكسبي
غادتين جميلتين ، كرميقتين دائمتين له في أوقات فراغه (٢) .

ولو أن بولس السمسطي — رغم رذائله الفاضحة — أبقى على
نقاوة المذهب الأرثوذكسي المستقيم لانتهت ولايته على عاصمة سوريا
بانتهاه حياته فحسب ، ولو أن اضطهاداً معقولاً تدخل في الأمر فلربما
أدى ضرب من ضروب الشجاعة الى رفعه الى مراتب القديسين
والشهداء . ولكن بعض الأخطاء الخبيثة الرقيقة ، التي تبناها في غير
تبصر . وتمسك بها في عناد شديد ، فيما يتعلق بمبدأ التثليث ، أثارت
غيرة الكنائس الشرقية واستياءها ، وتكتل الأساقفة من مصر الى
البحر الأسود ، وقاموا وقعدوا واثارت ثائرتهم بسبب هذه الأخطاء ،
وعقدت عدة اجتماعات ، ونشرت عدة تفهيمات لحضها ، وصدرت
عدة قرارات بالحرمان من الكنيسة ، وظهرت من الجانبين تفسيرات
غلمضة تارجحت بين القبول والرفض ، وعقدت معاهدات ثم نقضت ،
وانتهى الأمر بتجريد بولس السمسطي من منصبه الأسقفي بقرار من
سبعين أو ثمانين أسقفاً اجتمعوا لهذا الغرض في أنطاكية ، وبعينوا ،
بمقتضى سلطتهم الخاصة ، خلفاً لبولس ، دون أخذ رأي الأكليروس

(١) كان الاتجار بالمناصب الدينية معروفاً في هاتيك الأيام . فقد اشترى رجال
الأكليروس أحياناً ، ما كانوا يعتزمون بيعه . ويبدو أن أسقفية قرطاجنة قد اشترتها
سيدة تدعى لوتشلا لأحد خدمها المدعو ماجورينوس ، بثمن قدره ٤٠٠ صرة من النقود .
كل منها ١٢٥ قطعة من الفضة ويقدر المبلغ كله بنحو ٢٤٠٠ جنيه .

(٢) إذا أردنا أن نصي رذائل بولس لكان لزاماً أن نثير الشبهات حول أساقفة
الشرق مجتمعين ، في أنهم نشروا أشنع الفضائح في رسائل دورية وجهت الى كل كنائس
الامبراطورية

أو الشعب ، وزاد الشذوذ الواضح في هذا الاجراء من عدد أفراد الفريق المعارض ، ولما لم يكن بولس غريبا على أنانيين البلاط وحيله ، فقد تسلسل الى عطف الملكة زنوبيا ، ومن ثم احتفظ لأكثر من أربعة أعوام بدار الأسقفية ومنصبها . ولكن انتصار أوريليان غير وجيه الشرق ، وصدرت الأوامر للطرفين المتنازعين الذين رمى الواحد منهما الآخر بالمرق والزيف ، أو قل رخص لهما ، بعرض قضيتهما على محكمة الامبراطور الفاتح . وان هذه المحاكمة العلنية الفريدة انقشدم برهانا قاطعا على اعتراف حكام الامبراطورية على الأقل — ان لم تكن القوانين كذلك — بوجود المسيحيين وممتلكاتهم وامتيازاتهم وسياساتهم الداخلية . وكلما كان من المتوقع ان يدخل أوريليان — بوصفه وثيقا وجنديا — في مجادلات ليخلص الى أى الفريقين : بولس أو خصومه ، تتفق مبادئه مع العقيدة الصحيحة أكثر اتفاقا ! ومهما يكن من شيء فقد بنى الامبراطور قراره على المبادئ العامة للانصاف والمنطق . واعتبر اساقفة ايطاليا ، أكثر القضاة نزاهة واحتراما بين المسيحيين ، وحالما أبلغ أنهم وافقوا على حكم المجلس بالاجماع ، أذن لرأيهم ، وأصدر على الفور أوامره بارغام بولس على التنحي عن كل الممتلكات الدنيوية المرتبطة بمنصب قد صار حرمانه منه ، في رأى اخوته ، بطريقة سليمة . ولكننا اذا تمتدح العدالة ، يجدر بنا الا نغض الطرف عن سياسة أوريليان الذي كان يرنو الى استعادة اعتماد الولايات على العاصمة وتدعيم تبعيتها لها ، بكل وسيلة يمكن أن توثق لحبه أى جزء من شعبه وتقيد أهواءهم .

الكنيسة في عهد دقلديانوس وخلفائه

ظل المسيحيون ينعمون بالسلام والرخاء وسط الثورات المتكررة التي اجتاحت الامبراطورية . ورغم الحقبة المشهودة التي يطلق عليها « عصر الشهداء » ، نشأ بارتقاء دقلديانوس الى العرش ، أسلوب جديد من السياسة ، ابتدعته وتعهدهته حكمة هذا الأمير ، واستمر هذا الأسلوب طوال ثمانية عشر عاما ينفخ من روح التسامح الدينى أكثرها اعتدالا وتحررا . والحق أن عقلية دقلديانوس نفسه كانت أقل استعدادا للأبحاث النظرية منها للأعمال الجادة في مجال الحرب والحكم . وقد نفره حذره ورويته من الاندفاع في الابتداع والابتكار ، ورغم أن مزاجه لم يكن سريع التأثر بالغيرة والحماس . الا أنه درج على اظهار الاحترام للمعبودات القديمة في الامبراطورية . ولكن لمرار

الامبراطورتين : بريسكا Prisca وزوجته وبالبيريا Valeira كريمته ، هيا لهما سبيل الاصفاء ، في مزيد من الاهتمام والاحترام ، الى حقائق المسيحية التي اعترفت ، في كل العصور ، بانها مدينة اكبر الدين لتبطل المرأة وولائها . وبسط الخصيان الرئيسيون : لوشيان ودوروثيوس ، وجورجونيوس واندرو ، الذين لازموا شخص دقلديانوس ، وحفظوا بحبه وعطفه ، وكانوا اصحاب الأمن والنهي في قصره — نقول بـ... هؤلاء الخصيان ، بنفوذهم القوي ، حمايتهم على العقيدة الجديدة التي كاتوا قد اعتنقوها . وحذا حذوهم كثير من أهم الموظفين في القصر الذين وكل اليهم ، كل — حسب وظيفته — أمر العناية بحلى الامبراطور ، وبالملايس وبالأثاث وبالمجوهرات ، بل حتى بالخزانة الخاصة . وعلى الرغم من التزامهم أحيانا بمصاحبة الامبراطور في تقديم الضحايا والقرايين في المعبد ، هؤلاء الموظفين وزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم ، نعموا بالحرية في ممارسة الديانة المسيحية . وكثيرا ما خص دقلديانوس وزملاؤه ، بأهم المناصب ، أولئك الأشخاص الذين أعلنوا بغضهم لعبادة الآلهة ، ممن تكشف فيهم القدرات والمواهب اللازمة لخدمة الدولة : وكانت لكل من الاساقفة منزلة كبيرة في ولايته . وكانوا يلقون معاملة ملؤها التقدير والاحلال ، لا من الشعب وحده ، بل من الحكام أنفسهم . وتبين في كل مدينة تقريبا أن الكنائس القديمة لا تتسع للعدد المتزايد من الداخلين في الدين ، فشيء مكانها ابنية افخم وأرحب تصلح لاقامة الصلوات العامة للمؤمنين . وقد يعتبر سوء السلوك وفساد البساده الذين نعى عليهن يوسوبوس Eusebius (احد مؤرخي الكنيسة ٢٦٠ — ٣٤٠ م) لا مجرد نتيجة ، بل برهانا على الحرية التي تمتع بها المسيحيون وأساءوا استغلالها في عصر دقلديانوس . وكانى بالرغاية قد أرخت من قبضة النظام ، وتفشى الفس والحقد والضعف في كل المحافل المسيحية . وتطلع المشايخ الى منصب الأنسقية الذي بات يوما بعد يوم هدفا أجدر بالطمع فيه . أما الاساقفة الذين كانوا يزاحمون بعضهم بعضا على التفوق في مجال الكنيسة ، فقد بدا من تصرفاتهم أنهم يزعمون لأنفسهم سلطة دنيوية استبدادية في الكنيسة . وتجلى الايمان المفتح الذي ظل يميز المسيحيين عن الكفار ، اقل كثيرا في حياتهم منه في كتاباتهم الجدلية .

وربما تبين للمراقب اليقظ ، على الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة ، بعض اعراض انذرت الكنيسة باضطهاد أعنف من أى اضطهاد عانته من قبل . ذلك أن غيرة المسيحيين وسرعة تقدمهم

أيقظنا المشركين من سباتهم واستهناهم بقضية تلك المعبودات التي علمهم العرف والتلقين ضرورة اجلالها واحترامها . واثارت الاستفزات المتبادلة في حرب دينية دامت لأكثر من مائتي عام — أثارت ثائرة الفريقين المتنازعين ، وعاظ الوثنيين تهبور تلك الشبهة الحديثة الحقيرة التي اجترأت على رمى مواطنيهم بالبعد عن جادة الصواب ، والقضاء آبنائهم وأجدادهم في وهدة الشك والظلم . وولد دأبهم على الدفاع عن الأساطير الشعبية المألوفة ضد تجريح عدو عنيد ، ولد في أذهانهم مشاعر من الايمان والاجلال لأسلوب كانوا قد تعودوا أن ينظروا اليه بأكثر قدر من الاستهتار والاستهانة . وقد أوجت تلك القوى الخارقة التي انتقلتها الكنيسة ، بالرهبة والمنافسة في نفس الوقت . واعتمد أتباع الديانة القديمة (الوثنية) بسياج مماثل من الكرامات والمعجزات ، وابتدعوا أشكالا جديدة للقرابين والضحايا ، وللكفارة ، وللدخول في الدين (١) ، وحاولوا أن يحيوا التصديق والثقة بالوحي المفترض ، واستمعوا في سذاجة مطلقة الى أى دجال يتبلق تحيزهم بإحدى القصص الملأى بالعجائب ، وبدا أن كلا من الفريقين اعترف بصدق المعجزات التي ادعياها غريمه . وبينما يتنبهوا جميعا بتسببها الى إلهائين السحر وقوة الجين ، نجد الفريقين كليهما قد استعدا للخرافة سلطانها وثبتا دعائهما (٢) . وتحولت الآن الفلسفة ، وبهى الد إعدائها ، الى حليفها النافع ، الى أبعد حدود النفع ، وكادت أن تهجر خمائل الأكاديمية وحدائق أبيقور ، بل جتى قبايع الرواقيين ، لأن كثيرا من مختلف مدارس الشك أو الالجاد وكثيرا من الرومان ، رغبوا في وجوب إدانة كتابات شيشرون وإبطالها بمقتضى ما للسناتور من سلطة ، ورات طائفة الأفلاطونيين الحديثين أنه من الفطنة أن يقفوا الى جانب الكهنة الذين ربما احتقرهم هؤلاء الأفلاطونيون الجدد ، ضد المسيحيين الذين كان ثمة ما يبرر توجس الخيفة منهم . واتخذ هؤلاء الأفلاطونيون أسلوب استخراج الحكمة المجازية من قصص

(١) وقد نفتس من بين العبد الكبير من الأمثلة ، العبادة الخفية لميثرا Mithra (عبادة الشمس في الفرس قديما) وتوروبوليا Taurobolia (عبادة وثنية نشأت أولا في آسيا الصغرى) ، وكانت هذه العبادة هي عبادة العصر في عهد الانطونيين . وأن قصة أبوليوس Apuleius لتزخر بالنسك والهزاء بقدر سواء .

(٢) أنه لما يؤسف له أشد الأسف أن الآباء المسيحيين ، باعترافهم بالجانب الخارق للطبيعة — أو كما قدروه هم أنفسهم — الجانب الخبيث في الوثنية ، إنما يقضون بأيديهم على الفائدة التي ربما حصلنا عليها — لو لم يفعلوا ذلك — من ادعان خصومنا الذي يستمر بالتردد .

الشعراء اليونانيين ، وفرضوا للعبادة شعائر خفية يقوم بها تلاميذهم المختارون ، وأوصوا بعبادة الأرباب القدامى بوصفها رموزا أو خداما « للاله الأعظم » ، والفوا لدحض عقيدة الانجيل كثيرا من الرسائل المتقنة التي جعلتها فطنة الأباطرة طعما للنار منذ ذلك الوقت .

وعلى الرغم من أن سياسة دقلديانوس وقسطنطينوس اتجهت الى الاستمساك باحترام مبادئ التسامح ، فإنه سرعان ما تبين أن شريكهما مكسيميان وجالوريوس أضمرّا لاسم المسيحيين وديانتهم ألد عداوة لا تلين . ان نور العلم لم يجد سبيلا الى عقل هذين الأميرين ، ولم يصقل التعليم طباعهما قط ، وهما مدينان بعظمتها للسيف . وتمسكا ، وهما في أوج مجدهما ، بآراء الجنود والفلاحين المبنية على الخرافة ، ونفذا في ادارة الولايات تلك القوانين التي كان ولي نعمتهما قد شرعها ، ولكن كثيرا ما وجدا الفرصة سانحة في معسكرهما وفي قصورهما لممارسة الاضطهاد الخفى الذى أضفت عليه غيرة المسيحيين الطائشة أحيانا أشد المزاعم تلفيقا وتمويهها . فمثلا نفذ حكم الاعدام في شاب أفريقى يدعى مكسيمليانوس ، قدمه أبوه للحاكم على أنه فى سن التجنيد وأنه لائق له ، ولكن الشاب أصر فى عناد على القول بأن ضميره لا يطاوعه على الانخراط فى سلك الجندية . كما لا يكاد يكون من المتوقع أن تحتل أية حكومة تصرف ضابط المائة مارسيلوس Marcellus دون حساب أو عقاب ، ذلك أنه يوم عيد عام ، التى هذا الضابط بحزامه وسلاحه وشعارات وظيفته ، وصاح بصوت عال ، أنه لن يطيع الا يسوع الملك الأبدى ، وأنه سينبذ الأسلحة الدنيوية الى الأبد ، كما يطرح خدمة سيد وثنى . وسرعان ما أفاق الجنود من دهشتهم وقبضوا على مارسلس . وحقق معه فى مدينة تنجى Tingi بمعرفة رئيس هذا القسم من موريتانيا . وأدين بناء على اعترافه ، وحكم عليه ، وضرب عنقه بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية . ان رائحة الاضطهاد الدينى لتفوح من مثل هذه الحالات أقل مما تفوح منها رائحة القانون العسكرى . بل حتى القانون المدنى ، ولكنها أفلحت فى تحويل عقل الإمبراطورين ، وفى تبرير قسوة جالوريوس الذى طرد عددا كبيرا من الموظفين المسيحيين من وظائفهم ، وفى تعزيز الرأى القائل بأن مثل هذه الطائفة من المتحمسين الذين أعلنوا من المبادئ ما يضر بسلامة الدولة ، يجدر أن يبقوا عاطلين لا يرجى منهم نفع ، والا باتوا خطرا على الامبراطورية .

وبعد أن رفع الانتصار في الحرب ضد فارس من آمال جالوريوس وزاد من شهرته ، قضى الشتاء مع دقلديانوس في قصر نيقوميديا ، وكان تقرير مصير المسيحيين هدف مداولاتهم السرية . وكان الامبراطور المحنك لا يزال ميالا الى الأخذ باللين والرفق . ورغم موافقته في الحال على استبعاد المسيحيين من وظائف القصر أو الجيش ، نراه يحذر من الخطر الذي ينجم عن سفك دماء هؤلاء المتعصبين المفر بهم ، ومن بشاعة هذا العمل وانتزع منه جالوريوس آخر الأمر ترخيصا بدعوة مجلس من ثمر قليل من أبرز الموظفين والعسكريين في الدولة ، وأثيرت هذه المسألة الهامة بحضورهم ، وسهل على رجال البلاط الطامحين أن يدركوا أن من واجبهم أن يظاهروا ، بكل ما وتوا من قصاصحة ، الصاح القيصير على استعمال العنف . ويمكن القول بأنهم أصرروا على كل ما من شأنه أن يرضى غرور مليكهم أو تقواه أو مخاوفه ، فيما يتعلق بتدمير المسيحية . ولعلهم صوروا العمل المجيد ، ألا وهو انقاذ الامبراطورية ، بأنه سوف يظل ناقصا مشوبا ، طالما سمح لشعب مستقل بالبقاء والتكاثر في قلب الولايات ، وربما ذهبوا الى القول (وهو ادعاء خداع) بأن المسيحيين الذين نبذوا عبادة روما ونظمها ، قد أسسوا جمهورية متميزة مستقلة ، من المسور بعد القضاء عليها قبل أن تكون لها قوة عسكرية ، جمهورية تحكمها قوانينها الخاصة ، ويتولى زمام الأمر فيها حكام منها ، ولها أموالها العامة ، وتربط بين مختلف أجزائها بروابط وثيقة تلك الاجتماعات المتكررة التي يعقدها الاساقفة الذين انصاع لقراراتهم رعاياهم الكثيرون الموسرين انصياعا تاما صريحا . ويبدو أن مثل هذه الحجج قطعت على دقلديانوس سبيل الاحجام وحملته على اتخاذ أسلوب جديد في الاضطهاد ، وقد يساورنا الشك ، ولو أنه ليس في مقدورنا أن نسهب القول ، في دسائس القصر الخفية ، وفي الآراء والضعائن الخاصة ، وحقد النساء أو الخصيان ، الى غير ذلك من الأسباب التنافهة ، ولكنها الحاسمة التي تعمل عملها في مصير الامبراطوريات ومجالس أرجح الحكام عقلا .

وتجلت آخر الأمر دلالة ابتهاج الامبراطورين لآعين المسيحيين الذين كانوا يرقبون في قلق زائد ، طوال هذا الشتاء الكئيب ، نتيجة المشاورات السرية الكثيرة . وحدد (عفوا أو قصدا) اليوم الثالث والعشرون من فبراير ، الذي وافق يوم العيد الروماني ترميناليا Terminalia لوضع القيود على تقدم المسيحية ، ذلك أنه في الساعات الاولى من فجر ذلك اليوم ، قصد رئيس الحرس البريتورى وبرفقته عدد من القواد والتربيون ومأمورى الدخل ، الى الكنيسة

الرئيسية في نيقوميديا ، الواقعة على مرتفع من الأرض في أجمل بقاع المدينة وأكثرها ازدحاما بالسكان ، وفي الحال فتحوا الأبواب عنوة وأندفخوا إلى المحراب ، ولما فتشوا عبثا عن أى جسم مآدى للعبادة ، اضطروا إلى الاكتفاء بإحراق مجلدات الكتاب المقدس ، وكان وراء موظفى دقلديانوس حشد كبير من أفراد الحرس والطلائع ساروا في تشكيل معركة مزودين بكل الآلات اللازمة لدمير المدن المحصنة . وواصلوا العمل ، حتى استطاعوا في بضع ساعات قلائل أن يهدموا هذا البناء السامق المقدس الذى شمخ فوق القصر الامبراطورى والذى طالما أثار حنق الأميين وحقتهم .

وفى اليوم التالى مرسوم الاضطهاد العام ، وعلى الرغم من أن دقلديانوس ظل معارضا لسفك الدماء . وخفف من حدة جالوريوس الذى اقترح أن يحرق حيا على الفور كل من يرفض تقديم القرابين وإيضاحيا ، فإن العقوبات التى كانت تنزل بالمسيحيين المعاندين قد كانت تعتبر قاسية وفعالة الى حد كاف . ونص المرسوم على أن كنائسهم فى كل الولايات يجب أن تهدم من أساسها ، وعلى الحكيم بالاعدام على كل شخص يجرد على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ، أما الفلاسفة الذين انتحلوا لانفسهم المهمة العقيدة ، مهمة توجبه التمسك بالاممى للاضطهاد ، فانهم درسوا دراسة يقظة طبيعة الديانة المسيحية وقدرتها ، ولما كانوا لا يجهلون أن المبادئ النظرية مفروضة وجودها فى كتابات الرسل والحواريين والانجيليين ، فالأرجح أن هؤلاء الفلاسفة اقترحوا اصدار أمر يحتم على الأساقفة والمبشرين أن يسلموا كل كتبهم المقدسة الى الحكام الذين أمروا — تحت طائلة أشد العقاب — بإحراقها بطريقة علنية مهيبه . وبمقتضى نفس المرسوم صودرت فى الحال أملاك الكنيسة وبيعت أجزاؤها لمن يدفع أكبر ثمن ، أو ضمت الى أملاك الامبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات ، أو منحت لرجال الحاشية الجشعين بناء على توسلاتهم . وبعد هذه الخطوات الفعالة للقضاء على ديانة المسيحيين وحل حكومتهم ، رأى من الضرورى أن يخضع لأشد العذاب الذى لا يطاق أولئك المتهددون الذين ظلوا يرفضون ديانة الطبيعة ، وديانة روما ، وديانة آبائهم . واعتبر الأشخاص الأحرار ذوو المنبت الكريم محرومين من الحصول على أية أجاد أو وظائف ، وحرم العبيد الى الأبد من أى أمل فى الحرية ، وحرم الشعب (المسيحى) بأجمعه من حماية القانون . ورخص للقضاة فى الاستماع والحكم فى أية قضية ضد أى مسيحى ، ولكن لم يكن مرخصا للمسيحيين فى حق الشكوى من أى ضرر أو اذى

يصيبهم هم أنفسهم ، ومن ثم تعرضت هذه الطائفة المنكودة لصرامة العدالة العامة ، على حين حرموا من التمتع بنزايها . وربما كان مثل هذا الأسلوب من الاستشهاد الأليم البطيء الغامض الكريه ، خير الأساليب لإرهاق عزيمة المؤمن والفت في عضده ، وليس من شك في اتجاه البشر ، في مثل هذه الظروف ، بعواطفهم وبحكم مصلحتهم ، إلى مسانيرة رغبت الأباطرة ، ولكن لابد أن سياسة حكومة دقيقة التنظيم قد تدخلت أحيانا لمصلحة المسيحيين المظلومين ، كما أنه لم يكن من الممكن أن يحو الأمراء الرومان الخوف من العقاب محوا تاما ، أو يتستروا على أى عمل من أعمال التدليس أو العنف دون تعريض سلطتهم ، وتعريض سائر رعاياهم (غير المسيحيين) لأشدح الأخطار .

ولم يكد هذا المرسوم ينشر علنا في أبرز مكان في نيقوميديا قبل أن تمزقه أربا يدا مسيحي عبر ، في نفس الوقت ، بأقذع السباب عن احتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملعدين الطفاة . ورقى جرمه ، بمقتضى أخف القوانين إلى درجة الخيانة ، واستحق الإعدام . وإذا صح أنه كان رجلا متعلما ذا مرتبة عالية ، فإن هذه الظروف لم تثمر شيئا سوى مضاعفة جرمه . وقد أحرق أو على الأصح شوى في نار هادئة . واستنفد جلادوه — في تحميمهم للثأر لهذه الصفة المهينة التي أصابت أشخاص الأباطرة — استنفدوا كل أفانين القسوة والعنف ، دون أن ينالوا من جلده وصبره أو يغيروا من الابتسامة الساخرة الثابتة التي ارتسخت على وجهه ، حتى وهو يعاني سكرات الموت . واعترف المسيحيون بأن سلوكه لم يتفق تمام الاتفاق مع قواعد الحذر والروية ، إلا أنهم رغم ذلك أعجبوا بتوقد غيرته المقدسة ، كما أن افراطهم في تمجيد ذكرى بطلهم وشهيدهم ساعد على خلق احساس عميق بالعرب والكرامية في نفس دقلديانوس .

وأهاج مكان الخوف عنده نذير سوء كاد يؤذى به ، ولكنه نجا منه بأعجوبة ، ففى مدى خمسة عشر يوما أشعلت النيران مرتين في قصر نيقوميديا وفي مخدع دقلديانوس نفسه ، وأطفئ الحريق فى المرتين دون خسائر مادية ، ولكن مجرد تكرار الحريق اعتبر بحق دليلا قاطعا على أنه لم يأت بمحض الصدفة أو نتيجة إهمال . وطبيعى أن تحرم الشبهات حول المسيحيين ، وذهبت الظنون ، مع شيء من الترجيح ، إلى أن هؤلاء المتعصبين المستميتين الذين استفتزتهم آلامهم الراهنة ، وتوقعوا المزيد من كوارث تحقق بهم ، قد دبوا مع اخوانهم المؤمنين

من خصيان القصر مؤامرة ضد حياة الامبراطورين اللذين يمتقنونهما كل المقت بوصفهما عدوين لدودين لكنيسة الله . وملاً الحقد والحقن كل المصدور وخاصة دقلديانوس . وزج في السجون بعدد كبير من ذوى المناصب أو الحظوة . وبلغ الامعان في التعذيب بمختلف الوسائل حد الشطط . وتلوث القصر والمدينة على السواء بدماء أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام . ولما كان من المتعذر استجلاء غوامض هذه الفعلة الخفية ، فيبدو أنه لزام علينا إما أن نفترض براءة هؤلاء المصنمين أو نبدى الاعجاب بقوة عزمهم . وأسرع جالوريوس بعد ذلك بأيام قلائل بمغادرة نيقوميديا ، معلنا أنه لو أبطأ في الرحيل عن هذا القصر المتعبد لوقع حتما فريسة لغضب المسيحيين . أما مؤرخو الكنيسة الذين نستقى منهم شذرات من معلومات متحيزة مبتورة ، فانهم في حيرة من أمرهم ، كيف يعللون مخاوف الامبراطورين ويعللون الخطر المحقق بهما . وكان اثنان منهم احدهما أمير والثانى من أئمة البلاغة — شاهدى عيان لحريق نيقوميديا ، وينسب أحدهما هذا الحريق الى صاعقة من غضب السماء ، بينما يؤكد الثانى أنه من تدبير جالوريوس وكيد .

ولما كان المرسوم الصادر ضد المسيحيين قد وضع على أساس أن يكون قانونا عاما يطبق في جميع أنحاء الامبراطورية ، ولما كان دقلديانوس وجالوريوس قد تأكد لهما اتفاق أميرى الغرب معها في الرأى ، ولو لم يكن لزاما عليهما أن يترشقا حتى تتم الموافقة ، فانه يبدو أكثر تمشيا مع آرائنا في السياسة أن حكام جميع الولايات قد تلقوا تعليمات سرية لينشروا — كل في نطاقه — في يوم واحد اعلان الحرب ، وكان من المتوقع على الأقل أن الطرق العامة الميسرة ونقط الرقابة المقامة عليها سوف تمكن الأباطرة من نقل أوامرهم بأقصى سرعة من قصر نيقوميديا الى أقصى أطراف العالم الرومانى ، والا يتحملوا مضى خمسين يوما قبل أن ينشر المرسوم في سوريا ، وقراءة أربعة شهور قبل أن يعلن في مدن أفريقية ، وربما رجع هذا الإبطاء الى طبع دقلديانوس الحريص المحاذر ، الذى وافق كارها على اجراءات الاضطهاد ، والذى رغب كل الرغبة في محاولة هذه التجربة ، أقرب ما يكون الى بصره وسمعه ، قبل أن يفسح المجال للاضطراب والسخط اللذين لابد أن تحدثهما هذه التجربة في الولايات النائية . والحق أن الحكام منعوا أول الأمر من سفك الدماء ، ولكن رخص لهم فيما عدا ذلك من ألوان القسوة ، بل استحثوا عليها . على أن المسيحيين من جهة أخرى ، رغم أنهم تخلوا في رضا عن زخارف كنائسهم ،

لم يكن في وسعهم أن يقرروا إبطال اجتماعاتهم الدينية أو تسليم كتبهم المقدسة إلى النيران . ويبدو أن ورع فيليكس Felix العفيد ، وهو أسقف أفريقي ، قد أزعج صغار موظفي الحكومة ، فأرسله أمين مدينته مكبلاً بالأصفاد إلى البروقنصل ، فحمله هذا بدوره إلى رئيس الحرس البريتوري في إيطاليا ، وأخيراً أطاحوا برأس فيليكس الذي احتقر حتى أن يجيب أجابة مراوغة في مينوسيا في لوكانيا ، وهو بكان اكتسب شهرة بولادة هوراس فيه . ويبدو أن هذه السابقة — بالإضافة إلى مرسوم امبراطوري يحتمل أن يكون قد صدر نتيجة لها — خولت حكام الولايات حق انزال عقوبة الاعدام بالمسيحيين الذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة ، وليس من شك في أن كثيراً من الناس انتهزوا هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ، ولكن كان هناك بالمثل كثيرون ممن اشترؤوا حياة بغيضة بالكشف عن مخابيء الكتب المقدسة وتسليمها غدراً إلى الكفار . ووصم عدد كبير ، حتى من الأساقفة والمساكين ، من جراء هذا التواطؤ الإجرامي ، بوصمة هذا النعت الشائن « الخونة » وكانت هذه الخطيئة سبباً في كثير من فضائح العصر ، وفي كثير من الاضطراب والخلل في الكنيسة الأفريقية فيما بعد .

وكانت نسخ الكتاب المقدس وترجماته قد تكاثرت عددها في الإمبراطورية إلى درجة لم تعد تسفر معها أقسى التحريات عن نتائج حاسمة ، بل إن التضحية بتلك المجلدات التي كانت محفوظة في كل الجامع للاستعمال العام ، كانت تقتضى رضاء بعض المسيحيين الخونة الأذنياء . ولكن عملية تدمير الكنائس كان من السهل تنفيذها بسلطة الحكومة وجهود الوثنيين . ومهما يكن من شيء ، فقد اكتفى الحكام في بعض الولايات باغلاق أماكن العبادة . وكان آخرون أشد تمسكاً بحرفية نصوص المرسوم ، فنزعوا الأبواب والمقاعد والمنبر ، وأحرقوها ، وكأنها كومة جنائزية ، ثم هدموا بقية المبنى عن آخره . وربما كان لزاماً علينا ، من أجل هذه المناسبة الأسيفة ، أن تلجأ إلى تلك القصة المشهورة التي تروى في كثير من وجوه التباين والاستحالة ، إلى درجة أنها قد تثير فضولنا أكثر مما تشبعه . ففي بلدة صغيرة في فريجيا (إقليم قديم في أواسط آسيا الصغرى) لم ننبأ باسمها أو موقعها ، والظاهر أن حكامها وجمهور شعبها كانوا قد اعتنقوا المسيحية — كان من المتوقع أن تحدث بعض المقاومة لتنفيذ المرسوم ، ومن ثم زود حاكم الولاية بفضيلة من جنود الجيش ، ولدى اقترابهم من المدينة هرع المواطنون إلى الكنيسة موطدين العزم على الدفاع بأسلحتهم عن هذا

المكان المقدس أو الهلاك تحت اطلاله ، وأبوا في إحتساب أن يلقوا
بالا الى الاعلان والأذن للذين أعطيا لهم بالانسيحاب ، حتى استغفر
أبائهم العنيد الجنود فاشبعوا النار في كل جوانب المكان ، وأبادوا
بهذا اللون الغريب من الاستشهاد عددا كبيرا من أهبالى فريجييسا
وزوجاتهم وأطفالهم .

وحدثت في سوريا وعلى حدود أرمينيا قلاقل بسيطة لم تلبث أن
شارت حتى أخذت ، ولكنها رغم ذلك هيأت لأعداء الكنيسة مناسبة
خداعة للايعاز بأن هذه المقامع إنما أثارها سرا سياسى الاساقفة
الذين نسوا في الواقع تفاخرهم بالاعتراف بالطاعة المطلقة بغير حدود،
وتجاوز حقي دقلديانوس وخاوفه ، آخر الأمر ، حدود الاعتدال الذي
تذرع به حتى الآن . فاعلن في سلسلة من المراسيم الصارمة من عزمه
على محو اسم المسيحية ، وقضى أول هذه المراسيم على حكام الولايات
باعتقال كل رجال الكنيسة ، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة
لكبار المجرمين بجموع الاساقفة والمشايع والشمامسة والقراء . بل
حتى وطاردى الأرواح الشريرة . وأمر الحكام بمقتضى المرسوم الثانى،
باللجوء الى كل وسائل العنف التى يمكن أن تبعد أولئك عن جرافتهم
الخبثية ، وتضطرهم الى الرجوع الى عبادة الآلهة القائمة . وامتد هذا
الأمر الرهيب ، بناء على مرسوم تال ، الى جماعة المسيحيين كافة ،
ومن ثم تعرضوا لاضطهاد عنيف شامل . وأصبح من واجب الموظفين
الامبراطوريين ، بل ومن مصلحتهم كذلك بدلا من تلك القيود السلبية
التى كانت تتطلب من المدمى اقامة بيئة صريحة جديدة ، أن يكتشفوا
ويتعقبوا ويعذبوا أبغض الأشخاص من بين المؤمنين . وفرضت العقوبة
الصارمة على كل من يجزؤ على انتقاد أى مشايخ للمسيحية حرم من
حماية القانون ، من الغضب العادل للآلهة أو الأباطرة ، وعلى الرغم
من صرامة هذا القانون ، فإن الشجاعة الجيدة التى تجلت في اخفاء
كثير من الوثنيين لأصدقائهم وأقربائهم ، لتقدم أنبل برهان على أن
بطش الخرافة لم يخمد في نفوسهم مواطني الطبيعة والانسانية .

وما كاد دقلديانوس يصدر مراسيمه ضد المسيحيين ، حتى جرد
نفسه من صولجان الملك ، وكأنه بذلك أراد أن يلقي بمهمة الاضطهاد
الى أيد غير يديه . بيد أن أخلاق زملائه وخلفائه ومواقفهم دفعتهم
تارة الى اعمال هذه القوانين الجائرة ونزعت تارة أخرى الى وقف
العمل بها . ونحن لا نستطيع الحصول على فكرة صادقة واضحة عن
هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الكنيسة ، الا إذا درسنا أحوال

المسيحية في مختلف أجزاء الامبراطورية ، كل على حدة ، طوال الاعوام العشرة التي انقضت بين أول مراسيم دقلديانوس وبين السلام النهائي في الكنيسة .

ولم يرتض طبع قسطنطينوس الرقيق الوديع ظلم أى غريق من رعاياه ، فتولى المسيحيون الوظائف الرئيسية في قصره ، وأحب أشخاصهم وقدر أمانيهم ، ولم يستشعر شيئاً من الكراهية لمبادئهم الدينية ، ولكن طالما بقى قسطنطينوس في المركز التابع أو الثانى « قيصر » (لا أغسطس) ، فإنه لم يكن في مقدوره ، صراحة ، أن يرفض قوانين دقلديانوس ، أو يعصى أوامر مكسيميان . لكن سلطته على أية حال ، ساعدت في تخفيف الآلام التي حزن لها وكرهاها . فقد رضى على كره منه بهدم الكنائس ، ولكنه جرؤ على حماية المسيحيين أنفسهم من بطش الجمهور ومن جور القوانين . وذات ولايات الغال (ويمكن أن نلحق بها بريطانيا على الأرجح) بالهدوء الفريد الذي نهجت به ، لوساطة مليكهم الكريمة . ولكن داشيانوس ، رئيس اسبانيا أو حاكمها ، بفعل الغيرة أو السياسة ، آثر أن ينفذ المراسيم العامة التي أصدرها الامبراطوران ، على أن يفتن الى المقاصد الدفينة في نفس قسطنطينوس . وقل أن يوجد مجال للشك في أن ادارته للولاية قد تلطخت بدماء نفر من الشهداء . ولما تبوأ قسطنطينوس الى الرتبة السامية المستقلة — مرتبة أوغسطس — انفسخ أمامه مجال العمل الحر لتحقيق رغباته . ولم يمنعه قصر حكمه من ارساء أسلوب جديد للتسامح ، كان لابنه قسطنطين فيه قدوة يحتذيها ، ومنه ناموس يسير على هديه . واستحق الابن الموفق — الذى أعلن نفسه منذ اللحظة الأولى لارتقائه عرش الامبراطورية ، حامى الكنيسة — استحق أن يطلق عليه أنه أول امبراطور اعترف علانية بالديانة المسيحية وثبت دعائمها . ان بواعث تحوله ، التي يمكن استخلاصها ، بشكل أو بآخر ، من حب الخير ، أو السياسة ، أو الاقتناع ، أو تأنيب الضمير ، ونجاح الانقلاب الذى اصبحت معه المسيحية ، بفضل نفوذه القوى ونفوذ أبنائه ، الديانة الغالبة في الامبراطورية الرومانية — نقول ان كل أولئك سوف يشكل فصلاً ممتعاً هاماً في فصل تال من هذا التاريخ ، أما الآن فيكفى أن نشير الى أن كل انتصار أحرزه قسطنطين كان له بعض الأثر في التخفيف عن الكنيسة وبعض النفع لها .

وعانت ولايات ايطاليا وأفريقية من اضطهاد لم يطل أمده ولكنه كان عنيفاً . ذلك أن مراسيم دقلديانوس الجائرة نفذها ، في دقة

وابتهاج ، شريكه مكسيميان ، الذى كره المسيحية منذ زمن طويل ، والذى كان يطرب لسفك الدماء وأعمال العنف . والتقى الامبراطوران دقلديانوس ومكسيميان ، فى خريف العام الأول للاضطهاد ، فى روما ، ليحتفلا بذكرى انتصارهما . ويبدو أن عدة قوانين جائرة قد انبثقت عن مشاوراتهما السرية ، واستمد الحكام من حضرة الامبراطورين قوة . وبعد تنازل دقلديانوس عن الحلة الامبراطورية ، عهد بادارة ايطاليا وأفريقية الى سيفيروس ، وتعرضتا — دون دفاع — لسيخط سيده جالوريوس الذى لا يرحم . ومن بين شهداء روما ، يستحق أدوكتس *Adauctus* — تمجيد الأجيال القادمة ، فقد كان سليل أسرة نبيلة فى روما ، وتدرج فى مناصب القصر ، حتى وصل الى المنصب الخطير ، خازن الممتلكات الامبراطورية الخاصة . وقد ذاعت شهرة أدوكتس باعتباره أول شخص من ذوى المكانة والامتياز يبدو أنه لقى حتفه طوال فترة هذا الاضطهاد العام .

وأعاد تمرد مكسنتيوس على الفور السلام والهدوء الى كنائس ايطاليا وأفريقية ، وظهر نفس الطاغية الذى سام سائر طبقات رعاياه ألوان الظلم — بمظهر العادل الوديع ، بل حتى المتحيز للمسيحيين المنكوبين . واعتمد على عرفانهم لجميله وحبهم له . وكان طبيعيا أن يقدّر أن ما عانوا من أذى ، وما ظلوا يتوقعون من أخطار ، على يدى عدوه العنيد لابد أن يؤمن له اخلاص فريق باتت له بالفعل أهميته وقيمته عددا واثرا ، بل أن سلوك مكسنتيوس نحو أساقفة روما وقرطاجة قد يعتبر دليلا على تسامحه ، حيث أنه من المحتمل أن أكثر الأمراء استقامة وتمسكا بالدين لا بد أن ينهجوا مثل هذا النهج ازاء رجال الدين القائمين . وكان مارسلس *Marcellus* ، أول هؤلاء الأحرار قد أثار الاضطراب فى العاصمة بما فرض من كفارة على عدد كبير من المسيحيين الذين كانوا قد نبذوا أو تنكروا للدين ، فى فترة الاضطهاد السابق . واشتد الهياج ، وتوالت الفتن العنيفة ، وسفك المؤمنون دماءهم بأيديهم ، ووجد أن نفى مارسلس الذى بدا أن فطنته كانت أقل سموا من غيرته — هو الاجراء الوحيد الذى يمكن به اعادة السلام الى الكنيسة الممزقة فى روما . ويبدو أن سلوك منسوريوس *Mensurius* اسقف قرطاجة ، ما فتىء ينذر بالخطر . فإن أحد شماسه هذه المدينة نشر قذفا فى حق الامبراطور ، واحتمى الشماس المسمى بدار الاسقفية ، ورغم أن الوقت لم يكن قد حان بعد للمطالبة بحق الحصانة الكنسية ، فقد رفض الاسقف تسليمه الى أيدي العدالة . واستدعى منسوريوس الى البلاط ، من أجل هذه المقاومة التى تتسم بالخيانة ، ولكنه ، بدلا

من أن يتلقى حكماً عادلاً بالأعدام أو النفي ، سمح له بعد تحقيق قصير بالانصراف الى أبرشيته . تلك كانت حالة السعادة التي نعم بها رعايا مكسنتيوس المسيحيون ، الى حد أنهم اذا عن لهم أن يحصلوا على بعض جثث الشهداء لاستعمالهم الخاص ، اضطروا الى شرائها من أقصى ولايات الشرق ، وثمة قصة تروى عن آجلا Aglae ، وهى سيدة رومانية منحدره من احدى أسرات القناصل ، تمتلك ضيعة كبيرة تطلبت ادارتها ثلاثة وسبعين موظفاً ، كان بونيفاس Boniface أكثرهم حظوة لدى سيدته ، ويروى أنه لما مزجت آجلا الحب بالعبادة ، سمحت له بمضاجعتها ، ومكنتها ثروتها من تحقيق الرغبة التقية فى الحصول على بعض الرفات المقدسة من الشرق ، فزودت بونيفاس بمبلغ كبير من الذهب ، وكبيرة كبيرة من العطور ، وسعى عشيقها — يحف به اثنا عشر خيالا ، وتتبعه ثلاث عربات مغطاة ، حاجا الى مكان سحيق ، الى مدينة طرسوس فى قيليقيا .

مرسوم جالوريوس للتسامح

كان جالوريوس ذو المزاج الدموى والمنشىء الاول والرئيسى للاضطهاد — شديد البأس على المسيحيين الذين ألقى بهم حظهم العائر فى نفاق مملكته . وقد يحق لنا أن نذهب بنا الظنون الى أن أفرادا كثيرين من الطبقة الوسطى الذين لم تحد من حريتهم قيود الثروة أو اغلال الفاقة ، كثيراً ما هجروا وطنهم والتمسوا ملجأ وملاذاً فى المناخ الذى هو أكثر اعتدالا فى الغرب ، وطالما اقتصر سلطان جالوريوس — على جيوش الليريكوم Illyricum وولاياتها — فانه لقى صعوبة فى العثور على الشهداء أو صنع عدد منهم ، وسط بلد محارب استقبل المبشرين بالانجيل بفتور وامتعاض أكثر مما استقبلوا بها فى أى مكان آخر فى الامبراطورية . ولكنه حين استحوذ على السلطة العليا ، وآلت اليه حكومة الشرق ، سدر فى غيرته وقسوته الى أبعد مدى ، لا فى ولايتى تراقيا وآسيا فقط ، حيث دانت هاتان الولايتان لسلطانه المباشر ، بل كذلك فى ولايات سوريا وفلسطين ومصر ، حيث أرضى مكسيمين نزعته الخاصة بالطاعة العمياء لأوامر ولى نعمته الكالحة. أما جالوريوس فقد أقنعتة آخر الأمر خيبته المتكررة فى تحقيق أطماعه ، وتجربة سنوات ست من الاضطهاد ، والأفكار المفيدة التى أوحى بها الى عقله اعتلال طويل المدى الليم فى صحته — أقنعتة بأن أعنف أعمال الاستبداد والظلم لا تكفى لآبادة شعب بأسره ، أو للقضاء على معتقداتهم

الدينية ، ومن ثم أصدر — تحدويه الرغبة في اصلاح ما افسدته يداه — مرسوما عاما يحجل اسمه ، واسمى ليسينيوس ، وقسطنطين ، تالقت في ديباجته المشرقة الألقاب الامبراطورية ، ثم جاء بعدها :

« من بين المهام الخطيرة التى تشغل اذهاننا ، من أجل مصلحة الامبراطورية والحفاظ عليها ، أن اتجهت ارادتنا الى تصحيح كل الأوضاع ، واعادة بنائها ، وفقا للقوانين القديمة ، والنظام العام عند الرومان . وانا لشديدو الرغبة ، بصفة خاصة ، في أن نهدي الى طريق العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المضللين الذين نبذوا الديانة والطقوس التى شرعها آباؤهم ، والذين تبجحوا فازدروا شعائر الأقدمين ، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة ، أملاها عليهم خيالهم ، وشكلوا مجتمعنا متعدد الألوان في مختلف أرجاء الامبراطورية ، ان المراسيم التى أصدرناها لفرض عبادة الآلهة ، عرضت كثيرا من المسيحيين للخطر والكروب ، فغضى الكثيرون نحبههم ، على حين ظل عدد أكبر سادرين في حماقتهم الملحدة حيث جردوا من الحق في الممارسة العلنية للدين ، ومن هنا اتجهت ارادتنا الى أن نبسط مزايا رافقتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد التعساء . ولذلك نرخص لهم في اعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة . وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو ازعاج ، شريطة أن يظهرنا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام ، في مرسوم آخر ، وانا لنأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين الى الصلاة والتضرع الى الاله الذى يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا . وسلامتهم ورخائهم هم أنفسهم ، وسلامة الجمهورية ورخائها » .

وليس من المؤلف أن نقف ، في لغة المراسيم والمنشورات ، شخصية الأمراء الحقيقية ، أو دوافعهم الخفية . ولكن لما كانت هذه الفاظ امبراطور يحتضر ، فلربما سلمنا بأن يكون موقفه بمثابة تعهد بأخلاصه .

ولما وقع جالزيوس مرسوم التسامح هذا ، كان متأكدا كل التأكد أن ميسينيوس على استعداد لمبايرة نزعات صديقه وولى نعمته ، وان أية خطوات تتخذ لمصلحة المسيحيين سوف تحظى بقبول قسطنطين ، ولكن الامبراطور (جالزيوس) لم يكن ليجرؤ على أن يضع في ديباجة المرسوم اسم مكسيمين ، الذى كانت موافقته على أكبر جانب من الاهمية ، والذى كان قد تولى بعد ذلك بأيام قلائل حكم ولايات آسيا .

وفي الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر مكسيمين ، على أية حال . بأنه يتبع النصائح الحكيمة لسلفه ، ورغم أنه لم يتفضل يوما باصدار مرسوم عام لتأمين هدوء الكنيسة ، فان سابينيون رئيس حرسه البريتوري ، وجه كتابا دوريا الى الولاة والحكام في الولايات ، أفاض فيه الحديث عن رفق الأباطرة واعترف فيه بضراوة عناد المسيحيين ، وأشار فيه على رجال القضاء بوقف محاكماتهم العقيمة ، وغض الطرف عن الاجتماعات السرية لهؤلاء المتحمسين . وتبعاً لهذه الأوامر أطلق سراح كثير من المسيحيين من السجون ، أو أنقذوا من المناجم . وعاد المصريون على عقيدتهم المسيحية الى بلادهم ، وهم ينشدون أغنية النصر ، أما أولئك الذين كانت قد خارت قواهم واستسلموا لعنف العاصمة ، فقد توسلوا في دموع الندم في أن يرخص لهم بالعودة الى أحضان الكنيسة .

ولم يدم طويلا أمد هذا الهدوء الفدار . وما كان مسيحيو الشرق ليثقوا قط في مليكهم ، فان الشبهة والخرافة (العقيدة) كانتا تسيطران على عقل مكسيمين ، أما القسوة فقد ابتدعت وسائل الاضطهاد ، على حين جددت الثانية أهدافه . فقد كان الإمبراطور مثابرا على عبادة الآلهة ودراسة السحر والايان بالوحى ، وكثيرا ما ارتقى بالرسول أو الفلاسفة الذين احترمهم ووجلهم على أنهم « مقربون الى السماء » ارتقى بهم الى مناصب الحكم في الولايات ، ورخص لهم في حضور أخص مجالسه السرية ، وقد أقتنع هؤلاء بأن المسيحيين مدينون بانتصاراتهم الى نظامهم الدقيق ، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم الى وحدة رجال الدين وأحكام الرياسة والتدرج بينهم . ومن ثم أدخل أسلوب من الحكم ، من الواضح أنه اقتبس من شريعة الكنيسة . وبأمر من مكسيمين تم اصلاح المعابد وتجميلها في كل المدن الكبيرة في أنحاء الإمبراطورية . وأخضع الكهنة القائمون على خدمة مختلف الآلهة لسلطان حبر اعظم ، قدر عليه أن يناهض الأسقف وأن يرعى مصلحة الوثنية . واعترف الأحرار بدورهم بالاختصاص الأعلى لطائفة الولايات أو كبار الكهنة فيها ، أولئك الذين كانوا بمثابة وكلاء مباشرين للإمبراطور نفسه . وكان الرداء الأبيض شعار مرتبتهم العالية ، واختير هؤلاء الأحرار الجدد من أشرف الأسر وأغناها ، ووصلت بتأثير الحكام وتأثير هذا النظام الكهنوتي — وصلت الى الإمبراطور رسائل كثيرة تنم عن الطاعة ، وبخاصة من مدن نيكوميديا وأنطاكية وصور ، تجلت فيها — في مكر ودهاء — مقاصد البلاط المعروفة ، على أنها نابعة من الشعور العام للشعب ، والتمست من الإمبراطور أن يلجأ الى قوانين العدالة ،

خيرا من أن يرجع الى ما يمليه عليه رفقته ورافته ، وعبرت عن كراهيتهم للمسيحية ، وتوسلت في خشوع الى أنه يجدر ، على الأقل ، ابعاد هذه الفئة الضالة الموحدة من المسيحيين الى خارج بلادهم (بلاد اصحاب الرسائل) . وما يزال جواب مكسيمين عن ملتقى أهالى صور موجودا . فهو يمتدح غيرتهم واخلاصهم لعبادتهم في عبارات تنم عن أعظم الرضا والارتياح ، ويسهب في وصف عناد المسيحيين في الحادهم . وبمبادرته الى الموافقة على نفيهم ، أى المسيحيين ، ويعلن أنه اعتبر نفسه كأنما يأتهم هو بأبرهم (مواطنى صور) أكثر من أن يصدر هو أمرا ملزما . وخول الكهنة والحكام حق تنفيذ مراسيمه التى كانت محفورة على الواح من النحاس . وعلى الرغم من توصيتهم بتجنب سفك الدماء ، فقد أنزلوا أقسى العقوبات وأبغضها بالمسيحيين المتمردين .

وحق للمسيحيين في آسيا أن يتوجسوا كل الخيفة من قسوة ملك عنيد متعصب دبر أعمال العنف بمثل هذه السياسة المقصودة . ولكن لم تمض شهور قلائل حتى أرغم مكسيمين على وقف تنفيذ خطته بفضل المراسيم التى أصدرها امبراطورا الغرب ، وشغلت كل تفكيره تلك الحرب الأهلية التى تهور في شنها ضد لوسينيوس ، وخلصت هزيمة مكسيمين وموته الكنيسة من آخر أعدائها واشدهم ضراوة وعنادا .

ولقد تعمدت في هذه النظرة العامة للاضطهاد الذى رخصت فيه لأول مرة مراسيم دقلديانوس ، أن أمسك عن وصف المعاناة التى كابدها كل من الشهداء المسيحيين وميتة كل منهم ، وكان من الميسور أن تجمع سلسلة من الصور المرعبة الكريهة ، من تاريخ يوسوبوس ومن خطابات لكتانتينوس المؤثرة ومن أقدم المؤلفات ، وأن تملأ منها صفحات كثيرة بذكر الخوازيق والسياسات والأصفاد ، والحديد المحمى ، وغير ذلك من مختلف ألوان العذاب التى يمكن أن تصلى بها النار والحديد والوحوش الكاسرة والجلادون الذين هم أشد وحشية ، تصلى بها جسم الانسان . فان هذه المناظر الكثيرة المحزنة قد تهيجها أو تبعثها حية مجموعة من الرؤى والمعجزات التى قضى عليها أن تؤجل مسوت اولئك القديسين المخلصين الذين عانوا الآلام من أجل اسم المسيح او تسجل انتصارهم او تكتشف رغباتهم . ولكنى لا أستطيع أن أحدد ماذا ينبغى أن أنقل الا اذا اقتنعت بما يجدر بى أن أصدق . أن يوسيبوس نفسه ، وهو أكثر مؤرخى الكنيسة وقارا وجدية ، ليعترف بأنه روى كل ما قد يؤدى الى مجد الديانة المسيحية ، وأغفل كل ما يمكن

أن يشينها . وإن مثل هذا الاعتراف ليثير الشك في أن الكاتب الذى خرق خرقا صريحا واحدا من قوانين التاريخ الأساسية ، لم يقم وزنا كبيرا للملاحظات الكاتب الآخر ، وإن الشك ليكتسب قوة من شخصية يوسيبوس التى كانت أقل اضطباغا بالسذاجة وسرعة التصديق ، وأكثر تمرسا بأفانين البلاط ، من شخصية أى واحد من معاصريه تقريبا . والمفروض فى بعض حالات معينة ، حين كانت بعض بواعث شخصية نابغة من المصلحة أو الحق تثير حفيظة الحكام ، أو كانت غيرة الشهاد تغريهم بنسيان قواعد الحرص وربما قواعد الاحتشام فيخربون المذابح ، أو يصبون اللعنات على الأباطرة ، أو يضربون القضاة وهم جالسون فى منصة القضاء — نقول أن المفروض فى مثل هذه الأحوال أن يستنفد مع هؤلاء الضحايا الغيورين ، كل ما يمكن أن يتقدمه القسوة أو يصمد أمامه الجلد . ومهما يكن من أمر ، فقد ذكرت ، فى غير حذر ، حالتان توحيان بأن المعاملة العامة ، التى لقيها المسيحيون الذين كان رجال العدالة قد قبضوا عليهم — كانت أقل ضراوة أو أكثر احتمالا مما يتصور ، عادة ، أن تكون عليه هذه المعاملة .

١ — كان يسمح للمؤمنين الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم — نتيجة لانسانية حراسهم أو اهمالهم — ببناء كنائس صغيرة ، وبحرية ممارسة ديانتهم فى هذه الأماكن المقفرة .

٢ — كان الأساقفة ملزمين بكبح جماح الغيرة المتبجحة والتنديد بها ، غيرة أولئك المسيحيين الذين سلموا أنفسهم طائعين مختارين ، الى الحكام . وكان بعض هؤلاء قد أرهقهم الفقر والديون ، وسعوا سعيا أعمى الى انتهاء وجود تعيس بميتة مجيدة مشرفة . كما خدع آخرون بالأمل فى أن فترة قصيرة يقضونها فى السجن قد تكفر عن كل خطايا الحياة . وهناك فريق ثالث كان يعتل فى نفسه باعث أقسل شرفا ، وهو الحصول على معاش أكبر أو ربح وفير من الصدقات التى كان المؤمنون المحسنون يدفعونها للمسجونين . وبعد انتصار الكنيسة على كل أعدائها ، أدت بالمسجونين مصلحتهم وغرورهم على قدر سواء ، الى المبالغة فى تقدير ما يستحقون من مجد وشرف ، جزاء وفاء لما عانى كل منهم من آلام . وهنا لابد من القول بأن تعاقب الألمان أو تباعد المكان قد أفسح المجال لانتشار الروايات والخيالات والأوهام ، وبأن الأمثلة الكثيرة المزعومة لشهداء مقدسين ، شفيت على الفور جراحهم ، أو جددت قوتهم أو أعيدت اليهم أوصالهم المفقودة

— مثل هذه المزاعم كانت ملائمة كافية لازالة أية عقبة واخراس ايسة مجارضة . ولما أدبى أثر هذه الأساطير سرفا وتطرفا الى مجد الكنيسة فقد ملل لها الجمهور الساذج السريع التصديق ، وبساندتها قوة رجال الدين ، كما أقرتها الشواهد المربية في تاريخ الكنيسة .

وانه لمن السهولة بمكان كبير أن يطلق الخطيب الداهية لقلمه العنان للمبالغة أو التخفيف من الأوصاف الغامضة للمنفى والسجن ، والأثم والتعذيب ، الى حد يجعلنا بالضرورة الى تقصى حقيقة أكثر جلاء وأشد تثبيتا عن عدد من أعدموا نتيجة لقوانين دقلديانوس وشركائه وخلفائه . ان الروايات الحديثة تسجل الحشود والمدن التي اجتاحتها سورة الاضطهاد دون تمييز . أما الكتاب القدامى فيكتفون بوابل من السباب واللعنات الفاجرة المفجعة ، دون أن يتفضلوا بالتحقق من الرقم الدقيق لأولئك الذين قضي لهم أن يؤكدوا بدمائهم إيمانهم بالانجيل . ويمكن أن نستخلص من تاريخ يوسيبوس ، على أية حال ، أن حكم الاعدام صدر على تسعة أساقفة ، كما يؤكد لنا تعداد الخاض لشهداء فلسطين أن عدد المسيحيين الذين غازوا بهذا اللقب الكريم لم يتجاوز اثنين وتسعين (١) . ولما كنا على علم تام بمقدار الفيرة والشجاعة الدينية اللتين سادت ذاك العصر ، فليس في مقدورنا أن نستخلص أية نتائج مفيدة من أولى هاتين الحقيقتين ، أما الثانية فقد تصلح لتبرير نتيجة هامة محتملة جدا . فان فلسطين — وفقا لتوزيع الولايات الرومانية ، تعتبر القسم السادس عشر من الإمبراطورية الشرقية ، ولما كان هناك بعض الحكام الذين تنزهوا نتيجة لشعور

(١) ويختم روايته بأن يؤكد لنا بأن هذا هو عدد من استشهدوا في فلسطين طوال فترة الاضطهاد . وقد يبدو أن الفصل التاسع من كتابه الثامن المتعلق بولاية طيبة في مصر ، يتعارض مع تقديرنا المعتدل ، ولكنه يؤدي بنا الى الاعجاب بدهاء المؤرخ في علاج الموضوع ، فقد اختار أبعد الأركان وأكثرها انعزالا في الإمبراطورية الرومانية مسرحا لأشنع أعمال العنف والقسوة ، وقال ان ما بين عشرة ومائة شخص كثيرا ما استشهدوا كل يوم في طيبة . ولكنه لما انتقل الى الكلام عن رحلته في مصر أصبحت لهجته ، دون أن يحس ، أكثر حرصا واعتدالا . وبدلا من الاتيان برقم كبير ، ولكنه محدد ، نراه يتحدث عن كثير من المسيحيين ، وينتقى في دهاء بالغ — لفظتين مبهمتين ، يبدو أنهما تشيران اما الى ما رأى أو الى ما سمع ، واما الى توقع العقوبة أو الى تنفيذها . فلما تهيأت له هذه المراوغة الآمنة تقدم بهذه القطعة المبهمة الى القراء والمترجمين ، وهو يدرك بحق أن ورعهم سيحملهم على ايثار المعنى الأوفق لهم . وربما اتسمت بالخبط اشارة تيودوروس ميتوشيتا Theodorus Metochita الى أن كل الواقفين على أحوال المصريين — مثل يوسيبوس Eusebius — سروا بالاسلوب الغامض المعقد .

حقيقى أو مصطنع من الرفق والرحمة — عن تلطيخ أيديهم بدماء المؤمنين، فانه من العقول أن يذهب بنا الاعتقاد الى أن البلد الذى شهد مولد المسيحية أنجب على الأقل جزءا من ستة عشر جزءا من الشهداء الذين لقوا حتفهم فى نطاق اختصاص جالوريوس ومكسيم . وعلى هذا يكون مجموع الشهداء عامة نحو ألف وخمسمائة ، وهو عدد اذا قسم بالتساوى على أعوام الاضطهاد العشرة ، لكان نصيب العام الواحد مائة وخمسين شهيدا . فاذا خصصنا نفس النسبة لولايات إيطاليا وأفريقية ، وربما أسبانيا كذلك ، حيث أوقفت أو ألغيت قوانين العقوبات الصارمة بعد سنتين أو ثلاث ، لهبط عدد المسيحيين الذين وقعت عليهم عقوبة الاعدام بمقتضى حكم قضائى فى الإمبراطورية الرومانية الى أقل من ألفى شخص . ولما كان من غير المشكوك فيه قط أن المسيحيين كانوا أكثر عددا ، وأن أعداءهم كانوا أشد غيظا فى عهد دقلديانوس عنهم فى أى اضطهاد سابق ، فقد يهدينا هذا الحساب المعتدل الى تقدير عدد القديسين والشهداء الأولين الذين ضحوا بأرواحهم من أجل غرض هام سام هو نشر المسيحية فى العالم .

ونختم هذا الفصل بحقيقة مفرجة تفرض نفسها على ذهن كرها ، تلك هى أنه ، حتى مع التسليم دون تردد أو بحث بكل ما سجله التاريخ أو زيفه النفس والتعبد فى موضوع الاستشهاد ، فإن المسيحيين ، فى خصوماتهم الداخلية ، أصلا بعضهم بعضا من ألوان العنف والقسوة ، ما هو أفظع مما عانوا من غيرة الكفار والزنادقة . ففى عصور الجاهل التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب ، بسط أساقفة العاصمة الإمبراطورية سلطانهم على الدلمانيين والكهنوتيين فى الكنيسة اللاتينية . وانتهى الأمر بأن شنت جماعة من المتعصبين الجسورين الذين انتحلوا من القرن الثانى عشر الى القرن السادس عشر الشخصية المحبوبة ، شخصية المصلحين — شنوا هجومهم على مسرح الخرافة الذى كان أولئك الأساقفة قد أقاموه ، والذى كان من الجائز أن يتحدى الى أمد طويل جهود العقل المتواضعة . ودافست كنيسة روما بعنف عن الإمبراطورية التى كانت قد كسبتها بالفتن والخداع . وسرعان ما وصم الحرمان من حماية القانون والحروب والمذابح ، ونظام الوظائف الدينية ، نظاما يدغوا الى السلام والبه نلطخته ، ولما كان المصلحون مدفوعين بحب الحرية المدنية والحرية الدينية معا ، فقد ربط الأمراء الكاثوليك مصلحتهم بمصلحة رجال الدين ، وغرضوا بالنار والسيف أرباب الأحكام الروحية ، ويقال ان مائة ألف من رعايا شارل الخامس فى الأراضى المنخفضة

(هولنده) وحدها لقوا حتفهم على يد الجلاذ ، واكد هذا الرقم الغريب جروشيوس (Grotius ١٥٨٢ - ١٦٤٥ من رجال السياسة والقضاء في هولنده) . - وهو رجل عبقرى عالم احتفظ باعتداله وسط سورة الغضب بين الفرق المتنازعة . وألف حوليات عصره وبلده ، في وقت يسر فيه اختراع الطباعة وسائل الاعلام ، وزاد من مطر الكشف عن الحقائق ، فاذا كان علينا أن نؤمن بصدق جروشيوس ، لوجب القول بأن عدد البروتستانت الذين أعدموا في ولاية واحدة في ظل حكم واحد يجاوز كثيرا عدد الشهداء الاولين على مدى ثلاثة قرون وفي نطاق الامبراطورية الرومانية بأسرها . ولكن اذا توقفت استحالة الواقعة ذاتها على قيمة الدليل ، واذا ثبتت على جروشيوس المبالغة في جدارة السابقين وآلامهم ، كان طبيعيا ان نتساءل : أية ثقة يمكن أن توضع في الآثار المريبة المعيبة التي خلقتها السذاجة القديمة ، وأية درجة من التصديق يجب أن نوليها سقفا مهذبا وخطيبا مؤثرا عاطفيا ، نعم تحت حماية دقلديانوس ، بالحق المطلق في تدوين الاضطهادات التي عاناها المسيحيون على يد المنافسين المقهورين أو الأسلاف المحتقرين لملكهم الرحيم .

الانجاء نحو الشرق

الفصل السابع عشر (٢٢٤ - ٢٣٤ م)

روما الجديدة : تأسيس القسطنطينية وتدشينها

تقسيمات المناصب في النظام الجديد للحكومة . بداية الدولة البوليسية

كان لوسينيوس المنكود الحظ آخر منافس تصدى لعظمة قسطنطين ، وآخر أسير توج انتصاراته . وورث الفاتح أسرته بعد حكم اتسم بالهدوء والازدهار ، تركلة الامبراطورية الرومانية : عاصمة جديدة ، وسياسة جديدة ، وديانة جديدة ، ورحبت الأجيال المتعاقبة بالمبتكرات التي ابتدعها وقدرتها . وان عهد قسطنطين الأكبر وأبنائه ليزخر بالأحداث الهامة ولكنها ترهق المؤرخ بكثرة عددها وتنوعها ، ما لم يفصل الأحداث التي لا يربط بينها الا الترتيب الزمني ، بعضها عن بعض . فيصف النظم السياسية التي أمدت الامبراطورية بالقوة والاستقرار ، قبل أن يعرض لذكر الحروب والثورات التي عجلت باضمحلالها ، ويختار ذلك التقسيم الذي لم يكن يعرفه الأقدمون بين الشؤون المدنية والشؤون الدينية ، للتهذيب والتثقيف ثم للفضيحة معا .

وبعد هزيمة ليسينيوس واعتزاله ، خف منافسه الظافر ليضع أساس مدينة قیض لها في مستقبل الأيام أن تحكم بوصفها « سيدة الشرق » وأن تبقى بعد امبراطورية قسطنطين وديانته . وزاد اقتداء خلفاء دقلديانوس به وبسجاياء طوال أربعين عاما من قيمة دوافع الزهو أو السياسة ، التي حدثت به في البداية الى الانسحاب من المقر القديم للحكومة . واختلطت روما ، بطريقة غير ملحوظة ، بالممالك التابعة التي اعترفت يوما بسيادتها . وغدت بلد القياصرة ينظر اليها بعين

ملؤها الاستهتار والفتور ، عين أمير عسكري ولد في جوار الدانوب ، وتعلم في بلاط آسيا وجيوتها ، وخلعت عليه فرق بريطانيا حلة الامبراطورية . وامنل الايطاليون الذين رحبوا بقسطنطين بوصفه مخلصهم ومنقذهم - امتثلوا في خشوع للمراسيم التي تفضل أحيانا بتوجيهها الى السناتو والشعب في روما ، ولكنهم قلما حظوا بشرف حضور مليكهم الجديد . ودأب قسطنطين طوال زهرة العمر ، وتبعها لمختلف دواعي الحرب والسلم ، على التحرك في عظمة متئدة ويقتضة جادة على حدود مملكته الشاسعة ، وكان دوما على أهبة الاستعداد لملاقاة أى عدو خارجي أو داخلي ، ولكنه لما بلغ مع الأيام ذروة الازدهار ، وتقدمت به السنون على طريق الفناء ، بدأ يتدبر مشروعا تستقر به قوة العرش وجلاله في مكان أشد ثباتا . وفي اختياره للموقع الملائم ، أثر قسطنطين تخوم أوروبا وآسيا ليضرب بيد من حديد على أيدي المتهربين الذي كابوا يقطنون بين الدانوب والتانيس Tanais ، وليرقب بعين ساهرة سلوك ملك الفرس الذي احتل ساخطا نير معاهدة مخزية ، وبهدى من هذه الاعتبارات تخير دقلديانوس من قبل مقر اقامته في نيقوميديا وزينه ، ولكن حامى الكنيسة كان يكره بشق ذكرى دقلديانوس ، وكان قسطنطين واقفا تحت تأثير الطمع في تأسيس مدينة تخلد مجد اسمه . وتهيأت له الفرصة ، في عمليات الحسب الأخيرة ضد ليسينيوس ، أن يدقق النظر ، بوصفه جنديا ورجل دولة ، في موقع بيزنطة المنقطع النظير . وأن يرى كيف تحرسها الطبيعة حراسة قوية ضد أى عدوان ، على حين يسهل الوصول إليها من كل جانب للأغراض التجارية ، وقبل عصر قسطنطين بعدة أجيال ، وصف مؤرخ من أقوى المؤرخين القدامى بصيرة مزايا موقع استطاعت منه مستعمرة يونانية هزيلة أن تسيطر على البحر ، وأن تفوز بأعجاء جمهورية مزدهرة مستقلة .

وإذا استعرضنا بيزنطة في المدى الذي بلغته تحت الاسم العظيم « القسطنطينية » لأمكن أن نمثل المدينة الامبراطورية على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع ، يلتقى طرفه المنفرج الذي يمتد شرقا الى شواطئ آسيا ، بأواج بسفور تراقيا ويصدها . وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوبي فتحفه مياه بحر مرمرية . أما قاعدة المثلث فانها تواجه الغرب ، وعندها تنتهى قارة أوروبا ، ولكن لا يمكن استيعاب الشكل الباهر للأرض والماء اللذين يحيط الواحد منهما بالآخر ويجاوره ، والتنقيص المدهش بينهما ، استيعابا واضحا كافيا ، إلا بمزيد من الشرح والتفسير .

وأطلق على المجرى المتعرج الذى تجرى فيه مياه البحر الأسود جريانا سريعا لا ينقطع الى البحر الأبيض المتوسط اسم البسفور ، وهو اسم لا يقل شهرة فى التاريخ القديم عنه فى القصص الخرافى العتيق ، وهناك مجموعة من المعابد ومذابح النذور المبعثرة فى غير نظام على ضفافه الشديدة الانحدار المغطاة بالأشجار ، تشهد على عدم براعة الملاحين اليونان ورعبهم وتعبدهم ، حين كانوا يرتادون مخاطر البحر الأسود الماحل ، على غرار ما فعله ملاحو الأساطير اليونانية القديمة « Argonauts » ، واحتفظت التقاليد القديمة على هذه الشواطىء بذكرى قصر فينيوس Phineus الذى سكنه وازعجته الحيوانات الغريبة التى كان لكل منها حسم طائر ورأس امرأة ، وذكرى حكم الغاب ، أى حكم أميكوس (Amycus) فى الأساطير اليونانية أحد ملوك بيثينيا وكان جبارا متوحشا يلزم كل من يحل فى بلده بهلاكته (الذى تحدى ابن ليدا Leda ليلاكمه بالقنازات . وتنتهى مضايق البسفور بالصخور الزرقاء التى طفت يوما - وفقا لوصف الشعراء - على سطح الماء ، وخصصها الآلهة لحماية مدخل البحر الأسود من عين الفضول الدنس . ويمتد طول البسفور المتعرج من الصخور الزرقاء الى طرف بيزنطة ومينائها نحو ستة عشر ميلا . أما أقصى عرضها العادى فيبلغ نحو ميل ونصف الميل . هذا والقلاع الجديدة فى أوربا وآسيا مقامة فى كلتا القارتين على أنقاض معبدتين مشهورتين : معبد سيرابيس Serapis ومعبد جوبيتر أوريوس ، وتشرف القلاع القديمة التى بناها أباطرة اليونان ، على أضيق جزء فى المجرى ، فى مكان تبعد فيه الضفتان المتقابلتان كل منهما عن الأخرى نحو خمسمائة خطوة . وقد جدد محمد الثانى بناء هذه القلاع وقواها ، عندما فكر فى حصار القسطنطينية ، ولكن الفاتح التركى كان على الأرجح يجهل أنه قبل عصره بنحو ألفى سنة اختار دارا نفس المكان ليربط بين القارتين بجسر من القوارب . ويمكن أن نرى على مسافة قصيرة من القلاع القديمة ، بلدة أشقودرة الصغيرة التى تكاد تعتبر الضاحية الآسيوية للقسطنطينية ، ويمر البسفور بين بيزنطة وخلقدونية ، حين تبدأ مياهه فى الانسياب الى بحر مرمرة ، وقد بنى الإغريق هذه المدينة الأخيرة قبل الاولى بوضع سنين ، وهناك تعبير جرى مجرى المثل ، تصويرا للسخرية من الغباء الذى وصم به مؤسسو خلقدونية ، الذين غفلوا عن المزايا الرائعة للساجل المقابل .

وفى وقت سحيق جدا اكتسبت ميناء القسطنطينية التى يمكن اعتبارها ذراعا للبسفور ، اسم القرن الذهبى . فان الانحاء السدى

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ريح من أقصى الأرض الى شجر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — بمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتهمس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فإن الصبغ الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمى الشجر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمرة شواطئ أوروبا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردينيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وان الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمرة ، سيلمحون على الفور أراضى تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيمهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوروبا الى قتال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأيندوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المغامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع أجزرسييس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوروبا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبررين . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليدو غير جدير بالنعته الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريح مجراه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضائق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجيه أو بجر الأرخبيل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida — أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطئ بين أكتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشيلس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الأكتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهياى الخيام على الأكمة الأخرى . وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخلد ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأمر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روثيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخليق بنا الآن أن نلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطئ أوروبا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ريح من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتبس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فإن العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرضفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تسمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمره شواطئ أوروبا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردينيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وان الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمره ، سيلحون على الفور أراضى تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولاس الشهافة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمهرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوروبا الى قتال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأيندوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المفامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع أجزرسيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوروبا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبربرين . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليبدو غير جذير بالنعمة الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن افكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريج مجراه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضائق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجيه أو بجر الأرخييل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida - أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطئ بين اكمتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشليس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الاكمتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهياب الخيام على الاكمة الأخرى . وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخذل ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الامر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روتيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخليق بنا الآن أن نلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطئ أوروبا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيع واسع . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى امير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب - الى حد ما - الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الاسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

القرصنة ، ويشت من اقتحام هذا الحاجز المنيع ، وحتى في حالة اغلاق بوابتى البسفور والدردنيل ، كانت العاصمة تنعم في المساحة الفسيحة بينهما ، بانتاج كل ما يسد حاجة السكان الكثير عددهم أو يوفر لهم حياة الترف والبذخ . وما تزال شواطئ تراقيا وبيثينيا اللتين ترزحان تحت الفير التركي ، تزخران بالكروم والبساتين والمحاصيل الوفيرة ، واشتهر بحر مرمره في كل العصور بهذا المعين الذى لا ينضب من السمك الذى يؤخذ في المواسم المعينة دون براعة أو جهد غالبا ، ولكن اذا فتحت المضائق أمام التجارة ، تدفقت الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال ومن الجنوب على التوالي ، عبر البحر الأسود والبحر المتوسط ، فقد دثمت مختلف الرياح كل المواد الخام التى جمعت من غابات المانيا وسكيزيا ، من أقصى منابع نهري تانيس والدنيبر ، وكل ما أبدعته أوربا وآسيا من مصنوعات ، وغلل مصر ، وجواهر الهند النائية وتوابلها — دثمت الرياح كل أولئك الى ثغر القسطنطينية الذى ظل على مدى أجيال طويلة يجذب تجارة العالم القديم .

تأسيس القسطنطينية

واجتمع في بقعة واحدة بعينها من الجمال والأمان والثراء ما كان كافيا ليبرر اختيار قسطنطين لها . ولكن ثمة مزيج وقور من المعجزة والخرافة ، كان يعكس ، في كل عصر ، قدرا من العظمة اللائقة على منشأ المدن الكبرى ، ومن هنا أراد الامبراطور أن ينسب قراره الى أمر محقق أزلى من الحكمة الالهية ، أكثر من نسبته الى رأى غير أكيد تمليه سياسة الانسان . وعنى في أحد قوانينه بأن يحيط الأجيال القادمة علما ، بأنه امثالا لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية . وعلى الرغم من أنه لم يتفضل فيروى لنا كيف هبط عليه وحى السماء ، فان عبقرية الكتاب اللاحقين الذين جساءوا بعده ، عرضت بسخاء عن صمته المتواضع ، حين وصفوا الشبح الذى تراءى ليلا لخيال قسطنطين ، وهو نائم في رحاب بيزنطة ، فقالوا ان ربة المدينة وحارستها — وهى سيدة وقور بلغت من الكبر عتيا وأفسنتها العلل والعاهات — تحولت فجأة الى شابة في نضارة الأزهار بدت في أبهى زينة حين ألبسها الامبراطور بيديه شعاعات العظمة الامبراطورية . وأفاق الملك من نومه ، وفسر الفأل السعيد ، وامتثل لارادة السماء دون تردد . وجرت عادة الرومان على الاحتفال بيوم مولد مدينة من

المدن أو مستعمرة من المستعمرات في اسراف بالغ سنته الخرافات السخية (وفقا لعقيدتهم الوثنية) . وربما جاز لقسطنطين أن يلغى شيئا من هذه الطقوس والشعائر التي نمت بشكل صارخ عن اصلها الوثني ، ولكنه كان حريصا رغم ذلك على أن يترك أثرا عميقا من الأمل والاحلال في نفوس المتفرجين . وتصدر الامبراطور نفسه الموكب سيرا على الأقدام وفي يده حربة ، ودل على الخط الذي تتبعه هو ومن معه ليكون حدا للعاصمة المقدرة ، حتى عبرت معاونه الدهشة من أن محيط المدينة يزداد اتساعا ، وتجاسروا على القول بأنه تجاوز المساحة المعقولة لمدينة عظيمة ، فأجاب قسطنطين : « سأواصل السير حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير أمامي أنه من المناسب أن أتوقف » . ولسوف نقنع - دون الاجترار على التحرى عن طبيعة هذا المرشد الخارق للطبيعة وعن بواعثه - بمهمتنا التي هي أكثر تواضعا ، ألا وهى وصف امتداد القسطنطينية وحدودها .

وفى الوضع الراهن للمدينة ، يقوم قصر السلطان على المرتفع الشرقى ، وهو أول التلال السبعة ، على مساحة تبلغ نحو مائة وخمسين فدانا انجليزيا (اكر) . ان موطن الاستياد والأتانية التركية هو الآن قائم على انقاض جمهورية اغريقية . والمظنون أن البيزنطيين أغراهم الموقع الملائم للميناء ، فمدوا مساكنهم على هذا الجانب الى ما وراء الحدود الجديدة للسراى ، وامتدت اسوار قسطنطين من الميناء الى بحر مرمرة عبر الجزء الذى زيد على مساحة المثلث ، على مسافة نحو ١٢٠٠ قدم من التحصينات القديمة . وادخلوا في نطاق مدينة بيزنطة خمسة من التلال السبعة التى يبدو للمقرب من القسطنطينية أنها ترتفع بعضها فوق بعض في ترتيب جميل . وبعد قرن من وفاة مؤسس المدينة (قسطنطين) امتدت المباني الجديدة فوق الميناء من جهة وعلى طول شاطئ بحر مرمرة من الجهة الأخرى ، وبذلك غطت الحافة الضيقة والقيمة العريضة للتل السابع . واقتضت الحاجة حماية هذه الضواحي من غارات المتبربرين التى لا تنقطع ، وأن يعنى تيودوسيوس الأصغر نفسه باحاطة عاصمته بسياج متين دائم من الأسوار ، وبلغ أقصى طول للقسطنطينية ، من المرتفع الشرقى الى القرن الذهبى نحو ثلاثة أميال رومانية ومحيطها من عشرة الى أحد عشر ميلا ، أما المسطح فيقدر بنحو ألفى فدان انجليزى . وليس من الميسور تبرير المبالغات العقيمة الساذجة للسياسج الحديثين الذين مدوا في بعض الأحيان حدود القسطنطينية الى ما وراء القرى المجاورة على الشاطئ الأوربى بل على الشاطئ الآسيوى كذلك . وقد تستحق

ضاحيتا بيرا وغلطه — رغم وقوعهما وراء الميناء أن تعتبرنا جزءا من المدينة ، ويجوز أن تؤكد هذه الاضافة صحة ما ذهب اليه مؤرخ بيزنطى من أن محيط مدينته يبلغ ستة عشر ميلا يونانيا (نحو ١٤ ميلا رومانيا) . وقد يبدو هذا الرحاب جديرا بالمقر الامبراطوري ، ومع ذلك فانه يجدر بالقسطنطينية أن تسلم القيادة (من حيث الاتساع) الى بابل ، وطيبة ، وروما القديمة ، ولندن ، بل والى باريس .

واستطاع سيد عالم الرومان الذى تطلع الى اقامة أثر خالد يشهد بأمجاد عصره ، استطاع أن يجند لتنفيذ مشروعه العظيم ، كل ما بقى من ثروة ملايين المطيعين من رعاياه وجهدهم ، وعبقريتهم . ويمكن أن نقدر سخاء الامبراطور فى الاتفاق على تأسيس القسطنطينية اذا علمنا انه أنفق مبلغ مليونين وخمسمائة ألف جنيه لبناء الاسوار والأروقة وقناطر المياه . وجادت الغابات التى ظلت شواطئ البحر الأسود والمحاجر المشهورة بالرخام الأبيض فى جزيرة بروكنيسس Proconnesus بمعين لا ينضب من المواد المعدة للنقل بطريق البحر لمساعدة قصيرة هينة يسيرة الى ميناء بيزنطة . وجد جميع غفير من العمال والصناع المهرة فى انجاز العمل ، ولكن قسطنطين القلق الذى نفذ صبره سرعان ما تبين أن مهارة مهندسية ووفرة عددهم ، ازاء انحطاط الفنون ، لن تتسبب قط مع عظمة تصميماته ، ولذلك صدرت التعليمات الى الحكام فى اقصى الولايات ، لانشاء المدارس وتعيين الاساتذة واغراء العدد الكافى من الشبان النابغين الذين تلقوا تعليمًا متحررا ، بالأمل فى نيل الجوائز والامتيازات — اغرائهم بدراسة فن العبارة ، وأقيمت مباني المدينة الجديدة بجهود أولئك الصناع الذين أبكن توفيرهم فى عهد قسطنطين ، ولكن الزخارف التى ازدانت بها كانت من ابداع أشهر الاساتذة فى عهد بركليس والاسكندر ، والحق أن اجراء عبقرية فيدياس Phidias وليبسيوس Lysippus جاوزت قدرة البعاهل الرومانى . ولكن النتاج الخالد الذى ورثوه للأجيال من بعدهم تعرض ، دون أن يجد من يحميه ، لغرور حاكم مبتدع عصف به — فقد جردت بناء على أوامره ، مدن اليونان وآسيا من أئمن نفائسها . ذلك أن الأنصاف التذكارية للحروب المشهورة ، والمعبودات الدينية ، وأروع تماثيل الآلهة والأبطال والحكام والشعراء ، فى العصور القديمة ، — كل هذه أسهمت فى النصر المؤزر الذى أحرزته القسطنطينية ، وهيات فرصة لسورخ سدرينوس Cedrinus ليتحمس الى حد القول بأنه لم ينقص هذه الأشياء إلا أرواح عظماء الرجال الذين قدر لهذه الآثار البديعة أن تمثلهم ، ولكننا يجب ألا نفتش عن روح هوميروس وروح ديمستين فى

مدينة قسطنطين ، ولا في عصر اضمحلال الامبراطورية ، حيث اهرق العقل البشرى بالاسترقاق الدينى والمبنى .

ونصب الفاتح خيمته في أثناء حصار بيزنطة ، ، فوق التل الثانى على شرف من الأرض يسيطر على المكان كله . وتخليداً لذكرى هذا الموقع الممتاز ، اختاره ليكون الساحة الرئيسية Forum التى يبدو أنها كانت على شكل دائرى ، أو على الأرجح بيضوى . وكون المدخلان المتقابلان أقواس النصر . وامتلات الأروقة المحيطة بها من كل جانب بالتماثيل ، وأقيم وسط الساحة عمود ، توصف قطعة مشوهة منه الآن باسم « التمثال المحروق » أقيم على قاعدة من الرخام الأبيض على ارتفاع عشرين قدماً ، وكان مكوناً من عشر قطع من حجر طول كل منها نحو عشرة أقدام ومحيطها نحو ثلاثة وثلاثين قدماً . ووضع على قمة العمود ، على ارتفاع مائة وعشرين قدماً من الأرض ، تمثال أبولو الضخم وكان مصنوعاً من البرونز ، وربما نقلوه من أثينا أو من إحدى المدن في فريجيا ، والمظنون أنه من صنع فيدياس . ومثل الفنان اله النهار — أو كما نسر فيما بعد على أنه الامبراطور قسطنطين نفسه — بالصولجان في يمينه ، والكرة الأرضية في يساره ، وتاج من الأشعة يتألق فوق رأسه . أما السيرك ، أو ميدان السباق ، فكان بناءً ضخماً يبلغ طوله نحو أربعمئة خطوة وعرضه نحو مائة خطوة . وكانت المسافة فيه بين الحدين مليئة بالتماثيل والمسلات . وما تزال ترى حتى اليوم قطعة فريدة من الآثار ، تلك هي أجسام حيات ثلاث ملتفة حول عمود نحاسى . وكانت رعوسها الثلاثة تشكل حاملاً ذهبياً ذا ثلاثة قوائم ، احتفظ به الاغريق المنتصرون وقُدِّسوه في معبد دلفى بعد هزيمة اجزرسييس ، ولكم شوهت أيدي الفاتحين الأتراك الخشنه جمال ميدان السباق ، ولكنهم يسمونه حتى الآن « الميدان » ويستخدمونه لتدريب الخيل . ومن مكان العرش حيث كان الامبراطور يجلس لمشاهدة ألعاب السيرك ، هبط سلم متعرج يؤدي الى القصر ، وهو بناء فخم ، لا يكاد يدانيه قصر الامبراطور في روما نفسها ، ويشغل مع الأبنية والحدائق والأروقة الملحقه به رقعة كبيرة من الأرض على ضفاف بحر مرمره ، بين حلبة السباق وكنيسة ايا صوفيا . وإن ننس لا ننس الحمايات التى ظلت تحمل اسم زيوكيبس Zeuxippus بعد أن جعلتها أريحية قسطنطين وسخاؤه بالأعمدة السامقة ، وبمختلف أنواع الرخام وبأكثر من بستين تمثالا من البرونز . ولسوف نحيد عن منهج التاريخ إذا حاولنا أن نفصل القول في وصف الأبنية أو الإحياء المختلفة في هذه المدينة ، ومن ثم نجتزئ بالاشارة الى أن

القسطنطينية ضمت بين جدرانها كل ما يمكن أن يعطى من مكانة العاصمة ويزيد في عظمتها ، أو يحقق لسكانها الكثيرين نفعاً أو يوفر لهم أسباب المتعة والسُرور . وبعد قرن من تأسيسها ظهر في وصفها بصفة خاصة كتاب ذكر أنه كان فيها كاييتول أو مدرسة وسيرك ، ومسرحان . وثمانية حمامات عامة ، ومائة وثلاثة وخمسون خماً خالصاً ، واثنان وخمسون رواقاً ، وخمسة مخازن للغلال ، وثمانية خزانات للمياه ، وأربع قاعات فسيحة لاجتماعات السناتو ، أو محاكم القضاء ، وأربع عشرة كنيسة ، وأربعة عشر قصراً ، وأربعة آلاف وثلثمائة وثمانية وثمانون بيتاً ، تستحق أن تنفرد بمساحتها وجمالها عن مجموعة مساكن العامة .

وكانت المسألة الثانية بل أهم المسائل التي تشغل بال الامبراطور في مدينته الحبيبة الاثيرة لديه ، هي اكتظاظها بالسكان . ففي العصور المظلمة التي أعقبت نقل الامبراطورية شوه غرور الاغريق وسذاجة اللاتين النتائج البعيدة والمباشرة لهذا الحادث المشهود الخالد تشويهاً غريباً ، فذكروا وصدقوا أن كل الأسرات النبيلة في روما ، والسناتو ، وكبار رجال الجيش ، مع أتباعهم الذين لا يحصى عددهم ، قد لحقوا بامبراطورهم الى شواطئ بحر مرمره ، وترك جنس زائف من الغريباء والعامة لينفرد بوحشة العاصمة القديمة التي هجرها اصحابها ، وأن ارض إيطاليا التي تحولت منذ أمد بعيد الى جنات عالية ، أقفرت من أهلها وزرعها . ولربما نعلم في هذا الكتاب الى رد هذه المبالغات الى قيمتها الحقيقية ، على أنه لما كان من المتعذر أن ينسب نمو القسطنطينية الى التزايد العادي في السكان أو في الصناعة ، فإنه لابد في هذه الحالة من التسليم بأن هذه المدينة التي أقيمت ، انما قامت على حساب المدن القديمة في الامبراطورية . ومن المحتمل أن قسطنطين قد دعا كثيراً من أعضاء السناتو المؤسرين من روما والولايات الشرقية الى الإقامة في البقعة الطيبة التي اختارها لتكون مقراً له . وقلما يمكن التفريق بين دعوة الحاكم وبين أوامره ، ومن ثم قبول على الفور كرم الامبراطور بالطاعة المقرونة بالابتهاج . وأنعم هو على خلائه المقربين بالقصور التي كان قد شيدها في مختلف أحياء المدينة . وخصص لهم الأراضي وأجرى عليهم الرواتب التي تحفظ لهم مكانتهم ، وتنازل عن أملاكه في بنطس وآسيا ، ليقطعهم ضياعاً وراثية بشرط سهل للملكية ، وهو الإقامة في العاصمة . ولكن هذه المميزات والالتزامات قد تجاوزت الحد المعقول ، وقد ألغيت شيئاً فشيئاً ، وحيثما يكن مقر الحكومة ، ينفق الأمير نفسه ، ووزرائه ، وقضاته وموظفو قصره جزءاً كبيراً من الدخل

العام ، وتجذب أقوى بواعث المصلحة والواجب ، واللهو والفضول ،
 أنظار أغنى سكان الولايات . وهناك — الى جانب هؤلاء وهؤلاء ،
 طبقة ثالثة هي أكثر عدداً ، تتكون بطريقة غير محسوسة ، قوامها
 الخدم والصناع والتجار الذين يكسبون عيشهم بهرق جبينهم ، عن
 طريق احتياجات الطبقات العالية أو ترفها . ومن هنا نجد القسطنطينية
 استطاعت في أقل من قرن من الزمان ، أن تنافس روما في التفوق في
 الثراء وعدد السكان . واكتظت بالمباني الجديدة المتلاصقة دون رعاية
 للصحة أو لوسائل الراحة ، مما لم يسمح الا بالقليل من الشوارع
 الضيقة لممر الأتواج المتلاحقة من الناس والدواب والعربات . ولم
 تكن المساحة المحددة من الأرض كافية لاستيعاب الشعب المتزايد ،
 بل ان الأبنية الإضافية التي امتدت على الجانبين الى البحر كان يمكن
 وجدها أن تشكل مدينة كبيرة قائمة بذاتها .

ان توزيع الخمر والزيت والغلل أو الخبز ، والفنود أو المؤن ،
 توزيعاً مستمراً منتظماً ، كاد أن يخلص المواطنين المعوزين في روما من
 عبء الحاجة الى الكدح ، وظل مؤسس القسطنطينية يحاكى بذخ
 القياصرة الى حد ما ، ولكن كرمه مهما حظى بالمديح والاطراء من شعبه ،
 جلب عليه لوم الأجيال التي جاءت بعده . فان أمة من المشرعين
 والفزاة قد تؤكد دعواها في الحصول على محصولات أفريقية التي
 اشتروها بالدماء . وكان أوغسطس يقول في دهاء ان الرومان ، وهم
 يترغون في الرخاء والوفرة ، يجدر بهم أن يتخلوا عن ذكرى الحرية .
 ولكن تبذير قسطنطين لم يكن ليغتر لاية اعتبارات من المصلحة العامة
 او الخاصة ، فان جزية الغلال التي فرضت على مصر من أجل عاصمته
 الجديدة استنفدت في أطعام أناس كسالى مفلسين على حساب المزارعين
 في ولاية جادة عاملة . ولهذا الامبراطور ، الى جانب ذلك ، تنظيماً
 أقل عرضة للوم ، ولكنها كذلك أقل جدارة بالاهتمام . وقسم
 القسطنطينية الى أربعة عشر قسماً أو حياً ، وكرم المجلس العام بأن
 أطلق عليه اسم السناتو ، وأضفى على المواطنين امتيازات ايطاليا ،
 وأسبغ على المدينة الناشئة لقب « مستعمرة » ، أولى بنات روما
 القديمة وأكثرهن حظوة . وظلت الامم الوقور تحتفظ بالتفوق المشروع
 المعترف به ، اللائق بما حملت فوق ظهرها من السنين ، وبمكانتها
 وبذكرى عظمتها السابقة .

تدشين القسطنطينية

وكان قسطنطين يستحث انجاز العمل بصبر نافذ وكأنه عاشق ولهان ، فأقيمت الأسوار والأروقة والأبنية الرئيسية في بضعة سنين ثلاث ، وفي رواية أخرى في بضعة شهور ثلاث ، ولكن هذا النشاط الخارق لابد أن يستثير أقل قدر من الإعجاب ، لأن كثيرا من المباني تم بطريقة معيبة متعجلة ، الى درجة أن خلف قسطنطين وجد صعوبة في حمايتها من التصدع المحدث بها . ولكن بينما كانت تظهر جيوية الشباب ونضارته ، كان المؤسس يستعد للاحتفال بتدشين مدينته . ومن السهولة بمكان أن نتخيل الألعاب والمنح والهبات التي توجت ابهة هذا الاحتفال المشهود ، ولكن ثمة ناحية ذات طبيعة أكثر تفردا وخلودا ، لا ينبغي اغفالها قط ، تلك أنه كلما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة ، أقيم على عربة من عربات النصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه ، من الخشب الموه بالذهب ، حاملا بيده اليمنى رمزا لعبقرية المكان ، ومواكب الحراس حاملين شموعا بيضاء مرتدين أثمن الثياب ، الموكب المهيّب وهو يسير عبر حلقة السباق ، حتى اذا صار في مواجهة العرش الذي يجلس عليه الامبراطور الحاكم ، نهض هذا من مقعده ، ومجد في اجلال وامتنان ذكرى سلفه . ونقش في يوم الاحتفال بالتدشين على عمود من الرخام مرسوم امبراطوري يخلع اسم « روما الثانية أو الجديدة » على مدينة القسطنطينية ، ولكن اسم القسطنطينية غاق هذه التسمية الكريمة . وما يزال ، بعد ثورة أربعة عشر قرنا ، يخلد شهرة منشئها .

٧٤١

نظام الحكومة الجديد

وطبيعى أن يرتبط تأسيس عاصمة جديدة بانشاء نظام جديد في الادارة المدنية والعسكرية . ان النظرة الغامضة الى النظام السياسى المعقد الذى أدخله دقلديانوس وهذبه قسطنطين ، وأكمله خلفاؤه المباثرون ، مثل هذه النظرة لن يتسلى فيها الخيال بالوقوع على صورة فريدة لامبراطورية عظيمة فحسب ، ولكنها الى جانب هذا تتجه الى توضيح الاسباب الخفية والداخلية لاضمحلالها السريع . وكثيرا ما يقودنا تتبع أى نظام مشهور الى أقدم عصور التاريخ الرومانى واحداثها . ولكن النطاق المعقول لهذا البحث ينحصر في مدى نحو مائة وثلاثين عاما ، ابتداء من حكم قسطنطين الى نشر قوانين ثيودوسيوس ،

وهي التي نستقي منها ، كما نستقي من « سجلات الشرق والغرب » (نوتيشيا Notitia) أغزر المعلومات وأصدقها عن حالة الامبراطورية وستعوق مثل هذه الأشياء مجرى الكلام لبعض الوقت ، ولكن لن يعيب علينا هذا الانقطاع الا القراء الذين لا يستمعون أهمية القوانين والسلوك ، على حين يتلهف فضولهم على دسائس البلاط العابرة أو احتدام معركة عارضة .

واعترز الرومان اعتزازا كريما بالسلطة الفعلية ، وتركوا لغرور الشرق مجال التباهي والظهور بمظهر العظمة ، ولكنهم لما فقدوا حتى مجرد صور الفضائل التي نبعت من حريتهم القديمة ، تلوثت بطريقة غير ملحوظة ، بساطة سلوكهم بالأبهة المصطنعة في بلاط آسيا . فان امتيازات الكفاية الشخصية والتأثير الشخصي ، تلك التي تبرز في أية جمهورية ، على حين أنها قد تكون ضعيفة غامضة في أية ملكية ، قضى عليها ، استبداد الأباطرة الذين استبدلوا بها اذلالا عاتيا لكل ذي مكانة أو منصب ، من العبيد الذين أضفيت عليهم الألقاب . ووضعوا على عتبات العرش ، الى أحقر أدوات السلطة المطلقة . واهتم هذا الحشد الكبير من سلفة الأتباع بتدعيم الحكومة الفعلية القائمة خشية نشوب ثورة تطوح بآمالهم ، وتحول بينهم وبين ما يرقبون من جزاء لقاء خدماتهم . ففى مثل هذه الحكومة الالهية (وهكذا كانوا يسمونها) تحددت كل مرتبة بأكبر قدر من التأنق والدقة ، وأبرزت عظمتها بمختلف المراسم الثقافية المهيبة ، التي كان التمسك بها عملية شاقة ، والتي كان اهمالها تدنيسا وانتهاكا . وانحطت نقاوة اللغة اللاتينية لانهم اقتبسوا ، في غمرة الزهو والملق ، فيضا من حثالة الالفاظ التي كان يتعذر على شيشرون فهمها ، والتي كان لابد أن يأبأها أوغسطس في احتقار . وكان الملك نفسه يخاطب أصحاب الوظائف الرئيسية في الامبراطورية بالالقاب الخداعة الخلابة كأن يقول للواحد منهم : يا صاحب الاخلاص ، يا صاحب الهيبة ، يا صاحب السعادة ، يا صاحب السمو ، يا صاحب الأهمية العالية العجيبة ، يا صاحب العظمة السنية الوقورة . وزوقت تزويقا عجيبا براءات وظائفهم بشعارات منتقاة أحسن انتقاء لتوضيح طبيعتها ورفعة شأنها ، ومن هذه الشعارات صورة الامبراطور الحاكم ، وعربة نصر ، وسجل الأوامر موضوعا على منضدة مغطاة بمفرش ثمين تخفق حوله أربع شمعات مضاءة ، والصور الرمزية للولايات التي حكموها ، أو أسماء وأعلام الفرق التي تولوا قيادتها . وكانت بعض هذه الشعارات الرسمية تعرض فعلا في قاعات استقبالهم ، وبعضها يتقدم مسيرتهم المحوطة بالأبهة والجلال انى ظهروا في احتفال أو مكان

عام . وصفوة القول انهم جمعوا في سلوكهم وفي اُرديتهم في اُرسمتهم وحليهم وفي ركايبهم كل ما يوحى بالاجلال والاكبار لمثلى صاحب الجلالة وهكذا كان الجائز أن يخطيء مراقب حكيم ، نظام الحكومة الرومانية فيحسبه مسرعا فحما يعجج بممثلين من مختلف الشخصيات والدرجات ، يرددون الفاظ نموذجهم الاصلى (اى الامبراطور) ، ويحاكون شهواته ونزواته .

وكان الموظفون الذين تؤهلهم وظائفهم ليكونوا في عداد الهيئة العامة الحاكمة في الامبراطورية يندرجون تحت ثلاث فئات متميزة : الأولى البارزون Illustrious والثانية المجلون Respectable والثالثة الموثرون Honorable . وفى عهد البساطة الرومانية كان هذا اللفظ الأخير بمثابة تعبير غامض عن الرعاية أو التكريم ، حتى أصبح آخر الامر لقباً معيناً مخصصاً لأعضاء السناتو ، ثم بعد ذلك لمن اختير من هذا المجلس الموثر لحكومة الاقاليم . أما أولئك الذين كانوا يزعمون لأنفسهم - بحكم مراتبهم ووظائفهم - امتيازاً يسمو بهم على سائر هيئة السناتو ، فقد أطلق عليهم تسامحاً فيما بعد ذلك بوقت طويل لقب « المجلون » أما لقب « البارزون » فقد احتفظ به دائماً للشخصيات الرفيعة الشأن الذين كانوا موضع احترام الطائفتين الثانية والثالثة وطاعتها . وكان يطلق فقط على (١) القناصل والنبلاء (البطارقة) . (ب) رؤساء الحرس البريتورى والوالى في كل من روما والقسطنطينية . (ج) والقائد العام لكل من الفرسان والمشاة . (د) نظار القصر السبعة الذين مارسوا مهامهم المقدسة الى جوار شخص الامبراطور . ولم يكن لأسبقية التعيين اى اعتبار طالما تماثلت الوظائف . وعهد الأباطرة الذين أرادوا الاكثار من خلصائهم المقربين ، الى منح البراءات الشرفية كوسيلة لارضاء غرور رجال البلاط القلقين ، ولو لم يحققوا اطماعهم .

القناصل والبطارقة (النبلاء)

كان القناصل الرومان ، وهم الحكام الأول في دولة حرة ، يستمدون حقهم في السلطة من اختيار الشعب لهم . وظل القناصل ينتخبون بالاقتراع العام الحقيقى أو الشكلى في السناتو ، طالما تفنسل الأباطرة باخفاء الاستبعاد الذى فرضوه من وراء قناع . ولقد ألغيت منذ عهد دقلديانوس تلك الملامح الباهتة للحرية . وتظاهر المرشحون الناجحون الذين كانوا يفوزون بشرف الوظائف القنصلية عاما بعد عام ، بأنهم

يرثون لهماوى الاذلال التى تردى فيها أسلافهم . فقد بلغ المهوان بأسرتى سكيو وكاتو أنهم يلتمسون أصوات العامة ، ويعانون من طريقة الانتخابات الشعبية المملة الباهظة التكاليف ، ويعرضون كرامتهم للخزى والعار اذا حبس الشعب أصواته عنهم ، على حين استبقاهم حظهم الأسعد لعهد وحكومة كانت فيهما حكمة الامبراطور السعوف الرحيم المعصوم من الخطأ هى التى تحدد مكافأة الميزات والفضائل . وقد أعلن الامبراطور صراحة فى الرسائل التى وجهها الى القنصلين المنتخبين ، أنهما من صنع سلطانه ويده هو وحده . وصنعت لوحات مذهبة من العاج نقش عليها اسماهما وصورتاهما ، ووزعت على الابراطورية هدية الى الولايات والمدن والحكام والسناتو والشعب . وجرى الاحتفال المهييب بتنصيبهما فى القصر الامبراطورى . وحرمت روما لمدة مائة وعشرين عاما من حكمها القدامى . وفى صباح اليوم الأول من يناير كان القناصل يتسلمون شعارات مناصبهم . وكان لباسهم عبارة عن رداء أرجوانى موشى بالحرير والذهب ، محلى أحيانا ببعض الجواهر الثمينة . وكان يسير فى ركابهم فى هذه المناسبة المهية كبار موظفى الدولة ورجال الجيش فى زى أعضاء السناتو ويتقدمهم ضباط يحملون شعارات هى عبارة عن قضبان محزومة على بلطة ، وكانت هذه يوما مخيفة مروعة . وكان الموكب يسير من القصر الى الساحة أو الميدان الرئيسى فى المدينة حيث يصعد القنصل الى مقره ويجلس فى مقعده الفاخر المثلث القوائم المصنوع على الطراز القديم ، ومن ثم يمارس على الفور عملا من اختصاصاته ، وهو أن يعق عبدا كان يمثل أمامه لهذا الغرض ، وهذا لون من الطقوس قصد به تمثيل عمل بروتس الأكبر المشهود منشىء الحرية ، ومنشىء وظيفة القنصل ، حين أدخل فى عداد مواطنيه فندكس الأمين Vindex الذى كشف مؤامرة أسرة تاركوبين . واستمرت الاحتفالات العامة لعدة أيام فى جميع المدن الرئيسية : بحكم العرف والعادة فى روما ، والتقليد والمحاكاة فى القسطنطينية ، وحبا فى المسرات والبهجة ونظرا لوفرة الغنى والثراء فى قرطاجة وأنطاكية والاسكندرية . وبلغت تكاليف ألعاب المسرح والسيرك والدرج فى عاصمتى الامبراطورية أربعة آلاف رطل من الذهب ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه استرلينى ، فإذا تجاوزت هذه النفقات الباهظة قدرة الحكام أو حدود مشيئتهم دفع المبلغ من الخزائنة الامبراطورية . وإذا فرغ القناصل من هذه الواجبات التقليدية المعتادة اضحوا أحرارا فى الركون الى ظل حياة خاصة لينعموا طوال بقية العام بأن يسرحوا الطرف فيما يحف بهم من عظمة وجلال ، دون أن يعكسر عليهم أحد صفوفهم ، فلم يعودوا يرأسون المجالس الوطنية أو يقررون

الحرب والسلام ، ولم يكن لخواصهم وقدراتهم كبير قيمة (الا اذا شغلوا وظائف أكثر فعالية) ، ولم يكن لأسمائهم من فائدة الا في تحديد الموعد القانوني للسنة التي كانوا قد ملأوا فيها الكرسي الذي كان يشغله ماريوس وشيرون . على أنه ظل من الأمور المحسوسة المعترف بها في أواخر عهد الاستعباد الروماني أن هذا اللقب الأجوف قد يقارن بالاستحواذ على السلطة الفعلية ، بل قد يفضل عليه . فقد ظل لقب القنصل محط الأنظار وهدف الأطماع وأوفى جزاء للسيرة الحسنة والاخلاص ، بل ان الأباطرة انفسهم — أولئك الذين احتقروا الظلال الباهتة للجمهورية — كانوا يدركون كل الادراك أنهم انما يحظون بمزيد من الجلال والعظمة حين يفوزون كل عام بامجاد منصب القنصل .

ولا يمكن أن يوجد في أى عصر أو بلد تفريق أدق وأكثر زهوا بين النبلاء والشعب ، من هذا التفريق الذى كان قائما بين النبلاء والعبادة في أول عصور الجمهورية الرومانية ، حيث كانت الثروة والأمجاد ووظائف الدولة والطقوس الدينية تكاد تكون مقصورة قصرا تاما على الأولين الذين احتفظوا بنقاوة دمائهم بأشد الحقد المسىء ، وبذلك أبقوا أتباعهم في حالة من الاسترقاق الخداع . ولكن التريبونات قضوا بجهودهم المتواصلة ، وبعد صراع طويل ، على هذه الفوارق التى لا تتناسب مع روح شعب حر . فتجمع أفراد العامة (البلييان) الذين أوتوا أكبر قدر من النشاط والتوفيق والثروات ، وتطلعوا الى الأمجاد وكانوا جديرين بالنصر وعقدوا الزيجات ، وبعد بضعة أجيال حاكوا النبلاء في خيلائهم وفخارهم — أما أسرات النبلاء ، من جهة أخرى تلك التى لم يحص عددها حتى نهاية عصر الجمهورية والتى اخفقت في المجال العادى للحياة الطبيعية ، أو أبيدت في الحروب الخارجية والداخلية الكثيرة ، أو بسبب افتقارها الى الموهبة والحظ ، فانها امتزجت ، دون أن تشعر بجمهرة الشعب ، وبقي منها عدد قليل جدا يمكن أن يرجع بعرقه النقى الأصيل الى نشأة مدينة روما أو حتى الى نشأة الجمهورية ، حين خلق قيصر واوغسطس وكلوديوس ونسبازيان من هيئة السناتو عددا كافيا من أسرات بطارقة جديدة ، يحدوهم الأمل في تثبيت نظام ظلوا يعتبرونه شرفا مقدسا ، ولكن سرعان ما اكتسح بطش الطفافة ، والثورات الكثيرة ، وتبدل السلوك واختلاط الأمم — اكتسح هذه الأسرات المصنوعة (التى كان البيت الحاكم في عدادها دائما) . ولم يبق من ذلك عند اعتلاء قسطنطين العرش ، سوى تقليد غامض مشوه يقول بأن النبلاء هم أوائل الرومان . وكان من الجائر ألا يلتزم مع شخصية قسطنطين وسياسته ، تكوين هيئة من

النبلاء يكون لها من تأثيرها ونفوذها ما يقيد سلطة الملك ويعززها في نفس الوقت ، ولكن لو انه تبني جديا مثل هذه الخطة ، لما كان في مكتبه ، بجرة قلم أو بأمر عال حاسم ، أن يقر نظاما لابد لترسيخه من عامل الزمن وتهئية الأفكار . والواقع انه أحيا لقب « البطارقة » (أى النبلاء) ولكنه أحياه بوصفه امتيازاً شخصيا لا لقبا وراثيا ، ولم يسبقهم في علو المنزلة الا القناصل الذين اقترنت مناصبهم السنوية بهذا التفوق العابر ، ولكن البطارقة فيها عدا ذلك سموا فوق جميع كبار الموظفين في الدولة ، ولم يكن بينهم وبين شخص الأمير حجاب قط . وكانوا يمنحون هذه المنزلة الرفيعة لدى الحياة . ولما كانوا عادة من المقربين ، ومن الوزراء الذين بلغوا أرذل العمر في البلاط الامبراطوري ، فقد فسد الاشتقاق أو الاصل الحقيقي للكلمة بفعل الجهل والرياء ، وحظى بطارقة القسطنطينية بالاجلال والاحترام على أنهم « الآباء » المختارون للامبراطور وللدولة .

رؤساء الحرس • البروقصص • الحكام

كانت حظوظ رؤساء الحرس Prefect تختلف اختلافا جوهريا عن حظوظ القناصل والبطارقة . فقد رأى البطارقة عظمتهم القديمة تذوب في لقب عقيم ، أما القناصل الذين صعدوا شيئا فشيئا من أدنى درجات السلم ، فقد عهد اليهم بالادارة الفنية والعسكرية في العالم الروماني ، فمنذ عهد سيفيروس الى عهد دقلديانوس ، وضع الحرس والقصر ، والقوانين والاموال ، والجيش والولايات تحت اشرافهم ورعايتهم ، فأمسكوا بيد خاتم الامبراطورية وباليد الأخرى علمها ، شأنهم في ذلك شأن وزراء الشرق . وكانت فرق الحرس البريتوري تعزز طمع رؤسائهم ، الذي كان تارة مخيفا وتارة مهينا ، بالنسبة للسادة الذين هم في خدمتهم . ولكن لما أضعف دقلديانوس شوكة هذه الفرق المتعطسة . وقضى عليها قسطنطين قضاء مبرما ، انحط من بقى من قوادهم ، دون صعوبة ، الى مرتبة الحكام المدنيين النافعين المطيعين . ولما لم يعودوا مسئولين عن سلامة شخص الامبراطور ، تخلوا عن الولاية أو السلطة التي كانوا قد ادعوا ومارسوها ، حتى ذلك الوقت ، على كل ادارات القصر واقسامه . وحرّمهم قسطنطين من القيادة العسكرية حالما انقطعوا عن قيادة زهرة القوات الرومانية الى الميدان بناء على أوامره الخاصة ، وفي نهاية الامر حول قواد الحرس ، نتيجة ثورة فريدة في بابها الى حكام مدنيين في الولايات .

وطبقا لخطة الحكم التى وضعها دقلديانوس ، كان لكل واحد من الأمراء الأربعة رئيس لحرسه البريتورى . ولما اتحدت الملكية مرة أخرى فى شخص قسطنطين ، ظل متمسكا بعدد رؤساء الحرس الأربعة ووكل الى كل منهم أمر الولايات التى كانوا يعملون فيها . (ا) رئيس الشرق ، وامتد اختصاصه على ثلاثة أجزاء المعمورة التى كانت خاضعة للرومان من شلالات النيل الى ضفاف فاسيس . ومن جبال تراقيا الى حدود فارس . (ب) وأقرت الولايات الهامة : بانونيا ، وداشيا ومقدونيا واليونان يوما بسلطان رئيس الحرس فى الليريكوم . (ج) ولم يقتصر سلطان رئيس الحرس فى ايطاليا على حدود البلد الذى اشتق منه لقبه ، بل امتد الى راشيا حتى ضفاف الدانوب وعلى الجزر التابعة فى البحر المتوسط ، وذلك الجزء من افريقية الواقع بين مشارف برقة وحدود تنجيتانيا Tingitania . (د) أما رئيس حرس الغلال ، فقد ضم تحت هذا الاسم الجامع الولايات المجاورة ، بربلانيا وأسبانيا ، ودان لسلطانه الجزء الممتد من سور انطونينوس (فى اسكتلنده) الى سفح جبال اطلس .

ولما أبعد القواد البريتوريون عن القيادة العسكرية بأسرها ، كانت المهام التى قدر لهم أن يتولوها فى الأمم الخاضعة تتلاءم مع مقامهم أقدر الموظفين ومواهبهم . فقد عهد الى حكمتهم بمهمتين ساميتين القضاء والمال ، وهما الموضوعان اللذان يستنفدان ، وقت السلم ، جهود الملك والشعب . وفى الأولى ، أى القضاء يحمون المواطنين الذين يخضعون للقانون ، وفى الثانية يجمعون من أموالهم القدر اللازم لمساهماتهم فى نفقات الدولة . وكان هؤلاء الرؤساء البريتوريون بفضل سلطانهم يوفرون العملة والطرق والبريد ومخازن الغلال والصناعات وغير ذلك مما يحقق الرخاء العام . وخول لهم بوصفهم ممثلين للجلالة الامبراطورية أن يفسروا وينفذوا ، وفى بعض الأحيان يعدلوا ، المراسيم العامة ، بما يصدر من بلاغات أو اعلانات وفق مقتضيات الظروف . كما اظهروا على سلوك حكام الولايات معزلوا منهم المهملين وعاقبوا المذنبين ، وكان يستأنف امام محكمة الرئيس البريتورى كل قضية ذات أهمية ، مدنية كانت أو جنائية من اختصاص الهيئات الداخلة فى دائرة ولايته الشرعية . وكان حكمه نهائيا حاسما ، بل ان الابطرة انفسهم ابوا أن يقبلوا أية شكوى ضد حكم أو نزاهة هؤلاء القضاة الذين كرموهم بمثل هذه الثقة غير المحدودة . وكانت مخصصاته متناسبة مع مكانته ، أما اذا تولاه الجشع ، فما أكثر ما استمتع بالفرص لابتزاز حيلة طيبة من الرسوم والهدايا والمبالغ الاضافية ! . وعلى الرغم من

أن الأباطرة لم يعودوا يخشون طمع هؤلاء الرؤساء البريتوريين ، فانهم حرصوا على ايجاد شيء من التوازن لمواجهة قوة هذا المنصب العظيم ، عن طريق عدم التثبيت من مدة شغله وقصر هذه المدة .

واستثنيت روما والقسطنطينية وحدهما لخطورة أهميتهما ومكانتهما من ولاية الرؤساء البريتوريين . لقد هيا اتساع مدينة روما ، وتجربة التعويق والاهمال العقيم للقوانين ، هيات الفرصة امام سياسة أوغسطس ليجد تبريرا مموها لتعيين حاكم جديد يمكنه وحده أن يكبح جماح جمهور ذليل مشاغب بيد من حديد . فعين فاليريوس Messala أول رئيس بريتورى لروما لعل حسن سمعته يمكنه من اتخاذ هذا الاجراء المثير للبغضاء . ولكن المواطن المتهذب اعتزل منصبه ، ولما يمض عليه فيه سوى ايام قلائل ، معلنا ، بروح جديرة بصدق بروتس ، أنه وجد نفسه عاجزا عن ممارسة سلطة لا تلتئم مع الحرية العامة . ولما بات معنى الحرية أقل روعة ، اتضحت مزايا النظام بشكل أكثر جلاء وسمح للرئيس البريتورى ، الذى بدا أنه خصص ليكون أداة ارهاب للعبيد والمتشردين — سمح له أن يبسط ولايته فى الامور المدنية والجنايية على اسرات الفرسان والتبلاء فى روما . ولم يكد البريتوريون الذين يمينون سنويا لمنصب القضاء والانصاف يستطيعون أن ينازعوا على ملكية الساحة ومركز القضاء Forum قاضيا دائم اليقظة حظى عادة بثقة الأمير . ومن ثم هجرت محاكمهم ، وهبط بالتدريج عددهم الذى تراوح يوما بين اثنى عشر وثمانية ، الى اثنين أو ثلاثة ، وانحصرت وظائفهم الهامة فى التزام باهظ النفقات ، هو عرض الالعاب لتسلية الشعب . وبعد أن تحولت وظيفة القناصل الرومان الى مجرد تمثيلية من التقاليد الماضية قلما تعرض فى العاصمة ، احتل الرؤساء البريتوريون أماكنهم الشاغرة فى السناتو ، وسرعان ما اعترف لهم بأنهم الرؤساء الطبيعيون فى هذا المجلس الموقر . وتلقوا طلبات الاستئناف من مسافة مائة ميل . وأصبح من مبادئ الفقه المسلم بها أن كل السلطة البلدية تتبع منهم وحدهم . وكان يعاون محافظ روما فى مهمته الشاقة خمسة عشر موظفا ، كان بعضهم نظراء له من قبل ، بل منهم من كانوا رؤساءه . وكانت كل الادارات الرئيسية تتناسب مع مقتضيات الاشراف على المرافق المتعددة مثل مكافحة الحرائق والسرقات والحوادث الليلية وحجز المخصصات العامة من الفلال وتوزيعها ، وتعمد الميناء وخزانات المياه ، والمجارى العامة ، ومراقبة الملاحة فى التير ، وتطهير قاع النهر ، والتفتيش على الأسواق والمسارح ، والأشغال العامة

والخاصة . والواقع أن يقظتهم كانت تنتظم الأهداف الثلاثة لاية شرطة نظامية : الأمن ، الرخاء ، والنظافة . ثم بغد ذلك المحافظة على ابهة العاصمة وزينتها كدليل على سهر الحكومة وعنايتها . وقد عين مفتش خاص للمائيل ، وكانى به حارس على عالم الجمار ، أو هؤلاء الموتى الذين لا يكاد يقل عددهم عن السكان الأحياء فى روما ، كما قال أحد الكتاب مبالغا فى تقدير عددها . وبعد ثلاثين عاما من تأسيس القسطنطينية عين للمدينة الناشئة محافظ شبيه بهذا الذى كان فى روما ، لنفس الأغراض وبمثل هذه الصلاحيات ، وسوى فى المرتبة بين المحافظ (رئيس البلدية) وبين الرؤساء البريتوريين .

وشكل الذين يتميزون فى سلم الوظائف الامبراطورية بلقب « المجلين » ، طبقة وسطا بين الولاة « البارزين » وحكام الولايات « الموقرين » . وكان للبروقنصل فى آسيا وآخيا (ولاية اغريقية) وأفريقية مركز ممتاز فى هذه الطبقة ، وهو مركز منح بفضل ذكرى مكانتهم السابقة ، وكان استئناف أحكامهم الى محاكم الولاة البريتوريين . هو الرمز الوحيد لمتبعيتهم أو عدم استقلالهم . وانقسمت الحكومة المدنية فى الامبراطورية الى ثلاث عشرة وحدة ادارية كبيرة كانت كل منها تعادل فى الحقيقة مساحة مملكة قوية ، وكانت أولى هذه الوحدات من اختصاص حاكم (كونت Count) الشرق . ويمكن أن نكون فكرة عن خطورة شأن مهامه وتنوعها اذا لاحظنا أن ستمائة من العاملين الذين يمكن أن نسميهم اليوم سكرتارية أو كتبة أو حجابا أو حملة الرسائل ، كانوا يعملون فى مكتبه . ولم يعد منصب « الوالى الامبراطورى » على مصر يشغل بأى فارس رومانى ، ولكن احتفظ بالاسم فقط ، أما السلطات غير العادية التى كانت يوما ما ، والتى جعل منها مركز مصر وطباع أهلها ضرورة حتمية ، فقد ظلت فى يد المحافظ . أما الوحدات الاحدى عشرة الباقية : آسيانا ، وبونتيكا وتراقيا ، ثم مقدونيا وداشيسيا وبانونيا ، أو الليريكوم الغربية ، ثم ايطاليا وأفريقية ، ثم الغال واسبانيا وبريطانيا — فكان فى كل منها نائب للوالى ، وقد يكفى الاسم لتوضيح طبيعة الوظيفة وتبعيتها أو ارتباطها بغيرها . ويمكن القول بأن نواب قواد الجيش الرومانية ، والكونتات Counts والأدواق العسكريين الذين سيرد ذكرهم فيما بعد — كانوا كذلك يتمتعون بمكانة ولقب « المجلين » .

ولما طفت روح الحقد والتباهى على مجالس الإباطرة ، ثابروا فى شغف زائد على توزيع السلطة ومضاعفة عدد القابها . ومزقت شر

ممزق ، بطريقة غير محسوسة ، تلك الأقطار الكبيرة التي كان الفاتحون الرومان قد وحدوها في ظل شكل بسيط واحد من أشكال الحكم ، حتى انقسمت الامبراطورية آخر الأمر الى مائة وست عشرة ولاية ، ناعت كل منها بعقب جهاز ادارى باهظ النفقة بهي المنظر ، تختلف القاب من يتولون الحكم فيها : ففى ثلاث منها كان لقبه « البروقنصل » . وفى سبع وثلاثين كان « القنصل » . وفى خمس كان يدعى « كركتور Corrector » (وهو طراز من الموظفين كان يتولى الحكم فى المدن الحرة نشأ لأول مرة فى عهد اوغسطس) . وفى احدى وسبعين ولاية كان يدعى « الرئيس » وهكذا تعددت تسميات هؤلاء الحكام ، وتدرجت مراتبهم بعضها فوق بعض ، كما اختلفت شعارات هذه المراتب بشكل غريب ، ولم تكن حظوظهم على قدر سواء ، فى الارتياح الى هذه المراكز او الانتفاع بها ، بل تأرجح هذا وذلك صعودا وهبوطا تبعا للمظروف الطارئة ، ولكنهم كانوا جميعا (باستثناء البروقنصل) يندرجون تحت طبقة « الموقرين » ، وعهد اليهم جميعا — فى حالة رضا الأمير وتحت سلطة الولاة او نوابهم (او بتفويض منهم) — بشئون القضاء والمال ، كل فى نطاق اختصاصه . وان المجلدات الضخمة للتشريعات والفتاوى لتزود الباحث المدقق بمادة غزيرة عن نظام الحكم فى الولايات ذلك النظام الذى تناولته بالتهديب والتنقيح على مدى ستة قرون ايدى رجال السياسة والقانون من الرومان . وقد يكتفى المؤرخ بنصين فريدين نافعين قصد بهما الحد من سوء استغلال السلطة :

١ — تسليح حكام الولايات بسيف العدالة من أجل المحافظة على الأمن والنظام ، وانزلوا العقوبات البدنية ، وحكوا بالاعدام فى الجرائم الكبرى ، لكن لم يكن من حقهم أن يسمحوا للمحكوم عليه باختيار الطريقة التى ينفذ بها الحكم أو بصور الحكم بالنفى مهما كان الحكم خفيفا أو مشريفا . فقد احتفظ بهذه الامتيازات للوالى الذى كان له وحده أن يفرض غرامة ثقيلة قدرها خمسون جنيها ذهبا ، أما نائبه فقد انحصر فى فرض غرامة يسيرة لا تعدو بضنع أوقيات من الذهب . وكان هذا التفريق — الذى يبدو أنه يخول القدر الأكبر من السلطة ، على حين ينكر القدر الأيسر منها — مبنيا على أساس معقول ، ذلك أن هذا القدر الأيسر على التحقيق ، أكثر عرضة لسوء الاستغلال ، فكثيرا ما سولت الأهواء لحاكم الولاية ارتكاب المظالم التى تصيب الرعايا فى حريتهم وفى أرزاقهم ، على حين يداخله الرعب ، بدافع الروية أو الانسانية ، من احتمال وزن الدم البرى . كذلك يمكن اعتبار النفى ،

أو الغرامات الكبيرة أو المينة السهلة ، تتصل أكثر ما تتصل ، بصفة خاصة بالاغنياء والنبلاء ، وبهذه الطريقة أو بحكم هذا النص ، ينقذ من الاضطهاد الخفى لحاكم الولاية أولئك الأشخاص الذين هم أكثر عرضة لجشعه أو سخطه ، وينتقل التصرف في شأنهم الى محكمة أكثر مهابة وتجردا هي محكمة الوالى البريتورى .

٢ — وكانوا يخشون ، وحق لهم أن يخشوا ، أن تنحرف بالقاضى عن جادة النزاهة مصلحته أو ميوله ، ولهذا صدرت التعليمات المشددة ، باستبعاد أى موظف من حكومة الولايات التى ولد فيها ، دون اجازة خاصة من الامبراطور ، كما حرم على الحاكم وابنه الزواج من مواطنة أو مقيمة فى الولاية ، أو شراء العبيد أو الأراضى والبيوت فى نطساق ولايته .

ورغم هذه الاحتياطات الشديدة ، ظل قسطنطين بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة ، ينعى على الرشوة والجور فى القضاء ، ويعبر عن استيائه الشديد من أن نظر القاضى للدموى وسرعة تصرفه فيها أو تأجيله لها ، ثم حكمه النهائى — كل أولئك كان يباع ، أما بطريق مباشر أو عن طريق موظفى محكمته . وان تكرار القوانين غير الرادعة والتهديدات غير المؤثرة لينهض دليلا على المضى فى مثل هذه الجرائم دون حساب أو عقاب .

وكان كل الحكام المدنيين من رجال القانون ، فقد فتحت معاهد جستنيان أبوابها لشباب ممتلكاته الذين وهبوا أنفسهم لدراسة الفقه الرومانى ، ويتلطف الملك ، حفزا لهمة الشباب ، فيؤكد لهم انه سيجزيهم أحسن الجزاء لقاء مهارتهم وكفايتهم نصيبا والمرا فى حكومة الجمهورية . وكانت اصول هذا العلم المربح تدرس فى كل المدن الكبيرة فى الشرق والغرب ، ولكن أشهر مدرسة له كانت فى بيروت على الشاطئ الفينيقى ، وقد ازدهرت لأكثر من ثلاثة قرون ، منذ عهد الاسكندر سيفيروس ، الذى أسس معهدا ريبا كان نافعا لبنى وطنه ، وكان الطلبة بعد دراسة منتظمة مدتها خمس سنوات فيه ، يضربون فى الولايات سعيا وراء الثروة والأمجاد ، وما كان ليعوزهم المعين الذى لا ينضب من العمل فى امبراطورية مترامية الأطراف افسدها تعدد القوانين ، وكثرة الأمنيين والردائل . وكانت محكمة الوالى البريتورى فى الشرق كافية وحدها لايجاد عمل لمائة وخمسين محاميا ، تفرد اربعة وستون منهم بمزايا خاصة ، واختير من بينهم اثنان آخران بمرتب قدره

ستون جنيها ذهباً للدفاع في قضايا الخزانة . وجرى أول اختبار لمواهبهم القضائية بتعيينهم ليعملوا بوصفهم معاونين للحكام ، ومن هنا كانوا يرقون الى منصة الرياسة في المحاكم التي كانوا يترافعون أمامها . وتولوا مناصب الحكم في الولايات ، ثم صعدوا بفضل جدارتهم أو شهرتهم أو حظوتهم ، خطوة خطوة ، الى أعلى مناصب الدولة ، وعدوا من « البارزين » واعتبر هؤلاء الرجال سعة الإدراك أو العقل أداة المقارنة في ساحة القضاء ، وفسروا القوانين وفق مصالحهم الشخصية ، وربما لازمت العادات الوبيلة خلقهم في مجال إدارة شئون الدولة . والحق أن المحامين القدامى والمحدثين — الذين شغلوا أهم المراكز بنزاهة خالصة وحكمة بالغة — قد رغبوا من شأن المهنة الحرة ، ولكن التدرج العادي للمحامين ، في عهد اضطهاد الفقه الروماني اقترن بأبلغ الضرر والعار . فقد وقعت المهنة الشريفة التي ظلت ميراثاً مقدساً للنبلاء — وقعت بين أيدي المعتقين والعامّة الذين اتخذوا منها ، خبثاً لا براعة ، تجارة دنيئة سيئة . وطرق بعضهم أبواب الأسرات لأثارة المنازعات وتشجيع التقاضي وجر المغانم لأنفسهم ولاخوانهم . وقبّع بعضهم في أمكنتهم ، وانتحلوا وقار أساتذة القانون ، وزودوا عملاءهم الأغنياء بأحذق الحيل لتشويه أوضح الحقائق ، وبالحجج لتزييف أشد المزاعم بطلاناً . وتألفت الطبقة الجليّة المشهورة من المحامين الذين ضجت الساحة بفصاحتهم التي تتسم بالغلو والثروة والمبالغة . ولم يقيموا وزناً للشهرة أو العدالة ، ووصموا ، في أغلب الأحوال ، بأنهم أذلاء جهلة جشعون ، قادوا عملاءهم في تيه من النفقات والإبطاء وخيبة الأمل ، حتى إذا كاد ينفد صبرهم وأموالهم ، في سلسلة مملة من السنين ، كان مآلهم الطرد ورفض الدعوى .

وزراء القصر السبعة

والى جانب الحكام والقواد الذين مارسوا سلطاتهم المخولة اليهم في الولايات والجيوش ، بعيّدا عن البلاط الإمبراطوري ، منح الإمبراطورية مرتبة « البارزين » *Illustrious* لسبعة من أقرب موظفيه الذين وكل اليهم لأمانتهم وإخلاصهم أمر سلامته وتقديم المشورة اليه وإدارة أمواله .

١ — تولى خصي عزيز أثير شئون الجناح الخاص في القصر ، وكان يسمى بلغة ذلك العصر *Praepositus* أى حاجب المخدع المقدس

(الأمين الخاص) . وكانت مهمته أن يلازم الامبراطور في ساعات عمله أو لهوه ، ويؤدي لشخص الامبراطور كل الخدمات الحصرية التي لا تستمد بهاءها الا من الملكية . وكان الحاجب العظيم (وقد نسميه كذلك) ، مع الأمير الجدير بالملك ، خادما نافعا ذليلا ، ولكنه خادم داهية ، يتجبن كل مناسبة لما وضع فيه من ثقة عالية ليجد له الى العقلية الضعيفة منفذا قل أن تجده الحكمة الجافة أو الفضيلة الصارمة . ورفع احفاد تيودوسيوس المنحلون — وكانوا محتجبين عن أنظار رعاياهم محققين في أعين أعدائهم — رفعوا حجاب مخادعهم فوق هامات سائر الحجاب في القصر ، بل الأدهى من ذلك أن نائبه الذي لم يعد أن يكون على رأس موكب العبيد الواقفين رهن الإشارة ، كان يسبق في مرتبته مرتبة البروقنصل « المجل » في اليونان أو في آسيا — وكان ثمة اثنان من الملاحظين يحلان لقب « كونت » يشرفان على مناط الأبهة والعظمة والثرف في القصر ، فتولى أحدهما أمر خزائن الملابس الملكية ، وعهد الى الثاني بشئون المائدة الامبراطورية ، وكانا يآثران في هذه المهمة الخطيرة بأمر حاجب المخدع وينفذان تعليماته .

٢ — وعهد بالادارة الرئيسية للشئون العامة الى رئيس الديوان وكان الحاكم الأعلى في القصر ، يتفقد النظام ويراقب الفرق المدنية والعسكرية ، ويتلقى الاستئنافات من مختلف أنحاء الامبراطورية في قضايا هذا الجيش العرمرم من الأفراد اصحاب الامتيازات ، الذين كسبوا لأنفسهم ولاسرانهم ، بوصفهم خدما في البلاط ، حق عدم الانصياع الى سلطان القضاة العاديين . وكانت المكاتب الأربعة أو بالأحرى مكاتب وزير الدولة هذا ، تتولى أمر المراسلات بين الأمير ورعاياه . وكان المكتب الأول يختص بالذكرات والتقارير الرسمية . والثاني بالرسائل ، والثالث بالعرائض والمتمسكات ، والرابع بالوثائق والأوامر من شتى الأنواع . وكان يدير كلا من هذه المكاتب رئيس أدنى مرتبة من فئة « المجلين » . وكان يقوم على هذه العملية كلها مائة وثمانية وأربعون سكرتيرا أو كتابا معظمهم من رجال القانون ، نظرا لكثرة ما يصادفهم في عملهم من الحاجة الى تلخيص التقارير وإلى المراجع . وثمة تنازل ربما اعتبر غير جدير بالجلالة الرومانية في العصور الأولى ، ذلك هو تعيين سكرتير خاص للغة اليونانية . ومن مترجمون لاستقبال سفراء المثبررين ، ولكن ادارة الشئون الخارجية ، التي تشكل جانبا جوهريا في السياسة الحديثة ، قل أن جذبت انتباه رئيس الديوان ، فقد كان كل تفكيره منصرفا الى توجيه

البريد وإدارة الترسات في الإمبراطورية التي كانت تضم أربعاً وثلاثين مدينة ، منها خمس عشرة في الشرق وتسع عشرة في الغرب ، وفيها جميعاً حشود من العمال تشتغل بصنع أسلحة الدفاع ، وأدوات الهجوم من مختلف الأنواع والآلات الحربية التي كانت تودع الترسات ، وتنقل عند اللزوم إلى الميادين لتستخدمها الفرق .

٣ - وحدث في مدى تسعة قرون ، تطور غريب في وظيفة « الكوستر Quæstor » أي الصراف أو الموظف المالي . ففي العهد الأولى في روما كان الشعب يختار كل عام موظفين صغيرين لمعاونة القنصل في المهمة البغيضة ، مهمة إدارة الأموال العامة . وعين لهذا الغرض كذلك معاون لكل بروقنصل أو رئيس تولى القيادة العسكرية أو الإدارة الفنية في الولاية ، وتضاعف عدد هذين الموظفين الماليين تدريجاً ، نتيجة التوسع في الفتوح ، إلى أربعة ، ثم ثمانية ، ثم عشرين وربما إلى أربعين ، في فترة وجيزة . وتطلع أشرف المواطنين إلى وظيفة تهيب لهم مقعداً في السناتو ، وتعلقوا من ورائها بالأمل الصادق في الفوز بامجاد الدولة . وفي الوقت الذي تظاهر فيه أوغسطس بصون حرية الانتخاب تراه يقبل عن طيب خاطر الامتياز الذي اختصه به ، ألا وهو أن يوصى في كل عام ، أو على الأرجح أن يعين عدداً محدداً من المرشحين ، وكان من عادته أن يتخير أحد أولئك الشبان المتنازين ليقرأ خطبه أو رسائله في اجتماعات السناتو ، وحذا خلفاء أغسطس حذوه في ذلك ، وتحولت المهمة الطارئة الموقوتة إلى وظيفة دائمة ، وأطلق على شاغلها لقب « كوستر » وهذا هو « الكوستر » الوحيد ذو الخطوة الذي اتخذ شخصية جديدة أكثر لمعانا ، وبقي بعد الغاء وظائف زملائه القدامى العتيبين . ولما كانت الخطب التي يكتبها « الكوستر » باسم الإمبراطور قد اكتسبت قوة المراسم النافذة واكتسبت آخر الأمر صيغتها ، فقد اعتبر هذا الموظف ممثلاً السلطة التشريعية ، ومهبط الوحى في المجلس والمصدر الأصلي للتشريع المدني . وكان يدعى أحياناً إلى حضور جلسات القضاء الأعلى في المجمع الإمبراطوري بين الرؤساء البريتوريين ورئيس الديوان ، ويطلب إليه أن يقطع بالرأى فيما يستشكل على سفار القضاة . ولما لم يكن مرهقاً بأية مهام ثانوية ، فقد شغل فراغه واستخدم مواهبه في ابتداء ذلك الأسلوب الرفيع المنمق من الفصاحة التي حفظت للقوانين الرومانية جلالها وروعها ، رغم فساد الذوق واللغة . ويمكن من بعض الوجوه أن نقارن وظيفة « الكوستر » الإمبراطوري بوظيفة حامل

الأختام الحديثة ، ولكن الخاتم الكبير الذى يبدو أن المتبريرين الاميين قد ابتدعوه ، لم يستخدم قط ليشهد على صحة الأوامر العامة للأباطرة .

٤ - وثمة لقب غريب هو كونت « رئيس العطايا المقدسة » أى ناظر المالية ، وربما صيغ هذا اللقب على أساس أن أى مبلغ يدفع إنما هو غيظ اختياري من كرم الملك . وأنه لما يتجاوز قدرة أقوى خيال ، أدراك التفاصيل الدقيقة للنفقات السنوية واليومية للإدارة المدنية والعسكرية فى كل جزء من أجزاء امبراطورية مترامية الأطراف ، واستخدم لهذا الغرض بضع مئات من الموظفين وزموا على أحد عشر مكتباً مختلفاً تهدف فى دهاء الى مراجعة عمل كل منها والرقابة عليه - وكان عدد هؤلاء الموظفين يميل بالطبيعة الى التزايد ، وساد التفكير أكثر من مرة فى أن يعاد الى بلادهم هؤلاء الأفراد الزائدون عن الحاجة والذين لا يزجى منهم نفع ، والذين هجروا أعمالهم الشريفة وهرعوا فى لهف شديد الى الوظائف المالية المربحة ، وكان فى الولايات تسعة وعشرون من موظفى الخزنة يتبعون ناظر المالية ، حظى منهم ثمانية عشر بلقب « كونت Count » . وكان سلطان ناظر المالية يمتد على المناجم التى تستخرج منها المعادن النفيسة ، وعلى دور السك التى تحول فيها هذه المعادن الى عملة ، وعلى الخزائن العامة فى أهم المدن ، حيث تودع الاموال لخدمة الدولة . وتولى هذا الناظر كذلك تنظيم التجارة الخارجية للامبراطورية ، كما ادار مصانع الكتان والصوف ، حيث كانت تجرى عمليات الغزل والنسيج والصباغة ، ويقوم عليها نسوة رقيقات الحال لاستعمال العصر والجيش - وكان فى الغرب الذى هو أحدث عهدا بالفنون ، ست وعشرون من هذه المنشآت ، وعدد أكبر منه فى الولايات النشيطة فى الشرق .

٥ - وإلى جانب الدخل العام الذى يمكن لأى حاكم مطلق أن يجمعه أو ينفقه كيفما يحلو له ، اقتنى الأباطرة ، وكانهم مواطنون أثرياء ، ممتلكات واسعة ، كان يديرها « الكونت » أو ناظر الضياع الخاصة « وربما كان بعضها خاصا بالملوك والجمهوريات القسدية ، وربما فتحت بعض الاضافات عن طريق الأسرات التى تعاقبت على العرش ، ولكن الجزء الأكبر من هذه الممتلكات الامبراطورية جاء من مصدر دنس ، ألا وهو المصادرة والغرامات ، وكانت الضياع الامبراطورية متناثرة فى طول الولايات وعرضها ، من موريتانيا الى بريطانيا ، ولكن التربة الغنية الخصبة فى كبادوكيا أغرت الامبراطور

باعتناء أجمل ممتلكاته فيها . واقتنص قسطنطين وخلفاؤه الفرصة لتبرير الجشع بالغيرة الدينية ، فقصوا على معبد كوماتا الفنى ، حيث كان الكاهن الأعلى لآلهة الحرب أشبه شيء بملك مطلق السلطان ، واستغلوا لمنفعتهم الخاصة الأراضى المقدسة التى كان يعيش عليها ستة آلاف من رعايا أو عبيد هذه الأراضى أو كهنتها . ولكن لم تكن لهؤلاء السكان قيمة الى جانب سلالة الخيل الاصيلة التى نشأت فى هذه الرقعة الممتدة من سفح جبل أرجوس Argaeus الى ضفاف نهر ساروس ، وهى سلالة تتميز بعظمة شكلها وسرعتها التى لا تبارى عن سائر السلالات المعروفة فى العالم القديم . ونصت القوانين على حماية هذه الخيول التى خصصت لخدمة القصر والألعاب الإمبراطورية ، من أن يمتنها أو يذنبها سيد فظ شرس . وبلغت أهمية كبادوكيا الى حد تعيين موظف (كونت) خاص للإشراف عليها ، أما سائر أجزاء الإمبراطورية فقد عين لها موظفون أقل مرتبة . أما نواب ناظر المالية وناظر الضياع الخاصة على حد سواء ، فقد ظلوا يمارسون مهامهم المستقلة وشجعوا على الحد من سلطان حكام الولايات .

٦٠٧ - ووضعت الفرق المختارة من الخيالة والمشاة الذين يحرسون شخص الإمبراطور تحت الإشراف المباشر للموظفين الاثنين المكلفين بالشئون الخاصة (المنزلية) . وكانت هذه الفرق تتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة فرد تنقسم الى سبع فرق فى كل منها خمسمائة وعهد بهذه الخدمة النبيلة فى الشرق الى الأرمن وحدهم تقريبا . وكلما ظهروا فى الاحتفالات العامة فى أبهاء القصر وأروقته ، تجلت فيهم ، بقماتهم العالية وأسلحتهم الفخمة المضيئة من الفضة والذهب سـ تجلت فيهم العظمة الحربية اللائقة بجلال الإمبراطورية الرومانية . واختيرت من بين الفرق السبع جماعتان من الفرسان والخيالة ، من البريتوريين الذين كان مركزهم الممتاز معقد الرجاء ومناط الجزء لأعظم الجنود بجدارة واستحقاقا . وقد تولوا الحراسة فى الأجنحة الداخلية ، وأرسلوا الى الولايات للتنفيذ أوامر سيدهم بمنتهى السرعة والقوة ، وكان موظفو الشئون الخاصة (الكونت) يرتقون الى مناصب الرؤساء البريتوريين ، وتناوبت نفوسهم الى الخروج من خدمة القصر الى قيادة الجيوش ، شأنهم فى ذلك شأن هؤلاء الرؤساء البريتوريين .

بدء الدولة البوليسية

يسر انشاء الطرق وتنظيم البريد سبيل الاتصال الدائم بين البلاط والولايات ولكن هذه الانشاءات النافعة اقترنت فجأة بسوء استغلال وبيل لا يطاق . فقد استخدم مائتان أو ثلاثمائة من العمال أو الرسل، تحت امرة رئيس الديوان : لاعلان أسماء القناصل السنويين ، ومراسيم الأباطرة أو انتصاراتهم . وترخص هؤلاء ، دون أن يشفروا ، في الإبلاغ عما أمكنهم أن يلحظوا على سلوك الحكام أو المواطنين العاديين ، وسرعان ما نظر اليهم على أنهم عيون الملك وسوط الشعب . وفي ظل النفوذ الشديد للحكم الضعيف بلغ عددهم رقما لا يصدق ، أى نحو عشرة آلاف ، وضربوا بالانذارات الخفيفة التى كثيرا ما وردت فى القوانين عرض الحائط ومارسوا فى الاتجار المربح بالوظائف ظلما مقرونا بالجنش والوقاحة . ومن طريق المجاملة والعطف والمكافآت تشجع هؤلاء الجواسيس الرسميون الذين يتصلون بالقصر بانتظام ، على أن يرقبوا فى لهفة ، تطور أى عمل من أعمال الخيانة ابتداء من أنه أراض السخط الدفين الى التدابير الفعلية لثورة علنية . واستتر انتهاكهم الدنىء الاجرامى لحرمة الحق والعدل وراء قناع مقدس من الغيرة والحماس ، ومن الجائز أن يسددوا . وهم آمنون مطمئنون، سهامهم المسمومة الى صدور المذنبين والأبرياء على حد سواء ، ممن أثاروا استياءهم أو أبوا شراء صمتهم . وكان المواطن المخلص فى سوريا ، وربما فى بريطانيا ، معرضا لخطر سوقه ، أو على الأقل للتهديد بسوقه ، مكبلا فى الاصفاد الى المحكمة فى ميلان أو فى القسطنطينية ، ليدافع عن حياته أو عن أمواله ضد الاتهام الخبيث الذى اسقته به هؤلاء المخبرون المحظوظون . وسارت الادارة العادية على هذا الأسلوب الذى لا تسيغه الضرورة القصوى وحدها ، وكانت وسائل التعذيب تعوض عن كفاية الأدلة .

وكان الفقه الرومانى يسلم أكثر من أن يوافق على هذا الاختبار الخداع الخطير فى القضية الجنائية ، كما كانوا يؤكدون تسميتها . وكانوا يمارسون هذه الطريقة الدهوية فى الاختبار مع سفلة القوم الذين لم تكن لآلامهم لدى رجال الدولة المتعطرسين أية قيمة فى ميزان العدالة أو الانسانية ، ولكنهم لم يقدموا قط على اتهام شخص المواطن المقدس الا اذا انصاع الدليل على جريمته . وتروى حوليات الطغيان من عهد تيجيريوس الى عهد دوميتيان ، عرضا ، اعدام كثير من الضحايا البريئة . ولكن طالما أمكن الابقاء على أقل بصيص من ذكرى الحرية

الوطنية والشرف الوطنى ، برئت اللحظات الأخيرة فى حياة أى روماني من خطر التعذيب المقيت (١) . على أن نسلوك حكام الولايات لم يكن مقيدا بمألوف عادات المدينة أو مبادئ المدنيين الصارمة ، فقد ألفوا التعذيب سائدا ، لا بين المبيد فى ممالك الشرق الاستبدادية وحدها ، بل كذلك بين المقدونيين الذى خضعوا لملك مقيد ، وبين أهل رودس الذين ازدهرت أحوالهم فى ظل حرية التجارة ، بل بين الاغريق الحكماء الذين اكدوا وقدسوا كرامة الانسان . وشجع اذعان أهل الولايات حكامهم على أن يكتسبوا ، بل قل أن يفتصبوا ، لانفسهم سلطة التعذيب بالخازوق لينتزعوا من المتشردين أو العالة المذنبين اعترافهم بما اقترفوا من جرائم ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء الحكام الى حد أنهم دون أن يشعروا ، اخطأوا الفوارق بين المراتب واغفلوا امتيازات المواطنين الرومان . ولكن الرعايا دفعتهم مخاوفهم الى التماس الاعفاء من التعذيب كما أن الملك ألزمته مصلحته بمنح اعفاء خاص منه فى كثير من الحالات . وفى هذا ترخيص ضمنى بل اقرار باللجوء الى التعذيب بصفة عامة . ومنعوه عن الأفراد من مرتبة « البارزين » ومرتبة « المبجلين » وعن الأساقفة ومشايخ الكنيسة وأساقفة الفنون الحرة والجنود وأسرانهم وموظفى البلديات وذريتهم حتى الجبل الثالث ، والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد . ولكن أدخل فى التشريع الجديد فى الامبراطورية مبدأ هو أشبه شئ بسيف مصلت على الرقاب ، ذلك أنه فى حالة الخيانة ، وهى تشمل كل جريمة يستطيع حذق المحامين أن يستنبطها من المقاصد العدائية ضد الأمير أو ضد الدولة ، تعطلت أو بطلت كل الامتيازات ، وهبطت كل الحالات الى هذا المستوى البغيض ، مستوى الخيانة . ولما كانت سلامة الامبراطور تفوق صراحة أى اعتبار للعدالة أو للانسانية فقد تعرضت حرمة الشيوخوخة أو نضارة الشباب على حد سواء ، لأشد ألوان التعذيب ، وأصبح الرعب من تبليغ خبيث بأن واحدا من المواطنين الرومان الأصليين كان شريكا ، ربما فى جريمة وهمية ، بل مجرد شاهد عليها ، أصبح هذا الرعب سيفا مصلتا على رقاب الجميع .

ان شعبا انتفخت أوداجه تيهيا وعجبا ، أو تبرم ضجرا وسخطا ، قل أن يكون أهلا لتقدير موقفه تقديرا صادقا . وهكذا كان رعايا

(١) فى مؤامرة ييزو ضد نيرون ، كانت ابيكارس Epicharis (المرأة المتحررة) هى الشخص الوحيد الذى عذب ، أما الباقيون فقد أعفوا من التعذيب . وقد يكون من نافلة القول أن نضيف مثلا اضعف من هذا لانه من الصعب أن نجد مثالا أقوى ، « حوليات تاسيتس ٥٧/١٥ » .

قسطنطين عاجزين عن التنبه الى انحطاط مستوى العبقريّة ومضائل
الرجولة ، الأمر الذي هبط بهم الى ما دون مكانة أسلافهم . ولكنهم
استطاعوا أن يحسوا بوطأة الطغيان وتراخي القوانين ومداخلة
الضرائب وأن يزثوا لهذه كلها . وقد يلحظ المؤرخ النزيه الذي يسلم
بعدالة شكواهم بعض ظروف موالية تميل الى التخفيف من شقوتهم .
مقد ظل في الامكان بعد صد أو وقف غارات المتبربرين التي كانت تهدد
حدود الامبراطورية ، والتي سرعان ما قوضت عظمة الرومان . وهذب
سكان قسم كبير من الكرة الأرضية فنون البذخ والأدب ونعموا بملاذ
المجتمع البهيجه . وساعدت أشكال الادارة المدنية وبهاؤها ونفقاتها
على الحد من الاباحية الشاذة في الجنود ، وعلى الرغم من أن القوة
انتهكت حرمة القوانين ، أو أنها قد انحرفت بها الجذق والدهاء ، فان
المبادئ القويمة في التشريع الروماني ، أبقّت على أثارة من النظام
والانصاف لم تكن معروفة لدى الحكومات الاستبدادية في الشرق ،
وربما وجدت حقوق الانسان لها في الدين والفلسفة سياجا آمنا .
أما اسم الحرية الذي لم يعد يزعج خلفاء أوغسطس ، فلربما أنذرهم
أحيانا بأنهم لم يحكموا أمة من العبيد أو من المتبربرين .

الفصل الثامن عشر

(٣٢٤ - ٣٣٧ م)

شخصية قسطنطين ، أسرته ، وفاته

نهوض دولة فارس في عهد شاپور الثاني

جذبت شخصية الأمير الذي نقل مقر الحكم في الإمبراطورية وأدخل مثل هذه التغييرات الهامة على الدستور المبدئي والديني في بلده ، جذبت أنظار الجنس البشري ، كما انقشبت الآراء فيها ، أما غير المسيحيين الشاكركين العربيين لفضل منقذ الكنيسة ، فقد أضفت عليه كل صفات البطل بل القديس ، على حين أن سحق الفريق المغلوب على أمره قارن قسطنطين بأبغض أولئك الطغاة الذين دنسوا بمساوئهم وضعفهم الحلة الإمبراطورية . وانتقلت هذه المشاعر الى الأجيال المتعاقبة بدرجات متفاوتة ، وما تزال شخصية قسطنطين تعتبر في عصرنا الحاضر موضع قبح أو مدح . وأنا لنأمل ، بالزج النزيه بين المثالب التي اعترف بها أشد المعجبين ، والمزايا التي سلم بها البد الأعداء ، أن نرسم صورة صادقة لهذا الرجل الخارق ، صورة يجدر بالتاريخ الحقيقي الصريح أن يقررها دون خجل أو حياء . ولكن ربما اتضح على الفور أن المحاولة العقيمة لزوج هذه الألوان المتنافرة وللمواءمة بين هذه الصفات المتناقضة لابد أن تخرج بصورة مارد جبار ، أكثر من أن تنتج صورة النسان ، الا اذا نظرنا اليها في أضوائها الصحيحة الواضحة مع الفصل الدقيق بين مختلفه غترات حكم قسطنطين .

لقد حبت الطبيعة شخص قسطنطين وذمته اثنان ما لديها ، فكان غارع الطول هيب الطلعة ، محمود السيرة ، وتجلت قوته ونشاطه في كل ما يمارسه الرجال ، واحتفظ منذ نعومة أظفاره حتى أخريات أيامه

بقوة البنية ، بفضل ما التزم من العفة وضبط النفس . وكان يأنس للعلاقات الاجتماعية برفع الكلفة في الحديث والمناقشة . ورغم أنه ربما أطلق لنفسه العنان أحيانا في التهكم والمزاح ، في تحفظ أقل مما تقتضيه هيبه مركزه ، فإن بشاشته وسماحته أسرتا قلوب كل من اتصلوا به . وقد يشك في صدق مودته ، ولكنه أظهر في بعض المناسبات أنه غير عاجز عن الحفاظ على ود خالص مقيم . ولم يكن نقص تعليمه ليحول دون تقديره الصادق لقيمة الدرس والتحصيل ، وحظيت الفنون والعلوم ببعض التشجيع بفضل رعايته الكريمة لها . وكان ينصرف الى العمل في عزيمة لا تفتن وهمة لا تعرف الكلل . وكاد أن يستغل كل قوى ذهنه الجبار في القراءة أو الكتابة أو اعمال الفكر ، وفي استقبال السفراء والنظر في شكاوى رعاياه . واضطر حتى أولئك الذين عابوا عليه بعد تصرفاته عن اللياقة الى الاعتراف بأنه أوتى شهامة نفذ بها الى أشق المشروعات ، وتميز بالجلد على تنفيذها ، دون أن يعوقه عنها نقص التفكير أو صيحات الجهاير . وكان في ميدان القتال ينفخ من روحه الوثابة في الجنود الذين كان يقودهم في عزيمة القائد المكتمل النمو والمواهب ، ومن ثم يمكن أن ينسب الى قدراته ، أكثر من أن ينسب الى حظه ، تلك الانتصارات الرائعة التي أحرزها ضد أعداء الدولة في الخارج والداخل . لقد تعشق المجد جزاء . وفاقا لأعماله ، أن لم يكن دائما عليها ، ويمكن أن نجد للطموح غير المحدود الذي يبدو أنه ملك عليه حواسه منذ اللحظة التي قبل فيها التاج في يورك — نجد له تبريرا في الأخطار المحدقة بمركزه ، وفي شخصيات أعدائه ، وفي ادراكه لجدارته الفائقة ، وفي تطلعه الى أن نجاحه سوف يمكنه من استعادة السلام والنظام في امبراطورية حائرة . وقد استغل في حروبه الداخلية ضد مكسنتيوس و ليسينيوس ، ميول الشعب الذي قارن بين الرذائل المتأصلة في هذين الطاغيتين ، وبين روح الحكمة والعدالة التي يبدو أنها شاعت في الطبيعة العامة لإدارة قسطنطين .

ولو أن قسطنطين هبط على ضفاف النهر أو حتى في سهول أدرنة ، لكانت تلك هي نفس الشخصية التي كان قد نقلها الى ذراعيه ، مع استثناءات يسيرة . ولكن خاتمة عهده (وفقا لحكم معتدل ، بل في الواقع رفيع ، لكاتب عاش في نفس العصر) هبطت به دون المرتبة التي كان قد حظى بها بين أنبه الأمراء الرومان ذكرا . وقد تقع العين في عهد أوغسطس على طاغية تحول على درجات تكاد تكون غير ملحوظة ، حتى صار أبلا لبلده وللجنس البشري أجمع ، على حين تبصر في عصر قسطنطين بطلا طالما أوحى الى رعاياه بالحب وأدخل على

قلوب أعدائه الرعب ، ينحدر إلى ملك غاشم منحل ، أفسده حظه أو رفعت الفتوحات فوق مقتضيات النفاق والرياء . وكان السلام الشامل الذي ساد السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من حكمه ، لفترة بهاء ظاهري ، أكثر منه رخاء حقيقياً ، وصبت شيخوخة قسطنطين بالمساوىء العكسية ، ولكنها المساوىء التي تلتئم مع السلب والنهب والتبذير ، واستنفدت الأموال المقدسة في قصرى مكسنطيوس وليسينيوس في اسراف بالغ ، فقد استلزمت الابتكارات التي أدخلها الفاتح مزيداً من النفقات وتطلبت تكاليف مبانیه وحاشيته واحتفالاته مدداً عاجلاً وغيراً ، ومن ثم لم يكن سبيل اللجوء بمقتضيات أبهة الملك غير أرهاق الشعب واستنزاف دمه . واغتصب أجبائوه الثامنون الذين أثروا بسا أغدق عليهم من أموال بلا حساب — اغتصبوا لأنفسهم ، دون حسيب أو رقيب حق السلب والنهب والافساد . وساد احساس خفى ولكنه شامل ، بدبيب الانحلال في مختلف جوانب الإدارة العامة . وخسر الامبراطور نفسه على مر الايام تقدير رعاياه ، ولو أنه ظل محتفظاً بامثالهم له . ولم يفلح الزى والسلوك اللذان اختار أن يتظاهر بهما في أخريات أيامه ، الا في الخطأ من قدره في أعين الناس جميعاً ، واتسمت الأبهة الآسيوية التي اقتبسها غرور دقلديانوس ، اتسمت في شخص قسطنطين بروح من الطراوة والتخث ، فقد صور بشعر مستعار متعدد الألوان جهد مهرة فنانى العصر في تصفيفه ، وتاج من طراز جديد أكثر نفقة ، ومجموعة كبيرة من الجواهر والآلى والأطواق والأساور ورداء مزركش فضفاض من الحرير موشى بأزهار من الذهب في أعجب شكل . وأنا — أمام هذا الزى الذى قل أن يسيغه شباب الاجبابالوس أو طيشه — لنحار في اكتشاف حكمة الملك العجوز وبساطة الرومانى المحنك . وعجزت العقلية التي استنامت للرخاء والرفق عن أن ترقى إلى مستوى الشهامة التي تحتقر معها الشبهات وتجروء على الصفح . وربما بررت موت مكسنطيوس وليسينيوس قواعد السياسة كما تلقن في مدارس البلاغة ، ولكن رواية نزيهة عن أعدائهما ، وعلى الأصح ذبحهما ، الذى لطخ شيخوخة قسطنطين ، لابد أن توحى إلى أصدق تفكيرنا وأخلصه ، برأى في الأمير الذى ابسطاع طسوعاً ، لا كرهاً ، أن يضحي بقوانين العدالة ومشاعر الطبيعة ، في سبيل أهوائه أو في سبيل مصلحته .

أسرة قسطنطين

يبدو أن التوثيق الذي لم يفتأ يلزم راية قسطنطين ، قد وفر له الأمل والراحة والدعة في حياته المنزلية . لقد يئس أسلافه الذين نعموا بأزهى عهود الحكم وأطولها — مثل أوغسطس وتراجان ودقلديانوس — لقول يئسوا من انجاب الأعقاب . ولم تتج الثورات الكثيرة لأية أسرة إمبراطورية وقتنا كافيا للنمو والتكاثر في ظل التاج ، إلا أن ملكية أسرة الفلايين التي كان قد رفع من شأنها في البداية كلوديوس القوطي انحدرت عبر عدة أجيال . وقد استمد قسطنطين نفسه من والده الملك تلك الأمجاد الوراثية التي نقلها إلى أولاده . وتزوج الإمبراطور مرتين . وتركت له الأولى مرفينا Minervina التي تعلق بها أيام شبابه في علاقة مشروعة . ولكنها غامضة — تركت له ولدا واحدا سمى كريسبس Crispus رائج من الثانية فلاوستا Fausta ابنة مكسيميان ثلاث بنات وثلاثة بنين بالأسماء المتشابهة : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنز . وانفسح المجال أمام أخوة قسطنطين الأكبر — يوليوس قسطنطيوس ، دلماشيوس ، هانياليانوس — ليتبعوا بإشراف مكانة وأوفر حظ يتفقتان مع مركزهم الخاص . وقضى أصغر الثلاثة نحبهم دون أن يخلف أسما أو يترك عقبا . وتزوج أخواه الأكبران من ابنتين لشيخين موسرين من شيوخ السناتو ، وأنجبا فرعين جديدين للدولة الإمبراطورية . وأصبح جالوس وجولييان فيما بعد المنح أبناء يوليوس قسطنطيوس « النبيل » . أما ابنا دلماشيوس اللذان منحنا لقب « الرقيب » العقيم فقد سميا دلماشيوس وهانياليانوس . وتزوجت كريمتا قسطنطين الأكبر : اناسطاسيا وأوثرونيا ، من عضوين في السناتو ، من أصل نبيل ، في مرتبة القنصل هما أبتاتوس Optatus ونيبتيانوس Neptianus . أما الأخت الثالثة كنساتانيا فقد تفردت بما حظيت به من قبل من عظمة ونساسة ، وظلت معروفة بأنها أرملة ليسينيوس الذي اندحر ، وبفضل توسلاتها احتفظ صبي برىء ، هو ثمة زواجهما ، لبعض الوقت ، بحياته ، بلقب « قيصر » ، وبأمل مزعزع في العرش ، وإلى جانب نساء بيت فلافيوس وحلفائه ، كان هناك عشرة أو اثنا عشر من الذكور ممن يمكن أن يطلق عليهم بلفظة البلاط الحديث أمراء يجرى في عروقهم الدم الملكي ، يبدو أنه كان مقدرا لهم ، بحكم مولدهم ، أن يرثوا عرش قسطنطين أو يدعموه . ولكن الأسرة الكبيرة المتكاثرة انحصرت ، في مدى ثلاثين عاما ، في شخصي قسطنطين وجولييان ، وهما الوحيدان اللذان عاشا بعد أسالة من الجرائم والنكبات ، على غرار ما روى شعراء المآسي في

قصائدهم المقدسة عن بلوبس Pelops وكدموس Cadmus (في
الأساطير اليونانية) .

وصور المؤرخون المتجردون كرسبوس أكبر أبناء قسطنطين
وورث الإمبراطورية المحتل على أنه شلب محبوب مثقف ، وعهد
بتعليمه - أو على الأقل بامر دراسته ، إلى لكتاتقيوس أفصيح
المسيحيين ، وهو معلم خير أهل لتربية ذوق تلميذه اللامع واستشارة
فضائله . وحين بلغ كرسبوس سن السابعة عشرة خلع عليه لقب
« قيصر » وعهد إليه بإدارة ولايات الغال ، حيث هيأت له غارات
الألمان عليها فرصة مبكرة لإبراز بسالته الحربية . وفي الحرب الأهلية
التي سرعان ما نشبت بعد ذلك ، اقتسم التوالد والتولد سلطاتهما . وقد
مجد هذا التاريخ شجاعة هذا الأخير وحسن تصرفه في اقتحام مضائق
الدردنيل التي كان يدامع منها دفاعا مستميتا . استول ليسيبيوس
المتفوق . وساعد هذا الانتصار البحري على تقرير مصير الحرب ،
واقترن اسم قسطنطين باسم كرسبوس في هتافات رعاياها الشرقيين
الذين ابتهجوا وهللا معلنين أن العالم قد أخضعه وحكمه إمبراطور
اجتمعت له كل الفضائل والشمائل كما وهب ابنا لامعا أميرا اختصته
السماء بحبها ، وصورة حية زاهية لصفات الكمال في والده . وبسط
العطف الشامل الذي قلما اقترن بالشيخوخة ، جناحيه حول شباب
كرسبوس ، في حالة مشرفة ، واستحق الشاب تقدير الحاشية
والجيش والشعب ، وتعلقوا به جميعا . وقد يعترف الرعايا ، كارهين ،
بما يخبرون في شخص الملك المتربع على العرش من صفات الفضيلة
وكثيرا ما ينكرونها في مهمات متحيزة ساخطة ، على حين تنفجر
أسايرهم إذ يلحظون المزايا المفتحة في شخص خلفه ، ويتعلقون
بأهداف الأمل غير المحدود في هناءة خاصة وعمامة ، يتعنون بها على
عهده .

وسرعان ما أثارت هذه الشعبية المحفوفة بالخطر انتباه قسطنطين
الذي ضاق ذرعا بوصفه أباً وملكاً معاً ، بظهور ند له ، وبدلاً من محاولة
الحفاظ على ولاء ابنه له ، بإيلائه ثقته الكريمة والاعتراف بفضله ، وطد
العزم على الحيلولة دون ما يتوحيش من أذى بسبب أطماعه الساخطة .
وما أسرع ما وجد كرسبوس ما يبرز شكواه ، من أنه في الوقت الذي
رأى فيه أخاه الصبي الصغير قد خلع عليه لقب « قيصر » وعهد إليه
بمهام الحكم في هذه البرقعة المبتلاة : ولايات الغال ، رأى نفسه وهو
الأمير الناضج الذي أدى مؤخراً مثل هذه الخدمات الفريدة بدلاً من

رفعه الى المرتبة الاسمى ، مرتبة « أوغسطس » - رأى نفسه وقد ضيق عليه الخناق وأنه سجين فى بلاط أبيه ، معرضاً بلا قوة ولا قدرة على الدفاع ، لما قد يكيد له حيث أمدائه . وما كان الشاب الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، قادراً دائماً فى هذه الظروف الأليمة ، على ضبط نفسه أو كظم غيظه . ولابد كذلك أن تكون على يقين من أنه كان محوطاً بزمرة من الأتباع المتهورين أو المخاطلين ، الذين أمعنوا فى الدأب على اذكاء نار الحقد السافر فى نفسه ، أن لم يكونوا قد دسوا عليه للغدر به . وأصدر قسطنطين ، حوالى هذا الوقت ، مرسوماً أمصح فيه علناً ، عن شكوكه السابقة أو المصطنعة ، فى مؤامرة تدبر ضد شخصه وضد حكومته ، ويهيب ، مع الوعد والاغراء دون استثناء ، من حكامه أو وزرائه أو أصدقائه أو أقرب المقربين ، بالمآجاد والمكافآت ، بأى فرد يستطيع أن يدلى بمعلومات ، أن يبلغ ، مقسماً بأغلظ الأيمان أنه سوف يصفى الى هذه الاتهامات بشخصه ، وأنه سيثأر لهذه الاساءات بنفسه ، ويختتم ندائه بدعاء يكشف عن توقعه خطراً ، يقول فيه ان « الكائن الأعلى » ما يزال يسيطر رعايته وحمايته على الامبراطور والامبراطورية .

وكان الوشاة الذين استجابوا لهذه الدعوة الكريمة ، متهرسين فى أفانين البلاء وأحابيله الى درجة تغريهم بإيقاع أنصار كرسبوس ، فى الشرك على أنهم مذنبون ، وما كان لهم الا أن يسلموا بصدق الامبراطور الذى توعد بأشد الانتقام والعقوبة . ومهما يكن من أمر فقد اقتضت سياسة قسطنطين أن يبقى على مظاهر الاهتمام والثقة بابنه الذى بدأ ينظر اليه على أنه الد عدو ليس من الميسور مهادنته . وسكت المبدأليات تحمل الوعود المألوفة بدوام الحكم المريب للقيصر الصغير . ولما كان الشعب الذى لم يظهر على أسرار القصر ، لا يزال يحب فى القيصر الصغير شمائله ، ويجل مكانته ، فان الشاعر الذى يتوسل لاعادته من منفاه يلجأ الى نظم قصيدة يمجّد فيها ، بنفس القدر من الاخلاص ، جلال الوالد والولد ، وكان قد حل آنذاك موعد الاحتفال العظيم بذكرى النعام العشرين من حكم قسطنطين ، ومن أجل هذا نقل الامبراطور بلاطه من نيقوميديا الى روما حيث أعدت أروع الترتيبات لاستقباله . وتسابقت العيون والألسنة الى التظاهر بالتعبير عن مشاعر السعادة الفامرة . واختفت ، لبرهة وجيزة تحت أستار المراسم والرياء ، أبشع خطط الانتقام والاغتيال . وقبض فى غمرة الاحتفال ، على كرسبوس المنكود ، بأمر من الامبراطور الذى تخلى عن حنان الأب دون أن يتحلى بعدالة القاضى . وكانت المحاكمة قصيرة سريعة ، ولما رُئى

أنه من الأليق إخفاء مصير الأمير الشاب عن أعين الشعب الروماني ،
 فقد أرسل تحت حراسة قوية إلى بولا في استريا ، حيث أعدم فور
 وصوله بيد الجلاد أو بطريقة أخف ، أي بالسهم . ولقى الشاب الكريم
 الخلق القيصر ليسينيوس نفس المصير الذي لقيه كرسبوس ، ولم
 يتدخل القائد الطاغى الذى زان على قلب قسطنطين أمام دموع اخته
 العزيزة أو توسلاتها للبقاء على حياة ابن لم يكن له من جزيرة إلا
 مرتبة (قيصر) والتي لم يقدر لها البقاء طويلا بعد فقده . وأسدت
 أستار الغموض والخفاء على قصة هذين الأميرين التعيسين وطبيعة
 جريمتها والأدلة عليها ، وطرق محاكمتها ، وظروف موتها . ويلتزم
 الأسقف نصير البلاط الذى خلد في مؤلف نفيس مزايا بطله وورعه —
 يلتزم الصمت البليغ الذى خيم على هذه الأحداث المحزنة . ان مثل
 هذا الزدراء الصلف برأى الجنس البشرى ، بينما يدمغ ذكرى
 قسطنطين بوصمة لا تحبى ، لابد أن يذكرنا بنهج مختلف سلكه واحد
 من أعظم الملوك في العصر الحاضر (عصر المؤلف — أى القرن الثامن
 عشر) ذلك هو القيصر بطرس ، الذى ترك ، وهو فى ذروة السلطة
 المطلقة ، لروسيا ولأوروبا وللأجيال القادمة أمر الحكم على الأسباب
 التى اضطرتة الى اصدار حكم الاعدام على ابن أثيم ، أو على الأقل
 ابن منحل .

وكانت براءة كرسبوس أمرا يسلم به القاصى والدانى الى درجة
 ان اليونان الحديثين الذين يقدسون ذكرى مؤسسهم ، انزلوا الى
 حد التهوين من أمر الجريمة التى نهت عن تبريرها أبسط المشاعر
 العادية في الطبيعة الانسانية ، ألا وهى جريمة قتل الوالد لابنه .
 ويزعمون أنه حالما اكتشف الوالد المنكوب بطلان الاتهام الذى ضلل
 سذاجته على هذا الشكل الرهيب نشر على العالم ندمه وتائب ضميره ،
 وأنه لبس الحداد لمدة أربعين يوما ، انقطع فيها عن الحمام وعن سائر
 ملاذ الحياة العادية . وأنه أراد ان يشهد الأجيال المقبلة على ذلك ،
 فأقام لكرسبوس تمثالا من الذهب نقش عليه العبارة التذكارية : « الى
 ولدى الذى أعدمته بغير حق » . وكان يجدر أن تعزز هذه القصة
 الأخلاقية الشائنة مراجع أقل شذوذا ، فإذا رجعنا الى مؤرخين أقدم
 عهد وأصدق حجة ، لأكدوا لنا أن ندم قسطنطين تجلّى فقط في أعمال
 الدم والانتقام ، وأنه كفر عن قتل الابن البريء باعدام زوجة ربما كانت
 مذنبية ، فهم ينسبون النكبات التى حلت بكرسبوس الى الاعيب زوجة
 أبيه فاوستا التى أعاد بغضها المرير أو حبها اللئس في قصر قسطنطين ،
 تمثيل المأساة القديمة ، مأساة هبوليتوس Hippolytus ونيدرا Phaedra

(أحدى مآسى سنكا) ، واتهمت ابنة بكسيبيان - فاوستا - شأنها في ذلك شأن ابنة مينوس - ربيها (ابن زوجها) كرسبوس ، بأنه هم بها ، ومن ثم سهل على الامبراطور الخائق أن يصدر حكم الموت على الأمير الصغير الذى اعتبرته بحق أقوى المزارعين لبنيها . ولكن هيلينا ، أم قسطنطين الطاعنة في السن حزنت واثرت لحفيدها كرسبوس الذى لقي حتفه قبل الأوان ، فلم يمض طويل وقت ، حتى زعم أنه اكتشف ، ان حقا وان باطلا ، أن هناك علاقة آثمة بين فاوستا وبين أحد العبيد في الأسطبلات الامبراطورية . وصدر الحكم ونفذت العقوبة فور توجيه الاتهام ، وماتت الزانية خنقا بفعل البخار في حمام زبدت فيه الحرارة ، لهذا الغرض ، الى درجة غير عادية . وقد يظن البعض ان ذكرى عشرين عاما من زواج سعيد ، وأن شرف ما أنجبها من ذرية انحصرت فيها وراثته العرش ، ربما خفيا من قساوة قلب قسطنطين ، واقنعاه بالسماح لزوجته مهما بدت آثمة بالتكفير عن ذنبها في سجن موحش . وانه لمن نافلة القول ان نندبر الاليق وغير الاليق ، الا اذا تاكدنا من حقيقة هذا الحادث الغريب الذى اكتشفته بعض ظروف الارتباب والتشويش . ان أولئك الذين هاجموا شخصية قسطنطين ، وأولئك الذين دافعوا عنها على حد سواء ، اغفلوا قطعتين مشهورتين في خطبتين القيتا في عهد خلفه ، تشيد اولاهما بفضائل الامبراطورة فاوستا وجمالها وحظها ، بوصفها ابنة وزوجة واختا واما لكثير من الأمراء ، وتؤكد الثانية بتعجزة صريحة ان ام قسطنطين الأصغر (فاوستا) الذى ذبح بعد ثلاث سنوات من وفاة والده ، عاشت لتذرف الدمع سخيئا وتندب حظ ابنها . ورغم البراهين القاطعة التى أتت بها عدة كتائب من الوثنيين والمسيحيين على السواء ، يظل هناك ما يحيل على الاعتقاد أو على الأقل على الشك ، في أن فاوستا قد افلنت بين قساوة زوجها الغاشقة المرتابة . وقد يكفى على اية حال ، موت ابن وابن أخ ، واغدام هندك كبير من أصدقائهما المحترمين ، وربما الأبرياء ، ممن جمعهم نفس المصير - يكفى لتبرير سخط الشعب الرومانى ، وتفسير آيات الهجاء الواردة على بوابة القصر تقارن بين عهدى قسطنطين ونيرون ، وهما عهدان تميزا بالبهاء والعظمة كما تلتظا بالدماء .

وبدا ، بعد وفاة كرسبوس ، ان وراثته عرش الامبراطورية قد انحصرت في أبناء فاوستا الثلاثة الذين أوردنا أسماءهم من قبل وهم : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنز ، وقد خلع عليهم على التتابع لقب « قيصر » في السنة العاشرة ، والسنة العشرين ، والسنة الثلاثين

من حكم أبيهم . ورغم أن هذا التصرف كان من شأنه مضاعفة استبداده أو حكم المستقبل في العالم الروماني ، فربما كان له ما يبرزه في نطاق الأب بأبنائه وتحتجزه لهم ، ولكن ليس من السهل أن نثبتين الباحث الذي حدا بقسطنطين إلى تفريض سلامة أسرته وشعبه للخطر ، حين رفع مرتبة ابنه أخيه ديماشيوس وهاننيالينوس دون ضرورة تلجئته إلى ذلك . فرفع الأول إلى مرتبة « القيصر » مساواة له بأبناء غيره . وابتدغ مجاملة للثاني ، لفظا جديدا غريبا هو « صاحب المجد الإثيل » Nobilissimus وهو لقب يتميز حامله براء أرجواني موشى بالذهب . كما تفرد هاننيالينوس ، من بين القدد الكبير من الأمراء الرومن على مر العصور ، بلقب « ملك » وهو لقب ربما كان يفضنه رعايا تيريوس بوصفه سبة دنسة مقذعة لطاغية غريب الأطوار ، واستعمال هذا اللقب ، حتى كما يبدو في عصر قسطنطين — حقيقة غريبة نائية ، يكاد لا يمكن تقبلها على أساس المصدرين المشتركين وهما الميداليات الإمبراطورية ، والكتاب المعاصرون .

وكانت الإمبراطورية بأسرها تهدي أشد الاهتمام والعناية بتعليم هؤلاء الشبان الخمسة المسلم بأنهم خلفاء قسطنطين ، فأعنتهم الرياضة البدنية لاحتمال مشتاق الحرب ومهام الحياة الجادة الشديدة ، ويقول الذين أشاروا عرضا إلى تربية قسطنطين ومواهبه ، أنه برز وتفوق في فنون القتال والعدو ، وأنه كان قواسا بارعا ، وفارسا ماهرا ، وأنه كان يحقق استعمال مختلف الأسلحة التي يستخدمها الخيالة والمشاة على حد سواء . وبذلك الجهود المتواصلة لتثنية سنائر أبناء قسطنطين وأبناء أخوته وتثقيف عقولهم ، ولكنها لم تكلل بنفس القدر من النجاح . وأجزل الإمبراطور العطاء لأشهر الأساتذة الذين دعوا لتلقينهم العقيدة المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والفقه الروماني ، واحتفظ هو لنفسه بالمهمة الخطيرة الشأن ، ألا وهي تعليم الشبان الملكيين فنون الحكم ودراسة الإنسان ، ولكن عبقرية قسطنطين نفسه كانت ثمرة المحن والخبرة . فقد تعلم في معاملاته الحرة في حياته الخاصة ، ووسط الأخطار في بلاط جالريوس ، أن يضبط عواطفه ، وأن يواجه عواطف نظرائه ، وأن يعتمد في سلامته الراهنة وعظمته المستقبلية ، على سلوكه الشخصي المقرون بالفطنة والحزم . ولكن كان من سوء حظ خلفائه أنهم ولدوا وتربوا في كنف الحلة الإمبراطورية . فكانوا دوما محوطين بمواكب المتلقين ، ومن ثم قضوا شبابهم يمرحون في حبوحة الترف ، وفي تجربة اعتلاء العرش . وما كانت لذاتهم السايية لتسمح لهم بالنزول من عليائهم التي تظهر فيها مختلف انماط الطبيعة

البشرية بمظهر واحد من النعومة والبرقة . وإياح لهم تساهل قسطنطين ، في سنهم المبكرة ، أن يشاركوا في إدارة الامبراطورية ، فدرسوا من الحكم على حساب الشعب الذي وضعت مقدراته بين أيديهم . فحكم قسطنطين الصغير بلاد الغال ، أما أخوه قسطنطيوس فقد استبدل بهذه الرقعة التي كانت وقفنا على أبيه فيما مضى ، بلاد الشرق التي هي أكثر ثروة ، وأقل عناء من الناحية العسكرية . وتلقى إيطاليا والليريكوم الغربية وأفريقية بمظاهر الاجلال والاكبار فنسنتز - الابن الثالث - بوصفه ممثل قسطنطين الأكبر ، وعين دماشيسوس على الجبهة القوطية ، وضم اليها حكم تراقيا ومقدونيا واليونان . واختيرت مدينة قيصرية لتكون مقرا لهانيياليانوس ، الذي شملت مملكته الجديدة ولايات بنطس وكبادوكيا وارمينيا الصغرى . وأنشئ لكل من هؤلاء الأمراء جهاز مناسب ، حيث خصص لكل منهم عدد كاف من الحرس ، ومن فرق الجيش ، ومن معاونين ، مما يتناسب مع وضع كل منهم ، ومع مقتضيات الدفاع . وكان الموظفون والقواد الذين وضعهم قسطنطين حولهم ، من الطراز الذي يطمئن الامبراطور الى انهم سيساعدون ، بل حتى يراقبون ، هؤلاء الملوك اليافعين في ممارستهم لما خول لهم من سلطات . وكلما تقدمت بهم السنون ، وعركتهم التجربة ، عظم سلطانهم وقويت شوكتهم ، ولكن الامبراطور كان يحتفظ دائما بلقب « أوغسطس » ، وبينما كان يقدم « القيصرية » للجيش والولايات ، احتفظ لمقامه الأعلى بنفس القدر من الامتثال والطاعة في كل ركن من أركان الامبراطورية ، وطوال السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكم قسطنطين ، لم يكدر صفو الهدوء تهرد جمال حقير في جزيرة قبرص ، او الدور الخطير الذي انتضت سياسة قسطنطين أن يقوم به في حروبه مع القوط والسارماتيين .



استمرت الحرب سجالا ، دون نتيجة دالة ، بين السارماتيين والقوط وبين قسطنطين ، طوال اعوامه الأخيرة .

وفاة قسطنطين

أكد قسطنطين عظمة الامبراطورية الرومانية بتحطيم كبرياء القوط،
وتقبل فروض الولاء التي قدمت لها خائفة ضارعة ، ورفع سفراء
أثيوبيا وفارس وبلاد الهند النائية اليه تهنيتهم بحالة السلام والرخاء
التي تسود عهده . واذا حسب ان من علامات توفيقه وضربات حظه
السعيد موت ابنه الأكبر وابن أخيه بل وربما زوجته كذلك ، فإنه نعم
حتى العام الثلاثين من حكمه بفيض غامر لم ينقطع من السعادة والغبطة
في حياته الخاصة والعامة ، وهي فترة لم يتيسر قط لأحد من أسلافه ،
منذ عهد أوغسطس ، أن يشهدها . وعاش قسطنطين عشرة أشهر بعد
الاحتفال المهيّب بهذه المناسبة ، ثم قضى نحبه بعد مرض قصير ، وهو
في سن النضوج والكمال ، في الرابعة والستين من عمره ، بعد حياة
حافلة مشهودة — قضى نحبه في قصر أشيريون Achyrion في ضواحي
نيقوميديا ، الذي آوى اليه التماسا لطيب الهواء على أمل استرداد
قواه المنهكة باستخدام الحمام الساخن . وجاوز الاسراف في مظاهر
الأسى والحزن ، أو على الأقل الحداد ، كل ما عرف من قبل في مثل
هذه المناسبات . ورغم الحاح السناتو وشعب روما القديمة ، نقل
جثمان الامبراطور الراحل ، بناء على توصيته الأخيرة ، الى المدينة
التي كان مقدرا لها أن تحتفظ باسم مؤسسها وبذكره . ووضع جثمان
قسطنطين مكللا بشعارات العظمة النائية وبالحلة الأرجوانية وبالتاج
على سرير من الذهب في أحد أجنحة القصر ، كان قد أثق وأضيء
لهذا الغرض أفخم تأثيث واضاءة ، وكان التمسك بمراسم البلاط غاية
في الدقة ، ففى الساعات المحددة في كل يوم كان كبار موظفي الدولة
والجيش والحاشية يقتربون من شخص مليكهم في انحناءات كبيرة ومظهر
وقور ، ويقدمون له الولاء والاحترام في جد ورزانة ، كما لو كان بعد
على قيد الحياة . وتكررت هذه الصورة المسرحية لبعض الوقت لدوافع
سياسية ، ولم يغفل الملق هذه الفرصة للإشارة الى أن قسطنطين
وحده ، باذن من السماء ، قد بقى يحكم بعد وفاته .

ولكن هذا الحكم لم يكن ليعيش الا في أبهة زائلة جوفاء . وسرعان
ما تبين أن رعايا الملك المستبد المطلق قل أن يمثلوا لارادته أو يلتزموا
لملأعته طالما أنهم لم يعودوا يطمعون في عطفه أو يرهبون سخطه . بل
ان نفس النظار والقواد الذين انحنوا اجلالا ورهبة أمام جثمان مليكهم
الراحل ، انشغلوا في مداوات سرية لاقتضاء ولدى أخيه دالماسيوس
وهانيباليانوس ، وحرمانهما من النصيب الذي خصصه لهما في حكم

الامبراطورية . ان معلوماتنا عن حاشية قسطنطين ناقصة الى حد أننا لا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن حقيقة البواعث التي كانت توجه زعماء المؤامرة ، الا اذا ذهب بنا الظن الى أنهم كانوا مسوقين بدافع من روح الحق والانتقام من أحد الرؤساء ، وهو يدعى أبلافيوس Ablavius ، وكان واحدا من المقربين المغرورين ، كان يحرك القناصل حسب أهوائه ، ويسعى استغلال ثقة الامبراطور الراحل فيه . وكانت الحجج التي تذرعوها بها ضمنا لرضا الشعب والجيش وموافقتها ، مصوغة في أجلى بيان : فالتزموا بجانب اللياقة والحق ، في الإشارة الى أن أبناء قسطنطين أعلى مكانة وأولى بالحكم ، والى الخطر من تعدد الملوك ، والى النكبات التي تهدد الدولة من جراء التنافر بين عدة أمراء متنافسين لا تؤلف بين قلوبهم وشائج الأخوة . وحيكت المؤامرة في جو من الحماسة والسرية . حتى أمكن التوصل الى إعلان جماعى مدو من فرق الجيش بأنها لن ترتضى عن أبناء الامبراطور المأسوف عليه بديلا لحكم الامبراطورية الرومانية . ومن المسلم به أن دلماشيوس الصغير الذى جمعت بينه وبين أبناء عمومته روابط الصداقة والمصلحة ، ورث نصيبا كبيرا من مواهب قسطنطين الأكبر ، ولكن يبدو أنه في هذه الآونة لم يتخذ أية اجراءات ليثبت بقوة السلاح حقه وحق أخيه الذى يجرى في عروقه الدم الملكى ، وهو حق جادت لهما به مكارم عمهما . وقد أذهلتها وأحدثت بهما سورة غضب الشعب وهياجه ، حتى بدا انهما باتا ، عاجزين عن الهرب أو المقاومة ، في يد أعدائهما الالداء . وبقي مصيرهما معلقا حتى وصل قسطنطيوس ثانى أبناء قسطنطين ، وربما كان أحبهم الى النفوس .

وكان الامبراطور الراحل وهو يحتضر ، قد أهاب بتقوى قسطنطيوس ان تولى جنازته كل الاهتمام والعناية ، واستطاع هذا الأمير ، بفضل قربه من القسطنطينية — حيث كانت اقامته في الشرق — استطاع ، في غير ما صعوبة ، أن يحد من نشاطا^١ تخويه للذين كانا يقطنان في مثر حكومتيهما البيميدتين : في ايطاليا والغال ، فما أن وضع يده على القصر في القسطنطينية حتى كان همه الأول أن يقضى على مخاوف ذوى قرياه ، فأقسم يمينا مغلظة بضمان سلامتهم . وصرف همه بعد ذلك في العثور على ادعاء كاذب يتحلل به من الالتزام الذى تسرع في التقيد به . ووضعت أفانين التدليس والتزوير في خدمة تدابير القسوة والعنف . وخرجت شخصية من أكثر الشخصيات قداسة بتزييف جلى صريح . فقد تلقى قسطنطيوس من أسقف نيوميديا طومارا (رقعة مكتوبة) يختمى شمع الموت بين سطوره ، مع التوكيد بأنه وثيقة أصيلة من أبيه

الامبراطور يبدى فيها شكوكه في أن أخوته قد دسوا له السم ، ويحض أبناءه على الثأر له ، وأن يكفلوا سلامتهم هم أنفسهم بتوقيع العقوبة على المذنبين . ومهما يكن من أمر الأسباب التي ساقها هؤلاء الأمراء المنكودون للدفاع عن حياتهم وشرفهم أمام هذا الاتهام الذي لا يمكن تصديقه ، فقد أخرجتهم الصيحات الغاضبة التي تعالت بين الجنود الذين كشفوا على الفور عن عدائهم لهم ، وأعلنوا أنفسهم قضاة وجلادين ، في وقت معا . وكم من مرة انتهكت حرمة الإجراءات القانونية روحا وشكلا ، في المذبحة التي اختلط فيها الحابل بالنابل ، التي جرفت في تيارها عمى قسطنطيوس ، وسبعة من أبناء عموته ، كان أبرزهم دماشويوس وهانياليانوس ، والنيل أوبتاتوس Optatus زوج إحدى أخوات الامبراطور الراحل ، وأبلافيوس الذي ملأت قوته وثروته قلبه ببعض الأمل في الاستيلاء على العرش ، وإذا كانت ثمة حاجة إلى المبالغة في بشاعة هذا المنظر الدهوي لأضفنا أن قسطنطيوس نفسه كان قد تزوج من ابنة عمه يوليوس ، وأنه كان قد زوج أخته من ابن عمه هانياليانوس . ان هذه الأحلاف أو المصاهرات التي كونتها سياسة قسطنطين بين مختلف فروع البيت الامبراطوري ، دون اعتبار للأحقاد العامة — هذه الأحلاف لم تفلح الا في اقناع الجنس البشري بأن هؤلاء الأمراء قد تبلد شعورهم باعزاز العلاقات الزوجية ، قدر ما تجمد احساسهم بروابط الدم ، وقست قلوبهم أمام توسلات الشباب المؤثرة وبراعته . ولم ينج من يد القتلة ، من بين هذه الأسرة الكبيرة العدد الا جالوس وجوليان ، اصغر أبناء يوليوس قسطنطيوس ، حين ارتوى تعطشهم الى الدماء ، وخفف هذا من غلوائهم بعض الشيء . وأحس الامبراطور قسطنطيوس ، الذي كان في غيبة أخويه ، أكثرهم عرضة للوزر واللوم ، أحس في بعض مناسبات تالية ، بوخز يسير عابر من تأنيب الضمير لأعمال القسوة التي أكرهته عليها ، نصائح موظفيه المخاتلين وعنف جنوده الطاغى الذي تعذرت مقاومته ، وهو بعد شاب غرير لم تحنكه التجارب .

وأعقب مذبحة أسرة فلافيوس تقسيم جديد للولايات ، تم التصديق عليه في لقاء خاص بين الاخوة الثلاثة . فكان من نصيب قسطنطين — وهو أكبر القياصرة الثلاثة سنا — العاصمة الجديدة التي تحمل اسمه واسم أبيه ، مع شيء من تمييزه في المرتبة عن أخويه . أما تراقيا وبلاد الشرق فكانت من نصيب قسطنطيوس ، على حين اعترف بثالثهم ثنستنز ملكا شرعيا على ايطاليا وأفريقية والليريكوم الغربية . وسلمت مرق الجيش بحقهم الوراثة ، وتنازل ثلاثتهم فقبلوا من السناتو

الرومانى ، بعد شىء من التراخى ، لقب « أوغسطس » . وعندما تسلم هؤلاء الأمراء زمام الحكم لأول مرة ، كان أولهم فى الحادية والعشرين من عمره ، والثانى فى العشرين ، والثالث فى السابعة عشرة فقط .

نهوض فارس تحت حكم شابور الثانى

على حين انضوت الأمم الحربية فى أوربا تحت لواء أخويه ، ترك قسطنطينوس وحده ، بوصفه قائدا للفرق المختلة الآسيوية ، لينوء بعبء الحرب الفارسية . وجدير بالذكر أنه عند موت قسطنطين اعتلى عرش الشرق شابور بن هرمز جد نارسييس الذى اعترف فى خشوع بسلطان الرومان اثر انتصار جالوريوس . وكان شابور لا يزال فى نضارة الشباب رغم أنه كان فى السنة الثلاثين من حكمه ، فقد سبق تاريخ ارتقائه العرش تاريخ مولده ، بناء على ما قضى به قدر غريب . فقد بقيت زوج هرمز حاملا عند وفاة زوجها . ولكن عدم الثبوت من جنس الجنين وهو فى أحشاء أمه ، بل من واقعة الحمل فى جملتها ، أثار أطماع أمراء آل ساسان . ثم تبددت آخر الأمر المخاوف من نشوب حرب أهلية حين تأكد للمجوس عن يقين بأن أرملة هرمز حامل ، وأنها ستضع فى سلام واطمئنان مولودا ذكرا . وامثالاً لصوت الخرافة ، أعد الفرس دون إبطاء ترتيبات الاحتفال بتتويجه . ووقدت الملكة تحفها العظيمة والجلالة على سرير ملكى عرض فى وسط القصر ، ووضع التاج فى البقعة التى ظن أنها تخفى فيها الوريث القادم لعرش اجزرسييس . وانبطح الولاة والحكام أمامها يمجدون عظمة ملكهم الخفى الذى لا يتأثر ولا يعى . وإذا كان لنا أن نصدق هذه القصة العجيبة التى يبدو ، على أية حال ، أنه قد أساغتها عقول الشغب وطول مدة حكمه غير العادية ، فاننا لا بد أن نعجب ، لا بحظ شابور فحسب ، بل وبعبقريته أيضا . وفى أحضان التربية الناعمة تحت وصاية الحريم الفارسى اكتشف الأمير الملكى أهمية استخدام قوة عقله وجسمه . واستحق بمواهبه الشخصية عرشا اجلس عليه ، ولما يع بعد واجبات السلطة المطلقة ومغرياتهما . وتعرض فى حداثة سنه لنكبات الانقسامات الداخلية التى لا يمكن تجنبها ، كما باغت عاصمته ملك يمنى أو عربى يدعى Thair وأعمل فيها السلب والنهب . وامتهنت كرامة الأسرة المالكة بأسر الأميرة أخت الملك الراحل ، فلما بلغ شابور أشده ، وقع « تير » الجسور وأتمه وبلده فريسة لأول ضربة من يد المحارب الصغير

الذى استغل ظفره في مزيج حكيم من الشدة واللين ، الى حد أنه استخلص من مخاوف العرب واعتراهم بحسن صنيعة لقب Dhoulacnaf « حامى الأمة » (ذو الأكتاف) .

في سنة ٣٤٠ هزم قسطنطين الثانى في معركة أكويلا على يد قسطنتر الذى أصبح حاكما على الغرب . واضطر قسطنتيوس حاكم الشرق الى مواجهة هجمات الفرس بقيادة شابور الثانى وكان غزو الفرس لارمينيا تهديدا لعمو المسيحية فى الشرق ، وانقلب النصر فى سنجان سنة ٣٤٨ الى هزيمة ساحقة نتيجة الاهمال والغفلة . وقاومت نصريين الحصار ثلاث مرات ، وتم الصلح فى سنة ٣٥٠ . وفى نفس العام تمكن ماجنتيوس من ازالة قسطنتر عن العرش ، على حين لبس فترانيو Vetrano الحلة الامبراطورية من قبل قسطنتيوس . واخيرا تغلب قسطنتيوس على ماجنتيوس فى مورسا فى وادى نهر الساف فى سنة ٣٥١ . وانتهى الأمر فى سنة ٣٥٣ بتولى قسطنتيوس حكم امبراطورية موحدة غير مجزأة .

الفصل التاسع عشر

(٣٥٥ - ٣٥٩ م)

عهد جوليان .. الادارة المدنية فى الغال

حبسه لمدينة باريس

اتحدت ولايات الامبراطورية المجزأة ثانية بفضل انتصار قسطنطينوس ، ولكن هذا الأمير الضعيف كان خلوا من المزايا الشخصية سواء فى زمن السلم أو زمن الحرب ، ولما كان يخشى قواده ، ولا يثق فى معاونيه من الموظفين والنظار ، فان الانتصار العسكرى لم يجد الا فى تدعيم سلطان الخصيان فى العالم الرومانى . لقد دخلت هذه الكائنات التمهة ، التى هى من صنع الاحقاد والاستبداد فى الشرق ، الى اليونان وروما نتيجة لسريان عدوى البذخ الآسوى اليهما . وكان تقدمهم سريعا ، فان هؤلاء الخصيان الذين كان ينظر اليهم فى عهد أوغسطس ، بين المقت والزراية بوصفهم حاشية مروعة للملكة مصر ، اجيز لهم الدخول شيئا فشيئا الى أسرات فضليات السيدات وشيوخ السناتو ، وبيوت الأباطرة أنفسهم . وقد كبحت جماهم الثوانين الصارمة على عهد دوميتيان ونرفا ، ثم لقوا شيئا من التدليل والملاطفة على يد دقلديانوس وزهوه وكبريائه . ثم هبط بهم حرص قسطنطين الى وضع ذليل ، وأخيرا تكاثر عددهم فى قصور ابنائه المنحليين ، وظفروا ، بطريقة غير محسوسة ، بالوقوف على خفايا مجالس قسطنطينوس السرية حتى انتهى بهم الأمر الى توجيهها . ويبدو أن نفور الناس من هذا النوع غير مكتمل الرجولة واحتقارهم له ، قد حط من اخلاق أفراده ، وباتوا على الأغلب عاجزين ، كما هو مفروض فيهم ، عن الاحساس باية عواطف كريمة ، أو الاتيان بأى عمل لائق . ولكن الخصيان برعوا فى أفانين الملق والدسائس ، وسيطروا على عقل قسطنطينوس ، نتيجة مخاوفه تارة ، وغروره تارة أخرى . ونراه حين

وقع بصره في المرأة الخداعة على المظهر الجميل ، ألا وهو مظهر الرخاء العام ، نراه أجاز لهم ، في استهانة واستخفاف أن يقطعوا الطريق على شكاوى الولايات المنكوبة ، وأن يجمعوا ثروات ضخمة عن طريق الاتجار في العدالة والوظائف ، وأن يمتنعوا كرامة أفاضل القوم ، بترقية أولئك الذين يشترى على أيديهم مقاعد السلطة والقدرة على العسف والجور ، كما أرخى لهم الحبل فصبوا لعنتهم على هذا النفر القليل من ذوى النفوس الأبية المستقلة الذين رفضوا في كبرياء وشمم أن يحتتموا في ظل العبيد . وكان المع هؤلاء العبيد وأبرزهم حاجب القصر يوسوبوس الذى سيطر بنفوذه المطلق على الامبراطور والقصر ، حتى قال مؤرخ نزيه متهمًا : « أن قسطنطيوس كان له بعض الحظوة لدى تابعه العزيز المتغطرس » . ونتيجة لآرائه المأكرة الخبيثة ، حمل الامبراطور على توثيق الحكم بالاعدام على جالوس المنكود ، وأن يضيف بذلك جريمة جديدة الى ذلك الثبت الطويل من الاعدام غير الطبيعى الذى لوث شرف بيت قسطنطين .

وعندما أنقذ جالوس وجولييان ، ابنا عمومة قسطنطين من بطش الجنود ، كان عمر الأول اثنى عشرة سنة ، والثانى ست سنوات ، وكان المظنون أن أكبرهما ضعيف البنية معتل الصحة ، فقد ظفروا دون صعوبة تذكر ، بالابقاء على حياته المزعزعة المفتقرة الى الرعاية ، من قسطنطيوس الذى تصنع الشفقة والرحمة ، والذى كان يدرى أن اعدام هذين اليتيمين الباشيين قد يعبدد الجنس البشرى بأسره عملاً من أشد أعمال القسوة المتعمدة . وخصصت عدة مدن في أيونيا وبيثينيا لابعادهما وتعليمهما ، ولكن ما أن كبرا أو تقدمت بهما السنون حتى ثارت حفيظة الامبراطور ، ورأى أنه من الأصح والاحكم أن يودع الشابين التعيسين قلعة ماسلوم Macellum المنيعه قرب قيصرية . وكانت المعاملة التى لقيها طوال ست سنوات في السجن ، شيئاً مما يتوقعان من وصى جريص ، وشيئاً مما يتوجسان من طاغية مرتاب ، وكان سجنهما عبارة عن قصر قديم كان مقر ملوك كابادوكيا ، ذا موقع جميل وبناء فخيم ومساحة واسعة . وهناك تابعا دراستهما ، ومارسا رياضتهما تحت اشراف امهر المعلمين . وكان العدد الكبير من الخدم والاتباع الذين عينوا لخدمتهما ، أو قل لحراستهما والرقابة عليهما ، وهما ابنا عمومة قسطنطين ، يتناسب مع كرم محتدما . ولكن ما كان لهما أن يخفيا عن نفسيهما ، انهما حرما من الثروة والحرية والطمأنينة ، وانهما حرما من الاجتماع بمن يمكن أن يكونوا موضع ثقتهما أو تقديرهما ، وقضى عليهما بأن يمضيا ساعاتهما الجزيئة برفقة عبيد اخلصوا لأوامر طاغية

امعن في ايدائهما الى حد لم يعد معه ثمة امل في المسالمة . ومهما يكن من شيء فقد اضطر الامبراطور ، بضغط من ضرورات الحكم ، أو قل بتأثير الخصيان ، الى منح جالوس — وكان في الخامس والعشرين من عمره — لقب « قيصر » ، والى أن يعزز هذه العلاقة السياسية بزواجه من الاميرة قسطنطينا . وبعد لقاء رسمي تبادل فيه الاميران العهد والميثاق على الا يلحق أحدهما بالآخر أى اذى ، عاد كل منهما دون ابطاء الى مقره . فتتابع قسطنطينوس سيره الى الغرب ، واتخذ جالوس مقرا له في أنطاكية ، ومنها — بمقتضى السلطة المخولة له ، تولى حكم الاقسام الخمسة الكبيرة التي تتكون منها الدولة الشرقية . وفي هذا التحول السعيد ، لم يتخل القيصر الجديد عن التفكير في أخيه جوليان ، الذي حظى بأمجاد مرتبته ، كما حظى بمظاهر الحرية ، وظفر باسترداد ميراثه الكبير .

وانتبت جالوس انه غير صالح للحكم ، فقتل . أما جوليان الذى لم يتجه اليه التفكير أصلا ليكون امبراطورا ، فقد حنكته التجارب وازدادت قوته يوما بعد يوم ، واعلن « قيصر » في سنة ٣٥٥ ، وتولى الدفاع عن الفال ضد هجمات الألمان والفرنجة ، في الوقت الذى كان فيه قسطنطينوس مشغولا فى جبهة الدانوب ، وانصرف فى الحال الى بناء مدن الفال من جديد واستعادة الحياة فيها ، (وهذا عمل أكثر النشأ مع طباعه الإنسانية والفلسفية) .

ادارة جوليان المدنية في الفال

كان الاهتمام بتوفير السلام والسعادة لرعاياه هو القاعدة الذهبية التى وجهت ادارة جوليان . وكان يخصص أوقات الفراغ في ربوعه الشتوية لأعمال الادارة المدنية ، فتظاهر بأنه يجد لذة في شخصية الحاكم والقاضى أكثر مما يجد في شخصية القائد . وأحال قبل أن يذهب الى القتال على حكام الولايات معظم القضايا العامة والخاصة التى كانت قد رفعت الى محكمته ، حتى اذا عاد راجع كل اجراءاتهم فيها مراجعة دقيقة ، وخفف من صرامة القوانين ، وأصدر حكما ثانيا على القضاة أنفسهم . لقد تسامى جوليان فوق أقصى تجرية لأطهر العقول ، وتلك غير متطرفة متهورة على العدالة . ومن ثم خفف ، في هدوء ووقار ،

لستين

من حدة المدعى الذى كان يقاضى رئيس ولاية ناربون ، بتهمة ابتزاز الأموال : قال دلفيديوس العنيف متعجبا : « اذا كان الانكار يكفى للتبرئة ، فمنذا الذى سيكون مذنبا ؟ » فأجاب جوليان : « اذا كان مجرد تأكيد التهمة كافيا للادانة فمنذا الذى سيكون بريئا ؟ » . وكانت مصلحة الملك فى زمن السلم والحرب هى بعينها مصلحة شعبه عامة . ولكن ربما كان من الجائز ان يشعر قسطنطيوس بأبلغ الأذى اذا كانت فضائل جوليان قد حرمته من أى قدر من الحرية التى كان ينتزعها من أى بلد مرهق منهوك . وربما عمد الأمير الذى زود بكل شعارات الملكية الى تقويم السفاهة الجشعة فى عماله الذين هم أقل منه مرتبة ، وفضح أساليبهم الفاسدة ، وادخال نظام موحد أكثر يسرا لجباية الأموال . ولكن إدارة الأموال كانت موكولة بطريقة أدعى للطمأنينة الى فلورنسيوس ، الوالى البريتورى على بلاد الغال ، وكان طاغية مخنثا لا يستشعر الرحمة ولا يحس بتأنيب الضمير ، وكان الناظر المتفطرس يشكو المعارضة الهادئة المهذبة ، على حين ان جوليان نفسه كان على الأرجح يميل الى لومه على سوء تصرفه . وكان القيصر قد رفض فى مقت وازدراء قرارا قدمه اليه الوالى لتوقيعه ، بفرض ضريبة استثنائية أو اضافة جديدة ، وأغضبت تلك الصورة الصادقة لبؤس الشعب ، والتى اضطر القيصر الى أن يبرر بها أسباب رفضه توقيع القرار ، أغضبت حاشية قسطنطين . وقد نجد لذة فى قراءة مشاعر جوليان التى عبر عنها فى حرارة وحرية فى رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه المقربين ، فهو يقول فيها ، بعد أن أوضح تصرفه : « وهل كان يجوز لتلميذ أفلاطون وأرسطو أن يفعل غير هذا ؟ وهل كان يمكن أن أتخلى عن هؤلاء الرعايا التعساء الذين وليت أمرهم ؟ ألم أَدع لحمايتهم من هذا الأيذاء المتكرر الذى يلاحقهم به هؤلاء اللصوص جامدو الاحساس ؟ ان التربيون الذى يتخلى عن واجبه يعاقب بالموت ، ويدفن دون احتفال أو مراسم فبأية صورة من صور العدالة أستسيغ النطق بالحكم عليه ، اذا أهملت أنا نفسى ساعة الخطر واجبا أكثر قداسة ؟ لقد وضعنى الله فى هذا المكان السامى ، ترعائى وتحرسنى عنايته . واذا قدر على أن أعانى وأقاسى ، فلسوف أستمد الراحة والعزاء من شهادة ضمير نقى مستقيم ، كم تهتبت لو كان لدى مستشار من طراز سللوست Sallust ؟ واذا رأوا من الخير أن يرسلوا الى خلفا ، فلسوف أتقبل هذا راضيا . وانى لأوثر أن أنتهز الفرصة القصيرة لفعل الخير ، على أن أنعم طويلا ودائما بارتكاب الرذيلة والسوء دون حساب أو عقاب » . والحق أن المركز المزعزع التابع الذى وضع فيه جوليان أظهر مناقبه وأخفى نقائصه . ان البطل

الصغير الذى دعم عرش قسطنطينوس فى الفال لم يمكن من اصلاح مساوىء الحكومة ، ولكنه أوتى من الجراة والشجاعة ما تمكن معه من تخفيف ضائقة الشعب ، أو الاشفاق عليه . وما لم يؤت القدرة على احياء الروح الحربية فى الرومان ، أو على بعث فنون الصناعة والعمل ، وأساليب التهذيب والثقافة بين أعدائهم الهمجيين ، ما كان فى مكنه أن يعلل نفسه بأى أمل معقول فى تحقيق الهدوء العام ، لا بمسألة ألمانيا ولا بغزوها . على أن انتصارات جوليان أوقفت لفترة قصيرة غارات المتبربرين ، وأجلت سقوط الامبراطورية الغربية .

جوليان ومدينة باريس

إعاد جوليان ، بتأثيره الناجع ، مدن الفال الى سابق عهدها ، بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمن عرضة لمساوىء الاضطرابات الاهلية ، وحروب المتبربرين ، والطغيان الداخلى ، وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا فى المتعة والتنعم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ثانية تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النافعين الموقرين . ولم يعد الشباب يخشى الزواج ، كما لم يمد المتزوجون يخافون المعيلة وكثرة الأولاد . واثبتت الأعياد الفسامة والخاصة بمثل بهائها المعهود ، وتجلى الرخاء الوطنى ورغد العيش فى كثرة الاتصالات الآمنة بين الولايات . ولابد أن قلب جوليان قد أحس بالسعادة التى غمرت الجميع ، والتى كان هو مبدعها ومنشئها . الا أنه كان ينظر بارتياح وغبطة بنوع خاص الى مدينة باريس مقره الشتوى ، وموضع حبه وتعلقه بصفة خاصة . وكانت هذم العاصمة الفخمة مقصورة أول الأمر على تلك الجزيرة الصغيرة فى وسط نهر السين ، ولكنها أصبحت الآن تشغل مساحة شاسعة على جانبي النهر الذى استمد منه سكانها زادا عظيما من الماء النقى الأصفى . وكانت مياه النهر تلاطم قاعدة الأسوار ، وكان الوصول الى المدينة يتم عن طريق جسرين خشبيين . وكانت الغابات تغطى الجانب الشمالى من السين . أما فى الجنوب فإن الأرض ، التى تحبل الآن أسم « الجامعة » ، امتلأت بالدور والمنازل ، بطريقة غير ملحوظة ، كما ازدانت بقصر وملعب مدرج ، وحمامات ، وقناطر تحمل المياه ، وساحة اله الحرب مارس لتدريب الجند الرومان . ولطفت قرب المحيط من تطرفت المناخ . وزرعت الكروم وأشجار التين ، مع بعض التحوطات التى املتها التجربة . ولكن السين ، فى أعوام مشهودة كان يتجمد

في الشناء الى درجة كبيرة ، حتى جاز لأحد الآسيويين أن يقارن كتل
الجليد السابحة فوق المجرى بكتل الرخام الأبيض التي كانت تقطع من
محاجر فريجيا (في آسيا الصغرى) . وقد أعاد الفجور والفساد في
أنطاكية ، الى ذهن جوليان ذكرى الخلق الصارم البسيط في لوتيشيا
الأيثيرة لديه (Lutetia ، باريس الحالية) حيث كانت متعة المسرح
غير معروفة أو محتقرة فقابل في غيظ وحنق ، بين السوريين المترفين
وبين البساطة المقترنة بالأمانة والبسالة في أهل الغال ، وأغلب الظن
أنه غفر للكتلين الوصمة الوحيدة في خلقهم ، ألا وهى الإفراط والبعد
عن الاعتدال . ولو أن جوليان عاد اليوم لزيارة عاصمة فرنسا لاستطاع
التحدث الى رجال من العلماء والعباقرة ثاديين على استيعاب ما يقوله
ربيب الفلسفة اليونانية ، وربما غفر الهفوات المتسمة بالبهجة والظرف ،
في أمة لم يوهن الانقباس في الترف من روحها العسكرية ، ولكن لزاما
عليه أن يمتدح سمو الفن الرفيع الذى يلفظ مجرى الحياة الاجتماعية
ويهذب ، ويضفى عليه بهاء وجمالا .

الاعتراف بالمسيحية وبداية النهضة

التفصيل العشرون (١٠٦ - ١١٧ م)

تحول قسطنطين الى المسيحية

مرسوم التسامح الذي أصدره رؤياه وتعهده . اقرار المسيحية
بمقتضى القانون التفریق بين السلطتين الروحية والزمنية

يعتبر الإقرار العام للمسيحية ، ثورة من أخطر الثورات الداخلية التي تثير أشد الفضول حيوية وتلقن أقيم الدروس . وان انتصارات قسطنطين أو سياسته الداخلية لم تعودا تؤثران في حالة أوروبا ، ولكن ما يزال جزء كبير من الكرة الأرضية محتفظا بالآثار العميق الذي أحدثه تحول ذلك العاهل الكبير الى المسيحية ، وما تزال أفكار الجيل الحاضر وعواطفه ومصالحه ترتبط ارتباطا لا تنفصم عراه بالنظم الكنسية على عهده .

وقد تنشأ عند التعرض لبحث موضوع يعالج في نزاهة وتجرد ، ولكن لا يمكن تناوله بغير أكرات — قد تنشأ على الفور صعوبة ذات طبيعة غير متوقعة ، تلك هي التاريخ الحقيقي لتحول قسطنطين ، ويبدو الخطيب المفوه لكتانتيوس وسط حاشيته متعجلا في أن يعلن للملأ القدوة الحسنة للملك الفال الذي اعترف منذ اللحظة الأولى من حكمه بالاله الواحد الحق وعبدته . أما العلامة يوسوبوس فإنه نسب إيمان قسطنطين الى الإشارة الخارقة التي ظهرت في السماء بينها كان قسطنطين يفكر في الحملة الإيطالية ويعد لها العدة . ولكن المؤرخ زوسيموس Zosimus يؤكد في خبث أن الامبراطور كان قد غمس يديه في دم أكبر أبنائه قبل أن يعلن نبذه لمعبودات روما وآلهة أجداده . والحق أن حيرة هؤلاء الثقاة المتناقضين نشأت من سسلوك قسطنطين نفسه . وتمشيا مع دقة التعبير الكنسي ، فإن أول الأباطرة « المسيحيين » لم يكن يستحق هذا اللقب الا حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حيث أنه في مرضه الأخير تلقى مبادئ التعاليم المسيحية

غوضع الأسقف يديه على رأسه ليباركه ، ثم دخل ، بعد إجراء الطقوس الأولية للتعميد ، في عداد المؤمنين . ويجدر أن يؤخذ تنصير قسطنطين بمعنى أكثر غموضا وتقييدا . ولابد من التزام منتهى الدقة في تعقب التدرج البطيء ، بل غير المحسوس في الغالب ، الذي انتهى بإعلان هذا المعامل نفسه حاميا للكنيسة ، وفي آخر الأمر مهتديا إليها . لقد كان من الأعباء الشاقة عليه أن يمحو ما تلقن من عادات وآراء ، وإن يعترف بالقوة الإلهية للمسيح ، وأن يدرك أن صدق الوحي الذي نزل على المسيح لا يلتزم مع عبادة الآلهة ، ولقد علمته التاملات المضمنة التي يحتل أنها شغلت ذهنه ، أن يسير بخطى وثيدة حذرة في تغيير الديانة الوطنية ، وهو تغيير له خطره وأهيبته ، ثم اكتشف — دون أن يشعر — آراءه الجديدة بالقدس الذي استطاع به أن يطبقها تطبيقا مبهوتا عمالا . ولقد تدفق طوال سنى حكمه ، تيار المسيحية في حركة هائلة ، ولو أنها في نفس الوقت سريعة الخطى . ولكن الظروف الطارئة آنذاك ، وحذر الحاكم ، أن لم تكن نزواته — عوق تارة ، وإحرف تارة أخرى ، بالاتجاه العام لهذه الحركة ، وأبجح لنظاره ومعاييره أن يصوغوا نوايا سيدهم في العبارات التي تلتزم أحسن ما تلتزم مع مبادئ كل منهم . ووازن هو في دهاء بين آمال رعاياه وبين مفاهيمهم ، بأن أصدر في العام نفسه مرسومين ينص في الأول على الاهتمام الشديد بيوم « الأحد » ، على حين يحض الرسوم الثانى على استئثار الممرامين والدجالين . وبينما كان هذا الانقلاب الخطير يتأرجح في يد القدر ، كان المسيحيون والوثنيون يرقبون سلوك مليكهم بنفس القدر من القلق ، ولو اختلفت مشاعر كل فريق عن مشاعر الفريق الثانى . فاندفع المسيحيون بباعث الفيرة والغرور معا يبالبغون في أية بادرة من علائم عطفه أو شواهد ايمانه . أما الوثنيون فقد حاولوا أن يخفوا عن العالم وعن أنفسهم أن الامبراطور لم يصبح بعد في عداد أتباع آلهة روما ، الى أن تحول مجرد تخوفهم الى يأس واستياء . وتنازعت نفس المشاعر والأهواء قلوب الكتاب المتحيزين في تلك الأيام : فتراهم يرددون الاعتراف العلنى بالمسيحية بأزهى الفترات في حكم قسطنطين أو بأبغضها .

ومهما بدا في أحاديث قسطنطين أو تصريحاته من مظاهر التقوى المسيحية ، فإنه ثابر ، حتى قارب الأربعين من العمر ، على ممارسة الديانة القائمة . وان نفس السلوك الذى كان من الجائز ارجاعه الى خوضه وهو في نيقوميديا ، يمكن نسبته فقط الى ميل ملك الفال أو الى ، ، ، . وبفضل سخائه جددت وزينت معابد الآلهة ، ونقشت على

الميداليات التي صدرت عن دار السك الإمبراطورية صور جوبيتر وأبولو ومارس وهركيوليز ، وزاد ورعه البنوى من مكانة مجمع أولبس ، الذي رفع ، في مهابة ووقار ، والده قسطنطيوس الى مصاف الآلهة . ولكن تعبد قسطنطين كان يتجه بصفة خاصة الى عبقرية الشمس ، اى أبولو في الأساطير اليونانية والرومانية ، وكان يسعده ويسره أن يمثلوه برموز اله النور والشعر . فان سهام هذا المعبود التي لا تخطئ ، وبريق عينيه واكليل الغار الذي يتوجه ، وجهاله الخالد ومنجزاته اللطيفة — كل هذه الصفات هيئته ليكون حامى البطل الصغير . وقد زخرت مذابح أبولو بما قدم قسطنطين من قربان ونذور ، وأدخل في روع الجمهور الساذج أن يؤمن بأن الإمبراطور قد أجيز له أن يبصر بعينييه الفانيتين العظيمة المرئية البارزة في معبودهم المحلى ، وأنه قد سعد ، في يقطنه أو في رؤياه ، بفأل حسن ، يبشر بعهد طويل يكلله النصر والظفر . واشتهر اله « الشمس » في كل مكان بأنه المرشد والحامى الذى لا يقهر للإمبراطور قسطنطين . وربما توقع الوثنيون بحق ، أن الآله الذى أسىء اليه لابد أن يتوعد بالانتقام الشديد من زيغ تابعه الجاحد .

وطالما مارس قسطنطين سيادة محدودة في ولايات الغال ، كان يحمى رعاياه المسيحيين سلطان ، وربما قوانين أمير اقتضت حكمته أن يترك للآلهة أمر تثبيت مكانتهم وشرفهم . وإذا جاز لنا أن نصدق تأكيدات قسطنطين نفسه ، فإنه كان يرقب في استياء وسخط أعمال القساوة الفاشمة التي اقترفتها أيدي الجنود الرومان مع المواطنين الذين لم يكن لهم من ذنب الا عقيدتهم (١) . لقد لمس في الشرق وفي الغرب الآثار المتباينة للعنف وللتسامح . ولما بات العنف أبغض وأشد مقتا لأنه تمثل في شخصية عدوه العنيد جالريوس ، فقد أثر التسامح اقتداء بوالده المتوفى واتباعا لمشورته . فأوقف ابن قسطنطيوس على الفور قوانين الاضطهاد أو القها ، ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية لكل الذين أعلنوا مغلا عن اعتناقهم المسيحية . وسرعان ما تشجعوا على الاعتماد على عطف وعدالة العاهل الذى أكن لاسم المسيح ، ولاله المسيحيين أجلا خفيا خالصا .

(١) ولكن من الميسور ايضا أن المترجم اليونانى قد حسن الأصل اللاتينى و ربما تذكر الإمبراطور الشيخ اضطهاد دقلديانوس ، فأحسن بعقت وازدراء أكثر مما أحسن به بالفعل فى أيام صباه ووثنيته .

مرسوم التسامح

بعد نحو خمسة أشهر من فتح إيطاليا أعلن الإمبراطور إعلاناً صادقاً أصيلاً عن عواطفه في « مرسوم ميلان » المشهور . الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة الكاثوليكية . وفي لقاء شخصي بين أميرى الغرب ، حصل قسطنطين ، بفضل تفوقه في الذكاء والقوة ، على موافقة هورية من زميله ليسينيوس ، وقضى اتفاقهما واشتراكهما في التوقيع وسلطانهما على غضب مكسيمين ، وبعد وفاة طاغية الشرق ، استقبل مرسوم ميلان على أنه قانون عام أساسى من قوانين العالم الرومانى .

واقترضت حكمة الإمبراطورين رد كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين الذين كانوا قد حرموا منها ظلماً وعدواناً . ونص على أن تعاد إلى الكنيسة كل أماكن العبادة والأراضي العامة المصادرة دون نقاش أو إبطاء أو نفقة . واقترن هذا الإنذار الصارم بوعد كريم يقضى بأن يدفع للمستترين الذين كانوا قد دفعوا ثمناً مناسباً كافياً ، تعويض من الخزانة الإمبراطورية . وصيغت هذه القواعد الناجعة التى تصون مستقبل الهدوء بين المؤمنين في إطار مبادئ التسامح ، مع التوسع والمساواة فيه . ولابد أن الطائفة الجديدة قد فسرت هذه المساواة بأنها امتياز نافع مشرف . ويعلن الإمبراطوران إلى العالم أنهما منحا المسيحيين الآخرين وغيرهم سلطة حرة مطلقة في اعتناق أية عقيدة يرى الفرد من الأوفى له أن يؤثرها ، أو أنه وهبها عقله ونفسه ، أو أنها أصلح ما يمكنه أن يمارس . وحرصاً على توضيح كل لفظ مبهم ، واستبعاد أى استثناء ، وعلى مطالبة حكام الولايات بالالتزام الدقيق بالمعنى الحقيقى البسيط لمرسوم شرع لاقرار دعوى الحرية الدينية وتأمينها بلا حدود . وتفضيلاً بتحديد سببين هامين اقنعاهما بإباحة هذا التسامح العام : سناهل : أولهما المقاصد الانسانية التى تستهدف أمن شعبهما وسعادته ، والثانى أملهما الموسوم بالتقى والورع في أنهما بهذا العمل قد يهدان إلى السماء ويرضيانه . ويعترفان شاكرين بالشواهد العديدة الفريدة للعطف الإلهي . ويثقان بأن العناية الإلهية ذاتها سوف تظل تصون رخاء الأمير ورخاء شعبه . ويمكن أن يستخلص من هذه "تعبيرات الغامضة غير المحددة المتسمة بالتقوى والورع ثلاثة افتراضات ذات طبيعة مختلفة ، ولكنها ليست متنافرة . فلربما تأرجح عقل قسطنطين بين الديانتين الوثنية والمسيحية ، أو ربما اعترف ، تمسحاً مع الآراء المفضضة للطبيعة في مذهب الشرك ، بأن (الله

المسيحيين وأخذ من بين الأرباب الكثيرين الذين يشكلون حكومة السماء . أو ربما اعتنق الفكرة الفلسفية السارة ، التي تقول بأنه رغم تعدد الأسماء والشعائر والآراء ، فإن كل شيع الجنس البشرى وأمه متفقون في عبادة الأب المشترك ليكون وخالقه .

وكثيرا ما تتأثر آراء الأمراء بتطوراتهم إلى المنافع الدنيوية أكثر من تأثرها باعتبارات من الحقيقة المجردة النظرية . وقد يكون من الطبيعي أرجاع عطف قسطنطين المتزايد المتحيز إلى تقديره لأخلاق المسيحيين وإلى اقتناعه بأن انتشار الانجيل يستتبع بالضرورة التمسك بالفضائل الخاصة والعامة . ومهما يكن من موقف أى حاكم مطلق في تصرفاته الخاصة ، ومهما يكن من أمر انغماسه في أهوائه أو افساح المجال لعواطفه ، فإن من مصلحته ، دون ريب ، أن يحترم رعاياه الالتزامات الطبيعية والمدنية في المجتمع . ولكن أثر أعمال أحكم القوانين ناقص معيب مزعزع ، لأنها ، أى القوانين ، قل أن توحى بالفضيلة ، ولا تستطيع يوما أن تحد من الرذيلة . وليس لها من القوة الكافية ما يردع عن ارتكاب كل ما تعاقب عليه ، كما أنها لا تستطيع في كل الأحوال أن تعاقب كل ما تحرمه . وقد أهاب المشرعون القدامى بقوى التعليم والرأى لمعاونتهم . ولكن كل مبدأ كان له يوما أثره في المحافظة على نضارة وبقوة روما واسبرطة ، انطفاة جذوته منذ زمن طويل في كنف امبراطورية استبدادية متداعية . وظل للفلسفة سلطانها الرقيق على العقل الانساني ، ولكن قضية الفضيلة لم يكن لها من خرافة الوثنية الا سند هزيل واه . وربما حق للحاكم الفطن ، في هذه الظروف المثبطة ، أن يغتبط ويبتهج اذ يرقب تقدم ديانة نشرت بين الناس اسلوبا نقيًا خيرا عاما من الأخلاق ، اسلوبا صالحا لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، اسلوبا توازنوا به على أنه يمثل ارادة « الاله الأعظم » ومنطقة ، وفرضوه بضمان الثواب أو العقاب الأبدية . ولم تستطع تجربة التاريخ اليوناني والروماني أن تبين للعالم كيف يمكن اصلاح الخلق الوطنى أو تهذيبه بتعاليم الوحي الالهى ، وربما أصغى قسطنطين ، في شيء من الثقة ، الى توكيدات لكتانتيوس المتطقة ، ولكنها المعقولة حقا ، فإن هذا المدافع المفوه الفصيح ، فيما يبدو ، توقع ، أو على الأرجح جرئ على أن يعد ، بأن اقرار المسيحية سوف يجدد براءة العصور البدائية وهنائها ، وأن عبادة الاله الحق سوف تخمد الحروب والفتن بين من يعتبرون أنفسهم على قدر سواء أبناء أب واحد مشترك بينهم ، وأن أية رغبة جامحة وأية عاطفة انانية نائرة سوف تحد منها وتخفف من غلوها المعرفة بالانجيل ، وأن

الحكام سوف يغمدون سيف العدالة وسط شعب تحركه كله مشاعر الصدق والتقوى والانصاف والاعتدال والانسجام والمحبة الشاملة .

ولابد أن الطاعة السلبية العمياء التي تخضع لنير السلطة ، بل حتى للظلم والجور ، قد بدت لعينى الحاكم المستبد المطلق أبرز الفضائل الانجيلية وأنفعها . ان المسيحيين الأولين لم يستمدوا نظم الحكومة المدنية من رضا الشعب وموافقته ، بل استمدوها من قوانين السماء . وعلى الرغم من أن الامبراطور الحاكم كان قد اغتصب التاج عن طريق الخيانة والقتل ، فإنه انتحل على الفور الشخصية المقدسة ، أى شخصية نائب الله فى الأرض . وكان أمام الله وحده محاسباً على سوء استغلال سلطته ، وكان رعاياه مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه ، بعهد الاخلاص لطاغية أنتهك حرمة كل قوانين الطبيعة والمجتمع . وخرج المسيحيون المتواضعون الى الدنيا وكانهم حملان بين ذئاب ، ولما كان من غير الجائز لهم أن يستخدموا القوة حتى فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، فإنه يظل من أكبر الوزر أن تغريهم الامتيازات العقيمة أو المتاع الدنى فى الحياة العابرة ، بسفك دماء اقرانهم . وايماناً منهم بنظرية أحد الحواريين الذى بشر فى عهد نيرون بواجب الامثال غير المشروط ، ظلت ضمائر المسيحيين فى القرون الثلاثة الاولى نقية من اوزار المؤامرات السرية أو التمرد العلنى . وفى الوقت الذى عانوا فيه من بطش الاضطهاد ، لم يستفزهم شيء قط الى امتشاق الحسام فى وجه حاكمهم الطاغية ، ولم ينفروا ساخطين قط الى أى ركن قصى منعزل فى الكرة الأرضية . ان البروتستانت فى فرنسا وانجلترا والمانيا ، أولئك الذين اكدوا فى جرأة وبسالة حريتهم المدنية والدينية ، قد أساء اليهم بالمقارنة المثيرة الحاقدة بين سلوك المسيحيين الأولين وسلوك المسيحيين دعاء الاصلاح الدينى . وربما كان جديراً بنا عوضاً عن اللوم والتأنيب ، أن نمتدح ذلك المعنى السامى وتلك الروح العالية فى أسلافنا البروتستانت دعاء الاصلاح ، الذين اقتنعوا بأن الدين لا يمكن أن يلغى الحقوق الأساسية التى أقرتها الطبيعة البشرية . وربما جاز أن ننسب صبر الكنيسة الاولى الى ضعفها وإلى روح الفضيلة فيها على حدد سواء . فإن طائفة من العامة غير المحاربين ، بل قيادة ، وبلا سلاح وبلا تحصينات ، كان لزاماً أن تواجه دماراً محققاً محترماً ، اذا هى اندفعت فى مقاومة يائسة عقيمة لسيد الجيوش الرومانية . ولكن المسيحيين ، حين اثاروا غضب دقلديانوس أو التمسوا عطف تمسليطيين ، استطاعوا ان يزعموا فى صدق وثقة ، أنهم التزموا مبدأ الدعاية السلبية ، وأن سلوكهم فى مدى ثلاثة قرون كان دائماً منسجماً

مع مبادئهم . وربما أضافوا الى هذا أن عرش الإباطرة يمكن أن يرتكز على أساس متين ثابت اذا تعلم كل رعاياهم الذين يعتقدون المسيحية ، أن يحتملوا ويمثلوا .

ان الأمراء والطفاة ليعتبرون ، وفقا للنظام العام « للعناية الالهية » بمثابة وزراء للسماء ، عينوا ليحكموا وينزلوا القصاص بأمم الأرض . ولكن التاريخ المقدس يزودنا بأمثلة رائعة لتدخل الله بطريق أقرب لأن يكون مباشرا في حكومة شعبه المختار ، فقد أودع الصولجان والسيف بين يدي موسى ويشوع . وجدعون وداود — من المكابيين Maccabees وكانت فضائل هؤلاء الأبطال حافزا للعطف الالهى أو نتيجة له ، وقدر لنجاحهم في الحرب أن يحقق خلاص الكنيسة أو انتصارها . واذا كان قضاة اسرائيل حكاما طارئين مؤقتين ، فان ملوك يهوذا اقتبسوا من المسحة الملكية لسلطتهم العظيم حقا وراثيا لا يمس ، ولا يمكن أن تفقد اياه رذائلهم ، أو تبطله نزوات رعاياهم . وربما اختارت « العناية الالهية » نفسها ، التي لم تعد تقصرا على الشعب اليهودى — اختارت قسطنطين وأسرته ليكونوا حماة العالم المسيحي . وراح لكتانتيوس الناسك المتعبد يعلن في نبرات رسولية ، « المجد الذى سوف يتألق في سماء حكمه المديد الذى سيعم العالم . ويحان جاليريوس ومكسيمين ومكسنتيوس وليسينيوس منافسين شاركوا « حبيب السماء » ولايات الامبراطورية . وسرعان ما أرست مأساة موت كل من جاليريوس ومكسيمين سخط المسيحيين ، وحقت تمنياتهم الدموية . وأزاح تغلب قسطنطين على مكسنتيوس وليسينيوس ، عن طريقة مزاحين عنيديين ظللا يعارضان انتصار « داود الثانى » . وربما ادعت قضيته ، فيها يبدو ، أن العناية الالهية قد تدخلت فيها وباركتها بصفة خاصة . لقد لوثت شخصية الطاغية الرومانى الخلة الامبراطورية والطبيعة البشرية . وربما تمتع المسيحيون بعطفه المتقلب ، ولكنهم كانوا رغم ذلك معرضين ، مع سائر رعاياه ، لأثار نزقه وقسوته الفاشمة . وسرعان ما فضح سلوك ليسينيوس أنه كان قد وافق ، وهو كاره على القواعد الخكية الانسانية التى تضمنها مرسوم ميلان ، فقد حرم فى ممتلكاته اجتماعات المجالس الكنسية فى الولايات ، وعزل موظفيه المسيحيين بشكل مقيت ، واذا كان قد تغادى وزر — أو قل خطر الاضطهاد العام ، فان مظالمه ستظل أبشع وأشنع بانتهاكها التزاما رسميا وافق عليه طواعية واختيارا ، وبينما كان الشرق — على حد التعبير الحامى الذى ذكره يوسوبوس — يتعثر فى دياجير ظلام خبيث ، بعثت اشعة الأنوار السماوية الدفء فى ولايات الغرب

واضاعت جوانبها . وقد اعتبر ورع قسطنطين دليلا كاملا على عدالة
أسلحته ، وأكد استغلاله للنصر رأى المسيحيين في أن بطلهم كان
يتصرف بالهام وتوجيه من « رب الحشود » ، لقد انبثق عن غزو
إيطاليا مرسوم عام للتسامح ، وما أن تفرد قسطنطين ، بعد هزيمة
ليسينيوس ، بالسلطان في دنيا الرومان ، حتى بعث بكتب دورية الى
كل الأقاليم يحض فيها جميع رعاياه على أن يقتدوا ، دون إبطاء
بمليكهم ، وأن يؤمنوا بالحقيقة الالهية ويدخلوا في المسيحية .

وولد الاعتقاد الراسخ بأن اعتلاء قسطنطين العرش مرتبط ارتباطا
وثيقا بالتدبيرات الالهية — ولد في عقول المسيحيين رأيين ساعدا
بوسائل مختلفة على تحقيق النبوة . فاستنفذ ولاؤهم الجاد الحار
كل جهد إنساني في سبيل نصرته ، وتوقعوا عن يقين أن الله سوف يؤيد
جهودهم بعون خارق من عنده . أما أعداء قسطنطين فقد عزوا هذا
التحالف الذي عقده بطريقة غير ملحوظة مع الكنيسة الكاثوليكية ،
والذي ساعد على تحقيق اطماعه ، الى دوافع غير نزيهة تتفق مع
مصلحته هو ، وفي أوائل القرن الرابع كانت نسبة عدد المسيحيين الى
مجموع سكان الامبراطورية لا تزال ضئيلة ، ولكن ربما ساعدت روح
الطائفة الدينية ووحدتها — وسط شعب منحل نظر الى تغيير حكمه
بلا مبالاة كما يفعل العبيد — نقول ربما ساعدت هذه الروح القاسد
المحبوب الذي وضعت الطائفة ، بوحي من ضمائرهما ، حياتها وأموالها
في خدمته . وكانت لقسطنطين في أبيه أسوة حسنة ، حيث تعلم منه أن
يقدر شمائل المسيحيين ويكافئهم عليها . وتهيات له فوق ذلك ميزة
تقوية حكومته باختيار نظار أو قادة يمكن أن يثق في اخلاصهم ثقتة
حقا لا حدود لها . وكان لزاما ، بفضل نفوذ هؤلاء الرجال أن يتضاعف
عدد المهتدين الى العقيدة الجديدة في البلاط والجيش ، وكان المتبررون
الألمان الذين ملأوا مختلف مراتب الجيش ، يتميزون بقدر من السفلة
والخفة تقبلوا معه ديانة قائدهم دون مقاومة ، ويمكن القول في انفساف
أن عددا كبيرا من الجنود ، عندما عبروا جبال الألب ، قد ونسوا
أسلحتهم في خدمة المسيح وخدمة قسطنطين . وخففت طبائع البشر
وبواعث الدين ، يوما بعد يوم من أهوال الحرب وسفك الدماء ، التي
سادت بين المسيحيين زمنا طويلا . وفي المجالس التي انعقدت تحت
حماية قسطنطين استخدم الأساقفة في الوقت المناسب سلطاتهم لاقرار
اليمن العسكرية ، وانزال عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة بأولئك
الجنود الذين القوا سلاحهم حين ساد الهدوء الكنيسة . وفي الوقت
الذي زاد فيه قسطنطين ، في نطاق ملكه ، من عدد أتباعه

ومن غيرتهم وحاسهم ، كان يستطيع أن يعتمد على تأييد حزب قوى في الولايات التي ظلت بعدت تحت حكم منافسيه ، أو تلك التي اغتصبوها ، وسرى شعور خلى بالبفس والنفور بين رعايا مكسنتيوس وليسينيوس المسيحيين . ولم يجت الفيط الذى لم يحاول الأخير أن يخفيه ، الا في زيادة انحيازهم الى جانب غريمه . واستطاع الاساقفة ، بفضل المراسلات المنتظمة التي ربطت بين بعضهم بعضا في أقصى الولايات ، أن ينقلوا ، في حرية تامة ، رغباتهم وخططهم ، وان يوصلوا — دون ما خطر — أية ابناء مشيدة أو أية تبرعات ورعة ، يمكن أن تدغم مركز قسطنطين الذى أعلن جهارا أنه قد امتشق الحسام من أجل خلاص الكنيسة .

رؤيا قسطنطين

زاد الحماس الذى غمر الجنود — وربما غمر الامبراطور كذلك — من حدة سيوفهم وقوة سلاحهم ، كما اثلج صدورهم وأرضى ضمائرهم . متقدموا الى المعركة ، وهم على يقين تام من أن الله الذى شق من قبل للاسرائيليين طريقا عبر مياه الأردن ، وحطم أسوار أريحا أمام صوت أبواق يشوع — لابد أن يكشف للعيان عن عظيمته وقوته في انتصار قسطنطين . ان شواهد تاريخ الكنيسة مستعدة للتأكيد بأن تمنياتهم بررتها المعجزة البارزة التي ينسب اليها الجميع تقريبا تحول أول امبراطور الى المسيحية . وان السبب الحقيقي أو الخيالى لثل هذا الحدث الجليل الخطر ، ليستحق ويتطلب اهتمام الأجيال القادمة . وسأحاول أن أكون تقييما صادقا لرؤيا قسطنطين المشهورة بدراسة متميزة للرأية وللحلم وللعلامة السماوية ، عن طريق الفصل بين الجوانب التاريخية والطبيعية والخرافة أو المعجزة في هذه القصة الغريبة ، التي مزجت في دهاء في كتلة ضخمة هشة ، رغبة في صياغة حجة خداعة حسنة المظهر .

١ — أصبحت آلة من آلات التعذيب الذى كان ينزل بالعبيد والغرباء وحدهم ، موضع الهلع والفرع في نظر المواطن الرومانى . وارتبطت فكرة الذنب والالم والفضيحة ، ارتباطا وثيقا بفكرة

الصليب (١) . وسرعان ما ألغيت روح التقوى في قسطنطين — أكثر من الروح الانسانية فيه — ألغت في نطاق ملكه تلك العقوبة التي تفضل السيد « المسيح المخلص » فعانها ، ولكن الأباطور كان قد تعلم أن يحتقر الأهواء التي تلقاها في فترة تنشئته وتربيته وكذا أهواء شعبه ، قبل أن يتمكن من أن يقيم وسط مدينة روما تمثالا له وهو يحمل الصليب في يده اليمنى ، مع نقوش ترجع الفضل في انتصاره في ساحة الوغى ، وتخليص روما ، الى هذه العلامة المباركة (الصليب) ، الرمز الصادق للقوة والشجاعة . وأضفى نفس الرمز على أسلحة جنود قسطنطين قديسة وطهرا ، مثالق على خوذاتهم ، ونقش على دروعهم ، ونسج على راياتهم ، وتميزت الشعارات المقدسة التي ازدان بها الأباطور نفسه بأنها صنعت من مادة أغلى قيمة ، ويقدر أكبر من الدقة والاعتقان . ولكن الراية الرئيسية التي أشارت الى فوز الصليب كانت تسمى لاباروم Labarum ، وهو لفظ غامض ، ولكنه مشهور ، اشتق عبثا من كل لغات العالم تقريبا ، ووصفت هذه الراية بأنها عبارة عن عمود خشبي له رأس حديدي مدبب يتقاطع معه قضيب مستعرض ، تتدلى منه الراية المصنوعة من الحرير ، وقد نسجت عليها صور العاهل الحاكم وأبنائه ، وارتكز على رأس العمود تاج من الذهب ، بداخله الطغراء الغامضة التي تمثل كذلك شكل الصليب والحروف الأولى من اسم السيد المسيح . وعهد بحراسة هذه الراية « لاباروم » الى خمسين حارسا مشهودا لهم بالبسالة وصدق الايمان ، وتميز مركزهم بما أضفى عليهم من أمجاد ، وما منحوا من رواتب عالية . وسرعان ما وقعت أحداث سعيدة أدت الى الرأي القائل بأن نبال العدو لن تنفذ الى حراس الراية « لاباروم » وانهم في مأمن من الخطر طالما كانوا مائمين عليها . وأحسن ليسينيوس ، في الحرب الأهلية الثانية بقوة هذه الراية المقدسة وتوجس منها خيفة ، تلك الراية التي أثار منظرها ، وسط احتدام المعركة ، في جنود قسطنطين حماسا لا يقهر ، ونشر الرعب والفزع في صفوف أعدائهم . ورفع الأباطرة المسيحيون الذين حذوا حذو قسطنطين ، راية الصليب في كل حملاتهم الحربية . ولما انتقل خلفاء تيودوسيوس المنحطون عن الظهور على رأس جيوشهم ، أودعت

(١) أصاب الكتاب المسيحيون : جوستين ، ميترسيوس ، هليكس ، تروتوليان ، جيروم ، مكسيموس تورين ، قدرا معقولا من النجاح في استنصاف شكل الصليب أو شبهه له في الطبيعة أو الفن : في تقاطع الزوال مع خط الاستواء ، في وجه الانسان ، ولما يحلق ، ورجل يسبح ، وفي الحصارية ، وفي الفتاة ، في المحراث وفي العلم ، ... وغيرها .

راية « لباروم » قصر القسطنطينية على أنها اثر وقور رفيع الشأن ، ولكنه عقيم غير مجد . ولا تزال أمجاد هذه الراية باقية على رصائع (ميداليات) أسرة فلافيوس . ونتيجة لنسكهم الشكور وضعوا طغراء المسيح وسط شعارات روما ، واستخدمت في الانصباب التذكارية الدينية والحربية على السواء تلك العبارات المهيبة : « سلامة الجمهورية » ، « مجد الجيش » ، « سعادة الشعب » ، ولا تزال توجد زصيعا (ميدالية) قسطنتيوس ، وعليها رايسة « لباروم » مقرونة بالعبارة التذكارية « بفضل هذه الراية سوف تنتصر » .

٢ - درج المسيحيون الأولون على أن يحصنوا عقولهم واجسامهم في كل أوقات الخطر والضيق بعلامة الصليب ، التي استخدموها في كل شعائرتهم الكنسية ، وفي كل وقائع الحياة اليومية ، على أنها عاصم محقق من كل شر روى أو دنوى . وربما كان لسلطان الكنيسة وحده من الأهمية والاعتبار ما يبرر اخلاص قسطنطين الذى اعترف في خطى وثيدة حذرة بصدق المسيحية واتخذ رمزها شعارا له . ولكن شهادة كاتب معاصر كان يدافع عن قضية الدين في رسالة رسمية ، تضى على ورع الامبراطور طابعا اشد رهبة واكثر وقارا . فهو يؤكد ، بأكبر قدر من الثقة واليقين ، أن قسطنطين ، في الليلة السابقة على آخر معركة مع مكسنيتوس ، تلقى في المنام تنبيها بحفر علامة الله السماوية أى طغراء اسم المسيح المقدسة على دروع جنوده ، كما أنه قام بتنفيذ أوامر السماء ، وفاز بالنصر الحاسم عند جسر ميلفيا Milvia جزاء وفاقا على بسالته وامثاله . وربما حدثت بعض الاعتبارات بالعقل المتشكك الى الارتياح في حكم أو صدق رب البلاغة الذى سخر قلبه ، بدافع الغيرة أو بدافع المصلحة ، لخدمة الطائفة الغالبة ، فقد نشر ، على ما يبدو ، وفيات الظالمين في نيكوميديا ، بعد نحو ثلاث سنوات من انتصار الرومان . ولكن مسافة الألف من الأميال ، وغترة الألف من الأيام لابد تفسحان مجالا واسعا لادعاءات الخطباء المؤثرين ، ولسرعة تصديق الطائفة ، وللاستحسان الضمنى الصامت من جانب الامبراطور الذى ربما أصفى في ارتياح الى هذه القصة الخارقة التى رفعت ذكره وأنجحت مساعيه . وأورد نفس المؤلف ، مجاملة لليسينيوس ، رؤيا في صيغة دعاء نقله أحد الملائكة وردده كل جيشه قبل أن يلتحم مع جنود الطاغية مكسيمين . أن كثرة تكرار المعجزات تستفز العقل البشرى ، حين لا تستطيع أن تخضعه . ولكنا اذا أنعمنا النظر في رؤيا قسطنطين ، على حدة ، فقد يكون من الطبع أن تفسرها سياسة الامبراطور أو حماسه . ففى سنة قصيرة من نوم متقطع ، هجع فيها قلقه من

اقتراب اليوم الذي لابد ان يتحدد فيه مصير الامبراطورية ، فرضت صورة المسيح والرمز المعروف المشهور لديانته نفسيهما على الخيال اليقظ لأمير مجد اسم اله المسيحيين ، وربما التمس منه العون والقوة سرا . فان أى رجل دولة أو سياسي أريب مستعد إلى اللجوء إلى مناوره أو خدعة جريئة من أمثال تلك الاحتمالات المروعة التي عمد إليها غيليب وسرتوريوس Sertorius (في القرن الأول قبل الميلاد) بنفس القدر من الدهاء ، فأتت بنفس النتيجة . لقد آمنت كل الأمم القديمة عامة بمنشأ الأحلام الخارق للطبيعة ، وأصبح جزء كبير من جنود الغال مستعدا بالفعل لوضع ثقته في تلك العلامة الناجعة ، علامة السدين المسيحي . وقد تكذب الواقعة وحدها رؤيا قسطنطين الخفية أو تدحضها ، وربما رأى البطل الصنديد الذي كان قد عبر الألب والأبنين ، في يأس فائر ، نتائج الاندحار تحت أسوار روما . واعترف السناتو والشعب الذين هلكوا لخلاصهم من طاغية بغضى بأن انتصار قسطنطين جاوز قدرة البشر ، دون أن يجسروا على التلميح إلى أن هذا كان من صنع الآلهة . وان قوس النصر الذي أقيم بعد هذا الحادث بسنوات ثلاث ، ليعلن في عبارة مبهمه ، أنه أنقذ دولة الرومان وثار لها ، بفضل عظمة عقله ، وبفضل الفطرة أو البواعث الالهية . ويذهب الخطيب الوثني الذي انتهر فرصة مبكرة قبل ذلك ليشيد بمناقب الامبراطور الفاتح ، يذهب إلى الظن بأنه هو وحده ، أى الامبراطور ، سعد بعلاقة وثيقة خفية مع « الكائن الأعظم » الذي هوّض أمر العناية بال مخلوقات الفانية إلى الآلهة الذين هم أدنى منه مرتبة . ومن ثم يحدد هذا الخطيب سببا مقبولا شكلا يعلل به : لماذا لا يجدر برعايا قسطنطين أن يقدموا على اعتناق ديانة مليكهم الجديدة .

٣ - ومن المحتمل أن ينتهى الفيلسوف الذى يتفحص في ارتياب هادىء ، الأحكام والنذر والبشائر والمعجزات والكرامات ، في تاريخ الرجس ، بل حتى في تاريخ الكنيسة - ينتهى إلى أنه اذا خدع النصب والاحتيال أحيانا إبصار الناظرين ، فكم امتن القصص الخيالى عقول القراء !! فان أى حادث أو مظهر طارىء يبدو انحرافه عن المجرى العادى للطبيعة ، قد نسب في اندفاع وطيش إلى التدخل المباشر للآلهة . وأضفى خيال الجمهور المذهول شكلا ولونا ولغة وحركة على النيازك الخاطفة غير المألوفة . ان نازاريوس ويوسوبوس هما أشهر خطيبين ، جهدا ، في مديح بليغ منمق ، في أن يشيدا بمجد قسطنطين . فان نازاريوس يصف بعد تسع سنين من انتصار الرومان ، جيشا من « تاربين الهيين يبدو أنهم هبطوا من السماء ، ويشير إلى جمالهم

وروحهم ، واشكالهم الضخمة ، وفيض النور الذي شع من اسلحتهم السماوية ، وجلدهم على تعريض انفسهم لأبصار أهل الأرض واسماعهم ، وتصريحهم بأنهم أرسلوا وأنهم طاروا لنجدة قسطنطين العظيم . ويهيب الخطيب الوثني بأمة الغال بأسرها ، التي كان يخطب في حضرته أن تصدق هذه الكرامة ، يحدوه الأمل ، فيما يبدو ، في أن تحظى الآن الرؤى السابقة بشيء من التصديق والاهتمام من هذا الحادث الجديد العام . أما خرافة يوسوبوس المسيحية ، والتي ربما نبعت على مدى ستة وعشرين عاما ، من نفس الحلم الأصلي ، فقد صيغت في شكل أصح وأرشق ، فقد ذكر أن قسطنطين في إحدى مسيراته رأى رأى العين النصب التذكاري المضي للصليب موضوعا فوق شمس الظهيرة . وقد نقشت عليه هذه العبارة : « بهذا فلتغلب » . وأذهش هذا الشيء المذهل في السماء كل الجيش بأسره قدر ما أذهش الإمبراطور نفسه . الذي لم يكن قد استقر رأيه بعد على اختيار دين . ولكن رؤيا الليلة التالية حولت ذهنته الى ايمان . فقد ظهر المسيح لناظره ومعه علامة الصليب السماوية نفسها . وأمر قسطنطين أن يصنع راية شبيهة بهذه العلامة ، وأن يسير ، مؤقتا بالنصر ، الى ملاقاته مكسنتيوس وسائر أعدائه — ويبدو أن أسقف قيصرية العلامة رأى أن الكشف عن هذه القصة الخارقة آنذاك (في وقت متأخر) سوف يثير الدهشة والريبة في نفوس أشد قرائه تقى وورعا . ولكن ، بدلا من تحديد الظروف الدقيقة للزمان والمكان ، التي تفيد دائما في اظهار ملامح الكذب أو جلاء وجه الحق ، وبدلا من أن يجمع ويسجل أدلة كثيرة من شهود العيان الأحياء الذين لابد أنهم رأوا رأى العين هذه المعجزة الفذة ، يكتفى يوسوبوس بدليل غساية الغرابة ، يزعمه من عندياته ، فهو يدعى أن الإمبراطور الراحل قسطنطين ، بعد عدة أعوام من هذه الواقعة انطلق معه في الحديث ، مروى له قصة هذا الحدث الفريد في حياته ، وأكد صحته باغلاظ الأيمان . وأبت على الحبر العلامة فطنته وعرفانه للجميل أن يشك في صدق سيده الظاهر ، ولكنه يشير في صراحة ووضوح ، الى أنه لزاما عليه أن يرفض التسليم بحقيقة من مثل هذا النوع اذا جاءت من مصدر غير وثيق ، ولكن بواعث التصديق لم تعمر بعد أن دالت دولة أسرة فلافيوس ، أما العلامة السماوية التي ربما سخر منها الزنادقة فيما بعد ، فقد أغلفها المسيحيون في العصر الذي تلا تحول قسطنطين مباشرة . ولكن الكنيسة الكاثوليكية في الشرق والغرب معا ، تبنت علامة تلتئم ، أو يبدو أنها تلتئم مع عبادة الصليب التي يمارسها الناس .

واحتلت رؤيا قسطنطين مكانا مرموقا في أساطير الخرافة ، حتى تجاسرت روح النقد الجريئة الحكيمة على أن تنقض من قدر الامبراطور المسيحي الأول وتناقش صدق روايته .

تعميد قسطنطين

يميل قراء العصر الحاضر من البروتستانت والفلاسفة الى الاعتقاد بأن قسطنطين ، فى روايته عن تحوله الى المسيحية ، أقر بهتانا صارخا بيمين شهوس رهيبة متعمدة . وقد لا يترددون فى القول بأنه فى اختيار الدين كان مسوقا بوازع من مصلحته ، وأنه (على حد تعبير شامر ملحد) قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى به الى عرش الامبراطورية . ومهما يكن من أمر ، فإن معرفتنا بالطبيعة البشرية وبقسطنطين وبالمسيحيين لا تسخىج الجزم بمثل هذه النتيجة القاسية المطلقة . فالملاحظ فى عصر تسوده الحمية الدينية ، أن أكثر الساسة دهاء يستشعرون شيئا من الحماس الذى يبتونه فى الناس ، على حين يتخذ أكثر القديسين استقامة لأنفسهم تلك الميزة الخطيرة ، ميزة الدفاع عن قضية الحق بأسلحة الغش الباطل . وجدير بالذكر أن المصلحة الشخصية كثيرا ما تكون مقياس ايماننا ومقياس عملنا وتصرفنا ، على حد سواء . وعلى هذا من الجائز أن نفس بواعث المنفعة الدنيوية التى وجهت سلوك قسطنطين وأعماله العامة ، جنحت به ، دون أن يحس ، الى امتناق ديانة تلتئم مثل هذا الالتئام مع شهرته ومصيره وحظه . وقد أرضى غروره التوكيد المقرون بالملق بأن السماء قد اختارته ليحكم الأرض . وكان فى نجاحه ما يبرر حقه المقدس فى العرش . وكان هذا الحق مرتكزا على صدق الوحي المسيحى . وقد يثير المديح الذى يكال بغير حق فى بعض الأحيان ، فضيلة أصيلة حققة ، فإذا كان ورع قسطنطين فى البداية مجرد تمويه ظاهرى ، فإن هذا الورع الموه ربما تحول يوما بعد يوم ، تحت تأثير الاطراء والتعود والاقتداء ، الى ايمان جدى واخلاص حار . وأجيز لأساقفة الطائفة الجديدة ومعلميها الذين لم تكن آداب سلوكهم ولا ملابسهم تؤهلهم للارتفاع الى مقام الحاشية ، أن يجلسوا الى المائدة الامبراطورية ، وتسلط أحدهم ، وهو مصرى أو إسبانى ، على عقل الامبراطور بشكل اعتبره الوثنيون ضربا من السحر ، وأصبح لكتانتايوس الذى دبح تعاليم الانجيل ببلاغة شيشرون ، ويوسوبوس الذى سخر علم اليونان وفلسفتهم لخدمة الدين ، صديقين اليافين لليكهما ، وارتفعت الكلفة بينه وبينهما . واستطاع هذان العالمان ،

على ما بينهما من تفاوت ، أن يتحينا في جلد وصبر ، للحظات الهائلة
المواتية للاقناع والاعراء ، ليدليا في حذق وبراعة بأكثر الحجج تناسبا
مع خلق الامبراطور وأدراكه . ومهما يكن من أمر المزايا التي يمكن
الظفر بها من الفوز بمهتد امبراطورى ، فإنه لم يكن يتميز عن الآلاف
المؤلفة من رعاية الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية الا بالحلة الامبراطورية
أكثر منه بالتفوق في مجال الحكمة والفضيلة . وقد لا يكون من غير
المعقول أن يستسلم عقل جندي غير متعلم لقيمة الدليل الذي أقنع
أو أخضع ، في عصر أكثر استنارة ، منطق أو عقل جروشيوس أو
بسكال أو لوك . وفي زحمة المهام المتلاحقة لمنصبه الخطير ، قضى هذا
الجندي ، أو تظاهر بأنه يقضى ، ساعات الليل في دراسة واعية للكتاب
المقدس ، وفي اعداد الأحاديث اللاهوتية التي كان يدلى بها بعد ذلك
الى جمهور المستمعين المادحين المصفقين . ويطنب الواعظ المسمى في
حديث طويل له ما يزال باقيا حتى الآن ، في ذكر مختلف البراهين الدينية ،
ولكنه يضرب في ارتياح خاص ، على نغم أشعار العرافة سيبييل
(Sibyl) وعلى نشيد الرعاة الرابع من أناشيد فرجيل ، فان شاعر
مانتوا هذا (Mantua مدينة في شمال إيطاليا مسقط رأس فرجيل) -
قبل ميلاد المسيح بأربعين عاماً - شاد ، وكأنه استلهم أفكار أشعيا
السماوية (أحد أنبياء بنى اسرائيل في القرن الثامن قبل الميلاد) في
فخامة لغة الشرق واستعاراتها - شاد بعودة العذراء ، وموت
الثعبان ، واقتراب مولد طفل الهى من نسل جوبيتر العظيم يكفر عن
آثام البشر ، ويحكم الكون الهادئ بفضائل أبيه ، كما شاد بنشأة جنس
سماوى ، وظهور أمة بدائية تنتشر في كل بقاع العالم ، وأخيرا باستعادة
براءة العصر الذهبي وهناعته يوما بعد يوم ، ومن الجائز أن الشاعر لم
يذكر المعنى والمضمون الخفيين لهذه التنبؤات السامية ، التي انصرفت ،
بغير حق الى طفل من أبناء القنصل أو أحد الحكام الثلاثة (يشير الى
قسطنطين) ولكن اذا كان تفسير أكثر روعة وتمويها للنشيد الرابع ،
قد ساعد على تحول قسطنطين الى المسيحية ، لاستحق فرجيل أن
يوضع في مصاف أعظم الدعاة الى الانجيل نجاحا وتوثيقا .

واخفيت الاسرار الرهيبة للديانة والعبادة المسيحيين عن عيون
الغرباء ، بل حتى عن طالبى المعمودية في تكتم أفلح في إثارة دهشتهم
وفضولهم . ولكن القواعد الصارمة للنظام الذى اقتضت فطنة الأساقفة
وضعه ، تراخت مع نفس القدر من الفطنة من أجل الامبراطور المهتدى ،
الذى كان من الأهمية بمكان اغراؤه بكل ملاطفة وديعة للدخول في

حظيرة الكنيسة . وأبيح لقسطنطين على الأقل بمقتضى هتوى ضمنينة صامتة ، أن يتمتع بمعظم امتيازات الرجل المسيحي قبل أن يتقيد بشيء من التزاماته . وبدلاً من مغادرة المجمع إذا ارتفع صوت الشماس ايذاناً بانصراف الجهور الدنس ، صلى هو مع المؤمنين ، وجادل الأساقفة ، ووعظ في أشد موضوعات اللاهوت تعقيداً ودقة ، واختفل بالشعائر المقدسة في ليلة عيد الفصح ، ولم يعلن أنه مجرد « متناول » أو مشارك ، بل أعلن نفسه — الى حد ما — كاهناً أو قسيساً ضليعاً في الأسرار المسيحية . وربما اقتضى غرور قسطنطين بعض التمييز الخارق ، وقد استحققت خدماته هذا التمييز ، وكان من الجائز أن تعصف الصرامة — اذا عول بها في غير أوانها — بثمار تحولها التي لم تنضج بعد . واذا أحكم اغلاق أبواب الكنيسة في وجه أمير حجر مذابح الآلهة ، لبات سيد الامبراطورية عاطلاً عن أى لون من ألوان العبادة الدينية . وفي آخر زيارة له لمدينة روما ، أنكر الامبراطور عقيدة آبائه وأجداده وامتنعها ، حين رفض أن يتصدر موكب الفرسان العسكري ، وأن يقدم النذور العامة للاله جوبيتر في الكابيتولين . وقبل تعميد قسطنطين ووفاته بنعدة أعوام ، أعلن على الملأ أن شخصه أو رسمه لن تقع عليه العين بعد الآن داخل أى معبد وثني ، وفي نفس الوقت وزع على الولايات مجموعة من الميداليات والصور التي تمثل الامبراطور في وضع متعبد مسيحي يتخذ ويبتهل .

وانه ليصعب تفسير أو تبرير كبرياء قسطنطين الذي أبى أن ينعم ببركة المعمودية . ولكن يمكن تبرير الإبطاء في تعميده ، بقواعد الكنيسة القديمة وطقوسها . وكان الأسقف ، مع معاونيه من الأكليروس ، يقوم بنفسه بإجراءات التعميد في أوقات منتظمة في الكنيسة الكاتدرائية في الأسقفية ، في الخمسين يوماً التي تقع بين الاحتفالات المهيبة بعيد الفصح وعيد العنصرة . وكانت هذه الفترة المقدسة تفسح المجال لضم كثير من الأطفال والبالغين الى أحضان الكنيسة ، وكثيراً ما اقتضى حزم الأباء تأجيل تعميد أطفالهم الى أن يستطيعوا فهم الالتزامات التي تقيدوا بها ، كما فرض تشدد الأساقفة على المتحولين الجدد قضاء فترة اختبار وتجربة تمتد الى عامين أو ثلاثة أما طالبو الدخول في النصرانية أنفسهم ، فقلما كانوا غيورين على اتخاذ شخصية المسيحي الكامل المثبت ، وذلك نتيجة بواعث مختلفة دنيوية وروحية ، وكان المفروض أن يتضمن التعميد قضاء تاماً مطلقاً على الذنوب ، وعودة النفس في الحال الى نقاوتها الأصلية الأولى ، وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . ورأى عدد كبير من بين المهتدين الى المسيحية أنه ليس من الحكمة

التعجيل بشعيرة نافعة. لا يمكن تكرارها ، وأن يهملوا ميزة لا تهيئة لها ، ولا يمكن استرجاعها . فانهم يتأجل تعميدهم يستطيعون ، في حرية ويسر ، أن يشيعوا شهواتهم وينغمسوا في متاع الدنيا . على حين يحتفظون في أيديهم بوسيلة الغفران الميسور (١) . وكان أثر نظرية الانجيل السامية على قلب قسطنطين أضعفت منه على ادراكه وفهمه . تسلك جريا وراء مطمعه الكبير سبيل السياسة والحرب الملتوية المظلمة الملتخة بالدم ، وأسلم نفسه ، بعد النصر ، الى المغالاة في استغلال حظه استغلالا سيئا في سرقة بالغ . وعوضا عن تأكيد تفوقه الحق على بطولة تراجان والأتطونيين المشوهة المتعبية وخلصتهم الوثنية الدنسة ، فقد قسطنطين عندهما تقدمت سنة تلك الشهرة التي كان قد ظفر بها أيام شبابه . وكلما تقدمت به الأيام في الوقوف على جوهر الحقيقة ، هبط بنفس القدر تغلقه بآهذاب الفضيلة . وتلطخت نفس السنة من حكمه التي دعا فيها الى عقد مجلس نيقية ، بإعدام أكبر أبناءه ، أو قل ذبحه . وهذا التاريخ وحده كاف لدحض مزاعم زوسيموس الجاهلة الخبيثة ، الذي يؤكد ، أنه بعد موت كرسبوس ، حظى أبوه من آباء الكنيسة المسيحية ، لقاء ما أحس من وخز الضمير ، بالففران الذي كان قد التمسه عبثا من الأخبار الوثنيين . وعند وفاة كرسبوس لم يعد الامبراطور يستطيع التردد في اختيار ديانة ، ولم يعد يجهل أن لدى الكنيسة علاجا أكيدا ، ولو أنه ارتأى أن يؤجل استخدامه حتى يحول دنو أجله دون الاغزاء بالانتكاس ودون خطره . وتأثر الأساقفة الذين دعاهم في مرضه الأخير الى قصر نيوميديا بالحمية التي طلب وتناول بها أسرار التعميد ، وبتصريحه المهيّب بأنه سيقتضى البقية الباقية من عمره في حياة جديرة بتلميذ للمسيح ، وبرفضه المقرون بالتواضع أن يلبس الحلة الامبراطورية ، بعد أن كان قد تدشّن في رداء المبتدئين (في المسيحية) وشجعت شهرة قسطنطين والاعتداء به ، فيها يبدو ، على

(١) لم يستطع آباء الكنيسة الذين يعيرون على هذا الابطام الاثم أن ينكروا المغول الاكيد الناجع للتعميد على فراش الموت . ولم تتخفى بلاغة كريسستوم (يوحنا الذهبى) Chrysostom الحاذقة الا عن ثلاث حجج فقط ضد هؤلاء المسيحيين الحكماء : ١ - أنه ينبغي أن نصب الفضيلة نفسها ، لا من أجل ما يعود علينا من نفع فقط . ب - أنه من المحتمل أن نلجأ بالموت دون أن يكون هناك مجال للتعميد . ج - وأنه رغم أننا سوف نتخذ مكاننا في السماء ، فاننا سنقتلق فيها مثل النجوم الصغيرة لمحبس بالمقارنة الى شمعوس البررة الصالحين . الذين قضوا أجلهم المضروب مقرونا بالعمل والتوفيق والجد . واعتقد أن تأجيل التعميد ، مهما أسفر عن نتائج وخيمة الى أبعد حد ، لم يعاقب عليه أى مجلس عام أو أى من مجالس الولايات ، أو أى قانون عام أو إعلان من الكنيسة . وما أيسر ما ثارت غيرة الأساقفة في مناسبات اتفه من هذه بكثير !

تأجيل التعميد ، فتشجع الطفلة الذين جاءوا بعده على الاعتقاد بأن
الدماء البريئة التي يسفكونها أثناء حكمهم الطويل سوف تغسلها على
الفور مياه التعميد وما يصحبه من تجديد القلب ، ومن ثم حطم سوء
استغلال الدين أسس الفضائل الأخلاقية تحطيمًا خطيرًا .

أقرار المسيحية بمقتضى القانون

مجد عرغان الكنيسة وامتنانها فضائل نصيرها الكريم واغضى عن
سقطاته ، وهو الذى رفع المسيحية على عرش العالم الرومانى . وقلها
ذكر اليونانيون الذين يحتفلون بعيد القديس الامبراطورى ، اسم
قسطنطين ، دون أن يضيفوا اليه لقب « المساوى للرسول » . ويجب
ارجاع مثل هذه المقارنة ، ولو أنها تشير الى خلق هؤلاء المبشرين
الالهيين ، الى الاسراف فى الملق الذى يتسم بالاحاد والكفر . ولكن اذا
كانت المقارنة مقتصرة على مدى انتصارات قسطنطين الدينية وعددها ،
فربما تعادل نجاح قسطنطين مع نجاح الرسل أنفسهم ، فقد ازال
بقوانين التسامح تلك العقبات الدنيوية التى عوقت حتى ذلك الحين تقدم
المسيحية . وظفر دعائها الجادون الكثيرون بترخيص مبالغى ونسجيج
كريم على التبشير بحقائق الوحي الناجمة بكل حجة تنفذ الى عقول
البشر ، وتهز جانب التقوى والايمان فيهم . ولم يدم التوازن الدقيق بين
الديانتين الا قليلا . فسرعان ما اكتشفت عين الطمع والشره الفاحشه
النافذة ان الاعتراف بالمسيحية وبما أسهم فى تحقيق المصلحة فى هذه
الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة على حد سواء . فان الأمل فى الثروات
والاهجاد ، والنموذج الذى يرونه فى شخص الامبراطور ، ونسائحه
وتحذيراته ، وابتساماته التى لا تقاوم ، اشاعت الاقتناع بين الحشود
السهلة الانقياد الخائفة التى تملأ عادة ابهاء القصر . أما المدن التى كان
لها قصب السبق فى اظهار غيرتها بتدمير معابدها ملواعة واختيارا ،
فقد اختصت ببعض المزايا البلدية ، وكوفئت بالمدايا المماوفة ، كما
كرمت عاصمة الشرق الجديدة بميزة فريدة ، تلك هى ان القسطنطينية
لم تدنس قط بعبادة الأوثان . ولما كانت غريزة المحاكاة تسير على
عقول الطبقات الدنيا من المجتمع ، فان الجماهير التابعة المعتمدة على
غيرها سرعان ما تحذو حذو من يتميزون بكرم المولد او بالقوة والسلالة
او بالثراء . وقد اشترى « خلاص » عامة الشعب بمعدل ميسور ،
اذا كان مسيحيا ما قليل من أن نحو اثنى عشر ألف رجل قسد
عمدوا (بضم العين وتشديد الميم مع كسر ها) فى روما
فى سنة واحدة ، فضلا عن عدد يتناسب معهم من النساء

والأطفال ، وأن الامبراطور وعد كل متحول الى المسيحية برداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . ولم ينحصر أثر قسطنطين القوي في النطاق الضيق لحياته أو ممتلكاته . فان التربية التي وفرها لأبنائه وابناء اخوته قد زودت الامبراطور بطراز من الأمراء الذين كان ايمانهم ما زال أكثر حيوية واخلصا لأنهم لقنوا في صباهم المبكر روح المسيحية أو على الأقل نظريتها . ونشرت الحروب والتجارة والمعرفة بالانجيل الى ما وراء حدود الولايات الرومانية ، وسرعان ما تعلم المتبربرون ، الذين كانوا قد احتقروا من قبل فئة ذليلة مشردة (المسيحيين) - أن ينظروا بعين التقدير والاجلال الى ديانة اعتنقها مؤخرًا أعظم ملك ، وأعظم أمة حضارة في الكرة الأرضية . وبجل القوط والألمان الذين انضموا تحت لواء روما - بجلوا الصليب الذي تألق فوق رعوس الجنود ، وفي نفس الوقت تلقى مواطنوهم المتوحشون دروس الايمان والانسانية . وعبد ملوك ايبيريا وأزحينيا اله حاميهم (الامبراطور) وسرعان ما كون رعاياهم - الذين تمسكوا بالمسيحية ، بدرجات متفاوتة - علاقة مقدسة دائمة مع اخوتهم الرومان . واتهم مسيحيو فارس ، وقت الحرب ، بإيثارهم دينهم على بلدهم ، ولكن تدخل قسطنطين كان يحد من روح الاضطهاد عند المجوس طالما استتب السلام بين الامبراطوريتين . وأضاء نور الانجيل ساحل الهند ، وقاومت مستعمرات اليهود الذين كانوا قد توغلوا الى قلب بلاد العرب وأثيوبيا، قاومت تقدم المسيحية . ولكن يسر مهمة المبشرين الى حد ما سابق معرفتهم بالوحي المنزل على موسى . وما تزال اثيوبيا تمجد ذكرى غرومونتوس Frumentius الذي نذر حياته للتبشير بالمسيحية وتنصير هذه الأقاليم النائية المنعزلة . وفي عهد ابنه قسطنطيوس ، منح تيوفيلوس Theophilus - وكان من أصل هندي - لقب السفير والأسقف معا . فأبحر عبر البحر الأحمر ، ومعه مائتا جواد من أكرم جياد كبادوكيا ، هدية من الامبراطور الى أمير سبأ (أو حمير) ، وحمل تيوفيلوس هدايا أخرى كثيرة ، نافعة أو غريبة ، مما قد يثير إعجاب المتبربرين ، ويوطد أواصر الصداقة معهم . وقضى عدة سنوات في زيارة لهذه المنطقة الحارة حيث تزد الكنائس هناك ، وقد حالفه التوفيق في هذه الرحلة .

وتجلت قوة الأباطرة الرومان التي لا يمكن دفعها في التغيير الهام الخطير الذي حدث في الديانة الوطنية ، وأخرست فرق الجيش بما نشرت من ألوان الارهاب تلك الصيحات الخافتة التي لا سند لها ، والتي انبعثت من بين الوثنيين . وكان هناك ما يحمل على توقع امثال رجال الدين المسيحي والشعب ، امثالاً مقرونا بالابتهاج ، صادراً من

اعماق نفوسهم نابعا من امتنانهم وعرفانهم . ونص في الدستور الروماني منذ ذلك التاريخ على مبدأ أساسى . هو أن كل المواطنين الرومان على اختلاف مراتبهم يخضعون للقوانين ، وأن رعاية الدين حق لكل حاكم مدنى ، وواجب عليه ، سواء بسواء . ولم يستطع قسطنطين وخلفاؤه أن يقنعوا انفسهم بسهولة أنهم فقدوا بتحولهم أى لون من الامتيازات أو الحقوق الامبراطورية ، أو أنهم عاجزون عن سن القوانين للديانة التى بسطوا عليها هيولتهم واعتنقوها . فظل الأباطرة يمارسون ولايتهم العليا على النظام الكنسى ، وفى الكتاب السادس عشر من مجموعة قوانين تيودوسيوس ، وتحت عنوانات كثيرة تمثل السلطة التى فرضها الأباطرة لانفسهم فى حكم الكنيسة الكاثوليكية .

التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية

ولكن الاقرار القانونى للديانة المسيحية أوجد تمييزا بين السلطتين الروحية والزمنية وثبت أصوله ، وهو أمر لم يسبق قط فرضه على اليونان وروما اللتين تأصلت فيهما روح الحرية ، فان خليفة الحبر الأعظم الذى كان يشغلها دائما منذ عهد روما Numa إلى عهد أوغسطس أعضاء السناتو البارزون ، اسندت آخر الأمر الى السدة الامبراطورية . وطالما كان حاكم الدولة الأول مسوقا بوازع من الخرافة (العتيقة) او السياسة ، فانه أدى بيديه المهام الكهنوتية ، ولم يكن ثمة فى روما او فى الولايات نظام كهنوتى ادعى لنفسه شخصية أكثر قداسة بين الناس ، أو اتصالا أعظم وثاقا بالآلهة . ولكن فى الكنيسة المسيحية حيث عهد بخدمة المذبح الى طائفة دائمة متدرجة من التساوية ، فان الملك أو الحاكم الذى تقل مرتبته شرعا عن أحقر شماس ، كان يجلس تحت قضبان المحراب ، مختلطا بجمهور المؤمنين ، وقد يؤدون التحية للإمبراطور بوصفه أباً لشعبه . ولكنه كان يدين بواجب البنوة والاجلال لأباء الكنيسة ، وسرمان ما تطلب غرور الأساقفة لانفسهم واجبات التبجيل التى كان يؤديها قسطنطين للقديسين والمعتزين . ومن أم دب صراع خفى بين الاختصاصات المدنية والكنسية ، نشأ عنه ارتباك سير الأمور فى الحكومة الرومانية . وذعر امبراطور ورع ايها ذعر لما يبتلى عليه لمس تابوت العهد بيد دنسة ، من وزر وخطر . والحق أن تقسيم الناس الى روحانيين وعلمانيين كان أمرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة ، واستمد الكهنة فى الهند وفارس وآشور واسرائيل والحبشة ومصر والغال سلطتهم الدنيوية وممتلكاتهم التى اقتنوها من أصل

سماوي . وكانت هذه النظم الوقورية قد كينت نفسها في أخلاق وحكومة البلد الذي عاش فيه كل منها . ولكن معارضة السلطة المدنية أو احتقارها أبدا في تدعيم نظام الكنيسة الأولى . واضطر المسيحيون الى اختيار حكاهم ، وتحديد دجل معين وتوزيعه ، وتنظيم السياسة الداخلية لجماعتهم من طريق مجموعة من القوانين أقرتها موافقة الشعب عليها ، كما دعمتها تجربة دامت ثلاثة قرون . فلما اعتنق قسطنطين المسيحية ، عقد فيها يبدو ، مع هذا المجتمع المتميز المستقل تحالفا دائما ، ولم يؤخذ الامتيازات التي منحها الامبراطور أو ثبتها ، على أنها مظاهر عطف مزعزع من قبل الحاشية ، بل على أنها حقوق أساسية للنظام الكنسي .

وكان ألف وثمانمائة أسقف يديرون الكنيسة الكاثوليكية ، بما لهم من ولاية روحية وقانونية . منهم ألف في الولايات اليونانية ، وثمانمائة في الولايات اللاتينية في الامبراطورية . وتفاوتت سعة كل أسقفية وحدودها ، أو تقررت عرضا ، تبعا لغيرة الرساليات الأولى ودرجة نجاحها ، وتبعا لرغبات الشعب ، وتبعاً للمدى انتشار الانجيل . وأقيمت الكنائس الأسقفية متقاربة على ضفاف النيل ، وساحل البحر في أفريقيا ، وفي مناطق آسيا الخاضعة للبروقنصل الروماني ، وفي الولايات الجنوبية من إيطاليا . وسيطر الأساقفة في الغال واسبانيا وتراقيا وبلاد بنطس على رقعة كبيرة ، وفوضوا وكلاءهم الريفيين في القيام بصغرى مهام راعى الكنيسة . وقد تستومب الأسقفية المسيحية ولاية بأسرها ، وقد تهبط الى نطاق قرية ، ولكن شخصية الأسقف في كل الأحوال كانت متكافئة لا تتغير . فقد استمدوا جميعا نفس السلطات والامتيازات من الرسل ومن الشعب ومن القوانين . وفي الوقت الذي اقتضت فيه سياسة قسطنطين فصل الوظائف المدنية والعسكرية ، قام في الكنيسة والدولة نظام جديد ثابت لموظفين كنسيين كانوا دوما موضع احترام ، وكانوا أحيانا مصدر خطر . ويمكن ادراج الاستعراض الهام لأوضاعهم وصفاتهم تحت الأقسام الآتية : ١ - الانتخاب الشعبي ، ٢ - رسالة رجال الدين ، ٣ - الممتلكات ، ٤ - الاختصاص المدني ، ٥ - الجزاءات الروحية ، ٦ - ممارسة الوعظ العام ، ٧ - امتياز المجالس التشريعية .

١ - قامت جرية الانتخاب بعد اقرار المسيحية من الوجهة القانونية بوقت طويل ، وتبع الرومان في الكنيسة بالميزنة التي فقدوها في الجمهورية ، إلا وهى اختيار الحكام الذين التزم إليهم

بطاعتهم ، وما أن أطبق أى أسقف عينيه وقضى نحيبه حتى أصدر المطران
أمره إلى أحد الوكلاء أو معاونين يشغل المكان الشاغر ، والاعداد
للاقتخابات المقبلة فى وقت معين . ومنح حق التصويت لرجال الدين من
الدرجات الدنيا . وهم أقدر على الحكم على جدارة المرشحين ، ولشيوخ
السنان وأشراف المدينة ، ولكل من اشتهروا بمكانتهم أو ثروتهم ،
وأخيرا لجمهور الشعب الذين تدفقوا فى الموعد المضروب أفواجا من
أقصى أركان الإبرشية ، فأخرسوا أحيانا بصيحاتهم الصاخبة صوت
العقل وقواعد النظام . وربما استقرت هذه الصيحات عرضا على
شخص أجدر المتنافسين من شيخ معمر أو ناسك مقدس ، أو رجل
علمانى اشتهر بغيرته وتقواه . ولكن السعى إلى الفوز بالكرسى
الأسقفى ، وخاصة فى المدن الكبيرة والغنية فى الإمبراطورية ، كان
سعيًا وراء المكانة الدنيوية أكثر منه التماسا للمنزلة الزوجية . ولكن
الآراء المغرضة ، وعواطف الأنانية الثائرة وأمانين الغدر والنفاق ،
والفساد الخفى ، وأعمال العنف السافرة ، بل الدهوية ، تلك التى
أهدرت حرية الانتخاب فى جمهوريات اليونان وروما قديما ، كثيرا
ما أثرت فى اختيار خلفاء الرسل والحواريين . وبينما فآخر أحد
المرشحين بأجداد أسرته ، بهر الآخر أبصار ناخبيه بأطايب مائدته
العامرة ، وعرض ثالث ، وهو أكبر منافسيه وزرا ، أن يقتسم أسلاب
الكنيسة مع المواطنين معه فى أمانيه الدنسة . وحاولت القوانين المدنية
والكنسية معا أن تستبعد جمهور الشعب من هذه العملية الخطيرة
الهامة . وحدت قواعد النظام القديم ، والمركز . . وغيرها — حدث
من نزوات الناخبين التى لا تميز الخبيث من الطيب . واستخدم أساقفة
الولايات الذين تجمعوا فى كنيسة الأسقفية الشاغرة لمباركة اختيار
الشعب — استخدموا نفوذهم للتلطيف من أهواء الناخبين ، وتصحيح
أخطائهم . وكان الأساقفة يستطيعون الامتناع عن رسامة أى مرشح
غير جدير بالمنصب ، وارتضت الأحزاب المتصارعة الغاضبة وساطتهم
النزيهة أحيانا . وخلق استسلام الاكليروس والشعب أو مقاومتهم ،
فى هذه المناسبة أو تلك ، سوابق متباينة ، تحولت بطريقة غير ملحوظة
إلى قوانين ايجابية نافذة ، وإلى أعراف وتقاليد فى مختلف الولايات .
ولكن كان من المسلم به فى كل مكان ، كقاعدة أساسية فى السياسة
الدينية ، أنه لا يجوز فرض أى أسقف على كنيسة تنهج الطريق القويم
دون موافقة أعضائها . وربما أبدى الأباطرة بوصفهم حراسا على
السلام العام ، وبوصفهم المواطنين الأوائل فى روما وفى القسطنطينية ،
رغبتهم بطريقة فعالة فى اختيار رئيس الأساقفة ، ولكن هؤلاء الملوك

المستبددين احتراموا حرية الانتخابات الكنيسة . وبينما وزعوا أو استردوا
أيجاد الدولة والجيش ، نراهم أباحوا لآلاف وثمانمائة حاكم دائم
(أسقف) أن يتولوا مناصبهم الهامة عن طريق الاقتراع الشعبى الحر .
وكان مما يتفق مع قواعد العدالة ألا يتخطى أى من هؤلاء الحكام
(الأساقفة) عن منصبه الرفيع الذى لا يمكن عزله منه . وحاولت
حكمة المجالس دون أن تصيب نجاحا كبيرا ، أن تفرض اقامة الأساقفة
وأن تمنع نقلهم . وكان النظام فى الغرب فى الواقع أقل تراخيا منه فى
الشرق ، ولكن نفس الأهواء التى جعلت من هذه القواعد أو التعليمات
ضرورة حتمية ، أمقتها فعالياتها . ان المثالب والسباب التى كاليها
الأخبار الغاضبون بعضهم لبعض فى حدة وعنف ، انها تكشف عن
وزرهم المشترك وعن نزقهم المتبادل .

٢ - اختص الأساقفة وحدهم بموهبة التناسل الروحى ، وربما
عوضت هذه الميزة الفذة الى حد ما - عن العزوبة الالهية التى فرضت
عليهم بوصفها مفضيلة وواجبا ، والتزاما ايجابيا آخر الأمر . ان الديانات
القديمة التى أنشأت نطاقا كهنوتيا منفصلا ، خصصت عشيرة مقدسة :
قبيلة أو أسرة ، تتولى الخدمة الدائمة للآلهة . وقد أقيمت هذه النظم
للملك أكثر منها للفرز ، وتمتع أبناء الكهنة بالطبائفة المزهوة الخاملة
بميراثهم المقدس ، وخففت من روح الحماسة الملتهبة هموم الحياة
المنزلية وملذاتها وعلاقات الحب والاعزاز فيها . أما المحراب المسيحى
فكان مفتوحا أمام كل طارق طامع متلطف على ما يقتزن بالمحراب من وعود
سماوية أو متاع دنيوى . ان وظيفة القسيس ، مثل الجندى والحاكم ،
كان يقوم عليها فى جد وحماس أولئك الرجال الذين هياتهم طباعهم
وقدراتهم لتأدية المهام الكنيسة ، أو الذين اختارهم الأسقف البصير
على أنهم خير أهل لرفع شأن الكنيسة وتأمين مصلحتها . وكان
الأساقفة (حتى حدث فطنة القانون من سوء الاستغلال) يكبحون
جماح الآيقين النافرين ويفرجون ضيق المكروبين ، وكانت بركة أيديهم
تفيض دائما ببعض من أعظم مزايا المجتمع المدنى ، وأعفى رجال الديانة
الكاثوليكية جميعا ، وربما كانوا أكثر عددا من الفرق العسكرية ، أعفوا
بأمر الأباطرة ، من كل الخدمات الخاصة أو العامة ، ومن كل الأعمال
البلدية ، ومن كل الضرائب والتبرعات الشخصية ، تلك التى كانت
عبئا ثقيلا لا يحتمل على سائر مواطنيهم ، واعتبر قيامهم بمهمتهم المقدسة
وفاء كاملا بالتزاماتهم نحو الدولة . وطالب كل أسقف بحقه المطلق الذى
لا يمس فى امتثال الكاهن الذى رسمه امتثالا دائما له ، وشكل رجال
الاكليروس فى كل كنيسة أسقفية مع الأبرشيات التابعة لها مجتمعا

منتظما ثابتا . واحتفظت كاتدرائيتا القسطنطينية (١) . وقرطاجة بميزة خاصة هى تعيين خمسمائة موظف كنسى . وتضاعفت مراتبهم وأعدادهم بطريقة غير ملحوظة نتيجة الخرافة التى سادت فى ذلك الزمان ، والتى أقحمت على الكنيسة احتفالات المعبد اليهودى أو الوثنى الفخمة . وأسهم ركب طويل من القسس والشمامسة ووكلائهم ، والسدنة وحملة المباخر والقراء والمنشدين والبوابين — أسهموا جميعا ، كل بدرجة فى ابهة العبادة الدينية وانسجامها ، وامتد لقب الكاهن وامتيازه الى كثير من الاخوة الأتقياء الذين دعموا عرش الكنيسة فى اخلاص وحسن ، فزار ستمائة من المغامرين مرضى الاسكندرية ، وتولى ألف ومائة ممن يحفرون القبور ، دفن الموتى فى القسطنطينية ، واسود وجه العالم المسيحى بأسراب الرهبان الذين انتشروا فيه وافدين من ضفاف النيل .

٣ — كفل مرسوم ميلان دخل الكنيسة كما كفل سلامتها . فلم يسترد المسيحيون الاراضى والدوم التى كانت قد انتزعتها منهم دواوين الاضطهاد على عهد دقلديانوس ، فحسب ، ولكنهم ظفروا كذلك بحق الملكية الكاملة لكل ما استحوذوا عليه حتى ذلك الحين ، نتيجة لسيادة الحاكم أو تغاضيه . وبمجرد أن أصبحت المسيحية ديناً بين الامبراطور والامبراطورية حق لرجال الدين الوطنيين أن يطالبوا بها يكفل لهم حياة لاثقة محترمة . وكان من الجائز أن دفع ضريبة سنوية سوف يخلص الشعب من جزية أشد ظلما تفرضها العقيدة على معتنقيها . فلما رادت نفقات الكنيسة تبعا لازدهارها وانتعاشها ، ظلت القرايين التى يقدمها المؤمنين تعبدا وطواعية ، تعين رجال الدين على معاشهم ويزيد من ثرائهم . وبعد ثمانى سنين من مرسوم ميلان منح قسطنطين رعاياه ترخيصا حرا شاملا فى التوصية بكل ثرواتهم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وربما كانت أيديهم فى حياتهم مغلولة بحكم الثرف أو الجشع ولكنها فاضت فى سخاء وورع ساعة حضرهم الموت . وكان لأغنياء المسيحيين فى مليكهم أسوة حسنة مشجعة . وربما أصبح الملك المستبد المطلق الثرى الذى لم يرث الثراء ، متصدقا محسنا دون أن يكون له فضل فى ذلك . وما أيسر ما آمن قسطنطين بأنه قد يشتري رضا السماء اذا عال الكسالى الخاملين على حساب العاملين الجادين ، فوزع

(١) ستون شيخا أو قسيسا ، مائة شماس ، أربعون شماسا ، تسعون وكيل شماس ، مائة وعشرة قراء ، خمسة وعشرون منشدا ، ومائة بواب ، والمجموع خمسمائة وخمسة وعشرون . وحدد الامبراطور هذا العدد المتواضع لتفريق كروب الكنيسة التى تراكت عليها الديون والربا ، نتيجة نفقات هذا العدد الضخم من التعيينات .

على القديسين أموال الدولة . ولا ضير في أن يعهد الى الرسول الذي حمل الى افريقية رأس مكسنتيوس ، بحمل رسالة الى كاسيليان أسقف قرطاجة ، يبلغه فيها أنه ، أئى الامبراطور ، أصدر تعليماته الى خزائن الولاية ليسلموه ما قيمته ثمانية عشر الف جنيه استرليني^(١) ، وأن يمتثلوا لمطالبه فيما بعد ، لاعانة كنائس أفريقية ونوميديا وموريتانيا . وتزايد سخاء قسطنطين بقدر ازدياد ايمانه وثقافته وذائله . وفرض على كل مدينة أن تقدم كمية ثابتة من الغلال لتموين صندوق صدقات الكنيسة . وأصبح الرهبان والزاهبات اقرب المقربين ذوي الخطوة لدئى ملكهم . وتجلنى فى المعابد المسيحية فى انطاكية والاسكندرية وأورشليم مظاهر التقوى التى تفاخر بها أمير طمع فى شيخوخته ، فى أن يتساوى مع الأقدمين فى اعمالهم العظيمة الفائقة . وتجلت البساطة فى هذه الأبنية الدينية ، وكانت على شكل مستطيل ، ولو أنها اتخذت أحيانا شكل القباب ، أو تفرعت على هيئة صليب . وكانت معظم الأخشاب من أرز لبنان ، وغطى السقف بهريعات ربما كانت من النحاس المذهب ، أما الجدران والأعمدة والأرضية فمقد كسيت بالرخام الملون . وخصصت فى اسراف بالغ ثمن الحلى والزخارف من الذهب والفضة والحريير والجواهر لخدمة المذابح ، واحتفظ بأدوات هذه الأبهة الخداعة على أنها ملك ثابت دائم . وفى مدى قرنين من الزمان — من عهد قسطنطين الى عهد جستنيان — أثرت كنائس الامبراطورية البالغ عددها ألفا وثمانمائة ، بفضل الهدايا والهبات الكثيرة غير القابلة للانتقال التى أغدقها عليها الأمير والشعب . وخصص للأساقفة دخل سنوى معقول قدره نحو ستمائة جنيه استرليني ، مما وضعهم فى منزلة وسط بين الثراء والفاقة ، ولكن ارتفع مستوى ثرائهم ، بشكل غير ملحوظ ، تبعاً لمكانة المدن التى يعملون فيها ودرجة غناها . وفى سجل للإيجارات^(١) أصيل ولكنه ناقص ، حددت بعض الدور والحوانيت والحدائق والمزارع التى كانت تابعة لكنائس روما الثلاث — القديس بطرس والقديس بولس ، والقديس جون لاتيран — فى الولايات الثلاث : ايطاليا ، أفريقية ، الشرق . فهى تدر — بالاضافة الى عائد محقق من الزيت والكتان والورق ، والعمود وغيرها ، دخلاً سنوياً صافياً قدره اثنتان وعشرون ألف قطعة من الذهب ، أو اثنا عشر الف جنيه استرليني . ولم يعد الأساقفة فى عهد قسطنطين وجستنيان يتمتعون ، وربما لم

(١) قد يشتهر بحق فى أى سجل يصدر عن الغاتيكان . ولكن سجلات الايجارات هذه تحمل طابع القدم والصدق . وأنه من الواضح على الأقل أنها اذا كانت زورت ، فانها زورت فى الوقت الذى انصبت فيه مطاسع البابوية على المزارع ، لا على الممالك .

يعودوا جديرين بثقة اكليروسهم وشعبهم ، ثقة لا يتطرق اليها أى شك . وكانت الإيرادات الكنسية فى كل اسقفية تقسم الى أربعة أقسام ، للأغراض التالية : قسم للأسقف نفسه ، قسم لرجال الدين الذين هم أقل منه مرتبة ، وآخر للفقراء ، وقسم للعبادة العامة ، وكم من مرة منع بشدة سوء استغلال هذه الأمانة المقدسة . وكان ميراث الكنيسة لا يزال خاضعا لكل ما تفرضه الدولة عامة ، وربما التمس رجال الدين فى روما بعض الاعفاءات الجزئية وحصلوا عليها ولكن ابن قسطنطين نصدى بنجاح للمحاولة السابقة لاوانها التى بذلها مجمع ريميني (مدينة على الادرياتيک فى شمال شرقى ايطاليا) ، والتى كان يطمح من ورائها فى الحرية الشاملة فى التصرف .

٤ - قبل رجال الدين اللاتين الذين أسسوا قضاءهم على أنقاض القانون المدنى العام ، قبلوا فى تواضع ، بمثابة منحة من قسطنطين (١) ان يكونوا مستقلين باختصاصهم ، الذى كان ثمره الزمن والأحداث وثمره جهدهم الخاص ، ولكن كرم الأباطرة المسيحيين أغدق عليهم بالفعل بعض الامتيازات القانونية التى كفلت ورععت من شأن شخصيتهم الكهنوتية (٢) .

(١) ظفر الأسقفية وحدهم ، فى ظل الحكومة الاستبدادية مميزة لا تقدر ، واكدها ، تلك هى أنه لا يتولى محاكمتهم الا نظراؤهم فقط ، وأنه حتى فى حالة اتهامهم باحدى الكبائر يتولى الحكم بادانتهم

(١) استنادا الى يوسوبوس وسوزومين ، نستطيع أن نتأكد من أن قسطنطين وضع الاختصاص الاسقفى وثبته . ولكن جودفرى أبرز مع أعظم الارتياح مرسوما مختلفا مزورا ، لم يرد ذكره بحق فى مجموعة قوانين ثيودوسيوس . ومن الغريب أن يدعى مونتيكيو ، المحامى الفيلسوف صودر هذا المرسوم عن قسطنطين دون أن يساوره أى شك فيه .

(٢) أحيط موضوع الاختصاص الكنسى بسحب من الهوى والتحيز والمصلحة . وقد وقع فى يدى كتابان من أحسن الكتب ، أولهما « قواعد القانون الدينى » تأليف رئيس الدير فليرى « Institutes of Canon Law » by The Abbé de Fleury والثانى « التاريخ المدنى لناپولى ، تأليف جيانون « The Civil History of Naples » by Giammona ويرجع اعتدالهما الى مركز كل منهما وطبعه . وكان فليرى من رجال الكنيسة المرمية ، وكان يحترم سلطة البرلمانات . أما جيانون فكان محاميا إيطاليا يخشى سلطة الكنيسة . وارجو أن أشير هنا الى أنه لما كانت القضايا التى أعالجها حصيلة كثير من المحامى الغربية المسورة ، فلبس أمامى الا أن أحيل القارئ الى هذين المؤلفين الحديثين اللذين عالجا الموضوع فى جلاء ووضوح ، أو أن التوسع فى هذه الملاحظات الى حد غير لائق

أو تبرئتهم مجلس (Synod) من أقرانهم فحسب . وإذا لم تستفز مثل هذه المحكمة الكراهية الشخصية أو الشقاق الديني ، فربما كانت مواتية بل متحيزة للنظام الكهنوتي . ولكن قسطنطين كان مقتنعا بأن الاعفاء الخفى من العقوبة أقل وبالا من الفضيحة العلنية ، وقد تعلم مجمع نيقيا أن يقتدى بإعلانه العام (قسطنطين) أنه إذا فاجأ أسقفاً متلبساً بجريمة الزنا فإنه لابد أن يسدل عباءته الامبراطورية على الأسقف الأثيم المذنب .

(ب) كان الاختصاص القضائي للأسقف امتيازاً وقيداً في وقت معا على طائفة الكهنة ، فقد رأى من الأليق سحب قضايائها المدنية من اختصاص القضاة الأهليين . ولم تتعرض مخالفتهم البسيطة لعار المحاكمة أو العقوبة العلنية . وكان الأساقفة يوقعون في قسوة معتدلة ، العقوبة الخفيفة التي يحتلها الشباب الغض من الوالدين أو المعلمين . ولكن إذا أدين القسيس في جريمة لا يكفى للتكفير عنها طرده من عمله المشرف الذي در عليه خيرا ، جرد الحاكم الروماني عليه سيف العدالة دون اعتبار لأية حصانات كنسية .

(ج) وأقر تحكيم الأساقفة بمقتضى قانون قاطع . وصدرت التعليمات الى القضاة بأن ينفذوا دون استثناء أو إبطاء الأوامر الأسقفية التي كانت صلاحيتها أو قوتها تعتمد حتى هذا التاريخ على رضا الطرفين . وربما أزال تحول الحكام أنفسهم وتحول الامبراطورية بأسرها الى المسيحية ، مخاوف المسيحيين وشكوكهم يوما بعد يوم . ولكنهم ظلوا يلجأون الى محكمة الأساقفة الذين اعتزوا بمواهبهم ونزاهتهم . وطاب لأوستن الموقر Austin وهو ناعم البال ، الشكوى من أن مهامه الروحية كان يعطلها ويقطعها عليه دائماً عمل يثير الحقد والبغضاء ، ألا وهو الفصل في المطالبة بالفضة والذهب أو الأرض والمناشئة أو تملك هذه أو تلك .

(د) انتقل ما كان للمذابح القديمة من حق اللجوء اليها الى المعابد المسيحية ، وامتد بفضل ورع تيودوسيوس الأصفر الى الأراضي المقدسة المجاورة لها . ورخص للمتوسلين من الهاربين أو حتى المجرمين الأذلاء في التماس عدالة الاله وقساوسته ورحمتهم . وكما حال تدخل الكنيسة الرقيق دون تعسف الاستبداد والمستبدين ، وأبقت شفاعة الأسقف على حياة أبرز الرعايا وعلى ثرواتهم .

هـ - كَانَ الأسقف رقيقاً دائماً على أخلاق شعبه . وأسيع نظام العقوبات الدينية (التوبة ، الكفارة) على أنه قانون كنسى ، حدد بدقة واجب الاعتراف الخاص أو العلنى ، كما حدد قواعد الأدلة ودرجات الخطيئة ومقاييس العقوبة . وكان من المتعذر على الحبر المسيحى الذى يعاقب على خطايا الجمهور الخفية ، تنفيذ هذه الجزاءات الروحية إذا هو أقر رذائل الحاكم الفاضحة أو جرائمه المخزية . ولكن كان يستحيل أن يسأل الحاكم عن سلوكه دون رقابة أو إشراف على إدارة الحكومة المدنية . وعصمت بعض اعتبارات الدين أو الولاء أو الخوف أشخاص الأباطرة المقدسة من غيرة الأساقفة أو سخطهم . ولكنهم كانوا يوبخون الطغاة الذين لم يحفظوا بجلال الحلة الإمبراطورية ويحرمونهم من الكنيسة ، فقد حرم القديس اثناسيوس يوماً أحد وزراء مصر ، وأبلغ هذا الحرمان الصارم بصورة رسمية إلى كنائس كبادوكيا . وفى مصر تيودوسيوس الأصغر تولى سينسيوس المهذب الفصيح *Synesius* - وهو من نسل هركيليز - الكرسي الأسقفى فى بطلومايس *Ptolemais* (بالقرب من أطلال مدينة برقة القديمة) ، وقد عجز هذا الأسقف الفيلسوف مكانة المنصب الذى شغله كارهياً (١) ، بأن أزاح طاغية ليبيا الجبار ، الرئيس اندرونيكوس *Andronicus* الذى أساء استقلال وخليفة عرضة للرشوة والفساد ، وابتدع الوأنا جديدة من السلب والتعذيب ، وزاد الطلح بلغة فاضحة ، تدنيس الأماكن المقدسة إلى جريمة الظلم والجور ، وبمسند محاولة عقوبة للإصلاح من شأن الحاكم المتعجرف وتهذيبه فى رفق ولين ، عمد سينسيوس إلى أنزال أقصى عقوبة فى جعبة العدالة الكنسية ، عقوبة تدمغ أندرونيكوس وشركاءه وأسراتهم بفنصب الأرض والسماوات . وهكذا حرم من شرف الاسم المسيحى أو امتيازاته ، ومن الأسرار المقدسة ، والعشاء الربانى ، ومن الأمل فى الجنة - حرم من هذا كله أعتى المجرمين الذين هم أشد قسوة من فالاريس أو سنحريب ، وأشد فتكا من الحرب أو الوباء أو أسراب الجراد . وحرض الأسقف رجال الدين والحكام والشعب ليظهروا المجتمع بأسره على أعداء المسيح ، ويقصوهم عن دورهم وعن موأندهم ، وبأبوا عليهم كل وظائف الحياة وشعائر الدفن المتواضعة . وتوجه كنيسة بطلومايس ، وهى المتواضعة

(١) كان سينسيوس قد أظهر من قبل عدم أهليته ، فقد أولم بالدراسات ، والهويات المألوفة ، ولم يقو على احتمال حياة العزوبة ، ولم يؤمن بالبعث . ورفض أن يعط الناس ، بالقصص الخرافى ، إلا إذا أبيع أنه أن يشتغل بالفلسفة ، فى داره . وقال إذا الشرط ، أن يفسح ممران مصر الذى يربط قنده (سينسيوس) .

المغمورة ، هذا الاعلان الى كل الكنائس الحقيقية في العالم ، علي ان يدمج الكفار الأرجاس الذين يرفضون هذه الأوامر بجريمة أندرونيكوس وأتباعه الملحدين وينالوا عقابهم . وكان في تطبيق هذا الإرهاب الروحي على البلاط البيزنطي تدعيم للإرهاب نفسه . وتضرع الرئيس الذي يرتجف فزعا الى رحمة الكنيسة ، وطابت نفس سليل هركيليز وقرت عيناه حين رفع عن الأرض طاغية خر راكعا على قدميه . ومهدت مثل هذه المبادئ طرق النجاح للأخبار الرومان الذين داسوا بأقدامهم أعناق الملوك .

٦ - لقد خبرت كل حكومة شعبية نتائج الخطب البليغة المليئة بالحماس المشتعل ، حيث ينفذ ما يثيره من أحاسيس بسرعة الى الصدور، فيهيح أكثر الطبائع جمودا ، ويثير أعظم العقول رزاة وثباتا ، ويتأثر كل مستمع بانفعالاته هو نفسه وبانفعالات جمهور المحيطين به . وكان انهيار الحرية المدنية قد أخرج السنة المهرجين السياسيين الشعبيين في أثينا والتريبونانت في روما . ولم يكن القاء المواعظ التي تشكل - فيما يبدو - ركنا هاما في العبادة المسيحية ، معروفا في معابد الأقدمين ، ولم يكن صوت الخطابة الشعبية الخشن يطرق آذان الملوك قط ، حتى جاء الوقت الذي امتلأت فيه منابر الإمبراطورية بالخطيبين الدينيين الذين تحلوا بمزايا لم تكن معروفة لدى أسلافهم الوثنيين . وتصدى لحجج التربيون وبلاغته بنفس أسلحته على الفور بخصوم مهرة صامدون ، وربما استمدت قضية الحق والمنطق دعما طارئا من تصارع الأهواء المتنافرة ، وقام الأسقف . أو أى شيخ بارز وكل اليه فى حذر مهمة الوعظ ، فالتى ، دون أن يخشى خطر المقاطعة أو الرد ، خطبة في الجموع الممتلئة الذين كانت الطقوس الدينية الرهيبة قد هيات عقولهم وأخضعها . وبلغ من أمر التبعية الصارمة في الكنيسة الكاثوليكية ، أن الأصوات المنسجمة كانت تنبعث في وقت معا من مائة منبر في إيطاليا ومصر ، اذا تولت ضبطها (١) يد عليا : يد مطران روما أو مطران الاسكندرية . وفكرة هذا النظام حسنة حميدة ، ولكن نتائجها لم تكن دوما محمودة طيبة . فقد أوصى الوعاظ بممارسة الواجبات الاجتماعية، ولكنهم أطنبوا في تمجيد فضيلة الانصراف التام الى الرهنة الالهية بالنسبة للفرد ، العقيدة غير المجدية للانسانية جمعاء . وفشحت

(١) استخدمت الملكة اليزابيث نفس هذا التعبير ، واستخدمت نفس هذا الأسلوب اذا رغبت في الاستحواذ على عقول الشعب من أجل أى إجراء شاذ من إجراءات الحكومة . وكان خلفها يتوهم خيفة من هذه « الموسيقى » وكان ابنه يخص بها احساسا عميقا « عندما تضج المنابر وتقرع الطبول في الكنيسة » .

تحريضاتهم التي تتسم بطابع البر والخير ، رغبة خفية في أن يباح لرجال الدين أن يتولوا إدارة أموال المؤمنين لمصلحة الفقراء . ولوثت أسمى معانى الصفات والقوانين الالهية بمزيج عقيم من أخباث الميتافيزيقا ، والشعائر الصبائية السخيفة والمعجزات الزائفة المصطنعة . واطنّب كل أولئك — في حماس بالغ — في ذكر الجزاء الذى يدخره الدين لمن يتصدى للمعارضين ، ويدين بالطاعة لسدنة الكنيسة . واذا كدرت الهرطقة والمروق صفو الهدوء ، دق الخلباء المقدسون دبلول الشقاق وربما أعلنوا العصيان ، وحير الغموض افهام مجامعهم ، والهب الفذع والسباب مشاعرهم ، فاندفعوا من المعابد المسيحية في أنطاكية والاسكندرية . وضربوا في الأرض ، موطنين النفس على سلاطة الكاره أو على الاستشهاد . ان فساد الذوق واللغة ملحوظ بوضوح في خطابات الأساقفة اللاتين العنيفة ، ولكن خطب جريجورى وكريستوس قسورنت بأروع أساليب اثينا ، أو على الأقل بأساليب البلاغة الآسيوية (١) .

٧ — كان ممثلو الدولة المسيحية يجتمعون بانتظام في الربيع والخريف من كل عام ، وقد أشاعت هذه الاجتماعات روح النظام والتشريع الكنسيين في ولايات العالم الرومانى البالغ عددها مائة وعشرين ولاية . وخولت القوانين رئيس الأساقفة أو المطران سُلطة استدعاء الأساقفة المعاونين في الولاية ومراجعة تصرفاتهم وتأييد حقوقهم وإعلان إخلاصهم ، الى جانب سلطته في محس أهلية المرشحين الذين انتخبهم رجال الدين والشعب لملاء الشواغر في المناسبات الأسقفية . وعقد أخبار روما والاسكندرية وانطاكية وقرطاج ، ثم القسطنطينية فيما بعد ، الذين كان لهم اختساس أوسع ، الاجتماعات الكبيرة التي كان يشهدها الأساقفة التابعون لهم . اما الدعوة الى عقد المجالس الضخمة أو غير العادية فكانت من حق الامبراطور وحده . فاذا اقتضت الظروف الطارئة في الكنيسة مثل هذا الاجراء الحاسم ، أصدر امرا لا راد له بدعوة الأساقفة او ممثلى الولايات ، مع الترخيص لهم باستعمال خيل البريد ، وصرف مبلغ كاف لتفلية نفقات رحلتهم . وفي فترة مبكرة حين كان قسطنطين حامى الكنيسة ، اثار منه بهتديا الى المسيحية ، أحال منازعات الكنيسة الامريكية الى مجلس آرل الذى كان يشهده أساقفة يورك وتريف وميلان وقرطاجة بوضوحهم أمدقهاء واخوة ، ليناقشوا بلغتهم الوطنية ، المصلحة المشتركة للكنيسة

(١) يقر هؤلاء الخطباء المتواضعون بانهم طالما حرموا هذه المعجزات ، فقد ساءوا الى الاخذ بنصيب من قانون البلاغة .

اللاتينية أو الفريجية . وبعد ذلك ياحدى عشرة سنة انعقد مجمع أكثر عدداً وشهرة في نيقيا بولاية بيثينيا ، ليخضعوا يحكمهم النهائى ذلك النزاع الحاد الذى نشأ في مصر حول موضوع التثليث . واستجاب ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً لدعوة ملكهم المتسامح . وقدر عدد رجال الكنيسة من كل مرتبة وشيعة وملة بنحو ألفين وثمانية وأربعين شخصاً ، وحضر اليونان بأشخاصهم ، أما اللاتين ففقد عبر عنهم مندوبو الحبر الرومانى . وكثيراً ما شرفت الدورة التى استمرت نحو شهرين بحضور الامبراطور نفسه ، وكان يترك حراسه لدى الباب ، ويجلس على كرسى قصير (باذن من المجلس) وسط القاعة . وأنصت قسطنطين تون ملل ، وتحدث في تواضع ورقية ، على حين أثر الامبراطور على مجرى المناقشة ، نراه يعلن في خضوع أنه سادن ، وليس حكماً بين خلفاء الرسل الذين اتفقوا قد يسين وآلهة في الأرض . ومثل هذا التبجيل العميق الذى يبدیه حاكم مطلق نحو جماعة ضعيفة عزلاء من رعاياه لا يمكن أن يقارن الا بالاحترام الذى كان يبدیه نحو السناتو أولئك الامراء الرومان الذين تبناوا سياسة أوغسطس . وربما عن الفيلسوف الذى يرقب تقلب أحوال الإنسان على مدى تلك الخمسين عاماً — أن يمين الفكر في تاسيتس وهو في السناتو في روما ، وقسطنطين وهو في مجمع نيقية . لقد تحلل آباء الكابيتول وآباء الكنيسة ، بقدر سواء ، من فضائل المؤسسين الأولين . ولكن لما كان أثر الأساقفة أعمق جذوراً في رأى العام ، فقد احتفظوا بمكانتهم في زهو أكثر احتشاماً ، وقاوموا أحياناً رغبات ملكهم بروح كلها رجولة . ومما تقدم الزمن والعقيدة ذكريات الضعف والهوى والجهل التى وصفت هذه المجالس الكنسية dynods ، وخضع العالم الكاثوليكي بالاجماع للأوامر « المعصومة » التى تصدر عن المجالس العامة .

الفصل الحادى والعشرون

مذهب آريوس • مجمع نيقيا والطبقة الواحدة

الأياطرة والجدل حول مذهب آريوس • أخلاق النثاسيوس ومغامراته
مجمع آرل ، ومجمع ميلان • الطابع العام للطوائف المسيحية

واجه قسطنطين فى مستهل عهده مشكلة الهرطقة المسيحية . ففى افريقية بدا اتباع دوناتوس Donatus ، وهو أسقف قرطاجة المنافس ، انشقاقا دام فى تلك الولاية ثلاثمئة عام - وهو عمر المسيحية نفسها فى افريقية . غير ان أكثر نزاعات ذلك العصر انتشارا وعمقا جذورا هو الذى يتعلق بالتثليث ، وهو مذهب يمكن تتبعه ، على أقل تقدير ، الى نظرية أفلاطون عن الكون . ففى القرن الأول بعد الميلاد أثارت مسألة طبيعة « ابن الله » الهرطقة الأبيونية (١) والهرطقة الفنوصية المعارضة . وفى نهاية القرن دحضت هاتان الهرطقتان على يدى الحوارى الرابع ، وهو القديس يوحنا الذى فسر نظرية الكون الأفلاطونية تفسيراً مسيحياً ، وأظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذى تجسد فيه « الكلمة » أو العقل Logos الذى تحدث عنه أفلاطون ، والذى كان مع الله منذ البدء ، وهذه العلاقة الأزلية بين « كلمة الله Logos » وبين « الآب » هى التى اعترض عليها آريوس . ولقد أصبح مذهب آريوس ، الذى دام حتى عصر ثيودوريك وكلويفيس مذهباً معارضاً كبيراً فى العالم المسيحى .

بعاً : أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة للمسيحيين ثار الجدل من جديد حول نظرية التثليث فى الوطن القديم للأفلاطونية ، إلا وهو مدينة الاسكندرية التى ضجت بالصخب والبذخ ، وازدهرت بالمعلم ،

(١) الأبوليو طائفة من فدامى المسيحيين يتمسكون بشريعة موسى وينكرون مسجدة مولد المسيح - (المترجم) .

وسرعان ما امتد لهيب النزاع الدينى من المدارس الى رجال الدين والشعب ، والى الولاية والشرق . وأثيرت مسألة أيدى « اللوجوس » (الكلمة) ، وهى مسألة تدق عن الفهم ، فى المؤتمرات الكنسية والمواظب التى تلقى على الشعب . وسرعان ما أصبحت الآراء المعارضة التى نادى بها آريوس آراء علنية بفضل حماسه وحماس خصومه . ولقد اعترف أشد خصومه عنادا بعلم شيخ الكنيسة الرفيع المقام الذى لم تشب حياته شائبة والذى أعرض فى انتخاب سابق ، بل وأعرض فى جراءة ، عن حقه فى كرسى الأسقفية ، ووقف منه منافسه الاسكندر موقفه قاضيه . ثم نهشت القضية الهامة أمامه ، وإذا كان قد بدا مترددا فى أول الأمر فإنه نطق أخيرا بحكمه النهائى الذى يقضى بالايمان المطلق . أما شيخ الكنيسة آريوس الذى لم تهن عزيمته والذى صمم على مقاومة سلطة أسقفه الفاضل ، فقد حرم من عضوية الكنيسة . غير أن كبرياء آريوس لقيت تأييدا واستحسانا من فئة كبيرة من الناس ، وكان من بين أتباعه المقربين أسقفان من مصر ، وسبعة شيوخ ، من شيوخ الكنائس ، واثنى عشر شماسا وسبعمئة عذاراء (وهو شئ لا يكاد يصدق) . ويبدو أن أغلبية كبيرة من أساقفة آسيا كانت تؤيد أو تحبذ قضيته ، ومن وراء هؤلاء كان يقف يوسوبوس كبير قساوسة قيصرية وأعلم القساوسة المسيحيين ، ويوسوبوس كبير قساوسة نيقوميديا الذى اكتسب شهرة الرجل السياسى دون أن يفقد شهرته كقديس . أما مجالس الكنيسة فى فلسطين وبثينيا ، فقد كانت معارضة لمجالس الكنيسة فى مصر ، ولقد أثار هذا النزاع اللاهوتى اهتمام الأمير والشعب ، وأحيل الفصل فيه ، بعد ست سنوات الى السلطة العليا للمجلس العام فى نيقيا .

وعندما تعرضت أسرار العقيدة المسيحية تعرضا خطيرا للنقاش العام ، استطاع الإدراك البشرى أن يكون ثلاثة اتجاهات واضحة ، ولو أنها غير كاملة ، فيما يختص بطبيعة الثالوث الإلهى ، وقيل إن أيا من هذه الاتجاهات لم يكن خلوا من الهرطقة والخطأ ، بالمعنى الخالص المطلق .

١ - وبمقتضى الفرض الأول ، ومن ورائه آريوس وتلاميذه ، فإن اللوجوس (كلمة الله) كان خلقا معتمدا على غيره ، خلقته إرادة الأب من العدم . وهذا الإلتهن ، الذى صيغ كل شئ (١) ، قد ولد قبل كل

(١) عندما دخلت نظرية الخلق المطلق من العدم بين المسيحيين بصورة تدريجية ، كانت ترتفع كرامة العامل بشكل طبيعى مع ارتفاع قيمة العمل .

العوالم ، وإن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود لم يكن أزلياً ، بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق اللوجوس ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه ، ولقد نفخ الأب سبحانه في ابنه الوحيد من روحه ، وغمره في فيض من نور مجده وعظمته . ولقد رأى هذا الابن ، وهو صورة منظورة لكمال غير منظور ، على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش المع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذي كان يشعه كان منعكساً عليه ، وكان يحكم العوالم خضوعاً لأرادة أبيه ومليكه ، شأنه في ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس .

٢ — أما الفرض الثانى فإنه يقرر أن اللوجوس يملك كل الكمال الكامن الذى لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، والذى تنسب إليه الديانة والفلسفة إلى الله جل جلاله ، وأن الجوهر الالهى يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهى كائنات تشترك فى أنها متساوية وأبدية ، وأنه لمن التناقض أن يقال أن أياً منها لم يكن له وجود . أو أن وجودها سوف ينتهى يوماً . ولقد حاول أنصار هذا الفرض ، الذى يبدو أنه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن ييقوا على وحدة « خالق الكل » الذى يبرز دوره الهام فى شكل الدنيا ونظامها يقولهم أن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقاً دائماً فى عملها وفى التطابق الجوهرى لمشيئتها . وفى مقدورنا أن نلاحظ شبهها ضعيفاً لو جد العمل هذه فى مجتمعات الانسان ، بل وفى مجتمعات الحيوان . فالأسباب التى تنفسد ما بين الناس من اتساق إنما تنشأ مما تتسم به صفاتهم من نقص ومما بينها من اللامساواة . غير أن القدرة على كل شئ التى تسترشد بالحكمة اللانهائية والحساح اللانهائى لا يمكن أن تعجز عن اختيار الوسائل لتحقيق الاهداف الواحدة .

٣ — أما الفرض الثالث فإنه يقرر وجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الالهية فى اسمى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة ايدية فى زمانها ، لا نهائية فى مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض ، وفى الكون كله . ومن ثم فهى تفرد بنفسها على السقل الجائر باعتبارها كائناً وحيداً ، يستطيع فى نطاق الكيان وفى نظام الطبيعة أن يتجلى فى أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقى ويصبح تثليثاً من حيث الأسماء ومن حيث الصفات المجردة التى

لا تبقى الا في العقل الذي يفهمها . وهكذا لا يعود اللوجوس شخصاً بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق الا مجازاً على العقل الأزلي الذي كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذي صنع كل شيء . ويغدو تجسيد اللوجوس مجرد وحى من الحكمة الالهية هبط على الانسان « يسوع » فملاً جراته نفسه وهدى كل أعماله . وهكذا ترانا ندور في الدائرة اللاهوتية ، ويدهشنا أن السابلي (١) The Sabellian ، ينتهى حيث بدأ الابيوني من قبله ، وأن السر الغامض الذي يدق في الفهم والذي يثير اعجابنا ، يستعصى على بحثنا

مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة

إذا سمح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا في غير تحيز ما تمليه عليهم ضمايرهم فما كان لأريوس وزملائه أن يعللوا أنفسهم بأمال الحصول على أكثرية من الأصوات في جانب فرض يتعارض تعارضاً مباشراً مع الرايين اللذين يتمتعان بأكثر شعبية في العالم الكاثوليكي . وسرعان ما أدرك هؤلاء خطورة موقفهم ، وأظهروا في كثير من الحكمة تلك الفضائل المتواضعة ، التي قلما يمارسها ، بل وقلما يمتدحها الا الجانب الأضعف ، إذا ما احتدمت نزعات أهلية أو دينية . فأوصوا بممارسة ما تنص عليه المسيحية من محبة واعتدال ، وأكدوا أن الجدال القائم لا تفهم طبيعته ، ورفضوا الاعتراف باستعمال أية ألفاظ أو تعريفات ليس لها وجود في الكتاب المقدس ، وأبدوا استعدادهم في كثير من السخاء لارضاء خصومهم دون أن ينكروا نزاهة مبادئهم الخاصة . غير أن الحزب المنتصر تلقى كل عروضهم ومقترحاتهم بشك ممزوج بروح التعالي ، وسعى سعياً حثيثاً الى إيجاد نقط خلاف لا تقبل الاتفاق والتراكي ، بحيث يؤدي رفض فريق أريوس لها الى ايقاعهم في اثم الهرطقة وما يترتب عليها ، فقرأ على الأخطاب من يوسوبوس النيقوميدى ، ثم مزق تمزيقاً مشيناً ، وفي هذا الخطاب اعترف رئيسهم هذا اعترافاً صريحاً بأن قبول فكرة الطبيعة الواحدة ، وهى فكرة مألوفة لدى الأفلاطونيين ، هو شيء يتنافى مع مبادئ نظامهم اللاهوتى " وتعلق الأساقفة في لهفة بهذه الفرصة المواتية ، وهم المتحكمون في قرارات المجلس ، وعلى حد التعبير القوي الذي قاله « أمبروز » فقد

(١) نسبة الى Sabellius (القرن الثالث) الذي كان يعلم أن الاب والابن والروح القدس هم شخص واحد في ثلاثة أقانيم .

استخدموا السيف الذى سلته الهرطقة نفسها من غمده لقطع راس الوحش المقوت ، وأقر مجمع نيقيا مبدا أن الآب والابن من جوهر واحد أو من مادة واحدة **Consubstantialism** وافقت عليه منذ ذلك الوقت بالاجماع الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت ، كمادة أساسية فى الايمان المسيحى . وما كان لهذه العبارة (الجوهر الواحد) أن تلائم تلك الأكثرية التى أدخلتها فى العقيدة الصحيحة اذا لم تكن قد دمغت الهرطقة وجمعت كلمة الكاثوليك ، وكانت هذه الأكثرية تتألف من فريقين يتسمان بنزعة مضادة لأصحابيس أصحاب مذهب الآلهة الثلاثة **The Tritheists** ، وأصحاب مذهب الآله الواحد فى ثلاثة أقانيم وهم السابليون **Sabellians** . ولما بدا أن هذين المذهبين المتعارضين من شأنهما أن يقوضا أسس الديانة الطبيعية أو الموحى بها ، فقد اتفق أصحابهما على تخفيف صلابة مبادئهم ، وتجاهل النتائج التى قد يفرضها خصومهم ، وهى نتائج عادلة ولكنها تثير الحقد والغرفة . ودفعتهم مصلحة القضية المشتركة الى ضم صفوفهم وأخفاء ما بينهم من خلافات ، وخفف النصيح بالتسامح من العداوة القائمة بينهم ، وتوقفت نزعاتهم باستخدام التعبير الغامض - الطبيعة الواحدة **Homooousion** الذى أصبح كل فريق حرا فى تفسيره وذق ارأيه الخاصة . أما المعنى الذى قصده السابليون ، وهو الذى أرغم مجلس انطاكية قبل ذلك بخمسين عاما على تحريم هذا اللفظ الشهير ، فقد حبيب فيه أولئك اللاهوتيين الذين كانوا يميلون ميلا سريا وان يكن جزئيا الى الأخذ بمبدا التثليث الأسمى . غير أن قديسى عصر آريوس الأكثر انخداعا بالجديد مثل اثناسيوس الجرىء وجريجورى نازيانزى العالم وغيرهم من عمد الكنيسة الذين كانوا يؤيدون عقيدة « نيقيا » . فقد بدا انهم يعتبرون كلمة « المادة » على أنها مرادف لكلمة « الطبيعة » ، وكان لديهم من الجراءة ما يدفعهم الى توضيح المعنى الذى يقصدونه بتأكيدهم أن ثلاثة رجال ينتمون الى جنس واحد مشترك هم فى واقع الأمر من مادة واحدة أو من طبيعة واحدة . ومما يؤدى ، من ناحية ، الى اتساق هذا التساوى الخالص توحيدا لا يقبل الانفصال ويؤدى اليه ، ومن الناحية الأخرى ، سمو الآب الذى كان مسلما به ما دام متمشيا مع استقلال الابن . وفى داخل هذه الحدود فإن العقيدة الصحيحة المتأرجحة التى لا يكاد يغلطن اليها أحد استطاعت أن تتذبذب فى أمان . وعلى جانبى هذا المجال الذى كان موضع نقديس من الجميع ، ويمتأى عنه ، كمن الهرطقة من ناحية . وأشبه القديسين من ناحية أخرى للانقضاض على الخصال التعس والتهامة . ولما كان مبلغ الكراهية اللاهوتية انما يتوقف على روح

القتال لا على أهمية الخصومة، فان الهراطقة الذين انحط مركزهم عوملوا
معاملة أشد وأقسى من معاملة أولئك الذين حطموا شخص الابن . ولقد
استنفدت حياة أثناسيوس في مقاومة لا تلين ولا تهدأ شنها على الجنون
الضال الذي اتصف به اتباع آريوس ، ولكنه دافع أكثر من عشرين عاما.
عن مذهب «النسابلية» الذي نادى به «ماركلوس» الأنسيرى Marcellus
of Ancyra وعندما أرغم في نهاية الأمر على الانسحاب من عضوية
الكنيسة ، ظل يذكر في ابتسامة غامضة الأخطاء العريضة التي ارتكبها
صديقه المبجل .

ولقد نقشت سلطة المجلس العام، الذي اضطر اتباع آريوس أنفسهم
الى الخضوع اليه ، على ألوية الفريق الأورثوذكسى (صاحب العقيدة
الصحيحة) تلك الحروف الغامضة لكلمة « الطبيعة الواحدة » التي
أسهمت أساسا ، ورغم بعض الخلافات الغامضة ، فى المحافظة على
وحدة الايمان ، أو على الأقل وحدة التعبير ، وفى دوام هذه الوحدة
ومن ثم فان اتباع هذا الفريق الذى نادى بمذهب « الطبيعة الواحدة »
أو « المادة الواحدة » ، والذي أكسبه نجاحه الحصول على اسم
« الكاثوليك » ، أخذوا يفخرون ببساطة وثبات عقيدتهم ، ويسبون
تقلب خصومهم الذين كانوا يفتقرون الى أى مبدأ معين من مبادئ
الايمان . أما رؤساء آريوس ، فان إخلاصهم أو دهاءهم وخوفهم من
القوانين أو من الناس ، وتقديسهم للمسيح ، وكرهيتهم لأثناسيوس ،
وجميع الأسباب الالهية والبشرية ، مما يؤثر فى آراء أى حزب لاهوتى
ويزعجها ، كل أولئك بعث فى أبناء هذه الطائفة روح التناحر والتخلخل
التي خلقت فى مدى سنوات قلائل ثمانية عشر نموذجا دينيا ، وانتقلت
للجرح الذى أصاب كرامة الكنيسة . واثق للرجل المتحمس
« هيلارى » Hilary الذى دفعته المحن الخاصة التي أحاطت بمركزه
الى التخفيف من أخطاء رجال الدين الشرقيين لا الى تضخيمها ، ترى
هذا الرجل يعلن أنه فى المدى الفسيح للولايات العشر الآسيوية التي
نفى اليها لا تستطيع أن تجد الا قلة قليلة من كبار رجال الدين احتفظت
بمعرفة الاله الصحيح . ولقد أدى الظلم الذى شعر به والفوضى التي
شاهدها وكان فريسة لها ، الى تهدئة مشاعر الغضب التي احتدمت
فى نفسه ، فى فترة وجيزة . وفى القطعة التالية التي سوف انقل منها
سطورا قليلة ينحرف اسقف بواتييه دون حذر الى أسلوب فيلسوف
مسيحى ، فيقول : « انه لمن المؤسف والخطير على المسوء ان هناك من
العقائد بين الناس بقدر ما يعتنقون من آراء ، ومن المذاهب بقدر ما لهم من
اتجاهات وميول ، وأن هناك من نواحي الكفر بقدر ما ترتكب من

أخطاء ، وذلك لأننا نصنع العقائد على هوانا ونفسرها بالطريقة عينها .
فالمجامع المتعاقبة تنبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم تقلبها ثم تهون من شأنها . وقد أصبح التشابه الجزئى أو الكلى بين الآب والابن موضع جدل ونقاش فى هذه الأيام التعسة . وفى كل سنة ، بل وفى كل شهر ، نصنع عقائد جديدة لنفسر بها غوامض خفيفة . ونندم على ما فعلنا ، وندافع عن النادمين ، ثم نصب اللعنة على أولئك الذين دافعنا عنهم . وندين مذهب الآخرين ، ويمزق بعضنا بعضا ، ومن ثم فقد كان كل منا سببا فى هلاك الآخرين » .

ولا ينتظر أحد منى ، بل وربما لا يطيق ، أن أضخم هذا البحث اللاهوتى الخارج عن الموضوع بتمحيص دقيق للعقائد الثمانية عشرة التى نبذ واضعوها فى أكثر الأحيان ذلك الاسم المكروه ، اسم أبيهم أريوس . وأنه ليلذ للمدارس المجد أن يرسم شكلا لنبات غريب ويتتبع نموه ، غير أن التفاصيل المجردة التى تتناول وجود أوراق دون أزهار ، وغصون دون ثمار ، من شأنها أن تؤدى الى نفاذ صبره ومضايقته حبه للاستطلاع . ومع ذلك فهناك مسألة انبثقت تدريجيا من الجدال الدائر حول مذهب أريوس ، ويجدر بنا ملاحظتها لأنها خلقت وميزت الطوائف الثلاث التى لم يوحد صفوفها الا كراهيتها المشتركة لمذهب الطبيعة الواحدة الذى أقره مجمع نيقيا . ١ - فإذا ما سئلوا عما إذا كان الابن هو شبه الآب ، أجاب الهرطقة المتمسكون بمبادئ أريوس ، أو قل بمبادئ الفلسفة ، اجابة قاطعة بان الأمر ليس كذلك ، لأن تلك المبادئ تقضى بوجود فرق لا نهائى بين الخالق وبين اسمى مخلوقاته . وقد أخذت بهذه النتيجة البينة شخص اسمه إيتيوس Aetius أطلق عليه خصومه المتحمسون اسم « الملحد » . وهذا الرجل دفعته روحه القلقة المتطلعة الى مزاولة كل مهنة من مهن الحياة الانسانية تقريبا . فقد كان على التوالى رقيقا ، أو على الأقل فلاحا ، ثم مصلحا جوالا للأوانى . ثم مسائنا ، ثم طبيبا ، ثم معلما ، ثم لاهوتيا ، وأخيرا أصبح رسولا لكنيسة جديدة لقيت رواجاً بفضل قدرات تلميذه يونوميوس Eunomius ولقد كان إيتيوس مسلحا بنصوص من الانجيل وباقيسة منطقية مستمدة من منطق أرسطو ، ومن ثم فإن هذا الرجل الماكر اكتسب شهرة المجادل الذى لا يقهر ، والذى لا يستطيع اسسكاته أو اقناعه . ولقد مكنته هذه المواهب من كسب صداقة اساقفة مذهب أريوس . الى أن اضطروا الى نبذ ، بل ومجافاة ، حليف خطير أثار رأى الشعب ضد قضيتهم بدقة محتاجته ، واساء الى التقوى التى كان يتحصف بها أتباعهم المخدعون اكبر الاخلاص لمذهبهم . ٢ - أن

القدرة على كل شيء التى يتصف بها الخالق أوحى بحل مقبول لمشكلة التشابه بين الآب والابن ، وفى مقدور الايمان أن يقبل ما لا يجزئ العقل على انكاره ، وهو أن الله العظيم يمكنه أن ينقل صفات كماله اللانهائى الى من يشاء ويخلق مخلوقا لا يماثل أحدا الا هو . وكان السند القوى لأتباع آريوس ما هنالك من وزن وقدرات لزعمائهم الذين تولوا رعاية قضية يوسوبوس وجلسوا على العرش الرئيسى فى الشرق . ولقد كرهوا ، وربما فى شيء من التظاهر ، ذلك الضلال الذى اتصف به ايتيوس ، وقرروا أنهم يعتقدون ، اما دون تحفظ أو بناء على ما ورد فى الانجيل ، ان الابن يختلف عن كل المخلوقات الأخرى ، ولا يشبه أحد الا الآب . ولكنهم أنكروا أن الابن من مادة الآب نفسها أو من مادة شبيهة وفى بعض الأحيان كانوا يبررون فى جراءة هذا الخروج ، وفى أحيان أخرى كانوا يعترضون على استخدام كلمة « المادة » التى يبدو أنها تعطى فكرة مناسبة ، أو على الأقل فكرة مميزة ، عن طبيعة الاله الأعظم .

٣ - ١٩ الطائفة التى كانت تقول بمذهب المادة الشبيهة فقد كانت أكثر الطوائف عدداً، على الأقل فى ولايات آسيا. وعندما اجتمع زعماء الطائفتين فى مجمع سلوتيا Seleucia ، تغلب رأى هذه الطائفة بأكثرية مائة أسقف وخمسة ضد ثلاثة وأربعين أسقفاً . أما الكلمة اليونانية التى وقع عليها الاختيار للتعبير عن هذا التشابه الغامض بين الآب والابن ، فإنها وثيقة الشبه بالكلمة التى كان يستخدمها أصحاب المذهب الصحيح (الأورثوذكس) الى درجة أن غير العالمين بالدين فى كل عصر كانوا يسخرون من المشادات العنيفة التى احتدمت من جراء وجود اختلاف فى مقطع صوتى واحد بين كلمتى Homoiousians و Homoiousians وكثيرا ما يحدث أن الأصوات والحروف التى تشبه بعضها بعضا أشد الشبه تمثل بمحض الصدفة أفكارا أكثر ما يكون تعارضا ، ومن ثم فإن هذه الملاحظة تصبح مضحكة فى حد ذاتها ، لو أنه كان ممكنا أن نثبت أى فرق حقيقى معقول بين مذهب أولئك الذين أطلق عليهم دون وجه حق اسم أشنباة أتباع مذهب آريوس وبين مذهب الكاثوليك أنفسهم . أما أسقف بواتييه الذى كان يهدف فى كثير من الحكمة وهو فى منقاه فى ولاية « فريجيا » الى تحقيق ائتلاف بين الأحزاب ، فقد حاول أن يثبت أن التشابه بين الآب والابن Homoiousion ، يمكن أن يعنى أنهما من جوهر واحد اذا توخينا الاخلاص والتقوى فى التفسير . غير أنه يعترف بأن هذه الكلمة لها جانب غامض يثير الشبهة . ولما كان الغموض شبيهاً يتناسب مع النزاعات اللاهوتية ، فإن أشنباة أتباع آريوس الذين تقدموا نحو أبواب الكنيسة أخذوا يهاجمونها بأقصى ما يكون من الغضب .

الباطريرك والجدل حول مذهب أريوس

كانت ولايات مصر واسيا التي احتضنت لغة اليونان وعاداتهم قد تناولت جرعات كبيرة من سموم الجدل الذي قام حول مذهب أريوس . وزودت الدراسة غير المألوفة لمذهب أفلاطون بما فيها من ميل عقيدتهم للنقاش وتوفر المصطلحات المرنة المطاطة ، كل أولئك زود الشعب ورجال الدين في المشرق بمعين لا ينضب من الالفاظ والتمييزات . وفي خضم نزاعاتهم الحادة ، نسوا في سهولة ذلك التشكك الذي تحبذ الفلسفة ، وذلك الخضوع الذي يحتمه الدين . أما أهل الغرب فقد كانوا أقل فضولا ، ولم تكن الأشياء غير المرئية لتثير عواطفهم بمثل تلك القوة ، كما أن عقولهم كانت أقل مرانا على عادات النقاش والجدل ، وكانت الكنيسة الغالية The Gallican Church على قدر من نعيم الجهل ، الى حد أن هيلاري نفسه بعد أكثر من ثلاثين عاما من المجلس العام الأول ، كان لا يزال غريبا على عقيدة نيقيا . وكانت أشعة المعرفة بالأمور اللاهوتية قد نفذت الى اللاتين عن طريق الترجمة ، وهو طريق غامض محفوف بالشك . فان لفهم الوطنية الفقيرة الجامدة لم تستطع دائما أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانية ، والكلمات الفنية الواردة في الفلسفة الأفلاطونية ، وهي مصطلحات وكلمات كانت موضع تقديس من الانجيل او من الكنيسة ، بحيث تمكنهم من التعبير عن أسرار الايمان المسيحي . ولا شك في أن العجز عن التعبير قد أدخل في علم اللاهوت اللاتيني سلسلة من الخطأ والالتباس غير أن سكان الولايات الغربية كانوا ، لحسن حظهم ، قد استقروا دينهم من مصدر صحيح ، ومن ثم حافظوا في ثبات على المذهب الذي تقبلوه في لين وبيسر ، وعندما اقترب وباء مذهب أريوس من حدودهم كان لديهم في الوقت المناسب ما يقيهم من شره وهو ايمانهم بالطبيعة الواحدة تحت الرعاية الأبوية التي أظلم بها بابا روما . ولقد ظهرت احساسهم وخلقهم في المجمع الشهير الذي انعقد في ريميني Rimini ، وكان أكثر عددا من مجلس نيقيا لأنه كان مكونا من أكثر من أربعمئة أسقف ينتمون الى ايطاليا وأفريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم Illyricum . وبدا من المناقشات الأولى أن ثمانين أسقفا كانوا يؤيدون فريق أريوس ، رغم أن « هؤلاء » تطاهروا بأنهم يلعنون اسم أريوس وذكراه . غير أن هذه القلة العددية عوضتها مزايا المهارة والتجربة والنظام ، وكان على رأس هذه الفئة القليلة أسقفان من الليريكوم هما فالنز Valens وأوراسكيوس Ursacius اللذان قضيا حياتهما في دسائس البلاط والمجالس ، وتدربا

تحت إمرة يوسوبوس في صراعات الشرق الدينية ، ومن ثم فقد استطاعتا بمحاجتهم وجدلهم أن يحرجا أساقفة اللاتين الأمعاء البسطاء ، وتمكنا في نهاية الأمر من التمويه عليهم وخداعهم . وقد شق على هؤلاء أن تنتزع من أيديهم مقاليد الايمان بالالصحاح والخداع لا بالعنف المسافر . ولم يسمح لمجلس ريمنى بأن ينفرط عقده حتى التزم الأعضاء دون تمقل أو روية بعقيدة متشككة أدخل فيها من التعبيرات التى تنم عن معنى الهرطقة ما يمس مذهب الطبيعة الواحدة . ولشد ما أدهش العالم فى تلك المناسبة أن يجد نفسه وقد أصبح يدين بمذهب آريوس ، على حد تعبير جيروم . ولكن ما أن وصل أساقفة اللاتين الى أسقفياتهم حتى اكتشفوا خطاهم وندموا على ضعفهم . وقوبل هذا التسليم للشائن المهين بالرفض المشوب بالازدراء والكراهية . أما مذهب الطبيعة الواحدة ، الذى اهتز ولكنه لم يغل على أمره ، فقد غرس من جديد فى كل كنائس الغرب بصورة أكثر صعوبة وقوة .

هكذا نشأت وتطورت تلك النزاعات اللاهوتية التى أزعجت سلام المسيحية فى عهد قسطنطين وأبنائه من بعده ، وهكذا كان شأن الثورات الطبيعة التى اعتورتها . ولما عمد هؤلاء الأمراء الى مد سلطانهم المطلق على الدين ، كما مدوه على حياة ومصائر رعاياهم ، فإن ثقل تأييدهم كان فى بعض الأحيان يرجح كفة الكنيسة ، وأصبح الملك الديوى هو الذى يقرر حقوق ملك السماء أو يغيرها أو يعدلها .

ولا شك فى أن روح التيافر التعمسة التى سادت ولايات الشرق عاقت فوز قسطنطين ، غير أن الامبراطور ظل فترة من الزمن ينظر الى موضوع النزاع فى فتور ودون اهتمام أو مبالاة . وبما أنه كان لا يزال يجهل الصعوبة القائمة فى طريق تهدئة الخلافات ، فقد أرسل الى الطرفين المتنازعين : الاسكندر وأريوس ، رسالة تدعو الى الاعتدال (١) ، ويمكن أن يفتر ما جاء بها صادرا من وحى جندى وسياسى فج غرير أكثر من أن يكون مستمدا من فن مستشاريه الدينيين ، وهو فى هذه الرسالة يعزى أصل الخصومة كلها الى سؤال تافه غامض يتعلق بنقطة فى القانون لا يستطاع فهمها ، سؤال سأل الأسقف فى غباء وأجاب عنه القس فى حمق . وهو يرثى فيها لحال الشعب المسيحى الذى يعبد الها واحدا

(١) آساءت مبادئ التسامح والامبالاة الدينية التى تتضمنها هذه الرسالة الى يارونينوس وتلمونت Baronius - Tillemont اللذين يعتقدان أن الامبراطور كان لديه مستشار شرير . هو الشيطان يوسوبوس .

ويدين بدين واحد ويمارس عبادة واحدة ، ومع ذلك يسمح لفروق تافهة أن تؤدي به إلى الانقسام . وبعد ذلك يوصى رجال الدين في الاسكندرية بأن يحذوا حذو فلاسفة اليونان الذين كان في مقدورهم أن يقرعوا الحجة بالحجة دون أن يطير صوابهم أو يفقدوا أعصابهم ، وأن يؤكّدوا حريتهم دون تحطيم صداقتهم . وربما كان من الممكن لمسلك قسطنطين الذي اتسم بالاحتقار واللامبالاة أن يكون له أعظم الفعالية في فض النزاع لو أن التيار الشعبي كان أقل اندفاعا وعنفا ، أو لو أن قسطنطين نفسه استطاع في خضم التعصب والتحزب أن يحتفظ بهدوء عقله ورباطة جأشيه . غير أن وزراءه من رجال الدين سرعان ما استطاعوا أن يشنوا الحاكم عن موقفه غير المتحيز وأن يوقظوا حماس المرتدين . ولقد أثارتته الاهانات التي وجهت إلى تماثيله ، وأزعجه المدى الكبير الذي وصل إليه الشر المستطير فعلا وتخيلًا . ومنذ اللحظة التي جمع فيها ثلاثمائة أسقف داخل جدران قصر واحد قضى على كل أمل في السلام والتسامح . وكان حضور الملك لهذا الاجتماع أيذاً بأهمية النقاش كما أن شدة اهتمامه زادت من كثرة الحجج . ولقد ابرز شخصيته بشجاعة ثابتة راسخة أشعلت حماس المتصارعين وزادتهم قوة . ورغم ما قوبلت به فصاحة قسطنطين وحكمته من استحسان وتأيد ، فإنه في موقفه هذا لم يعد أن يكون قائداً رومانيساً لا تزال عقيدته موضع شك ، ولا يزال ذهنه بعيداً عن الاستنارة بشيء من الدرس أو الإلهام ، تصدى تصدياً مستهتراً ليناقتش بالأسفة اليونانية مسألة ميتافيزيقية أو مبحثاً من مباحث الدين . وربما كانت مكانة صديقه الحميم أوريس (Oris) - الذي يبدو أنه كان يرأس مجمع نيقيا - كفيلاً بأن تكسب الامبراطور إلى جانب المذهب الصحيح . ثم أنه وقر في ذهنه في الوقت المناسب أن يوسوبوس Eusebius النيقوميدي نفسه ، الذي كان يحمي الآن الهرطقة ، كان منذ عهد قريب عوناً للطاغية ، الأمر الذي قد يثير سخطه على أعدائهم . ولقد أقر قسطنطين عقيدة نيقيا ، وأعلن في عزم وأصرار أن أولئك الذين يقاومون الحكم الإلهي الذي أصدره المجمع يجب أن يعدوا أنفسهم للنفي من البلاد فوراً . وكان من شأن اعلانه هذا أنه قضى على ما كان هنالك من أصوات ضعيفة معارضة ، فانخفض عدد الأساقفة المعارضين على النحو من سبعة عشر أسقفاً إلى اثنين ، وأرغم يوسوبوس أسقف قيصرية مكرهاً على تأييد مذهب الطبيعة الواحدة في عبارات ملتبسة ، كما أن مسلك التردد الذي سلكه يوسوبوس النيقوميدي أم بزنس عليه إلا تأخير نفيه والحق السار به فترة ثلاثة شهور . أما آريوس الضليل فقد نفى في إحدى مقاطعات الليريكوم الناذبة كمساوياً من شخصه وتلاميذه بحكم القانون بذلك الاسم الممقوت « البرفيريون »

Porphyrians ، (أتباع الأفلاطونية الجديدة) ، وكذلك أحرقت كتاباته وقررت عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات وهكذا سرت في الامبراطور روح الخصومة وصيغت مراسيمه بأسلوب ساخط ساخر قصد به أن يوغر صدور رعاياه بتلك الكراهية التي اضمحها لأعداء المسيح .

غير أنه يبدو أن الامبراطور كان في مسلكه هذا مدفوعا بنزعات الهوى بدلا من المبادئ ، ومن ثم فلم تكد تنقضى ثلاث سنوات على مجلس نيقيا حتى استشعر بواذر الرحمة بل والتسامح نحو الطائفة المضطهدة التي كانت أخته الحبيبة ترعاها وتحميها في غير علانية فاستدعى المنفيون من منفاهم ، واسترجع يوسوبوس نفوذه وتأثيره على عقل قسطنطين ، ثم أعيد الى كرسى الأسقفية الذي كان قد عزل منه بصورة مهينة شائنة . أما آريوس نفسه فقد عول في البلاط الامبراطوري كله بالاحترام الذي يستحقه رجل برى وقع تحت نير الظلم . ثم وافق مجلس أورشليم على مذهبه ، وبدا أن الامبراطور كان يتعجل رفع الظلم الذي اوقعه به ، فأصدر أمرا قاطعا بأن يسمح له بتناول الأسرار المقدسة في كاتدرائية القسطنطينية ، غير أن القضاء المحتوم وافي آريوس في نفس اليوم الذي حدد لرد اعتباره ، وثمة ظروف غريبة مزعجة مات فيها هذا الرجل ، وربما أثارت تلك الظروف شكوكا وريباً في أن قديسى المذهب الصحيح لم يكتفوا بالصلاة لانقاذ الكنيسة من ألد أعدائها ، بل حققوا ذلك بوسائل أشد فعالية (١) . ولقد وجهت اتهامات كثيرة الى الزعماء الثلاثة الكبار للكاتوليك ، اثناسيوس أسقف الاسكندرية ، ويوستاثيوس أسقف انطاكية ، وبولس أسقف القسطنطينية ، فحكمت مجالس كثيرة عليهم بالعزل ، ثم صدر الأمر بنفيهم الى ولايات نائية . وكان الذي أصدر الأمر هو امبراطور مسيحي ، وهو الذي تلقى في اللحظات الأخيرة من حياته ، شعائر المعمودية على يد أسقف تيقوميديا التابع لمذهب آريوس . وليس في مقدورنا أن نخلى حكومة قسطنطين الدينية من أنها كانت ضعيفة طائشة غير أن ذلك الجاكم كان يصدق كل ما يقال له ، ولم يكن بارعا في مناورات الصراع اللاهوتي ، ومن ثم

(١) نستمذ القصة الأصلية من اثناسيوس الذى يتورع بعض الشيء عن الاساءة الى ذكرى الميت . وقد يكون مبالغا ، غير أن الاتصال الدائم بين الاسكندرية والقسطنطينية كان كفيلا بأن يجعل اختراع هذه القصة أمرا خطيرا . وأولئك الذين يؤكدون القصة الحرفية لموت آريوس (وهى أن امعاء انفجرت فجأة في بيب الخلاه) يجب أن يختاروا أمرا من اثنين - السم أو المعجزة .

فقد خدعه الهرطقة بأقوالهم المناوضة المنمقة ، ولم يستطع مطلقا أن يفهم أحاسيسهم فهما كاملا . ومع أنه كان يظل آريوس بحمايته ويضطهد أثناسيوس ، إلا أنه كان ولا يزال يعتبر مجلس نيقيا حصنا للديانة المسيحية ومفخرة اختص بها عهده .

ولابد أن أبناء قسطنطين كانوا قد قبلوا منذ طفولتهم بين صفوف من يؤهلون للتعميد ، غير أنهم حذروا حذر أبيهم في تأخير تعميدهم . وكانوا مثل أبيهم في الجرأة على إصدار حكمهم في أسرار وغوامض لم يدرىوا على فهمها بصورة منتظمة ، وأصبح مصير النزاع حول مذهب الثثلث متوقفا إلى حد كبير على مشاعر قسطنطينوس Constantius الذى ورث ولايات الشرق وامتلك الامبراطورية كلها . أما الأسقف الأريوسى (التابع لمذهب آريوس) الذى كان قد أخفى وصية الامبراطور الراحل ليستغلها لمصلحته فقد أحسن الافادة من الفرصة المواتية التى اتاحت له أن يحظى بالصفة أمير كان ذوو الحظوة لديه والمقربون اليه يتغلبون دائما على مستشاريه الرسميين . ولقد نفث العبيد والخصيان سموم الأفكار الروحانية فى أرجاء القصر ، وانتقلت العدوى الخطيرة من الوصيفات إلى الحراس ، ومن الامبراطورة إلى زوجها الغر الغافل . وكان قسطنطين يعبر دائما عن محاباته لحزب يوسوبوس ، ونجحت براعة زعماء هذا الحزب فى تقوية هذه المحاباة بصورة غير محسوسة ، كما أن فوزه على الطاغية ماجننتيوس Magnentius زاد من ميله ، كما زاد من قدرته ، على استخدام أساليب القوة لنصرة مذهب آريوس . وبينما كان الجيشان يتقاتلان فى سهول مورسا Mursa ، ومصير المتنافسين معلقا على نتيجة الحرب كان ابن قسطنطين يقضى تلك اللحظات الحرجة فى كنيسة للشهداء تحت أسوار المدينة . ولقد عمد نديمه الروحى ، فالنز Valens ، الأسقف التابع لمذهب آريوس ، إلى استخدام احتياطات أشد ما يكون دهاء للحصول على أنباء مبكرة عن المعركة بحيث يكتسب لديه حظوة إذا انتصر أو يبسر له النجاة إذا خسر . ومن ثم فإنه استعان سرا بعدد من الرسل الذين تتوفر فيهم السرعة ، والثقة ، فكانوا يخبرونه بتقلبات سير المعركة . وبينما كان رجال البلاط يرتعدون حول سيدهم الذى تولاه الخوف والهلع ، إذا بالأسقف فالنز يؤكد له أن الجيوش

(١) نلاحظ المؤرخ أن الحمى سببان مهم الاعتداء الطيميون « لابن الله » هارن مؤلف الدكتور « جورتن » Remarks on Ecclesiastical History المجاد الرابع الانساب الذى ورد فى كتاب Candido (الفصل ٤) الذى ينتهى بواحد من أول رفاق ترستوف كولب .

الغالية قد اندحرت ، وأشار ، فى شيء من حضور الذهن ، الى أن هذا الحدث المجيد قد كشفه له أحد الملائكة . فاستشعر الامبراطور عرفانا بالجميل ونسب فوزه هذا الى تأييد أسقف مورسا وما يتصف به من فضائل ، والى ايمانه الذى استجاب له السماء بصورة علنية ترقى الى درجة الاعجاز . أما أتباع أريوس الذين اعتبروا انتصار قسطنطين كأنه انتصار لهم ، فقد فضلوا مجده على مجد أبيه ، وسرعان ما قام كيرلس (١) أسقف Cyril أسقف أورشليم (بيت المقدس) بوصف صليب سماوى يحف به قوس قزح رائع ، وهو الصليب الذى كان قد ظهر فوق جبل الزيتون فى الساعة الثالثة من يوم عيد العنصرة Pentecost لتثبيت ايمان الحجاج وأهل المدينة المقدسة . وجاء فى هذا الوصف أن ذلك الشهاب السماوى قد ازداد حجما بصورة تدريجية ، وأكد المؤرخ الأريوسى فى جراءة أن الصليب كان واضحا أما الجيشين المتقاتلين فى سهول بانونيا Pannonia وأن الطاغية ماجننتيوس الذى مثله المؤرخ عمدا بأحد عباد الأصنام قد لاذ بالفرار أمام صليب المسيحية الصحيحة الذى كان ظهوره بشيرا بالفوز والانتصار .

وما لا شك فيه أن الاحاسيس التى يشعر بها رجل سليم الحكم تناول دون تعيز تطورات النزاع الأهلى والكنسى ، دون أن يكون طرفا فيه ، لهى أحاسيس يحق لنا دائما أن ندخلها فى اعتبارنا . وانى لأسوق هذا قطعة قصيرة قد يكون كتبها اميانوس Ammianus ، الذى خدم فى جيوش قسطنطين ودرس أخلاقه ، وهى قطعة قد يكون لها من القيمة أكثر من صفحات مليئة بالطعون اللاهوتية : يقول : ذلك المؤرخ المعتدل : «ان الديانة المسيحية فى حد ذاتها واضحة بسيطة ، غير أن قسطنطيوس جعلها مهوشة معقدة بسخف خرافاته ، وبدلا من أن يستخدم ثقل سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب ، فقد شجع ونشر الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف والتى اذكت نارها النزاعات والمهاترات الكلامية . فامتلات الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج الى الاجتماعات التى يسمونها مجالس كنسية ، ويعملون جاهدين على اخضاع الطائفة كلها الى آرائهم

(١) يقول كيرلس فى صراحة ان الصليب لم عهد قسطنطين قد وجد مدفونا فى باطن الأرض ، ولكنه اعتلى قمة السماء فى عهد قسطنطيوس . وهذا التناقض يوضح فى جلاء انه كان يجهل كل شيء عن المعجزة المذهلة التى ينسب اليها تحول قسطنطين الى المسيحية . ويبدو هذا الجهل أكثر مدعاة الى العجب لأن أسقف قيصرية الذى جاء بعد يوسوبوس مباشرة ، منح كيرلس لقب أسقف أورشليم بعد فترة لا تزيد على اثنى عشر عاما من وفاته .

الخاصة ، ومن ثم فقد كاد الخراب ان يحل بكناشهم العامة نتيجة لتكرار رحلاتهم الطائشة » . وان ما نعرفه معرفة وثيقة عن مجريات الأحداث الكنسية في عهد قسطنطينوس ، لهو خير تعليق على هذه القلعة ، وهذا الذى نعرفه يبرر المخاوف المعقولة التى كان يخشاها اثناسيوس من أن النشاط الدائب من ناحية رجال الدين الذين كانوا يجوبون أرجاء الامبراطورية بحثا عن العقيدة الصحيحة سوف يثير احتقار العالم غير المؤمن ويصبح مدعاة لسخريته ، وما أن استراح الامبراطور من فلتان الحرب الأهلية حتى كرس وقت فراغه الذى كان يقضيه فى أرل وميلان وسرميوم ، والقسطنطينية لمسررات الخصومة الدينية او مناعبها : ومن ثم فقد شهر سيف الحاكم ، او مثل سيف الطاغية لتنفيذ مبادئ رجال اللاهوت ، وبما انه كان معارضا للعقيدة الصحيحة التى اقربها مجمع نيقيا ، فلا بد من الاعتراف بأن عجزه وجهله كانا مساويين لغروره وادعائه . وكان عقله الضعيف المغرور واقعا تحت تأثير الخصيان والنساء والأساقفة ، وهؤلاء جميعا اوحوا اليه بكرامية طاغية لمذهب الطبيعة الواحدة ، غير أن ظلال اتيوس Aetius - كان بزعم خصمه الوجل الهيب ، وقد تضخم جرم هذا الملحد لأنه كان موضع محاباة مربية من جانب الشقى المنكود جالوس Gallus ، بل أن مقتل وزراء الامبراطور الذين ذهبوا فى انطاكية انما يعزى الى احياء ذلك السفسطائى الخطير . وكان تفكير قسطنطين من النوع الذى لا يلىه التعقل ولا يثبت الايمان ، ومن ثم فقد كان يندفع اندفاعا أعمى الى هذا الجانب من الزاوية المظلمة الخاوية أو ذاك خوفا وفزعا من الجانب المتطرف الآخر ، وكان مرة يرضى عن احاديسس احزاب اريوس واشباهاها ، ثم يبدؤها مرة اخرى ، وطورا ينفى زعماء تلك الأحزاب ثم يعثر عنهم ويستعيرهم . وفى موسم العمل العام أو موسم الاحتفالات كان يقضى أياما بالمدى ، بل وليالى كاملة فى انتقاء الالفاظ ووزن المقامع التى تتألف منها عقائده المتذبذبة . وكان موضوع تفكيره يلاحقه فى نومه ويشتغل به ، وكانت الأحلام المفككة التى يحلم بها الامبراطور تعتبر كأنها رؤى سماوية ، ولقد تقبل فى رضا وسرور لقب أسقف الأساقفة ، خلعه عليه رجال الكنيسة الذين نسوا مصلحة الطبقة التى ينتمون اليها ارضاء لشهواتهم وأهوائهم . أما فكرة تحقيق وحدة مذهبية التى دفعته الى عقد مجالس دينية كثيرة فى النال وايداليا واليريكوم وآسبا ، فقد أخفقت المرة بعد الأخرى ، وكان السبب فى ذلك طيشه وانقسام اداع اريوس ومقاومة الكاثوليك ، ومن ثم فقد عقد العزم ، كمحاولة أخيرة حاسمة ، على إصدار مراسيم امبراطورية بعقد مجلس عام . نجر أن الزلزال المدمر الذى

أصاب نيقوميديا ، وصعوبة العثور على مكان ملائم ، وربما أضيفت إلى ذلك دوافع سياسية ، كل أولئك أحدث تغييرا في مرسوم دعوة المجلس إلى الانعقاد . فصدر الأمر إلى أساقفة الشرق بالاجتماع في سلوقيا في ايزوريا Isauria ، بينما عقد أساقفة الغرب اجتماعهم في ريمنى على شاطئ البحر الادرياتي . وبدلا من ايفاد مندوبين أو ثلاثة من كل ولاية صدر الأمر بذهاب هيئة الأساقفة بأجمعها . وبعد أن استنفذ المجلس الشرقى أربعة أيام في مناقشة حامية غير مجدية انفرط عقده دون الوصول إلى أية نتيجة حاسمة . أما المجلس الغربى فقد امتد انعقاده سبعة شهور ، وصدرت التعليمات إلى الوالى البريتورى طوروس Taurus بالألا يسمح للأساقفة بالانصراف حتى تتفق كلمتهم جميعا على رأى واحد . وتأيدا لجهوده في هذه المهمة منح من السلطة ما يمكنه من نفى خمسة عشر أسقفا كانوا أشد الأساقفة عنادا وجموحا ، ووعد بأن يرقى إلى منصب القنصلية إذا حقق تلك المهمة العسيرة . وفى نهاية الأمر تضافرت توسلات الوالى وتهديداته ، وسلطة الحاكم ، وسفسة الأسقف فالنر وزميله أوراسكيوس ومحنة البرد والجوع ، والتفكير المحزن فى نفى لا يتسرب إليه أمل . كل أولئك أرغم أساقفة ريمنى على الاتفاق والقبول . وتوجه مندوبو الشرق والغرب إلى حضرة الامبراطور فى قصر القسطنطينية ، وهناك كان من دواعى سرور الامبراطور ومعتنه أنه فرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون اشارة إلى انهما من مادة واحدة . غير أن هذا الفوز الذى أحرزه مذهب آريوس كان قد سبقه ابعاد رجال الدين المنتهين إلى المذهب الصحيح الأرثوذكسى الذى استحال على الامبراطور اربابهم أو افسادهم ؛ وكان تعذيب اثناسيوس العظيم تعذيبا ظالما عقيما ، وصمة عار لطخت عهد قسطنطين .

أخلاق اثناسيوس ومغامراته

قلما تتاح لنا الفرصة ، فى الحياة العلمية أو فى حياة التأمل ، أن نلاحظ الأثر الذى تحدثه قوة عقل واحد ، أو العقبات التى يتغلب عليها هذا العقل ، إذا ما انصرف فى عزم لا ينثنى ولا يلين إلى السعى وراء تحقيق هدف واحد . وإن اسم اثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبدا عن مذهب التثليث الكاثولىكى الذى كرس لادفاع عنه كل لحظة من حياته وكل قدرة عقلية فى كيانه . وبما أنه تعلم وتربى فى أسرة الاسكندر فقد عارض فى عنف وقوة سير هرطقة آريوس فى أوائل عهدها . وكان يشغل وظيفة أمين سر المطران المعجوز . ويمارس أعباءها الهامة . وكان

حزبه ، أن يظهر طابع المرونة والتسامح الذى يتصف به زعيم عاقل
 حصيف . ولم ينج انتخاب اثناسيوس من اللوم على أنه كان انتخبا
 شابه التهور وعدم التزام القواعد ، غير أن مسلكه الرقيق المذهب أكسبه
 محبة الشعب ورجال الدين سواء بسواء ، وكان أهل الاسكندرية يتلهفون
 على امتشاق الحسام دفاعا عن راعيهم فصيح اللسان كريم الخلق .
 وكان فى محنته يجد سندا ، أو على الأقل عزاء ، فى ولاء رجال الدين
 التابعين لأسقفية . ومن ثم فقد تمسك اساقفة مصر المائة فى حماس
 لا يفتر ولا يهتز بقضية اثناسيوس . وكثيرا ما كان يقوم بزيارة الأقاليم
 التابعة له فى حاشية متواضعة توحى بالأنفة والكياسة معا ، يجوب بها
 البلاد من مصب النيل الى حدود اثيوبيا ، ويتحدث فى ألفة مع أدنى
 طبقات الشعب ، ويلقى السلام فى تواضع ودعة على نساك الصحراء
 وقديسيها ولم يتجل سمو عبقرية اثناسيوس فى الاجتماعات الكنسية
 فحسب ، ولا بين أتباعه ممن يشبهونه علما وخلقا فحسب ، بل أنه كان
 يبدى فى مجالس الأمراء حزما مقرونا بالملين والاحترام . وفى مختلف
 تقلبات حظه ، يسرا أو عسرا ، لم يفقد لحظة واحدة ثقة أصدقائه أو حسن
 تقدير أعدائه .

ولقد قاوم هذا الأسقف أبان شبابه الامبراطور العظيم قسطنطين
 الذى طالما عبر عن رغبته فى أن يعاد أريوس الى حظيرة الكاثوليكية ،
 واحترم الامبراطور هذا العزم الذى لا يلين من جانب اثناسيوس ، وربما
 تجاوز عنه ، أما أعضاء الفريق الذى كان يعتبر اثناسيوس المد أعدائه
 فقد اضطروا الى كتمان كراهيتهم وصمموا على اعداد هجوم غير
 مباشر . ومن ثم فقد روجوا حوله الاشاعات ونثروا الشكوك ، وجسوروه
 طاغية ظالما عاتيا متكبرا ، واتهموه فى جراته بأنه خرق الانساق الذى
 عقده مجمع نيقيا مع المنشقين من اتباع ميلتيوس Milotius ، وكان
 اثناسيوس قد اعترض فى صراحة على ذلك الصالح الشبان ، واعتقد
 الامبراطور أن اثناسيوس قد أساء استغلال سلطته الكنسية والمدنية
 لكى يضطهد أبناء تلك الطوائف المكروهة ، وأنه قد حلام كاس القربان
 المقدس فى إحدى كنائسهم بمريوط ، وبذلك انتهك قدسية تلك الكنيسة ،
 وأنه جلد أو سجن ستة من أساقفتهم ، وأنه قتل أو عاقب الأقل شوه
 أسقفا سابع اسمع أرسينيوس Arsinus دون رحمة أو شفقة .
 وأحال قسطنطين هذه الاتهامات التى لطخت برفق اثناسيوس ، والأثر
 فى حياته الى أخيه دلمانيوس الذى كان رقيقا يقيم فى انطاكية ، ثم انعقدت
 مجالس الكنائس فى قيصرية وحور ، وحدرت التعليمات الى اساقفة

الشرق بأن ينظروا قضية اثناسيوس قبل تدشين كنيسة القيامة الجديدة في اورشليم . وكان الأسقف اثناسيوس يدرك أنه برىء ولكنه كان يحس أيضا أن روح الحق التي أملت الاتهام هي نفسها التي سوف توجه المحاكمة وتنطق بالحكم عليه . ومن ثم فقد أوجت حكمته أن ينبذ محكمة تتألف من خصومه وتجاهل أمر الحضور الذي أصدره اليه مجمع قيصرية . ويعد مماثلة مأكرة طويلة خضع للأوامر القاطعة التي أصدرها الامبراطور وهدد فيها بأن يعاقبه على عصيانه الاجرامى اذا رفض الحضور امام مجلس صور . وقبل أن يرحل اثناسيوس من الاسكندرية على رأس خمسين أسقفا مصريا ، كان قد توصل في حرص الى ضمان تحالف اتباع ميليتيوس ، وأخفى بين حاشيته الأسقف أرسينيوس ، ضحيته الموهومة وصديقه السرى . ولقد أدار يوسوبوس أسقف قيصرية مناقشات مجلس صور في كثير من الانفعال وقليل من الدهاء مما لم يكن متوقعا من علمه وخبرته . وكرر أعضاء حزبه اتهامات لاثناسيوس بالقتل والطغيان ، وشجعهم على الضجيج والصراخ ما كان يبدو على وجه اثناسيوس من علائم الصبر . على حين أنه كان ينتظر اللحظة الحاسمة ليظهر أرسينيوس حيا لم يمسه سوء ، في وسط الاجتماع ، أما الاتهامات الأخرى فلم تكن في طبيعتها من النوع الذي يتبل مثل هذه الردود الواضحة المتنعة ، ومع ذلك فقد استطاع كبير الأساقفة أن يثبت أن القرية التي اتهم بأنه حطم فيها كأس القربان المقدس كانت خلوا من أية كنيسة أو مذبح أو أية كأس للقربان . أما اتباع آريوس الذين كانوا فيما بينهم قد قرروا ادانة عدوهم وحددوا الحكم عليه ، فقد حاولوا رغم كل هذا اخفاء ظلمهم باصطفاع شكليات قانونية : فعين المجلس لجنة أسقفية مؤلفة من ستة مندوبين لجمع الأدلة من موطن الجريمة نفسه . وهذا الاجراء الذي عارضه ستة من الأساقفة المصريين معارضة قوية كان فاتحة لمشاهد جديدة من العنف - الزور والبهتان .

وبعد عودة المندوبين من الاسكندرية أصدرت أغلبية المجلس حكمها على أسقف مصر بالتجريد والنفي . ثم أرسل القرار الى الامبراطور والكنيسة الكاثوليكية بعد أن صيغ في لغة تتم عن القسوة والحق وروح الانتقام ، وفور ذلك عاود الأساقفة مظهر الدعة والتقى الذي يتناسب مع حجم القدس الى ضريح السيد المسيح .

غير أن هذا الظلم الذي أوقعه القضاة الدينيون باثناسيوس لم يلق منه استكانة وخضوعا ، بل انه لم يبق في المدينة كلها انتظارا لمصيره .

أبناء الكنيسة في مجمع نيقيا يرفبون في دهشة وإجلال ما كان يتحلى به الشماس الشاب من فضائل نامية . ويحدث أحيانا ، اذا ما لاح خطر عام ، أن يتجاوز عن شرط السن أو سمو الرتبة ، ولهذا فإنه لم تنصرم فترة خمسة شهور على رجوع الشماس اثناسيوس من نيقيا حتى منح كرسي كبير أساقفة مصر . وقد شغل ذلك المنصب الرفيع أكثر من ستة وأربعين عاما ، وقضى فترة إدارته الطويلة هذه في صراع دائم ضد مذهب أريوس . ولقد طرد اثناسيوس من هذا المنصب خمس مرات ، وقضى عشرين عاما منفيًا أو هاربا لاجئا . ولقد شهدت كل ولاية تقريبا من ولايات الامبراطورية الرومانية ، واحدة بعد الأخرى ، بما كان يتحلى به من فضائل وبما كان يعانيه من آلام في سبيل قضية «الطبيعة الواحدة» التي كان يعتبرها ثقله الشاغل ولذته الوحيدة ، ويرى فيها واجبا لا بد من أدائه ومجدا يتوج به حياته . ووسط عواصف الاضطهاد التي تعرض لها اسقف الاسكندرية كان دائما وصيورا على العمل والجهاد ، زاهدا في الشهرة ، مستهينا بآمنه وسلامته ، ورغم أن تفكيره كان مشوبا بالمتعصب إلا أنه أظهر سموا في الأخلاق والقدرات كان كفيلا بأن يؤوله لحكم مملكة عظيمة ، أكثر بكثير من أبناء قسطنطين ذوي الأخلاق المنحلة . وكان علمه أقل عمقا واتساعا من علم يوسوبوس اسقف قيصرية ، أما فصاحته الفجة فلا يمكن مقارنتها بالخطابة المصقولة التي اشتهر بها جريجوري اسقف بازل Gregory of Basil ولكن كلما كان يطلب من اسقف مصر هذا أن يدر أراءه أو سلوكه ، فقد كان أسلوبه المرتجل ، سواء في الحديث أو في الكتابة ، أسلوبا واضحا قويا مقنعا ، وكان في المدرسة الأرثوذكسية موضع إجلال دائم كأستاذ اللاهوت المسيحي ، وكان المقول عنه أنه يتقن علمين دينيين أقل تلاؤما مع الطابع الأسقي - الفقه القانوني وعلم الغيب . وثمة تكتهات صادقة عن أحداث المستقبل ، كان ينسبها العقلاء غير المتحيزين إلى خبرة اثناسيوس وسلامة حكمه على الأمور ، على حين كان الصديقاء ينسبون لها إلى الإلهام السماوي ، ويعزونها أعضاؤها إلى الروح القدس .

ولما كان اثناسيوس منشغلا بصورة مستمرة بتحيزات وأهواء كل طائفة من طوائف الناس ، من الراهب إلى الامبراطور ، فإن معرفة الببيعة البشرية كانت أول دراساته وأهمها . وكان في مقدوره أيضا أن يدرك إلى أي مدى يستدليح أن يصدر أمرا جريئا ، ومتى يتحتم عليه أن يلجأ إلى لباقة الإيجاء ، وإلى أي حد يستدليح مجابهة القوة ، ومتى ينبغي عليه أن ينسحب من الكفاح . وبينما كان يواجه تحذيرات الكنيسة وتهديداتها ضد الهرطقة والتمرد ، كان في مقدوره ، وهو وسبط

فقد عقد العزم على القيام بتجربة جريئة خطيرة لكي يرى ما اذا كان صوت الحق لا يستطيع طرق آذان العرش الامبراطوري . وقبل أن يصدر الحكم النهائي في صور اعتلى الأسقف الجسور ظهر سفينة كانت على أهبة الإبحار الى المدينة الامبراطورية . ولم يحاول اثناسيون أن يلتمس مقابلة الامبراطور مقابلة رسمية خوفا من أن يقابل التماسه بالرفض أو المراوغة ، ولكنه أخفى نبأ وصوله ، وراقب لحظة عودة الامبراطور من قرية مجاورة ، وتقدم في جراحة نحو مليكه الغاضب حين كان يمر على ظهر جواد في الشارع الرئيسي لمدينة القسطنطينية . وقد أثار ظهوره المفاجيء هذا دهشة الامبراطور وسخطه ، وصدر الأمر الى الحراس بإبعاد ذلك الرجل اللجوج الملح في طلبه ، الا أن جلالة لا اراديا لمصاحب الحاجة هذا تغلب على سخط الامبراطور واستيائه ، وأخذ الامبراطور المتشامخ الغطريس بشجاعة وفصاحة الأسقف الذي جاء يلتمس عدالته ويوقظ ضميره . وأصغى قسطنطين الى شكوى اثناسيوس بانتباه مشبع بروح الانصاف بل وبروح الرحمة ، ثم استدعى أعضاء مجلس صور لكي يبرروا ما قاموا به من اجراءات . ولولا أن فريق يوسويوس ضخم الذنب الذي اقترفه الأسقف بتوجيه اتهام مأكرا اليه بأنه ارتكب جرما لا يمكن العفو عنه - وهو أنه وضع خطة لاعتراض وتعويق أسطول القمح السكندري الذي يمد العاصمة الجديدة بالغذاء ، لولا أنه فعل ذلك لانكشف خبثه وارتبكت خطته الماكرة (١) . وقد اقتنع الامبراطور بأنه اذا أبعد عن الديار المصرية زعيمها الشعبي ضمن بذلك أمنها وسلمها ، ولكنه رفض أن يشغل كرسي الأسقفية برجل آخر ، وبعد تردد طويل أصدر اثناسيوس حكما يتسم بالغيرة ، وهو الإبعاد ، وأبى له النفي المشين . ورحل اثناسيوس الى ولاية الغال حيث قضى ما يقرب من ثمانية وعشرين شهرا ضيفا كريما في معية والي تريف Treves ، ثم مات الامبراطور وتغيرت بذلك صورة الشئون العامة ، وفي خضم التسهل الذي اقترن بمجيء العهد الجديد أعيد الأسقف الى بلاده بهرموم كريم أصدره قسطنطين الأصغر الذي عبر عن شعوره ببراعة ضيقه المبجل وفضله .

(١) يسوق يونانيوس Eunapius مثلا عجيبا يدل على قسوة قسطنطين وسرعة تصديقه لما يقال ، في مناسبة مماثلة . ذلك أن الفيلسوف السوري سوباتر Sopater كان يحظى بصداقة الامبراطور ، وأثار بذلك سخط أثاناسيوس ، والوالي البريتوري . وحدث أن أسطول القمح تأخر في طريقه لعدم هبوب الرياح الجنوبية ، فاستاء لذلك أهل القسطنطينية ، وأمر الامبراطور بقطع رأس سوباتر بتهمة أنه قيد الرياح بقوة سحره . ويضيف سويدان Suidas أن قسطنطين أراد أن يثبت بهذا الحكم أنه نذ خرافة الكفار نذا مطلقا . . .

غير أن موت ذلك الأمير عرض أثناسيوس للاضطهاد مرة ثانية ، وسرعان ما انضم قيسطنطين ، جاكم الشرق ، الى حزب يوسوبوس وتواطأ معه سرا . ثم اجتمع فى أنطاكية تسعون أسقفا من أساقفة تلك الطائفة أو ذلك الحزب تحت ستار الإدعاء يتدشين الكاتدرائية . وهناك صاغوا عقيدة مبهمه تصطبغ بصبغة خفيفة بلون مذهب أشباه الإريوسيين Semi-Arianism ، ووضعوا خمسا وعشرين قاعدة دينية ما تزال تفسر عليها عقيدة اليونان الأرثوذكس . وتقرر ، فى شئ من مظهر العدالة ، أن الأسقف الذى يصدر مجلس كنسى أمرا يفصله ، يجب ألا يباشر مهامه الأسقفية مرة ثانية الا اذا برأه حكم صادر من مجلس كنسى آخر . وطبق القانون فى الحال على قضية أثناسيوس ، وحكم مجلس أنطاكية ، أو قل أكد الحكم بتجريدته من رتبته الدينية : ثم عين أسقفا غريبا اسمه جريجورى على كرسى الأسقفية ، وصدر الأمر الى فيلاجريوس وإلى مصر بأن يؤيد الأسقف الجديد بما للولاية من سلطات مدنية وعسكرية . وعندها شعر أثناسيوس بالظلم الذى حاق به من جراء مؤامرة الأساقفة الآسيويين ، رحل عن الاسكندرية وقضى ثلاث سنوات منفيا يعيش فى كنف أعتاب الفاتيكان المقدسة . وهناك ثابر على دراسة اللغة اللاتينية ، واستطاع بذلك أن يفاض رجال الدين الغربيين ، كما تمكن بشئ من الاطراء والملق المذهب من أن يؤثر فى الحبر الأعظم المتشامخ « يوليوس » ويوجه تفكيره ، ثم استماله الى وضع ظلامته موضع اهتمام خاص من الكرسى البابوى وانتهى الأمر الى أن مجلسا يتألف من خمسين أسقفا من أساقفة ايطاليا أعلن على الملأ براءته بالاجماع . وبعد ثلاث سنوات استدعى الامبراطور قونستانتز Constans الأسقف أثناسيوس للتوجه الى بلاط ميلان . ورغم انغماس الامبراطور فى ملذاته غير المشروعة فانه كان لا يزال يجهر باحترامه للعقيدة الأرثوذكسية الصحيحة . واستخدم تأثير المال لتأييد قضية الحق والعدالة ، ونصح وزراء قونستانتز ملكهم بأن يعقد جمعية كنسية تمثل الكنيسة الكاثوليكية . وبناء على ذلك تقابل أربعة وتسعون أسقفا من الغرب وستة وسبعون من الشرق فى مدينة سريكا (صوفيا) الواقعة على حدود الامبراطوريتين والداخلية فى أراضي الامبراطور حامي أثناسيوس . وسرعان ما انحطت مناقشتهم الى مستوى المهاترات العدوانية ، فانسحب الآسيويون ، خوفا على سلامة اشخاصهم ، الى مدينة فيليبى فى تراقيا ، وصبت المجامع الدينية المتنافسة غضبها الروحانى بعضها على البعض الآخر ، ورمى كل فريق منها الفريق الآخر ، بدافع من الورع والتقوى ، بأنه عدو الرب الصحيح . ثم أعلنوا قراراتهم ،

بعد التصديق عليها ، كل مجمع فى ولايته ، أما أثناسيوس الذى كان يعتبر فى الغرب فى مصاف القديسين وكان موضع التبجيل والاحترام ، فقد أصبح موضع كراهية الشرق ، وشهر به كرجل مجرم وقد أظهر مجلس سبرديكا (صوفيا) أول أعراض التنافر والانشقاق بين الكنائس اليونانية والكنائس اللاتينية التى كان عامل الانفصال بينها خلافا عرضيا من حيث المذهب ، وفارقا دائما من حيث اللغة .

وخلال فترة نفى أثناسيوس الثانية فى الغرب كثيرا ما كان يسمح له بالمثل أمام حضرة الامبراطور ، فى كابوا ولويدى وميلان وفيرونا وبادوا واكويلا وتريف ، وجمت العبادة أن يحضر هذه المقابلات أسقف الأبرشية كما أن رئيس الديوان كان يقف أمام سائر الغرفة المقدسة ، ومن ثم كان فى مقدور هذين الشاهدين الجليلين أن يشهدا باعتدال أثناسيوس اعتدالا ثبت عليه ولم يجد عنه ؛ ومما لا شك فيه أن الحكمة كانت تقتضى أن يتوخى أثناسيوس لهجة الاجتدال والإجلال التى تلائم مركزه كأسقف وكواحد من الرعية . وفى هذه الاجتماعات التى كان يعقدها جاهل الغرب وكانت تسودها الألفة ، كان أثناسيوس يأسف لخطا قسطنطيوس ، ولكنه كان يهاجم فى جراءة كل ما اقترفه خصيائه وأساقفته الأريوسيون ، ويرثى محنة الكنيسة الكاثوليكية والخطر وعظمته . ولقد أعلن الامبراطور عزيمته على استخدام جيش أوربا المحدث بها ، ويحفز قونستانز على أن يحدو حذو أبيه فى حماسه واثمائها لنصرة القضية الأرثوذكسية الصحيحة ، وأرسل إلى أخيه قسطنطيوس رسالة وجيزة خاسمة ذكر له فيها أنه إذا لم يوافق على إعادة أثناسيوس ، فإنه هو نفسه ستوف يحضر على رأس جيش واسطول ليجلس رئيس الأساقفة على كرسى الاسكندرية . وقد بادر قسطنطيوس إلى قبول طلب أخيه ، وتفضل امبراطور الشرق بتحقيق الصلح مع فرد من رعيته كان قد ألحق به الأذى ، وبذلك حال دون اشتعال حرب دينية بين شقيقتين ، كان نشوبها أمرا عظيما يجافى الطبيعة ، وأنه ظنر أثناسيوس فى عزة نفس كريمة حتى تسلم من الامبراطور ثلاث رسائل متوالية تفيض بالقوى التأكيدات بأنه سوف يكون فى حماء وموضع رعايته وتقديره . ودعا الامبراطور فى هذه الرسائل إلى الرجوع إلى كرسى أسقفية ، وأضاف إلى تلك الدعوة احتياطا مذكرا بأنه كلف وزراء بضممان صدق نواياه . وقد دلت الامبراطور على حسن نواياه هذه بصورة أكثر علانية بأن أصدر أوامره إلى مصر بأن تستدعي كل أنصار أثناسيوس ، وتعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم ، وتعلن براءتهم ، وتمحو من المسجلات العامة تلك الاجراءات غير المشروعة التى دونت فيها حين

كان حزب يوسوبوس هو سيد الموقف . بعد أن منح الأسقف اثناسيوس كل أنواع الترضية والضمان التي تتطلبها العدالة ، بل وتقتضيها الكياسة ، بدأ رحلاته البطيئة الى مصر مارا بتراقيا وآسيا وسوريا ، وقد تميزت رحلاته هذه بما أبداه أساقفة الشرق من خضوع مهين أثار احتقاره لهم دون أن يخدع بصيرته النافذة . وفى مدينة أنطاكية قابل الامبراطور قسطنطين ، وتقبل فى حزم متواضع مجاملات مولاه واعتراضاته ، وتهرب من اقتراح الامبراطور الذى طلب فيه بأن يسمح لأتباع أريوس بكنيسة واحدة فى الاسكندرية بأن طلب أن يسمح لأتباعه هو فى مدائن الامبراطورية الأخرى بالمعاملة نفسها ، وهو مطلب بدا عادلا ومعتمدا من رئيس أساقفة مستقل الرأى لا يحابى ولا ينحاز . ودخل اثناسيوس عاصمته فى موكب المنتصرين ، وسط مظاهر ترحيب أهل الاسكندرية الذين ازدادوا تعلقا به بعد غيبته واضطهاده ، ثم مارس سلطته بقوة وصلابة فازدادت رسوخا وثباتا ، وذاعت شهرته من اثيوبيا الى بربلانيه فى طول العالم المسيحى وعرضه .

غير أن التابع الذى أجبر مليكه على المראה والتظاهر لا يمكن أن يتوقع منه تسامحا مخلصا دائما ، وسرعان ما حل المصير المحزن بالامبراطور قونستانز ، فحرم اثناسيوس بذلك من ظهير قوى كريم . ثم نشبت بين قاتل قونستانز وبين شقيق الامبراطور الوحيد الذى بقى على قيد الحياة حرب أهلية كانت بلاء شغل الامبراطورية أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها أتاححت للكنيسة الكاثوليكية فترة راحة وأصبح الفريقان المتنازعان راغبين فى كسب صداقة الأسقف اثناسيوس الذى يستطيع بقوة سلطانه الشخصى أن يقرر القرارات المتقلبة التى تصدرها ولاية لها أهميتها ، واستقبل اثناسيوس سفراء الطائفة التى قتل قونستانز ، واتهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرى به . غير أن الامبراطور قسطنطيوس أكد مرارا لأبيه الرومى اثناسيوس ، أجل الآباء وأقربهم الى قلبه ، بأنه رغم الاشاعات الخبيثة الحقودة التى كان يروجها أعداؤهما المشتركون ، فإنه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو اثناسيوس كما ورث عرشه . وكان حريا بعرفان الجميل والعاطفة الانسانية أن يدفعوا أسقف مصر الى الرثاء للمصير المحزن الذى حل بالامبراطور قونستانز قبل أوانه وأن يستفزع جرم قاتله ماجننتيوس Magnentius غير أنه كان يدرك فى جلاء أن مخاوف قسطنطيوس هى ضمانه الوحيد ، ومن ثم فقد رأى أن يخفف من حرارة صلواته من أجل نجاح القضية العادلة . ولم تعد محاولة القضاء على اثناسيوس وقفا على فئة قليلة من الأساقفة الغاضبين المتعصبين

الذين يضررون له الحق والكراهية، بل ان الملك قسطنطيوس نفسه اعتزم
أمرا طالما كبته وأخفاه وهو الانتقام لما لحق بشخصه من أذى . وفى
أول شتاء قضاه فى مدينة آرل بعد انتصاره ، أخذ يستغل الوقت فى
مناهضة عدو يضر له فى نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التى كان
يضرها لطاغية اقليم الغال الذى قهره .

مجالس آرل وميلان

لو أن الامبراطور كان قد أوحى له مزاجه وهواه أن يقرر قتل
أعظم مواطنى الجمهورية مقاما وأنبلهم خلقا ، لما تردد وزراؤه من أنصار
العنف السافر أو الظلم المستتر فى تنفيذ هذا القرار المتسم بالقسوة .
غير أن الصعوبة التى لقيها الامبراطور فى اداة وعقاب الأسقف المحبوب ،
بالاضافة الى ما تورخاه من حرص وتأخير فى هذا الشأن ، كل أولئك
أظهر للعالم أن حقوق الكنيسة قد أحييت فى الحكومة الرومانية شعورا
بالنظام والحرية . ولم يكن قد صدر صراحة ما يلغى الحكم الذى أصدره
مجمع صور وأيدته أغلبية كبيرة من الأساقفة الشرقيين ، وبما أن
اثناسيوس ، بمقتضى ذلك الحكم الصادر من اخوته الأساقفة ، كان قد
أنزل من مقامه الأسقفى ، فان أى إجراء تال لذلك الحكم كان يمكن
اعتباره إجراء شاذا ، بل واجراميا . غير أن ذكرى التأييد القوي
الفعال الذى لقيه أسقف مصر من اتصاله بالكنيسة الغربية أجبرت
قسطنطيوس على إيقاف تنفيذ الحكم حتى يحصل على موافقة الأساقفة
اللاتين . وانصرم عامان فى مفاوضات كنسية ، ونوقشت القضية الهامة
القائمة بين الامبراطور وأحد افراد رعيته مناقشة جدية فى مجمع آرل
أولا ، ثم فى مجمع ميلان الكبير الذى انتظم ثلاثمائة من الأساقفة .
وتداعت نزاهة هؤلاء الأساقفة شيئا فشيئا أمام حجج أنصار أريوس ،
ومهارة الخصيان ، ووسائل الاغراء والضغط التى مارسها الامبراطور
الذى روى ظما انتقامه على حساب كرامته ، وأفصح عن أهوائه
الشخصية بالطريقة التى اتبعها فى التأثير على أحاسيس رجال الدين .
ولجأ كذلك ، وبصورة ناجحة ، الى أسلوب الفساد ، وهو أشد أعراض
الحرية الدستورية فعالية ، فعرض الهدايا والحصانات وصنوف التكريم
ثمنا للحصول على أصوات الأساقفة (*) ، وصادف هذا العرض قبولا من

(*) ورد ذكر الهدايا والولائم وأساليب التكريم التى أغرت كثيرا من الأساقفة ، فى
أقوال أولئك الأساقفة الذين أبى عليهم كبرياؤهم أو نقاؤهم أن يقبلوها ، وكانت كلها
موضع سخطهم وازدراءهم . يقول هيلارى أسقف براتيه : « اننا نقاتل قسطنطين عدو
المسيح ، الذى يداعب البطون بدلا من أن يلهب الظهور بالسياط ، »

الأساقفة ، وصورت ادانة أسقف الاسكندرية بطريقة مأكرة على أنها
الأجراء الوحيد الذى يمكنه ان يرد الى الكنيسة الكاثوليكية سلامها
ووحدةها . غير ان اثناسيوس لم يعدم الاصدقاء الذين كانوا على استعداد
للوقوف الى جانبه والى جانب قضيتهم ، فثبتوا فى المناقشات العامة
وفى أحاديثهم الخاصة مع الامبراطور على الالتزام الأبدى بالدين والعدالة
تحفزهم على ذلك روح الرجولة والشهامة التى قلل من خطورتها ما كانوا
يتصفون به من طابع القدسية . واصلوا أنه لا الأمل فى حظوة الامبراطور
ولا الخوف من غضبه يمكن أن يرغمهم على الاشتراك فى ادانة أخ
غائب برىء له احترامه . وأكدوا على أساس ظاهر من الحق ان القرارات
العقيمة غير المشروعة التى أصدرها مجلس صور قد أصبحت فى حكم
اللفافة ضمنيا بفعل المراسيم الامبراطورية ، وبحكم إعادة كبير الأساقفة
الى كرسي الاسكندرية بصورة مشرفة ، وبسكوت أكثر أعدائه صخبنا
او بانكارهم أقوالهم السابقة عنه . وقالوا ان أساقفة مصر جميعا قد
شهدوا ببراءته ، كما أقرتها مجالس روما وسريكا (صوفيا)
بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيزة . ثم أبدوا أسفهم لدقة
موقف اثناسيوس الذى يطلب اليه الآن ان يدحض اثناعشر الاتهامات التى
لا أساس لها بعد ان تمتع سنوات عدة بمركزه وبسمعته وبما كان يبدية
ملكه من ثقة فيه . ولقد كانت لغتهم منمقة مهذبة ، ومسلكتهم شريفا ،
غير ان الصراع كان طويلا عنيدا ، وكان من شأنه ان تركزت أبصار
الامبراطورية كلها على أسقف واحد ، ومن ثم فان مختلف الأحزاب
الكنسية كانت على استعداد للتضحية بالحق والعدالة فى سبيل هدف
أكثر أهمية لهم ، وهو الدفاع عن ذلك النصير الجرىء لعقيدة نيقيا
بالنسبة لبعض الأحزاب أو التخلص منه بالنسبة للبعض الآخر . ولقد
راى أتباع آريوس انه من الحكمة ان يخفوا أحاسيسهم ويخفوا حيلهم الخفية
فى لغة ملتبسة ، غير ان أساقفة المذهب الصحيح الأرثوذكسى ، المزودين
بحظوة الشعب وقرارات صادرة من مجلس عام ، أصروا فى كل مناسبة ،
وخاصة فى ميلان ، على أن خصومهم يجب عليهم أن يظهروا أنفسهم
من شبهة الهرطقة قبل أن يجرؤوا على اتهام مسلك اثناسيوس العظيم .

غير أن صوت الحق (اذا كان الحق فى جانب اثناسيوس فعلا)
استكته أصوات صاخبة رفعتها أكثرية مغرضة أو أكثرية باعت ضمايرها .
ولم تنفض مجالس اربيل وميلان حتى صدر حكم الكنيسة الغربية
الكنيسة الشرقية على السواء بادانة أسقف الاسكندرية وعزله من
مناصبه . ودللب الى الأساقفة الذين كانوا فى صفوف المعارضة ان يقرروا

الحكم ، وأن يتحدوا فى مشاركة دينية مع زعماء الفريق المضاد الذين كانوا موضع شبهتهم . أما الأساقفة الذين لم يحضروا الاجتماع فقد حمل اليهم رسل الدولة اقرارات للتوقيع عليها بالموافقة ، أما الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم الخاصة والخضوع للقرارات الحكيمة المهمة التى أعلنتها مجالس آرل وميلان ، فقد أصدر الامبراطور أمرا بنفيهم مباشرة ، متظاهراً فى ذلك بأنه إنما ينفذ قرارات الكنيسة الكاثوليكية . ونخص بالذكر ، من بين أولئك الأساقفة الذين تزعموا الفريق الشريف التمسك بعقيدته ، والذين صدر الأمر بنفيهم ، ليبريوس أسقف روما ، أوزيوس أسقف قرطبة ، بولينوس أسقف تريف ، ديونيسيوس أسقف ميلان ، يوزيليوس أسقف فرسيلي ، لوستيفر أسقف كاليستارى وهيلارى أسقف بواتييه ، وكان الأسقف ليبريوس يتمتع بمكانة رفيعة . ويتحكم فى عاصمة الامبراطورية ، كما أن الأسقف المبجل أوريجوس كان يتصف بميزات شخصية وخبرة طويلة ، وأصبح موضع الاحترام والتبجيل بفضل ما كان له من حظوة لدى قسطنطين العظيم ، وبحكم كونه واضح عقيدة نيقيا وراعيها . كل تلك الصفات وضعت هذين الأسقفين على رأس الكنيسة اللاتينية ، ومن ثم فقد كان من المحتمل أن يسير جمهور الأساقفة وراءهما اذا استسلما أو اذا قاوما . غير أن المحاولات المتكررة التى بذلها الامبراطور لاغراء أو ارهاب أسقف روما وأسقف قرطبة ظلت عديمة الجدوى فترة من الوقت . فأعلن الأسقف الأسباني أنه على استعداد لتحمل الآلام تحت حكم قسطنطيوس كما تحملها منذ ستين عاماً تحت حكم جده ماكسيميان . أما أسقف روما فقد أكد فى حضرة مليكه براءة اثناسيوس وأصر على أنه من ناحية الشخصية حر فيما يرى ويعتقد . وعندما نفى الى مدينة بريا Beraea فى تراقيا ، أعاد الى الامبراطور مبلغا كبيرا من المال كان قد منحه اياه لتيسير رحلته ، وطعن بلاط ميلان بملاحظة أبدائها قائلا ان الامبراطور وخصيانه قد يكونون فى حاجة الى ذلك الذهب للانفاق على جنودهم وأساقفتهم . غير أن محسن الأسر والنفى التى قاساها ليبريوس وأوزيوس أرغمتها فى نهاية الأمر على التخلي عن عزمها وتصميمها . فاشترى أسقف روما عودته بشتى صنوف الامتثال المشين ، ثم كفر عن ذنبه بعد ذلك بما يناسب الذنب من ندم وتوبة . أما أسقف قرطبة ، وهو الشيخ المتداعى ، فقد استخدم معه الامبراطور وسائل الاغراء والعنف حتى اكراهه على التوقيع بالموافقة ، وكان قد وهن العظم منه وانتاب العجز قدراته ومواهبه تخت وطأة مائة من سنوات العمر . وكان هذا الفوز الدنى الذى ناله أتباع آريوس حافزا لبعض أبناء

المذهب الصحيح على أن يعاملوا شخص هذا الرجل اليأس الهرم ، أو قل ما كان له من ذكرى ، معاملة قاسية وحشية ، رغم أن المسيحية نفسها كانت مدينة لخدماته الجليلة السابقة أثقل الدين .

ولقد أضفى استسلام ليبريوس وأوزيوس بريقا أكثر توهجا على صمود أولئك الأساقفة الذين ظلوا متمسكين في ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية اثناسيوس وبالحقيقة الدينية . وكان الحقد الخبيث الذي ملا صدور أعدائهم قد أوحى اليهم أن يحرموهم من تبادل النصيح والسلوى ، فباعدوا بين هؤلاء الأساقفة اللامعين بنفيهم إلى ولايات نائية ، وحرصوا على أن ينتقوا لهم أكثر بقاع الامبراطورية وحشة وأقلها ترحيبا بالموافدين (*) . غير أن الأساقفة سرعان ما وجدوا أن صعراوات ليبيا وأشد بقاع كبادوكيا وحشة كانت أكثر حذبا عليهم من المقام في تلك المدن التي يستطيع أن يشيع فيها أسقف من أتباع آريوس ، دون قيد أو حد ، ذلك الحقد المحموم الذي تنفثه الكراهية الدينية . وكان يشد من عزائمهم شعورهم بصواب مسلكهم وباستقلالهم في الرأي ، وتأييد وزيارات أنصارهم ، وما كان يبعثه اليهم هؤلاء الأنصار من خطابات وصادقات سخية . وكذلك كانوا يستمدون العزاء من تلك الراحة التي سرعان ما أحسوا بها عندما وضحت لهم الانقسامات الداخلية القائمة بين أعداء عقيدة نيقيا . ولقد كان الامبراطور قسطنطين حاد المزاج شديد القلب ، وسرعان ما كان يستشيط غضبا إذا لمس اتفه انحراف عن مبدأ العقيدة المسيحية المرسوم في خياله ، وقد دفعه هذا الخلق إلى حسب نغمته ، وبالحماس نفسه ، على القائلين بأن الآب والابن من مادة واحدة ، وعلى المؤيدين لفكرة أنهما من مادة مماثلة ، وعلى أولئك الذين ينكرون التشابه بينهما . وكان يحدث أن يجتمع في منفى واحد ثلاثة أساقفة جردوا من رتبهم وأبعدوا إلى المنفى لاعتناقهم هذه الآراء المتضادة ، فكان الواحد منهم ، حسبما تولى عليه طابعه وخلقه ، يرثى لما يتخلف به خصومه من حماس أعمى ، أو يندد بذلك الحماس الذي سبب لهم جميعا من الآلام إذ ذاك ما لا يمكن أن تعوضهم عنها أية سعادة مستقبلية .

(*) نفس قساوسة الغرب تبعوا لهم صعراوات بلاد العرب أو طيبة ، وإلى البقاع الموحشة بجبال طوروس ، وإلى قفار إقليم فريجيا التي كانت في يد الزنادقة « النصارى » (النصارى منتانوس) . وعندما عمل أيتيوس Anitus الخارج على الدين معاملة طيبة أكثر مما ينبغي في مويسوستيا في قبايقيا ، نصح اكاسيوس بتغيير مقامه إلى أنسلادا ، وهو إقليم يقطنه المتوحشون وتسوده الأوبئة والحروب .

وكان القصد من نفي الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح والحق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه . وكانت قد انقضت ستة وعشرون شهرا جاهد فيها البلاط سزا وبأخبث أنواع الحيل لخلعه من الاسكندرية وحرمانه من المنحة التي كان ينفق منها يسخاء على الشعب . وعندما تخلت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر ووافقت على إبعاده ، وأصبح من جراء ذلك محروما من أى سند أجنبى أرسل قسطنطين اثنين من أمناء بصره بتكليف شفى أن يعلنا الأمر بنفيه ويقوما بتنفيذه . ولما كان فريق الأساقفة كله قد أقر علانية عدالة الحكم على أثناسيوس فإن الدافع الوحيد الذى منع قسطنطينوس من اعطاء رسلة تفويضا كتابيا بتنفيذ الحكم هو شكه فيما سوف يحدث وشعوره بالخطر الذى قد تتعرض له المدينة الثانية فى الامبراطورية وأكثر ولاياتها خصبا اذا ما أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحى . وهذا الحرص الزائد من جانب الامبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بأنه فى كثير من الاحترام يشك فى صحة هذا الأمر الصادر بنفيه والذى يتنافى مع عدالة مليكه الكريم ومع تصريحاته السابقة . أما السلطات المدنية فى مصر فقد وجدت نفسها عاجزة من القيام بمهمة حث أو ارغام الأسقف على التخلي عن كرسى الأسقفية ، واضطرت الى عقد معاهدة مع زعماء شعب الاسكندرية اتفق فيها على إيقاف كل الاجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الامبراطور فى وضوح أكثر . وقد انخدع الكاثوليك بهذا الاعتدال الظاهرى وأحسوا بأمان لم يكن الا أمانا زائفا مميتا ، على حين كانت جيوش مصر العليا وليبيا قد صدرت اليها الأوامر سرا بالمتقدم على عجل لمحاصرة أو قل لمباغطة عاصمة درجت على التمرد والعصيان واشتعلت بالحماس الدينى . وكان موقع الاسكندرية ، بين البحر وبحيرة مريوط ، عاملا سهلا على الجيوش أن تقترب منها وتدخل قلب المدينة قبل أن تتخذ أية خطوات لغلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة . وفى منتصف اليوم الثالث والعشرين بعد توقيع المعاهدة شن سيريانوس أمير مصر ، على رأس خمسة آلاف من الجنود المسلحين المتأهبين للقتال ، هجوما فجائيا على كنيسة سانت ثيودناس حيث كان الأسقف مع فريق من القساوسة والشعب يؤدون صلواتهم الليلية . وتداعت أبواب المعبد المقدس تحت وطأة الهجوم الذى اقترن بكل فظائع الشغب واراقة الدماء . وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية الى اليوم القالى دليلا قاطعا فى حوزة الكاثوليك ، ومن ثم فان مغامرة سيريانوس يمكن أن تعتبر غارة ناجحة أكثر منها غزوة كاملة . وقد

انتهكت حرمة الكنائس الأخرى فى المدينة باعتمادات مماثلة ، وتعرضت مدينة الاسكندرية خلال أربعة شهور على الأقل الى اهانات جيش اباخى خليج يلقى تشجيعا من رجال الدين المنتمين الى حزب معاد . وقتل فى هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا اهلا لاسم الشهداء على فرض أن موتهم لم يحدث نتيجة اثاره ولم ينتقم له . وعومل الأساقفة والقساوسة بقسوة مهينة ، وجردت العذارى الأطهار من ملابسهن ، ثم ضربن بالسياط واعتدى عليهن ، وكذلك نهبت منازل المواطنين الأثرياء . وتحت ستار من الحماس الدينى ، أشبع الجنون شهواتهم وأطاعهم وكرهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقابا ، بل قل أن فعالهم هذه كانت موضع الاستحسان . أما وثنيو الاسكندرية ، الذين كانوا إذ ذاك يكونون فريقا كبيرا متذمرا ، فقد أمكن اغراؤهم فى سهولة التخلي عن أسقف كانوا يخشونه ويقدرونه ، وكان أمل الحصول على بعض المزايا الخاصة ، والخوف من أن تنالهم العقوبات العامة المفروضة على الثوار ، من العوامل التى دفعتهم الى الوعد بتأييد خليفة اثناسيوس المنتظر المشهور ، جورج من أهل كبادوكيا .

وبعد أن رسم المعتصب بمعرفة مجلس دينى من اتباع آريوس ، أقامه على كرسى الأسقفية الوالى سيباستيان الذى كان قد عين أميرا على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة . وفى استحواد هذا الطاغية جورج على السلطة ، وفى استخدامه اياها ، لم يابه بقوانين الدين ومبادئ العدالة والانسانية ، فتكررت فى أكثر من تسعين مدينة أسقفية من مدائن مصر نفس مناظر الفضائح وأعمال العنف التى شهدتها العاصمة . ولقد شجع النجاح قسطنطيوس على تحبيذ مسلك وزرائه والمرافقة عليه فى رسالة علنية عاطفية بعث تهنئته على انقاذ الاسكندرية من طاغية شعبي كان يخدع ناخبه العميان بسحر فصاحته ، وأطلب فى مدح ما يتحلى به الأب الاقدس والأسقف المنتخب جورج من فضائل وتقوى ، وأعرب عن أمله ، بوصف كونه راعى المدينة وسيدها ، فى أن يبرز شهرة الاسكندر نفسه ، وأعلن فى حزم وجدية عن عزمه الأكيد على أن يتلعب بالسيف والزار أولئك المتمردين من انصار اثناسيوس الذى يعتبر تملصه من العدالة اعترافا منه بذنبه ، وهربا من الموت المشين الذى كان يستحقه .

وفى الحق أن اثناسيوس نجا من اشد الأخطار احداقا به ، ولا شك فى ان مخامراته تسترعى انتباهنا وتستحق اهتمامنا . وفى تلك الليلة المشهودة التى هاجمت فيها قوات سيرانايوس كنيسة سانت ثيونس .

كان رئيس الأساقفة جالسا على عرشه ينتظر مجيء الموت فى وقار هادىء جريء . وعندما قطعت صبيحات الغضب وصرجات الفرع حبل الصلاة العامة ، وارتعدت فرائض المصلين ، طلب منهم أن يعبروا عن ثباتهم الدينى بانشاد أحد مزامير داود الذى يذكر فيه انتصار رب اسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ . وأخيرا حطم العدو الأبواب وأطلق سيلاً من السهام على الناس ، واندفع الجنود بسيوفهم المسلحة نحو الهيكل المقدس ، وكانت المصابيح المقدسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم المخيف . وظل أثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقساوسة المحيطين به الذين ألحوا عليه فى ورع وتقوى أن يفسد المكان ، وأبى عليه نبلة أن يترك مكانه الأسقى حتى يخرج آخر فرد من المصلين . ثم وأتته فرصة الظلام والجلبة ومكنته من الانسحاب . ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويغطي عليه ، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة ، إلا أنه استرد شجاعته التى لا تقهر وتسلب من الجنود الذين كانوا يجدون فى البحث عنه ، والذين كان اتباع آريوس قد أوحوا اليهم بأن راسي أثناسيوس سوف تكون أحب هدية الى الامبراطور ، ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه ، وظل أكثر من ست سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ اليه الأبصار .

ولقد كان عدو أثناسيوس الحقود الذى لا يرحم يتمتع بسلطان ملا ربوع العالم الرومانى كله ، وحاول الملك الحائق الغاضب فى رسالة عاجلة ملحة بعث بها الى أمراء أثيوبيا المسيحيين ، أن يطردوا أثناسيوس من أكثر بقاع الأرض بعدا وعزلة ، واستخدم الأمراء والولاة والترييونات جيوشا بأكملها لمطاردة الأسقف الهارب . ولقد أثارت المراسيم الامبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية ، كما خصصت مكافآت سخية وعد بها أى رجل يجيء بالأسقف حيا أو ميتا ، وأنذر كل من يجرؤ على حماية هذا العدو العام بأشد العقوبات . غير أن صخراوات طيبة كانت إذ ذاك موطننا لقوم من المتغصبين يعيشون على القنطرة ولكنهم يتصفون بسهولة الانقياد ، وهؤلاء كاتوا يفضلون أوامر الراهب أثناسيوس على قوانين منيكم . واستقبل العديدون من اتباع أنظون وباخوم ذلك الاسقف الهارب كأبيهم الروحى وأعجبهم فيه تمسكة بأشد نظمهم ضرامة فى صبر وتواضع ، وتلقفوا كل كلمة نطق بها كأنها حكمة ملهمة أصيلة تنسكب من فمه ، واقنعوا أنفسهم بأن صنوااتهم وصومهم وسهرهم كانت كلها أقل شأننا من الحماس الذى اظهره والأخطار التى واجهوها فى الدفاع عن الحق

والبراءة . وكانت الأديرة المصرية قائمة فى أماكن موحشة مقفرة ، على رؤوس الجبال أو فى جزر نهر النيل ، وكان البوق المقدس فى تابن Tabenne هو الإشارة المعروفة لجمع عدة آلاف من الرهبان الأقوياء ذوى العزم ، الذين كان أكثرهم من فلاحى الريف المجاور . وعندما كانت الأماكن النائية التى يلجئون إليها تتعرض لغزو قوة عسكرية يستحيل مقاومتها ، كانوا يقدمون رقابهم فى سكون وصمت الى الجلال ، مظهرين بذلك طابعهم القومى وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينتزع من مصرى أى اعتراف بسر عقد العزم على عدم ائتمائه. ولقد كرسوا حياتهم فى غيرة وحماس لسلامة أسقف الاسكندرية الذى غاب عن الأنظار وسط جمهور منظم متحد ، وعندما كان يقترب الخطر ، كانت أيديهم الرحيمة تبادر الى إبعاده من مخبأ الى مخبأ حتى وصل الى الصحراوات النائية التى انتشر حولها من الخرافات المخيفة ما أدخل فى روع الناس أنها موطن للشياطين والوحوش الكاسرة . وظل أثناسيوس فى عزله هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس ، ولقد قضى أغلب هذه الفترة فى صحبة الرهبان الذين خدموه باخلاص كحراس ورسول وأمناء سر . ولكنه كان تواقا الى توطيد صلة وثيقة بالفريق الكاثوليكي ، وقد أغراه هذا ، كلما كانت تخف حدة المطاردة ونشاطها ، على الخروج من الصحراء والذهاب الى الاسكندرية حيث كان يلجأ الى فطنة أصدقائه وأنصاره ويأتمنهم على شخصه . وان مغامراته المختلفة لتكون فى مجموعها موضوعا لقصة رومانسية شائقة ، فقد حدث له ذات مرة أن اختبأ فى خزان ماء جاف ، وما كاد يغادره حتى وشت به امرأة من العبيد ، وفى مرة أخرى اختبأ فى ماوى أكثر غرابية ، وكان ذلك الماوى منزل عذراء لم تتجاوز العشرين من عمرها ، وتشتهر فى المدينة كلها بجمالها الرائع الفتان . ولقد قصت هذه الفتاة قصتها بعد سنوات من حدوثها ، فقالت انها فوجئت عند منتصف الليل بظهور الأسقف فى رداء عادى فضفاض ، ثم تقدم نحوها فى خطوات سريعة ، متوسلا إليها أن تأويه تحت سقف دارها المضياف ، وقال لها انه جاء ينشد حمايتها بناء على رؤيا سماوية تجلت له وقبلت العذراء التقية أن تحافظ على الرهينة المقدسة التى عهد الى حكمها وشجاعته برعايتها وحمايتها . ولم تبح بهذا السر لأحد ثم قادت أثناسيوس على الفور الى حرم مخدمها الأمين وتولت السهر على سلامته بحذب الصديق الوفى ومثابرة الخادم الأمين . وطالما كان الخطر قائما كانت تزوده بالمكتب والمؤن ، وتغسل قدميه ، وتدبر رسائله ، وحرصت فى براعة ومهارة على أن تخفى عن عيون الشبهات تلك الصلة الأليفة المنعزلة القائمة

بين قديس تتطلب أخلاقه أظهر عفة وانقاها ، وبين فتاة قد تثير مفاتها
أخطر العواطف (*) . وخلال السنوات الست التي قضاها أثناسيوس في
الاضطهاد والنفي ، لم ينقطع عن زيارته لرفيقته الحسناء المخلصة .
وبناء على ما أعلنه رسميا من أنه شاهد اجتماعي ريمنى وسلوقيا ، لأيد
لنا من أن نعتقد أنه كان موجودا بطريقة سرية في مكان انعقادهما وزمانه ،
كما أن المزاي التي كان يحصل عليها من التفاوض الشخصي مع أصدقائه ،
ومن مراقبة وتشجيع الانقسامات القائمة بين أعدائه ، كل أولئك كان يبرر
في نظر رجل سياسى حصيف كذلك الأسقف مثل تلك المعارضة الجريئة
الخطيرة ، هذا بالإضافة الى أن الاسكندرية كانت تتصل بملاحيا وتجاريا
مع كل ميناء من موانئ البحر الأبيض . ولقد شن الأسقف الجريء من
أعماق مخبئه المنيع حربا هجومية مستمرة ضد الإمبراطور حامي
الأريوسيين . وكان يتحين الأوقات المناسبة فيكتب آراء يوجهها في
مهارة ويطالعها الناس في شغف ، وأسهمت كتاباته هذه في توحيد
الفريق الأرثوذكسى وتقويته . وكان في اعتذاراته العلنية التي يوجهها الى
الإمبراطور يصطنع بين الحين والحين مديحا لمروح الاعتدال ، بينما
كان في الوقت عينه يوجه اليه سرا عبارات القدح المريرة ويرميه بأنه
حاكم خبيث ضعيف ، وبأنه جلد أسرته ، وطاغية الجمهورية وعمد
الكنيسة المسيحية . أما الملك المنتصر ، الذى عاقب جالوس Gallus
على تهوره ، وقمع ثورة سلفانوس ، وانتزع التاج من رأس فترانيو ،
وقهر فى ميدان القتال جحافل ماجننتيوس ، هذا الملك بعينه تلقى من يد
خفية ، هى يد الأسقف أثناسيوس ، جرحا بليغا لم يستطع البرء منه
أو الانتقام له . وكان ابن قسطنطين هذا أول ملك مسيحى يحس بقوة
لك المبادئ التي استطاعت ، فى سبيل القضية الدينية ، أن تقاوم أشد
وأقسى أعمال السلطة المدنية .

الطابع العام للطوائف المسيحية

ان القصة البسيطة التي تقص ابناء تلك الانقسامات الداخلية التي
ازعجت سلام الكنيسة والحقت العار بانتصارها ، انما تؤكد وجهة نظر
مؤرخ وثنى ، وتبرر شكوى أسقف مسيحى ميجل . فقد اقتنع أميانوس

(*) تحدث بالاديوس . المؤلف الاصيل لهذه الرواية ، مع تلك الفتاة بعد أن
تقدم بها العمر . وكانت لا تزال تذكر فى غبطة وسرور تلك العلاقة الصالحة الشريفة .
وليس فى مقدورى أن أجيز كياسة بارونىوس وفاليسيوس وتلمونذ وغيرهم ممن لا يؤمنون
بصحة هذه الرواية التي يرون انها لا تتناسب مع جدية التاريخ الكنسى .

Amnmanus ، نتيجة تجربته الخاصة ، بأن العداوة القائمة بين المسيحيين كانت أشد من هياج الوحوش الكاسرة ضد الانسان : أما جريجورى نازيانزن فإنه يرثى فى أشد ما يكون من الحزن لما آلت اليه حل المملكة المسيحية ، ملكة الله ، التى مزقتها الخلافات وحولتها الى الى صورة للفوضى ، ولعاصفة تهب فى الظلام ، بل وجعلتها صورة من الجحيم نفسه . أما كتاب ذلك العصر الذين اتصفوا بالقسوة والتجيز ، فقد كان كل فريق منهم ينسب الفضائل كلها الى نفسه ، ويلقى الذنب كله على اكتاف خصومه ، ومن ثم فقد صوروا الوضع على أنه معركة بين الملائكة من جانب والشياطين من الجانب الآخر . غير أننا إذا توخينا التفكير الهادئ السليم ، فلا بد لنا من أن نأبى مثل هذا التصوير الذى يمثل فريقا بأنه الرذيلة الكاملة الخالصة ، ويمثل الفريق الآخر بأنه القدسية البحتة التى لا تشوبها شائبة ، وأن ننسب الى كل من الطائفتين المتخاصمتين قسما متساويا ، أو على الأقل قسما غير مدميز ، من الخير والشر معاً . هاتان الطائفتان هما اللتان اتخذت واجدة منهما لنفسها اسم الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على الأخرى اسم الهرطقة . ولقد تعلمت الطائفتان ديانة واجدة ونشأنا فى مجتمع مدنى واحد ، وكانت آمالهما ومخاوفهما فى حاضر الزمان ، أو فى حياة مستقبلية ، متوازنة بنسبة واحدة . وقد يكون الخطأ فى هذا الجانب أو ذلك خطأ بريئاً ، والإيمان مخلصاً صائباً ، أما التصريف فقد يكون فاسداً أو صالحاً . وكانت عواطفهما تندفع نحو أهداف متعائلة ، كما أن كلا منهما كانت تسعى استغلالاً حظوة تنالها لدى الإبلط أو لدى الشعب . ولم تستطع الآراء المتباينة التى كان يعتنقها أتباع أثناسيوس وأتباع آريوس أن تؤثر فى طابعهم الخلقى ، وكانوا جميعاً وعلى السواء مدفوعين بروح عدم التسامح التى استخلصوها تفتناً من تفسيرهم للمبادئ النقية البسيطة الواردة فى الإنجيل المقدس .

وثمة كاتب حديث ، رأى فى ثقة صائبة أن يصف التاريخ الذى كتبه هو بصفتين كريمتين هما أنه تاريخ سياسى وفلسفى ، هذا الكاتب يتهم الفيلسوف مونتسكيو Montesquieu بالحرص والتهيب لأنه لم يضم الى أسباب اضلال الامبراطورية قانوناً أصدره قسطنطين والغى بمقتضاه الغاء تاماً ممارسة العادة الوثنية ، وترتب على ذلك أن أصبح جزء كبير من رعاياه مبروما من الكهنة والمعابد ومن أية ديانة علنية . ومن الواضح أن حماس هذا المؤرخ الفيلسوف لحقوق الانسان قد أغراه على قبول الأقوال المبهمة التى قالها بعض رجال الكنيسة ونسبوا فيها الى بطلهم المحبوب قسطنطين أنه شن حملة اضطهاد عامة ، معتبرين

ذلك ميزة فيه . ونحن لا نريد أن نؤكد هذا القانون المزعوم الذى ، لو أنه صدر فعلا ، لتألق واحتمل مكان الصدارة بين القوانين الامبراطورية فلا تخطئه الأبصار . وبدلا من ذلك ففى مقدورنا دون خوف من الزلل أن نرجع الى الرسالة الأصلية التى وجهها قسطنطين الى اتباع الديانة القديمة فى وقت لم يعد يخفى فيه تحوله هو الى الديانة المسيحية الجديدة أو يخشى من كانوا ينافسونه على العرش . وهو فى هذه الرسالة يحث رعايا الامبراطور ويحضهم بأقوى العبارات على احتذاء مثل ملكهم ، ولكنه يعلن أن أولئك الذين لا يزالون يرفضون فتح أبصارهم لأضواء السماء فى مقدورهم أن يتمتعوا بمعابدهم وبآلهتهم الموهومة . ومما ينقض القول بأن الاحتفالات الوثنية قد أوقفت أن الامبراطور نفسه كان من الحكمة بحيث يقرر أن مبدأ تسامحه واعتداله انما يقوم على أساس أنه يأخذ فى اعتباره قوة العادة التى لا يمكن التغلب عليها ، وقوة التحيز وقوة الخرافات . ولم ينقض الامبراطور البارع قدسية وعده ، ولم يثر مخاوف الوثنيين ، ولكنه اتخذ خطوات بطيئة حريصة لتقويض صرح تعدد الآلهة الذى كان صرحا مزعزعا متداعيا . أما القليل من أعمال العنف التى كان يلجأ إليها بين الصين والآخر ، فمع أن الباعث الخفى عليها كان حماسه المسيحى ، إلا أنه كان يصطنع لها أرق الألوان ، ويدعى أنه مدفوع فى ذلك بدافع العدالة والصلح العام . وفى الوقت الذى كان قسطنطين يعمل فيه على تقويض أسس الديانة القديمة ، كان يتظاهر بأنه يهذب من مساوئها . ولقد سار على نهج أقل أجداده وأكثرهم حكمة فادان أساليب الكهانة السرية الضالة ، وترعد أصحابها بأشيد العقوبات وأقساها لأنها أساليب كانت تثير فى الساجدين على أجوالهم الخاصة آملا كاذبة ، وتغريهم فى بعض الأحيان على ارتكاب الجرائم والموبقات . ثم أخرج أصوات الكهان وفرض عليهم صموتا مشينا واتهمهم علانية بالغش والزيف ، وكذلك ألغى وجود الكهنة المخنثين الذين كانوا يقيمون فى وادى النيل وأجند على عاتقه القيسام بأعمال رقيق رومانى ، فأجند أمره بهدم عدة معابد فينيقية كانت تمارس فيها كل ضروب الدجاجة فى وضج النهار تكريما لربة العقيق والجميل ، فينوس . وفى الحق أن المدينة الامبراطورية القسطنطينية - قامت الى حد كبير على حساب المعابد الفخمة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان وفى آسيا ، وزينت بما أخذ منها من أسلاب . وقد صودرت الممتلكات المقدسة ، ونقلت تماثيل الآلهة والأبطال دون احترام أو تسجيل ، على مرأى من شعب كان لا يعتبرها موضع عبادة واجلال بل موضع طرافة واستطلاع ، وأعيد الذهب والفضة الى التداول ، واستغل الحكام والأساقفة والخصيان

هذه الفرصة السعيدة المواتية في ارضاء حماسهم وطمعهم واستيائهم .
غير أن عمليات النهب هذه اقتصرت على جزء صغير من العالم الرومانى
ودرجت الولايات زمنا طويلا منذ ذلك الوقت على تحمل مثل هذا السلب
وتدنيس الأماكن المقدسة من جانب حكام الرومان وللاتهم الذين كانوا
يعيدون عن شبهة القيام بأى عمل لتقويض الديانة القائمة .

وجرى أبناء قسطنطين على منوال والدهم بمزيد من الحماس وفى
حرص أقل ، فازدادت (*) أعمال النهب والظلم دون أن يستشعر مرتكبوها
خجلا ولقى مسلك المسيحيين غير المشروع كل تغاض وتسامح بينما كان
كل شك فى مسلك الوثنيين يفسر ضد مصلحتهم ، وأصبح هدم المعابد
من الأحداث السعيدة التى يحتفل بها فى عهد كونستانتز وقسطنطيرس .
وقد صدر قانون باسم قسطنطيرس لم يجعل هناك حاجة لاصدار أى حظر
جديد فى المستقبل . يقول القانون :

« فلتكن مشيئتنا أن تغلق المعابد على الفور فى كل الأماكن وفى
جميع المدن ، وتوضع تحت حراسة مشددة ، حتى لا يستطيع أحد أن
يرتكب أية اساءة . ولتكن مشيئتنا أيضا أن يمتنع كل رعايانا عن تقديم
الذبايح ، وإذا اقترف أى انسان مثل هذا الذنب ضربنا رقبته بسيف
نقمطنا ، وصودرت أملاكه بعد قتله لصالح المنفعة العامة . وإذا أهمل
حكام الولايات معاقبة المجرمين حل بهم القصاص نفسه » .

غير أن هناك من أقوى الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المرسوم
الرهيب كتب دون أن ينشر، أو نشر دون أن ينفذ. فدليل الحقائق، والآثار
الرخامية والنحاسية التى ما تزال قائمة إنما تثبت أن الوثنيين ظلوا
يمارسون عباداتهم طوال عهد أبناء قسطنطين . وفى الشرق وفى الغرب
على السواء ، وفى المدن كما فى الريف ظل عدد كبير من المعابد موضع
الاحترام ، أو ترك كما هو على الأقل دون أن يمسه سوء ، واستمرت
الجماهير المتعبدة تتمتع بترف تقديم الذبايح ، وبالاحتفالات والمواكب
بأذن من الحكومة المدنية ، أو بالتغاضى من جانبها . وبعد انقضاء أربع
سنوات على هذا المرسوم الدموى المزعوم قام قسطنطيرس بزيارة معابد

(*) يتحدث أميانوس عن أن بعض خصيان البلاط كانوا ينهبون خبز المعابد ،
ويقول ليبيانيوس أن الامبراطور كان يتخلص من المعبد كما لو كان كلبا أو حصانا أو
عبدا أو كاسا ذهبية . غير أن الفيلسوف التقي يحرص على القول بأن هؤلاء الاخضاء
الأرجاس قلما كان النجاح والتوفيق نصيبهم .

روما ، وكان مسلكه الرقيق المذهب موضع اطراء وثناء فى خطاب القاه
وثنى ووصفه بأنه مثل جدير بأن يحتذيه الملوك من بعده . يقول سيماخوس
Symmachus : « لقد أقر ذلك الامبراطور بحق العذارى العفيفات فى
البقاء مكرمات مصونات ، وأنعم على نبلاء روما بالقباب التكريم الكهنوتية ،
ومنح المال المعتاد منحة للوفاء بنفقات الشعائر والذبائح العامة ، ورغم
أنه قد اعتنق ديننا مختلفا ، الا أنه لم يحاول أبدا أن يحرم الامبراطورية
من العبادة القديمة المقدسة » . وظل السناتو يقدر ، بقرارات مهيبة
ما كان الملوك البلاد من ذكرى « آلهة » بل ان قسطنطين نفسه أدرك
اسمه بعد وفاته مع أولئك الآلهة الذين كان أثناء حياته يتبرأ منهم ويحقر
من شأنهم . ولقد قبل سبعة من الأباطرة المسيحيين دون تردد لقب
« الحبر الأعظم » وأعلامه وامتيازاته ، وهو لقب كان قد سئله الامبراطور
« نوما » Numa . واتخذ لنفسه الامبراطور أمة منس ، وأصبح
الأباطرة يمارسون سلطة مطلقة على الديانة التى تخلوا عنها نفوق سلطتهم
على الديانة التى اعتنقوها .

وأوقفت انقسامات المسيحية هلاك الوثنية (*) ودمارها ، وهون

-
- (*) نظرا لأنى استخدمت كلمتى « الوثنية » ، « الوثنيون » فى كثير من المواضع ،
فسوف أتتبع الآن تطورات هاتين الكلمتين :
- ١ - كلمة Ilayn فى اللهجة الدورية المألوفة لدى الإيطاليين ، تعنى « نافورة » ، ويسمى
الريفيون الذين يترددون على النافورة نفسها باسم Pagus Pazans .
 - ٢ - وبانتشار استخدام كلمة Pagan (وثنى) أصبحت هى وكلمة « ريلى »
مترادفتين ، واكتسب القرويون البسطاء هذا الاسم الذى أصبح يعنى « فلاحين » فى
اللغات الأوروبية الحديثة .
 - ٣ - وبزيادة عدد رجال الحرب زيادة مذهلة ظهرت ضرورة استخدام كلمة تتصل بهذا
الموضوع فدمغ كل الناس غير العاملين فى خدمة الحاكم بصفة حقيرة هى صفة
تعنيها كلمة Pagans .
 - ٤ - كان المسيحيون جنود المسيح ، أما خصوصهم الذين رفضوا تناول قربانه المقدس ،
أو قسم التجنيد بالمعمودية ، فانهم يستحقون الاسم المجازى Pagaas وقد أدخل
هذا الاسم الذى يحمل معنى اللوم والتقريع منذ عهد فالنتينيان Valentinian
(٣٦٥ بعد الميلاد) فى القوانين الامبراطورية والكتابات اللاهوتية .
 - ٥ - ثم ملأت المسيحية مداخن الامبراطورية ، وانكمشت الديانة القديمة ابان عهد
برودنتيوس فى القرى المجهولة ، ورجعت كلمة Pagaus (وثنيين) بمعناها
الجديد الى أصلها البدائى .
 - ٦ - ومنذ أن انتهت عبادة جوبيتر Jupiter وأسرته ، أصبح لقب « الوثنيين » يطلق
تباعا على عبدة الأصنام والآلهة المتعددة فى العالم القديم والعالم الجديد .
 - ٧ - أطلق المسيحيون اللاتين هذه الكلمة ، دون اعتبار ، على أعدائهم المسلمين ، ودمغوا
أنقى المرحدين بأنفسهم بهذا التقريع الظالم الذى تحمله كلمة الوثنية .

الحكام والأساقفة من جريهم المقدسة ضد الكفار لأن خطر الثورة الداخلية وما كان يقترب فيها كان خطرا مباشرا أكثر تهديدا وازعاجا لهم . ولقد كان من الممكن تبرير القضاء على العبادة الوثنية بمقتضى مبادئ التعصب القائمة ، غير أن الطوائف المتنازعة التى تبادلت السيطرة على البلاط الامبراطورى كانت تخشى ابعاد أو اغضاب حزب قوى وان كان حزبا متهاويا . وكانت الدوافع كلها تقف الى جانب المسيحية فى كفاحها ضد الوثنية - دوافع السلطة والمصلحة والتعقل ، ودوافع الاتجاهات الحديثة ، غير أن جيلين أو ثلاثة أجيال انقضت قبل أن تنتصر تلك الدوافع ويشعر بتأثيرها العالم أجمع . ولقد ظل أناس كثيرون يبجلون تلك الديانة التى استقرت تلك المدة الطويلة والى زمن متأخر فى الامبراطورية الرومانية ، رغم أنهم كانوا يتعلقون بالعرف القديم أكثر من تعلقهم بالتفكير النظمي . وكانت امتيازات الدولة والجيش تمنح لكل رعايا قسطنطين وقد طنطيسوس سواء بسواء ، كما أن قدرا كبيرا من العلم والثروة والياس ظل يستخدم فى خدمة الوثنية . وكان شيوخ السناتو والفلاحون والشعراء والفلاسفة يستمدون خرافاتهم من مصادر مختلفة ، غير أنهم كانوا يلتقون جميعا فى معابد الآلهة مدفوعين بالمولاء نفسه . وكان انتصارهم الممتزج بالازدراء والاحتقار مع أنهم طائفة مبعدة مضطهدة ، شيئا يثير حماسهم دون وعى منهم ، كما أن آمالهم قد انتعشت بفضل ثقتهم الأكيدة فى أن ولى عهد الامبراطورية وحاكمها المرتقب ، وهو بطل شاب شجاع انقذ بلاد الغال من أيدي البرابرة قد اعتنق سراً ديانة أجداده .

انتهى الجزء الأول ويليه

الجزء الثانى

اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتداند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي ٠ رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الديس مكسلى
الجغرافيا في مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوريس
الأرض الغامضة	ليسترديل راي
الرواية الانجليزية	والتر الن
المشهد الى فن المسرح	لويس فارچاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصري على الشاشة	د ٠ قدرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكداول
الموسيقى - تعبير تغمى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	د ٠ محسن جاسم الموسوي
ديلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د ٠ عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	أنور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	يل شول وأدبنيث
فن الترجمة	د ٠ صفاء خلوصى
تولستوى	الف نى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

- رسائل واحاديث من المنفى
الجزء والكل محاورات فى مضممار
الفيزياء الذرية)
التراث القامض ماركس والماركسيون
فن الادب الروائى عند تولستوى
ادب الاطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام العرب فى الكيمياء
فكرة المسرح
النحيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للانسان
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال
قريبة الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
الحصل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء
مصر ١٩٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن
العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥
- فيكتور هوجو
فيرنز ميزنبرج
سدنى هوك
ف ٠ ع ادنيكوف
هادى نعمان الهيتى
هادى نعمة رحيم العزاوى
د ٠ فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د ٠ روجر ستروجان
كاتى ثير
ا ٠ سبنسر
د ٠ ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داموس
د ٠ لينوار تشامبرز رايت
د ٠ جون شندلر
بيير البير
د ٠ غريال وهبة
د ٠ رمسيس عوض
د ٠ محمد نعمان جلال
فرانكلين ل ٠ باومر
شوكت الربيعى

- روى روبرتسون .
 هاشم النحاس
 دوركاس ماكلينتوك
 بيتر لورى
 بريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 جمعها : جون ر . بورد
 وميلتون جولد ينجر
 أرنولد توينبي
 د . صالح رضا
 م . ه . كننج وآخرون
 جورج جاموف
 د . السيد مله أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 اريك موريس وآلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيستلر
 توماس ا . هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمز
 ناجاي متشييو
 بول هاريسون
 ميخائيل البى ، جيمس لفلوا
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 بيرتون بورتر
 الهيرودين والايدين
 عجيب محفوظ على الشاشة
 صور افريقية
 المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الأعضاء من الالف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزينة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملاحق الفن التشكيلى
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اختاتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل البيلىوجرافى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث غدا
 الانتقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الاوركسترالى
 الحياة الكريمة (٢ ج)

- الشمس هزيمة (٢ ج)
قيام الدولة العثمانية
عن النقد السينمائي الأمريكي
قرانيم زرادشت
السينما العربية
دليل تنظيم المتاحف
سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الاخراج
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
الحملة الصليبية الأولى
التمثيل للسينما والقلبيزيون
العثمانيون في أوروبا
صناع الخلود
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رحلات فارتيماس
انهم يصنعون البشر (٢ ج)
في النقد السينمائي الفرنسي
السينما الخيالية
السلطة والفرد
الأزهر في ألف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر تامة
مصر الرومانية
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر
الاتصال والهيمنة الثقافية
مختارات من الآداب الآسيوية
كتب شيرت الفكر الانساني (٥ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
- الفرديوسى الطوسى
محمد فؤاد كوبريلى
ادوارد ميرى
اختيار / د. فيليب عطية
اعداد / موني براخ وآخرون
نادين جورديمر وآخرون
آدامز فيليب
زيجمونت هبندر
ستيفن أوزمنت
جوناثان ريلى سميت
شونى بار
بول كولنسر
موريس بير براير
الفريد ج. ٠ بتلر
رودريجو فارتيماس
فانس بكارد
اختيار / د. رفيق الصبان
بيتر نيكوللز
برتراند راصل
بينارد دودج
ريتشارد شاختر
ناصر خسرو علوى
نفتالى لويى
جاك كرابس جونيور
هربرت شيلر
اختيار / صبرى الفضل
احمد محمد الشنوانى
اسحق عظيموف
لوريتو تود

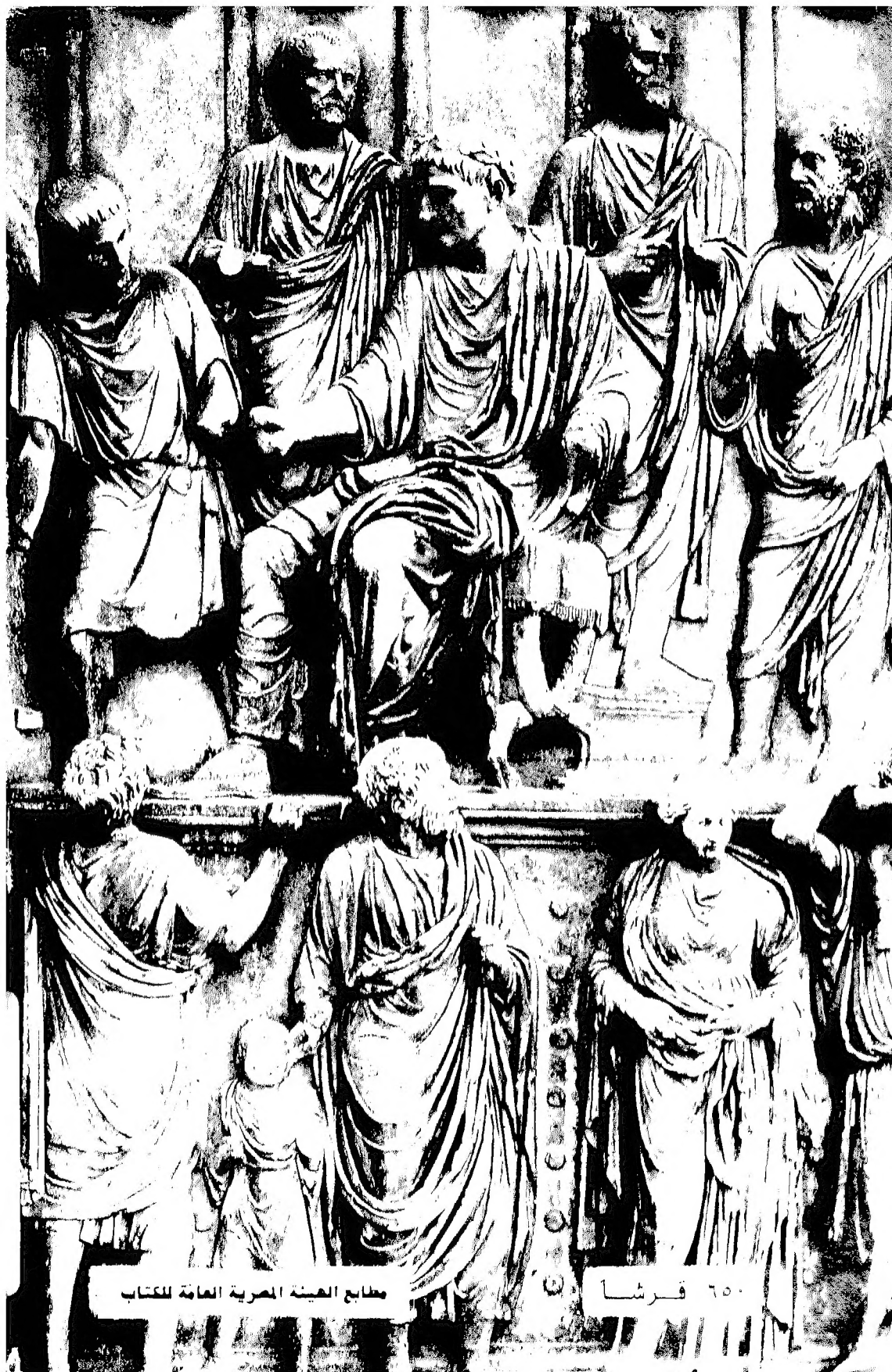
اعداد/ سوريال عبد الملك	حديث النهر
د. ابرار كريم الله	من هم النصار
اعداد/ جابر محمد الجزار	ماس تريخت
هـ . ج . ولز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
سستيفن رانسيمان	الحملات الصليبية
جوستاف جرونيساوم	حضارة الاسلام
ريتشارد بيرتون	رحلة بيرتون (٣ ج)
أدمز متز	الطفل (٢ ج)
ارنولد جزل	الحضارة الاسلامية
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقي
ج . كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليههارت	فن الماييم والبانتوميم
الفين توفلر	تحول السلطة (٢ ج)
ادوارد وبونو	التفكير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السنينما الفرنسية
جوزيف . م . بوجيز	فن الفرجة على الأفلام
بول وارد	خفايا نظام النجم الأمريكى
جورج سكتاين	بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)
ويليام هـ . ماثيوز	مناهى الجيولوجيا
جارى . ناش	الحممر والبيض والاسود
ستالين جين سولومون	أنواع الفيلم الأمريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الامير رودلف (٢ ج)
جوزيف نيدهام	تاريخ العلم والحضارة فى الصين

المراة الفرعوثية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوتاردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريسد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة يلغة السي	روبرت لافو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجممل تاريخ الادب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الادب المعاصر	ديفيد بوشبندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شسرارة
كنوز الفراعنة	ت . ج . ه . جيميز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوير
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوتنا المتعدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٢٤/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 5058 — 4



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٥٠ قرشاً